NOVEL

سليم بركات

ماذا عن السيّدة اليهوديّة راحيل؟؟

ماذا عن السيّدة اليهوديّة راحيل؟ / رواية عربيّة
سليم بركات / مؤلّف من سوريّة
الطبعة الأولى، 2019
حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU ، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 11-5460 ، الرمز البريديّ 2190-1107 ، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
info@airpbooks.com
التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 4631229 6 962+
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف: **سليم بركات** / سوريّة
الصفّ الضوئيّ: **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر** / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: **ديمو برس** / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطيّ مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-486-004-5

شخوص في هبوب الرواية

* راحيل نيسان : صاحبة حانوت لبيع اللحم .
* لِيْنا : إبنة راحيل .
* كِيْهات أوْسي : مراهق ، مغرم بلينا .
* موسى : أخو كيهات الأصغر .
* هَدْلا سليمان : أم كيهات وموسى .
* أُوْسِي : والد كيهات وموسى .
* بُوْغُوْس جَانِيْكْ : صديق كيهات ، وزميله في المدرسة .
* نعيم سَامِحْ : زميل كيهات في المدرسة .
* سمير اسْحَق : زميل كيهات في المدرسة .
* بنيامين : صديق عائلة راحيل .
* نَبْهان : شاب بدوي .
* كاتْيا : جارة عائلة أوسي .
* سُوْرِيْنْ : زوج كاتيا .
* رحيم : زميل كيهات في المدرسة .
* بِنْحاس إيليًّا : جزَّار . جار راحيل .
* حسن شكيب : حلاَّق .
* نَفِيْس سليمان : أخت هدلا .
* عطيَّة الحَنُّوش : شخص يُعتقد أنَّ له علاقة بتهريب يهودٍ من القامشلِي .
* جُوْدي كَارْ : إسمٌ غامض .
* حميد الزنابيلي : صاحب حانوت لبيع أكياس القمح والشعير الفارغة .
* حَاجُو : والد أوسي . تاجر حبوب .

* صاحب طربوش أحمر، موكل بعناوين أهل الحيِّ اليهودي في القامشلي .
* راباي يحضر إلى القامشلي كل أسبوعين مرة، في الثلثاء، لذبح النعاج للجزارين اليهود .
* خمسُ دجاجات عاديات وسادسة روميَّة حبشية .
* ديك أسود .

الفصل الأول

الحرب

«كم ستدوم هذه الحرب؟» ، سأل موسى أخاه كِيْهَاتْ ، بنبرٍ منفلت من موضع مًّا من حقده على كل شيء ، في ذلك المغيب المنشرحِ ضياءً علَّقه شهرُ حزيران الفاتك على مشجب حرارته .

«كيف لي أن أعرف؟» ، ردَّ كيهات بصوته عميقاً في النبر من بلوغه عامه السادس عشر - عامَ بلوغ الصوت في حنجرة المراهق اقتدارَه على اللعب بميزان الأصوات الخشنة .

صرخ الصبيُّ موسى ، ذو الأعوام الثلاثة عشر ، بصوتٍ فيه عويلُ المتفجِّع ، صرخةً لا كلمات فيها ، أو حروفَ ، متوحشةً ، ورمى زجاج النافذة بخرقة مبتلة بعصارة زرقاء ، فانزلقت الخرقة ، ملتصقةً بالزجاج ، على مهل .

أمسك كيهات بالخرقة قبل نزولها إلى مسطبة النافذة الغائرة في الجدار ، متفادياً أن تتسخ المسطبة . أدار وجهه إلى أخيه الصغير ممتعضاً :

- ما بك ، يا حمار؟

رفع موسى ، المتوسط الطول ، الممتلئ قليلاً ، يديه بأصابعهما الملوثة زرقة ، كالمتضرِّع إلى ما لا يَعرِف :

- أكان على هذه الحرب أن تبدأ الآن ، يا الله؟

كيهات النحيل ، الأقرب إلى القِصر ، وأخوه الصغير موسى ، كانا منكبَّيْنِ على طَلي الزجاج في نوافذ البيت بصِبْغ النِّيْلة الأزرق ، أحضر أبوهما مكعبات صُلبة منه بغية الطلاء . نُقعت المكعباتُ الصغار في ماء حتى انحلَّت عُصارةً خثيرةً قليلاً ، ومن ثَم عَمَد الأخوان إلى خرقتين من

القماشِ يبللانهما بالعصارة ، ويطليان الزجاج كي يُعتِمَ فينحجب أيُّ ضياءٍ من أنوار البيت إن أُضيئت .

في الخامس من حزيران ، سنة ١٩٦٧ ، اندلعت حرب بين العرب والاسرائيليين ، بلا سابق إنذار ، إلاَّ في الأناشيد القديمة ، المتوعدة ، المتواصلة زحفاً إلى كل مذياع عربي ، منذ تقسيم فلسطين في العام ١٩٤٧ ، وحرب ١٩٤٨ التي أنجبت هزائمَ سِماناً للعرب يرشح منها الدَّسمُ على أرُزِّ تاريخهم بلا توقُّف .

مرَّ يومان من مطلع الحرب خامليْنِ من اختناق الساعات فيهما ؛ متهدِّلَيْن تحت جناحيِ حزيران المتسكِّع على أرصفة الصيف الخشنة في الشمال السوري ، أنيقاً من تفصيل الحرارة للوقت فيه على مقاسٍ متهتِّك ، ومن تفصيل أُمِّه الهواءَ له على مقاسٍ حَرِدٍ ، مستثار بأناشيده الغُبارِ ، قبل أن يهدأ ، دائماً ، في المغيب .

سيكون سَعْداً ، ورحمةً ، لو استمر ذلك الهواء على غضبه مقتحماً مساءَ الشمال وليلَه . لكن الأمور مضبوطة ، محسوبة بقياس القانون الجغرافي : نهارُ الصيف غاضب الهواء بزوابعه الغبار ، وليلُه راكدُ الهواء ، منكسر كنوم النائمين على سطوح البيوت ، أو في باحات بيوتهم ، بأفواه مفتوحة من ضراوة الخمود الموافق طباعَ البعوض اللَّاهي .

في اليومين الأولين من خروج الأخبار صراخاً من قرع الطبول في الأناشيد ، وهديراً من صنوج المسيرات العسكرية ، يكاد يمزِّق القماش الأصفر الخشن في واجهة المذياع الأسود الصندوق ، في بيت أهل كيهات ، ساد مدينة القامشلي ارتباك أقرب إلى الحيرة ، لا تدري دوائرُ الدولة ، المنحدرة إلى وَسَن القيلولة في الصيف ، كيف تتصرَّف . أتأخرت التعليمات العسكرية في الوصول من العاصمة إلى ثكنة الجيش في الشمال السوري ، العالقِ حواشي المعطف بسياج أسلاك الحدود التركية؟ ربما . لا تأكيد .

الحرب ، بإرتدادات موجها ، عموماً ، تبلغ الأمكنة البعيدة متراخيةً . لكن حين تمسُّها تنفر الأمكنةُ مذعورة من وقائع يتخالط الملفَّقُ فيها بالحقيقي ، وينتفخ الخبرُ ، المتواتر على الألسنة ، بنفخ البُعد فيه ، حيرةً في العقول تتحول إلى تأويلَ ، وتخمينات ، وافتراضات ، لا يمكن جمعُ زُبدتها في مِقلاةٍ إلاًّ مقلاة المذياع بأناشيده الواضحة انتصاراً حتى التبشير بالرماد كفردوسٍ ، والتبشير بمحوِ الأعداء كيقين .

نعمً . في اليوم الثالث اتَّضحت صورةُ الأوامر مضمومةَ الأجزاء بعد تفكُّك :

يُمنع التجوال ليلاً .

تُمنع التجمعات .

تُستنفر ثكنة الجيش الوحيدة ، على الأرض المرتفعة شمال المدينة .

تُستنفر الشرطة بدورياتها في الشوارع نهاراً وليلاً .

تتوزع المخابراتُ منعطفاتِ الطرق ، في ثيابها المدنية .

تُقطع الكهرباء عن مصابيح الشوارع .

تُستدعى الناسُ إلى حمل البنادق تعيرها لهم مراكزُ مستحدثةٌ على عجلٍ . كل بندقية بأربع طلقات ، على أن تقتصر الإعارة على مريدي الحزبِ الوحيد الحاكم والموظفين .

تُطلى نوافذُ البيوت بلونٍ أزرق ، داكن ، يمنع طائرات الأعداء من قصف النُّور .

تُغلق المقاهي ، ودُوْر السينما .

لا شيء أكثر ثقلاً ، في وطأة تلك الحرب ، على قلب الصبيِّ موسى من إلغاءِ دُور السينما عروضَها .

شارلي شابلن ، الرجلُ المكتملُ الوجود بلونين لا غير ، هما الأبيض والأسود ، كان حاضراً بصورته في المدينة ، على ملصق كبير من الورق

مثبَّتٍ على لوح مسنود الظهر إلى حائط ، فوق طوار الشارع ، على الجانب الأيمن من المدخل إلى دار سينما شهرزاد الصيفية ، ذات العروض المكشوفة على السماء مساءً .

أُعلن عن عرض فيلم شابلن «حُمَّى الذهب» ـ هكذا كانت ترجمة العنوان ـ قبل أسبوع من وقوع الحرب . صادف الموعدُ المعلن مع اليوم التالي للصنوج هائجةً في كل مذياع . خارت ركبتا موسى أسى إذ أبلغه أخوه كيهات : «لا سينما . لا شارليً شابلن» .

كان قلب موسى قد أكمل سبعين دورة على مدار اللهفة لحضور ما أنجزه الأمريكي الصامتُ رسماً بدهان الأصوات الصامتة على قُماشة الأبصار .

«حُمى الذهب» : شابلن جالس إلى المائدة وسكين في يديه ، وحذاء في الصحن أمامه . عنوان الفيلم لا يهم موسى . تهمُّه الصورة . تهمُّه الحركة المتدرجة من انزلاق شابلن بقدميه عند المنعطفات راكضاً ، كأنه يوقف قدميه بمكابح سيارة مسرعة لكنها لا تُكبَح . تهمُّه السرعة الطريفة في إيقاعها من براعة آلات التصوير القديمة القصيرة الأشرطة .

الشارب . العصا . البنطال الواسع . الصُّدرة الضيقة ، والسترة القصيرة . القبعة القادرة على إنتاج الفكاهة مُضَاعَفةً . الحذاء الواسع . المشيُ بقدمين منفرجتين ، والضحكة التي لا يسمعها موسى من عمق الفيلم الصامت ، بل يسمعها من شخصه الآخر ماشياً ، في الفيلم ، إلى جوار شابلن حاملاً له صُرَّته .

يستطيب كيهات مصاحبة أخيه إلى السينما مذ كان موسى في التاسعة من عمره . يحب انفعالاته العفوية صاخبةً في الضحك المجلجل داخل القاعة . يحبُّ ضربَهُ الأرضَ بقدميه في جلسته على الكرسي ، وتصفيقه ، وصفيرَه المتقَنَ ضغطاً بالسبابة والإبهام على شفته السفلى

معتصَرةً كفم السمكة . ويحب أيضاً تذمُّر الحاضرين مَشَاهد الأفلام من أخيه ، طالبين منه السكوت ، والهدوء ، فلا يستجيب الصبيُّ ، بالعناد قوياً فيه ، مسترسلاً في صَرْف سلوكِ عقله اللامحسوس بردود من أفعال جسده المحسوس . يردُّ على الصارخين به أن يسكت بصراخ ، طالباً أن يَسْكتوا هُم ، وعلى وعيدهم بإسكاته عنوةً أنه سيُسْكتهم عنوةً ـ هوَ ابن الثلاثة عشر عاماً .

موسى عنيد . عصبيٌّ . مُتَحَدٍّ . لم يفهم غدرَ الحرب به بإلغاء دار السينما عرضَ فيلم شابلن . كان يحمحم بفم مغلق وهو يطلي نوافذ البيت بالعصارة الزرقاء كي لا يكتشف الأعداءُ مخابئ أسلحة الكون الفتَّاكة تحت أرض البيوت اللَّبِنيَّة في الشمال السوري . عُصارة المكعب الأزرق ستموِّه على الأعداء رصدَ طائراتهم للأنوار فتنجو من القصف . مكعباتُ النِّيْلة الصغارُ تُخلَط بطحين الكلس يعد تمييعها في ماءٍ ، لطلي الجدران في البيوت . تُزاد مكعبات النِّيلة في نقيع الكلس إن رغب مَن يدهن بيته بلونٍ أزرق قويٍّ ، وتُنتَقَص إن رُغِبَ في لون فاتح . لا بيتَ في الشمال السوري ينجو من خلْط الكلس بالنِّيلة الزرقاء مخفَّفةً ، أو طاغيةً ، أو ملطَّفة جداً .

شابلن مُفضَّل عند موسى على نحوٍ ساحر . كيهات يصحبُه إلى أفلام الغرب الأمريكي حيث المجابهات بين الأخيار والأشرار بالبنادق ، وحيث المطاردات لاستعادة الأبقار من لصوص الأبقار . ويصحبه أيضاً إلى مغامرات الجسورين العشاق من أهل العالم البعيد ، وكذلك إلى تهريج الصناعة المصرية للفكاهة على مقاس من الأداء كأن الفيلم لا يُرى مشهوداً بالعيون ، بل يُسمع من باطن مذياع ، في عصرِ مَا قبل ظهور الصور مرئيةً في السينما ، متحركةً . كيهات لا تعنيه الأفلام إلاَّ بوصفها أفلاماً تستحوذ الصور الناطقةُ ، والصامتةُ ، مرئيةً ، على الحكاية ، بعدما كانت الحكاية تُروى أو تُقرأ . لكن موسى بعينيه سحرُ شابلن تحديداً .

موسى يجاري أخاه انجذاباً إلى كل فيلم ، مع ميل كبير إلى التاريخيٍّ القادم ، على بساطه الأمريكي الطائر ، من مساكب شلالات العهدْينِ القديم والجديد ، من سردهما تاريخَ البطولة ، وتاريخ الإيمان ، في بهرجٍ من الصور ملوَّنةً تُحاكي المُعجزةَ إن كانت المعجزاتُ ملوَّنةً .

أفلام شابلن لا تُكلِّف كيهات ترجمةً متواصلة لأخيه . في الأفلام الأُخَر يكون عنقُه ملوياً ، بفمٍ قريب ، أبداً ، من أُذن موسى ، في ظلام الصالة ، ينقل إليه ، هامساً ، ترجَمةَ العربية للمحاورات إلى اللغة الكردية ، مذ لا يتمكن موسى من اللِّحاقِ قراءةً بالكلمات على حواشي الصور .

ضاع شابلن في الحرب بين العرب والإسرائيليين ، بل ضاع الصبيُّ موسى ، الذي قذف النافذة بالخرقة مبلَّلةً بالصبغ الأزرق ، حقداً على كل شيء :

- مَن بدأ هذه الحرب ، يا كيهات؟

«أنا» ، ردَّ كيهات أُوْسي النحيف ، المتطاول الوجه ، على أخيه .

«كيف يوقفون حرباً؟» ، سأل موسى أخاه القصيرَ الشعر الأسود ، ذا العينين العسليتين .

«لا يوقف الحربَ أحدٌ» ، ردَّ كيهات بصوتٍ لا مبالٍ بأسئلة أخيه ، وهو يكمل طليَ الزجاج بالصبغ الأزرق .

حدق موسى الفاتح السُّمرة ، إلى أخيه متوجِّساً ، أو مصعوقاً من ذلك الرد :

- أتعني أنْ لا أفلام بعد الآن؟

«أعْني : لا أفْضَلَ من الحرب كي نتوقف عن الذهاب إلى المدرسة» ، ردَّ كيهات . أردفَ : «الحرب ستنقذنا من المدرسة . تفكَّر في الأمرِ مستدركاً : «سيبقى أثر الحرب حتى لو توقفت ، لذا لن تفتح المدارس أبوابها بعد ثلاثة أشهر» .

«ما الأفضل ، يا كيهات : أن لا نَحْضَر أفلاماً ، أم لا نذهب إلى المدرسة بعد الآن؟» ، سأل موسى أخاه ذا الأنف المستقيم ، والشفتين المتنافرتين ـ العليا الرقيقة ، والسفلى الممتلئة .

«المدرسة ، يا حمار . أفضلُ شيء يحدثُ للبشر أن لا تفتح المدارس أبوابها» ، ردَّ كيهات .

«هل سنموت في هذه الحرب؟» ، سأل موسى أخاه ، فردَّ المراهق :

– إسألْ مذياعَ أبيك .

أُوْسِي ، والد كيهات وموسى ، كان لا يغادر غرفته ، بالرغم من حماوة الغُرف مساءً في قيظ حزيران . العائلة تستروح بالفراغ الراكد في باحة البيت المسورة ، حيث ينام الأربعة في الصيف ، عادةً ، على الأرض الحصى ، طَلَباً لنسائم مشقوقةِ القمصان عمَّا يُنعش . لكن أوسي لا يستطيع جرَّ المذياع معه من الغرفة إلى باحة البيت المسور بجدار عالٍ . الوصلةُ قصيرة بين المذياع ومُوْصِل الكهرباء في الحائط . صارحَ زوجتَه هَذْلا بالرغبة في شراء مذياعٍ صغير ببطاريات ينقله معه أنَّى ذهب ، فعارضتْهُ زوجته .

إنها لا تريد سماعَ ذلك الصخب من الآلاتِ الطبول ، والصنوج المرافقةِ زمجرةَ الأناشيد ، وجعير البيانات العسكرية عن تدمير أرتال الأعداء بشراً ، ودباباتٍ ، وطائرات ، وتنانينَ ، ورخَخَةً ، وحيتاناً من حديد لم تشهد حروبُ الوجودِ ظهورَ أمثالها في تاريخ الأحياء ، وتاريخ الموتى .

الأشياء ، والبشر ، والسماء المعتَّقةُ نبيذاً رمادياً في دِنانِ مطلع الصيف وخوابيه ، كانت ملجومةَ الوجود توجُّساً من قواعد الحرب غير المكفولة ، إلاَّ الهواءَ نهاراً ظلَّ على حاله عنيفاً ، عنيداً ، أميناً لميثاقه مع الغبار أن يحفظ للغبار سطوتَه هبوباً على البيوت ، والطُّرق ، في الاتجاهات كلها ، مُذْ هواءُ الشمال لا يَرْهن هبوبَه إلى جهة واحدة بذاتها .

ثقلٌ كسماءٍ مصهورة رصاصاً غطى الأرض ، في المدينة ذات الشوارع المتوازية ، والمتقاطعة كرقعة الشطرنج ، بناها الفرنسيون في بواكير السنين من القرن العشرين . وقد ارتَضَت المصادفاتُ أن يقع بيت عائلة أوسي في آخر الشارع الموازي للحيِّ اليهودي ، إلى الجنوب الغرب منه ، حيث غدا المكانُ المتراصف بيوتاً من اللِّبِنِ أكثر انكماشاً بحوانيته العريقة ، مُذ شارك الهواءَ الغاضب نهاراً ، والراكدَ ليلاً ، رجالٌ من المخابرات بمسدساتهم الظاهرة تحت القمصان المرخية على أحزمة البناطيل ، جوالون على دراجات ، وفي مركبات منتفخة الهياكل المصنوعة من القماش الجاسئ الرمادي المغبرِّ ، مسرعةً بلا سبب ، مستنفَرَةَ الأبواق تحذيراً للمخلوقات اللامرئية كي تبتعد . وظهر مع المخابرات ، في الحي ، دَرَكٌ في دوريات من نفرَيْن أو ثلاثة ، تجوب الشوارع رصْداً .

أقفلت الحوانيت في الحي اليهودي منذ البزوغ الأول لأخبار الحرب على المدينة . لازمَ اليهود بيوتهم لا يبارحونها . بيوت ، وحوانيت من عمر المدينة تراصَّت متجاورةً بقاطنيها من الدِّين الواحد ، منذ البزرة الأولى عمراناً في تربة ذلك الشمال .ترعرعت البزرة . أنْتَشَتْ . نَمَتْ . تفرَّعت سيقانها فغدت موضعاً قويَّ الأسس بقاطنيه من الكرد والعرب ، والسريان ، والأرمن ، والأشوريين ، واليهود ، تحت ظلٍّ اسم هو قامشلي .

في المكمن الوازن من مركز المدينة ، فانتشارها تمدُّداً ، انبثق الحيُّ اليهودي بحوانيته المهرجانات من أعشاب العطر مجلوبة من بساتين التراب السحريِّ ، ومن التوابل الأفاويْهِ محصَّنةً بأسرار المذاقِ في خيال النبات ، وكذا الراتَيْنَج ـ الصمْغ المتيبِّس لتنكيْه الطهوِ كُشطَ عَن جروح الشجر من محميَّات الآلَهة ، في أقاصي الأرض وأدانيها .

أقمشة تغار منها الأقمشة ملفوفةً اسطواناتٍ ، أو منشورة على المساطب داخل الحوانيت ، بهيَّةٌ كأقاصيص المجيء بها من أصقاع الشرق

الأبعد ، المحترفِ غزْل الخيطان ، وترتيب النسيج إحياءً لأساطير اللون معقولاً أو لا معقولاً . تُمُورٌ عسلٌ ، سُودٌ ، ذهبية ؛ متقشفةُ اللحم على حلاوة مُصفَّاة ، أو مكتنزةُ اللحم حول النوى في ثمرتها ، على حلاوةٍ طائشةِ الإمتاع في الأفواه . دِبْسٌ من مخطوف عناقيد العنب عن عرائش السماء ، ودبسٌ من ثمر الخَرُّوب يتدلى على غصونه قروناً كاللوبياء والفول الأخضر . مُربَّياتٌ تين ، وسفرجل ، وباذنجان صغير أَحْكَم قطْرُ السكَّر حصاره عليه فأنضجه خفيضاً في الحلاوةِ مستعْذَبةً . مربّى كرز ، ومشمش ، وتوت أبيض وأحمر . مربّى وردٍ دائخٍ غَنْجاً من مناجاة «كبش القَرَنْفُلِ» فيه .

ضجيجٌ وعجيجٌ من الحلاوة في حوانيت السوق اليهودي . مخلَّلات ممَّا يخطرُ ببال الخَلِّ أن يحفظَ ، ومِمَّا لم يخطر على باله . كلٌّ هذا يلحقه ـ أو يتقدَّمه ـ التبغُ سيدُ الدخان المنعشِ رئاتِ أهل الشمال ، مجلوباً من معاقل التبغ القوية في تركيا ، وفي سنجار العراق ، ومرتفعات أواسط آسيا ، مفتَّتاً في الأكياس ، أو مقطَّعاً بالشفرات الرهيفة شرائط ، أو أوراقاً على حالها عِراضاً ، يتصرف بها الشُّراةُ المدخنون كيفما شاؤوا .

تبغٌ من سَكْب الألوان حقائقَها في نسغ نبتتها : صُفراً ، ذهبية ، بُنِّيةً داكنة أو فاتحة ، وربما على سوادٍ مختلط بالبني . تبغٌ منقَّى من العيدان العروق أعلى سعراً لنقائه ، أو غَيرِ نقيٍّ من العروق أدنى سعراً ؛ سلسُ الدخان نَشْقاً ، أو ثقيل . لا يهم . التبغ تبغ ، يهبُ الرئاتِ خَدَرَ العافية الروحية باحتراقه . والرئاتُ ، في الشمال السوري ، تفضِّل نقاءَ دخان التبغ صفيقاً ، أو رقيقاً ، على نقاء الهواء البخس الثمن ، بل الذي بلا ثمن إلاَّ ما تدفعه أرواحُ المقيمين لقاءَ تبعات الوجود في شمالٍ معتصَرِ الأحشاء بقوانين استملاك الدولة للأرواح .

يحتاج العبور ، من بيت أوسي إلى الشارع الرئيس في السوق مخترقاً

حوانيت اليهود ومنازلهم ، انعطافتين من موقعه في نهاية الشارع الموازي . ما يلي ذلك البيت ، من امتداد الأرض جنوباً ، ليس سوى عراء سهلٍ ، منبسط ، بمسالك ترابية فيه إلى حقول القمح ناضجَ السنابل تسمعُ نداءَها ـ نداءَ ساحرات الخلجان السِّيرِيْنات ـ حصَّاداتٌ لا يُعرف متى يُطلق سراحُ آلاتها الهادرة ملبِّيةً الإغواءَ الغناءَ .

إلى الشرق ـ الموازي بشارعه شارعَ بيت أوسي في الجنوب من نهاية السوق ، حيث مَطلعُ العراء المديد ـ حانوتان لبيع اللحم متجاوران ، يقع كل حانوتٍ منهما على مدخل بيت مالكه ببوَّابة على الشارع ، وباب خلفي إلى ساحة المنزل .

مكتبة

بوَّابتا الحانوتيْنِ كانتا متشابهتين بأخشابهما المتقادمة ، العتيقة ، العِراض الألواح ، المصفَّحة بالكثير من مسامير حدوات الخيل المفلطحة الأعقاب ، المؤنسة رنيناً من قرْع حوافر بهائم عربات الأجرة الخمس ، في المدينة ، على الشوارع الإسفلت ، نقْلاً لمن يريدون أن يرفِّهوا عن أرواحهم ، جلوساً على مقاعدها ذوات الزقزقة في جلودها ، المشدودة ، كأنما تسكُنها أرواح العصافير مغرِّدةً .

الحانوت قبل الأخير ، في نهاية الشارع ، يملكه بِنْحَاسْ إيْلِيَا . يليه إلى النهاية الجنوب ، على مداخل العراء ، حانوت السيدة راحيل نيسان . حانوتان إن أُقفلت بوابتاهما سُدَّتا بقضيبين حديدين ، ثخينين ، طويلين ، ذَوَيْ عقبيْنِ كُرَتَيْن ، ورأسين مثقوبين . يُمرَّر رأساهما في حلقات ستٍّ مثبَّتة إلى كل بوابة ، ثم يوضع قفل في ثُقب رأس القضيب الواحد ، ضخمٌ ، يفيض بحجمه عن راحتيْ يدين إن طوَّقتاه .

زينت راحيل بوابة حانوتها بهيئة شمعدان سباعي الحواملِ ، رُسِمَ شكلاً بالمسامير العِراض ، المفلطحة الأعقاب ، اسودَّت صدأً . وزيَّن بِنْحاسْ بوابة حانوته بنجمة من مسامير حدوات الخيل سداسيةٍ ، ناقصةٍ ،

من جانبيها العلويَّين ، مثلثَيْنِ على نحو لن يخمِّن معنى ذلك سوى بنحاس نفسه ، فغدت النجمةُ مخروطاً منتصباً على قاعدة حادة ، مسنونة كنصل السهم .

مرَّاتٍ كُثراً كلَّف أوسي ابنه كيهات بشراء اللحم من راحيل ، مثلُه هو اشترى منها مراراً ، ومن زوجها نيسان الراحل بعد مرض في المفاصل ، قبل ثلاث سنين ، فورثت حانوت اللحم تحيا برزقها ورزق ابنتها لينا منه . إمرأة لا تجادل في اقتطاع اللحم الذي يريده الشاري ، متساهلة في بتر أجزاء من ضأنها المذبوح حتى لو جاور الجيدُ ، الرَّخْصُ الطريُّ ، من أعضاء الذبيحة أقساماً عضلية من جسدها . لا بأس أن تبيع ما يتصل من نهايات الأضلاع بأصول الفخذ . الذبيحة جسدٌ واحد ؛ سعرٌ واحد لأعضائها كلها ، لا فضل لعضوٍ على غيره .

عَدْلٌ من راحيلٍ في مساواة اللحم . أوسي استطاب منها تلك المساواة ، على عكس الجزاريْنَ في السوق المسقوفة ، المختلطة جلوداً ، ولحوماً ، وخضاراً ، وفاكهة صيفية ، أمام المسجد الكبير في المدينة ، حيث لكل مقام من لحم الذبائح سعرٌ يخصُّه .

راحيلُ لا تبيع لحم البقر ، أو العنز . اختصاصُها الذبائحُ الضأنُ من نسل ذلك الكبش المرفَّه الصوف بياضاً في رسم الفداء الربانيِّ ، معلَّقاً بإطاره المذهَّب إلى الجدار ، فوق منضدة تقطيع اللحم الخشبية ، السميكة ، قُدَّتْ من جذع شجرة ، وأوقفت على أربعة جذوع اسطوانية ، ضخام ، لا يهزها ساطورٌ في كسره العظام بما عليها ، وفرم اللحم هَبْرةً بالساطور .

كبش ناصع البياض في الرسم يمسك بقرنه الأيسر ملاك ، ليفتدي من ابراهيم ابنَه اسحاق . كل ضأن تبيع راحيل لحمه هو من نسل ذلك الكبش : الأمرُ مؤرَّخٌ بالألوان مزمجِرةً نقاءً في تدرُّجها ، من السماء إلى صندل النبيِّ الأكبر . الحقيقةُ في الرسم هي اللون .

في ذلك المساء الثريّ ضياءً تشرَّبتْه الأرضُ من شمس حزيران في عناصرها الصُّلبة ، والرخوة ، حيث انكبَّ كيهات وموسى على طلي النوافذ بعصارة النِّيلة ، حدَّق أوسي إليهما ملياً ، معقود اليدين خلف ظهره ، قبل أن يسأل أكبرَهما :

– سنشتري لحماً من حانوت اليهودية ، غداً صباحاً ، يا كيهات .

«حانوتها مقفل ، يا أبي» ، رد كيهات .

«اطرُقْ باب البيت . قد تكون محتفظة ببعض اللحم . عندها ثلاجة» ، عقب أوسي .

«لم أشمَّ رائحة لحم قرب حانوتها» ، قال كيهات .

«أباعت كل ما عندها من اللحم قبل الحرب؟» ، تمتم أوسي . تنبَّه إلى شيءٍ فاته : «قلتَ لم تشم رائحة اللحم» .

«نعم» ، أكَّد كيهات .

«أتشم رائحة اللحم قرب حوانيت الجزاريْنَ؟» ، سأل أوسي ابنه .

«أشم اللحم كلما اقتربت من حانوت المرأة اليهودية» ، رد كيهات .

«أمررتَ قرب حانوتها؟» ، سأله أوسي .

لم يُجبْ كيهات على سؤال أبيه . استرسل في طليه زجاجَ النافذة بالصبغة الزرقاء .

اقترب أوسي أكثر من أبنيه ، داخل الغرفة الشمالية من باحة البيت ، الحاوية ثلاث غُرف ، إحداها شرق الباحة للأب وزوجته هَدْلا ، والثانية شمال الباحة للإبنين ، والثالثة غرب الباحة فيها سرير ، وأكياس مؤنٍ من اللزوم المنزليِّ حبوباً كالعدس ، وبُرغلاً ، وطحيناً ، وسمناً ، ودبساً ، وتمراً مجفَّفاً .

«أمررتَ بسوق اليهود؟» ، سأل أوسي ابنه كيهات .

«استطلعتُ أوَّله ، من الجنوب الموازي لبيتنا» ، رد الشاب الصغير .

«بات مليئاً برجال المخابرات ، والشرطة» ، عقَّب أوسي المتوسط الطول على ردِّ ابنه .

«ماذا يستطلعون هناك؟» ، سأل كيهات ، ذو العينين العسليتين ، أباه الأقرب مثله إلى نحافة .

«يستطلعون حركةً اليهود» ، رد أوسي ، الأقرب البياض إلى سُمرة ، باقتضاب .

«ماذا يخافون من يهود قامشلو أن يفعلوا؟» ، سأل كيهات أباه ، فانبرى الصبيُّ موسى متدخلاً :

- يخافون أن يسرقوا الأفلام المصرية .

«ما هذه البلاهة؟» ، تمتم كيهات .

«أنت أبله» ، قال موسى لأخيه باعتراضٍ على وصفه له .

«اسكت ، يا حمار» ، عقب كيهات على استياءً أخيه الصغير .

«اسكتْ أنت» ، رد موسى ، رافعاً سبابة يده اليسرى المطلية بالصباغ الأزرق ، أمام وجهه .

نفخ كيهات نفساً قويّا على أخيه في ردٍّ دُعابةٍ .

ابتسم الأب ذو الشعر الأسود مقصوصاً بعنايةً الحلاق ، متماوجَ الغرَّة المرفوعة إلى أعلى :

- ماذا سيفعل يهود قامشلو بالأفلام المصرية إن سرقوها ، يا موسى؟

«مصر بلا أفلام مصرية ستخسر الحرب» ، رد موسى .

«أكل أفلام مصر موجودة في قامشلو؟» ، سأل الأب ابنه ، فرد الصبي الواسع المنخرين ، ذو القميص المخطط أصفر وأزرق فوق بنطال بنِّي :

- كلها في قامشلو .

طوَّق أوسي خاصرتيه ، من الجهتين ، براحتي يديه كحزام ، فوق ردائه الرقيق الكاكي ـ ثوب الصيف الواسع إحاطةً بالأجساد لا يردُّ عنها الهواء

نفاذاً من أعلى طوق الثوب ، عند الصدر ، ومن أسفل حواشيه ، إلى الجسد بنسائم منعشة ، أو تلطيفاً للعَرَق على الجسد في الصيف المكين في تذويب الخلايا عَرَقاً . سأل ابنه بنبرٍ فضولٍ من صوته الخفيف البحَّة :

– ما علاقة الأفلام المصرية بخسارة الحرب أو بربحها ، يا موسى؟

– أليست الحروب لتعطيل عروض الأفلام في دور السينما؟

نظر كيهات إلى أبيه ذي الشاربين المعتدلين ، المستقيمين ، والذقن المدبَّب في وجهه الصغير ، حاملاً طاسةَ النيلة المذوَّبة ، وهو يبتعد عن النافذة :

– موسى خبير في شؤون الحروب .

خرج أوسي من الغرفة الشمالية ، متجهاً إلى البئر في الساحة المغمورة كلها بحصى متخالف أحجاماً من نهر جغجغ . توقف مراقباً زوجته هدلا ذات الوجه المدور ، والفم المبتسم ، تفرغ ماءً في الجدول الصغير محفوراً بين الحصى ، باستقامة ، إلى حقل الورد المستطيل ، الرفيع ، لصق السور الشرقي بطول أربعة أمتار . صفيحةٌ معدنٌ هي دلوُ البئر ، من فوارغ صفائح المازوت منظَّفةً ، مزودة بقضيب ثخين من الخشب مثبَّتاً بالمسامير من جهتين في الصفيحة الكبيرة ، رُبطَ إليه رِشاءٌ متصل بعتلةِ حديدٍ دائرية تسهِّل جذبَ الماء من البئر ، المطوقة الحواف بحجارة مرصوصةٍ على ارتفاع متر .

«لا تُكثري سقيَ الورد ، يا هدلا» ، قال أوسي لزوجته ، ذات الإثنين والثلاثين عاماً ، الممتلئة ، البيضاء الجلد على سمرة من لفح الشمس .

«الشجر يعطش مثلنا في الصيف» ، ردت هدلا المحلولة الخِمار الموصِليِّ ، الأسود بدوائر حُمر ، عن شعرها الأسود سَبْطاً .

«الورد ليس من نسل الشجر» ، قال أوسي وهو يُخرج علبة تبغ من نوع «بافرا» ، من جيب في صُدرة ردائه الواسع ، الطويل حتى صندله الجلد .

دسَّ لِفافة بين شفتيه في فمه الكبير . همَّ بإشعالها من قدّاحٍ معدنٍ يُضغط طرف غطائه بالإبهام ، فيرتفع الطرفُ المقابل عن طرْقةٍ تقذفُ الشرارة إلى الفتيل المبتل بالكاز ، فيشتعل الفتيل .

«أعطني واحدة» ، قالت هدلا لزوجها ذي السبعة والثلاثين عاماً ، بصوتها العاديِّ النبر .

«هذه اللفافة تكفينا نحن الإثنين» ، عقَّب أوسي . ارتشفَ نفَسين متتاليين من اللفافة . مدَّ يده بها إلى زوجته ، التي استنشقت بدورها نفَساً ، ثم أبقت اللفافة محجوزة بين شفتيها شبه المبتسمتين . وضعتِ الدلوَ الصفيحَ على الحافة العريضة لحجارة طوْقِ البئر ، بعد إفراغ الماء في الساقية .

جرى الماء بخريرٍ خافت ، حتى ولج حقل الورد الأحمر ، والأصفر ، متوزِّعاً من تلقائه علىً أنحاء الحقل ، المستويَة بعناية مِعزق هدلا ، التي كلمت زوجها من زاوية فمها ، من غير أن تطلق سراحَ لفافة التبغ :

– مِن نسْلِ ماذا هو الورد؟

«ليس من نسل الشجر ، يا أمرأتي» ، رد أوسي .

«قلتَ ذلك» ، عقَّبت هدلا . أغمضت عينها اليسرى ، في المغيب المطليِّ الحقائق بدهانٍ من بقايا ضياء شمس حزيران ، متأملةً باليمنى خفْقَ المعنى المكسور الجَناح في كلمات زوجها . تنشَّقت نفَساً من دخان اللفافة ، وأعادتها إلى أوسي .

تناول أوسي اللفافة من أنامل زوجته ، محدِّقاً إليها بدوره :

– ما معنى أن تغمضي عينك اليسرى في النظر إليَّ؟

«لا أنظر إليك . أنظرُ إلى الورد خلفي» ، ردت هدلا في ثوبها الرمادي الواسع ، محاطةَ الخصر بوشاح مزركش ، معقود ، مرخى الحواشي حتى ركبتيها .

أبقى أوسي بصَره عليها . تقرَّى المنطقَ في بصرها المتجه إليه ، فيما ترى حقل الورد خلفها .

«كل نبات من نسلِ نبات آخر . فما أصل نسل الورد إن لم يكن نباتاً؟» ، سألت هدلا ، ذات العينين العسليتين ، زوجَها .

«من نسل الجن» ، رد أوسي بتلقائية . أوضحَ : «حيث تمرُّ الجنُّ ينبت الورد» .

«أهذا مسجَّل في دفاتركم؟» ، سألت هدلا زوجها .

«دفاتر مَن؟» ، ردَّ أوسي بسؤالٍ على سؤالها .

«دفاتر مَصْلحة الكهرباء» ، قالت هدلا .

ابتسم أوسي . هو موظف في «دائرة مَصْلَحة الكهرباء» ، كجابٍ . عِصْمتْ المارديني ، أحد المصادر القوية في بيع الحبوب وشرائها ، أمسك به من كتفه ، قبل سبع سنين ، أمام بصر أبيه حاجو ، هامساً بصوت واضح :

- يجدر بك أن تكون موظفاً . دَعْكَ من العمل الموسميِّ ، يا أوسي .

كان المارديني يعني أن أوسي خليق بعمل ليس من تدبير المواسم للأعمال ، كمعاون لأبيه في تجارة القمح والشعير صيفاً لا غير ، تنقطع الأعمالُ بعده حتى الصيف اللاحق .

«أعرف صديقاً نافذاً في مصلحة الكهرباء» ، قال المارديني تلميحاً أنه يعني ما قال ، ويستطيع تحقيق شيء لأوسي من تفضيله وظائف الدولة على العمل الحرِّ الموسمي .

بتدبيرٍ بسيط جمع المارديني بين أوسي وصديقه علي الحَنُّوش ، بحضور أبيه التاجر حاجو ، في المقهى ، على أقداح كُثر ، متعاقبة الحضور على صحفة الصبيِّ الساعي بالأقداح إلى الشاربيْنَ . وبتدبيرٍ أبسط راجعَ علي الحنوش مديرَ مَصْلحة الكهرباء مبايعاً أوسي للتوظيف .

منذ سبع سنين ، حتى مطلع الأيام الثلاثة الأُوَل من حربٍ أرهقت

جدرانَ مذياع أوسي الصندوق الأسود بعين حمراء فيه ، بات الرجل جابياً في «مصلحة الكهرباء» ، يعلِّق الحقيبة الجلد ، العريضة ، المضغوطة جيوباً داخلية فيه على جيوبٍ ، إلى عاتقه ، دائراً على البيوت بدراجته الهوائية ، الثخينة العجلتين من نوع «هيركوليس» ـ ابنِ الجبابرة العضليِّيْنَ ، يستحصل منها ثمن ما أهرقه أهلُها من ضياءٍ يسيل كالماء في الأسلاك إلى مصابيحهم ، من منابعه وآباره التي تستخرج منها الدولةُ النُّورَ بدِلاء .

فاتت أوسي الجنسيةُ السورية ، كآلاف الأكراد لم يستحصلوها مُذ تجاهلهم التشريعُ في اعتراف الدولة ببشرها القاطنين أرضها . مطلع العقد السادس من القرن العشرين ، حَفَر قانون التجنيس لنسلٍ من الكُرد فراغاً في قَدَرهم عُلِّقوا فوقه بخطاطيف الإنكار الحديدية . صُنِّفوا أغراباً وافدِيْنَ إلى أرضٍ لم يغادروها قط .

لا يهمُّ ذلك أوسي كثيراً إلاَّ حين يتذكر ، بين وقت وآخر ، جدوى إرسال الأولاد إلى الجامعات في المدن الكبار ، أو الدول المحيطة بدولته . هو من غير جنسية ، إلاَّ بورقة قيد نفوس للتعريف بوجوده الطارئ ، مع كلمة تحذير واضحة في الورقة : «الجنسية : مكتوم» . لا يهم . له حظوةُ جابٍ في دائرة من دوائر الدولة وهبتْها له «قوانين» نفوذ الأفراد الأقوياء ، المزاحِمة قوانينَ الدولة . ولأوسي راتِبٌ شهري ، ومقامٌ من التمايُز يجيز به لنفسه ارتداءَ قبعة من القش صيفاً ، وقبعة مضلَّعة من الطراز التركي بسقيفة قصيرة فوق الجبين ، ونظَّارة سوداء ، أو بُنية داكنة وِقاءً من الشمس ، وربطة عنق أيضاً .

«دفاتر مصلحة الكهرباء» . جُملة ابتسم لها أوسي من تلميح زوجته إلى وظيفته مَصْدراً لعلمه بأحوال الورد ، والأسلاف الأصول لشجر الورد . أعاد إليها لفافة التبغ بعد نَشْقَةٍ عميقة من دخانها .

في المسافة الشديدة القِصَر بين يد أوسي الممدودة باللفافة إلى

زوجته ، وبين يدها الممدودة لاستلام اللفافة ، عَلَا الصوت البعيد لأذان العشاء في المسجد الجامع ، شمال أواخر بيوت السريان على تخوم الحيِّ اليهودي .

«متى ستصلِّي ، ولو لمرَّة ، أنت وإبناك في المسجد ، يا أوسي؟» ، سألت هدلا زوجها بنبرِ حسرةٍ ، وهي تمسِّد بيدها اليسرى على بطنها .

«حين يحصل الوَلَدان على الجنسية السورية» ، رد أوسي . حدَّق إلى يد امرأته فوق بطنها : «أتمنى إبنةً» ، قال .

«لماذا تريد ابنةً؟» ، سألته هدلا بابتسامة وسعت زاويتي فمها المبتسم أصلاً ، فردَّ أوسي :

- حتى لا أسمع حسرةً في صوتك على عدم ذهابها إلى المسجد .

هدلا في الشهر الأول من حَبَلها . يدها تحسست ما لم يظهر بعدُ من بطنها المستوي حتى لو حَلَّتِ الوشاحَ عن خصرها . تنهَّدت . مشت مغادرةً صوب غرفتها المزودة بموقد غازٍ ذي عين واحدة ، طهت عليه ، في القِدْر ، برغلاً بالبندورة ، بالرغم من اقتراح زوجها الاكتفاء بعشاء من البطيخ الأحمر والخبز والجبن منعشاً ، في مساء حزيران المحتبس النَّفَسِ ركوداً .

خشخش الحصى تحت قدمَيْ هدلا في الصندل البلاستيك . نادت ابنيها غير المكشوفين لبصرها في جوف غرفتهما انتهيا ، ربما ، أو كادا ، من طلي زجاج النافذتين الخلفية والأمامية فيها :

- موسى . كيهات . اغسلا أيديكما .

خرج موسى من الغرفة ، بالخرقة زرقاء من عصارة النيلة ، في يده . اقتربَ من الجدول المحفور بين الحصى وصْلَةً من البئر إلى حقل الورد . رمى الخرقة فيه . مرَّغ يديه معاً بحصواتٍ صغار ، وفركهما بها . صرخ :

- لا شيء سيزيل هذا الصبغ .

خرج كيهات من الغرفة بدوره ، حاملاً طاسة الصبغ المحلول بالماء .

اقترب من البئر . وضع الطاسة أرضاً . أنزل الدلوَ الصفيح إلى قرارة الحفرة الأرضية . رفعه نصف مليء بالحبل موصولاً بالعَتَلة المتدلية من عارضة خشب فوق فوهة البئر . أسند قاعَ الدلو إلى حافة الطوق الحجري ، ثم أماله فدلق الماء قوياً على إحدى يديه ، ثم على الثانية . فرك الواحدة بالأخرى . هز رأسه وهو ينظر إلى أخيه الصغير :

- لا شيء سيزيل هذه الزرقة .

«الكاز يزيل الصبغ» ، هتف به أبوه .

«ماذا سيزيل رائحة الكاز عن يديَّ؟» ، سأل موسى أباه .

«هذه الحرب ستزيل رائحة كل شيء» ، ردَّ أوسي .

«أين الحرب لأمسح بها يديَّ؟» ، عقَّب موسى ، متجهاً إلى حيث ينتظر العائلةَ عشاؤها ، عادةً ، على البساط اللِّبْد المستطيل ، العريض ، الممدود من طرف حقل الورد إلى باب غرفة الأم والأب . جلس على البساط .

«لم تغسل يديك» ، صاح به كيهات ، فردَّ موسى :

- لم أغسل يديَّ؟ سآكل بالملعقة ، وليس بهما .

«أستنام في الفراش بيدين ملوثين زرقةً؟» ، سأله كيهات ، فاعترضه أبوه خالعاً صندله على حافة البساط البنيِّ الطويل ، السميك نَسْجاً من الصوف قبل الجلوس :

- الزرقة لا تُلوِّث ، يا كيهات . هي لون أيدي الملائكة من إمساكهم بالسماء في الهبوط والصعود .

«ألنا أيدي ملائكة الآن؟» ، تساءل كيهات .

«الحرب تجعل للإنسان أيدي ملائكة» ، رد أوسي .

استلقى موسى فجاءة على طرف البساط الخشن ، في حركة صاخبة الوضوح استياءً :

- متى ستفتح دُور السينما أبوابها؟
هَأْهأَ كيهات ساخراً :
- فتحت السينما أبوابها .
اتَّكأ موسى على مرفقيه ، رافعاً ظهره عن البساط ، متفاجئاً :
- أفتحتْ أبوابها؟
«نعم ، بفيلم من بطولتك الفكاهية» ، ردَّ كيهات .
قَضْقَض موسى بأسنانه كأنه يعضُّ أخاه .
«أبْعِدْ ساقيك» ، قالت أمه وهي تضع صحفة الطعام على اللِّبْد .
أشارت إلى ابنها كيهات : «جئْ بالملاعق ، وبطاسة الماء والسطل» .
تهيأ كلُّ شيء للعائلة حول صحفة البرغل بالبندورة مرفَّهاً بالتماع السمن عليه . طقطقت الملاعق غرْفاً من الطعام في المغيب لم ينشر عتمتَه بعد .
«ألا نستطيع إشعال مصباح الكهرباء الخارجي؟» ، تساءل كيهات .
«سنشعل سراجَ الكاز . ضوؤه خافت» ، قال أوسي . شرب جرعة من الماء في الطاسة مشتركةً تشرب منها العائلة . أنزل الطاسة حتى مستوى صدره مذ خَطَر بباله سؤال طارئ : «ما الإسم الذي تريدانه لأختكما؟» .
فوجئ الولدان .
«أختنا؟» ، تمتم موسى متجمد اليد بالملعقة على قُربٍ من فمه .
«حَمْلُ أمِّكما بنْتُ هذه المرة» ، عقَّب أوسي على تساؤل موسى .
«نسميها راحيلَ» ، قال كيهات .
تنحنح الأب مستغرباً :
- هذا اسم بائعة اللحم . هذا اسمٌ يهوديٌّ .
«اسم موسى اسمٌ يهوديٌّ» ، عقَّب كيهات .
«هو اسمُ نبيٍّ من أنبياء الله» ، قال أوسي .

«نسميها شارلي شابلن» ، سارع موسى إلى مشاركة في اقتراح اسم لأخت لم تقرَّر في الأرجح ، وهي عَلَقةٌ بعدُ في رحم الأم ، أن تكون أنثى أمْ تكونَ ذكراً ؛ أم أنها ـ ربما ـ قد تصْرِفُ خاطرَها عن القدوم إلى الحياة وليداً كالأطفال يولَدون .

«ما هذا الإسم؟» ، تمتمت هدلا .

«إنه أجمل من إسم كيهات» ، ردَّ موسى .

اسم كيهات ليس اسماً ، بل جملة بالكردية معناها : «مَنْ جاءَ؟» . ففي يوم مولده ، قبل الظهر ، قُرعت بوابة الدار الخشبية بقوة ، وإصرار . هبَّ نعمان ، أخو أوسي الأصغر ، إلى فتح البوابة التي استغرقه الوصولُ إليها ارتداء حذائه ، وعبور الباحة الحصى الواسعة ، بخطىً قصار متريِّثة ، مشدود البصر إلى الغرفة الشمالية ، التي ستكون مُستقرَّ إبني أوسي حينَ يكبران ، وقد كانت في يومها ذاك مسكناً مؤقتاً لهدلا الموهنة من رَهَق الولادة ، ولبعض مَن يرعينها من قريباتها ، بينهن أختُها نَفِيْسْ الفارعة طولاً على نحوٍ غير مألوف ، الورديَّةُ الخدَّين . وقد تمنَّى نعمان ، في عبوره البطيء إلى البوابة ، أن يلحظها من باب الغرفة المفتوح ، في نهاية الربيع ، فلم يلمحها .

مكث نعمان دقيقتين ، أو ثلاثاً ، غائباً . عاد إلى غرفة أخيه شرق الباحة اجتمع فيها جلوساً ، على البساط اللَّبْد ، بعض أقربائه . بادره أوسي :

- مَنْ جاء؟

«لم أجد أحداً» ، رد أخوه بوجه ضاعفَ من استغرابه على ملامحه .

رنَّت الجملةُ الاستفهامية الكردية «كيهات؟» في صدغَيْ أوسي بحروفها منتفخةً فضولاً . ابتسم بإلواءِ شفتيه إلى يمين وجهه . توجَّه إلى الجالسين في الغرفة بسؤال :

- كنتُ سأسمي ابني البِكْر باسم «كَلْبَتَانْ» . أهو أفضل أم «كيهات»؟

«كَلْبتان؟!» ، سأله أحد أقربائه مستغرباً الإسم ، فردَّ أوسي :

- إنها الآلة الوحيدة التي حملها معه نبيُّنا آدم ، في نزوله من الجنة إلى الأرض .

«كلبتان» لفظة تعني «الملقط» . وهي متوافقة المعنى لفظاً بالكردية والعربية بجذر في لغة فارسَ ربما . لفظةٌ قلقةٌ ، في جمع معنى الآلة بمهمات الآلة قادمةً من الجنة مع أبي البشر المطرود منها هو وزوجته . هي آلة لالتقاط الجمر من الكانون ، أو من كور الحداد ، وكذلك لخلع المسامير ، وخلْع الأسنان . كيف عرف آدم حاجته إلى الملقط؟ أكان خيالُه ، مُذ خُلِق من صلصال ، خيالَ حدَّاد ، أو خيال وَقْدِ الجمر في الكانون ، والفرن ، والتُّور؟ أكانَ خيالُه خيالَ العارف ، منذ البداية ، أنه لن يلبث طويلاً في الجنة ، فهيَّأ لنفسه ملقطاً حديداً من معادن التراب منذ علَّمه اللهُ كلَّ شيء؟

أين خبَّأ الملقط حتى يوم القفزة العالية من السماء إلى الأرض؟ أتحت شجرة في بستانه السماوي ، أم بين الورق الكثيف على غصونها ، متحسِّباً أنه سيلتقط به من الأرض ما لا ينبغي ليديه العاريتين أن تلتقطاه؟ ربما تنبَّه إلى أن الأسنان التي لا تتساقط في الجنة ، يلزمها خلْعٌ في الأمكنة خارجها .

أوسي ـ الذي انتظر في برهةٍ من سؤاله المُفَاضَلة بين اسم الآلة «كلبتان» ، وبين الجملة الاستفهامية «كيهات» ، أن يردَّ أحد من جلسائه مفضِّلاً أحدهما على الآخر ـ حَسَمَ الأمر :

- كيهات هو اسم ابني .

بعد إنجاب هدلا ابنين لزوجها أوسي ، وهي في الخطوة الأخيرة من

سَنَتِها التاسعة عشرة ، توقفت رحمها عن إطاعة المَنيِّ . تمرَّدت رحمُها . خذلتْ رحمُها نزعةَ الأب إلى عائلة أكبر . لكنَّ هدلا انتقمت من جريرة رحمها ، التي قد تدفع رجلاً يحب الإنجابَ إلى زواج آخر ، بإخضاع قلب أوسي أميناً في ولائه لقلبها ، عذبةً كأنثى لا تُعوَّض ؛ حنونةً لا تعوَّض ؛ قديرة في التدبير طهواً ، وابتكاراً للكعك مع شاي الصباح ، وسَرْداً للفكاهات الطرائف ، وعفَّةً في مَيْلها الدينيِّ إلى احتساب حصَّة الله في كل شُكر على هِباته المُرْضية ، وعلى امتحاناته أعسيرةً كانت أَم مُلطَّفةً عُسْراً .

أبوها سليمان ، ذو الخبرة مكتسبةً عن يد أبيه في ختان الذكور ختاناً لا تلتهب منه قُلْفَةُ قضيب ، أورثها جاذبَ الخوف من التَّهتُّك في أيِّ شيء ، وصونَ اللسان عن الشتائم واللَّعْن ، وعدم الخروج على فرائض الشرع . حصَّن يقينَها الديني بآيات حفظتْها عن ظهر قلب ـ هي التي لا تقرأ ولا تكتب .

أحبَّ منها أوسي ذلك ، وهو المتخفِّف كثيراً من فرائض الدِّينِ عن أبيه لم يُلْزِم أولاده التسعة بما آمن به خلاصاً لروحه في الدِّين . أوسي أَمَّ المسجد بعضَ الجمْعات ، في صباه ، رغبةً منه إلى سماع المُقْرِئ أحالَ التجويدَ إلى غناءٍ ، ثم تملَّص من ارتياده . صامَ في صباه بعضَ الآناء ، ولم يَصُم في شبابه . زوجته هدلا توبِّخه ، بلا إفراط ، إذ يغادر البيت إلى عمله ، في شهر رمضان ، بعد إفطار من الزبدة ، أو الزيتون ، أو الجبن بالخبز والشاي . وأوسي ، بدوره ، لم يُلْزِم ولديْهِ بشيء من مُعتَقَد آبائه ، إلاَّ دعوتهما إلى شُكر الله في الشدة والرخاء : «الله غفور ، رحيم» ، يقولها بكلمات يتوسل دفعَها صوتاً عالياً إلى سمع زوجته هدلا .

«سيشتري لنا كيهات لحماً ، غداً ، من المرأة اليهودية» ، قال أوسي وهو يرتشف ماءً من الطاسة بعد ملاعق متتالية من البرغل أحمرَ

بالبندورة . دسَّ يده في جيب ردائه . أخرج رزمة رقيقة من النقود الورق . أعطى ثلاث ليرات لزوجته : «احتفظي بها أنت . قد يضيِّعها كيهات حتى الصباح» .

هدلا لا تجادل في شراء اللحم من الحانوت اليهودي . للمسلم ترخيصُ الشرع شراءً للحم من ذبح سلالة إبراهيم النبي - أبي الإسلام الأو ل في سِيَرِ الإيمان ، المُفتدى الإبن بكبش من حظائر السماء في امتحان الله لإيمان الأب . الإبن هو اسحق في الثَّبْتِ اليقين من سِجلٍّ المعنى عند اليهودي ، وهو اسمعيل في الثَّبْتِ اليقين من سِجلٍّ المعنى عند المسلم . لكن هدلا لا تني مُذكِّرةً زوجها ، وابنها ، أن لا يشتريا لحماً من المسيحي ، الذي لا يَذْكرُ اسم الله في مخاطبة السكِّيْن نَحْراً لذبيحته .

فلْيوضعِ الخلافُ جانباً في أمر اسحق ، واسمعيل ، أيُّهما المُفتدى . الكبشُ الذَّكَر ، الملتفُّ القرنين ، حافظُ الذَّراري السماوية بسِفاد من شهوات العقلِ الأرضيِّ ، هو التخصيصُ الجامع للافتداء . وذلك برمته لا يعني هدلا .

«أفُتحتْ دكاكين السوق الكبيرة ، يا أوسي؟» ، سألتِ المرأةُ الفخورة بلمس بطنها ، تنبيهاً للأبصار إلى عودة الرحمِ إلى صوابها .

«أستموت الناس من الجوع؟ قطْعاً ستَفتح الدكاكين غداً ، أو بعد غد» ، ر د أوسي مبالِغاً في تأكيده .

«الم يَقُلْ مذياعُك إن التجمعات ممنوعة؟» ، سألته هدلا ، فرد أوسي عفوَ الخاطر :

- السوق الكبيرة مسقوفة لن تكتشف الطائرات ، من فوق ، ما تُخْفيه ، يا امرأة . وهي أمام المسجد الكبير .

«ألا يقصف اليهودُ المساجد؟» ، سألته هدلا ، فردَّ أوسي رداً ملتبساً :

- أعند اليهود ، في قامشلو ، طائرات حربية ، ومَدافع؟

«اليهود الذين هناك» ، قالت هدلا ، مشيرة بيدها اليسرى إلى جهة غير محدَّدة في التدليل على الجهات .

«فلْيقصفنا مَن يقصفنا» ، صاح موسى فجأة ، كأنه قُرِصَ بغتةً . «أريد أن أشاهد شارلي شابلن حتى لو قُصفت دار السينما» .

دفع كيهات أخاه ، بلا عنف ، من كتفه اليمنى :

- لو وعد اللهُ الناس بوجود سينما في الجنة ، لصليتَ في المسجد خمس مرات كل يوم .

«كنت سأصلي ستَّ مرات» ، عقَّب موسى . استدار إلى الزاوية الأقرب إلى النافذة في الغرفة ، حيث انتصبت بندقية بمخزن للطلقات شبه مربَّع . تمتم : «على مَن ستطلق النار ، يا أبي؟» .

التفت أوسي ، بدوره ، إلى البندقية العتيقة الطراز ، السوفياتية من نوع «سيمينوف» . لم يعقِّب على سؤال ابنه .

أوْرَدَتِ الثكنةُ العسكرية ، في قامشلو ، إلى كل دائرة حكومية ، رسمية ، بضع بنادق عتيقة ، وزَّعها المسؤولون على موظفيهم ، ليتناوبوا على حراسة المنشآت التي تخصُّهم برزقهم من الرواتب ، في اقتراح مُلْزِم بـ «الحماية الذاتية» أوجبتْها الحرب ، احتراساً من اجتياح إسرائيلي ، ربما لكل الشمال ، أو حَذَراً من «تخريبٍ» مًّا للمنشآت يعطل على أهل قامشلو مباهجَ حياتهم ولذائذَها .

كانت مناوبة أوسي ، في يومه ذاك الثالث من الحرب الهادرة أصواتاً بين أضلاع مذياعه ، حصَّةً من الليل حتى الفجر ، ستدور به من حول السور ذي الحجارة الإسمنت يحيط بمبنى مؤسسة الكهرباء ، ذي الغرف المتراصفة المتقابلة تخترقها الأروقة القصار ، المبلَّطة الأرضية بمربعات رمادية ، ذوات نقوش متناظرة هندسياً من حلم اللون الأزرق بحجر التزيين كمرمرٍ خشن .

ذكَّر موسى عيالَه ، وهو ينهض بعد فراغه من عشاءٍ أعقبه قدحُ شايٍ داكن ، بواجبه في حماية المدينة . دخل غرفته . خلع رداءه الواسع الطويل عن جسده عارياً إلاَّ من سرواله الأبيض ، الفضفاض يصل بطوله إلى بطَّتَيْ ساقيه . ارتدى بنطاله الصيفي الكاكي ، والقميص الكاكي . أوْدَعَ جيبَ القميص علبةَ تبغه وقدَّاحه . أوْدع جيبَ بنطاله نقودَه الورقَ وفلوسه المعدن . وقف أمام المرآة الدائرية معلقة إلى الحائط الطيني لصق النافذة . خلَّلَ أصابع يده اليمنى ، في شحوب الداخل غير المُضاء ، مغيباً ، في شعر غرَّته المتماوجة ، المرفوعة إلى أعلى . ارتدى حذاءه البني الجلد ، اللائق بموظف في الدولة . رفع البندقية ذات الحِمَالة إلى كتفه اليسرى . خرج مستعرضاً نفسه على الآخرين . نظر إلى موسى تحديداً :

- كيف أبدو؟

حدق إليه ابنه موسى برهة . ردَّ بسؤال :

- هل مِن أحد يحرس دُور السينما ، يا أبي؟

نفخ أوسي الهواء من بين شفتيه في تعبيرٍ ساخر :

- الكهرباء تحرسُ دُورَ السينما . بلا كهرباءٍ لا سينما .

ابتسم موسى . ابتسم قلبُه : الكهرباءُ آمنة بحراسة أبيه . شارلي شابلن آمنٌ إذاً . نهض عن البساط اللِّبْد . تحسَّس أخمصَ بندقية أبيه لمساً رقيقاً :

- كم يوماً تدوم الحربُ عادةً ، يا أبي؟

تصنَّع أوسي تفكيراً ، كأنما يعدُّ أرقاماً يستعرضُها خيالُه عليه ، مضيئةً لم تصطبغ بصبغٍ أزرق للتمويه على رصد الأعداء للأنوار في بيوت أهل الشمال . ردَّ :

- كلَّما بلغتُ رقمَ اليوم الذي ستنتهي فيه الحرب ، نسيتُ من أيِّ رقم بدأتُ .

أدار موسى بصره على أمه وأخيه غيرَ فاهم ، بل ممتعضاً من ذلك التمويه في ردِّ أبيه . أنذرَ العائلةَ بما سيفعل :

– سأذهب غداً إلى دار سينما شهرزاد . لا بدَّ من أحدٍ هناك لأسأله متى يعودون إلى عرْض أفلامهم .

«لا أحد هناك ، يا حمار» ، عقَّب كيهات .

«سأذهب» ، أكَّد موسى .

«لن تجد أحداً ، يا موسى ، لكن في استطاعتك أن تسأل شارلي شابلن . هو أمام باب السينما» ، قال كيهات ساخراً .

«سأسال شارلي شابلن» ، ردَّ موسى .

نهض كيهات عن البساط . وضع يده اليمنى على كتف أخيه ، متوجهاً ببصره إلى الأب :

– عرفتُ الآن ماذا يمكن للحرب أن تفعل .

«ما هذا الذكاء؟» ، عقَّب أوسي على قولة ابنه . «الحرب تقتل الناس . تدمِّر البيوت» .

«نسيتَ شيئاً ، يا أبي» ، قال كيهات ملتفتاً إلى أخيه .

«مثل ماذا؟» ، تساءل الأب .

«إنها جنَّنت موسى» ، أوضح كيهات ماذا يمكن للحرب ، بحسب تقديره ، أن تفعل .

محاوراتٌ مقتضبة ، مقصوصة الأذيال ، واكبت الأبَ في خروجه من الدار إلى نوبته حارساً لمنشآت الدولة ، الأمينة على حِفظ النُّور جارياً كالماء في الأسلاك إلى المصابيح .

أضاءت العائلة ، بعد خروج الأب على دراجته ، سراجَ الكاز على شحِّ ضيائه ، في باحة البيت ، محترسةً أن تشعل مصباح الكهرباء . مدَّدت الأمُّ الفُرُشَ على بُسُطٍ فوق الحصى ، مذ لا ينام أحد ، إلاَّ القلَّة

القليلة من أهل الشمال ، في الغُرَف الراكدات الهواء مختنقاً ، دافئاً من محصولِ الصيف .

ثلاثة فُرُش ، لا غير ، تجاورت على قُرب من حقل الورد والبئر . لم يُمدَّد فراش رابع : سيعود أوسي فجراً . سينام في الداخل ، لأن الشمس ستتهيأ لِنَفث زفيرها على باحة الدار بعد الفجر بقليل .

رجعَ أوسي فجراً . أحسَّ عيالُه بخطواته يقود دراجته مشياً إلى غرفة المؤن ، في الحذاء الجلد نثر خشخشةً أنيسةً على الباحة . رفعوا رؤوسهم بأعينِ أنصاف مغمضة ، ثم عادوا إلى رقادهم . توجه الأب إلى غرفته بالبندقّية معلقة ، بعدُ ، إلى عاتقه .

تناولت العائلة إفطارها ، من غير الأب النائم عميقاً ، في ظل الغرفة الشرقية ، المنحسرِ إلى عمق مترين لا أكثر ، من قَضْم الشمسِ الظلالَ قضماً سريعاً في صباحات الصيف . طلب كيهات من أمه النقودَ الورق التي سيشتري بها لحماً . دسَّها في جيب ثوبه الطويل حتى عقبيه .

«سآخذ دراجة أبي» ، قال كيهات لأمه ، فردت محذِّرةً :

– لا . قد يحتاجها حين يستيقظ . مَن يدري؟

غمز كيهات أخاه الصغير ، فلحق به الصبيُّ إلى البوابة .

«دبِّرْ لي لفافة تبغ» ، قال كيهات .

أدار موسى وجهه ، تلقائياً ، إلى غرفة الأب . تمتم :

– الآن؟

«لم أدخن منذ عصر البارحة . كبدي تحترق» ، همس كيهات .

«رأيتُ أين رمى أبي ، مساء البارحة ، بعقب لفافته» ، قال موسى .

«تلزمني لفافة كاملة . وهاتِ العقب أيضاً» ، قال كيهات . أردف : «أنا في الخارج» .

غاب موسى خمس دقائق ، أو أكثر ، قبل أن يعود إلى أخيه المنتظر

في الشارع المرشوق بغبار كثير، متكئاً بظهره إلى جدار السور المتقشر الطين قليلاً، بلفافة تبغ كاملةً، وعَقِبِ لفافة لم يبق من حَشْوِ تبغها إلا ما يكفي، ربما، نَشْقتَيْن.

«تأخرتَ»، عاتب كيهات أخاه، فردَّ موسى:

- كانت أمي قريبة يمكن أن تلحَظني.

بالطبع، كعادة موسى في تدبير لفافات التبغ لأخيه، أحياناً، سرق واحدة من علبة تبغ أبيه النائم، في صباحهم ذاك. وقد سارع كيهات، من فوره ملهوفاً، إلى إشعال العقب، المتبقِّي من لفافة التبغ التي استُنفذت فرُمِيَتْ، بعود كبريت حكَّه قوياً بمغلاق البوابة الحديد الأملس. تنشَّقَ نفَساً عميقاً من الدخان حتى أحس بلمس احتراقها لشفتيه. رمى العقبَ المستنفَد حتى آخر ملمتر فيه أرضاً. أشعل اللفافة الكاملة سرقها له أخوه بعود كبريت ثانٍ من مجموع عيدان فَرْط في جيبه. استنشق أربعة أنفاس منها تباعاً. دَعَكَ الجمرَ بالحائط اللَّبِن، إلى جوار البوابة الخشبية، فأطفأها. دسَّ بقية اللفافة في جيب ردائه للاستمتاع بدخانها فيما بعد. أمسك باذن أخيه اليمنى من غير إيلام:

- لا تذهب صوب سينما شهرزاد، يا حمار. لا أحد هناك.

«كيف تعرف؟»، تساءل موسى.

:اسمع، يا أخي. لن تفتح دُورُ السينما أبوابها. لن تفتح المقاهي أبوابها، قبل انتهاء الحرب»، رد كيهات. «حين تفتح سينما شهرزاد بابها، ستكون أول الداخلين».

«متى؟»، تمتم موسى متسائلاً بنبرٍ محزون.

«قريباً، يا حمار. الحروب قصيرة دائماً»، ردَّ في ثقة، أو تخفيفاً للمأزق عن قلب أخيه الصغير، المتعلِّق بالأفلام.

مضى كيهات إلى مهمته غير الموثوقة، لشراء لحم من السيدة اليهودية

راحيل . بضع دورات قِصار استهلكها متمهلاً في عبور المنعطف إلى النهاية الجنوب من الحي اليهودي ، حيث حانوت راحيل ، وحانوت جارها بنحاس .

كان الشارع ، على امتداده ، مقفراً إلاّ من قِلَّة ظهروا أمام أبواب أسوار بيوتهم ، وعادوا داخلين كأنهم نسوا شيئاً ، لكن لم يرجعوا خارجين . بضعة رجال عبروا على دراجات هوائية ، منتفخي القمصان على أجنابهم الأياسر . حدَّج كلٌّ منهم كيهاتَ بنظرة متفحصة ، متمحِّصة ، بليغةٍ في سواد نظاراتهم الشمسية ، بالرغم من أن التفاتاتهم إليه كانت خاطفةً . انعطفوا في الشارع المتقاطع مع نهاية الذي سلكه كيهات إلى حانوتَيِّ اللحم .

قطع كيهات قارعة الشارع المتقاطع مع نهاية الشارع المستقيم الذي سلكه . بلغ بوابة حانوت بنحاس المغلق . توقف متقرِّياً بأنامل يده اليسرى أعقاب مسامير حدوات الخيل مغروزة في الخشب السميك ، العتيق ، وقد تشكلت بقايا نجمة غامضة ، محذوفة الزاويتين العلويتين عن يمين النجمة ويسارها . أحصى أعقاب المسامير بلا إكمال . مضى في سيره إلى بوابة حانوت راحيل الواضح مرأىً على بصره : الحانوت مغلق ، بدوره ، كحانوت بنحاس .

بلغ كيهات بوابة الحانوت . قرعه ، بعد تطلُّع إلى يمينه ويساره ، بأنامل مضمومة قرْعاً خفيفاً ، خفيضاً جداً ، في تصرُّفٍ يشبه المزاح لا معنى له ، مُذ لا يُسمع . عدَّ أعقاب المسامير المتشكلة على هيئةِ شمعدانٍ زينةً . جاوزَ بوابة الحانوت الواسعة الخشب إلى بوابة الدار الأضيق لصقها . نقر بأصابعه المضمومة على خشبها نقراً خافتاً لا يريد ، على الأرجح ، أن يسمعه أحد . استدار بوجهه إلى الشمال ، حيث تقاطُعُ الطريقين ، فألفى واحداً من راكبي الدراجات الهوائية ظاهراً بنصفه ، ونصف دراجاته ، من

وراء زاوية جدار سور بيت بنحاس ، متفرِّساً فيه من خلف نظارته السوداء ، ذات السهام الخفية رشقاً .

تراجع كيهات عن بوابة منزل راحيل . استدار راجعاً صوب ذالك التقاطع الذي وقف فيه صاحب الدراجة ، فاستدار صاحب الدراجة راجعاً ، بدوره ، صوب المنعطف إلى السوق اليهودي .

توقف كيهات . عاين الطريق المستقيمة ، الطويلة إيغالاً في الجهة الشمال ، تتناظر على جهتيها المنازل متقابلة باباً إلى باب . ثلاث نساء وطفلة ظهرن برهة بشعورهن السافرات عقائص ، ثم انكفأن إلى الدواخل . استدار ناظراً إلى حانوتيِّ اللَّحاميْنِ . عاد أدراجه صوب منزل راحيل . وقف أمام الباب متردداً أن يقرعه ، هذه المرة ، قرْعَ الطالب جواباً على قصده من القرْع . ضمَّ أصابع يده اليمنى مهيأةً ، ثم تراخت قبضته .

ظهر من الزاوية في نهاية سور بيت راحيل ، جنوباً ، حيث العراءُ طليقاً في امتداده إلى حقول الزرع ، شرطيٌّ في قميص وبنطال من القماش الكاكي على مَيْلٍ إلى الخضرة ، وقبعة بسقيفة فوق الجبين كأنها شمع داكن ملتمع .

كان الشرطي يلتهم هلالاً من البطيخ الأصفر أحاط به قشره الأخضر الخشن . توقف عن قضم اللحم السُّكَّري محدقاً إلى كيهات برهة ، ثم عاد إلى التهام هلال البطيخ ببصر لا يحيد عن الفتى المراهق ، ذي البثور القليلة على جبينه وبعض ذقنه .

تراجع كيهات عن بوابة سور راحيل منصرفاً شمالاً ، فإذا صاحب الدراجة الهوائية ، والنظارة السوداء ، يرصده من المنعطف إلى جوار زاوية بيت بنحاس .

ارتبك كيهات إذْ تقدم صاحب الدراجة ماشياً يسوقها دفعاً بيديه صوبه . وقف قبالته :

- أتسكن هذا البيت؟

«لا يا سيدي» ، رد كيهات من فوره بصوت جفَّ نبرُه قليلاً .

«رأيتك واقفاً أمام هذه البوابة قبلاً» ، عقَّب صاحب الدراجة .

تبلبل خاطر كيهات . ضاع الردُّ المحتملُ بين عقله ولسانه . ابتسم ابتسامة منتزعة من حيرة الموقف ، صامتاً .

«لِمَ تبتسم؟» ، سأله صاحب الدراجة . أسندها إلى حائط سور البيت . خلع نظارته عن عينين بنيتين ، صغيرتين ، بجفونٍ حُمر من أرَقٍ مَّا .

انكمشت الإبتسامةُ المستحضَرة إلى شفتيْ كيهات قسراً ، فارغةً من معنى . غمغم :

- آسف سيدي .

«آسفٌ أنت على ماذا؟ على ابتسامتك أم وقوفك قرب هذا المنزل الذي لا تسكنه؟» ، سأله الرجل المنتفخ الجانب الأيسر من قميصه بالمسدس تحته . أردف : «ألك أقرباء هنا؟» .

«لا ، سيدي» ، ردَّ كيهات متراجعَ القلب إلى فراغ داكن .

«أأنت يهودي؟» ، سأله صاحب الدراجة مرتاباً في وجود الشاب المراهق أمام ذلك المنزل .

«لا ، سيدي» ، ردَّ كيهات بنبرٍ هاربٍ من الموقف الحرج .

«لستَ يهودياً؟ ماذا تكون؟» ، سأله صاحب الدراجة ، الراصد شوارعَ الحيِّ اليهودي .

«أنا كردي» ، ردَّ كيهات عفوَ الخاطر ، بارتجال متسرِّع .

حدق إليه صاحب القميص المنتفخ الجانب الأيسر منه . ابتسم على نحوٍ لا يُفهم : هل استظرف ردَّ كيهات ، أم هو يستخف به مستغرباً؟ نقل بصره إلى نهاية سور بيت راحيل ، حيث الشرطي يرمي قشرة البطيخ أرضاً

وقد انتهى من التهام فاكهته المنعشة . مسح يده اليمنى بجانب بنطاله وهو يتطلع ، في فضول ، إلى كيهات في وقفته المرتبكة كفرخ طير أمام صقر الدولة ذي الثياب المدنية ، حامل المسدس واضحاً تحت قميصه المُرخى ، في تصنُّع لإخفاء السلاح لا يريد به إخفاءه ، بل لَفْتَ النظر إليه .

«أحتَّاج إليك ، يا رفيق» ، قال صاحب الدراجة للشرطي بصوت فيه نبْرُ الأمر لا نبرَ الطلب المتواضع .

تقدم الشرطي منهما مبتسماً لرجل الاستخبارات الأشدِّ سلطةً في مراتب النظام ، بنوع زمرته المختارة لمهمة تطهير الدولة من الشرور ، خارج تراتُبيَّة العُرف المتعلق بالرُّتب العسكرية . رفع صوته وهو على بعد أربع خطوات منهما ، متوجهاً بالكلمات إلى صاحب الدراجة :

– نعم ، حضرة الرفيق . بِمَ أخدمك؟

«عندنا في البلد دِينٌ جديد» ، قال صاحب الدراجة بلهجته البدوية .

قلَّص الشرطي بين جفني عينه اليسرى مستوضحاً ، في صمت ، معنى كلام رجل المخابرات .

«أسمعتَ بالدِّين الكردي؟» ، سأل رجلُ المخابرات الشرطيَّ على نحوٍ استغلق على الشرطيِّ قصدُ السؤال .

«سألتُ هذا الحمار إن كان يهودياً فردَّ أنه كردي» ، قال رجل المخابرات موضحاً . أضاف : «أعندنا في البلاد دِينٌ كرديٌّ لم نعرف به؟» .

نظر الشرطي إلى كيهات الشاحب في الموقف ، مخذولاً من بديهته الرديئةِ أوقعتْه في مأزق . سأله :

– مَن نبيُّ دِينك ، يا وَلَد؟

قفز حلٌّ تلقائيٌّ ، من عمق ارتباك كيهات إلى لسانه :

– أنا مسلم ، سيدي .

«مُسْلم يهودي ، أمْ مسلم عربي؟» ، سأله رجل المخابرات متلاعباً

بالكلمات ، في سخرية كالسعال من شخص في وجه الآخر .

لم يعثر كيهات على جواز للمفاضلة في الإنتساب إلى الصنفين حددهما رجلُ الدولة ، ذو الثياب المدنية . ارتجف الجلدُ على أضلاعه الأياسر .

بادر الشرطيُّ إلى تخليص حال كيهات من ارتباكها :

- قد يكون كردياً يهودياً .

«أنا مسلم ، يا سيدي» ، أكّد كيهات نَسَبَ يقين المُعْتَقد في تاريخ آبائه إيماناً ، فتجاهل رجلُ المخابرات كلامه ، متوجهاً بسؤال إلى الشرطي الداكن السمرة بلهجته العربية البدوية :

- أهناك أكراد يهود؟ أمْ كلُّهم يهود؟

«مَنْ كلُّهم؟» ، تساءل الشرطي الضيقُ ما بين المنكبين ، فرد الرجلُ ذو المسدس تحت قميصه :

- اليهود الأكراد كلُّهم يهود .

«أنا لستُ يهودياً ، يا سيدي» ، دافع كيهات بنبرٍ خجول ، خافت في صوته المرتبك ، عن نفسه .

«أنا أقرِّر ، يا حمار ، ماذا تكون» ، قال رجل المخابرات القصير . رفع وجهه العابس ، أو المتكلِّف عبوساً شرساً ، إلى الشرطي البادي السكينة في ملامحه السُّمرةِ الملفوحة :

- ماذا تعتقد أن هذا اليهودي صاحبَ الدِّين الكردي ، المُسْلمَ كما يدَّعي ، يفعل هنا؟

«كنتُ سأشتري لحماً ، يا سيدي» ، سارع كيهات إلى اعترافٍ هو كلُّ الأمر .

رفع رجل المخابرات وجهه إلى أعالي بوابة حانوت راحيل المقفلة :

- أين اللحم؟

«في الداخل ، يا سيدي» ، ردَّ كيهات .

وجَّه رجل المخابرات بصره إلى الشرطي :

- أيبيع اليهود لحوماً في هذه المدينة؟

«هذا حانوتُ بَيْع لحم ، يا سيدي» ، ردَّ الشرطي على سؤال رجل المخابرات ، مشيراً بيدهَ إلى بوابة حانوت راحيل . أردف : «وذاك الحانوت أيضاً» ، يعني حانوتَ بنحاس .

قرَّب رجل أمن الدولة وجهه من وجه كيهات ، متساويَيْنِ طولاً :

- لماذا يبيع اليهود لحوماً؟

«لا أعرف ، يا سيدي» ، ردَّ كيهات مضطرباً . أحسَّ الخَدَرَ في ركبتيه .

«لماذا تشتري اللحم من حانوت يهوديٍّ؟» ، سأله رجلُ أمن الدولة ، معيداً نظارته الشمسية إلى موضعها فوق أنفه المحدَّب .

«أحياناً نشتري اللحم من الستِّ راحيل ، سيدي» ، ردَّ كيهات .

رفع رجل أمن الدولة بصرَه عن كيهات ، في نظارته الشمسية ، إلى الشرطي الأطول منه . تمتم في استفهامٍ ساخر :

- الستُّ راحيل؟!!

لم يعرف الشرطي بِمَ يعقِّب على تساؤل رجل أمن الدولة . ظلَّ صامتاً يترقب توضيحاً مِن مُحدِّثه ، فلم يحظَ به .

«سيدة . سِتٌّ يهودية . تبيع اللحم!!» ، تمتم رجل أمن الدولة يثير غباراً في عقل كيهات . أضاف : «لماذا هي ليست الخاتون راحيل؟» .

«أهي سِتٌّ أم خاتون؟» ، سأل الشرطيُّ الشابَّ المراهق كيهات ، مُجارياً رجل أمن الدولة في لعبهِ السَّمج أسئلةً .

غارت الكلماتُ إلى عمقٍ مغلَقٍ في قرارة عقل كيهات . ارتعشت رئتاه من وخز الهواء فيهما . لم ينطق .

«الحمار لا يعرف الفَرْق» ، عقَّب رجل أمن الدولة على صمت كيهات . هزَّ يده اليمنى كخفق جناح يطرده به :

- انصرفْ من هنا ، يا حمار . وخُذْ معك دِيْنك الكرديَّ .

في خفَّة حملت كيهاتَ ساقاه كالهارب . اتجه إلى منعطف تقاطُع الشارعين . سلكه شرقاً بخطى عِجالٍ ، ثم انعطف إلى شارع السوقَ اليهودي الرئيس ، المستقيم شمالاً حتى بيوت حيٍّ السِّريان ، فالجامع الصغير .

لم يتفكر كيهات في سبب واضح لتوجهه إلى السوق . ربما كان عليه ، بعد ذلك الغرق في لُبْكة الموقف ، مشدودَ الأعصاب حتى الإنهاك ، أن يعود أدراجه صوب البيت .

ارتجل لهُ قلبهُ المرتبك منطقَ الدخول إلى السوق ، الذي بدا مهجوراً ، إلاَّ من دوريَّتين لرجال في ثياب مدنية ، يستقلون مَرْكَبتين من نوع «جيْبْ» عسكريتين ، بهيكلين من القماش الجاسئ ، الثخين ، الرماديِّ المُغْبَرِّ ، ينتفخ وينكمش من نواحي أبوابهما المكشوفة دفعاً لحرارة حزيران ، ويخفق سقفاهما من اندفاعة الهواء خائفاً أن يختنق .

أدار كيهات وجهه جانبياً في عبور المركبتين ، يحْذرُ النظرَ إليهما كأنه يخفي نفسه . أوغل في عمق السوق ذي الحوانيت اللَّبنية ، وبعض الإسمنتية بلا علوٍّ ، قبل أن ينكشف له القليل من الحوانيت مفتوحةً ، في تباعدٍ واحدها عن الآخر ، على نحوٍ أحسَّ كيهات كأنَّ الهواء نفسَه حذرٌ في اندفاعه المعتاد أن يكون ، نهاراً ، على جموح ، عصبياً .

بلغ كيهات موضع حانوتِ عزرا بن اسَّحق ، توأمِ تاريخ المدينة ، الأبهى سمعةً بين العطَّارين من نوعه ، حتى كادت السوق برمَّتها - حوانيتَ عطارين ، ودكاكيْنَ خضار وفاكهة مجفَّفة ، ومربَّيات ، ومِحَالَّ بيع أقمشة ، ومصاغٍ ذهبٍ ، وفضة - أن تسمَّى «سوقَ عزرا» .

كان حانوت عزرا مفتوحاً ، بنصفٍ واحد من دفَّتيْ بوابته العريقة الخشب الذي قد يُنْسَب إلى اقتدار النجارِيْنَ الكهنة على نقل الألواح ، من جذوع الشجر في الأساطير ، إلى حقيقتها في الواقع الأرضيٍّ . وكان عزرا هناك ، جالساً على حافة منضدته بقدم عالية عن الأرض من اثنناء ساقه ، وأخرى تطأ الأرض ، محدِّقاً من أعمَاق الحانوت المعتم قليلاً بلا نافذة فيه ، إلى الفراغ الممزَّق في الشارع ، كأنما هو متردِّد أيفتح الدفة الأخرى المغلقة من بوابة الحانوت ، أم يغلق الدفة المفتوحة؟

توقف كيهات قبالة حانوت العطار ، على الطوار المهترئ للرصيف الإسفلت . حدق إلى عزرا فحدق إليه عزرا ، ذو اللحية القصيرة ، البلقاء ، المدبَّبة عند الذقن ، معتمر الرأس بشالٍ أبيض مخططاً زرقةً ، مطوقٍ بعقالٍ أسود .

أنزل عزرا ساقه المرفوعة بقَدَمها . نهض عن حافة المنضدة الداكنة الخشب ، استوى فوقها ميزانٌ حديد بكفَّتينِ طاستيْنِ من النحاس ، كل طاسة على قاعدة حرَّة في مفاصلها انخفاضَاً وارتفاعَاً بالأثقال عليها . طاستان متقابلتان على ظهرَيْ الهيكل المتناظر الجهتين ، يرتفع أمامهما ، من وصلتيْنِ بالهيكل ، عنقان طويلان ، ينتهيان برأسين على هيئتي رأسيْ ديكيْنِ ينظر أحدهما إلى الآخر في تحدٍّ .

كل ميزان من ذلك الصِّنْف المعدن ، الذي لا صنفَ آخر سواه في الحوانيت والدكاكين ، تتقابل فيه الكفَّتان بتحدٍّ قاسٍ لا يعرفه سوى المعدن .

كم مرة تنخفض كفَّةٌ قبالة الأخرى؟

كم مرةً تُبدي كفةٌ خضوعَها سجوداً وركوعاً للكفة الأخرى؟

كم مرة تُهان كفةٌ ينقصها غرامان ـ ربما ـ لتُعادِلَ الأخرى على سويةٍ في التناظر؟

هذا هو اعتبارُ العقل للحقيقة في أحوال كفتين متقابلتين لهما وزنٌ واحد . لكن يَحْدث ، دائماً ، أن يضع أصحابُ حوانيت العطارة ، والبقالة ، واللحم ، وأصحابُ المِحالِّ والمتاجر ، عِياراتِ الوزْن ـ الكيلو غرام ، ونصف الكيلو غرام ، وربعه ، وما قلَّ عن ذلك من القِطع الحديد ، أو النحاس الصغار ـ في كفَّة يتخذونها ثابتةً ، حَكْراً على عيارات الوزن المعادن ، فيما الأخرى ، المقابِلةُ ، تبقى لوضع حوائج البيع فيها من المواد المطلوبة شراءً .

على نحو مألوف ، شائع ، ثمَّتَ كفة في الميزان ، يساراً أو يميناً في تركيب هيئة الآلة ذات المفاصل المتحركة ، منذورة لوضع عيارات الوزن فيها ، وكفة للمشتريات .

يحْدث ، أحياناً ، أن تقوم شرطة البلدية بمداهمة الحوانيت ، والدكاكين ، والمِحالّ ، والأفران ، للتأكد من توازن الكفتين في الميزان ، وأنهما من وزن واحد في الصناعة ، وأن ليس في قاع المفاصل الرافعة والخافضة رصاصٌ مصهور أُلصق به غَشاً . وللتأكد ، أيضاً ، أن العيارات حديداً ، أو نحاساً ، لم يَجْرِ التلاعبُ بمقادير أثقالها . لكنَّ الإفلات من العقاب على الغش ، إنْ ضُبطَ صاحبُ البيع غشاشاً ، يُسوى بالرشوة مالاً ، أو متاعاً ، أو بتخفيض خاصٍّ على ما يبيعونه لشرطة البلدية الجوَّالين ، يكْبِسون المتاجرَ بدفاتر المَحاضر المُسطَّرة الأوراق طولاً وعرضاً ، مخرومةً لتمكين نزْعها ؛ وبين الورقة والورقة شريحة زرقاء من ورق الكربون لِنَسْخ المُخالفَة . لكنها دفاتر لا تحظى إلاَّ بالقليل من شَرَف التدوين ، وذلك أمرٌ لا يهم البلدية على أية حال ، فموارد دَخْلِها تُستوفى من أمور كُثر لا تُحصى في حياة مدينة الشمال السوري ، المتوازية الشوارع باستقامات من رسم التصاميم بالحبر الفرنسي ، على استنشاق المصمِّمين المعمارييْنَ دخانَ لفافات التبغ الفرنسية .

كان عزرا وكيهات في وقفتيهما المتقابلتين ، أحدهما من داخل

الحانوت ، والآخر من الشارع ، كأنما يتوقع الأول أن يتجه الشاب المراهق إلى الحانوت طالباً شراءَ حاجة ، وكأنما الثاني يتوقع من عزرا ، على نحوٍ مُلْفت ، أن يناديه إيماءً بيده ، أو دعوةً بصوته .

توقُّعُ عزرا أن يتجه كيهات إلى الحانوت كان أقرب إلى معقول الموقف . أمَّا توقُّعُ كيهات أن يناديه عزرا فلم يكن إلاَّ تمنِّياً . وماذا لو دعاه عزرا إلى حانوته؟ ما المتوقَّع إن لبَّى كيهات دعوته إلى الحانوت؟ سيعرض العطَّار مجاناً بعضَ سِلَعه على شاب صغير هو الأول ، ربما ، رآه في صباحه المتقشِّف مِن نفْخ الحرب حوصلتَها حتى انتفخت معها جلود البشر شرقَ البحر المتوسط ، وبعضَ جنوبه الشرقي ، وانتفخ وَدَجا الحياة هناك حتى الإغماء على الدم في الودَجَيْن؟

ماذا كان سيختار كيهات من حانوت عزرا العطار إن خيَّره أن يأخذ ما يريد مجَّاناً؟ : عيدانَ الصندل؟ كبش القرنفل؟ الخيطانَ المذهَّبة والفضية؟ الصابون أخضرَ من نزف الزيتون فيه ، وأحمرَ من نزف الأرجوان ، وأصفر من صناعته بالكُركُم؟ أسيختار كيهات حنَّاءً وإِثْمِداً لأمه ، وتبغاً له ولأبيه؟

حيرةٌ ستمسك بتلابيب خيال كيهات : إنه يريد شيئاً آخر غير هذه كلها ، حتى لو كانت مجاناً . إنه يريد لدغةَ السِّحر ولسْعَتَه .

«سيد عزرا» ، سيتمتم كيهات في اقترابه الإفتراضيِّ حتى عتبة الحانوت . «أريد شيئاً يُعِيْنُ قلبي» .

«على ماذا؟» ، سيسأله عزرا .

«على ما فيه ، يا سيد عزرا» ، سيرد كيهات .

«حسناً ، أيها الشاب . ماذا في قلبك؟» ، سيسأله عزرا .

«ما لا أستطيع البوح به» ، سيردُّ كيهات .

«فهمتْ» ، سيعقِّب عزرا العطار . سيستدير داخلاً إلى عمق الحانوت

المعتم لا نوافذ فيه ، وسيرجع بعد طقطقات من فَتْحِه أوعيةً ، وإغلاقِ أوعيةِ معدنٍ وزجاج ، بيد مضمومة الأصابع ، إلى كيهات : «افتح يدك» ، سيقولُ عزرا .

سيفتح كيهات راحة يده اليسرى .

«خُذْ» ، سيقول عزرا وهو يُسقِط في راحة يد كيهات ما يشبه حصاة صغيرة جداً ذاتَ صُفرةٍ عكِرة .

«ما هذا ، يا سيد عزرا؟» ، سيسأله كيهات ، وسيرد عزرا :

- حبَّةٌ من مِسْك الفأر .

«مسك الفأر؟!!» ، سيتساءل كيهات مستغرباً ، وسيرد عزرا بنبرٍ من اللهجة الماردينية في لغته العربية :

- هذا ما سينفع قلبك .

«ماذا أفعل بِمسْك الفأر؟» ، سيتساءل كيهات .

«إرمِ به في البئر» ، سيردُّ عزرا .

«بئرَ؟ أيُّ بئر ، يا سيد عزرا؟» ، سيسأله كيهات .

سيردُّ عزرا مبتسماً بصوت فيه بقايا خُنَّةٍ :

- بئر بيت راحيل ، يا كيهات .

«أتعرف اسمي ، يا سيد عزرا؟» ، سيسأله كيهات في وقفته على عتبة بوابة الحانوت مندهشاً .

«أعرف اسمك طالما أعرف لماذا أنت في هذا الحيِّ» ، سيرد عزرا .

«نحن نسكن لصق الحي» ، سيعقب كيهات .

«أعرف» ، سيقول عزرا . «عنيتُ لماذا كنتَ هناكَ» ، وسيشير بيده إلى الجهة التي جاء منها كيهات إلى السوق .

«أعرفتَ أنني كنت هناك؟» ، سيسأله كيهات مشيراً برأسه إلى الجهة التي أشار إليها عزرا ، متَّفقيْنِ في الذي يعنيان .

«نعم» ، سيرد عزرا .

«كنت سأشتري لحماً من الستِّ راحيل» ، سيوضح كيهات .

«أكنتَ ستشتري لحماً؟» ، سيسأله عزرا مقلِّصاً بين جَفنَيْ عينه اليمنى يستدرجه إلى اعترافٍ .

«نعم ، يا سيد عزرا» ، سيرد كيهات .

سيبتسم عزرا . سيصفِّق براحة يده اليسرى صفْقاً رقيقاً على صُدرته القصيرة فوق ثوبه البنِّي ، الداكن ، الطويل حتى عقبَيْ قدميه في الصندل ، كثوب كيهات . سيكرر سؤاله المُستنطِق :

- أحقاً كنتَ ستشتري لحماً؟

«معي ثلاث ليرات ، يا سيد عزرا» ، سيرد كيهات وهو يُخرج النقودَ الورق من جيب ردائه ، على الجهة اليمنى من فخذه اليمنى .

لم تحْدث المحاورةُ تلك . ظلَّ كيهات على رصيف الشارع محدِّقاً إلى حانوت عزرا ، وظلَّ عزرا في ظِلِّ حانوته المعتم متوجِّساً ، ربما ، من تحديق ذلك الشاب المراهق إليه .

تنبَّه كيهات إلى إطالته النظرَ المريب منه إلى عزرا . خفض بصره أرضاً كالمعتذر أن لا علاقة للحرب بوقوفه محدِّقاً إلى العطَّار اليهودي . أكَّد لنفسه بلسان صامت :

- كنتُ هناك لأشتري لحماً من الستِّ راحيل ولأرى لِيْنَا ، يا سيد عزرا .

سَمع كيهات بشيء من مصادر المسك : سِنَّور الزَّباد . الغزال . وسمع قليلاً من صديقات أمه ، في تزاورهنَّ يأتين من الحيِّ الغربي ، عن قدرات المسك ، والعنبر ، على اجتذاب القلوب إن ذوَّبْنَهما في ماء الورد ، وسَقيْنَ مَن يُرِدْن اجتذابَ قلبه هوىً ، أو يُبقين قلبَه على هواهنَّ من الأزواج .

«فأرة المسك» ، في ذِكر المصادر ، لقبٌ كالهزل في بعض أفلام

الأضاحيك، والمساخر. لكنه هزلٌ أقرب إلى أفلام لم يُبْدِ الصبيُّ موسى أيَّ انجذاب إليها، مثل أفلام السيدين لوريل وهاردي، و«المهابيل الثلاثة»، رآهم بليدَيْنَ في حركاتهم، ومظاهرهم. أولئك المذكورون، الملتفعون بالسواد والبياض لونَيْنِ في أفلامهم، عجزوا عن استنفار روح المرح في عَصَب موسى. كانوا أقلَّ موهبة في الإضحاك بكثير من قِرْد طرزان، المقلِّد بحركاته الساخرة حركات الإنسان الأكثر صرامةً إن حكَّ فروةَ رأسه، أو نفخَ الدخان، بعد نَشْقِهِ، من تبغ الغليون.

قلبُ موسى كان ينقذف ككرة قدم إلى «الشاشة الفضية»، الكبيرة، في سينما حداد، حين يجاوز القردُ تقليدَ مدخنِ الغليون إلى خطف الغليون بالتبغ المشتعل فيه، ويتنشَّقُه كمدخِّن محترف.

أفلام من ثلاثينات القرن العشرين، وأربعيناته، وخمسيناته، كانت تبلُغُ دُورَ السينما، في قامشلو، بسهام السواد والبياض تصويراً، بعد عشرين سنة، أو أكثر، أو أقلَّ قليلاً، من صدورها إلى دُور السينما في بلاد الناطقين بلسان صانعيها الإنكليزي. بعض سهام البياض والسواد تصويراً يصيب ـ بنصالها الرَّوعةِ المضحكةِ ـ قلبَ موسى، وبعضها يصيبه بالملل، أو ما لا يَصْلُحُ تذوُّقه كَرشٍّ ملحٍ على البطيخ. لوريل وهاردي، و «المهابيل الثلاثة»، كانت أفلامهم من صِنف الملح على البطيخ. شابلن، وباسْتِرْكيتون، وهارولد لويد، المبجَّلون بالصمت المتفجِّر حركات في حركاتهم، كانوا هم أولياء وجدانِ موسى جذْباً للبرهة القديرة إلى إنطاق جسده انفجارَه قهقهةً، بوجود «فأرة المسك» في جيوبهم، أو من دونها. لكن صفة هذه الدُّويبة الصغيرة، بهبة الطبيعة فيها من سرِّها المُحيِّر، قريبةٌ من تذوُّقِ طعم اللونين الأبيض، والأسود، باللسان في أفلام مُرْشِدِيْ موسى الأئمة في فِقه الإضحاك.

«فأر المسك؟! فأرة المسك؟!»، عجبٌ من أعاجيب المصادر. في جسد

هذه الدُّويبة الصغيرة ، المكروهة ، غُدَّة تُستأصَل ، وتُجفف ، فتغدو من رفاهة الأفاويح ، ورفعة العطر ، وممكنات الإيقاع سِحْراً بالقلوب في الهوى .

أكان إهداءُ الطبيعة للفأرة نافِجَةَ المسك في جسدها ، أو جسد ذَكَرها ، قصداً محضاً إلى التوازن بين خلائقها؟ لِسنَّور الزباد نافجةُ مسكٍ في جسده . هو قطٌّ عدوُّ الفار من تدبير التصنيفات للعِداء بين الأنواع : السِّنور ضد الفأر . الكلب ضد السنور . النِّمس ضد الأفعى . الدَّبور ضد النحل .

توازنٌ في العدائية . أمَّا مسكُ الفأر ، المستخلَص من نافجةٍ في جسد «فأر المسك» ، فلا عداوة بينه وبين مسك سنور الزَّباد : المسك ، برمَّةِ مصادره ، جامعٌ للقلوب ؛ ترتيبٌ سحريٌّ لتقريب المشكوك في تقارُبهم ؛ استحواذٌ للراغب على مرغوبه إن سقاه جرعة من ماء الورد ذوَّبَ المسك فيه .

كيهات سيلقي بكيسين من مسك الفأر في بئر بيت راحيل إن أهداه عزرا مسك الدويبة الصغيرة . غمغم منصرفاً عن حانوت عزرا . هبَّ عليه هواء النهار من شمال الشارع غاضباً بحمله الغبارَ العريق . رسمَ بسبابته اليمنى ، ماشياً ، حروفَ اسم كأعقاب مسامير حدوات الجياد في الهواء ، وقد تخيَّلها مغروزةً ، ملتمعة لا صدأ عليها :

- لِ يْ نَ ا .

ذلك كان الإسم الذي يخص ابنةَ راحيل . تكبره بسنة . سوداء العينين وسطاً بين الكِبر والصِّغر . شعرٌ بني على سواد ، أجعد قليلاً . معتدلة اللحم على عظامها ، ولها حَدَبة خفيفة في منتصف الأنف تمنى كيهات أن يكون له مثلها فوق أنفه المستقيمم العادي .

أنوف الذكور البالغين بحَدَباتٍ في أواسطها ، أو طولٍ ، أو سعةٍ في المنخرين ، أو فلْطحةٍ ، هي الأنوف الجَديرة بالوجوه الجَسورة . ينقر كيهات وسط أنفه ، أحياناً ، على نهاية العظم المتصلة بالغضروف ، بحدِّ المسطرة

الرقيقة ، نقْراً بلا إيلام ، عسى يستحصل انتفاخاً يحظى به منظر الوجه الجَسُور في الذكور .

من أيِّ إرث أشرق على عقل كيهات تمييزُه الوجوهَ الجسورة للذكور الجسورين من طُرُز أنوفهم؟ ربما هي الحكايات الكردية شِفاهاً تُروى عن البطولة حازها أقوياء لهم أنوف طوال ، محدَّبات ، فوق شوارب عِراض على شفاههم العُلى . والحكايات تلك تُحبِّذ الشفاهَ كبيرةً أيضاً ، وليس خجولة اللحم ، رفيعة أو ضيقة .

ماذا عن الحَدَبة في أنف الأنثى؟ لا يستحبُّ الكُرد الحدبات على أنوف الإناث ، ولا الأنوفَ الطوال فيهنَّ . لكنَّ لكلٍّ تسويغه إن أحبَّ أنثى بحدبة في أنفها ، أو طول ، أو قِصَر حتى ، وإن أنجبَ إبنةً فيها مظهرٌ من ذلك .

التسويغُ اشتراعٌ قلبيٌّ . وكيهات له تسويغه في انجذاب قلبه إلى لينا ، إبنة راحيل ، جامعاً بين إرث الحكاية الكردية للإعجاب بالجسوريْنَ الذُّكران حازوا أنوفاً محدَّبة ، وبين إرث القلب الذي لا تتوارثه إلاَّ الرغبةُ عن الرغبة .

قلبُ كيهات يستعذب تلك الحدبة في أنف لِيْنا ، المعتدلة اللحم مع بعض الطول في جذعها يُحْسَب لها سَعْداً من باب السَّعد في طولِ النساء .

طول لينا يثير ، أيضاً ، خيالَ كيهات . طولٌ يفوق طولَهُ مثيرٌ . يراقبها راصداً ، منذ تعلَّقها قلبُه منذ أكثر من سنة ونصف السنة ، في خروجها مع زميلاتها من سور المدرسة ، برأس يعلو رؤوسَهنَّ .

إنها مدرسة قسَّمها نظامُ الفَصل بين الإناث والذكور إلى قسمين من الوقت يتبادلها الجنسان ، من الصباح إلى الظهر ، ومن الظهر إلى العصر : للذكور وقتُ ما قبل الظهر في أسبوعٍ ، وللإناث وقتُ ما قبل الظهر في الأسبوع الذي يليه .

كيهات في آخر سنة من المرحلة الإعدادية . لينا في أول سنة من المرحلة الثانوية . يجمعهما الثوبُ الموحَّد الخاكي القماش اقتدتِ الدولة بنظامه مَلْبساً للطلاب ، تقليداً لإرث النظم العسكرية من اشتراكياتٍ وحَّدتِ العقول ، والرغبات ، والثياب على طراز واحد في معاهدها ، ومدارسها ، إلغاءً لفروق الطبقات ، وفروق الوجوه ، وفروق الأجساد ، وفروق الفكر .

فتياتٌ يتشابهن في خروجهن من المدرسة بلونهن الواحد ، كتشابه الفتيان في خروجهم ودخولهم المدرسة بعصبيَّةِ اللون الواحد لثيابهم . لكنَّ لينا طويلة . حظُّها الفَرْقُ العذب ـ كما يراه قلب كيهات ـ رأسُها بشعره الأقرب إلى جَعْد ، مرئياً أعلى من رؤوس زميلاتها ، بخمار أزرق داكن ، مُنسلت دائماً إلى الخلف عن مَفْرِق شعرها المستقيم ، مذ لا تُحْكِم عَقْدَه ربطاً تحت ذقنها كما تفعل الأخريات بأغطية رؤوسهن احتشاماً ، إلاَّ المسيحيات منهن يعتمدنَ السُّفورَ .

رأى كيهات فتاة قلبه مراراً ، في سنوات عمره الثلاث الأخيرات ، منذ موت أبيها نيسان ، تُعيْن أمها أيام الجمعة ـ العطلة الإسلامية لأرض الشمال ، في حانوتها ، إذ يقصده مع أبيه أحياناً لشراء لحم ، أو بَيْض إن لزمهم بيض ، أو دجاجة ربما ، مذ تحفظ راحيل أقفاصاً صغاراً من القصب ، فيها دجاج ، تحت المسطبة العريضة في حانوتها قائمةٍ على لَبِناتٍ من الطين تسندها من أسفلَ ، مرفوعةً بما عليها من مُربَّياتٍ ، منزلية الصنع ، في الآنية الزجاج ، وبعض الفاكهة المجففة زبيباً ، وتيناً ، ومشمشاً ، ونقانق معروضة على ملاءة حمراء خمريَّة ، ولحماً مفروماً ، مملَّحاً متبَّلاً تم تجفيفه ، وتغليفه بكتان أبيض على أشكالٍ أسطوانية لا تزيد عن حجم اليد .

راحيل ، التي تتدلى شرائطُ قنص الذباب من عمود سقف حانوتها ، تلجأ إلى حفظ ما يفيض عن البيع من اللحم مملَّحاً ، مفروماً بثوم فيه

وبتوابلَ حرِّيفة ، مغلفاً بقماش ، ونقانق من مفروم اللحم بالثوم محشواً في أمعاء الضأن ، مجففة بلهفة الهواء في الشمال إلى التجفيف بزفيره الحارِّ .

لكْنةُ لينا ، في نطق اللغة العربية ، ماردينيَّةٌ كسائر ملَّتها اليهود نزحوا من أقاليم الجنوب في إمبراطورية الخلافة الإسلامية الذابلة على غصن الإيمان ـ إمبراطورية الحريم العثماني وهي تلفظ آخر أنفاسِ مُتَع الحمَّامات ، ومُتَع الفروج العذراوات ، ومُتع رقص الدراويش ، ومُتع حروب الأعراق ضد الشعوب فيها ومن حولها ، ومُتَع استدراج اسم الله إلى تحصين اللذائذ نكاحاً وحلوى بالقَطْر السُّكَّر وسط انهيارات الأقاليم .

كان كيهات في الرابعة عشرة ، وبضعة شهور من عمره ، عندما خطفت بصرَه تلك الابتسامة من لينا وهي تضع ما اشتراه أبوه من لحم في ورقة خشنة ، صفراء بُنيَّة شاحبة ، ممعوسة قليلاً ، طوتْها بأناةٍ على اللحم ، ومدَّت اللفافة إليه ، وليس إلى أبيه واقفاً إلى جواره .

بعد يومه ذاك ، الذي أرْعَشَ الوترَ الأول ، الدافئ الرنين في قيثارة دمه الفتيِّ ، توكَّل كيهات ـ متَّبعاً إرشادات أبيه في ما يُراد من لحم هبرة ، أو بعظم ، أو مفروم ـ أمرَ الشراء بنفسه من حانوت راحيل : اللحم أقرب في حانوتها إلى بيتهم من السوق الكبيرة قبالة المسجد الكبير ، بسقفها المديد فوق عرْصتها الواسعة ، ودكاكينها ، وحوانيتها ، وأكشاكها ، ومساطبها الفوضى في عروض الخُضار .

بعد كل ظهيرة من أيام الخميس ، حيث مطلع عطلة نهاية الأسبوع التي هي ذلك النصف من اليوم ثم الجمعة بأكملها ، تظهر لينا في حانوت أمها ، مرتدية مئزراً أسود ، عاكفة على جمع بقايا العظام ، وإعادة تعليق القطع المتناثرة من أعضاء الذبيحة إلى الخطاطيف المتدلية من عمود السقف ، وتنظيف منضدة قَطْع اللحم ، وبَتْرِ العظام ، والفرْم بالساطور ، كَشْطاً بالشفرة مما يعلق بها من الَشحم ، ومن كَسارة تهشيم العظام والنخاع

المنتثر ، بعد أن تُبطئ حركةُ الطالبين شراءَ اللحم من ناس ملَّتها .

موعد كيهات مع الحانوت ، حين ترغب العائلة في طعام من اللحم مرة ، أو مرتين أحياناً ، في أسبوعهم ، هو ما بعد ظهر الخميس ، أو صباح الجمعة . عند راحيل ثلاجة من عريقِ صُنعها الضخام ، السِّماكِ الجدران ، داخل البيت وليس في الحانوت ، غير المضبوطة درجاتٍ في برودتها ، التي تنحدر أحياناً إلى صقيع . حِفْظُ ما يتبقى من لحمٍ مضمونٌ . ذلك يُريحُ كيهات كغيره من الشارِيْنَ .

لا بَيْعَ يوم السبت :

تعطيلٌ في الحانوت ، وفي الحيِّ ، وفي الحياة على قَدْر الضرورة ، بحساب التدبير الدِّيني للتعطيل .

لكنه يوم شروق الأسبوع الإسلامي على الأعمال ، بعد جمعة جَمْعِ العقول الشاردة ، مقيَّدةً بذكرِ الله ، واجتماع البشر المختلفين أهواءً ، وطبقات ، تحت سقف المسجد .

يومٌ يستكره اليهودُ الأعمالَ أن تلهيهم عن خضوع القلوب ، والعقول ، لتقديم تبجيلها لإلههم ، تماماً ككراهية كيهات للمدرسة بعد يوم ونصف يوم من سهو عقله ، وقلبه ، عن تقديم التبجيل لأيِّ شيءٍ إلاَّ لإلهِ لهوِهِ .

غير أن كيهات ـ على قرب بيت أهله من تصاريف الحي اليهودي لقواعد الإيمان تعطيلاً للأعمال ، وإِحْقاقاً للمناسك عن ذهابٍ إلى الكنيس بُكْوْرَةً بالقبعاتِ اللَّاطيةِ الكِيْباه ، صغاراً وكباراً ، وإحياءً للشعائر في الأيام القُدسية والاعتباريةِ من التقويم السنوي ـ يحسُّ ببعض اللاتوافق بين مُعْتَقَد لينا عن تعظيم السبت تعطيلاً للأعمال إلاَّ أعمال الاستغفار والنجوى ، وبين ذهابها إلى المدرسة في ذلك اليوم . لا خيارَ للينا بالطبع . المدرسة ، في قامشلو ككل أرض سوريا ، تقع إلى الجانب الإسلامي من تصنيف الأيام تعطيلاً ، أو إلزاماً بالعودة إلى الأعمال ، التي أكثرُها شقاءً

في الوجود عند الأطفال ، والفتيان ، والشبان ، العودةُ إلى المدرسة .

لربما تُرْفَع تلك الكراهيةُ للمدرسة كالستارة عن قلب كيهات لحظاتٍ ، في عبور لينا قرب بيتهم إلى المدرسة شمال الحيِّ الغربي ، أو في مواكبته لها ، عن بُعد ، إن وافقتْ عودتُها من المدرسة ، ظهراً ، عودةَ كيهات من مدرسته جنوب غرب المدينة ، مُذ يلزمهما للوصول إلى منزليهما عبورُ الطرق ذاتها شرقاً ، ثم جنوباً إلى نهاية الحيِّ اليهودي ، منتهياً بحدوده ، هناك ، إلى مجاورة العراء الواصل إلى حقول القمح والشعير .

زميلان آخران ، يهوديان من صفِّه ، يعبران متقدمين عليه ، أو متأخرين عنه ، الطرقَ ذاتها إلى بيتيهما في الحيِّ . وهو يتفادى أن يلحظا عليه لهفة خطاه في مواكبة الفتاة عن بُعد . وهما لن يلحظا ذلك منه ، على أية حال ، مذ يستغرقان في محاورات خفيضة برأسين متقاربين ، وعيون يحدِّقان بها كلٌّ في وجه الآخر ، من غير نظر إلى الأرض ليرشدا خطواتهما آمنةً .

ابتعد كيهات ، منجذباً بالهيئات الذهبية لصِوَر لينا الأثيرية ، عن حانوت عزرا ، مكملاً تجواله في الشارع المستقيم متناظِرَ الحوانيت على جهتيه . مرتين ، ذهاباً وإياباً عبرتْه مركبتا «الجِيْبْ» العسكريتان برجال أمن الدولة فيهما ، تحت سقيفتي قماشي هيكلهما الخشنين كقماش الخيام العسكرية . نظراتٌ هي ذاتها ، من وراء الزجاج الأسود لنظاراتهم ، متفحِّصةً ، مدقِّقةً ، متحرِّيةً ، متقصِّيةً ، لاسعةً ، لاذعةً ، لادغةً .

كيهات تعمد ، في المرتين ، النظرَ جانباً يتلافى التقاءَ بصره بأبصارهم . وقف مرات قليلة أمام حوانيت فتحت ، كحانوت عزرا ، أنصافَ دِفاف بواباتها ، كأنَّ العطارين القلَّة أولئك ، وبعضاً آخر من بائعي القماش ، متهيئون ، متحفزون ، مستوفَزون لإغلاق أنصاف الدفاف المفتوحة ، على عجلٍ إن اقتضى أمرٌ طارئ .

عابرون قلَّةٌ آخرون ، مثل كيهات ، حملوا فضولهم في عيونهم إلى السوق ، تنخزهم التوقُّعاتُ بأناملها ، في اليوم الجديد من أيام الحرب سمعوا فيها ، مرة واحدة ، عجيجَ طائرة حربية نفَّاثة ، رعدية المعدن تهويلاً بإسقاط السماء على الأرض .

إنهم يهود حقاً ، مطوَّقو الخصور ، فوق ثيابهم الطويلة كلٌّ ثوب قطعة واحدة ، بأحزمة عِراضٍ من القماش ، ملونة ، ويعتمر بعضهم شالات على الرؤوس أُحيطت بعصائبَ سودٍ ، اتقاءً لحرارة النهار ، والبعض الآخرُ حاسِرو الشالات عن الرؤوس ، منسلةً على الأكتاف .

ما من نساء صادفهن كيهات مع العابرين القلَّة فرادى ، أو مَثْنى مثنى . الغبارُ المنقذف دفْعاً متقطِّعَ الموج ، من هياج الهواء ، محمولاً عن زوايا الطوار في الرصيف ، كان كئيباً . لا يكون الغبار كئيباً عادةً . الغبار بلا أحاسيس مُذ تكفيه أحاسيس المصطدمين به يغمضون أجفانهم أحياناً ، أو يشيحون بوجوههم عنه ، سواءٌ أفي غزوه العاديِّ زاحفاً ، أم في هياجه مثيراً زوابعَ صغاراً على الإسفلت ، وكباراً عواليَ في الأعراء .

كئيباً كان الغبار الذي أغمض كيهات عينه اليسرى ، مراراً ، من هبوبه عليه ، في الشارع المستقيم . لقد عنَّ له ، أحياناً ، أن ينعطف إلى شارع آخر يُنجيه من هاتين الدوريتين المرْكبتين ، الراصدتين بمَن فيهما من رجال أمن الدولة أرواحَ المارَّة ، وأرواح الحوانيت ، وأرواحَ الظلال المتشققة من حول الحوانيت ، وروحَ الغبار ذاته الخاصِّ بالحي اليهودي .

كان قرار كيهات أن لا يعود إلى البيت من غير لحم . الثلاثُ الليرات الورقية مطوية بأناةٍ في جيبه ، لصق فخذه اليمنى ، لذا حدَّد لقدميه مساراً يصله إلى الجامع الصغير ، ثم المسجد الكبير الأبعد ، حيث السوق الفارهة ذات العرْصة المسقوفة بالصفائح المعدِن .

أنزل كيهات بصره أرضاً في مشيه ، لا يرى إلاَّ طوار الرصيف

المنخفض ، المتفلِّع ، المهترئ لم يرمَّم قط منذ إنشائه ، ولا يرى سوى قدميه في الخُفِّ الصندل البلاستيك ، البسيط الشرائط ، ذي الأخمصين الإسفنج المضغوط لا يقوى على الصمود شهرين من أشهر الصيف ، فينخلع ويتشقق .

آثر كيهات أن لا ينظر إلى عابر ، أو حانوت ، أو الدوريات العسكرية أُضيف إليها شرطيون راجلون ، أو على دراجات هوائية ، بمناديل في الأيدي يمسحون بها عرَقهم حول أطواق قبعاتهم ، وأطواق قمصانهم حول الأعناق .

همدت الحياةُ ساكنةً ، بلا صوت ، إلاَّ طقطقة عَقِبَيْ خُفَّي كيهات الحُرَّيْنِ في صفقهما عقبَيْ قدميه العاريتين ، قبل أن يناديه صوت من الطوار المقابل للطوار الذي يمشي عليه :

«كيهات» ، ناداه الصوت .

التفت كيهات إلى مناديه . هتف بدوره :

- رحيم .

نزل كلٌّ منهما عن الطوار إلى الرصيف ليمشيا متجاورَيْنِ في وسطه .

ثمَّتَ منزلان لا غير ، لعائلتين كرديتين ، يقعان إلى النهاية الشمال من الحيِّ اليهودي ، على قُرب من منازل السِّرْيان . رحيم هو الإبن الثالث لإحدى هاتين العائلتين ، زميلُ كيهات في المدرسة .

كان في ثوب صيفي كعادة الكُرد في الشمال صيفاً بالأردية البَيْج ، الأشبه بقمصان من قطعة واحدة ، طوال حتى أعقاب الأقدام ، منتعلاً خُفاً كامل القماش كحذاءٍ ، رمادياً ، بسيور بيض ، عَكِرةِ البياض ، من لعق الغبار للون حتى انقلابه على نفسه كأنه لونٌ آخر .

التقى المراهقان على الفاصل القصير في نهاية سوق اليهود ، المؤدي بانعطافٍ من أمتار قليلة إلى طريق دار سينما غَرْبَيْسْ الصيفية . تبادلا تقديرات لمسار الحرب ، كلٌّ منهما بحسب آخر زمجرةٍ للأخبارِ وطبول موسيقاها في

المذاييع ، مُرفَقةً بظنونهما ، وتخميناتهما في أحوال الأيام القوادم .

«ماذا سيفعل يهود هذا الحيّ؟» ، سأل رحيم زميلَه كيهات .

«أظنّهم سيعلنون إسلامهم» ، رد كيهات .

«ماذا؟» ، تساءل رحيم ، الطويل الوجه طَرَّ شارباه بشعرٍ متفرق على شفته العليا ، وعلى سالفيه ، وجزء من ذقنه .

«ماذا تعتقد أن عليهم فعلَه؟» ، تساءل كيهات بدوره .

تفكَّر رحيم برهةً . لم يأت بردٍّ ، بل بسؤال :

– أستعاقبهم الدولة لأنهم يهود ، يا كيهات؟

ضيَّق كيهات بين جفني عينه اليمنى غير واثقٍ من اقتدارهما تخمينَ الآتي . تساءل عفو الخاطر :

– هل يهود سوريا عرب؟

«يهودٌ عرب؟!» ، عقَّب رحيم مستغرباً . مطَّ شفته السفلى تدليلاً على نقصان معرفته بالأعراق ، ثم ابتسم متسائلاً بنبرٍ ساخر :

«أنحن أكرادٌ عرب؟» .

أخرج كيهات نصف لفافة التبغ من جيبه . وضعها بين شفتيه . أخرج عود كبريت من أعواد يحفظها فَرْطاً . أدار بصره على الأرض الإسفلت يتوسل جزءاً مَّا مستوياً ، غير خشن ، ليشعل العود حكاً به .

«معي قدَّاحة» ، قال رحيم . دسَّ يده في جيبه الأيسر فاستخرجها . ضغطَ الجزء الخلفيَّ من الغطاء المعدن مرتين . أشتعل الفتيل .

أشعل كيهات لفافته الناقصة . تنشَّق من الدخان نَفَساً عميقاً . مدَّ اللفافة إلى رحيم .

استنشق رحيم ، بدوره ، نفساً بلَّل بدخانه لوعةَ رئتيه . سأل زميله وهو ينفث الدخان من منخريه :

– مَن جاء بهذه الحرب؟

«لا أحـــد يرغم الحـــرب على المجيء . هي تجيء حين تريد» ، رد كيهات .

ارتبك رحيم بغتةً . دفع زميله من خاصرته بأبعده عنه ، مُذ قدِمَت سيارة «جيْبْ» عسكرية ، مسرعة ، في اتجاههما من الجنوب .

تفرق المراهقان على عجلٍ إلى جانبي الرصيف ، مفسحيْنِ للسيارة عبورَها المتوهج يقيناً بمهمتها . تأملاها لحظات ، ثم تقاربا من جديد ماشيين صوب دار السينما .

«ماذا سيحدث ، يا رحيم؟» ، تساءل كيهات عائداً بلسانه إلى أمر الحرب .

«سيهجم العرب من كل الأنحاء على الإسرائيليين» ، رد رحيم .

«عندهم أسلحة قوية» ، عقَّب كيهات .

«مَن؟» ، تساءل رحيم .

«الإسرائيليون» ، رد كيهات .

«ماذا ستنفع تلك الأسلحة؟ سيهجم العرب عليهم ، وكلما أُبيْد منهم مجموعٌ سيلحق بهم مجموعٌ آخر» ، رد رحيم .

«أمريكا قوية . وهي تحمي الإسرائيليين» ، عقب كيهات .

«أمريكا بعيدة ، يا كيهات» ، قال رحيم ، فعقَّب كيهات تذكيراً :

– لديهم طائرات لا تُحصى ، وبوارج ، وغواصات .

«سيتأخرون» ، قال رحيم .

«ماذا سيحدث إذاً؟» ، سأله كيهات .

«قلتُ لك ، يا كيهات ، إن العرب ملايين . سيهجمون جماعات وراء جماعات . ستنتهي ذخائر الإسرائيليين . سيأكلهم العرب» ، رد رحيم . أردف : «سترجع فلسطين للفلسطينيين» .

«ماذا عن يهود قامشلو؟» ، سأله كيهات ، فرد رحيم :

– سينضمون إلى حزب البعث . لا خيار لهم . أو يعلنون إسلامهم .

«هذا لن ينفع» ، عقَّب كيهات . «عليهم أن يصيروا عرباً» .

«كيف؟» ، سأله رحيم ، فرد كيهات :

– لا أعرف . لكن مؤكدٌ أن لدى الدولة خططاً لذلك .

«كيف تعرف هذا؟» ، سأله رحيم ، فرد كيهات :

– ماذا نحن الآن؟

«نحن أكراد» ، ردَّ رحيم .

«أتستطيع قولَ ذلك في المدرسة ، أو في أية دائرة رسمية من دوائر الدولة؟» ، سأله كيهات . استردَّ بقيةَ لفافة التبغ من يد صاحبه . استنشق دخانها . أبقى اللفافة ، المتقاصرة جداً باحتراقها ، بين شفتيه . استعرض أصابعَه عليها أثرُ الزرقة .

«أصابعك ليست أكثر زرقة من أصابعي» ، عقب رحيم وهو ينظر إلى يدي كيهات . بسط راحتَيْ يديه أمام بصريهما .

«يلزمك تنظيف بالكاز؟» ، قال كيهات .

«أنظفت يديك بالكاز؟» ، سأله رحيم ، فرد كيهات :

– نعم .

«لم ينفع الكاز كما أرى» ، عقب رحيم .

«الكاز مغشوش في هذه الأيام ، يا رحيم» ، قال كيهات . استدرك : «لم ارَ على يدي رجل المخابرات ، ولا على يدي الشرطي ، أثراً من الزرقة» .

«نظَّفا أيديهما بكاز غير مغشوش ، يا كيهات» ، عقب رحيم .

«أو ربما جاءا بمساجين يصبغون لهما زجاج النوافذ» ، تكهن كيهات .

«هذا محتمل» ، أكَّد رحيم .

«أو ربما لم يصبغا زجاج الشبابيك في بيتيهما» ، قال كيهات مستطرِداً تخميناته .

«ماذا يعني ذلك؟» ، تساءل رحيم ، فردَّ كيهات :

- ربما يعرفان أن بيوت قامشلو لن تُقصف ، حتى لو أُضيئت الأنوار من غير طلاء أزرق على زجاج النوافذ .

«أهذه حربٌ حقاً؟» ، تساءل رحيم بنبرٍ لا مكترث .

«ماذا تظنها ، يا رحيم؟ نعم هي حرب . أتسمع المذياع؟» ، سأله كيهات . أردف : «أعندكم مذياع؟» .

«عندنا أفضل نوع . عندنا ماركةُ سِيْرَا» ، رد رحيم .

«لماذا حين يشتغل مذياع سيرا تكون العين الزجاجية في قماش واجهته حمراء؟» ، سأله كيهات .

«في مرحلة التسخين الأولى تكون عين المذياع حمراء» ، رد رحيم .

«ما المعنى أن تتحول عين مذياع سِيرا من الحمرة إلى الخضرة بعد التسخين؟» ، سأله كيهات .

تأمل رحيم كلمات كيهات وملامحه معاً . حاول تقريب شرحٍ مُقْنع لا يُلزِمُه بالدفاع عنه :

- هكذا هو تصميمه .

«أليس الأفضل أن يبدأ المذياع ، حين تشغيله ، بعينٍ مثل البقدونس ، ثم تتحول العين إلى لون أحمر كصباغ شفاه النساء المسيحيات؟» ، تساءل كيهات .

«ما الفرق بين اللونين ، يا كيهات؟ المعنى كله أن العين الزجاجية إن أخضرَّت ، فقد بات بوسعنا إدارة الإبرة على لوح الإذاعات لالتقاطها» ، قال رحيم .

«تبدأ عينُ سيرا حمراء ، ثم تصير خضراء» ، عقَّب كيهات . أمسك بعضد زميله : «قُلْ لي : هل اللون الأخضر أفضل للإعلان عن أن المذياع بات حياً ناطقاً ، أم اللون الأحمر؟» .

«ما الذي تريد الوصول إليه ، يا كيهات؟» ، سأله رحيم بصوته العجول النبر ، فردَّ كيهات :

- للأخبار الصحيحة دائماً لون أحمر .

«ما أدراك؟» ، سأله رحيم .

«فكِّرْ قليلاً ، يا رجل» ، رد كيهات .

توقف رحيم عن مشيه ، ليس ابتغاء التفكير ، حقاً ، في تلاعب الألوان بالحقائق ، وتلاعب الإنسان بالحقائق في تقديره لمعاني الألوان : لقد لفَتَه ذلك الملصقُ الورق الكبير معلقاً إلى جدار سور دار سينما غَرْبِيْسْ ، في إطار خشبي مغطى بشبك من الأسلاك واسع الخروم ، كي يُرى الملصق بألوانه واضحةً عن قُرب ، أو عن بُعد . تمتَم يقرأ عنوان الفيلم :

- الفارسُ القِرمِزي .

فارس على جواد أسود ، مهتاج ، واقفٍ على قائمتيه الخلفيتين بفم مفتوح عن صهيل . فارسٌ ثيابه قرمزًية . عباءته قرمزية . عمامته قرمزية غطى بذَيلها الطويل نصف وجهه الأسفل كقناع ، شاهراً سيفاً معقوفاً من إرث صناعات الشرقِ الغزاة .

سينما غَرْبيس موزَّعة دارين . إحداهما وسط المدينة أقرب إلى شمالها ، مسقوفة للفصول طوال العام ، ودار على قرب من الحي اليهودي لعروض الصيف فقط ، بلا سقف ، ذات سورٍ عالٍ من اللَّبِن ، وجدار في جهتها الشمالية أعلى من السور ذاته ، من إسمنتٍ كشاشة للعرض . أرضها حصى . كراسيُّها قش وخشب ينقلها المشاهدون أنَّى شاؤوا من أرجاء عَرْصتها الواسعة ، الشاسعة . للبيوت القريبة منها حظٌّ سكانها من الصعود إلى السطوح لرؤية الأفلام معروضة في الدار التي تتدلى أقدامُ السماء من سقفها المفتوح على أكتاف المشاهدين .

الفيلم ذاته تتقاسمه دارا السينما . للصيفية من الفيلم عَرْضان مساءً وليلاً . وللمغلقة بسقف ثلاثة عروض متواصلة من العصر حتى آخر الليل . اسما الداريْنِ من كُنية مالكهما غَرْبيسْ ، الذي حاز شهرةَ اسمه من داريْهِ ، في مدينة الشمال قامشلو ، المُترفة بخمس دور للسينما ، وسادسة صيفية أيضاً ، لم يَطُلْ عمرُها هي سينما فؤاد .

«الفارس القرمزي» ، الفيلم المؤجَّل عَرْضاً بتدبير الحرب المجحف من تأجيل المباهج ، وإلغائها ، لهُ ملصقه المرفوع على لوح خشبي ذي سيقان أمام بوابة دار السينما المسقوفة ، رآه كيهات قبلاً ، نسخةً من المعروض على جدار سور السينما الصيفية . صناعة أمريكية للمغامرات على لواعجِ الحُبِّ وانتصاراته بانتصار البطولة . أخو كيهات الصغير موسى كان لِيَذوبَ حسرةً لو رافقه ذلك اليوم عبورَه ، من السوق جنوباً إلى نهايته شمالاً عند دار السينما الصيفية . لكنَّ قلبه ، بالتأكيد ، كان رهين حصار سينما شهرزاد الأقرب إلى توأم هذه الدار القريبة من حيِّ اليهود ، أي دار غرْبيس المغلقة بسقف عليها للفصول كلها ، وبمراوح كبار فيها للتهوئة ، وبإدارة مبكِّرة للتدفئة بمواسير المياه الساخنة لصق الجدران كنظام .

على بُعد أمتار قليلة من تلك الدار المسقوفة للفصول كلها ، توأم الدار الصيفية إسماً ، تقع دار سينما شهرزاد بالملصق المرفوع أمام بوابتها ، مُعلِنَةً قدومَ شارلي شابلن ، الذي عطلته الحربُ عن إظهار معجزات الصمت في اللونين الأسود والأبيض ـ المعجزات الأكثر جلالاً ، وسِحراً ، من معجزات المعتقدات .

«هذا فيلم أمريكي» ، قال رحيم محدِّقاً إلى الملصق الملون بحجم كبير . «في المذياع نداءات إلى تمزيق أمريكا المتحالفة في هذه الحرب مع الإسرائيليين» . أرجع بصره عن الملصق إلى زميله كيهات : «لماذا أنت في سوق اليهود اليوم؟» ، سأله .

«عندي فضول إلى ما سيفعله اليهود في الحي ، وفي السوق» ، رد كيهات .

«ماذا تظن أنهم سيفعلون؟» ، سأله رحيم .

«أمرُهم محيِّر» ، ردَّ كيهات . رفع يديه مستنجداً بما يمكن إعانةَ عقله على فهم : «أليسوا سوريين؟» .

«نعمْ . مثلنا» ، رد رحيم مبتسماً .

«إذنْ هم سوريون» ، عقب كيهات بنبرٍ مطمئنٍّ إلى استنتاجه .

«مثلنا» ، كرر رحيم تعقيبه .

تنبَّه كيهات إلى نبر السخرية في تعقيب زميله . ارتجل ما جادت به نباهتُه عليه :

- ألسنا سوريين حتى لو امتنعت الدولة عن منحنا الجنسية السورية؟

«نعم ، يا رجل . أنت سوري بلا سوريا» ، ردَّ رحيم بمرح في نطقه الكلمات بالعربية ، مُذ عائلته ، كعائلة كيهات ، لم تحظَ في إحصَاء الدولة سوريِّيها ، مطلع ستينات القرن العشرين ، بشفقة الدولة على عرقه ، فتجاهل الإحصاءُ عشرات الآلاف منهم . ثم أُدرجوا في السجِّلات الرسمية تحت تعريفٍ غامض : «الجنسية : مَكتْوم» ؛ أيْ لا أحد يعرف .

«عمَّ يبحث رجَال الاستخبارات ، والشرطة ، في حيِّ اليهود ، يارحيم؟» ، سأله كيهات ، وهو يمرِّر ظاهر أنامله الأيامن على الغطاء الشبك المعدني ، الواقي مُلصقَ «الفارس القرمزي» ، على نحوٍ يستصدر منه نغماً برنين خشن .

«لا يبحثون عن شيء ، يا كيهات . إنها فرصةٌ استعراضية للتباهي بعظمتهم» ، رد رحيم .

«أيحتاج هؤلاء إلى التفاخر بظهورهم؟ إنهم الآلهة» ، عقب كيهات .

حدق رحيم لحظةً صامتة إلى الملصق ، ثم أعاد عينيه إلى كيهات :

- أمعك لفافة أخرى؟

«ما دخَّنَّاه ، قبل قليل ، كان آخر ما أملك من تبغ» ، رد كيهات .

هَأْهأَ رحيم بنبرٍ ساخر :

- آخر ما ملكتً كان نصف لفافة .

نقر كيهات بسبابة يده اليمنى على جيب رحيم ، فوق ثديه الأيسر :

- أمعك قدَّاحة ولا تبغَ؟

«القداحة احتياطٌ دائم ، يا كيهات ، إن عثرتُ على أعقاب لفافات لم يستكمل المدخنون ذبحها حتى آخر نَفَس» ، رد رحيم . دار ببصره على الأرض ، لصق جدار سور دار السينما . همهم : «لم يدخن أحد هنا منذ ألف سنة» .

«ما أنواعٍ التبغ التي كانت سائدة قبل ألف سنة ، يا رحيم؟» ، سأله كيهات ثرثرةً .

«بَافْرَا . يَنِيْجة . مرجان . سمسون . الناعورة . الريف . خصوصي للجيش» . نطق اسم التبغ ، الذي خصَّت الدولةُ به الجيش السوري ، بحروف عربية ممطوطة .

تبغٌ يباع رخيصاً للجنود بَيْعاً قسرياً من ضمن راتب الجندي الرمزي ، الذي لا يكفيه نكاح عاهرتين في شهر ، في الأيام المخصصة أسبوعياً للجنود من كل مبغى في أرجاء الدولة ، بأسعار متهاودة . تبغ رديء ، جافٌّ ، متفتت ، ملفوف بورق خشن يفوق لذعُ احتراقه للرئات لذعَ دخان ذلك التبغ المجهول المَصْدر ، أو هو ـ ربما ـ نُفايةُ ما يتبقى من تبغ وسُقاطَتُه .

لكن يفوق تبغَ «خصوصي للجيش» غرابةَ مَصْدرٍ من مَنابت أعراق التبغ ما يُباع تحت اسم «الناعورة» من عُلَب اللفافات . كلُّ لفافة أكثر ثخناً من قلم تْرُوْبِّنْ ذي التاج الذي على قمة غطائه الأسود . ورقٌ محشوٌّ تبغاً لن يهتدي أحدٌ إلى ما يَصْلُح للإعدام دخاناً أكثر من دخانه . يدخِّنه

المحترفون تدخيناً ثقيلاً فقدوا معه رئاتهم منذ سنين ، فلا يدخل الدخان ، حين يستنشقون دخان ذلك التبغ ، إلى رئاتهم المفقودة ، بل إلى الأدمغة فوراً ، وإلى العظام المُصمَّتة والمجوَّفة .

«يا رحيم ، حين لا يكون معنا تبغ ، في مثل حالنا الآن ، فإن لفافة من «خصوصي للجيش» ، أو الناعورة ، هي لفافة من الجنة» ، عقَّب كيهات على الاحتقار الذي أبداه زميله لنوع منهما . أردفَ : «أبونا ، ونبيُّنا الأول آدم ، جلب معه التبغ من الجنة» .

«كيف تعرف هذا؟» ، سأله رحيم ، فردَّ كيهات :

- أقرأُ التايخ .

«وماذا أيضاً جلب نبيُّنا آدم من الجنة؟» ، سأله رحيم .

«الكَلْبَتَان ، الذي كاد أبي يسميني باسمه» ، ردَّ كيهات .

«الكلبتان؟!» ، تساءل رحيم مستغرباً . غمز صاحبه : «إسم الكلبتان أَلْطَف من اسمك يا كيهات» . أضاف : «ماذا أيضاً؟» .

«ماذا تعني؟» ، تساءل كيهات .

«ماذا جلب آدم من الجنة غير التبغ والكلبتان؟» ، تساءل رحيم .

«جلبَ خالتنا حواء» ، رد كيهات .

«خالتنا؟!» ، تمتم رحيم مستظرفاً .

«عمَّتنا حواء» ، قال كيهات .

«هي أُمُّنا الأُولى ، يا كيهات» ، عقب رحيم .

«آدم أبونا الآول . أُمنا الأولى هي التي أنجبتنا . أمك هي الأولى . أمي هي الأولى» ، قال كيهات .

«ومن هي حواء إذاً؟» ، سأله رحيم .

«خليلةُ أبينا الأول السِّرية» ، رد كيهات .

«أأصابك مطلعُ الصيف بالخرف ، أم الحربِ؟» ، عقب رحيم .

«لا خَرَفَ في هذا» ، قال كيهات .

«إن كانت حواء هي خليلته السرِّية ، فَمَن زوجتُه إذاً ، يا قارئ التاريخ؟» ، سأله رحيم .

«أُمَّهاتنا كلُّهنَّ» ، رد كيهات .

قهقه الإثنان معاً . صفعا بيديهما اليُمنيين الشبكَ المعدنيَّ الواقي مُلصقَ «الفارس القرمزي» .

توقفت القهقهة . بادر كيهات صاحبَه بسؤالٍ :

– أأوجدَ اللهُ المدارس في الجنة؟

«ماذا؟» ، تمتم رحيم وهو يمغط شدقيه بعد القهقهة .

«مَن الشيطان الذي اخترع فكرة المدارس؟» ، سأل كيهات زميله . قرَّب وجهَه منه : «أستفتح المدارس أبوابها هذا العام؟» .

«نحن في أول الصيف . نحن في مطلع العطلة الصيفية» ، رد رحيم . «بيننا وبين العودة إلى المدرسة ثلاثة شهور» . قطَّب حاجبيه : «سينتهي العرب مِن أكل الإسرائيليين» . ابتسم متفكِّهاً : «قد تنقلنا الدولة إلى مدارس جديدة في فلسطين» .

«حتى الطلابَ الأكراد؟» ، تساءل كيهات .

«ربما إنِ انتسب آباؤنا إلى حزب البعث» ، رد رحيم .

«ماذا تشبه فلسطين؟» ، سأله كيهات .

أمال رحيم رأسه إلى جهة كتفه اليمنى مرة ، فاليسرى مرة . ردَّ :

– تشبه لفافةَ تبغ بين شفتيَّ الآن .

«أمعك نقود؟» ، سأله كيهات .

«نقود؟» ، تمتم رحيم .

«هل اشتريت ، قطُّ ، علبة تبغ؟» ، سأله كيهات .

«لماذا أشتري علبة تبغ وهناك من يبيع اللفافات مُفرَّقةً؟» ، رد رحيم .

«مجرد سؤال» ، عقَّب كيهات . أردفَ : «قد أشتري اليوم علبة بتمام ما فيها من لفافات» .

«أمعك نقود؟» ، سأله رحيم .

«نقود؟» ، تمتم كيهات متفادياً أن يجيب .

اقترب منه رحيم . مدَّ يديه معاً ، كل واحدة إلى جيب من جيبَيْ كيهات ، ليتحسَّسهما ، فابتعد كيهات بقفزة إلى الوراء . تحرَّك مغادراً سور دار سينما غرْبيْسْ الصيفية . تحرك رحيم أيضاً يماشيه .

«أين يقع بيتا زميلينا اليهوديين؟» ، سأل كيهات زميله متصنِّعاً جهْلاً بمكانيهما ، فرد رحيم :

– بيت سمير في أول الشرق من الحي ، وبيت نعيم هناك .

«أين؟» ، سأله كيهات متتبعاً بعينيه إشارة يد رحيم إلى جهة الشوارع الغربية ، الموازية لشارع دار السينما .

«أسيلتحقان بالمدرسة هذا العام؟» ، تساءل كيهات .

«أذهبا إلى الحرب؟ طبعاً سيعودان إلى المدرسة» ، رد رحيم .

أبْطأَ كيهات مشيه . تطلَّع تحديداً إلى خُفَّيْ زميله . سأله :

– إلى أين أنت ذاهب؟

«سأرافقك» ، رد رحيم . اردف : «ألن تشتري علبة تبغ؟» .

«ليس اليوم» ، رد كيهات مبتسماً يتملَّص من مرافقة رحيم له .

«أُقسم أنك ستشتري تبغاً» ، قال رحيم .

«سأشتري لحماً . تأخرتُ على البيت» ، عقَّب كيهات . استعجل خطواته ، ثم ركض ضاحكاً وقد رفع حتى ركبتيه حواشي ثوبه الطويل .

رفع رحيم أيضاً حواشي ثوبه عن ساقيه العاريتين راكضاً يتعقب زميله . أطلق صوتَه العجول النبر :

– أُقسِم بخالتك حواء أنك ستشتري تبغاً .

بعد دقيقة من السباق ركضاً قوياً توقف رحيم عن اللحاق بزميله، فتوقف كيهات على بُعد أمتار منه عن الركض. التفت إلى رحيم. ناداه:

- يا ابن آدم. لماذا لم يجعل اللهُ غذاءَ البشر مقتصِراً على تدخين التبغ؟

هزَّ رحيم رأسه من بُعد. لوَّح بذراعيه معاً:

- سيكون.

«ماذا سيكون؟»، سأله كيهات.

«الحوريات وأنهار الحليب والعسل، يا كيهات»، رد رحيم في سياقٍ غير مترابط.

«أتتحدث عن الجنة؟»، عقَّب كيهات.

«نعم»، رد رحيم.

«أين التبغ؟»، تساءل كيهات.

«هذا ما سيكون، يا كيهات: حوريات، وعسل، وحليب، وتبغ»، رد رحيم.

«أنا ذاهب إلى المسجد الكبير»، عقَّب كيهات بصوت عالٍ. أردف: «سادخل الجنة».

قطعَ كيهات شوارع عديدة في عبوره إلى شمال المدينة، من وسطها، حيث المسجد الكبير. كان بَعْدُ على إصرار قلبه أن يشتري اللحم من السوق المسقوفة، ذات الحوانيت، والدكاكين، والمساطب، والأكشاك، الواسعة العَرْصة على قُرْبٍ من حماية الله لبيته.

مرَّ من أمام سينما فؤاد المسقوفة، التي فقدت توأمَها الدارَ الصيفية، إلى السوق بعينين تفحَّصتا المُلصق المعلق إلى جدار الجانب الأيسر من بوابتها الحديدية القضبان. ملصق بلونين هما الأصفر والأحمر لفيلم مصريٍّ الصناعة، مُذ لم تعهد أيةُ دولة من دول العرب، إلاَّ مصر، صناعة أفلامٍ.

«بيتُ الله الحرام» ـ ذلك كان عنوان الفيلم ، بقصَّة من مقتبسات الكتب المدرسية نقلاً عن مصادر التأريخ الإسلامي لوقائع العالم ، وأحواله في العصور ، بلا إغفالٍ لطول قَدَم آدم ، وحجم الآلةِ الكلبتان معه في النزول مطروداً من الفردوس ، وأشعاره الأوائل في رثاء إبنه هابيل ، ونزول الثور الأحمر من السماء إليه ليحرث به الأرض ، وأولِ نبيٍّ من نسلِ قابيل سبى النساء ، وأولِ من ركب ظهر إبليس ، من ملوك فارس ، فطاف به أقاليم الأرض ، ووصفِ خَلْقِ لوياثان ـ الحوتِ حاملِ الكُرة الكوكب وماعليها ، وتعيينِ المقدار الباقي من عُمْر الوجود بحسابٍ دقيق لأعمار الأنبياء .

حكايةٌ من ثقة الرواة بالأسلاف الثِّقات في أقاصيصهم هي حكاية فيلم «بيت الله الحرام» : ماجَرِياتُ غزوٍ بالفِيَلة أقدم عليه لعينٌ من أرض أُمّ السودان ، يروم هدمَ الكعبة ، في حربٍ حُجبت أسبابُها التجارية ، وأُظهِرتْ بدائعُ المعجزات : طيورٌ اسمها «أبابيل» ، لم يستقرَّ خيالُ التصنيف على تحديدها أهي السنونو أم الخُطَّاف ، هزمتِ الجيش العرام بحجارة نارٍ في مناقيرها ، من حمم البَراكين في السماء ، وأحرقت الأفيال بجلودها السِّماك ، وأنيابها العاج ، وخراطيمها القادرة على اقتلاع أشجار السِّدْر ، والنخل ، من جذور تاريخ التراب ، وتاريخ ما تحت التراب .

ريحُ موحشة الدَّفْق لاقت كيهات في المنعطف إلى السوق الكبير بروائح عطِنة ، عفنة ، من اختمار نفايات الخضار متراكمةً على أجناب الطَّوار العالي درجةً واحدة إلى عرْصة السوق ، المتعدد المداخل ، بين كل حانوتين ممرٌّ إلى الفضاء الوسيع ، محفوظٌ فيه لكل صاحب مسطبة ، أو كشك ، أو دكان ، حقُّه باستئجار يُدفع رسمُهُ للبلدية .

كانت عرصة السوق شبه فارغة بالقليل القليل من الخضار معروضةً على المساطب ذابلةً . سَلَك كيهات الممرات المستقيمة ، الضيقة ، بين

المساطب إلى أكشاك اللحوم المحيطة بأجناب العَرْصة من جهتين . بدا الكثير منها مقفلاً ، والبعض القليل ، المفتوح ، بلا لحوم معروضة ، يقف الجزارون أمامها بأكتاف مستندة إلى عوارض أبوابها ، أو يجلسون على الكراسي القصب القصار القوائم مدخنين تبغهم ، كأن من حَضَر حَضر ضجراً من البقاء في البيت ، أو ليتبادل مع جيران المهنة تقديرات في مجرى الحرب ، ومآلاتها ، على صوت مذياع واحد ، صغير ذي بطاريات ، وسِلْك لاقطٍ للذبذبات يوجهه صاحب المذياع ، كل برهة ، في اتجاه ، ليتصيدَ آخر صراخ من حناجر المذيعين للبيانات العسكرية بأصواتٍ صقلتها مباردُ من ضِرام الجمر في موقد التاريخ .

لا برّادات في أكشاك بيع اللحوم ، أو في سواها من دكاكين السوق وحوانيته . جزّارون متكيِّفون في البيع على مقادير من لحوم الذبائح لا يجاوزونها . أيْ يعرضون من لحم الغنم ، والماعز ، والأبقار ، ما يعرفون أنه كفايةٌ تُستَنْفدُ شراءً ، كي لا يعودوا إلى بيوتهم بشيء فائض إلاَّ ببقايا لطعام عيالهم وذويهم .

تفحَّص كيهات الأكشاك المفتوحة . لم يجد لحماً ، أو بقايا لحم معلَّقاً إلى عقفات الحديد المتدلية من سقوفها ، تجاورُها الشرائطُ اللوالبُ من ورق صيد الذباب بصمغه السكَّريِّ : ذباب كثير في السوق . ذباب مرفَّهٌ بالقمامة المرفَّهة ، غضوب ، حاقد ، بَطِرٌ ، جشعٌ ، في صيف الشمالِ الجشع .

سأل كيهات جزاراً ، ثم آخر ، عن لحم ، فأجابه في ضجر واضح أنْ ما من أحد منهم تجرَّأ على جلْبِ ذبيحة إلى كشكه :

- انظر من حولك ، يا فتى . كم من الزُّبن هنا؟

نعم . بشرٌ قليلون ، من مثل كيهات ، كانوا يجوبون الممرات بين المساطب ، مستعرضين الخضار بأيديهم تقليباً : بعض الكوسا المبقَّع بسواد .

بعض الباذنجان . بعض البقدونس الذابل جداً . بعض البصل اليابس ، والباميا ، والفلفل الأخضر ، والشمندر ، والبطاطا ، والملفوف ، والقُنَّبيط . أنواع متعددة ، لكن قليلة الكمِّ ، مقتصرة على حبَّات وأضاميم متناثرة على مسطبة هنا ، وأخرى هناك .

لا تباع الفاكهة في السوق الكبير ، المحظيِّ بحراسة الله قريباً من بيته المسجد الكبير . للفاكهة سوقُها المسقوفة وسط المدينة ، والأسيادُ بين الفواكه هم البطيخ الأحمر ، والأصفر ، والعنب صيفاً . هذه الأنواع ، في التصنيف الرصين للفروق بين الخضار ، والحبوب ، واللحوم ، هي فاكهة ؛ أيْ ما تعارفت الأذواقُ على موائد الطعام أنها ما يتخذه الإنسان تحليةً تعْقُبُ الوجبات المُشْبِعة . لكنها ، هي نفسها ، وجباتٌ كاملة في صيف الشمال :

البطيخ الأحمر مع خبز وجبنة ، أو من دون جبنة حتى ، وجبة غداء ، أو عشاء ، أو إفطار .

البطيخ الأصفر بخبز وجبنة وجبةٌ كاملة .

العنب مع خبز وجبة كاملة .

كمالٌ في الإنعاش ، وإرضاءُ شَبَعٍ إن جاعت البطون .

البطيخ الأحمر لا يعود فاكهةً حَسْبُ ، بل لحمَ ضأنٍ .

البطيخ الأصفر لا يعود فاكهةً فقط ، بل لحمَ دجاج .

العنب أصفرَ ، او أحمر ، لا يعود عنباً حَسْبُ ، بل لحمَ سمك .

تحيَّر كيهات . الليرات الثلاث الورقية كانت تخمشُ ، بنقوش الرسوم عليها ، جلد فخذه اليمنى . لكنْ لا لحمَ يشتريه فيلجم ذلك الخمش . أيشتري كوسا ، أو باذنجاناً للقلي؟ قد تثور أمُّه غضباً مذ الفكرة ليست فكرتها . أيشتري خضاراً؟ ما نفعُها؟

خيبة ساحقة أطاحت بخطته في شراء لحم ناقص الوزن ، يكلِّف أقل

من ثلاث ليرات بعضَ الفرنكات يشتري بها علبة تبغ لن يفطن أبوه إلى خدعته . مراراً فعلها كيهات بلا إثارة للريبة . ما الفارق الذي سيلحظه أبواه من نقصان الكيلو غرام مائة غرام؟

راحيل ، بائعة اللحم اليهودية ، كانت تنتبه إلى الطلب المريب من كيهات في شراء الكيلو ناقصاً مائةَ غرام . بعض الفرنكات أنقص مما يكلفه الكيلو كاملاً . مرة واحدة سألته :

- لماذا ٩٠٠ غرام ، وليس كيلو ، يا كيهات؟

«هذه الكمية تكفينا ، يا ستُّ راحيل» ، رد كيهات .

لكن راحيل لم تسأل أوسي ، والد كيهات ، حين كان يحضر لشراء اللحم بنفسه ، أحياناً ، لِمَ يشتري الكيلو كاملاً غير منقوص . ولن يعرف أحد ، بالطبع ، ذلك التواطؤ منها على تجاهل الفارق مائة غرام بين طلبات كيهات من اللحم ، وطلبِ أبيه .

الفرنكات السبعة هي ، قطعاً ، ما يستحصله كيهات من خداع أهله في شراء اللحم ، أو شراء أشياء أُخرَ من حوانيت البقالين ، ليبتاع علبة تبغ من نوع «الريف» الأرخص سعراً في تاريخ التبغ السوري .

لا لحم في السوق الكبير . كيف سيتدبر كيهات لنفسه ، إذاً ، تلاعباً بليرات أبيه الثلاث فيختلس من جيب كلِّ ليرة بعض الفرنكات؟

كاد يعضُّ أصابعه حَنقاً . دار في العرْصة الشاسعة ممراً ممراً بين المساطب الخشب ، قائمة على سيقانها ، في الوسط من حيِّز السوق . تأمل الخضارَ أعشاباً أذبَلَها نزْعُ الموت ، وثماراً من محصول أول الصيف محتضَرَة . توجه إلى أحد المخارج الكُثر ، في الجهة المقابلة للمسجد الكبير ببوابته المفتوحة في السورِ الإسمنت .

ساعة ونصف الساعة تبقّى ، ربما ، لأذان الظهر بصوت المؤذن المقتصد في مدِّ الحروف ، وترخيمها . ما من ساعةِ يدٍ مع كيهات . ساءل نفْسَه

احتمالَ البقاء في هواء السوق العَطِن ، أو حول السوق متفقِّداً مطعم الفلافل القريب ، على الشارع ذاته بين داري سينما غرْبيس المسقوفة ، وسينما شهرزاد الصيفية .

المطعم يَشْغَلُ مترين عَرْضاً ، لا أكثر ، من قاعة مديدة يتناثر في أجنابها الحديدُ أقراصاً ، وقضباناً طوالاً ، وبعض المقاعد المستطيلة ، المغلفة الوجوه جلوداً لتمارين بناء العضل من أهل الإيمان بالعضل ، مستلقين عليها بظهورهم .

يتمنى كيهات ، كغيره الكثير من مراهقي المدينة ، أن ينتسب عضواً إلى النادي ـ مطعم الفلافل الساحر بشطائر الخبز فريدةً بحشوها من الأقراص المقلية خليطاً فولاً ، وحمصاً ، وكزبرة ، وثوماً . طعام طيب المذاق بصلْصَة الطحينة المائعة حامضةً ، ممزوجة ببقدونس مفروم ، وبنشارة من الفجل المبروش . إضافة إلى قَرْنٍ أو قرنين من الفلفل الحريف ، المخلل ، يمنحهما البائعُ للشاريْن شطائرَ الفلافل .

يتمنى كيهات انتساباً إلى مطعم الفلافل ـ النادي بقاعته المديدة استطالةً ، على كل جدار فيها مرآة بطول مترين ، وفي إسمنت أرضيَّتها يفقس الصدى ، من تلاطُم الحديد ، عن فِراخٍ لا يراها إلاَّ الراضون عن عضلهم .

العضل قوياً ، منتفخاً ، ظاهرَ العروق والأوردة المنتعظة ، هو الحقيقة .

القوةُ مرئيةً عضلاً هي الحقيقة .

الحكمةُ الأشدُّ إقناعاً أنها خلاصةُ الوجود هي العضل .

كيهات لا يملك من النقود ما ينتسب بها عضواً إلى النادي ـ المطعم ، الذي لا كراسيَّ فيه أو طاولات : وقوفاً يأكل الجائعون شطائرَ فلافلهم من الخبز الأقراص المدوَّرة ، وهم يتفرجون على استعراض ذوي العضل قُوى عضلهم رفعاً للأثقال ، وإطلالاتٍ على المرايا بعد كل بضع حركات من

تمارينهم ، لتحصيل ثقةِ الجسد بما يراه فيها .
كيهات يطيل الوقوف في قاعة مطعم الفلافل ـ نادي القوة ، كلما اشترى شطيرتين ، مرةً في الأسبوع ، له ولأخيه موسى ، قبل دخول إحدى دور السينما المتقاربة في شارعين .
فكَّر كيهات ، وهو على مخرج أحد الممرات من السوق ، قبالة المسجد ، بزيارة مطعم الفلافل ـ نادي العضل : فكَّر في هدرِ وقتٍ حتى حلول الظُّهر ، مُذ لا معنى للوقت كي يعود إلى البيت بيدين فارغتَين من اللحم ، ليرى أعداد المصلِّين في المسجد بعد إعلان الدولة منعَ التجمعات . لكنه استفاق من فضوله ، الموزَّع بين حال المسجد وحال نادي الحديد والفلافل ، على قأقأة كنداء الغيب .
التفت كيهات يساراً . تنفس خيالُه المحتقن من خيبة العثور على لحم .
كانت امرأة ، وصبي في الحادية عشرة ربما ، يكوِّمان أرضاً ، على طوار محيط السوق المنتوف حجراً وإسمنتاً ، بضع دجاجات ضئيلة الحجوم ، هزيلة ، مربوطة السيقان بخيوط القنب الخشن ، مرفوفةً بأجنحتها البهية الريش ألواناً في اعتراض على ذلك العَسْف من إلقائها منبطحة على صدروها فوق الأرض ، من غير أن يشاورها أحدٌ في معنى إذلالها مقيَّدةً كأسيراتِ حرب .
على عجلٍ ، بتلقائية المسترشد إلى مخرج من الخيبة ، هرع كيهات صوب المرأة ، ذاتَ الثوب المتقاصر حتى ركبتيها فوق بنطال أخضر ضيق تحته ، بخمار على رأسها ملفوف على شكل عمامة . تعرف إلى زيِّها السرياني . سألها بالعربية :
– أهذه الدجاجات للبيع؟
ردَّت المرأة بعربية من جِماع اللَّكنات المتساهلة في نطق لغة أهل

النَّسل العربي محرَّفةً ، ومصحَّفةً ، مع دخيلٍ من اللفظ عليها أيضاً :

- هذه الدجاجات ، يا عزيزي ، مطلوبة للتجنيد .

قلَّص كيهات بين أجفان عينيه ، وقد التبس معنى الردِّ منها عليه .

ضحكت المرأة .

فهم كيهات المُمازَحةَ المرحة . تمتم مؤكِّداً بنبرٍ متسائل :

- هي للبيع . أليس كذلك؟

«نعم» ، ردت المرأة وهي تَحِلُّ خمارَها الطوقَ على رأسها فتغطيه به مُرخى الحواشي ، ثم تعقد أطرافه تحت ذقنها . أردفت : «كم واحدة تريد؟» .

«واحدة ، ربما» ، رد كيهات . تفكَّر مستدركاً : «ثلاث من هذه الدجاجات تساوي ، وزناً ، دجاجة واحدة عادية» .

«إشترِ ثلاثاً إذاً» ، عقبت المرأة . أمالت فمها صوب الجهة اليمنى من وجهها : «أمعك نقود؟» .

«ما سعر الواحدة؟» ، سألها كيهات .

تدخَّل الصبي ذو البنطال البني القصير ، والقميص القطني الأزرق بلا كُمين :

- ليرتان .

«ماذا؟» ، تمتم كيهات مستهولاً . نقل بصره بين القلادة في عنق الصبي تنتهي بصليب فضَّة ، وبين أذنه عُلِّق إلى الخَرْم فيه قُرطٌ حلقةٌ .

«ليرتان» ، كرر الصبيُّ رده تحت نظرة إعجاب من أمه إليه .

«لو كانت دجاجاتكم في حجم الديك التركي لما دفعتُ ليرتين ثمناً للواحدة» ، رد كيهات . دسَّ يده اليمنى في جيبه ، يتحسس النقودَ الورق .

«ماذا يناسبك ، يا حُلْو؟» ، سألته المرأة وهي تجلس أرضاً ، على الطوار ، مداعِبةً رؤوس دجاجاتها .

«نصف ليرة» ، رد كيهات .

هزَّ الصبي ممتعضاً وهو ينظر إلى أمه من عليائه . تمتم :

- نصف ليرة؟! لا تبيعي الدجاجة ، يا أمي ، بهذا السعر .

رفعت المرأة وجهها الطويل الذقن ، في جلوسها ، إلى كيهات الواقف أمامها :

- أتشتري هذه الدجاجات السبع؟

«سأشتري دجاجتين ، ربما» ، رد كيهات .

«ما هذه الربَّما؟ أستشتري دجاجتين ، أم ثلاثاً ، أم واحدة ، يا حلو؟» ، سألته المرأة الثلاثينية العمر .

«سأشتري اثنتين» ، رد كيهات .

«أعطني ثلاث ليرات» ، قالت المرأة .

«إثنتان بليرة واحدة» ، عقَّب كيهات . أردف : «ماذا أطعمتِ هذه الدجاجات؟ أهنَّ في صَوْم؟» .

«أطعمتهن أفضل حبوب قمح ، وأفضل برغل ، وأفضل عدس ، وأفضل خبز منقوع في ماء ، وأفضل بَيْض مقلي» ، ردت المرأة .

«أيأكل الدجاجُ البيض؟» ، سألها كيهات ، فردَّت :

- هو المفضَّل طعاماً عند الدجاج .

«المسلوق أم المقلي؟» ، سألها كيهات ، فردَّت المرأة :

- المقلي بزيت السمسم .

ابتسم كيهات لا يعرف ما يتقاطع في كلامها من المزاح بالسخرية والجدِّ . سألها :

- لِمَ هُنَّ هزيلات هكذا؟

«يتظاهرن أنهن هزيلات» ، ردت المرأة . أضافت : «في الواقع هنَّ سمينات جداً» .

نقل كيهات بصره عن وجهها - هي الجالسة أرضاً - إلى ابنها الصبي واقفاً . أحسَّ ببعض السخرية في الموقف لم يهتدِ عقله إلى استساغته . توتر فيه عَصَبُ الدفاع الغامض ضدَّ تلاعُبِ المرأة به مزاحاً . تراجع خطوةً بالرغم من ثقل فكرةِ أن يتخلى عن شراءٍ قد يوفر له فرنكاتٍ يحتالُها لشراء التبغ . استدار مبتعداً .

هبت المرأة واقفة قفزاً . لحقت به :

- يا حبيبي ، أنت عصبيٌّ .

توقف كيهات . التفت إليها بلا تعليق .

«اسمعْ» ، قالت المرأة . «أنت زبون عنيد» .

«لم أشترِ منك قبلاً لأكون زبوناً» ، عقَّب كيهات .

«ستصير زبوناً دائماً عندي ، هنا ، على هذا الجانب من السوق» ، قالت المرأة . أردفت بنبر متلطِّف في صوتها : «أحبُّ الزبون العنيد» .

«لماذا تحبين الزبون العنيد؟» ، سألها كيهات .

«يجعل البيع ممتعاً» ، ردت المرأة . استرسلت : «ما الممتع إذا طلبتَ من شارٍ ثمناً فوضعه في يدكَ من فوره؟» . أشارت إليه بيدها أن يعود إلى موضعِ الدجاجات . ابتسمت متصنِّعةً تنازلاً مُرْضياً : «سأعطيك دجاجة مجاناً» .

«ماذا؟» ، تمتم كيهات غيرَ فاهم .

«مجاناً» ، كررت المرأة الكلمة .

«مجاناً؟!» ، تساءل كيهات مستغرباً ، ومستظرفاً في الآن ذاته . مد يده صوب الصبيِّ : «هاتِ واحدة ، يا أبا القُرْط» .

«إشترِ اثنتين ، ولكَ الثالثة مجاناً» ، أوضحت المرأة سخاءَ عرْضها .

اختلط أمرُ العرْض على كيهات برهةً ، قبل أن يسألها :

- كم ثمن الدجاجة؟

«ليرة» ، ردت المرأة .
«ثلاث دجاجات ، إذاً ، بليرتين؟» ، سألها كيهات مستوضحاً .
«كرمى عينيك ، يا حلو» ، ردت المرأة .
أجرى كيهات ، في خياله ، مقارنة بين السعر وبين حجوم الدجاجات الهزيلة . تردَّد في تقديرِ عدالةِ الصفقة .
سارعت المرأة تحثه على الحسم :
- هذا أفضل عرْضٍ قدَّمتُه لزبون في حياتي .
«ليرتان إلاَّ ربعاً» ، هتف كيهات بثقةِ المساوَمة النهائية .
تراجعت المرأة صوب دجاجاتها . عادت جالسة على طوار الرصيف المنخفض يكاد يوازي سطح الإسفلت المهترئ ، كأنما لم تعد راغبة في المساومة مع شاب صغير في ميعة عمره .
رفع كيهات صوته بنبرٍ يفوح منه عدمُ تنازل :
- يلزم دجاجاتك ، يا سِتُّ ، شهرٌ من الإطعام ليصِرن عادياتٍ عليهن بعض اللحم .
لم تعقب المرأة . ظلت صامتة .
حدَّج ابنُها الصبيُّ كيهاتَ بنظرةِ استنكار :
- يلزمك عشرون كيلو . .
«لم أكلمك ، يا صاحب القرط . كلَّمتُ أمك» ، عقب كيهات بنبرٍ موبِّخ . وجه صوته إلى المرأة الجالسة . خاطبها : «كم يكلف طعام دجاجة في شهر؟ ثلاث ليرات؟ ليرتين؟ ليرة؟ كم سيصير سعرُ الواحدة إلى اليوم الذي نفكر بذبحها فيه؟» .
عَوَت شاحنتان مترادفتان ، بين الواحدة والأخرى ثلاثة أمتار . صفان من الجنود على مقاعد متقابلة فوق ظهر كل واحدة . خوذات تلتمع في الشمس كالبنادق ملتمعةَ المعدن في انتصابها على الأعقاب أمسك بها

الجنود بالأيدي ، منتصبةً ، بين أفخاذهم . تتعقب الشاحنتين سيارة «جيب» عسكرية ، فيها أربعة واضحو السحنات ، منطبعٌ عليها اقتدارُ السلطة على تبديل الجلود بنفخ القوة تحتها وعليها : هم رجال أمن الدولة ، المخابرات ، يعلو سيارتهم مكبِّر صوت يقذف الأناشيد من منجنيقات الأصوات ، قبل انتقال المشهدِ الصوتيِّ الضاري تهديداً ، ووعيداً ، إلى أغنية لـ «البلبل الحزين» ، فريد الأطرش ، الممنوح لقبه هذا كمنْح الشعب الناطق بالعربية المغنيْنَ ألقابَ خلودهم في الغناء : «العندليب الأسمر» . «سيدة الغناء العربي» . «الأستاذ الموسيقار» . «الدّلوعة» . «سفيرة النجوم» . الخ .

صدح صوت فريد الأطرش :

«قد تآخينا هلالاً وصليبا» .

على قرب أشبار من عبور الشاحنتين أجسادَ الدجاجات المُهانة مغلولةَ السيقان ، انعطفت أغنية فريد الأطرش عن لحنها الغناء إلى تكبيرةٍ من تكبيرات المؤذنين نداءً للصلاة :

- اللـ اااااهُ أكبر .

واكبَ التكبيرةَ المديدة بحرفها الجوفيِّ ، أيْ الألف في إسم الله ، قرعُ نواقيس الكنائس ، واصطفافُ مؤذِّني المساجد على ضفاف الصوت بأذانٍ مسجَّل من مصادره أُلْحِقَ بالأغنية التوحيدية ، المؤكِّدةِ لمن به شكٌّ غرامَ الأديان بالأديان ، وتوقيرَ المؤمنين بدِيْنٍ للمؤمنين بدِيْنٍ آخر .

نهضت المرأة السريانية . لوَّحت للجنود إذ عبرت شاحناتهم ، على بطءٍ من العزم والحزم ، دجاجاتِها الأسيرات ، هاتفةً :

- قوَّاكم الله .

هتف كيهات بدوره :

- يحيا الأبطال .

ابتعدت الشاحنتان ، ومركبةُ أمن الدولة الهادرة بمكبِّر الصوت فيها ، مفسحةً لبائعة الدجاج ، وزبونها المراهق المتردد ، مقداراً من مخاطبات المساومة .

«سأتنازل قليلاً ، فداءَ الوطن ، يا حُلو» ، قالت المرأة بصوتٍ دحرجتْه رقيقاً إلى سمع كيهات المبتعد خطوات .

«عرضتُ ليرتين إلاَّ ربعاً» ، كرر كيهات عَرْضه .

«ربع ليرة؟» ، تمتمت المرأة متأسِّيةً على التنقيص البخس . كررت : «أخمسة فرنكات ، يا حلو؟» .

«بخمسة فرنكات أشتري زجاجة شراب سينالكو ، أو علبة تبغ ، أو عشر بيضات ، أو كيلو بندورة» ، عقَّب كيهات مستعرضاً لائحةً مما تقدر خمسةُ فرنكات أن تفعل .

أخرجت المرأة من طيَّة في الوشاح على خصرها محفظة جلدية ، صغيرة جداً أصغر من كفِّها ، مطوية طبقتين على جيوب فيها . تفقَّدت الجيوب الصغار بأناملها . هزَّت رأسها أسَفاً . سألتِ المراهقَ :

– أمعك فكَّةٌ؟

«لا» ، رد كيهات . «معي ليرات كاملة؟ .

«سامحْني» ، قالت المرأة . «ليس معي إلاَّ ثلاثة فرنكات أردُّها إليك إن أعطيتني ليرتين» .

بَدَا الأمرُ مَخْرجاً من المساومة بفارق فرنكين تربحهما المرأة من كيهات ، زيادةً على عرضه ليرتين إلاَّ ربعاً ، أيْ خمسة فرنكات .

تقدم كيهات من المرأة وابنها الصبي . اشترط :

– أنا أختار الدجاجات .

«اخترْ منهن ما تشاء . لقد ربَّيتهن مدلَّلات في قالب واحد» ، عقبت المرأة .

جلس كيهات القرفصاء يتقرى بيديه اللحم تحت الريش في كل دجاجة . اختار ثلاثاً . نهض . أخرج ليراته الثلاث . أعطى المرأة ليرتين وفتح راحة يده اليسرى لتستقر فيها فرنكاتُ المرأة الثلاثة .

حمل كيهات الدجاجات ، منكّساتِ الرؤوس ، من سيقانهن المربوطة . تشمَّم في الهواء ، بمنخَريِّ الخداع فيه ، فوزَه المضمون بعلبة تبغ . أقفل راجعاً صوب البيت ، متخلياً عن فضوله في أن يشهد حضورَ مصلِّين إلى المسجد الكبير بعد منع الدولة التجمعات المدنية على أرضها ، وفرْضِ منع تجوالٍ في الليل .

لم يتوقف كيهات في أيِّما موضع من الطرق سلكَها عودةً إلى البيت . صادف أناساً مثله متفرِّقين ، جائلين ابتغاءَ شراءِ لوازم ، أو مدفوعين بفضولٍ محض إلى استقراء الأحوال في الشوارع ترك عليها الطيرانُ الحربي للدولة السورية ، في طلعاتٍ متفرقة ، صدىً كالمَبَارد ، استعراضاً في الجهة الشمال التي لا حربَ تُهَدْهِدُها .

على مدخل حي السريان ، شمال الحي اليهودي ، عرَّج كيهات على دكان إيْليا شَابًا ، بائع التبغ ، والجعة ، والعَرَق ، والمشروبات الغازية المستوردة ، تحديداً : كوكاكولا . سينالْكو .

لا شيء يعْدِلُ ذلك الجَمَدَ المبروش يعلو فوهة زجاجة سينالكو حين يفتحها إيليا العجوز . برَّاده برادٌ ثورٌ في نوعه . عقلُه يخصه في ترتيب درجات البرودة على غلواءٍ يكاد يبلغ حال التجمُّد . سينالكو برتقاليُّ اللون والمذاق شراباً . يفضله كيهات على أيِّ شراب غازي آخر ، ويستطيبه من دكان إيليا ، الذي يزوِّد الشارب بقصبةٍ من الورق المشمع ، طويلة ، يمتصُّ بها رحيقَ الزجاجة على مهل ، واقفاً حتى إفراغها ليعيد الزجاجة إلى صاحب الدكان .

كل جرعة أولى من سينالكو المثلجة تصيب صدغَيْ كيهات بصداعٍ

للحظة خاطفة، عابرة. الشراب الذي يبرِّد الجوفَ، منعشاً في نزوله إلى المعدة، يذهب عكساً أيضاً، صعوداً إلى الرأس نفخاً من البرد في العروق.

تسوَّقُ كيهات سيتضاعف من شراء علبة تبغ وزجاجة سينالكو: خمسة فرنكات لعلبة التبغ ومثلها للزجاجة البرتقالية الشراب. عشر فرنكات. أيْ نصف ليرة على التحديد بلا نقصان. أيْ سيعود إلى أبيه ببقية من الليرات الثلاث هي ثلاثة عشر فرنكاً.

رفع كيهات الدجاجات الثلاث من سيقانهن المقيدة أمام عينيه، وهو على قرب خطوات من دكان إيليا. تأمل أعينهن ينغلق عليها غشاء أبيض، رقيق كغمام، وينقشع مع إغماضهن الجفون وفتحها. هادئات. مستسلمات. متدليات الأجنحة على أجنابهن لا يصفِّقن بها اعتراضاً مذ يئسن من أية نجدة: أسيقتنع أبوه، إن أعاد كيهات إليه الثلاثة عشر فرنكاً، لا غير، من ليراته الثلاث، أن هؤلاء الدجاجات يستأهلن ثمنهن؟ ماذا لو تخلى عن رغبته في زجاجة سينالكو فوفر خمسة فرنكات يضيفها إلى ما سيعيده إلى أبيه؟

الظهيرةُ باقترابها مشتعلة كلفافة تبغٍ، لا تساوم المرء على رغبته في شرابٍ بارد، مثلج. سيفكر كيهات، إذاً، بأمر توفير فرنكات، لكنْ بعد شراء سينالكو.

دخل كيهات دكان إيليا المفتوح الباب. بادرَ الرجل العجوز:

- زجاجة سينالكو، من فضلك.

نهض العجوز متثاقلاً عن كرسيه ذي المسند العالي الظهر، والوسادة المستديرة للجلوس. رمقَ الدجاجات متدليات من سيقانهن في يد كيهات اليسرى. فتح بابَ براده ذا المقبض المستطيل له مِفْصلٌ للفتح والإغلاق. جذب زجاجة سينالكو من الجوف البارد المعتم. فتحها بمفتاح أغطية الشراب الغازيِّ، المربوط من ثقب في ذيله الحديد بخيطٍ إلى مسمار في

الحائط الإسمنت . استلَّ من علبةِ صفيح ، مستطيلة ، قصبةً رفيعة لارتشاف الشراب مصاً . دسَّها في فَمِ الزجاجَة وقدمها إلى كيهات . مدَّ يده اليسرى يتقرَّى صدرَ دجاجة سوداءِ الريش وأحمرِه :

– أهذه الدجاجات للبيع ، أيها الشاب؟

«اشتريتها تواً» ، رد كيهات .

ابتسم إيليا العجوز الهزيل الجسد متعباً ، ذو الشاربين الأبيضين الكثَّين . تمتم :

– أعادت هؤلاء الدجاجات من سَفَرْبَرْلكْ؟

«سَفَرْبرلكْ؟!» ، همهم كيهات متسائلاً . ارتشف بقصبة المصِّ رحيقَ زهر البرتقال الألمانيِّ من الزجاجة .

«المجاعة . زمنُ أكْلِ جلودِ الأبقار» ، همهم إيليا بدوره . فتح راحة يده اليسرى يطلب نقوداً .

«أريد علبة من تبغ الريف» ، قال كيهات .

«هذا أفضل تبغ في سوريا» ، عقَّب إيليا وهو يسحب علبة من تبغ «الريف» عن رفٍّ تجاورت عليه عُلَبُ دخانٍ شتَّى أصنافاً .

دفع كيهات ليرة إلى إيليا ، الذي أعادَ إليه نصف ليرة ، ثم جلس على كرسيه العتيق في الدكان الراكد الهواء من وهج الحرِّ ، ساخناً بلا شبابيك فيه .

وضع كيهات الدجاجات أرضاً قرب العتبة . فتح علبة التبغ . استلَّ لِفافة . أخرج عود كبريت من جيبه . حكَّه ، في خفَّة ، بقائمة المنضدة العالية على جهة مدخل الدكان . أشعل اللفافة . حملَ الدجاجات ، من جديد ، فصفَّقن بأجنحتهن اعتراضاً على الاستراحة القصيرة في وضعهن على الأرض ، بعد طول حَمْلٍ من سيقانهن يتأرجحن في الهواء . كاد يغادر . توقف ملتفتاً إلى العجوز :

- كم كنت تدفع ثمناً للدجاجة من هؤلاء لو اشتريتَها؟

«ربع ليرة» ، رد إيليا .

انتفض قلبُ كيهات حروفاً مضطربة على لسانه :

- خمسة فرنكات؟!!

«انظرْ إليهن» ، قال إيليا . أردف : «ماذا ستفعلون بهؤلاء الهزيلات؟» ، مطَّ جسده . أنَّ أنيناً خافتاً : «بكَمْ اشتريتهن ، أيها الشاب؟» .

«بليرتين إلاَّ ربعاً» ، رد كيهات بلسانٍ أحس النملَ ماشياً تحت جلده احتقاراً لنفسه أنَّه خُدِع .

«لا يستأهلن أكثر من ليرة وربع الليرة» ، عقب إيليا .

«ثلاثتهن؟» ، تمتم كيهات معتصَر القلب يودُّ لو ينجده إيليا برفع السعر قليلاً .

«ربما أشتري أربعاً من هؤلاء بليرتين إلاَّ ربعاً» ، رد إيليا .

كزَّ كيهات على أسنانه . لِمَ لم يساوم صاحبة الدجاجات أكثر؟ لِمَ تساهلَ؟ لِمَ اشتراهن؟ لِمَ ابتاعَ زجاجة سينالكو ، وعلبة تبغ؟ عبرت رأسَه فكرةٌ خاطفة أن يعود إلى السوق الكبيرة ، فيرمي الدجاجات إلى المرأة صارخاً :

- أعيدي إليَّ نقودي .

صوتٌ هادر أطاحَ بفكرة كيهات من عبور سيارة من سيارتَيِّ الإطفاء ، الوحيدتين ، في المدينة ، تبثُّ بمكبِّر صوت أناشيد وطنية عن حرب بدَّد فيها العربُ أعداءهم : «فصاروا هباءً ، وصاروا سُدَى» .

«أسمعتَ ، أيها الشاب ، صوتاً في الخارج؟» ، سأل إيليا المراهقَ واقفاً على عتبة دكانه كالمتردد في الخروج منه ، تحدو به الرغبة أن يتوسل إلى العجوز : «قُلْ لي إنني لم أُخْدَعْ» . لكنه لم يقُلها ، بل ردَّ على سؤاله :

- إنها سيارة إطفاء .

«ماذا؟» ، سأله إيليا من نقصٍ في اقتدار أذنيه على السماع ، فرد كيهات بصوت عال :

– سيارة إطفائية .

«أَحدثَ حريقٌ؟» ، تساءل إيليا ، فرد كيهات :

– الأناشيد الوطنية كلُّها حرائق .

انتفض إيليا ناهضاً عن كرسيه من سوء تقدير سمعه لِمَا قاله كيهات . رفع صوته :

– أغارت علينا طائرات؟

نفث كيهات دخان التبغ من فمه ومنخريه معاً ، ممسكاً باللفافة بين إصبعيه السبابة والوسطى اليسريين . خرج من دكان إيليا . حكَّ جمرَ اللفافة بالجدار قرب الباب يوفِّر بقيتها لوقت آخر . دسَّها في جيبه الأيسر . أخرج علبة التبغ منها . وضعها من فُتحة الثوب ، على الصدر ، تحت قميصه الكتان الداخلي : شكلُ العلبة قد يُلْحظ إن أبقاها في جيب ثوبه .

بعد أكثر من نصف ساعة ، وأقل من ساعة ، بانعطافاتٍ من طُرق إلى طرق ، يتفقَّد فيها العابرين ، وصل كيهات إلى البيت . دفع البوابة الخشبية داخلاً ، وردَّها خلفه . تلاقت نظراته بنظرات أمه متصادمةً في اللحظة ذاتها .

كانت هدلا واقفة قرب تنّورها ، في الزاوية الملتقى من جدار السور الشرقي بالجنوبي . واضحٌ أنها أضرمت النار في الوقود من روث البهائم وبعض الأخشاب تواً ، إذ كانت ألسنة اللهب في ضِرامٍ من الثرثرات القوية بعدُ ، متلوِّيةً خارج الفوهة الصلصالية .

تراخت ذراعا الأم استغراباً ، بعد ما كانتا متعامدتين فوق بطنها الفخور بما يحمل . هتفت وهي تمدُّ يدها اليمنى إلى القضيب الحديد ، الرفيع ، الطويل ، لتحريك الوقود المشتعل عادةً في جوف التنور :

– ما هذا؟

نظر كيهات إلى الدجاجات الثلاث يحركن رؤوسهن فضولاً لاستطلاع ساحة بيت جديد، لم يحظين قبلاً بزيارته. ردَّ:

– هؤلاء دجاجات، يا أمي.

«أعرف الدجاجَ، يا ذَهَبَ روحي»، عقَّبت أمه. أردفت: «أعرف أن الدجاجة ليست أرنباً، أو خروفاً».

«نعم»، قال كيهات. «معي دجاجاتٌ لسْنَ أرانبَ أو خرافاً». رفعهن من سيقانهن عالياً، ثم انخفضت بهن ذراعه على صوت أمه المحتدِم:

– مِن أين سرقتَ هؤلاء الدجاجات؟

«اشتريتهن، يا أمي»، ردَّ كيهات من فوره. أردفَ شارحاً: «لا لحم في السوق الكبير».

استدارت هدلا إلى فوْهة تنورها. أبعدت رأسها في الخمار البني إلى الوراء، تفادياً من وهج اللهب، وهي تدلِّي الشيشَ إلى الجوف المستعِر. حركت بالقضيب جذورَ النار. رفعت صوتها من غير أن تنظر إلى ابنها:

– مِن أين اشتريت الدجاجات؟

«من جوار السوق الكبير»، رد كيهات.

التفتت إليه أمه ساحبةً شيشها الحديد من الجوف المتَّقد للتنُّور، هاتفةً به:

– تعال.

اقترب كيهات من أمه المحدِّقة، في ريبة، إلى الدجاجات المنكَّسات الأعناق إلى أسفل، بريشهن الذي لا يموِّه ضآلَةَ جسومهن.

«أهؤلاء فراخ دجاج؟»، سألته أمه، فرد:

– متى كان لفرخ الدجاج ريش مكتمل، بهذه الألوان، يا أمي؟

«لماذا هنَّ ضئيلات هكذا؟»، سألته أمه.

هَمَّ كيهات بالرد فأتاه صوت أبيه خارجاً من غرفة الزوجين ، يتبعه ابنه الأصغر موسى :

– مَن أعطاك هؤلاء الدجاجات؟

«اشتريتهن» ، رد كيهات .

«كيف اشتريتهن؟» ، سأله أبوه غير متفكرٍ في سذاجة سؤاله .

«اشتريتهن بالنقود ، يا أبي» ، رد كيهات مبتسماً .

«أهي النقود التي أعطيتك لشراء لحم؟» ، سأله أبوه ، فرد كيهات :

– من أين أجيء بنقود غيرها؟

توقف أوسي على بعد خطوات يتأمل الدجاجات الأسيرات ، المغلولات السيقان بأعناق منكّسة ، يسيل لعابٌ من مناقيرهن . تمتم :

– بكَم اشتريتهن؟

لم يرد كيهات مباشرة على سؤال أبيه . أخرج الثلاثة عشر فرنكاً من جيبه . مدَّها إلى أبيه مرئيَّةً على راحة يده اليسرى المفتوحة :

– هذا ماتبقى .

«أهذا ما تبقى من الليرات الثلاث؟» ، سأله أبوه .

ظل كيهات صامتاً بيده الممدودة .

تقدم موسى من أخيه يستطلع النقود البواقي . نفخ عليها لاهياً .

خطا أوسي صوب ابنه . تناول بأنامله نصف الليرة والثلاثة فرنكات من راحة يد المراهق المفتوحة . تمتم مبتسماً ابتسامة فارغة من المعنى ، أو تنمُّ عن تهكُّم :

– ثلاثة عشر فرنكاً ، أيها الفهيم؟

التزم كيهات الصمت . نظر إلى أمه . سألها :

– ماذا ، يا أمي؟

حدقت إليه أمه بعينين قلصت بين أجفانهما ، غير فاهمة سؤاله ،

فتعجَّل كيهات هرباً إلى حلٍّ لا يعرف مدى الإقناع فيه :

- أنذبح الدجاجات الثلاث ، أم نربِّيهن في باحة البيت؟

تبادلت المرأة وزوجها نظرات مستفهِمةً .

عمد كيهات إلى اقتراح قد ينجيه من التوبيخ :

- إن ذبحناهن سأتولى نتفَ الريش .

هرع موسى الصبي إلى الدجاجات يتحسسهن . هتف بنبرٍ مرحٍ في صوته :

- أنستطيع تربيتهن ، يا أبي؟

«نعم» ، رد الأب بنبرٍ مكتوم التوبيخ : «سنطعمهن دفاترك المدرسية ، وأحذية أخيك» ، قال . التفت إلى زوجته يسألها : «ماذا ، أيضاً ، سنطعم هؤلاء الدجاجات؟ الفئران ، يا هَدْلا؟» .

تفهمت هدلا استياء زوجها . لم تردَّ ، فاسترسل أوسي تعقيباً على ما قاله هو :

- سنطعمهن التبغ ، الذي يدخنه الرفيق كيهات .

نطق أوسي كلمة «الرفيق» بالعربية ، على دارج المخاطبات بين أُمَّة البعثيين في دوائر الدولة ، وفي لقاءات الشارع ، وفي أحلام اليقظة والنوم .

«ماذا؟» ، تمتم كيهات مدافعاً ، في خمودٍ ، عن نفسه .

«شممتُ رائحة دخانِ التبغ منك قبل وصولك إلى البيت . أيُّ روثٍ دخَّنتَ؟» ، قال أوسي . مدَّ يديه معاً يتحسس جيبَيْ إبنه ، اللذين لم يحظ في لمسهما بشيء أُخفي فيهما . تمتم : «شيطان . تُخبِّئ لفافات التبغ في عظامك ربما» .

أمسك موسى بسيقان الدجاجات يتسلمهن من يد أخيه .

ارتفع صوت هدلا :

- أسقِهن ماءً ، يا موسى . ألا ترى لعابهن سائلاً عَطَشاً؟
نظر موسى إلى مناقير الدجاجات المفتوحة . عقَّب على طلب أمه :
- بطونهن مليئة ماءً ، يا أمي .
«ادلقْ لهن من الدلو ماءً» ، صاحت به أمه .
وضع موسى الدجاجات أرضا . هبَّ إلى دلو الماء على حافة فوهة البئر العريضة . سكب ماءً في الساقية الضيقة بين الحصى تصل البئر بشجرات الورد . عاد إلى الدجاجات هاتفاً :
- سآخذهن معي إلى حقول القمح . سيجدن ما يأكلن ، يا أبي .
«خذْهن إلى الحرب» ، عقَّب الأب ساخراً .
«أين؟» ، تساءل موسى .
«إلى الجبهة ، هناك» ، رد أبوه بلا إشارة إلى جهة . أعاد التحديق إلى الدجاجات . استدار إلى زوجته : «أنذبحهن للعشاء؟» .
«لا لحم فيهن» ، ردت هدلا . أردفت : «سنطعمهن أياماً قبل ذبحهن» .
«ماذا سنأكل غداءً؟» ، تساءل أوسي .
«أرسِلْ كيهات ليشتري لبناً من البقال الحلبي» ، اقترحت هدلا
«ألَبن للغداء؟» ، تساءل أوسي ، فردت هدلا :
- خبز ، ولبن ، وشاي .
«أنا متعب» ، قال كيهات . رفع ذراعيه معتذراً عن طاقته المستنفدة في التجوال بين الشوارع ليشتري ما ظنَّه مناسباً لغداء العائلة ، أو لعشائها .
«خذْ سطلاً صغيراً ، يا موسى ، واشترِ لبناً» ، قال الأب . وضع الثلاثة عشر فرنكاً في يد ابنه الصغير الذي سارع إلى جَلْب سطلٍ وغادر .
أخرج أوسي من جيب ثوبه البيج ، الطويل حتى عقبيه ، سكيناً مِطواةً رهيفة الشفرة ، يقلِّم بها أظفاره أحياناً . قطع الخيوط القنب عن سيقان

الدجاجات ، اللواتي جثمن ملتصقات بالأرض لم يُقَدِّرن ، بعدُ ، مقدارَ الجدِّ من المزاح في حريتهن .

رفعن أعناقهن أولاً في استلقائهن أرضاً على أجنابهن . خفقْن بأجنحتهن فاستقررن جاثمات على البطون . انتفضن واقفات على أقدامهن . رفعت كل دجاجة ساقاً عن الأرض ، في بطء ، مستندةً وقوفاً على الأُخرى ، ثم بدَّلت رفع الأخرى المستقرة على الأرض لتُخفض المرتفعةَ .

بعد ذلك التدريب على تثبيت أجسادهن وقوفاً ، والاستيقان من وجود الأرض ، ومن عودة السماء إلى موضعها في الأعالي ، مشين حذرات على الحصى في باحة الدار . أَمَلْنَ رؤوسهن يمنةً مرة ، ويسرةً مرة ، مترجرجةً الأعراف الصغار على قُلَلها ، يُعايِنَّ الأَبعادَ ، ويُقدِّرن موضعهن من مركز الكون .

«ألا ينبغي أن نطعمهن شيئاً ، يا أوسي؟» ، سألت هدلا زوجها وهي ترى الدجاجات يهرعن إلى مجرى الماء يغرفن بالمناقير مما ركد فيه ، ويرفعنها عالياً ، لينزل الماء من بلاعيمهن إلى القوانص .

«ماذا نطعمهن؟» ، تمتم أوسي محتاراً .

«أعرف» ، قالت هدلا . هرعت إلى غرفتها . رجعت بحفنة من العجين الذي ستختبزه أرغفةً بعد قليل . اقتطعت من العجينة كُريَّاتٍ صغاراً رمتهن ، تباعاً ، إلى الدجاجات .

عاينت الدجاجاتُ ، في فضول ، تلك الكُريات الصغار ، اللازقة بالحصى . أَمَلْنَ رؤوسهن تدقيقاً بالعيون ، من أجنابٍ ، في المعروض عليهن من طعام . انهالت مناقيرهن على الأرض خطفاً للعجين المختمر .

فركت هدلا يديها الواحدةَ بالأخرى ، فأسقطت نثاراً من العجين كان لازقاً بأصابعها . عادت إلى التنور تَنْكُتُ فيها بالقضيب الشيش .

«أهذا حلٌّ ، يا هدلا؟» ، سألها زوجها وهو ينظر إلى كيهات .

«عندنا الكثير من قشور البطيخ» ، اقترح كيهات .

أخرج أوسي لفافة تبغ من علبة في الجيب على صدر الثوب . أشعلها . مشى صوب التنور . وضع اللفافة بأصابعه بين شفتي زوجته ، التي تنشَّقت نفَساً ، ثم وضع اللفافة بين شفتيه . نفثَ الدخانَ خيطاً رفيعاً ، طويلاً ، محدِّقاً إلى ابنه بنظرةِ تشفٍّ ، أو إغاظةٍ مُضمَرة . خلَّلَ غرتَه المرفوعة الشعر بأصابعه . سأله :

- ماذا سنفعل بهؤلاء الدجاجات ، يا حماراً بلا بَرْذَعَة؟

«نأكلهن» ، رد كيهات .

دخلت من بوابة الدار جارتهن كَاتْيا السريانية ، حاملة صحفةً من القش عليها عجين ملفوف بالقماش الكَتَّان . أومأت لهم بالتحية من رأسها بلا كلمات . اتجهت من تلقاء ذاتها إلى غرفة الزوجين . أوْدعت الصحفة في موضع مَّا هناك ، وعادت منضمة إلى العائلة الصغيرة قرب التنور .

«ما حَال التنور؟» ، سألت كاتيا جارتها هدلا بصوت فيه نبر خشن من التدخين ، على الأرجح . أردفت بالعربية على لكنة أهل ماردين : «أمْ جئتُ مبكرةً؟» .

تأملت هدلا جوف التنور بوجه مبتعد عن وهج الفوهة الصلصالية . ردت :

- خمدتِ النار .

خمودُ النار ، واستواءُ الجمر نقيَّ الطبع والوهج ، يعنيان جاهزيَّةَ التنور لاستقبال أقراص العجين المدحوَّة إلصاقاً بجوفها .

ليس في بيت كاتيا ، الواقع وراء بيت هدلا شمالاً ، تنورٌ . لذا تتشاركان توافُقاً في استخباز الأرغفة مرتين في الأسبوع ، وفي أيام الأعياد المسيحية ، والإسلامية ، حين تصنع أُمَّتا نبيَّيْنِ ، أو نبيٍّ واحدٍ وابنِ إلهٍ ، كعكهما المُحلَّى .

كاتيا تجيء إلى هدلا بنصف الوقود اللازم ، أو بأكثره ، مما يجمع زوجها من حطب الدَّغل إلى جوار حقله ، على الحدود التركية السورية . تتولى هدلا ـ بإضافة بعضِ بعْر الأغنام والماعز ، وروث البقر الذي يُشترى ـ إنضاجَ الجمر في تنورها .

خطَّة صغيرة مِنْ وَقْدِ النار تكفي الإثنتين لاستخباز عجينهما ، الواحدة تلو الأخرى ، في الجوف المستعر حماوة يختزنها الصلصال .

لقد جاءت كاتيا بعجينها باكراً قليلاً ، عن قصد . ستتسليان هي وجارتها بالثرثرات أمام التنور ، الذي تعلوه سقيفة من قِطع الصاج المتماوج لُحمت إلى خشب بالمسامير وقايةً من مطر الشتاء ، وحرِّ الصيف . والسقيفة المعدن مستندة على جداري السور الشرقي والجنوبي في التقائهما زاويةً . ما يتبقى من زائد السقيفة ، غيرِ المستند على سَطحَيٍّ الجدارين ، يحملهُ عمودٌ من الخشب ثخين ، تعلقَ هدلا إلى مساميرَ فيه حوائجَ من مستلزمات تنورها .

أبكرت كاتيا عن قصد ، رغبةً في مبادلات أحاديث الترويج للاستغابة العذبة ، وترتيب قِيَم الجمال وفق اللحم على أجساد النساء ، وحمرة الخدود ، وبياض الجلود ، والشعر السَّبْط ، وصِغر أقدامهن ، إلى آخر ما في لائحة قلوبهن من ركائز التصنيف استملاحاً ، واستقباحاً .

تنبهت كاتيا إلى الدجاجات بَلَغْن الشبع من كُريات العجين ، واغتراف الماء ، يتهاديْنَ ماشيات ، متنزهات إلى جوار حقل شجيرات الورد ، يتشمَّمنها ـ ربما ـ استلطافاً ، واستحساناً ، بمناخير الطير الذي لا يطير :

– ما هؤلاء؟

«دجاج» ، ردت هدلا ، التي ناولها زوجها ما تبقَّى من عَقِب لفافة التبغ .

«منذ متى عندكم دجاجات؟» ، سألتها كاتيا ، المجاوِزةُ أربعينها بثلاث

سنين ربما ، الخشنةُ الشعر الأسود ، الذي لا جَعْدةَ فيه ، والمقصوص قِصَراً يبلغ الكتفين .

«منذ نصف ساعة» ، ردت هدلا .

«أتوزع الدولةُ دجاجاً في الحرب؟» ، سألتها كاتيا . أبدت استياءً من عينيها الصغيرتين ، البنيتين : «لم يجئْنا أحدٌ بدجاج» .

«الرفيق كيهات جاء بالدجاج» ، رد أوسي المتتبِّع ببصره وسمعه حديثهما .

«الرفيق؟» ، تساءلت كاتيا . نظرت إلى كيهات الواقف إلى جوار أبيه لصق الجدار الشرقي ، المحتفظ بعد بثلاثة أشبار من الظل : «هل انتسبتَ إلى شبيبة الحزب؟» .

«لا» ، هزَّ كيهات رأسه نفياً .

«زوجي انتسب إلى الحزب» ، قالت كاتيا . «إبناي دَنْحو ، وجورج ، انتسبا إلى الحزب . أمَّا العنيد باسِيْل فعقلُه شيوعي» .

«أراضية أنتِ بانتسابهم إلى البعث؟» ، سألها أوسي ، فردت كاتيا :

– يا جاري ، إذا كان أولادنا ينتسبون إلى الحزب وهُم شبان ، فهناك من يولدون حزبيِّيْنَ .

صفقت هدلا تصفيقة خافتة بيديها تلميحاً إلى نضوج الوقت للإتيان بعجينها . اتجهت إلى الغرفة الشرقية .

«كيف حال سُوْرِيْنْ؟» ، سأل أوسي جارته عن زوجها . أردف : «لا نراه» .

«نحن أيضاً لا نراه» ، ردت كاتيا . «زار البيت في اليوم الأول للحرب ، ثم رجع إلى الحقل . ينام هناك» .

«أيحسُّ باطمئنان في الكوخ لصق الحدود؟» ، سألها أوسي . «الجيش التركي مستنفر» .

سورين ، زوج كاتيا ، البالغ السادسة والأربعين ، يستثمر الأرض ذاتها ، كل عام ، مستعارةً من أملاك علي ساروخان ، على الجانب الشرقي من الدغل الممتد لصق سياج الحدود السورية التركية ، بتداخل في أراضي الدولتين حتى تخوم بلدة الهلالية غرب مدينة قامشلو . يزرع الرجل السرياني الأرض باذنجاناً ، وكوسا ، وباميا ، ولوبيا ، وخياراً ، وبندورة ، مستعيناً بجدول من الماء متفرِّع عن جَغْجَغ ، المنحدر من منبعه في جبال طوروس التركية إلى الشمال السوري . وإذ يجف النهر بعد الشهر الأول من الصيف يستعين بالمضخة الآلية في بئر الحقل رياً لزرعه .

سورين ينام الصيف كله في كوخ صغير لا يبعد إلاَّ خمسين متراً عن سياج الحدود ، صوْناً للحقل من اللصوص البشر واللصوصِ بناتِ آوى . إلى جوار الكوخ ، غرباً ، أقام سياجاً عالياً من جذوع الشجر ، والأسلاك ، يحيط بفسحة من الأرض مسقوفة بالغصون كزريبة لتربية الأرانب . سورين لا يدفع نقوداً على استثماره تلك الأرض ، بل غلالاً مناصفة بينه وبين المالك . أولاده يزورونه تناوباً في النهارات ، من يوم إلى آخر ، لتزويد بيتهم بالخضار طعاماً ، وبالأرانب إن شاءت أمهم كاتيا طهوها بالكزبرة اليابسة والخل .

«لماذا انتسب سورين إلى حزب البعث؟» ، سأل أوسي جارته ، فردت :

– هذه دولة الحزب ، يا جاري .

هَمَّ أوسي بسؤال آخر ، لكنه نحّاه بعودة زوجته حاملة صاجاً مجوَّراً فيه عجين غُمر بالطحين . وضعت الصاج على كتف التنور المنبسطة . نادت ابنها كيهات :

– جئني بطاسة الماء الكبيرة .

جاءها ابنها كيهات بالطاسة المعدنِ التوتيا ، الواسعة الفوهة ملأى

ماءً . وضعها على كتف التنور لصق صاج العجين .

عمدت المرأتان ، من فورهما ، إلى غمس أيديهما في الماء ، واقتطاع العجين كُرات تَدْحَيَانها حتى تستوي أقراصاً اسطوانات سِماكاً . تناوبتا على إلصاقها بجدران التنور ، على عجل لا تخفيان معه ، بامتعاض يستظهره وجهاهما ، أن أيديهما لُسِعت من حماوة الصلصال ، أو كادت تُلْسَع .

أُغلقت فوهة التنور بالصاج ، وانتظرت المرأتان نضجَ الأرغفة .

أخرجت كاتيا منديلاً صغيراً كصُرَّة من جيب ثوبها المخطط أصفر وأزرق ، الطويل حتى بطَّتي ساقيها ، مُسدلاً فوق البنطال البُني تحته . فتحت المنديل عن تبغ وورق رقيق لصناعة اللفافات . عَقَدت لفافةً بخفَّة من أناملها المدربة . ألصقت أطراف الورقة بعد أن بللتها بلسانها . أعطتها لهدلا .

لفافتان أُخريان خرجتا مُتْقنتين من بين أصابع كاتيا الرشيقات جاهزتين للتدخين ، واحدة لأوسي ، وأخرى لنفسها . ألقت بصرها إلى كيهات مستظلاً بالثلاثة الأشبار ، أو أنقصَ ، من ظل الجدار الشرقي ، قريباً من التنور . غمزته :

– أتريد واحدة ، يا حلو؟

نظر أوسي إلى ابنه متفحِّصاً ، فرد كيهات :

– لا أدخن ، يا سِت كاتيا .

«الكل يدخن» ، عقبت كاتيا . «زوجي ، أولادي ، أصدقاء أولادي ، صديقاتي» . مدَّت ذراعها اليسرى صوب الدجاجات : «سترون يوماً لفافات التبغ بين مناقيرها» .

«هاتِ الطَّست ، يا كيهات» ، هتفت هدلا بابنها .

غاب كيهات في غرفة المؤنة برهة ، ثم عاد بالطست الواسع الذي

ستستقر فيه الأرغفة الناضجةُ بفوحها ـ فوحِ القمح المختزن انقلابات السماء - كانقلابات الحُكْم المتعاقبة في سوريا - قبل نجاة السنابل ناضجةً .

تباعاً تراكمت أرغفة هدلا في الطست ساخنةً ، أنيقة اللَّمْعِ النُّقَرِ على قشرة سطوحها المحمَّصة قليلا .

أسرعت كاتيا إلى غرفة الزوجين ، حيث أودعت صحفة العجين حَذَراً من إبقائها تحت شمس ساحة البيت . عادت بالصحفة إلى التنور المحتفظة ، بَعْدُ ، بجدارة صلصالها على اختزان اللهب غيرَ مرئيٍّ .

كانت كاتيا ، في قدومها ، تلهج ترديداً لأغنية فريد الأطرش ارتفعت من مذياع أوسي :

- قد تآخينا هلالاً وصليباً .

وضعت كاتيا الصحفة على كتف التنور ، بعد أن أزاحت هدلا طستها . ألتفتت إلى أوسي في ثوبها المطوق الخصر بوشاح أخضر :

- ألا تضجر من مذياعك؟

«إنه لا يتوقف عن سماع الإذاعات» ، عقبت هدلا بنبرٍ متأفِّف .

«لماذا لا تنتسب إلى الحزب ، يا جاري؟» ، سألت كاتياً جارها أوسِّي ، وهي تغمس يديها في الماء لتقتطع العجين أقراصاً فلا يلتصق بهما العجين .

وزع أوسي نظراته مترددةً بين وجهي كاتيا وهدلا ، التي انبرت إلى إعانة جارتها اقتطاعاً للعجين كُراتٍ تدحوها بين راحتي يديها ، في تقليب من اليمنى إلى اليسرى ، ومن اليسرى إلى اليمنى .

«أنا أفكر بالانتساب إلى شبيبة الثورة» ، قال كيهات .

«ماذا؟ أتفكِّر حقاً في ذلك؟» ، سأله أبوه بصوت فيه نبرُ الحياد .

«لِمَ لا؟» ، رد كيهات . «سأصير ابن الدولة» .

التفت أوسي إلى زوجته مستعيناً بها على تدبير ردٍّ على ابنه . سألها :
- قولي شيئاً ، يا هدلا .
«ماذا تريدني أن أقول؟» ، ردت هدلا .
«ترجِما لي إلى العربية ما تقولانه» ، تمتمت كاتيا ، داسَّةً ذراعها باسطوانة العجين إلى جوف التنور .
فتح أوسي ذراعيه كالمعتذر ، وهو يأخذ الحديث إلى موضع آخر :
- خصَّصت البلدية لكل فرن كيساً واحداً من الطحين ، لا أكثر . الطحين يتناقص .
«ماذا نفعل إن نفد الطحين في بيوتنا ، يا جاري؟» ، سألته كاتيا .
«علينا أن نقتصد في استهلاك الخبز» ، رد أوسي .
«كيف؟» ، سألته كاتيا .
«لا أعرف» ، ردَّ أوسي .
«إلى متى سيدوم هذا؟» ، تساءلت كاتيا ، فرد أوسي :
- حتى المنتسبون إلى الحزب ، من موظفي دائرة الكهرباء ، لا يعرفون جواباً . لكنهم يباركون تقنين الدولة للطحين ، وغيره .
غمغمت كاتيا مستحضرةً جواباً على المعضلة :
- حين تنتصر دولتنا على اليهود سنستحم بالطحين .
نفث أوسي دخاناً كثيفاً من اللفافة التي أعطته جارته . أغمض عينيه على جدِّية ما يقول :
- السُّكر ينفد أيضاً من الأسواق .
«لم أنتبه إلى هذا» ، عقبت كاتيا .
«أتختزنون سُكَّراً في البيت؟» ، سألها أوسي ، فردت كاتيا :
- عندنا خمسة كيلو غرامات ربما .
«اقتصِدوا في استهلاك السكر ، يا جارتنا» ، عقَّب أوسي .

«لم أنتبه إلى نقصان الطحين والسكر، يا جارنا. ما السبب؟»، سألته كاتيا.

«أتريدين معرفة سبب اختفائهما، أم السبب أنك لم تنتبهي إلى اختفائهما؟»، سألها أوسي.

«أهما ينقصان، أم اختفيا؟»، سألته كاتيا.

«كل نقصانٍ يعقبه اختفاء»، رد أوسي.

«يا جارنا، عندنا بعدُ طحينٌ وسكر. لذا لم أنتبه إلى اختفائهما من السوق»، عقبت كاتيا رداً على سؤاله السابق.

«نعم. عندكم سكر وطحين لذلك لم تنتبهي. أما سبب اختفائهما فهو الحرب»، قال أوسي بلسان ثقة في تحليله.

«أيجري هذا حقاً؟»، تساءلت كاتيا في خفَّةٍ من انشغالها بالتنور.

«كثير من الموظفين في دائرة الكهرباء لا يخزنون السكر، ويشترون خبزهم يومياً من الأفران»، أوضح أوسي. «هُم مبلبلون».

«ماذا نفعل إن نفد عندنا الطحين والسكر؟»، تساءلت كاتيا وهي تسدُّ فوهة التنور بالصاج المجوَّر ريثما تنضج الأرغفة.

«لا أعرف ماذا نفعل إذا نفد الطحين في بيوتنا. لكن يمكن استخدام الدِّبس في الشاي إن نفد السكر»، ردَّ أوسي.

«هذا يعني أننا سنشتري الخبز من الأفران. والأفران ليس عندها كفاية من الطحين»، تمتمت كاتيا بنبر قلق كأنما تخاطب نفسها.

سُمع خبطُ بوابة الدار قوياً بدخولِ موسى حاملاً سطله الصغير. هرع إلى أبيه تحديداً، وهو يمدُّ يده اليسرى بفرنكات ستة إليه:

– بسبعة فرنكات هذا اللبن. لم يبق في دكان الحلبي غيره.

أمال أوسي رأسه متفحصاً ما في السطل، ذي المقبض، من لبنٍ رائب. تمتم:

- هذا لن يكفي للغداء .
تقدمت هدلا من ابنها الصغير . تناولت السطل منه مستطلعةً مقدارَ ما فيه :
- هذا يكفينا للغداء .
وضع أوسي يده على كتف موسى اليسرى . سأله :
- ما الذي يتناقص في دكان الحلبي؟
«يبدو الدكان فارغاً من أشياء كثيرة ، يا أبي» ، رد موسى . أردف : «هناك بعض البطيخ ، والبندورة المتعفنة» .
«سنشتري ، بعد الغداء ، كل ما عنده من البطيخ» ، عقب أوسي .
ارتفعت للمرة العاشرة ، ربما ، أغنية فريد الأطرش ذاتها من مذياع أوسي في غرفته ، منذ مجيء كاتيا لاستخباز عجينها .
تصنَّع موسى نشيجاً . ارتدى قناع البكاء تقليداً لصوت فريد الحزين . ردَّد أغنية من أغاني صاحب الكلمات المعذَّبة استثارةً للأسى في القلوب ، وسحلاً بها إلى ما يلوِّعها :
- يا غرامي ، كل شيء ضاع مني .
«أغاني الهند كلها معذَّبة ، مُبكية» ، عقب كيهات .
«البكاء باللغة الهندية يفرح القلب . البكاء باللغة العربية يشوي الكبد» ، قال موسى .
«ماذا عن غناء شارلي شابلن؟» ، سأله كيهات متفرِّساً فيه .
«غناء شارلي شابلن؟!» ، تساءل موسى موسِّعاً بين أجفان عينيه . زفر حسرةً : «إنه يغني بقدميه» .
هرع كيهات ، بغتةً ، إلى فوهة البئر عَلَتها الدجاجات . صرخ بهن منتهِراً ، ملوِّحاً بذراعيه .
قأْقأتِ الدجاجات قفزاً بجسومهن عن فوهة البئر .

«هؤلاء الدجاجات متهيئات للانتحار» ، قال كيهات .

«أيعرفن أن البلد في حرب ، يا كيهات؟» ، سألته كاتيا .

«ألا ترين حجومهن ، يا جارتنا؟» ، قالت هدلا رداً . أردفت : «فُقِد طعامُ الدجاج في بلدنا قبل فُقدان الطحين والسكر» .

«ماذا كان الطعام الذي يخصُّهن قبل أن يُفْقَد؟» ، سألت كاتيا جارتها باستغراب خفيف ، فردت هدلا :

- زيت الزيتون .

«ماذا؟» ، تساءلت كاتيا مبتسمة .

«قبل شهر من الحرب اختفى زيت الزيتون» ، ردت هدلا

«ما الحاجة إلى زيت الزيتون؟ استخدمي الشحم» ، قالت كاتيا .

«يا الله» ، صرخ موسى وهو يسدُّ أذنيه .

التفت الجميع إليه . هتف به أبوه :

- ما بك؟

«ذبحني هذا الفريد الأطرش» ، ردَّ موسى . رفع راحتي يديه عن أذنيه ملتفتاً إلى غرفة أبويه ، حيث صدحت حنجرة المغني الحزين ، بعد صراخ الأناشيد الحربية ، بأغنيته ذاتها ، المُؤَالِفة بين قلوب الشعب .

«لماذا يقول فريد الأطرش : قد تآخينا هلالاً وصليبا ، يا أبي؟» ، سأل كيهات أباه .

«ماذا تريد أن يقول؟» ، عقَّب أبوه .

توسَّطت كاتيا حديثهما :

- ما الذي تقولانه بالكردية؟ لا أفهم .

«أسأل أبي ، يا جارتنا ، لماذا يقول فريد الأطرش : قد تآخينا هلالاً وصليبا؟» ، قال كيهات .

«ما يضايقك من فريد الأطرش ، يا حلو؟» ، سألته كاتيا .

«لا شيء» ، رد كيهات .

«ما الأمر ، إذاً؟» ، سألته كاتيا .

«المسلم مسلم . المسيحي مسيحي . قد يكونان جارين طيبين ، أو زميلين ، أو صديقين . لكنهما ليسا أخوين» . ابتسم . «لقد اقتتلا في أغنية فريد ، ثم تصالحا ، فتآخيا» .

«دولتُنا أُمُّنا . نحن إخوة وأخوات إذاً» ، عقبت كاتيا .

«ماذا عن الستِّ راحيل؟» ، سألها كيهات .

تأملته كاتيا وقد سها قلبها عن معنى سؤاله . تمتمت مستوضحة :

- من؟

«الستُّ راحيل» ، كرر كيهات الإسم .

«أتعني بائعة اللحم؟» ، سألته كاتيا ، فردَّ :

- نعم .

«المرأة اليهودية؟» ، كررت كاتيا السؤال تأكُّداً .

«نعم» ، رد كيهات .

«ماذا عنها؟» ، سألته كاتيا وهي تعبر وجهه ببصرها إلى وجهَيْ أمه وأبيه .

«لماذا لم تجد أغنيةُ فريد الأطرش مكاناً لها بين الهلال والصليب؟» ، سألها كيهات .

«هي يهودية» ، عقبت كاتيا بنبرٍ فيه تنبيه .

«نعم . هي يهودية» ، قال كيهات .

«هُم قتلةُ يسوع المسيح» ، تمتمت كاتيا مستفظعة .

تنحنح أوسي مفسحاً لصوته موضعاً بين صوتَيْ جارته وابنه :

- لماذا أحضرتَ بائعة اللحم إلى اجتماعنا عند التنور ، يا كيهات؟

«أحضرتْها أغنيةُ فريد الأطرش» ، رد كيهات .

«لا ذِكر لليهود في أغنيته» ، عقَّب أبوه .

«أليست راحيل سوريةً؟» ، سأله كيهات .

وضعت هدلا يدها اليسرى على كتف كاتيا من خلفها ، متطلِّعتين معاً إلى كيهات :

- يحبُّ شراء اللحم من حانوت راحيل ، يا جارتنا .

«نعم . أُفضل شراء اللحم من الست راحيل» ، قال كيهات بنبرٍ عصبي . أردفَ يعيد سؤاله :

- أليست راحيل سوريةً ، يا أبي؟

«كلُّ السوريين سوريون» ، رد الأب بلا تمعُّن في كلماته .

«لا ، يا أبي» ، عقَّب كيهات : «كلُّ السوريين بلا سوريا» .

ابتسم أوسي متطلعاً إلى كاتيا ، التي ابتسمت بدورها من منطقٍ لم يتكشَّف فيه معنى المنطق . استدارت إلى التنور تجمع من جوفه الأرغفة بخرقة لفَّتها على يدها اليمنى . رفعت صوتها وهي مستديرة بظهرها إلى الآخرين :

- أتسمعين ابنك ، يا هدلا؟

«لا أفهم اللغة العربية جيداً أحياناً ، يا جارتنا» ، قالت هدلا معتذرة عن عدم لحاقها بالمعاني . أردفت على نحوٍ غريب :

- سوريا ليست سوريَّةً .

- استدارت كاتيا مُهاْهِئةً :

- ما دولتُنا؟

التفتت هدلا إلى زوجها تستعين به :

- ما هي دولتنا يا أوسي؟

«هي ما قُلتِه ، يا روحي» ، رد أوسي . ضحك : «ألا تصْلُح هدلا أن تكون معلمة في مدرسة ، يا جارتنا؟» .

سبقت هدلا أيَّ رد من كاتيا . قالت :

- لو كنتُ أعرف القراءة والكتابة بالعربية ، لصرتُ معلمة مدرسة . صوتي كان سيجمِّد التلاميذ على مقاعدهم إن صرختُ بهم .

«يا غرامي . .» ، صدح صوت موسى عالياً ، يقلِّد فريد الأطرش ذا النَّبر المُنتحِب في صوته . نبرٌ لوَّع أغانيه فأشقاها ، ولوَّع سامعيه فاستعذبوا لوعتَهم .

«اسكتْ» ، صاح به كيهات .

«اسكتْ أنت . تُبكيك الأغاني الهندية» ، قال موسى .

«اسمعوا» ، قال أوسي ملفِتاً الأسماع إليه . «سمعتُ بمقتل يهود في البلد» .

«ممن سمعت ، يا أبي؟» ، سأله كيهات بصوت متلهِّف .

«من زملاء في دائرة الكهرباء» ، رد أوسي .

«أين قُتِلوا؟ في قامشلو؟» ، سأله كيهات بالكردية .

كاتيا أيضاً سألت جارها السؤال ذاته بالعربية :

- أين قُتِلوا؟

«لا أعرف» ، ردَّ أوسي .

«من أين الأخبار؟ مِن المذياع؟» ، سألته كاتيا ، فرد أوسي :

- إذاعتنا لن تُعلن شيئاً كهذا .

«أتعرف الناسُ أخباراً لا يعرفها المذياع ، يا جارنا؟» ، عقَّبت كاتيا . أردفت : «الناسُ تَكذب» .

«ألا يكذب المذياع؟» ، تساءل أوسي .

«لا ، يا أبي» ، تدخَّل كيهات : «المذياع لا يكذب . نحن نكذب على المذياع» .

«ماذا؟» ، تساءل أوسي .

تكلمت كاتيا معاتبةً :

– تحدَّثا بالعربية ما دمتُ هنا .

«يقول ابني إن المذياع لا يكذب ، بل نحن نكذب على المذياع . ماذا فهمتِ من هذا ، يا جارتنا؟» ، سألها أوسي .

«حقاً يا كيهات . ماذا يعني هذا؟» ، سألته كاتيا ، فرد كيهات :

– نتظاهر أننا نصدِّق المذياع . هكذا نكذب عليه .

«مَن علينا أن نصدِّق ، يا حلو؟» ، سألته كاتيا .

لوى كيهات فمه . رفع حاجبيه . أغمض عينه اليمنى .

كانت حركات وجهه الخرقاء تلك تصريحاً صامتاً أنه لا يعرف مَن ينبغي عليه أن يصدق . لكنَّ الأخبار ستنكشف ، بعد انتهاء حرب الأيام الستة بين العرب وإسرائيل ، عن سبعة وخمسين يهودياً قُتلوا في سوريا .

ثمانية عشر قتيلاً هم العدد أنقص ، في العام ١٩٦٧ ، من عدد قتلى العام ١٩٤٨ في مدينة حلب . قرار تقسيم فلسطين ، آنذاك ، أحرق ثلاثمائة منزل ، ومَتْجر ، وأودى بحياة خمسة وسبعين يهودياً ، في المدينة الجوَّالة بتاريخها بين العُمران فخماً والأشعار ناعسةً حُسْناً . سادت حلب على المدن ، وسادت عليها المدن . غَزَت وغُزِيَت . نَهَبت وانتُهِبت . وقد رَسَتْ حوادث القتل ، والحرائق ، في تأريخ المؤرخين ، على مصطلح من الوصف نُسِبَ إلى المدينة : «مجزرة حلب» .

ودَّعت كاتيا جيرانها إيماءً برأسها كحالها تماماً أولَ دخولها ساحةَ البيت محيِّيةً إيماءً . لم تنس وهي ملتفتة بوجهها صوب هدلا ، تحديداً ، في المغادرة ، أن تتحسس بيدها اليسرى بطنها مبتسمةً ، تسند الصَّحْفة القشَّ إلى خاصرتها بالأرغفة عليها مغطاةً بالقماش الكتان ، يسبقها موسى ليفتح لها البوابة .

رجعت العائلة كاملة العدد إلى غرفة الأبوين الشرقية . هيأت الأم

إبريق الشاي ، والخبز دافئاً بعدُ . دلقت سطلَ اللبن الرائب في صحن من التوتيا واسع ، عميق ، وسطهم وهم جلوسٌ متقابلين على البساط اللَّبْد .

غمس كل واحد كسرة من خبزه في اللبن ، مرتشفاً فوق اللقمة بلعة من الشاي الساخن ، الذي اجتلب دِفؤه عَرَقاً حول الأنوف ، وبين الحواجب أيضاً .

سخونة الشاي في الصيف منعشةٌ ، يتعرَّق منها الشارب فيتلطَّف الجلدُ ابتراداً خفيفاً . إنه وجهٌ من تلاعُب الشراب البارد ، المثلج ، والشراب الساخن ، صيفاً ، بأجساد الشاربيْنَ .

الشراب الباردُ ينعش الجوفَ ؛ قناصٌ هادئ بسهامه صعوداً من دغل الأحشاء إلى مجاري العروق ومسالكها ، الوعرةِ منها والسهلة . قذْفُه السهامَ قَذْفُ جملةً ، من موضع نزوله في المرئ إلى مسالك الطعام . سهامٌ لا يصدُّها لحم ، أو عظم ، أو عصب ؛ تمضي مخترقة الأنسجةَ الخلايا حتى بلوغها الجلد . تقف باردة تحت الجلد فلا تخْرُقُه .

اللسان ، واللَّهاةُ ، وعظام الحنكين ، والأسنان ، هؤلاء أوائلُ الملتحميْنَ بالإنعاش خالصاً من الشراب المثلج . يعقبُها القلبُ اعتناقاً لنسائم السائل ، فينشرها في أوردته حقائقَ لا اعتراضَ لعضوٍ في الجسد عليها : ذلك إيمانٌ بالبارد أنَّهُ نبوَّةٌ ترشد ضلالَ الصيف وحماوَته إلى الهداية .

للشراب الساخن حيلتُه في الصيف . وهو مقتصر في عمومه ، عند أهل الشمال ، على الشاي لا سواه . حيلتُه بسيطة : إنه يُعرِّق ؛ يعطي الجسدَ ثقةً بارتفاع حرارته أعلى من حرارة الهواء المحيط به ، فيستشعرُ الجسدُ ، بالثقة هذه ، أن ما حوله من الهواء منعشٌ في مماسَّتِهِ للعرق على الجباه وعلى الرقاب .

ربما لم يتمكن جسد كيهات ، بعد ارتشافه قدحين من الشاي على مضغهِ الخبزَ مغموساً في اللبن الرائب ، أن يستحصل تلك الثقة . زادت

الحماوةُ فيه . حدق إلى أبيه الجالس قبالته على البساط اللَّبد :
- أين قُتلَ اليهود؟
أغلقت هدلا المذياع .
«في سوريا» ، رد أوسي .
«أين في سوريا؟» ، أعاد كيهات سؤاله .
«لا أعرف» ، رد أوسي . نظر جانبياً إلى هدلا الجالسة عن يساره : «ألم أقُلْ ، قبلاً ، إنني لا أعرف؟» .
«لماذا لا تعرف؟» ، فاجأته هدلا بسؤالها .
«أأنا الدولة لأعرف؟» ، همهم أوسي .
«أنت موظف في الدولة» ، عاجلتْه هدلا بتعقيبها البريء .
«أيعرف موظفو الدولة ما تعرفه الدولة ، يا روحي؟» ، تساءل أوسي .
تمدَّد كيهات على البساط بعد الشبع ، متكئاً على مرفقيه برأس وظهر مرفوعين قليلاً . كرر سؤاله :
- أين قُتل اليهود؟ في قامشلو؟ في الشام؟ في مكة؟ في موسكو؟
حدق إليه أبوه مستخرجاً لفافة تبغ من علبته . أشعلها بالقداحة . مسح بيده اليسرى على شاربيه المعتدلين . سأل ابنَه :
- ما حكايتك؟
«حكايتي؟!» ، تساءل كيهات باستغراب في ملامحه .
«إلى متى ستسألني أين قُتل يهود في سوريا؟» ، عقَّب أبوه . أردف : «كم من الجنود يُقتلون ، الآن ، على الجبهات؟» .
نفث كيهات من فمه هواءً كنفث أبيه دخان لفافته . عاد إلى لجاجته الواضحة عناداً :
- قُلْ لي ، يا أبي ، كيف لا تعرف؟
اقتحم موسى المحاورة هاتفاً بانفعالٍ مُتصنَّع :

- لا يعرف، يعني أنه لا يعرف، يا كيهات.

احتدم الأب:

- كيف لي أن أعرف؟ أأنا نبيٌّ؟

«مَن أخبرك؟»، سأله كيهات.

«الشيطان»، ردَّ أبوه مستاءً.

«أهو شيطان متديِّن، أمْ كافر، أم جاسوس، أم خائن، أم ضابط في مخابرات الدولة؟»، سأله كيهات.

«شيطان مثلك»، رد أبوه، فعقَّب كيهات مبتسماً:

- إن كنتُ شيطاناً، يا أبي، فلماذا لا أعرف أين قُتلَ يهود في سوريا؟

«تستطيع أن تعرف، مختبئاً في المرحاض وأنت تدخن لفافة من ذَرْقِ الدجاج»، قال أوسي.

أدار كيهات رأسه، في استلقائه مرفوع الرأس قليلاً باتكاءٍ على مرفقيه، إلى بندقية أبيه المركونة في الزاوية قرب النافذة:

- أأطلقتَ النار في الليلة الماضية على أحد، يا أبي؟

«الليلة ربما»، رد أوسي. أردف: «سأطلق النار على جرذ»، هز رأسه مستنكراً: «لم أعرف بوجود هذا القدْر من الجرذان حول سور مبنى مصلحة الكهرباء».

«جرذان؟»، سأله موسى بصوتٍ مستنفَر: «كم حجم الجرذ، يا أبي؟».

فتح الأب راحتي يديه متقابلتين، مكوَّرتين. وسَّع بينهما، ثم ضيَّق، ثم وسَّع، في تقدير الحجوم. رد:

- أصغر قليلاً من رأس كيهات.

أرخى كيهات مرفقيه فاستلقى بظهره فوق البساط اللَّبْد. جرَّ من ورائه وسادة صغيرة، ممعوسة، زرقاء. تمتم:

- أيُقتَل ناسٌ ولا يعرف أحد أين قُتلوا؟

«رجعنا إلى الحكاية ذاتها» ، همهم موسى موبِّخاً أخاه الأكبر . ارتمى قربه هامساً :

- هات يدك .

«لماذا؟» ، سأله كيهات .

جرَّ موسى يدَ أخيه اليمنى . وضع أصابعها على صدغه . سأله :

- أأحسستَ شيئاً؟

«هذه بَثْرَةٌ ، أم ماذا؟» ، تساءل كيهات . أدار وجهه محدِّقاً إلى صدغ أخيه الصغير .

«نعم . هذه بثرة» ، أكد موسى . أردف : «في وجهك مثلها» . ابتسم : «صرتُ شاباً» .

«أتعرف ، يا موسى ، أن شارلي شابلن بلغ مراهَقَتَه من غير بثور على جلده؟» ، سأله كيهات بنبرٍ ساخر .

«أيها الكذاب» ، تمتم موسى تعليقاً على سخرية أخيه .

تبعثرت العائلة كلٌّ على ناحية من البساط اللبد ، الطويل العريض ، متخذاً رَقْدَةَ القيلولة التي لا تفوَّت .

لجأت الدجاجات ، في باحة البيت ، إلى شجرات الورد . نبشت ببراثنها سطح التراب قليلاً تستحصل الأرضَ أقلَّ سخونةً تحته . رقدت ببطونها على التراب المنكوش مستظلةً بالشجرات .

أصواتُ مكبرات صوت بعيدة ، متقاطعة الأناشيد ، وصلت مسامع الدجاجات ، ثم انحدرت الأصواتُ إلى قيلولتها .

بعد ساعة ونصف الساعة ، ربما ، استيقظ كيهات أولاً من قيلولته ملتاعَ الأحشاء إلى ما يبرِّدها . خلع ثوبه الطويل . خلع قميصه القطن الداخلي فانفلتت علبة التبغ الرخيصة ساقطة أرضاً . التقطها سُراعاً . دسَّها

بين طيات القميص ملتفتاً حوله . عاد فأخرج العلبة مذ لم يرَه أحد . رمى قميصه الداخلي أرضاً . خرج في سرواله الأبيض ، الفضفاض ، الطويل حتى ركبتيه ، إلى باحة الدار من باب الغرفة الموارَب غيرَ موصود . اتجه إلى غرفة المؤنة يخبئ علبة التبغ بين الحوائج فيها مُنضَّدةً ، متجاورةً في أكياس على الأرض ، وصفائح ، وأوعيةِ زجاجٍ مغلقة على رفٍّ طويل تسنده أوتاد مغروزة في الحائط .

خرج من غرفة المؤنة إلى المرحاض ، في الزاوية من ملتقى الجدار الجنوبي بالجدار الغرب ، على الجهة اليمنى من البوابة ، توازيه التنور على الجهة اليسرى : مرحاضٌ أرضيُّ الفتحة لِقضاء الحاجة إفراغاً للأمعاء ، وللمثانة ، جلوساً قرفصاءً . في المرحاض رفٌّ خشبي صغير بطول شبر عرضاً ، مغروز بين انطباق لَبِنات البناء في الجدار ، عليه صحن من التوتيا يحوي قطعة من الصابون المصنوع من زيت الزيتون ، وعصارة بزر شجر الغار وورقه .

صابون معتكر الخضرة ، خشن الملمس بما في مكعَّبه ، الذي يملأ راحة اليد حجماً ، من رمل ملتصق به أحياناً ، هو حاصل صناعته من وضع قوالب عجينته على الأرض الخلاء ، بما تحوي من عُصافة ، لتجفَّ العجينة قبل قطعها مكعبات ؛ وبما تحوي أيضاً من كُسارةِ ورق الغارِ وهُشامةِ بزره .

حمل كيهات من المرحاض الإبريقَ النحاس ، الواسع الجوف ، المعقوفَ البُلبل ، إلى البئر . أنزلَ الدلوَ الصفيحة المعدنية إلى القرارة المعتمة . استخرج ماء . أمال الدلو بإسناد قاعدته إلى طوق فوهة البئر . شرب الماء كرْعاً حتى ارتوى . ملأ الإبريق . التفت إلى حقل الورد يتأمل الدجاجات جاثمات في شبكة الظل . سكبَ بقية الماء من الدلو في الجدول الضيق بين الحصى . سال الماء إلى الشجرات .

عاد كيهات إلى المرحاض . نزع سرواله الداخلي . علقه إلى وتدٍ

خشب بارزٍ من أحد جدرانه . دلق ماء على رأسه من بلبل الإبريق . دلك شعره بالصابونة الخشنة . دلك إبطيه حتى أرغيا . استحم سكْباً من الإبريق على جسده مرفوعاً إلى الأعلى بيديه . شهقَ مأخوذَ الجلد ارتعاشاً من برودة ماء البئر .

رجع كيهات بعد استحمامه إلى الغرفة الشمالية ، التي يتقاسمها مع أخيه الصغير ، منتعلاً خُفَّيه الصندليْنِ الإسفنج المضغوط ، المبتلَّين . تجفَّف بقطعة من القماش ليست منشفة على الأرجح ، بل ملاءة يغطي بها فراشه أحياناً إن أحسَّ برداً . وضع القماشة على حافة السرير المعدن ذي اللوالب الأسلاك تحت سطحه .

خرج كيهات من غرفته إلى غرفة المؤنة . جلب لفافة تبغ . أشعلها بعود كبريت حكَّه بقائمة السرير . تنشَّق منها أنفاساً على عجل ، وهو يرصد من النافذة باحة البيت . أطفأها قبل بلوغ احتراقها نصفَها . أخفاها في ورقةٍ أودعها تحت لُحُف في حفرةِ خزانةٍ في الجدار عليها سترٌ من القماش . توجه منتعشَ الرئتين دخاناً إلى البئر . مضمض فمه غسْلاً من الرائحة ببعض الماء الراكد في قاع الدلوِ الصفيح ، ثم أكمل سيره إلى غرفة أبويه .

كان الثلاثة الآخرون يستيقظون تباعاً من قيلولتهم ، في الغرفة الراكدة هواءً بالرغم من نافذتيها المفتوحتين ، وبابها غير المنطبق . تناوبوا على طاسة الماء رشْفاً .

أدار أوسي وجهه ، المثقل بالنوم ساخناً في طَسْتِ القيلولة الساخن ، إلى موسى :

- هاتِ بطيخة حمراء من غرفة المؤنة .

«أكلنا آخر واحدة قبل يومين» ، رد موسى بصوتٍ نعسان .

«ليس عندنا بطيخ منذ يومين؟» ، تساءل أوسي مستاءً من إهمالٍ لا

يُغتَفَر . كل بيت في الصيف يحوي بطيخاً أحمر وأصفر . إنهما فاكهة الآلهة بعد القيلولات التي ينهض المرءُ من نومها جافَّ الأحشاء ، والفم ، والقلب أيضاً . تمتم غير متيقن : «ألم نأكل بطيخاً البارحةَ؟» .

لم يردَّ أحدٌ تأكيداً ، أو نفياً .

أخرج أوسي لفافة تبغ من علبته الملقاة على البساط قربه . أشعلها متطلِّعاً إلى كيهات يرتدي ثوبَه القميصَ الطويل حتى عقبَيْ قدميه ، من غير أن يلبس القميصَ القطنيَّ الداخلي :

– أهذا عَرَق على شعرك أم ماء؟

نظر كيهات إليه نظرةً لا تقصد ، بحقٍّ ، أن تستجلي ملامح أبيه أو كلماته . أمرٌ آخر ، طارئ ، داهم خيالَه . رغبةٌ اجتاحت بدغدغاتها وريداً من أوردة قلبه .

«هات ثلاثة أكياس ، يا كيهات ، من غرفة المؤنة» ، قال أبوه . «سنرى ماذا في بقَّالة الحلبيِّ من البطيخ» . أردف : «سنشتريه كلَّه» .

خرج كيهات من الغرفة . عاد إلى أبيه بكيسين من القماش الخَيْش . وضعهما على البساط أمامه ، ثم انعطف بخطواته يهمُّ بمغادرة الغرفة .

«أين أنت ذاهب؟» ، سأله أبوه . مطَّ جسده صوب المذياع ، فشدَّته هدلا قبل أن يشعل الآلة الناطقة .

«سأخرج» ، رد كيهات باقتضاب .

«إلى أين؟» ، كرر أبوه سؤاله بإلحاح . نهض إلى الخزنة المستطيلة الخشب قرب سريره الوسيع الخشبي : خزْنةٌ بابها ستارة من القماش . أزاح الستارة . تناول قبعته القشَّ المستديرة الحواف يتَّقي بها وهج الشمس : «ستأتي معنا ، يا كيهات» .

«إلى أين؟» ، سأله كيهات .

«إلى جهنم» ، رد أبوه . «لنشتري من بقَّالة الحلبيِّ بطيخَه ، وبطيخ

الأمة العربية الواحدة» ، قال نصف جملته بالعربية .

«جئتك بكيسين . واحد لك وآخر لموسى الجبار . كيسان يكفيان» ، عقَّب كيهات .

«كيف تعرف؟» ، سأله أبوه ساخراً .

«أعرف ماذا؟» ، تساءل كيهات .

«كم عند الحلبي من البطيخ» ، رد أبوه .

خَطا كيهات ، من غيرِ ردٍّ ، يخرج من الباب متجاهلاً أباه .

صرخ أوسي بابنه الأكبر :

- ما بك؟ إلى أين؟

«إلى جهنم» ، ردَّ كيهات بنبرٍ غاضب .

بدا أوسي مصدوماً من ردِّ ابنه . نظر إلى زوجته :

- ألا يليق بابنك أن يكون على جبهة من جبهات القتال؟

خرج كيهات من الغرفة غير آبه بشيء . مشى بخفَّيه الصيفيين على الأرض الحصى . بادل الدجاجاتِ نظراً وهُنَّ يحُمْن من حول البئر متشممات ماءها الدفين ، البارد ، المنتصر على عطش التراب .

لم يعتذر كيهات إليهن أنَّه خيَّبهن فلم يُنجِد عطشهن الواضحَ بماء من البئر . مضى مسرعاً إلى البوابة . فتحها بإصرار جسده على الخروج ، وأغْلقها وراءه على نداءٍ متكسِّرٍ من صوت أبيه غاضباً ، مستغرباً تجاهلَه .

توجه كيهات بخطًى متمهلة ، شديدةِ التمهُّل كالمتردد ، إلى النهاية الجنوب لشارع بيتهم ، حيث مطلعُ العراء المفضي إلى حقول الحبوب بعد برزخ التراب القاحل . ثم انعطف شرقاً إلى الخلاء الترابيِّ تناثر عليه الشوك بنباته الخشن ، الصغير الأوراق خُضراً لا ينتزع الصيف منها عنادَ اخضرارها ؛ وتناثر عليه نابتاً عشبٌ متفرق المواضع ، يابس ، استسقى من الشمس صُفرةَ ضيائها المعتصَرة .

زوابع من الغبار تتالت لَعِباً بأذيالها القِصار، ترفع التراب، وما انقصفَ من العشب اليابس، مدوَّخيْنِ دوراناً قبل أن يتلاشيا راقديْنِ على الأرض من جديد، لترفعهما ـ من ثم ـ زوبعةٌ تالية.

في العراء متَّسعٌ، أبداً، للزوابع الصغار تعلو شبراً، وكباراً تعلو بالغبار الهُشامة حتى بطن السماء المنتفخة حَبَلا من آيات القيظ في نهار الصيف، ومن آيات الصفاء ليلاً تتعلق فيها النجومُ بأذيال النجوم، وتخطف الشهبُ من الشهب مثلَّجاتها منكَّهةً بقشدة الغامض السماويِّ وقِرْفَته.

كانت غاية كيهات، بتدبيرِ من خطط قلبه، المسيرَ إلى بيت راحيل، من جهة العراء جنوباً، وليس منً مسالك الشوارع باستقاماتها من الشمال إلى مطلع العراء الوحشي.

إنه اليوم الرابع من حرب الأيام الستة: هديرٌ، أحياناً، في السماء من طائرات صاخبة يحجبها ألقُ الصيف المُعْشي، فلا يُعرف أهي تجول على تخوم الحدود التركية مع سوريا، أم تجول على تخوم الجهات المستورة في سماء الشمال السوري؟ عويلُ مكبِّرات إنذار مُدَّت أسلاكها، الناقلةُ للحقد الصوتيِّ على نفْسه، موزَّعةً على أبنية في منعطفات مركز المدينة، وأعلى أؤلئك المكبرات صوتاً ما نُصب منهن على زوايا سطوح السراي الحجريِّ القديم. طربٌ كالغناء مهشَّماً زجاجاً في حناجر الشوارع، من العبور الهادر لشاحنات الجنود، وسيارات رجال أمن الدولة، ذهاباً وإياباً في الطرق ذاتها، كأنها ماضية إلى جبهات الحرب بالمقاتلين، وعائدة منها بالجرحى.

استعراضٌ صوتيٌّ في المدينة المُغبرَّة الصيف.

حشودٌ من الصوت هديراً، وزئيراً، وجعيراً.

معارك من الصوت على جبهات الصوت.

متاريسُ صوتية .
خنادقُ صوتية .
اقتحامات صوتية .
أسلحةٌ صوتية لإرشاد التاريخ إلى منزلته كصوتٍ ، وإلى إيمانه بالصوت منتصراً .

كان مرامُ كيهات ، في تقصُّده بيت راحيل من الجنوب الترابيِّ ، الابتعادَ عن ملتقيات الشوارع ، ومنعطفاتها ، وتقاطعاتها . لكنْ ، قطْعاً ، لم يكن العراءُ المتصل جنوباً بحقول الحبوب ـ الأجردُ إلاَّ من عشب وحشيٍّ ، وشوكٍ بَطِرِ الإبر ـ ليحجب كيهات عن وجوده في مرمى الراصدين حيَّ اليهود . سيُرصَد إن عَبَر أحد رجال المخابرات على دراجته ، أو برز شرطيٌّ ، فجاءةً ، من ركن خلف جدار بيت يأكل هلالاً من البطيخ أحمرَ ، أو أصفر . غير أن التوقُّعات اللاذعةَ لم تُثنه عن خطته مُعْلَنةً في خطواته المتمهلة ، المحدَّدة اتجاهاً .

قبل سنتين ، أو أقل ، لفتت كيهات معلومةٌ تداولها زميلان له ، عربيٌّ وأرمني ، في صفه من المرحلة الإعدادية ، عن زميليهم اليهوديين في الصف ، سمير ونعيم : اليهود يتجنبون الأعمالَ يوم السبت . يهيئون مستلزمات يحوجونها نهارَ الجمعة طعاماً ، وتنظيفات ، واغتسالاً ، وتلميعاً للأحذية بخُلاصات الشمع ، وأشياءَ أُخرَ من ضرورات التفصيل اليومي .

لكن يظلُّ للبيوت من حاجاتها ما يُبغى قَضاؤه في ساعاتٍ من السبت تحديداً ، كاستخراج الماء من الآبار ، وإيقاد الشمعدانات بالرغم من وجود الكهرباء في البيوت هناك ، وتجهيز الموائد ، وتسخين الأطعمة وتقديمها .

مبالغاتٌ طغت ، بإضافاتٍ من الخيال ، على تعداد ما يحوجه اليهودي في سبته ولا يقْدِرُ العملَ عليه . زميلا كيهات اليهوديان أبرما

اتفاقاً بسيطاً مع الزميلين الآخرين ، العربي والأرمني ، في الاستعانة بهما على تدبير شؤونٍ صغار في منزليهما ، عصرَ السبت ومساءه من كل أسبوع ، بعد العودة من المدرسة في فصول الدرس ، او في العطلة الصيفية .

السبتُ نهارُ دراسة في المدارس ، يعقب يوم الجمعة الذي هو العطلة في دولة سوريا . السبتُ مصنَّف كفاتحة للعودة إلى المدرسة ، بعد اللهو القصير المقتصر على ما بعد ظهر الخميس وما يليه من الوقت حتى صباح السبت الثقيل ، عادةً ، في تطويقه رقابَ التلامذة مذعوري القلوب عودةً إلى المدارس المُذعِرة في مناهج التربية صراخاً توبيخاً ، وشتماً ، وتحقيراً ، وركلاً أحياناً من أمناء المدارس لن يقاضيهم أحدٌ عليه ، بل سيُعتَبَرُ الركلُ تدبيراً تُرتجى منه هدايةُ التلميذ الضالِّ عقلاً ، وتصرُّفاً ، إلى فردوس الأُمَّة المربِّية للعقل رَكْلاً .

كيهات ، حين عَلِقَ قلبُه بابنة بائعة اللحم ، على نحو من عَقْدِ المصادفات اتفاقاً مع حماقاتها القوية أحياناً ، والرثَّة أحياناً ، استذكر المعلومةَ عن قيام زميليه ، العربي والأرمني ، بمستلزمات في منزلي زميليهما اليهوديين ، مقابل بعض الحناء من حانوتَيْ أبويهما ، أو مقابل صابون ، أو قارورة عطر صغيرة أشبه بزجاجات العقاقير الصغار ، المختومة الفوهات بمطاطٍ يخرِقُه الممرِّضون ، والأطباء ، بإبر المَحَاقِن استخراجاً للسوائل منها ، قبل غَرز الإبر في عضل المرضى . ولربما أُعطِيَ الزميلان ، على خدمتهما ، تبغاً أيضاً .

جمع كيهات قلبه ، وخيالَه ، وجسارتَه ، حزْمةً كأضمومة نعناع أخضر ، في ارتياده مرةً حانوت راحيل ، قبل عام ونصف العام ربما . إذْ حين أنجزت المرأة الأربعينية ، ذات الوجه الأبيض المتطاول ، والمئزر الأسود ، اقتطاعاً من اللحم لا يزيد عن التسعمائة غرام تحديداً ، ولفَّتْه في ورقة خشنة ، سألها :

– أتريدين مساعدة عصرَ السبت ، أو مساءه ، يا ستُّ راحيل؟

«مساعدة؟!» ، تساءلت راحيل .

«أعني أية خدمة تريدينها» ، أوضح كيهات .

«مثل ماذا؟» ، تساءلت راحيل .

«مثل استخراج الماء من البئر . إشعال الشموع . تسخين الطعام» ، عدَّد كيهات بعضَ ما ظنَّه محتملاً من حاجات بيتها .

«أتُحْسِن الكِناسة؟» ، سألته راحيل مبتسمة .

ابتسم كيهات بدوره . تردَّد ، ثم ردَّ :

– الكناسة سهلة ، يا ست راحيل . سأكنس داخل البيت ، وباحة البيت إن أردتِ .

«ماذا عن سطح البيت؟» ، سألته راحيل ، وهي تدفع باللحم في اللفافة الورقية زحفاً بيدها على المنضدة صوبه .

«سطح البيت؟» ، تساءل كيهات مستغرباً .

ضحكت راحيل .

تفهَّم كيهات دعابتها . تمتم :

– أأحضر إلى بيتكم عصرَ السبت؟

غمغمت راحيل من غير تصريح له برغبتها في أن يحضُرَ .

فَهِمَ كيهات رضاها . رجع إلى تعداد الأشغال التي بإمكانه القيام بها عصرَ السبت ، ومساءَه ، إذا اقتضى الأمر :

– أجلبُ الماءَ من البئر .

لم ترد راحيل . ابتسمت .

«أكنِّس البيت» ، استطرد كيهات . فابتسمت راحيل ثانيةً ، بلا تصريح عن قبولها .

«أُرتِّب الأسِرَّة» ، قال كيهات .

عقدت راحيل بين حاجبيها . سألته مستفسرةً :
- ماذا؟
«أرتب الفُرُش» ، كرر كيهات عرضَه .
«لا أظن ذلك ضرورياً» ، عقبت راحيل .
«كما تريدين ، يا ست راحيل» ، قال كيهات . أردف : «أأشعل مصابيح الكهرباء ، أم لا تفضلونها؟» .
«لا نفضلها على الشموع ليل السبت» ، عقبت راحيل .
«سأوقد ما تريدين من الشموع إذاً» ، قال كيهات .
غمغمت راحيل بنبرِ رضىً ، من غير تصريح بالكلمات .
«أسخن الطعام» ، قال كيهات . استدرك : «لا أريد مقابلاً عن خدمتي ، يا ست راحيل» .
لم ترد راحيل . استدارت إلى قطعة من اللحم معلقة في عَقْفة الخطاف الحديد المتدلي . جبَّت منها بشفرة سكينها شريحةً رقيقة وضعتها في كفة الميزان . وضعت عياراً صغيراً من النحاس في الكفة الأخرى : «أنا لا أخطئ» ، تمتمت . «هذه مائة غرام» . فتحت الورقة المضمومة عن اللحم الذي وزنتْه قبلاً لكيهات . أضافت شريحة اللحم إليه . طوت الورقة الخشنة لفافةً من جديد . «هذا كيلو غرام كامل ، أيها الشاب ، بسعر تسعمائة غرام» .
كانت تلك موافقة راحيل الواضحة ، بلا تصريح من لسانها ، على عرض كيهات خدمتَه لها في اليوم المُعلن من مُعْتَقَد اليهوديِّ موقوفاً على الروح ، التي لا ينبغي أن تفسدها أعمالُ الجسد طلباً للمنافع . لم تقل راحيل كلمة واحدة تدليلاً على الموافقة ، إنما كان وجهها طافحاً بالقبول . إخفاء التصريح ـ ربما ـ وجهٌ من عدم اللجوء إلى الأغيار لأداء ما يَحْجِم اليهودي عن أدائه عملاً في سبته . فإنْ عَرَض الأغيار خدمةً قابلها

اليهودي باللاتصريح عن قبوله في كلمات، لكنْ يُضمر القبولَ باللاتصريح عن رفضه أيضاً.

أهذا هو الأمر؟ شيء مَّا من ذلك سمعه من زميليه الذين يخدمان، أحياناً، في منزلي زميليهما اليهوديين. كيهات لا يأبه بتفسير، أو تعليل: إنْ لا رفضَ فهو القبول. وقد عمَّ قلبَه الرضى، حاملاً لفافة اللحم في الغلاف الورق خارجاً من الحانوت بكيلو غرام كامل من اللحم ارتضت راحيل من ثمنه ما يَعْدِلُ ثمن تسعمائة غرام.

كيهات، حين توجه، عصر اليوم الرابع من حرب الأيام الستة، إلى منزل راحيل، أراد تأكيد العقد ببنوده اللطائف بين قلبه وبين منزل راحيل. الصراخُ، والعياط، والصهيل، والزئير، في الإذاعات المحتشدة سِرباً في زريبة مذياع أبيه، خلطت المعاني قشاً بالتراب على بَيْدَرِ عقله: أحرب تجري بين العربي والإسرائيلي، أم بين المسلم واليهودي؟ ألسنة المذيعين، بأصواتهم الجهورية، رتَّبت مقاصد الصراع حصْراً بـ «دولة اليهود الصهيونية». وقد استنفر التوصيفُ، والتصنيف، الريبةَ في شراكة اليهودي للآخرين من مواطنيهم كوريدٍ من أوردة الجماعات يجري الدمُ فيه إلى القلبِ ـ الدولة. وكذلك أثار الريبةً بَسْطُ الدينيِّ سيادتَه على التعريف بالأعداء في تلك الحرب، وما قبل تلك الحرب وأخواتها السابقات، الصغيرات.

كيهات، الذي تحسس الرذاذَ الصقيعيَّ، في الصيف، من زرائب الصوت في مذياع أبيه الهادر، بات متوجِّساً، في يوم الحرب الرابع، من ارتداد الحرب بموجها عن الجبهات إلى الداخل. لقد رأى بعيني فهمه الضيِّقتين بعد، بعدما سمع بمقتل يهود، أنَّ لينا، وأمها راحيل، وزميليه اليهوديين في صفه، وعزرا العطار، والحيَّ اليهودي، وسوقَه، كلهم انغلق عليهم فخُّ الريبة باسنانٍ دينية، وأسنان من العصبية القومية.

أراد المراهق أن يرى ـ في اليوم الرابع من نشيش الأصوات احتراقاً ، في مذياع أبيه ، على جمر الإيمان بتطهير الأرض من الأعداء ـ عيني لينا ، وعيني أمها راحيل ، ليتقرَّى فيها ثباتَ عَقْدِ قلبه مع منزلهما ببنوده غيرِ مُعدَّلَة ، أو ممحوَّة ملغاة ربما .

يعرف كيهاتٍ أن لبائعة اللحم بنتاً أخرى ، أكبر من لينا ، اسمها إسْتِيْر ، هربت مع أشوري من قاطني القرى الأشورية على ضفاف نهر الخابور جنوباً . تزوجته . لم تعُدْ إلى عائلتها . وقد تمنى كيهات ، على نحوٍ لن يفسره قلبه ، أن يرى إستير وزوجها ، عصر ذلك اليوم ، في منزل الأم . صهرُها الأشوري ، المسيحي ، قد يخفِّف من ارتكاز البيت على الدِّين الذي تستحضره المشافهاتُ في الشارع ، والتلميحاتُ المكشوفةُ الريبة من النَّسَب الذي استقرت عليه الدولة الإسرائيلية دِينياً .

خَطَرَ ، أول ما خطر لكيهات ، في قدومه متمهلاً ، بل حَذِراً ، صوب بوابة بيت راحيل ، مشهدُ الدلو الخشبية ، الشبيهة ببرميل صغير ، يرفعها من البئر مليئةً ماءً ، كما فعل مراراً في أكثر من سنة وشهور ، في الباحة المرصوفة إسمنتاً من البيت اللَّبِنيِّ الهيكل .

لم تكن مواسير المياه وصلت بعدُ ، بتمديداتها ، إلى الجهات الأبعد من طوق مركز المدينة وما يجاوره . في المدارس ، والمشفى الوحيد ، ودور السينما ، ومؤسسات الدولة ، والأبنية في المحيط المتسع حلقةً من ساحة «السبع بحرات» ذات الكُرة النوافير من ثقوب فيها ، مواسيرُ مياه يرفِدها ضخاً خزانان كبيران ، عاليان عن مستوى سطح أرض المدينة أمتاراً ، على قرب من منبى السَّراي المُعظَّم ، العتيق البناء محتوياً دائرةَ قَيْد النفوس والأحوال الشخصية ، ومكتبَ القائمقام ، السيد في خطابات الأعياد الوطنية ومتفرِّعاتها من الأعياد المُضافة إلى الأعياد الوطنية ، والأعياد المبتكَرة حديثاً بقدرة الحزب الحاكم على اعتصار خُصى الأيام كي تعترف

بأعياد منسية أهملها التاريخ ، أو هي لم توجد قط .

من شرفة ضيقة ، في إحدى نوافذ الطبقة الثانية من مبنى السراي ، يلقي القائمقام العسكري خُطَب نهوض الأمة ، وسؤدُدها ، بصوت هادر يجري ضخاً كالسيل في أسلاك مكبِّر الصوت . لكنَّ خزّاني الماء الأسطوانيين ، الضخمين ، اللذيْنِ لا يستبين النظرُ إليهما أهما من معدن أم من إسمنت ، لم يكونا يضخان الماء إلى الكثير من الجهات ، في المواسير المعدنية ، إلاَّ ضخاً ضعيف الضغط ، وليس كصوت القائمقام يجري دفَّاقاً في الأسلاك أيام الأعياد .

ذلك غير مهم . حَسْبُ من تصلهم المياه ، في المواسير ، أنهم محظوظون ، أحياناً ، بالماء المُعقَّم بتعاويذ ساحرات مادة الكلور ، ومنكوبون أحياناً بانقطاعه ، وبتجمُّده في أيام الصقيع شتاءً لا تخرج قطرة من صِمام الحنفيَّة .

على نحو مَّا ، اقتداءً بدول سمع أئمةُ الإختصاص السوريون في إطفاء الحرائق أنها دولٌ تُحْسِن التصرُّف بالحرائقِ ، إنِ اندلعت ، أقامت شركة المياه مضخات على البعض من تقاطعات الطرق وملتقياتها : مضخاتٌ قِصار ، اسطوانية الهيئات ، حُمرُ الحديد الصلب في هياكلها ، ولها مقابض أنصاف كُرات تُدار يمنة ويسرة قبل انجرار الماء منقذفاً في شهيق ، وسعالٍ متتابعين ، من أنوفها العِراض المعقوفات إلى أسفل .

ماً من سيارة إطفاء ملأت خزانها من تلك المضخات ، أو استنجد بها الأهلون في إطفاء حرائق اشتعلت . إنما اختلسوا من مياه أولئك المضخات ما قدِروا على اختلاسه لحاجاتهم ، يملؤون منها الصفائح الواسعات الأجواف ، والأوعيةَ ، ذهاباً وإياباً إلى بيوتهم .

تنبهت شركة المياه إلى الأمر . خلعت المضخات من الشوارع كلها ، بعد رسمِ خطط لمدِّ مواسير المياه إلى البيوت الأبعد من مركز المدينة ، حتى

الضواحي . غير أن المواسير تلك لم تصل بيت راحيل بعدُ . لذا عبرت صورةُ الدلو الخشبية ، المنتفخة الجوف خيالَ كيهات في قدومه . إنها دلو ثقيلة بعض الشيء بخشبها المتشبِّع امتصاصاً للماء .

لمس كيهات جانب وجهه الأيسر بيده اليسرى ، مقترباً من بوابة بيت راحيل : شعرٌ خفيف ، متناثر ، يُعلن عن صعود جسده مرتبة من المراتب الأعلى في بكورة شبابه . لن يحْلِق المراهق ما طفَرَ واضحاً ، متفرقاً من الشعر على سالفيه ، وبعض حنكيْه ، وفوق شفته العليا ، وذقنه . ذلك هو قراره في استعراض ذكورته على المرآة إذ ينظر إلى وجهه فيها ، وعلى الأعين الناظرة إليه .

وقف كيهات قبالة البوابة العتيقة الخشب . أمعن النظرَ شمالاً إلى تقاطُعات الطرق ، واستقامات الطرق سالكةً من الشمال إلى الجنوب بلا انعطاف ، أو مَيْل . كوَّر قبضته اليمنى . حدق إلى خشب البوابة العريق كأنما توارثتْه بيوتٌ من ألف عام . دقَّ البوابة بقبضته كدقٍّ قلبه على أضلاعه .

أعاد كيهات دقَّ البوابة أربع مرات ، كل مرة بإصرار أعنف ، كي يسمع مَن في الغُرف البعيدة خطواتٍ كُثراً عن البوابة ، في البيت المديد الساحة . تنصَّت بعد القرع الرابع إلى الفراغ خلف جدار السور . وضع أذنه اليمنى على الخشب العريق . حَبَس أنفاسَه .

طقطقاتٌ توالت خفيضةً ، ثم مرتفعة باقترابها . إنها اصطفاقاتُ عقبَيْ خُفَّين على باطنَيْ عقبَيْ قدمين ، في المشي بما تنتعله الناس ، عادةً ، في الصيف من خِفاف صنادلَ تخفق نعالُها خفقاً .

كشَّ كيهات بيده ذبابةً ارتمت ، في استخفاف ، على زاوية فمه اليمنى . انسلَّ صوتُ فتح البوابة إلى عظامه . تنحنح مرتبكاً إذ رأى وجه بائعة اللحم من خَصَاصِ الدَّفَّة :

- ست راحيل .

«هذا أنت ، يا كيهات» ، عقبت راحيل محدقة إليه في فضول .

كان وجهها مثقلاً حَذَراً ، وتوجُّساً أيضاً ، إذ مدت رأسها خارج البوابة تستطلع الجهات شمالاً وجنوباً ، قبل أن تستقر ببصرها على وجه الشاب المراهق . سألته بالعربية الماردينية اللهجة :

- ما الأمر؟

اختلس كيهات نظرة خاطفة إلى باحة البيت من جانب كتف راحيل . خالَ أنه لمح وجهاً وراء الباب المفتوح للغرفة الجنوبية ، يترصد مَن قد يكون طارقُ بوابة البيت . شدَّ عصبَ غايته :

- أتريدينني يوم السبت؟

بدت عينا راحيل مهمومتين بالبريق المنكسر في موضعٍ مَّا من حدقتيهما . أطرقت ببصرها أرضاً . أغمضت عينيها . تمتمت :

- ألا يزال يومُ السبت يوماً من أيام الأسبوع؟

لم يفهم كيهات التوريةَ في كلمات راحيل . صمتَ محدقاً إليها .

«لماذا أنت هنا؟» ، سألته راحيل بصوتٍ هَمْسٍ .

كرَّر كيهات عَرْضه :

- أتريدينني يوم السبت؟ يسرُّني أن أقوم بأية خدمة .

تنهَّدت راحيل . حدقت إليه متفرِّسةً بإمعان .

تلافى كيهات تفرُّسَها فيه بانشغاله في طرد ذبابة من عرْق ذباب الصيف الجوَّال عنيفاً بفلسفة الطنين ، وبزوابع المنطق حَصْراً باللَّسْع . سألها :

- متى ستفتحين الحانوت ، يا ست راحيل؟

«الحانوت؟!» ، تمتمت راحيل كأنما تذكرت شيئاً ضائعاً . «نعم . الحانوت» . استدارت إلى الوراء بوجهها تنظر إلى ابنتها ظاهرةً ببعض

ملامحها من وراء الدفة المفتوحة من باب الغرفة .

لم يكن لاستدارتها إلاَّ معنى أن تزِنَ ببصرها أحوالَ الوجود من حولها ، في اليوم الرابع من حرب تعتصر العنب بأقدامها الألْف ، لتُخَمِّرَ العصارةَ نبيذاً من الحقد ، والخوف ، والخسارة ، والرياء ، والتظاهر بالفخر المثقوب الحَوصلة . لا ميزان سيزنُ بعدُ ، في اليوم الرابع من حرب الأيام الستة ، مقادير الخراب الذي سيتراكم في حُفرة الوقت الضيقة كالأرواح الضيقة في أرض سوريا . راحيل تزن الحريقَ الخفيف في قلبها ربما ، بعيار من الهواجس . أجابت كيهاتَ على سؤاله المنتظِر :

- قريباً سأفتح باب الحانوت ، لكن لن يكون عندي لحم للبيع .

«ألا أغنام في قامشلو؟» ، سألها كيهات ، فردت راحيل :

- توجد أغنام ، إنما ينبغي أن يذبحها الراباي .

«أين الراباي؟» ، سألها كيهات .

«في حلب» ، ردت راحيل . «حين يصير سفرُه ممكناً من حلب إلى قامشلو ، سنبيع اللحم» .

«أهناك جزارون آخرون يهود غيرك ، وغير جارك بِنْحاسْ ، في قامشلو ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات .

«نعم . واحد في السوق الكبيرة» ، ردت راحيل .

«ما اسمه؟» ، سألها كيهات .

«سبحان الله بن نجم الدين» ، ردت راحيل .

«ما هذا الإسم ، يا ست راحيل؟ أهو يهوديٌّ مسلمٌ؟» ، سألها كيهات .

«يهوديٌّ مسلمٌ؟» ، تمتمت راحيل في فضول . أردفت : «أتريد القول إنه يهوديٌّ أعلن إسلامه؟» .

«لا . لا» ، كرر كيهات النفي . «عنيتُ أن اسمه كأسماء المسلمين» .

«كل الأسماء يهودية ، أيها الشاب» ، عقبت راحيل .
«أسماءُ مَن؟» ، تساءل كيهات .
«أسماء أهل الدنيا» ، ردت راحيل .
«إسمي كرديٌّ ، يا ست راحيل» ، عقَّب كيهات .
«كان اسمُك ، قبل مولدك كردياً ، هو كيهاتيْم» ، قالت راحيل .
«ماذا؟» ، تساءل كيهات مفتوحَ الفم استغراباً .
ابتسمت راحيل . لم تُنْجِدْه بتفسير ، لكنها أوضحت مزاحها السابق عن جزار يهودي آخر في السوق الكبير :
- اسمه سليمان شمعون .
«مَن؟» ، تساءل كيهات .
«اسم الجزار سبحان الله بن نجم الدين» ، ردت راحيل بنبرٍ أقرب إلى الضحك . هزَّت رأسها وهي تتمتم : «يوم السبت إنْ بقيَ سبتاً» .
فهم كيهات الإشارة :
- سأعود عصرَ السبت ، يا ست راحيل . أم تريدينني باكراً؟
في هدوء أوصدت راحيلُ البوابة مبتسمةً .
غادر كيهات بوابة بيت راحيل في اتجاه الجنوبِ العراءِ الشاسع ، البرزخِ ، قبل اتصال الأرض الجرداء بحقول القمح والشعير . هبَّ هواءٌ ماجنٌ ، عصبيٌّ ، مغرورٌ غرورَ الصيف باقتداره على ابتكار الزوابع لاهيةً في الأعراء ، بتصاميمها الصغار ، والكبار ، أنيقةً ممَّا تحملها من غبار أنيق ، وعُصافة أنيقة قشاً وورقاً من النباتِ الشوك الوحشي ، أو أرواحاً مجفَّفةً حِفْظاً ريثما تُنْقَل إلى مخابئها في كهوف السماء .
زوبعةٌ عالية ، هائجة دوراناً ، دقيقةُ القاعدة واسعةُ الفوهة من أعلى ، زحفت محمومةً صوبَ الغرب ، على بعد مائتي متر ربما من كيهات ، الذي لم يلحظ نشوءَها ؛ لم يلحظ خلْقَ الهواء للزوبعة بجسارةٍ كجسارة الريح العاصف .

توقف كيهات يتأمل الزوبعة . قاسَ الأبعادَ ببصره . تنهَّد . رفع حاشيةَ ثوبه الواسع . ركض عاريَ الساقين إلى الزوبعة المتلويِّة كثعبان راكض على ذيله اجتياحاً للعراء . بلغها بركضه . دخل جوفَها مغمضَ العينين ، مغلق الفم ، حابساً نفَسَه كي لا يستنشق الغبار .

انشقت الزوبعةُ كأنما انتُهِكت وأُهينتْ . تراخت لوالبُها الغبارية . شُلَّت فتفكَّكت من حول كيهات .

إحتكار الوجود

انتصر الصوتُ في الحرب . هُزم الجيش . قُضمتْ من خريطة الأمصار العربية أمكنةٌ ، وتضاريسُ ، وأجزاءٌ من السماء ، لكن انتصر الصوت . ما من سوريٍّ إلاَّ سالت في أعراقه ، مع الدم ، أصواتُ المذيعين تلاوةً للبيانات العسكرية عن قتلى الأعداء بشراً ، ومدرَّعات ، وطائرات . رجَّت الأصوات عظامَ السوريين حتى بات النبرُ في ألسنة الإذاعات من مادة العظام نفسها كلْساً ونقْياً .

ترنَّح السوريون إذ خمدت أصوات المذيعين . كان الصوتُ ببلاغة نبره الهادر ، العنيف ، المجتاح ، المزلزل ، الخضَّاض ، هو الهواء في الرئات ، وسندَ وقوفهم منتصبين ، ستة أيام أوفَتْ قسطَ قرون من الأصوات ، واختزلت التاريخَ إلى نقاءٍ صوتيٍّ كلما علَا عَلَا انتصارُ التاريخ .

غاصت الأناشيد ، في الفسحات القصار بين أصوات المذيعين ، إلى الطبقات الأعمق من لحم السوريِّ المُجاورة للعظام . حُقِنَ لحمُه ، وخياله ، وعزيمةُ الوجود فيه بالأناشيد المكافحة ، الصارمة في دَحْر كل من مسَّ العرب بخدشٍ في حياءِ فخرهم . كلُّ مَن مالأَ الإسرائيليَّ ، في حرب الأيام الستة ، مُحِيَ من خريطة اليقين العربي ؛ مُسِحَ بممحاة المقاطعة اقتصادياً ، وثقافياً ؛ وسُدَّت على أرواح موتى الأمم ، التي مالأتْ إسرائيلَ ، طُرقُ العبور في سماء العرب مذ كانت الأرواح وحدها استثناءً ، من مطالع الخَلْقِ إلى حرب الأيام الستة ، لا يحدُّ عبورَها ضبْطٌ ، أو قيدٌ ، أو عائق .

كانت الأناشيد مُحكمَةَ الضراوة في كفاحها مع الجنودِ كتفاً إلى كتف ؛ مُحكَمةً كمالاً من انتصار الكلمات بصراخها ، ووعيدها ، وقَسَمها

باستنزال الأهوال . الملائكة في الكلمات العربية هزمت الشياطين في لغة العبرانيين . لم يكن مهماً ، إذاً ، مَن انتصر منهما بقدميه على الأرض في خاتمة الحرب : عربيٌّ في الكلمات الملائكة ، وإسرائيليٌّ في الكلمات الأبالسة .

لم يكن مهماً ، بعد امتلاك العربيِّ الإتقانَ الخالد لأناشيد الصراخ ، والجعير ، أن تكون الجيوش العربية بلا حذْق في الحروب ، ما دامت محصَّنةً بخطابات القادة وتعاويذها ، قادرةً برثاثتها على إخضاعِ المدن بشراً وعُمراناً إن استاءت من حُكْم حاكم .

إِن هُزم الجيشُ سينتصر النشيدً . إن هُزم قُوَّاد الجيش ارتقوا ، بنعمة الخسارة العربية الخالدة ، مراتبَ أعلى ، أو صاروا رؤساءَ خالدين لن يسمحوا للتاريخ وضعَ الهزائم إلى جوار أسمائهم في سياق التأريخ للهزائم . سيُعْفَون ، خالدين ، من تبعة وقوع الهزائم في أيامهم قُوَّاداً ، أو رؤساء . المصادفات هي المسؤولة عن الهزائم ، لا هُمْ . خالفتْهم الحظوظُ بارتكابها جرائمَ الغدر بتصميمهم على الإنتصار . المصادفات الخائنة ، العاهرات ، الوضيعات النَّسَب ، المنافقاتُ ، غدرت بنصرهم الموعود ، بل المُنْجَزِ ضرورةً ، فنكصت عن إرشاد النصر ، وحظٍّ النصر ، إلى مسالك التحقُّقِ .

المصادفات وحدهنَّ يتحمَّلن تبعةَ ما صنعنَه بالسياق الذي كان محسوماً للنصر ، فانعطف النصر عن اقتطاف ما هُولَهُ . خانتِ الهزيمةُ قَدَرَ الأمة المنتصرة . خسرتِ الهزيمةُ مُذ تتحمل الهزيمةُ ، كالمصادفاتِ العاهرات ، هزيمتَها . لكنِ انتصر الوعدُ بإعادة النصر منتصراً في مكان مناسبٍ آخر ، ووقت مناسب آخر ، بعد خروجه ـ عن غير قصد ـ على طاعة المشيئة الإلهيةِ ، الباذلة النصرَ منتصراً محسوماً للمحاربين باسم دينه ، والحافظة خلودَ المهزوم في مصر ، وخلودَ المهزوم في سوريا ، وخلودَ الأنظمة المهزومة

منذ استقلالات دول العرب مهزومةً بتحرُّرها من استعمار، لتفوِّضَ استعماراً آخر بأقدارها يديره مالِكُو الدول هؤلاء، وأولادهم، وأحزابهم الخالدة.

احتكار القادة المهزومين ـ إلاّ في حروب الداخل ـ للدول في أصقاع الحكم العربي، لا يَعْدِله احتكارٌ للخلود كالذي وعد به فراعنة الأهرام أجسادَهم، وكالذي وعدت به المراقدُ القدسية نسلَ الأنبياء وأقربائهم خلوداً. تجارةٌ توريثٌ للأقدار المحتكَرة. قدَرُ المهزوم الحاكم أن يكون منتصراً في أرض لا تعترف بهزيمة، منذ أنبتَ اللهُ في أرضهم حجرَ السماء، وتكلَّم بلغتهم.

لا مثيل لانتصارٍ عربيٍّ في اختزال هزيمة حرب الأيام الستة، الخالدة، إلى زرٍّ صغير في معطَف سمَّتْه نكسةً عارضة، عابرة، لن تدوم. أيْ أن الأمرَ كله تراجعُ خطوةٍ، أو خطوتين، إلى الخلف، تأهُّباً للقفزة الخالدة إلى النصر الخالد، الذي لن يتسع لجلاله التاريخُ، بل ما هو أوسع من التاريخ.

يحيا الصوت.

المجد للصوت.

يحيا الصوتُ المنتصر فخامةً من حناجر المذيعين، والمغنِّيْنَ. انهارَ ما انهارَ ونَجَا الصوتُ معافىً. انهار سلاح الطيران العربي في اليوم الأول من حرب الأيام الستة، الواضحة أن أيامها الخمسة الأُخرَ، التالية لليوم الأول، كانت تمارين من الأنظمة العربية على وضع هزيمة خالدة على أكتاف شعوبها كإثم عليها أن تتطهَّر منه باستعذاب العبودية، وبالرضا عن تشريع العبودية امتناناً للأنظمة.

المجد للصوت: لولا هديرُه المستنفَرُ أناشيدَ وبياناتٍ لَتقوَّض الإيمانُ بالأمة.

كلُّ انتصار النظام العربيِّ في قدرته على اختزال الهزيمة الخالدة إلى

صداع مؤقت عارض، لن يَعْدِله انتصار موسى على مشيئة الحرب في إغلاقِ دور السينما: عادت السينما إلى عروضها مرتين في اليوم، بعد ثلاثة عشر يوماً من الإغلاق. الحرب انتهت، وانتصر موسى.

«متى، قلتَ، ستفتح دور السينما أبوابها؟»، سأل موسى أخاه كيهات ملهوفاً، إذ أخبره أنه رأى عتّالاً يجوب بإعلان مرسومٍ على لوح خشبي عن فيلم ستعرضه سينما حداد.

يَحْدثُ، من حين إلى آخر، أن يستأجر أصحاب دور السينما عربةً من عربات العتّالين، ذوات العجلتين، والأحزمة الجلد العِراض، الموصولة بمقابض القضبان البارزة من جوانبها باستقامة إلى الأمام، يضع العتالون صدورهم فيها ليدفعوا بالعربات يسوقونها بالأقدام جرّاً.

هُنَّ عرباتٌ للأحمال الثقال يقف عتّالو جرِّها على جوانب السوقين الكبيرين، المسقوفين، وأمام المطاحن، وفي الساحات المفتوحة التي يباع فيها البطيخ بالجملة عادةً. أصحاب دور السينما يستأجرون عربة من أولئك لتحمل لهم لوحَ إعلانٍ كبير، مرسوم عليه بالدهان مشهدٌ من فيلم يريدون تسويقه بقوة الألوان، وبصياح العتال تنبيهاً في عبوره مسالك الحارات، ومسالك المدينة حتى الضواحي. الرسوم الضخام على الألواح المنتصبة بحبالٍ تكون، جميعاً، كثيفةَ التلاوين، مبهرَجةً، مختارةً إمّا جمالَ وجهِ الممثّلة، والممثل، أو موقفاً مثيراً.

كيهاتَ أبصر الإعلان المتحرك جراً بساقين متورِّمتيِّ البطتين قوةً، رفع عنهما العتال حواشي ثوبه الطويل فعلّقها إلى حزامه. إنه فيلم تركي، من بطولة المغني زكي موران، الذي أعلن في خمسينات القرن العشرين انتسابَه إلى المثليِّيْنَ، غيرَ مصرَّح عنه بالكلمات، بل بأزيائه، وبصباغة شعره وطراز تصفيفه منفوخاً مَردوداً إلى الخلف، وبمساحيق التبرُّج، والاكتحال، وبمراهم تلوين البشرات كما تفعل النساء.

تحرك الممثل المغني كالنساء في أفلامه، على غنج من الحركة، وتلوٍّ في الأعطاف. فاق البطلات المشاركات أفلامَه ذواتً اللونين الأبيض، والأسود، بمساحيق التلوين، والأصباغ، على خديه وصُدغيه، وبالحُمرة على شفتيه، حتى ظهور أفلامه الملونة، التي أعلنتْه وجهاً عليه قناعٌ من التزويق السميك. وبين أفلامه هذه، وأفلامه تلك، كان قدَرُه أن يقف أبداً كذكَر أمام شريكته الأنثى، عاشقاً للنساء تعشقه النساء يُبكيهن لوعةً، ويُبكينه لوعةً من غير أن تجرف الدموع دهان خديه الملوَّنين.

كان على المعجبين في الشمال السوري بجارهم النجم التركي أن لا تفوتهم مثليَّتُه الصارخة، لكنهم وجدوه، أسوة بالنساء، وسيماً لا تُساءَلُ وسامتُه، حتى ظهور الأخبار متداوِلةً، في مسيرها البطيء من أرض الخلافة الأخيرة، سيرةَ الرجلِ الخنثى. سقطت هيبة البطل، أميرِ العشاق السابي قلوبَ النساء، ممعوسةً، مبعوجة، مخدوشة، بل مشروخةً في الأحاديث: «إنه لوطي». لكن معجبيه ظلوا يرتادون أفلامَه - أفلامَ الغرام الشقية، والنهايات السعيدة من لقاء الحبيب بالحبيبة في مشهدٍ مكرور: يضع النجم خده على خدِّ خليلته، من غير تقبيل كالذي يُخْتَتم به مشهدُ السَّعْد في أفلام أهل الغرب.

كيهات نقل الخبر إلى أخيه الصغير فشهقَ موسى بسؤالٍ أراد تأكيد توثيقه:

- متى ستفتح دور السينما أبوابها؟

«فتحت أبوابها»، رد كيهات.

«سأرى شارلي شابلن»، قال موسى رافعاً قَدَماً عن الأرض، واضعاً قَدَماً، في رقص صامت، قبل ظهيرة ذات يوم، وهو منخرط في لعبٍ مع أصدقاء سريان، وأرمن، بالدُّوَّامات تُشقِّقُ التراب دوراناً، في فسحةٍ خلاءٍ إلى جوار الجامع الصغير شمال الحي اليهودي.

نوعان من الدُّوَّامات الخشبية لهما الغَلَبة في ألعاب الصيف، التي بضمنها لعبةُ الكُريَّات الزجاج قذْفاً بالأصابع، يفوز فيها من يصيب كُريَّةَ الآخر الصغيرة كبندقة، في جوفها فِلزٌّ يلوِّنها. أحدُ نوعَيِّ الدوامات من خشب الجوز، والآخر من خشب الصفصاف، أو الكينا، أو الزيزفون. النوع الأول كريمٌ صُلب، أغلى سعراً، لا يتكسر في القِراع، ويتحمل الندوب. النوع الثاني خسيسٌ، هشٌّ قليلاً، رخيص السعر، إن أُصيبت دُوَّامتُه بضربة مسمار مباشرة من دُوامة أخرى انشطرت نصفين، أو انشرخت.

لنوعيِّ الدُّوَّامة شكلٌ مخروطي. دوامة الجوز منتفخةُ القسم الأعلى، ثم تستدقُّ نزولاً إلى عقبها حيث موضعٍ المسمار. دوامة الخشب المتخذة من شجر غير شجر الجوز متطاولة قليلاً، تنتهي قاعدتها بمسمار حاد من مسامير حدوات حوافر البغال جرى تسنينه بالمِبْرد.

كلُّ صبي يلوِّن دُوامته دوائرَ من سطحها حتى عقبها المنتهي بمسمار مغروز عميقاً في كتلتها هو السلاح الفاتك في المبارزة قَرْعاً وخبْطاً. الغالبُ الفائز لا يستوفي شيئاً من المغلوب. يكفيه الرِّضا عن نفسه، وعن دوامته، بتهشيم دوامة الآخر، أو بإخراجها في ضربٍ متعاقبٍ من دائرة مرسومة على الأرض التراب، وأحياناً على الطرقِ الإسفلت.

اللعب بالدوَّامة من ألعاب الصيف. إن ابتلت الأرض، في فصول ممطرة، غدا اللعب بها عَبَثاً. لا تستطيع الدوامة أن تدور في أرض موحلة، أو مبتلة، أكثر من دورتين. تخورُ صريعةً. الكُريات الزجاجية أطول عمراً في ألعاب الفصول. قد يجري اللعب بها في غُرف المنازل، ولا تستوقفها أرضُ الربيع الرطبة، أو الخريف المبتلة، أو الأرض المعشبة قليلاً بعد مطر الخريف، والمعشبة مطلعَ الربيع.

صراخُ وهياج يصحبان اللعب حماسةً بالدوامة خبْطاً للواحدة بالأخرى، في حقدٍ من خشب الجوز على خشب الجوز، ومن حقد أيٍّ

خشب أقلَّ عراقة ، وصلابة ، على نَسْل نوعه المتواضع ، المُتَّضع .

يلفُّ اللاعب خيطاً طويلاً ، معقودَ الطرف إلى إصبع من أصابعه ، حول هيكل الدوَّامة المخروطيِّ ، بدءاً من طوقِ عنق مسمارها ـ مسمار حدوة البغل والحصان ، حتى محيط ظهرها . وإذ يرمي بها أرضاً ، في قوة ، ينفلت الخيط من حول هيكل الدوامة لولبياً فتدور الدوامة دوراناً عنيفاً على رأس مسمارها ، إن صدمت دوامةَ اللاعب الآخر أخرجتها من الدائرة ، أو قاربت إخراجها .

تظل الدوامة الجيدة الصنع ، المقذوفة قوياً من صاحبها بقُدرة خيطه ، عاتيةً دوراناً ، عادةً ، فيأخذها صاحبها عن الأرض بوضع ظهر يده على التراب ، وفتحِ إصبعيه السبابة والوسطى متيحاً للدوامة صعوداً إلى راحته . هكذا ، إذ تستوي الدوامة دائرةً على راحته ، يصدم بها ـ قذْفاً ـ دوامةَ اللاعب الخصم ، ليكمل إخراجها من دائرة اللعب المرسومة على التراب بعودٍ ، أو بأي شيء ، أو من الدائرة المرسومة بالطَّبْشورة على الإسفلت .

الدوامة المصنوعة من خشب الجوز أكثر استمراراً في دورانها على نفسها من الأُخريات ، المصنوعات من خشبِ غير الجوز . دُوامة موسى من خشب الجوز . سَها عنها برهةً ، وهي ماضيةٌ في دورانها على نفسها ، مُذ أخبره كيهات بعودة دُور السينما إلى إشعال فتيل التاريخ لينفجر صوراً تتحرك على شاشاتها بأيِّ لونٍ شاءتِ الحقائقُ ، أم لم تشأ .

«السينما ، يا موسى» . كانت تلك إشارة كيهات ، المفهومة من ذيلها حتى رأسها وضوحاً على انتظام الكون بعد الفوضى .

«أنذهب هذا المساء إلى سينما شهرزاد؟» ، سأل موسى أخاه .

هَأْهَأَ كيهات بنبرٍ فيه استخفاف :

– إن حصلت منْ أبيك على نقود .

أفاق موسى من نشوة وجوده ، في لحة ، قريباً من شارلي شابلن ،

ممسكاً بعصا كعصاه الرفيعة ، منتعلاً حذاءً ضخم المقدَّمة تَسَع الفردةُ منه قدمين لا قَدَماً واحدة .

خمدت دوامة موسى على التراب بظهرها المطليٍّ لوناً أخضر . أطاحت بها دوامة لاعب آخر .

«نبيع دجاجة من دجاجاتنا» ، قال موسى . ألوى فمه من خطَّته الركيكة .

«سأبيعك أنت . هؤلاء دجاجاتي» ، عقَّب كيهات .

بعد عصر ذلك اليوم ، إذ أفاقت العائلة من قيلولتها ، وتنفست رئاتُهم الهواءَ الدافئ من نفْخ الصيف هواءً دافئاً ، بل ساخناً إنْ حُدِّدَ الوصفُ ، زحف موسى على ركبتيه فوق البساط اللَّبد :

- بدأت دور السينما في عرض أفلامها اليوم ، يا أبي .

«السينما؟» ، تساءل أوسي بصوت فيه نبرُ اللاإكتراث . نظر إلى باب الغرفة الموارَب الدفَّةِ بلا إغلاق : «أهذا رأس دجاجة؟» .

كانت دجاجة تتقصى ببصرها ، إمالةً برأسها يميناً ويساراً ، عمقَ الغرفة من وراء دفة الباب الموارَبة .

«إلى ماذا تحدق هذه الدجاجة؟» ، تساءل أوسي .

«إلى طَرْزَانْ» ، قال كيهات .

«مَن؟» ، تساءل أوسي ، فرد كيهات :

- إبنك موسى .

«أنا طرزان . أرسِلْني ، يا أبي ، إلى مصر حين أكبر قليلاً» ، عقب موسى . اتجه إلى جرة صغيرة من الفخار في ركنٍ ملأ منها الطاسة ماءً .

تتبعه أبوه ببصره لحظة قبل أن يسأله :

- ماذا ستفعل في مصر؟

«يصنعون أفلاماً في مصر ، يا أبي» ، ردَّ موسى .

«أفلامهم تصل إلى قامشلو . ما معنى أن تذهب إلى مصر؟» ، سأل أوسي ابنه .

«سأصير ممثلاً» ، رد موسى .

لم يتفهم أوسي رغبة ابنه الغريبة . مرة واحدة ، في حياته حتى يومهم ذاك ، حضر فيلماً مصرياً فكاهياً عن سلطانٍ مَّا غبيٍّ ، أحمق ، اسمه قراقوش . كان الفيلم باللونين الأبيض والأسود . نامَ أوسي في كرسيه قبل ختام العَرْض .

«يريد موسى أن يكون أول طرْزان كرديٍّ ، يا أبي» ، قال كيهات .

«مَن هو هذا؟» ، تساءل أبوه .

«أتعني طرْزان؟» ، ردَّ كيهات بتساؤل .

«أنا طرزان» ، دقَّ موسى بيديه على صدره ، محاكاةً لربيب القرود في الأفلام القادمة من الغربِ الأبيض والأسود .

«اسكت يا حمار» ، عقب كيهات . «اشرحْ لأبيك لِمَ تريد الذهاب إلى مصر» .

«شرحتُ ذلك ، يا أخي البغل» ، قال موسى . أردف : «لأصير ممثلاً» .

«اشرحْ له من هو طرزان ، يا حمار» ، عقَّب كيهات .

«طرزان هو طرزان» ، قال موسى . طوَّق فمه براحتي يديه . أطلق صرخةً تقليداً لصرخة الرجل المتوحش ، الأبيض ، منقذِ السود الأفريقيين في الغابات من الأشرار البيض ، ومنقذ التائهين البيض من الأشرار السود .

تثائب أوسي . وضع لفافة تبغ بين شفتيه . أشعلها .

نهضت هدلا واقفة ، وهي تنظر إلى البابِ الموارب الدفة . تمتمت :

– ما الذي تتفحصه هذه الدجاجة ، حقاً؟

«هي لا تتفحص شيئاً ، يا أمي . تريد أن أصحبها إلى فيلم شارلي

شابلن» ، قال موسى . لوى عنقه صوب أبيه : «أعطِنا ليرة ، يا أبي» .
«لمن أعطي ليرة؟» ، تساءل أوسي . استطرد متوجهاً بالكلمات إلى زوجته هدلا : «هاتي بطيخة ، يا روحي» . استدار جالساً إلى كيهات يملأ لنفسه من الجرة في الركن ، قرب النافذة ، طاسة الماء . كلمه : «جِئْني بماء» .

أوْصَل موسى ما انقطع من مراده :

– ليرة لي ولكيهات . سنذهب إلى السينما .

«بِمَ تنفعكما أفلام السينما ، بحق الله عليكما؟» ، سأل أوسي ابنيه ، ناقلاً بصره بين وجهيهما ، في وقوفهما قبالته .

«بِمَ ينفعك التدخين ، يا أبي؟» ، رد كيهات .

ابتسم أوسي كأنه أوقَع بابنه ، أو فاجأه ، متلبِّساً بسرقة . سأله بدوره :

– بِمَ ينفعك أنت ، يا كيهات؟

«أنا لا أدخن» ، دفع كيهات التهمة عنه .

«سأرسلك أنت إلى مصر ، إذاً» ، عقَّب أوسي .

«لِمَ؟» ، تساءل موسى مستغرباً .

«ليرجع كيهات من مصر محترفاً تدخين النارجيلة» ، ردَّ أوسي .

«ماذا عنِّي؟» ، تساءل موسى بنبرٍ فيه غيرةٌ .

«أنت هو هذا» ، ردَّ أوسي بجملةٍ قَلقة التركيب .

«أنا مَن؟» ، تساءل موسى .

«طَرْ . طَرْ . زان» ، ردَّ أوسي . أردف : «أنت طرزان قامشلو» .

زفر موسى . استعاد سؤالَه ، الذي تأجل جوابُه ، بنبرٍ متذلِّل :

– أعطِنا ليرة ، يا أبي .

«سأسأل أمك» ، رد أوسي .

«أمِّي؟!» ، تمتم كيهات مستغرباً . بادل أخاه نظراتِ استهجان .

رجعت هدلا إلى الغرفة حاملة بطيخة حمراء . وضعتها في قصْعة واسعة من التوتيا . جلست تقطِّعها شرائحَ أهلَّةً بقشْرِها .

زحف أوسي بركبتيه على البساط صوبَ القَصْعَة .

تنحنح موسى بصوت عالٍ واقفاً . التفت إليه أبوه :

- ما بها حنجرتك؟ أستُغَنِّي؟

«لم تسأل أمي» ، ذكرَّه موسى .

«عَمَّ؟» ، تساءل أوسي .

نظر موسى إلى أخيه ملبَّدَ العينين استهجاناً :

- لقد نسي أبوك .

«النقود» ، تمتم أوسي معقِّباً على كلمات ابنه الأصغر واضحةَ السخط .

تنبهت هدلا إلى المحاورة . حدقت إلى زوجها الجالس إلى جوارها :

- أية نقود؟

نتش أوسي قضْمة من هلال البطيخ الأحمر ، المقطَّع بقِشره . كشَّ بيده يردع ذبابةً لَحوحةً عن اختلاس مَصَّةٍ من العصارة السُّكرية سالت في قصعة التوتيا . رفع وجهه عالياً إلى موسى وكيهات الواقفين ، الصامتين ، المتأهِّبيِّ القلبين :

- اجلسا قبل أن يختطف الذبابُ البطيخة .

لم يصبر موسى على تجاهل أبيه سبب وقوفه ووقوف أخيه متأهبين . مال بجذعه صوب أمه :

- سنذهب اليوم إلى السينما .

رفعت هدلا وجهها إلى ابنها الأصغر لا تعرف بِمَ تعقِّب على رغبته . تمتمت : «سينما؟» ، أدارت عينيها إلى زوجها : «ماذا قلتَ عن النقود؟» .

«لم أقُلْ شيئاً عن نقودٍ» ، ردَّ أوسي . لعق بشفته السفلى أطراف

شاربه المبتلة عصارةً على شفته العليا .

«أتقبلين ، يا أمي ، أن يعطينا أبي ليرة ، لنذهب إلى السينما؟» ، سألها موسى بصوت عال .

«لماذا تصرخ؟ لسنا صُماً» ، عقب أبوه .

تطلعت هدلا إلى زوجها . سألته مبتسمة :

- أتَسْتشيرني؟

«لم لا؟» ، ردَّ أوسي .

«ماذا لو قلتُ لا؟» ، سألته هدلا . قضمت من حزَّة البطيخ ملءَ فمها .

«لا - هِيَ - لا» ، رد أوسي .

«ماذا لو قلتُ : نعم؟» ، سألتْه ، فردَّ :

- أُعطيهما .

«ماذا لو قلتُ نعم مرةً ، ولا مرةً؟» ، سألته هدلا .

«أُعطيهما ليرة ، ثم أستعيدها منهما» ، ردَّ أوسي .

زفر موسى زفيرَ المتبرِّم ، المتململ . رَبَت بيده اليمنى على فخذه اليمنى تعبيراً عن سخطه :

- سأغادر هذا البلد .

تطلع إليه أبواه متفاجئيْنِ من مزاجه المعتكر .

«أستغادر إلى الجحيم؟» ، سأله أبوه ، فرد موسى :

- كل دور السينما ستذهب إلى الجحيم . وأنا ذاهب إلى الجحيم لأشاهد الأفلام مجاناً .

توقفت هدلا عن نتْش حِزَّة البطيخ . سألت زوجها :

- عمَّ يتحدث هذا اليَربوع؟

«عن السينما» ، رد أوسي . «يريد نقوداً للذهاب إلى السينما» .

«أعْطِ إبنيك نقوداً للذهاب إلى المسجد» ، عقَّبت هدلا .

«لا سينما في المسجد ، يا أمي» ، قال كيهات . «لا أفلام» ، هَأْهَأَ : «المسجد مجاناً» .

«عنيتُ أن يشجعكما على الذهاب إلى المسجد بإعطائكما نقوداً» ، قالت هدلا .

«هذه رشوة ، يا أمي . مَن يرتشي ليصلي لله لا يقبل اللهُ صلاته» ، قال كيهات .

التفتت هدلا إلى زوجها :

- ماذا يَعْني كيهات؟

«لا يعني شيئاً على الإطلاق» ، رد أوسي . هتف بابنيه من جديد : «اجْلسَا» .

«أنا أقبل عَرْض أمي» ، قال موسى . «سأذهب إلى المسجد إن أعطاني أبي نقوداً» .

«لتذهب من المسجد إلى السينما» ، عقَّب أبوه . أردف : «اجْلسا» .

تنهَّد الولدان . ألقى كلٌّ على الآخر نظرةً فيها إصرار على أن لا يستسلما . جلسا على البساط يأخذان حصَّةً من البطيخة الخضراء القِشر قطَّعتْها أمهما أهِلَّةً . مضغ كلٌّ لقمةً وهو يرمي بالبزر من فمه على القصعة المعدن فيطقطق المعدن . تمتم موسى :

- ماذا ، ياأبي؟

«ماذا؟» ، تساءل أبوه بنبر لا اكتراث فيه .

«أستعطينا ليرة ، أم ستعطينا أمي ليرة؟» ، سأله موسى .

لكز أوسي بكتفه كتف زوجته لكزاً ناعماً :

- أعْطَيْهما ليرة ، يا روحي .

«ليس معي نقود» ، عقَّبت هدلا ذات الفم المبتسم .

تأمل أوسي وجهَيْ إبنيه عليهما سيماءُ الانخذال . ابتسم :

- بيعا دجاجة وخذا ثمنها .

«أتعني هذا؟» ، تساءلت هدلا مستغربةً اقتراحه .

«أنا اقترحت هذا على كيهات» ، تدخَّل موسى .

«هؤلاء دجاجاتي» ، هتف بهم كيهات محذِّراً .

«بأية نقود اشتريتهن؟» ، سأله أبوه .

«أنا أهتم بهن» ، قال كيهات يحصِّن ملكيته .

«أبنيتَ قُناً لهنَّ بعدُ؟» ، سأله أبوه ، فرد كيهات :

- سأبنيه .

«أبوك يمازحكما . هو لا يعني ، حقاً ، أن تبيعا دجاجة» ، قالت هدلا .
أدارت وجهها إلى زوجها : «أعنيتَ أن يبيعا دجاجة؟» .

هَأْهَأَ أوسي . تفحَّص ببصره أيدي ولديه يمسك كلٌّ منهما بحِزَّة من البطيخ . سألهما :

- أيُّكما له يدٌ نظيفة؟

«يدي اليسرى» ، رد كيهات .

«ضعْ يدك في جيبي الأيمن» ، قال أوسي .

زحف كيهات على ركبتيه صوب أبيه . دسَّ يده اليسرى في جيبه . أخرج حزمة رقيقة من النقد الورق .

«خُذْ ليرة» ، قال أوسي .

سلَّ كيهات ورقة نقدية واحدة من الحزمة ، وأعاد البقية إلى جيب أبيه . لوَّح بالورقة لأخيه موسى :

- سيغنِّي لك شارلي شابلن .

«أعطِنيها» ، قال موسى منفرجَ الأسارير ، منشرحاً .

طوى كيهات الليرة طيَّتين من جنبيها على فخذه راكعاً . جعل رأس

الورقة سهماً . رمى بها إلى أخيه فدارت الليرةُ الورقةُ السهمُ طائرةً نصف دورة . ارتدَّت . سقطت في قصعة البطيخ .

هبَّ موسى فانتشل الليرةَ الورقة ابتلَّ بعضها بالعُصارة الحمراء . مسحها بثوبه . هرَّ :

- يا حمار .

حمل كيهات قشور البطيخ إلى باحة البيت بيديه . رمى بها قرب حقل الورد ، مصفِّراً صفيراً خافتاً للدجاجات هرعْنَ ملبِّياتٍ نداءَ الحياة السكَّريَّ .

رجع كيهات إلى الداخل . كشط بأنامله ما رُميَ من البزر الأسود في القصعة . مضى بالبزر أيضاً إلى الدجاجات . غسل يديه بمغرفة خشبية تتدلى بخيط من حافة البئر ملأها من الدلو الصفيحة . غسل فمه . رشق وجهه بحفنةِ ماء . نثرَ بصرَ عينيه تقطر أهدابُهما ماءً إلى الدجاجات ينقرن باطن القشور مرة ، ويلتقمن البزرَ مرةً ، برؤوسٍ تتمايل أعرافها امتناناً للوليمة يرعاها شجرُ الورد راضياً .

في الساعة الخامسة والنصف قَصَد كيهات وموسى سينما شهرزاد ، إلى العرض الأول لأفلامها مساءً يليه عرضٌ ثانٍ ليليٌّ . حين تدور بَكَرةُ الصور متحركةً ، ناطقة ، بألوان ثرَّة ، أو متقشفةً بلونين هما الأبيض والأسود ، على الشاشة ، لا تكون الشمس أغلقت بحجاب العتمة الخفيفة أفقَ الأرض في الشمال بعدُ . عشرون دقيقة ، أو أكثر ، من العرض الأول للسينما المكشوفة بلا سقف ، تبقى الصور باهتة قليلاً على الجدار الأبيض . ثم تُستَظْهَر أقوى رويداً رويداً ، مع غروب الشمس .

لا يهم المتفرجين تلك الدقائق المقتطَعة من حصة العرض قبل تكاثف الأشكال والألوان باهرةً ، ساطعة ، على الجدار الأبيض المنتصب أمام وجوه الجالسين على مقاعدهم . لا يهم موسى وكيهات ذلك الخلل

الطفيف في العرض مغموراً ببقايا ضياء عالقة بضفائر السماء . العرض الأول هو ما يحضره الأَخوان . العرض الثاني ، النقيُّ بلا تعكير للضياء مزاجَ الصور ، ينتهي متأخراً ليلاً . لذا لا يحضرانه . وهما لم يكلِّفا نفسيهما تفكيراً فيه ، على أية حال ، إذ مَضَيا إلى سينما شهرزاد بعزيمة الإيمان أن الأفلام هي حقيقة الوجود آسرةً بمتعتها . قد يضيف إليها كيهات ، من غير تصريحٍ أو تلميح ، متعةً أخرى هي لفافة التبغ المشتعلة .

طوال الطريق من جنوب الحي اليهودي إلى الوسط الشمال من المدينة ، ظلَّ موسى يتقافز جانبياً في سيره . أمَّا كيهات فروَّى رئتيه بهجةً ، وإمتاعاً عذباً ، بإشعال لفافة تبغ كان يطفئها بعد كل ثلاث نشْقاتٍ من دخانها : لقد أراد من الفسحات الدقائق بين إشعال اللفافة وإطفائها ، بالتعاقب ، أن لا يستنفدها قبل الوصول إلى دار السينما .

بالطبع ، كانت لفافة أخرى مستقرة في جيب كيهات هي من حصة الوقت جالساً على المقعد أمام الفيلم . وهي لفافة سيشعلها الشاب المراهق ، وسيطفئها بعد استنشاق دخانها ، ليواكبه أنسُ جمرتها في صالة السينما حتى نهاية العرض ، في تعاقب من توهُّج الجمرة فخبوِّها . إنه يستنشق مع الدخان الفاتن صورَ الشاشة أيضاً ، ولا أحد يتدخل من عمال السينما تذكيراً بالاعلان المكتوب على الجدار : «ممنوع التدخين» .

تقع سينما شهرزاد في الوسط الشمال من المدينة ، أسفل الأرض المرتفعة من تلك الأنحاء حتى قربٍ من الحدود التركية . ثمتَ جسر يصل طرف المدينة هناك بسطح الأرض المرتفعة قَدْراً غيرَ عالٍ كثيراً ، إن وقف عليها صِبْيةٌ أمكنهم أنْ يروا الفيلم على شاشة السينما المواجهة للشمال ، لكن لن يسمعوا الصوتَ في صَدَفَاتِ الصور . وقوفُ صِبْيةٍ هناك ، أو جلوسهم أرضاً لرصد الأفلام ، يُحْذَرُ ويُسْتَخْوف . وسط الأرض المرتفعة

تلك مبنى استخبارات المدينة ، ذو الطبقةِ الواحدة محاطاً ببعض شجر السرو الأشعث ، والقبوِ السخيِّ بقصص زنازينه في شطارات التعذيب ، والترويع ، والإهانة ، لاستنطاق الأجساد ما تعرف وما لا تعرف .

إنه مبنى الخوف .

كُلُّ مبنى ، فيه فتيلٌ مشتعل من مصباح الدولة ، يُهابُ ويُخاف .

كلُّ ضوءٍ تنيرُ به الدولة حُجُرات الوقت ، ودهاليزَ الأحوال ، يُلقي بظلال الأشباحِ المذعِرة على الأمكنة .

الإنارةُ نفسُها مخيفة بعُود ثِقاب الدولة .

ضوءُ الدولة مخيف .

الظلام مخيف إن حبست الدولةُ نورَ الإيمان بالدولة ، أو أطلقته .

إعطاؤها النورَ مخيفٌ ، وحجبُها النُّورَ مخيف .

الجسر الواصل طرفَ المدينة الأوسطَ ، الشماليَّ ، بالأرضِ النَّهْد العالية قليلاً ، جسرٌ قصيرٌ مخيف .

الطريق التي تمضي صُعُداً شمالاً ، من جوار مبنى المخابرات ، طريقٌ مهيبة ، ينتهي آخرُ رصيفها إلى ثكنة الجنود . بعد سور الثكنة عراءٌ ـ بساتينُ خضار ـ مديدٌ حتى أسلاك الحدود السورية ، التي لا ينقطع صراخُ العساكر الترك ، والدَّرَكيين الترك ، من ورائها تذكيراً للتاريخ أن الأرض السورية ، من جنوب الأسلاك ، لم تزل في العصمة الدينية للخلافة ، ولم تزل ملحقة بمقاصير الحريم يجوبها سلاطينُهم : الصراخُ المسموع ، بلا انقطاع من الحناجر ، هو البرهان .

كل الأرض المترامية شمال المدينة ، بعد الجسر الصغير جداً على الأرض المرتفعة ، تواصلٌ من الخوف بالخوف : مبنى المخابرات الذي يحيط به هواءٌ موحش ، فالثكنة العسكرية ، مُذ قَدَرُ سوريا أنَّ كل عسكريٍّ صفقةٌ محتملة من الخوف ، أو مقايضة من الخوف بالخوف في خيال البشر

العـاديين ، ممن لا سَنَد لهم في الحـزب ، أو نفوذَ مـال تُسْـتـمـالُ به صـداقـةُ حاكم في أجهزة الدولة .

ما وراء نهاية الأرض المرتفعة ، التي تنتهي بانحدار صوب البرزخ بين حدود الدولتين ، زرعٌ وفير من أصوات التُّرك ، ومحاصيلُ وفيرة من صراخ الترك تذكيراً أنَّ سوريا جاريةٌ من جواري السلطان ضَلَّلها الغربُ باتفاقه على اقتسام الجغرافيا في أنحاء من الشرق ، فاستولد دولاً ليست دولاً توارثت الخلائقُ فيها حقدَ الجيران على الجيران ، وحقد الأديان على الأديان .

الخوف بمحاصيله الناضجة ، الدانية قطافاً ، على الأرض المرتفعة شمال سينما شهرزاد ، يقف بحدوده لطيفاً ، أحياناً ، لا يجاوز المبنى ، رِفقاً بمشاهدي الأفلام ربما . ذلك ما أحسَّه كيهات وأخوه ، قادمين مستثارَي القلبين من عودة الحياة إلى إيمانها ، مثلهما ، بأنَّ الصورَ متحركةً ، صامتةً ، أو ناطقةً ، ملوَّنةً ، أو بيضاً وسوداً لا سِواهما ، هي الصُّورُ الحقيقة .

وقف الأخوان يتأملان ملصق شارلي شابلن على اللوح المسنود إلى الجدار بساقيه الخشبيتين . هو الملصق ذاته : سكين في يدي شابلن ضمَّ راحتيه معاً على مقبضه ، جالساً إلى منضدة عليها حذاء فوق صحن كدجاجة مشوية . لكنْ استرعاهما وجودُ ملصق آخر مثبت إلى الحائط الأقرب إلى مدخل دار السينما ، لفيلم مصري عنوانه «ألف ليلة وليلة» ، من بطولة فريد شوقي ، نجمِ الترهيب بالصوت جهيراً ، وبالحاجبين رفْعاً وخَفْضاً .

التبس الأمر عليهما . أدارا بصريهما على ناس آخرين لم يتوقفوا مثلهما عند الملصقين ، بل توجهوا إلى بائع التذاكر في جحره ذي الكوة الضيقة يبادل الداخلين نقودهم بأوراق صغار ، صُفرٍ رقاقٍ ، دوَّن عليها رقم الصف بين صفوف المقاعد ، ورقم المقعد فيه .

سار كيهات وحده في الجمع القصير، المنتظم بلا استقامة، إلى بائع التذاكر في جحره. وصله الدَّور. سألَ الجالسَ في الجحر ممسكاً بالليرة الورق في قبضته اليمنى مطويَّةً:

- أيُّ الفلمين يُعرض، يا أخي؟

نقر بائع التذاكر، ذو الشاربين الكثَّين في وجهه الرفيع، بعقب قلمه الرصاص على حزمة الورق الصفراء، المستطيلة أمامه. ردَّ:

- فيلم وحش الشاشة.

«وحش الشاشة» هو اللقب المتعارف عليه تحبُّباً للممثل المصري فريد شوقي الخشن الأدوار. لقبٌ من الألقاب المسكوكات خصَّت به شعوب العرب أصنامَ التمثيل، والغناء، في ربوعها المحتكِمة في كل شيء إلى ألقاب التفخيم، والتبجيل السائرة من تاريخ معتقداتها بالأشخاص القُدسيين إلى رفاهة التعظيم الإلهي، كالأنبياء حين يُذكرون، والخلفاء، والأئمة، والصَّحابة، وأهل المذاهب.

للمغنِّين على شرفة العصر الراهن من شرفات قصور السَّعْد العربية ألقابٌ هادئة: «البلبل الحزين». «العندليب الأسمر». «سيدة الغناء». «الأستاذ». «الشحرورة». «الصوت السماوي». إلى آخر ما يستطيع خيالُ اللغة من حَشْد فقره في ابتكار الألقاب. أما نجوم التمثيل وأبطاله فتلقَّوا حظوظهم من مسكوكات التفضيل، والتجميل، والمبايعة، على ما يوازيها من حظوظ أهل الغناء: «عميد المسرح العربي». «فتى الشاشة». «سيدة السينما». «ملك الفكاهة». «شقراء الشاشة». «اللهلوبة». «شرير السينما». «ظريف السينما».

تلقفَ كيهات لقب الممثل «وحش الشاشة» من بائع التذاكر على قَدْرٍ من الريبة. سأله:

- ماذا عن مُلصَق الإعلان عن فيلم شارلي شابلن؟

ابتسم بائع التذاكر . ضيَّق بين أجفان عينيه :

– من أي بلد أنت ، أيها الظريف؟

لم يفهم كيهات السؤال الملتبس من بائع التذاكر . التزم الصمت محدِّقاً إلى عيني الرجل الجالس في الحفرة ، وراء الجدار ذي الكوَّة الضيقة .

«أتريد مشاهدة وحش الشاشة هذا المساء ، أم ماذا؟» ، سأله بائع التذاكر .

أفاق كيهات من غمامة اللافهم . استجلى صِورَ المعاني :

– ألستم تعرضون فيلم شارلي شابلن؟

«شارلِي شابلن» ، تمتم بائع التذاكر بنبرٍ لا يُعرف أهو استهزاءٌ أم ترديد للإسم تحبُّباً .

بادره كيهات بالبرهان على قصده واضحاً :

– الملصق في الخارج .

«من أي بلد أنت؟» ، كرر بائع التذاكر سؤاله المُربِك كتلاعبٍ بالكلمات ، أو تحضير لخدعة .

«أنا مِن هنا» ، ردَّ كيهات . تنبَّه إلى يدٍ تلمس كتفه .

كان موسى يقف إلى جواره الأيمن بعدَ ما استشعر تأخُّراً في شراء تذكرتين لهما . همس :

– أسرِعْ .

تجاهل كيهات همسة أخيه . حدق إلى بائع التذاكر :

– أأجَّلتم عرض فيلم شارلي شابلن؟

ابتسم بائع التذاكر ثانية ابتسامة الخُبث ذاتها :

– أنت حتماً جديد في هذا البلد ، يا حلو . لا شابلن . لا أمَّ شابلن في سوريا بعد الآن .

أدار كيهات وجهه إلى أخيه الأصغر بنظرة ملتبكة ، ثم أعاد بصره إلى بائع التذاكر ، الذي بدا مستعجلاً أن يحسم كيهات وقوفَه أمامَ الكوَّة ، مذ تطفَّل بعض الواقفين وراء ظهر المراهق على سبب إطالة المحاورة بينهما ، فمدوا رؤوسهم ، مع تمتمات من خلف كتف كيهات ، متطلعين إلى بائع التذاكر بنظرت مندِّدة .

شارك بائعُ التذاكر تذمُّرَ المتذمرين :

- يا عزيزي . أستشتري تذكرة ، أم ماذا؟

«سأشتري اثنتين» ، رد كيهات من فوره .

«هات نقودك» ، قال بائع التذاكر يستعجله . «ملَّتِ الناس الوقوف وراءك» .

«سأشتري تذكرتين لفيلم شارلي شابلن» ، عقَّب كيهات .

حمحم بائع التذاكر من عدم اقتدار كيهات على فهمه . رفع صوته :

- لا أفلام أمريكية في سوريا ، يا حلو . لا أفلام من البلدان الصديقة للصهيونية في سوريا .

انهيارٌ مَّا ، في أعماق الأَخوين لم يسمعه أحد سواهما ، رنَّح الحياة كقصبة في مجرى جدول . ذُهل كيهات متجمداً . هزَّه صوت بائع التذاكر :

- تنحَّ ، من فضلك يا أستاذ .

تنحى كيهات مفسحاً للآخرين في الصف وراءه أن يصلوا إلى كوَّة التذاكر . وقف قبالة أخيه ، الذي التمع في عينيه عذابٌ عصَرَ قلبَه فكادتا تدمعَان .

«ألن يعرض فيلم شارلي شابلن؟» ، سأل موسى أخاه بنبرٍ منكسر .

زفر كيهات صامتاً . اغتلى في رئتيه غضبٌ سدَّ أنفاسه . استدار إلى الكوَّةِ النافذة في جُحر بائع التذاكر . تقدم مقتحماً فأبعد الشخصَ الواقف

في مطلع الصف عند الكوة . مدَّ رأسه إلى الكوة داخلاً بوجهه فيها . هتف :

– لماذا تحتفظون بملصق شارلي شابلن أمام باب السينما؟

«أتفهم اللغةَ العربية ، يا شاطر ، أم عليَّ مخاطبتك بالتركية؟» ، سأله بائع التذاكر نافد الصبر . أردف : «ابتعدْ ، يا شاطر» .

«كلِّمني بالتركية» ، رد كيهات بنبر متحدٍّ .

هتف شخصان من صف طالبي التذّاكر يوبخان كيهاتْ :

– ابتعدْ ، ياو لد .

«لستُ ولداً» ، صرخ بهما كيهات . اقترب منهما : «أأنتما من أجل ابن القحبة وحش الشاشة؟» .

ارتفع صوت بائع التذاكر من جحره ، مصحوباً بدفعه الكرسي الذي يجلس عليه فاصطدم بالحائط . وقف منتصباً في عصبية متهدِّدة .

حدق كيهات إلى بائع التذاكر متهيئاً وراء الكوة للخروج من جحره متوعِّداً . أمسك بكمِّ أخيه . سحبَه مبتعداً . شتمَ ملءَ صوته :

– تفو على مؤخرة أخت وحش الشاشة فريد شوقي .

خرج الأخوان من بهو بيع التذاكر في سينما شهرزاد إلى الشارع . استدارا معاً إلى ملصق شارلي شابلن . حاولا إعادة ترتيب المعاني العربية في لغة بائع التذاكر بما يعادلها في الترجمة إلى الكردية :

«ماذا يعني أن الأفلام الأمريكية لن تُعرض في سوريا؟» ، سأل موسى أخاه .

«أمريكا ساعدت إسرائيل في الحرب على سوريا» ، رد كيهات موضحاً .

«ما علاقة الأفلام بالحرب؟» ، سأله موسى ، فردَّ كيهات تبسيطاً :

– الأفلام الأمريكية صناعةٌ أمريكية .

«أكلُّ الأمريكيين يحبون أمريكا؟» ، سأله موسى فردَّ كيهات :
- لا أعرف .
«أكل السوريين يحبون سوريا؟» ، سأله موسى .
تأمل كيهات وجه أخيه متبرِّماً :
- ما قصدُكَ؟
«ربما شارلي شابلن لا يحب أمريكا» ، ردَّ موسى .
«اسألْه ، يا ابنَ هدلا» ، تمتم كيهات .
حدَّجه موسى بنظرة حرِّيفَةٍ مُذ لم يستسغ من أخيه مناداتَه على ذلك النحو . استدار إلى ملصق شارلي شابلن . اقترب منه . تطلع يميناً ويساراً يتفحَّص الشارع ، لكن من غيرِ اكتراث ، حقاً ، إنْ رُؤيَ . خمش بأظفار يديه الاثنتين الملصقَ الورقَ على اللوح . شقَّه من أعلى إلى أسفلن مدمْدِماً كالمُهان :
- تكلمْ يا شارلي شابلن .
هرع كيهات فأبعد أخاه عن الملصق ، ممسكاً به من عضده الأيسر يجرُّه جراً . صدم شخصاً اقترب منه .
«ههْ» ، أبدى الشخص تنبيهاً بعد فوات الأوان .
حدَّق أحدهما إلى الآخر . ضحكا .
«أصرت تمشي إلى الوراء ، يا كيهات؟» ، سأله الشاب الذي اصطدم به ، فردَّ كيهات :
- أفلام سينما شهرزاد تمشي إلى الوراء ، يا بُوْغُوْسْ .
«قُلْ : مرحباً» ، قال الشاب الآخر الذي يرافق بوغوس .
تصَنَّع كيهات استغراباً . تقدم من الشاب يتفحَّصه . تمتم :
- مَن ، معك ، يا بوغوس؟ أهذا جمال عبد الناصر؟
ضحك الشاب بصوت خافت :

- أخطأتَ، يا كيهات. أنا نائب موبوتو سيسي سيكو، رئيس الكونغو.

«كيف تستطيع حفظ هذا الإسم، يا سمير؟»، سأله كيهات. «أين تختبئ؟ يمرُّ الصيف كله فلا نراك حول الحيِّ اليهودي. أتظهر فقط حين عودتنا إلى المدرسة؟».

«أنت أيضاً تختفي، يا كيهات، عند أصدقائك في الحي الغربي»، رد سمير القصير الأسمر، الأقرب إلى امتلاءٍ، بصوت خافت. أدار وجهه إلى موسى: «رأيتك تمزق ملصق الفيلم».

«لم أمزقه»، ردَّ موسى مُهَاْهِئاً.

«رأيتك»، عقب سمير اسحق.

«خرج شارلي شابلن من الملصق. مزَّقه وعاد إليه»، قال موسى. داعب بيده اليسرى الطرف المتدلي من الملصق الممزق ظلَّ معلقاً إلى اللوح بالمسمار المغروز في حاشيته.

«لأخيك الأصغر خيالٌ. سيكتب قصصاً حين يكبر»، عقَّب سمير.

«لا قصص. لا دجاج. لا حمير. لا أمريكا. لا شارلي شابلن»، استحضر كيهات الأسماء على نحوٍ عشوائي، لا رابط بينها، ولا يجمعها سياق.

«أطاش عقلُك، يا كيهات؟»، سأله بوغوس جَانيْكْ، الطويل على نحافة، ذو الأنف الكبير والصوت العالي، بلكنة عربية لا يُحْزَرُ جذرُها. التفت إلى سمير: «الحرب بدَّلت مواضعَ فصوص الدماغ في رأس كيهات».

«الحربُ جعلتك عالِمَ تشريح، يا بوغوس»، عقَّب كيهات. استدرك متذكراً حالةً ظالمة: «الأفلام الأمريكية باتت ممنوعة في سوريا».

«والبريطانية أيضاً»، عقب سمير. نظر إلى بوغوس: «ما الدول الأُخريات الممنوعة أفلامها أيضاً، ومنتجاتُها؟».

«كل دول العالم» ، رد بوغوس .
«كلها؟» ، تساءل سمير من مبالغة زميله الأرمني .
«إلاَّ أرمينيا» ، رد بوغوس .
«لم أسمع بفيلم أرمني في حياتي» ، قال كيهات .
ألوى بوغوس فمَه المضغوط الشفتين انطباقاً . قرب رأسه من رأس كيهات :
- ستسمع بأفلام كردية أيضاً .
نقَّل كيهات بصره بين وجهَي زميليه في المدرسة ، كأنما يستجمع سؤلاً لا يعرف المدخل إليه . نظرات سمير اسحق القلقة إلى الجهات من حوله ، بالتفاتات متكررة ، خجولة ، أشعلت في خاطر كيهات ذلك السؤال الذي لم يعثر على مدخله .
سمير يهوديٌّ ، زميل كيهات وبوغوس في الصف ذاته . ظهوره أمام سينما شهرزاد ، في اليوم الثالث عشر من نهاية الحرب ، دغدغَ عضلةَ الأسئلة في خيال المراهق الكردي ، وهو ما استشعره ، تماماً ، من حاله حينما زار بيت راحيل يعرض خدمته ، في اليوم السادس ، الموافق يوم السبت من حرب الأيام الستة . سؤالٌ لا يكتمل ليُطرح . سؤال ثقيل ، منكسر ، مراوغ ، لأنَّ فيه من مباشرة المعنى ما يُنهِك اللسانَ :
- كيف كانت أحوالكم أيامَ الحرب؟
إنه سؤال يحمل ، في ضمنه ، ما على اليهودي أن يقدمه من جوابٍ مخفَّف في وصف أحاسيسه لوطأة أيام الحرب عليه ، ووصف معنى الحربِ في التلاعب بوجوده مواطناً سورياً .
مال كيهات ـ بعد لحظة من انشغال خياله بالسؤال الذي لم يعثر على مدخل إليه ـ إلى سؤال آخر من واقع ظهور زميليه أمام باب السينما :
- ماذا تفعلان هنا؟

«أتستنطقنا؟» ، سأله بوغوس بتلميح من رأسه إلى الجهة التي يقع فيها مبنى الاستخبارات . «ماذا تفعلان ، أنت وأخوك ، هنا؟» .

«خرجنا من فيلم شارلي شابلن تواً» ، رد كيهات .

«فيلم شارلي شابلن؟!!» ، تمتم بوغوس . «العرض الأول لهذه السينما لم يبدأ بعد» .

«قدمت سينما شهرزاد لي ولأخي عرضاً خاصاً من فيلم شارلي شابلن» ، عقَّب كيهات . نظر إلى أخيه موسى المتجهم في ذلك المغيب غير المكتمل : «فيلم رائع . غناء رائع من شارلي . موسى حفظ الأغنية» . ضرب بكتفه كتف أخيه : «غنِّ لنا الأغنية» .

«أتمزح؟» ، سأله سمير اسحق ، ذو الشعر القصير المتماوج الغُرة ، والوجه المدور .

«أنا جاد جداً . انظرْ إلى الملصق» ، قال كيهات ، مشيراً بيده إلى الملصق الممزق .

«أنا مزَّقته» ، عقب موسى .

«رأيتك» ، قال سمير .

«لماذا فعلتَها؟» ، سأله بوغوس .

انعطف كيهات بزميليه عن ذلك التساؤل في ما فعل موسى بالملصق ، إلى سؤال يعني وجودهما أمام باب سينما شهرزاد :

- أيُّ فيلم جئتما تحضرانه؟

«ألف ليلة وليلة» ، ردَّ سمير . ابتسم : «لا تعرض سينما شهرزاد فيلمين في الآن ذاته» .

«كيف عرفتما أن المعروض هو هذا الفيلم ، وليس فيلم شارلي شابلن؟» ، سألهما كيهات .

«عرفنا حين مررنا على الدار قبل نصف ساعة» ، رد بوغوس .

«أأخبركما بائع التذاكر؟» ، سألهما كيهات .

«لا . نحن عرفنا» ، رد بوغوس .

«كيف عرفتما وملصقا الفيلمين متجاوران؟» ، سألهما كيهات .

«لا أفلام أمريكية تُعرض في سوريا بعد الحرب . لا سْبنْسر تْريسي ، لا جون وَيْن ، لا كيرك دوغلاس ، لا جوني ويسمولر ، لا كوكاكولا» ، قال سمير .

«ما هذا؟» ، عقب موسى كالملدوغ . «ماذا فعلت كوكاكولا؟» .

«لماذا حسرتُك على كوكاكولا؟» ، سأل كيهات أخاه . أدار وجهه إلى زميليه : «موسى لا يشرب كوكاكولا» .

«أحبُّ زجاجتها» ، قال موسى .

«عنده زجاجة كولا فارغة ، يشرب منها الماء» ، عقَّب كيهات مخاطباً زميليه .

التفت بوغوس إلى سمير :

- أعطِني نقودك . سأشتري تذكرتين لكلينا . إبقَ مع كيهات .

أخرج سمير نصف ليرة معدنية من جيب بنطاله البني . همَّ بإعطائه إلى بوغوس . تساءل ملتفتاً إلى كيهات :

- هل اشتريتما تذكرتين؟

«لن نحْضر فيلم وحش الشاشة» ، رد موسى .

«لِمَ أنتما هنا؟» ، سأله سمير ، فردَّ موسى :

- كنا سنحْضر فيلم شارلي شابلن .

هَأْهَأَ بوغوس مستظرفاً ردَّ موسى . غادرهم إلى بهو التذاكر وهو يهتف بالصبيِّ مخاطباً :

- انتظرْ إذاً حتى تنضم أمريكا إلى العرب ، في الحرب القادمة ، ضد إسرائيل .

استوقفه كيهات :

- بوغوس . أما زلت تتصيد السمك في فرع النهر هناك؟

كان كيهات يشير إلى فرع من نهر جغجغ إلى الجنوب البعيد ساعة عن المدينة ذهاباً على الدراجة الهوائية ، في موقع ظليل بين شجر الكينا ، صَحِبَه بوغوس إليه مرةً ، في الصيف السابق .

«جفَّ فرعُ النهر ، يا كيهات» ، قال بوغوس مكملاً مغادرته إلى بهو التذاكر . أضاف كلمات إلى جملته : «أتصيَّدُ الضفادع هذه الأيام» .

«ضفادع؟» ، تمتم كيهات متقزِّزاً . نظر إلى سمير بوجه ممتعض : «أيأكل اليهود الضفادع مثل هؤلاء المسيحيين؟» .

ابتسم سمير ابتسامة مثلومة . لم يعقِّب . خفض بصرَه إلى الأرض .

«سنرى ماذا في دُور السينما الأُخريات» ، قال كيهات لزميله اليهودي . استدار مبتعداً بأخيه ، لكن بالتفاتة إلى سمير الذي واكبه ببصره .

قصيرة هي المسافة من دار سينما شهرزاد إلى دار سينما حداد ، في الجنوب منها ، بواجهتها إلى الشرق . نظرة سمير إلى كيهات ، إذ غادره هو وموسى ، كانت على الوزن ذاته ـ إن وُزِنَت النظراتُ بعيارٍ من المعاني ـ من ثقل نظرة راحيل إلى كيهات حين رآها في اليوم السادس من حرب الأيام الستة ، الصافية الخسارة كسماء حزيران .

قرع كيهات البوابة آنذاك ، بعد ما أحصى بعينيه ـ ككل مرة ـ عددَ مسامير حدوات الخيل ، التي رُسِم بها الشمعدان السباعي الحوامل للشموع على بوابة حانوتها المغلق . فتحت راحيل البوابة . ابتسمت عصرَ يوم السبت جاءها جارٌ قريب معيناً لها على تجاوز أشغالٍ صغار في يوم تعطيل الأشغال .

«تفضلْ ، يا كيهات» ، بادرتْه .

كانت عينا راحيل فارغتين، استنفدتا النظر إلى ما يُرى وما لا يُرى، بل متراجعتيِّ الحدقتين إلى غَور محجريهما تترصدان ظلالاً في العمق الغامض للخفيِّ المَحْذور، المتوجِّس.

ترحيبها المختصَر بدخوله كان فارغاً، بلا اكتراث، مذ استنفد خيالُها، في الأرجح، معانيَ كُثراً من تأويل هواجسها للأحوال من حولها، صعوداً أو هبوطاً على مقياس الخوف، والريبة من اللامعلوم.

كلماتها القليلة كانت متعبة الحروف. حركتُها في المشي وهي تسبقه قليلاً، عبر باحة البيت المرصوفة إسمنتاً تتوسطها البئرُ، كانت متهدِّلة، متعبة، لا تشبه تنقُّلها السريع في حانوتها بين اللحم المعلق إلى الخطاطيف وبين المنضدة بيدين تقطعان اللحم خطْفاً، وتزنانه خطفاً، تسبقهما عيناها إلى إلقاء أربعين نظرة من حولها في ثانية واحدة.

لم يعرف كيهات من أين يبدأ السؤال بما يحتاجه المنزل: أيُخرج ماءً من البئر، أم يكنس الباحة الإسمنت إن أرادت راحيل؟ أم ينظِّف الحانوت حتى؟ أم ينقل متاعاً وحوائج من موضع إلى موضع؟ مشى معها ريثما يهتدي حيث تصل به في المنزل إلى مبادرة أُولى يتحيَّن بها عملاً مّا.

كل شيء كان مرتَّباً في الغرفة الواسعة التي دخلاها، وقد انتصب في ركنها الأيمن البرادُ غيرُ الملتزم بقواعد درجات الحرارة.

منزل راحيل غرفتان في الباحة الواسعة ذات السور العالي، إحداهما كبيرة، مديدة، في الجنوب الشرق من الساحة، تحوي البراد وسريرين بهيكلين من حديد قضبانٍ لها ولابنتها، والأخرى أقلُّ سعة، في الشمال الشرق، كانت مقرَّ لينا وأختها الهاربة مع شاب أشوري، قبل موت الأب.

على طول السور الجنوبي للمنزل حتى التقائه بالسور غرباً، سقيفة عالية من ألواح خشب تسندها لَبِناتٌ إسمنتٌ، مغطاة بقماشٍ ثخين كالذي على أجزاء من هياكل سيارات «الجيب»، كتيمٍ يمنع ماءَ المَطر من الدَّلف

إلى الداخل . بناءُ تلك السقيفة العميقة أشبه بخزْنة مستطيلة جداً لا أبواب لها ، مفتوحة ، فيها أكياسُ خيش منتفخة ملأى بما لا يعرفه كيهات من لوازم البيت ، إضافة إلى أغراض متراكمة من علبٍ صفيح صغيرة ، وكبيرة ، وأوعيةِ زجاجٍ ، وخطاطيف حديد ، وسطول ، ومواسير واسعة من تلك التي تُركَّبُ شتاءً في المدافئ لنفْثِ الدخان خارجاً .

لينا ، إبنة راحيل ، ذات الأنف بحدبة خفيفة في وسطه ، كانت جالسة على كرسي قش تستمع إلى مذياع مركون في كوَّة مربعة ، غائرة في الحائط كخزْنة صغيرة ، عليها ستارة حمراء بنقوش من ورد أصفر ، مُزاحةٌ جانباً .

أطفأت لينا المذياع :

- مرحباً كيهات .

«مرحباً لينا» ، رد كيهات . أردف : «إلى ماذا تستمعين؟» .

«إلى لا شيء» ، ردت لينا بصوت خافت ، ناهضةً عن الكرسي القصير ، في ثوبها الرمادي ذي الخطوط البِيض عرضاً ، المُخصَّر ، طويلاً فوق بنطالها البني الضيق عند الأرساغ .

أحس كيهات لسعة في قلبه : ثمَّت شيء مكسور في الهواء المكسور . تركت الحربُ نثارَ زجاجها الشظايا فوق كل شيء وتحته ؛ على الأصوات إنْ لامستْها الأصواتُ جُرِحتْ ، وعلى النظرات إن لامستْها النظراتُ خُدِشت ، وعلى آثار الخطى إن مستْها خطىً جُددٌ تشققت ، وعلى القلوب إن جاورتْها القلوبُ تشرَّمت .

غير أن كيهات ، في تلقُّفه الثقلَ الحجري للعياء في الكلمات ، والحركات ، داخل منزل راحيل ، عَجَنَ الثقلَ ذاك ، في مِعْجن قلبه ، وخَبَزَ العجينَ أرغفةً قضمَها حظُّ الوجود شهياً بالقَطْر عليه من وجود لينا في قلبه لا تنصتُ إلى مذياعٍ ، بل إلى الزمن نافخاً في مزامير الروعة .

كان شعرها على فوضى ، غيرَ عقيص أو مضفور . كانت عيناها السوداوان ، المعتدلتان وَسَطاً بين الكِبَر والصغر ، مهمَلتين لا أثر لكحلٍ جديد أو قديم عليهما . كان لحمها على زَنْدَيها المكشوفين من رفْع كُمَّيِ الثوب إلى مرفقيها ، أقلَّ ـ ربما ـ مما عَهِدَه عليهما من مرآها ، أحياناً ، بكُمَّيْن مرفوعين في حانوت أمها .

ما مِن شيء من فوضى شعرها ، وإهمال الكحل على عينيها ، ونقصان لحمها ، أثقَلَ على كيهات ، أو أَبِهَ له . غفر بصرُه كلَّ فوضى ، وإهمال ، ونقصان في الوزن . حَسْبُ لينا ـ في قلب كيهات ـ أنها لينا . يكفي لينًا أن تكون لينا ، سواءٌ أأهملتْ أم اهتمت ؛ سواءٌ أأشاعت فوضى في مظهرها أم نظَّمتْه مضبوطَ المرأى ، مُحْكَمَ الترتيب .

على أية حال ، لم يُحْسِن كيهات التدقيق إلى وجه لينا . أنزل بصره عنها مراراً ، في ارتباكه الملجوم داخل كيانه ، إلى هيكل المذياع في الخزانةِ ـ الكوَّة . كرر سؤالَه الباهت :

– أتسمعين موسيقى الاستعراضات العسكرية؟

«لا» ، ردت لينا باقتضاب .

«ما الأغاني التي تسمعينها هذه الأيام؟» ، سألها بصوت أرْعشَه قليلاً حياءُ العاشق فيه ، والارتباكُ المعهود إن وُصِفتْ أحوال العاشقيْنَ .

حدقت إليه لينا متفحصةً عينيه وما وراءَهما بنظرتها تلك :

– لا أحب الأغاني هذه الأيام . بل أعتقد أنني لن أحبها بعد هذه الأيام .

«أنا أيضاً» ، عقَّب كيهات . أردف : «أيامُنا هذه لا أحبها» . أدار بصره على أنحاء الغرفة المرتَّبة . سار بعينيه إلى راحيل تعدِّل المَيْل في صورة بالأبيض والأسود ، لعائلة بتمام أفرادها ، معلقةِ الإطار الخشب إلى الحائط الشرقي ، عن يمين أحد السريرين .

التقى بصره ببصر راحيل ملتفتةً إليه . سألْته :

- ألديكم صور للعائلة في البيت؟

«لا ، يا ست راحيل» ، رد كيهات .

«اتحب الصور؟» ، سألته راحيل ، فرد كيهات :

- ما الصور التي تعنين ، يا ست راحيل؟

«صور العائلة . صور أنبيائكم . صور الرؤساء . صور الحيوانات» ، ردت راحيل .

«أحب صور الممثلين» ، رد كيهات . أردفَ : «لو استطعت سرقة ملصق من أفلام المصارعين لعلَّقته على جدار غرفتي» .

«المصارعون؟!» ، تمتمت لينا متسائلة .

«أو صورة من فيلم روبن هود . سبارتاكوس . بن حور . طرْزان . هيركوليس» ، رد كيهات .

«ماذا عن صور الممثلات؟» ، سألته راحيل .

ابتسم كيهات مطأطئاً :

- هنَّ موجودات على ملصقات هؤلاء الأفلام .

«أتستلطف ممثلة على التعيين؟» ، سألته راحيل ، فرد كيهات بسؤال :

- الأجنبيات أم العربيات؟

«الأجنبيات» ، ردت راحيل .

«سوزان هـ . سوزان هـ» ، كرر كيهات الإسم مع حرف واحد من الكُنية . فتح يديه مغلوباً على أمره : «نسيتُ الكنية» . استطرد : «هي أمريكية . وتعجبني أيضاً سَايرا بانو الهندية . أشاهدتِها ، يا ست راحيل؟» .

«حضرتُ ، في حياتي ، فيلمين للمصرية فاتن حمامة» ، ردت راحيل . أردفت : «ماذا عنها؟ أتعجبك؟» .

«تعجبني نجوى فؤاد» ، رد كيهات .

«لم أسمع بها» ، عقبت راحيل .

«إنها راقصة ، وممثلة» ، أوضح كيهات .

«ها . ها» ، عقبت لينا بنبرحٍ مرِحٍ في صوتها ، لأول مرة . سألْته : «أتحب الرقص؟» .

«أحب رقصَ الممثلات في الأفلام الهندية» ، رد كيهات . سألها بدوره : «أترتادين دُور السينما أحياناً؟» .

«لم أحضر فيلماً قطُّ» ، ردت لينا . «لا أحب الجلوس في صالة سينما بين كل أولئك الناس» . حكَّت ظاهرَ قدمها اليسرى بباطن قدمها اليمنى .

استرعت كيهات قَدَما لينا الحافيتان في ذلك السبت ، الذي صادف أن يكون اليوم الأخير من حرب الأيام الستة . رفع بصره عن قدميها إلى وجه أمها ، فألْفَاها تحدق مثله إلى قدمي إبنتها . خطرَ له ، فجاءةً ، لمعةٌ ممَّا يشبه المزاح :

- أتريدانني أن أعجن لكما؟

تفرَّست الأم وابنتها في وجه كيهات لحظةً . لم تتمالكا نفسيهما . قهقهتا .

«أتعرف كيف تصنع العجين ، يا كيهات؟» ، سألْته راحيل .

«لا» ، ردَّ كيهات .

«لماذا تعرِض ، إذاً ، هذه الخدمة؟» ، سألْته راحيل .

«سأتبع إرشاداتكِ تفصيلاً . سأصنع العجين» ، ردَّ كيهات .

نظرت راحيل إلى ابنتها مبتسمة :

- أنلقِّن كيهات كيف يصنع العجين؟

«الآن؟» ، تمتمت لينا بنبرٍ مستغربٍ .

«ما زال الوقت عصراً . تلزمُ العجين ساعة ليختمر» ، قالت راحيل . هزت

رأسها استخفافاً بفكرتها . تأملت وجه كيهات : «تعال مبكراً السبتَ القادم . سأرشدك في صناعة العجين ، وإيقاد النار في التنور ، وخَبْزِ الخُبز فيها» .

«أستفعلين ذلك حقاً ، يا أمي؟» ، سألتها لينا .

«لِم لا؟» ، ردت راحيل . وضعت يدها اليمنى على كتف كيهات : «أتخبز امك في تنُّورها هذه الأيام؟» .

«نعم ، يا ست راحيل . خَبزتْ مرةً» ، رد كيهات .

«راقبْها كيف تصنع العجين . سيسهل عليك ذلك صنع العجين عندنا يوم السبت القادم» ، قالت راحيل . تقلَّصت ابتسامتها وهي تنظر إلى ابنتها : «إن ظلَّت هذه المدينة على حالها» .

«ماذا قد يحصل لقامشلو ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات بنبر متوجِّس ، فردت راحيل : «نحن في حرب ، يا شابُّ . الحرب تجرف أشياءً كثيرة في طريقها» .

فتح كيهات فمه بلا تعقيب . تأملته راحيل :

– ماذا تريد ، يا كيهات ، أن تجرفه هذه الحرب؟

«لا أعرف يا ست راحيل» ، رد كيهات .

ابتسمت راحيل من جديد :

– لاحِظْ كيف توقِد أمُّك النارَ في تنورها .

«أشعلتُ النارَ مراراً لأمي في تنُّورها ، يا ست راحيل» ، عقَّب كيهات .

«نصفُ خبيرٍ أنت ، إذاً ، في صنع الخبز» ، قالت راحيل . أضافت : «تعال . اجلس» ، مشيرة إلى الكرسي القش ذاته ، الذي كانت لينا جالسة عليه في استماعها إلى المذياع ، فيما جلست هي على حافة أحد السريرين ، وظلت لينا واقفة ، مستندة بكتفها إلى الحائط قرب السرير الآخر .

فاجأت راحيلُ الشابَّ المراهق بسؤالٍ لم يُنضِجْهُ أيُّ تمهيد :

- أتدخِّن ، يا كيهات؟

ارتبك كيهات . ردَّ عفوَ الخاطر :

- لا ، يا ست راحيل .

«ربما جئت ماشياً في حقل من لفافات التبغ» ، عقبت راحيل وهي تغمزه . أدارت بصرها من حولها قبل أن ترفعه إلى لينا : «أرأيتِ مروحتي؟» .

«إنها تحت الوشاح على خصرك ، يا أمي» ، ردت لينا .

«أوه» ، تمتمت راحيل . سلَّت من تحت الوشاح مروحة يدوية ، صغيرة ، من قصب رقيق شرائحَ رفيعة تُضمُّ وتُبْسَط ، عليها رسوم من فراشات خُضر . ابتسمت تعذر نفسها عن سهوها . أشارت إلى مروحةٍ من هيكلِ أسلاكٍ ، فوق منضدة كصندوق في ركن قريب من المذياع : «أكره هواءَ المروحة الكهربائية» . أردفت متطلعة ، من جديد ، إلى ابنتها : «أعطيني علبة تبغي» .

مشت لينا إلى سترة معلقة إلى وتد في الحائط ، قرب الأريكة الخشبية والكرسيين العاليَيِّ المَسندين في ظهريهما . أخرجت من جيب السترة الرمادية مما يرتديها الرجال ، وليس النساء ، علبة تبغ .

قاس كيهات ببصره الأبعادَ في الغرفة التي دخلها قبلاً ، عدة مرات ، كأنما يعدُّ خطوات لينا في رجوعها بعلبة التبغ إلى أمها :

تنظيمٌ بسيط جداً ، من تقديرٍ هندسيٍّ بسيط في ترتيب الأثاث والمَظْهر المنزليَّينِ ، أحالَ الغرفة الواسعة إلى قسمين متداخلين : سريران للنوم تواجههما ، من جهة الأرجل ، أريكة وكرسيان ، ومنضدة دائرية ، متوسطة القُطر ، للزائريْنَ . أيْ أن ذلك القسم هو بهْوُ استضافة . ربما لهذا لم تُشِر راحيل على كيهات أن يجلس على أحد الكرسيين ذَوَيِّ المسندين

ظَهْراً ، أو الأريكة ذات الحشايا مغلفة بالقماش السميك الأخضر الداكن .

تناولت راحيل علبة التبغ الزرقاء الغلاف من يد ابنتها . أخرجت لفافتين . وضعت واحدة بين شفتيها الرقيقتين ، وقدَّمت الأخرى إلى كيهات .

فوجئ كيهات بحركة راحيل كتفاجُئِه بسؤالها ، قبل قليل ، إن كان يدخن . كرَّرَ ردةَ فعله التلقائية :

- لا أدخن ، يا ست راحيل .

«دخِّنِ الآن» ، قالت راحيل تحاصره بنظرة لم تترك لإنكار كيهات أن يتمادى .

مدَّ كيهات يده إلى اللفافة . تناولها من يد راحيل . تنهَّد :

- كيف خمَّنتِ ، يا ست راحيل؟

«لك ابتسامةُ مدخِّن» ، ردت راحيل بنبرٍ واضح المزاح . حركت يدها اليسرى أمام أنفها في إشارةٍ إلى أنها تشممت منه رائحة دخان التبغ .

أشعلت راحيل لفافتها بقداحة ذهبية المعدن أخرجتها من باطن وشاحها الأزرق ، العريض كحزام حول وسطها . مدَّت القداحة المشتعلة منحنيةً صوب كيهات .

عجَّل كيهات ناهضاً عن الكرسي الصغير متقدماً خطوةً واحدة صوب راحيل بانحناء . اشتعلت لفافتُه .

تهيأ كيهات ـ بعد استنشاقه دخانَ اللفافة على مرأى من بصَريْ لينا وأمها ـ لَمَا قد يتبلَّغ من رغبتهما في أشغالٍ يقضيها لهما . لكن راحيل فاجأته بسؤال آخر مُرْبك :

ـ لِمَ تشتري من اللحم تسعمائة غرام حين تشتري أنت اللحم مني ، ويشتري أبوك كيلوغراماً كاملاً؟

تبلبل كيهات . كاد يسعل من تردُّد الدخان في حلقه أن يخرج من

فمه ، أم ينزل إلى رئتيه . أدرك في برهة أنجدتُه بفطنتها ، أن تبريره السابق في الزعم بكفاية تسعمائة غرام للعائلة ، لا معنى له . أحنى رقبته صامتاً ، مبتسماً يهرب من نظرتها المتسائلة :

– متى ستفتحين الحانوت ، يا ست راحيل؟

«ألم أقُل سأفتحها ، ربما ، حين تنتهي الحرب؟» ، تساءلت راحيل بصوت كأنما تحدِّث نفسها . أردفت مستدركة : «قد لا أنتظر حتى تنتهي الحرب . لديَّ دجاج الآن ، وبيض ، ومربيَّات ، ولحوم مجففة ينبغي بيعها» .

«عندنا دجاج الآن ، يا ست راحيل» ، عقب كيهات .

«كل الناس ستربي دجاجاً إن استمرت الحرب» ، قالت راحيل .

«أنا اشتريتهن» ، عقَّب كيهات .

تأملت راحيل عيني كيهات العسليتين : «مبروك» ، قالت . أردفت بنبرٍ مكسور : «أستنتهي هذه الحرب؟» .

«طبعاً ستنتهي ، يا ست راحيل» ، ردَّ كيهات بنبرٍ عزاءٍ .

«قد ننتهي معها» ، تمتمت راحيل .

«مَن ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات .

«نحن» ، ردت راحيل . استدركت : «لا أعرف» . نهضت عن حافة السرير . أصغت : «أأسمع قرعاً على البوابة؟» .

تبادلت راحيل وابنتها نظرات مرتابة .

«سأستطلع» ، قالت لينا ، فاعترضت أمها :

– بل أنا .

«أستطيع أن أستطلع ، يا ست راحيل» ، عَرَض كيهات خدمتَه غير المحسوبة خدمةً .

«ماذا إن كان الطارق من مخابرات الدولة؟» ، سألته راحيل متوجِّسة .

«أزاركم رجال من مخابرات الدولة؟» ، تمتم كيهات بنبرٍ متهيِّب .

تطلعت الأم إلى ابنتها . لم تردَّ . أدارت وجهها صوبَ باب الغرفة وهي ترد عنها ذبابةً :

– أسمعتما القرعَ؟

«لم أسمع شيئاً ، يا أمي» ، ردت لينا .

«بل أسمع الآن قرعاً على البوابة» ، قال كيهات . «سأستطلع ، يا ست راحيل» .

أطفأ كيهات جمر لفافته في مِنْفضة الرماد التوتيا ، المتخدِّشة الأحفة . دسَّ بقيتها في جيبه على عجلٍ . همَّ بمغادرة الغرفة .

استوقفته راحيل :

– ماذا لو كان من أمن الدولة ، وسألك مَن أنت؟

تقلَّصت أجزاء من عضلة قلب كيهات . ردَّ مستسلماً إن جاءَ القَدَرُ برجل من استخبارات الدولة ، أو شُرطيِّها إلى بوابة منزل راحيل :

– سأقول أنا كيهات ، يا ست راحيل .

أدارت راحيل وجهها إلى ابنتها متسائلة :

– أيشبه يهودياً؟

«مَن؟» ، سألتها لينا ، فردت راحيل :

– كيهات .

رفعت الفتاة كتفيها متردِّدةً ، لا تَحِيْرُ جواباً ، ثم استدركت أنها سمعت قرْعاً هذه المرة :

– عندنا زائر ، يا أمي .

هرع كيهات ، باندفاع المراهق المستعرض جسارتَه ، خارجاً من الغرفة . توجَّه إلى البوابة العريضة الألواح الخشب . فتحها بتأنٍّ وحذر .

كان رجل كهل واقفاً ، ببعض الإنحناء في جذعه ، أمام البوابة ،

معتمراً شالاً أصفرَ مخطَّطاً بياضاً على رأسه ، في ثوب رمادي طويل حتى قدميه ، مخطَّط بياضاً . تمتم وقد فوجئ :

– من أنت؟

«أنا كيهات» ، ردَّ الشاب المراهق ، متفاجئاً بدوره .

«أراحيل هنا؟» ، سأله الرجل الكهل ، ذو اللحية الرمادية القصيرة .

«نعم . تفضَّلْ» ، قال كيهات متنحياً عن مدخل البوابة .

دخل الرجل الكهل ، ملقياً من جانب كتفه اليسرى نظراتٍ إلى كيهات .

خرجت راحيل من الغرفة مذ رأت الزائر . لم تبادره بتحيةٍ ، بل لفتته إلى الشاب الصغير :

– هذا واحد من جيراننا ، يا عزيزنا بنيامين .

أسئلة متصادمة ، يتعثر بعضُها ببعض ، بدت في عيني بنيامين ، فتداركت راحيل الأمر :

– هذا كيهات . إنه يعيننا أيام السبوت في بعض الأشغال .

استرخى خدَّا الكهل المرفوعين ، المتهيب من وجودِ غريب في منزل راحيل .

«ألم يُصادف أن التقيتما في شارع من شوارع هذا الحيِّ؟» ، سألتهما راحيل تبدِّد عن الكهل ، في الأرجح ، ريبتَه .

تنحنح بنيامين مبتسماً :

– ربما . لكن أيامنا هذه أشبه بطاحونة .

«طاحونة؟» ، تساءلت راحيل وهي تماشي زائرها إلى الغرفة الوسيعة .

«نعم ، يا راحيل» ، رد الرجل الكهل . وضع راحة يده اليسرى على صدره : «طاحونة في القلب» ، نقل يده إلى رأسه : «طاحونة في الرأس» . رفع يده إلى الأعالي ناظراً إلى السماء : «طاحونة هناك» .

دخل الثلاثة الغرفة حيث لينا واقفة ، متأهبة للقاء الزائر . رحَّبت :

- سيد بنيامين .

«أنت تطولين كل يوم شبراً ، يا لينا» ، قال الكهل بمبالغةٍ مجاملاً الفتاة على طولها الملحوظ .

«يلزمنا معماريٌّ ليعيد بناء سقف المنزل» ، عقبت راحيل .

دعت راحيل زائرها إلى الجلوس على الأريكة ، فجلس بنيامين . لكنْ لم يَعْقِب تلك اللحظة شيءٌ يلفت إلى سبب مجيء بنيامين ، حيث التَزَمت راحيل صمتاً كزائرها تتقاطع فيه النظرات من أحدهما إلى الآخر ، وكذلك النظرات إلى كيهات ، كأنما يحْذَران تبادلَ ما ينبغي للسان أن يصرِّح به .

«هاتي ماءً بارداً ، يا لينا» . كانت تلك الجملةُ الصغيرة وحدها ما اقتطعت راحيل من صمتهما فاصلاً أُعيد التحامه بصمغ من الصمت .

جاءت لينا بإبريق من الزجاج غطى جدرانه غمامٌ فور خروجه من البراد . ملأت أقداحاً تطوِّقها خطوطٌ لونٌ بالماء لهم جميعاً .

شرب كيهات ماءً بارداً لم يشرب مثله منذ مطلع الحرب ، مذ كان الأب يأتيهم ، في عودته من العمل ، أحياناً ، بشبر من اللوح الجليد اقتُطع بالمنشار ، ورُبط بخيط من القنب للحمل لا يُعفي اليد من ألم انغرازه في الأصابع .

كان الموقف في الغرفة واضحَ القصد من صمته أن راحيل ، وزائرها ، يَنْحُوان إلى خلوةٍ . كلمات الأم القليلة إلى ابنتها أظهرتِ الأمرَ أكثر :

- خذي كيهات ، يا لينا ، ليوقد الشمعدانات في الغرفة الأخرى .

«لم يَحِنِ الغروب بعدُ ، يا ست راحيل» ، قال كيهات تذكيراً بالوقت لا معنى له .

«لا بأس أن توقدها منذ الآن» ، عقبت راحيل .

«هل من شغل آخر أؤديه ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات ، فردت بصوت فيه إعفاءٌ من إطالة بقائه :

- حظك جيد هذا السبت . كل شيء مدبَّرٌ ، منظَّم .

لم يؤدِّ كيهات أيَّ عمل سوى إيقاد بعض الشموع ، وإملاء سطلين بالماء من دلو البئر . كان ذلك يكفيه انتشاءً ، وإمتاعاً : لينا معه . هو معها وحدهما . أمضى دقائق متنقلاً من الغرفة الأخرى ـ التي كانت مسكن لينا وأختها قبل موت الأب ، وهرب الأخت مع حبيبها الأشوري ـ إلى الساحة ، فالحانوت لا لحمَ فيه ، بل كثرت على أجنابه أقفاص الدجاج . حدثها عن دجاجاته الثلاث اشتراهن بثمن دجاجتين ؛ عن رجال المخابرات ودورياتهم في مركبات أو راجليْنَ ، وعن الشرطة ودورياتهم راجلين ؛ عن الحيِّ يبدو مهجوراً ، أو يكاد ، من ملازمة الناس منازلهم . سألها :

- أخرجتِ من البيت منذ بدأت الحرب؟

«لا» ، ردت لينا الحافية القدمين على الأرض الإسمنت في باحة البيت . مشت صوب البئر . أدْلتِ الدلوَ الخشبية ، الشبيهة ببرميل صغير ، في قاع البئر . اجتلبتْ ماءً سكبت منه ، على مهل ، فوق قدمي كيهات في خُفَّيه الشريطين المطاط الأزرقين من أعلى ، والأخمصين الإسفنج الأبيض المضغوط .

«خالفتِ القواعد» ، تمتم كيهات بابتسامة واسعة . «كان ينبغي عليَّ عملُ هذا» . هَأْهَأَ مطرِقاً في حياء . أردف : «كان ينبغي أن أغسل قدميكِ» .

أنزل كيهات الدلو إلى البئر . سحبها ممتلئة يترجرج الماء على فوَّهتها الدائرية مندلقاً . سكب الماء على مهل فوق قدمي لينا :

- الأرض الإسمنت ساخنة .

«ما الذي ليس ساخناً؟» ، تمتمت لينا وهي تطأ الماء بقدميها تمريغاً فيه .

استرسل كيهات في إدلاق الماء من حول لينا يبرِّدُ الأرضَ الإسمنت .

«كيف هي الدنيا خارج البيوت ، هذه الأيام؟» ، سألته لينا .

«الأشياء تتناقص ، يا لينا . حصص الأفران من الطحين لا تكفي مستهلكي الخبز . السكَّر معدوم ، ومَن عنده سكر في دكانه يبيعه أغلى . سوق اللحوم فارغة إلاَّ من بعض الخضار المتعفن . سوق الفاكهة كذلك . لا سينما» ، قال كيهات بنبرٍ متراخ . أردف هامساً يَحْذَرُ أن يُسْمَع : «لم أعرف أن في مدينة قامشلو هذا العدد من رجال استخبارات الدولة» . تمالَكَ حذَرَه في الباحة المكشوفة بعدُ لشمس ما بعد العصر ، وقد اختمر الهواءُ سخونةً قبل موعد ركوده في المغيب . سألها :

– إلى ماذا تستمعين في المذياع ، يا لينا؟

«الأخبار» ، ردت لينا .

«ما المحطة المفضلة تسمعينها؟ السورية ، أم المصرية؟» ، سألها .

«الإذاعة البريطانية» ، ردت لينا بصوتها الهادئ الخفيض .

«بأية لغة تسمعينها؟» ، سألها كيهات ، فردت الفتاة المائلةِ إلى طولٍ :

– بالعربية .

«أيتحدثون في بريطانيا بالعربية؟» ، تساءل كيهات .

«كل العالم يعرف اللغة العربية إلاَّ العرب والأكراد» ، ردت مبتسمة . حدقت إلى عيني كيهات : «الأكراد لا يفهمون العربية ، لكنهم يحفظونها عن ظهر قلب» .

ضحك كيهات :

– أمي تحفظ آيات من القرآن وهي لا تعرف القراءة .

«مثلي» ، تمتمت لينا .

تقلَّصت ضحكة كيهات إلى ابتسامة مبتورة :

- مثلكِ؟

رفعت لَينا قدَماً عن الأرض الإسمنت الساخنة مستندة على الأخرى ، ثم خفضت المرتفعة ورفعت التي تطأ الأرض ، في تعاقبٍ كما يفعل الدجاج . تمتمت في تلميح إلى أنه معذور إن غادرَ مختصراً بقاءه :

- لستَ مضطراً إلى البقاء ، يا كيهات . كل شيء مدبَّرٌ في بيتنا هذا اليوم . أنجزنا البارحة ما قد نحتاجه .

غادر كيهات منزل راحيل مبكراً ، مذ تفهَّم أن لا عملَ يستبقيه . رسمَ قلبُه نظرةَ لينا في وداعه عند البوابة بقلم من حسرة الرغبة .

كم كانت نظرة لينا ، في وداعه ، أشبه بنظرة سمير اسحق إذ غادره كيهات وأخوه صوب سينما حداد : انكسارٌ مَّا ؛ اختباءٌ مَّا ؛ ترقُّبٌ مَّا ؛ توجُّسٌ مَّا ؛ أو ربما تقديرٌ بالبصر لثبات علاقة الآخرين به أو اضطرابها .

كيهات لم يرجع إلى منزل راحيل في السبت التالي على سبت نهاية الحرب ، التي أدرجَها العرب على مرتبةٍ خفيضة من ذلٍّ المعنى ، فأسموها «نكسة» تَقدِرُ ممحاةُ طفل أن تمحوها محواً لا يخلِّف أثراً على ورقة التاريخ الخشنة . ارتأى ببصر الفطرة فيه ، بلا تأويلٍ من عقلِ مراهقٍ أو تفسير ، أن يترك فسحة قصيرة بين آخر زيارة لمنزل راحيل وزيارةٍ لاحقةٍ . ربما السبت القادم ، الذي تفصله بضعة أيام قلائل عن ساعة مسيره بأخيه إلى سينما حداد .

يقع مشْغَل صغير لخِراطة المعادن وحدَادتها ، وإصلاح هزائم القِدَم في مفاصل السيارات ، وأحشائها المحرِّكة دفْعاً بها لتسير ، إلى الجانب الشمالي من مبنى دار السينما ، ملاصقاً جداراً إلى جدار . آرام أرْمِيْن ، الأرمني ، هو سيد المَشغل بمعاونٍ واحد . في الجانب الجنوب الغرب من مبنى

السينما مشغل آخر يديره زهْراب الأرمني أيضاً . مشغلان لن تتفاداهما سيارة إن تعطلت . تولِّي الأرمنيَّيْنَ مهنةَ تصليح السيارات ، ورأب صدوع العقول في الآلات المعادن ، وتنبيه المحرِّكات إلى الأدب الذي ينبغي أن يلتزمه كل محرِّك ببطاريته الثقيلة ، حَكْرٌ لهم في مدينة قامشلو . ربما خُلقوا هُم والمعادن معاً في كهفِ إلهِ حدَّاد . للمعادن الحديد ، والنحاس ، والفولاذ ذاكرتُهم ، ولهم ذاكرتُها . عيونهم لا تخطئ مواضعَ النبض في الآلات ارتفاعاً من عِلَّة فيها ، ومواضعَ النبض انخفاضاً من وعْكة فيها .

الأرمن ، في قامشلو ، رعاةُ المعادن في حقول عافية المعادن واعتلالها .

«ليتَ أبي يشتري سيارة ذات يوم بدلاً من دراجته الهوائية» ، قال كيهات لأخيه الصغير موسى ، وهما يعبران المشغل الواسع ، ذا الباب الصفيح يُرفع لفاً أسطوانياً إلى أعلى .

«يشتري أبي سيارة ، ويعطيني الدراجة» ، عقَّب موسى .

«لك الدراجة» ، قال كيهات . مدَّ عنقه من جانب كتف أخيه يختلس نظرة إلى صاحب المشغل جالساً على كرسي بقوائم حديدٍ قصار جداً ، يُعاين آلة مكعبة كثيرة الثقوب .

قبل انعطاف كيهات وأخيه إلى المدخل الواسع لجهة دار السينما ، توقفا عند بائع الفستق السوداني ، ذي العمامة البيضاء ، والثوب الأبيض طويلاً حتى عقبَيْ قدميه في الخُفين الجلديين ، محاط الخصر بحزام عريض جداً ، شبيه بأحزمة الجنود فيها جيوب للطلقات . لكن جيوب حزامه كانت لحفظ النقود ، تنغلق كبْساً باليد على أزرارٍ معدن تنغرز أقسامها العليا في محابسها الأسافل .

هو الأوحد الأسود رآه كيهات وأخوه في مدينتهم . لهجته لهجةٌ من العربية تنزلق فيها الكلمة على الكلمة اللاحقة بها كانزلاق على الزيت . كل كلمة مخفَّفةُ النطق بحروف نحيلة ، رفيعة في مجرى الصوت على

لسان الرجل النحيف ، ذي اللحية السوداء القصيرة تخفي عمرَه ، وتخفي تجوُّرَ خدَّيه .

يظهر السوداني في كل صيف متنقلاً ، أمام أبواب دور السينما ، بصاج صغير أسود ، مقعَّر ، فوق موقد كيروسين يضعه على حاملٍ خشبٍ ذي قوائم عالياتٍ يمكن طيُّها في الانتقال . فستق محمَّص ، ساخن ، يوضع القليلُ القليلُ منه في الأقماع الورقية ، مقابل نقود يعتبرها كيهات أكثر بكثير مما تستحق الحبَّات المعدودة عداً حسابياً ، بحركة البائع الرشيقة من مغرفته الصغيرة جداً يُسقطها في الأقماع على وقع صوته العالي تفخيماً لفستقه المجلوب من أرض منابع الأنهار السرية ، وشطآن بحار المغامرين في قصص الخوف .

كيف ظهر السوداني بفستقه في الأيام القليلة التالية لنهاية الحرب؟ السود قادرون على الإختفاء والظهور ، مُذ هُمْ لونٌ يتساهل الوقتُ في انتقالهم بين الظهور والاختفاء بحسب ما يشاؤون . غير أنَّ للوقت التساهُلَ ذاته مع البِيْض أيضاً ، لا بسبب العدلِ فيه توزيعاً للتساهُل ، بل من حيرة الوقت أن يصنِّف نفْسَه أهو أسودُ ، أم أبيض ، مُقصياً أيَّ احتمالٍ للرماديٍّ إن عَدَّ نفْسَه لوناً ، أو تَصَنَّفَ .

ذلك قدَرُ الوقت كالفستق في صاج السوداني ، الرخيم الصوت نداءً منغَّماً للإعلان عن مذاق فستقه ، وجلال فستقه محمَّصاً ، ساخناً ، مَن يتذوَّقْه يتذوَّق عيِّنةً من مباهج الجنة أبقاها اللهُ على الأرض سراً من أسرار التَّرف المبارك ، ليفاجئ المحظوظينَ بما لم يدوِّنه مؤرِّخو أسواق النعيم أَكشاكاً ، ودكاكينَ ، وحوانيتَ ، ومتاجرَ ، في الجنة .

للفستق في صاج السودانيٍّ إسمُ «فستق السودان» . ثمرةُ نبات وصل ، من «العالم الجديد» في المحيط المجهول ، على سفن الهولنديين إلى الغرب الأفريقي أولاً ؛ إلى غرب القارة التي لم تنجُ ، بتمام خطوط الطول

والعرض فيها ، من إرغام الأعراق القوية على تصنيفها أرضاً لـ «العبيد» . الشعوبُ الغزاة ، الأكثر صولاتٍ بأساطيلهم في إخضاع البحار ، قيَّدوا القارَّةَ القديمة إلى نَسَب «العِرْق العَبد» ـ كلُّ أفريقيٍّ عبدٌ . وقد سلَّم العربُ بالنَّسب فأدرجوا ثمرةَ النبتة القادمة من «العالم الجديد» على لوح التصنيف باسم «فستق العبيد» .

«بفرنكين ، من فضلك» ، قال موسى لبائع الفستق ، محدِّداً طلبه بما يمكن فرنكين أن يستحصِلا من الحَبِّ البُنِّي ، الأسطوانيِّ ، المستطيل كخصية ديكٍ لم يزل في طورٍ بين الفَرْخ والاكتمال .

ألقى بائعُ الفستق إلى عمق الورقِ صيَّره قِمْعاً رفيعاً ، دقيق القاعدة واسع الفوهة ، من قصاصات الجرائد ، وقصاصات الورق المضاعَف تغليفاً في أكياس طحين الإسمنت ، بضعَ حبَّات . نظر إلى الأخوين بتمعُّن . ابتسم يبشِّرهما بحظوة تخصُّهما : «هاتان حبَّتان زيادة» ، قال . أسقط في القِمع الورقي حبَّتين عدداً من فستقه ، الذي تُسميه العربُ» فستقَ العبيد» .

تقدَّم الأَخوان إلى عمق واجهة دار سينما حداد . توقف كيهات محدِّقاً إلى صور الفيلم المعروضة على الجدار لَصْقاً . تمتم :

– ليس هذا .

«ليس ماذا؟» ، سأل موسى أخاه .

«فلْنرَ ماذا في دَاريِّ السينما الأُخريين» ، رد كيهات .

«لماذا؟» ، سأله موسى .

«شاهدنا هذا الفيلم قبل سنتين ، يا حمار» ، رد كيهات .

«أعرفُ ، يا حمار» ، عقب موسى .

«ماذا إذاً؟ فلْنمضِ» ، قال كيهات مستديراً ليغادر مدخل دار السينما .

«سأشاهد هذا الفيلمٍ مرة ثانية» ، قال موسى في إصرار .

همهم كيهات مستاء :

- خذْ نصف ليرة ، واحْضرْه وحدك .

«وحدي؟» ، تساءل موسى في امتعاض .

«وحدك» ، أكد كيهات . أردف : «سأجد لي فيلماً آخر» .

«أتعني حقاً أن أحضر هذا الفيلم وحدي؟» ، سأل موسى أخاه بنبرٍ فيه تَشَكٌّ .

«اعني ذلك إن أصررتَ» ، رد كيهات متبرِّماً . «ما الذي لم تشبع منه في هذا الفيلم؟» .

«آخره» ، رد موسى .

«احْضرْه وحدك» ، عقَّب كيهات ، مستعرضاً ببصره داخليْنَ إلى الدار يدفعون نقوداً إلى الشخص الواقف وراء حاجز الباب ، فيُجيز مرورَهم إلى صالة العرض من غير شراء تذاكر .

«لن أسألك أن تترجم لي حرفاً من الفيلم ، يا كيهات» ، قال موسى في تشجيع خافت لأخيه على مرافقته لمشاهدة الفيلم معاً .

«ترجمتُ لك كل شيء حين حضرْنا العرض أول مرة» ، عقب كيهات .

«أتذكَّر» ، قال موسى . «حفظتُ قصة الفيلم» .

«ما الذي يجذبك إليه إذا كنتَ تعرف القصة كلها ، وتتذكَّر ما ترجمتُ؟» ، سأله كيهات ، فرد موسى :

- إإذا فهمتَ الفيلمَ لم تحضره مرة أخرى؟ لماذا تحضر الفيلم الهندي ذاته ثلاث مرات إذاً؟

«اسمعْ ، يا موسى» ، قال كيهات بنبرٍ فيه تخفُّفٌ من رفضه حضورَ الفيلم . «لن أترجم حرفاً إن سألتَني» .

«لن أسألك» ، أكد موسى . «أحب نهاية الفيلم» .

نهاية فيلم «سالامبو» غير أمينة لرواية غوستاف فلوبير . لكن قطعاً ، لو كان موسى فرنسياً قرأ الرواية أربعين مرة بحوادث التاريخ فيها ، لما ارتضى أن تكون نهايتها إلاَّ على النحو الذي رآه : نهايةً معذِّبة ، لكنها منتصرة ، نهايةُ فيلم «سالامبو» الفرنسي الإنتاج ، اقتباساً بالعنوان ذاته من رواية لفلوبير الشهير في لغة ملَّته تنظيماً للواقعية المدرَّبة كقرد طرْزان على التدخين ، وكوقوف الفيل على رأسه في سيرك من أفلام هوليوود .

فيلم عن مرتزقة مأجورين لتدمير روما يُخدعون ، فيثورون ضد ملك قرطاج هاميلكار . حرائق . معارك . حبٌّ مدوِّخ بين أمير المرتزقة وسالامبو ابنة الملك . حصار . مذابح .

موسى انشدَّ بعينَيْ قلبه ، وببصر كيانه ، إلى المشهد الأخير من الفيلم : حبيب سالامبو ، المحارب المرتزق ، يعبر صفَّين من الناس تجمهروا لرجمه بكل ما تحصَّلوه من حجارة ، ولضربه بما في أيديهم من سياط وأحزمة ، وعِصيٍّ .

يسقط المحارب العنيد ، الجَسور ، من شدة الضرب مراراً على الأرض ، ثم ينهض مدمًّى بعزيمة العاشق فيه أن يصل إلى نهاية الحشد المحيط به صفَّين للقاء سالامبو الواقفة إلى جوار أبيها الملك . لكنه ، في آخر سقطة له أرضاً ، قبل بلوغ نهاية الامتحان الضاري إثباتاً لقدرته على الإحتمال ، بفاصل قليل قبل اجتيازه صفَّي الناس المستغرقين استمتاعاً في تعذيبه ، تهرع الفتاة الحسناء إلى لقائه تُنْجدُه ، وسط الدهشة المستبدَّة بالمعذِّبين حبيبَها رجماً ، وركلاً ، وصفعاً ، وجَلْداً . تعانقه . تلثم فمه في الوجه المدمَّى .

انتصار العاشق المحارب ، العنيد ، وانتصار سالامبو بحبِّها على كل من حولها ، بطريقة لم يدوِّنها فلوبير ، هو ما أثار موسى ، وأضرم فيه العناد على رؤية الفيلم الملون مرة ثانية .

حضر كيهات الفيلمَ كأخيه للمرة الثانية . لم يتتبَّع قلبُه سيرةَ البطولة ، ومهاراتها ، في شخص أمير المتمردين ، حبيبِ سالامبو ، بل تتبَّعَ سيرةَ حُسْن سالامبو في الألوان العميقة الإطراء لبشرتها الساحرة ، وقَوامها . سنتان مروراً على العرض الأول أطلقتا كيهات من فتنة الإعجاب بالمحارب المرتزق إلى فضاء الحضور الفاتن لشخص سالامبو . كان في الرابعة عشرة ، حين مشاهدة العرض الأول ، يتلبَّس كيانُه كيانَ آمر المرتزقة القويِّ . وها هو في السادسة عشرة يذوِّب سالامبو ، قطرةً قطرةً من لون كل شيء فيها في قالب آخر هو كيان لينا وشخصها : سالامبو ـ لينا . قرطاج ـ قامشلو . الحصار ـ الحي اليهودي .

لربما انهار مؤلف الرواية الفرنسي فلوبير من إعادة مراهق كردي ترتيب الأقدار للأمكنة في روايته ، وتصحيف شخوصها ، وتبديل الكلمات الفرنسية من ترجمتها العربية على الشاشة إلى اللغة الكردية ، التي لم يسمع فلوبير من يتكلم بها في ربوع دولته العريقة غراماً بالكلاب .

خرج كيهات وموسى من دار السينما كلٌّ على خفْق يخصه من ترتيب العالم سحرياً . تبادلا النظرات بلا تعليق . سَلَكا الطَّريق صوب بيتهما في مطلع الليل الهادئ متراخياً .

تعمَّد كيهات الانعطاف من بعض تقاطعات الشوارع إلى تقاطعات أُخَر . تنبه موسى إلى ذلك :

– لماذا تتخذ طريقاً ملتوية إلى البيت؟

«سنمرُّ على دكان إيليا شَابَا» ، رد كيهات .

«إيليا شابا؟» ، تساءل موسى . «السرياني؟» .

«نعم» ، رد كيهات .

غمغم موسى كالعارف بخطة أخيه :

– ستشتري تبغاً .

«لا» ، ردَّ كيهات .

«ستشتري دجاجة إذاً» ، عقَّب موسى ساخراً .

«سينالكو» ، تمتم كيهات .

«سينالكو؟!» ، ردَّد موسى اسمَ الشراب الغازيِّ بنبرٍ استفهامٍ .

«سنشرب زجاجة سينالكو ، يا حمار» ، أكَّد كيهات .

«من أين لك النقود؟» ، سأله أخوه .

نظر إليه كيهات باستعلاء . ردَّ :

– مِن ضبَّاط الجنِّ .

تأمله أخوه يريد الاستخبار ، حقاً ، عن مصدر نقوده الزائدة عن ليرة الأب منحهما لدخول السينما .

«لا تنظر إليَّ هكذا ، يا موسى» ، عقَّب كيهات على نظرة أخيه .

«كيف هي نظرتي إليك؟» ، تساءل موسى .

«أتُشكِّك أن لي علاقة بضباطٍ من الجن؟» ، قال كيهات . أكَّد : «ضبَّاط من رُتَب عالية» .

«كذاب» ، عقب موسى .

«أستصدقني حين تشرب أول جرعة من سينالكو؟» ، قال كيهات . أردفَ : «لن تضع فمَ الزجاجة على فمك إذ تشرب» .

«ماذا؟» ، تساءل موسى بنبرٍ فيه سخرية من كذبة أخيه . «أسأضع فمَ الزجاجة في أذني؟» .

«ستشرب مصاً بقصبة ، يا حمار» ، عقب كيهات .

«هذا رائع ، يا رفيق» ، قال موسى الكلمة الأخيرة بالعربية . ضحك : «أضباط الجن ، الذين تسرق نقودهم ، رفاقٌ في حزب البعث؟» .

«لا أسرق نقودهم ، يا حمار . هم يأتونني بنقود تخصُّني» ، صحَّح كيهات التهمةَ المزاح في كلمات أخيه .

«من أية خزْنة يأتونك بنقودك؟» ، سأله موسى .

«أوقفْ هراءَك» ، رد كيهات بصوت يختصر المحاورة الرثّة .

«أوقفْ أنت هراءك ، وهراء ضباط الجن ، وهراء خزْنة نقودك ، وهراء سينالكو» ، عقب موسى باستفاضة في مجابهة كلمات أخيه بكلمات مثلها .

«لن تشرب أكثر من جرعة واحدة ، صغيرة ، يا موسى» ، قال كيهات مهدِّداً .

«جرعة واحدة من سينالكو؟» ، تساءل موسى مستخفاً . «أُفضِّل عليها جرعة من عصير الصابون» .

«عصير الصابون؟» ، تمتم كيهات مستظرفاً . «لا جرعةَ من سينالكو إذاً ، يا ربيب الماعز» .

تفحَّص موسى وجه أخيه في بكورة الليل الضَّحْلِ السواد لا يحجب الملامح بعدُ . تساءل :

- ربيب الماعز؟

«صديقك طرْزان هو ربيب القرود . أنت ربيب الماعز» ، ردَّ كيهات .

«ماذا تعني؟» ، تساءل موسى .

«الماعز يأكل صابون الغار» ، رد كيهات .

«يأكل الصابون؟» ، تساءل موسى مستغرباً .

«نعم . الماعز يحب أكلَ الصابون» ، أجابه كيهات .

«كيف تعرف هذا؟» ، سأله موسى ، فردَّ كيهات :

- أنا قاموس ، ياحمار .

«أنت قاموس الحمير» ، عقَّب موسى مجابهاً نَبْزَ أخيه له .

عَبَر الأخوان شوارع عدة قبل بلوغهما مطلع حيٍّ السريان ، شمال الحي اليهودي . كان دكان إيليا شَابا مضاءً من الداخل ومن الخارج ، حيث جلس العجور إلى صفيحة من صفائح البنزين الواسعة ، مقلوبة على

وجهها المنزوع الغطاء يستخدمها كطاولة ، وهو يلاعب عجوزاً آخر بالشطرنج يجلس قبالته على كرسي من القصب قصير القوائم .

نظر كيهات جانبياً إلى أخيه . سأله :

- أستعترف لي أن ضباطاً من الجن يأتونني بالنقود؟

«أنت مثل النبي الذي جاءته الجن بملكة سبأ» ، عقب موسى .

«أتعرف هذه الحكاية؟» ، سأله كيهات ، فرد موسى :

- أعرف أيضاً أنَّ على ساقَيْ ملكة سبأ شَعر مثل الذي على وجهك .

لكز كيهات بكتفه كتف أخيه من غير عنف :

- شعر ساقيها كشعر عانتك .

«قريباً تصير لي عانة مثلك» ، عقب موسى . «شعر عانتي يطول» .

«تلزمك ثلاث سنين ، يا حمار ، لتصير مثلي» ، قال كيهات .

«سأسبقك في كل شيء بعد ثلاث سنين» ، عقب موسى .

«ستسبقني في ماذا ، يا بهلول؟» ، سأل كيهات أخاه ، فردَّ موسى :

- في ترجمة الأفلام الأجنبية لك .

«الأفضل أن تحلم بظهور شعر شاربيك» ، قال كيهات . استطرد : «اعترفْ قبل أن نصل إلى الدكان» .

«أعترفُ بماذا؟» ، تساءل موسى .

«بسيطرتي على ضباط من الجن ذوي مراتب عالية» ، رد كيهات .

«ماذا إن لم أعترف ، يا رئيس الجمهورية؟» ، سأله موسى .

«لن تتذوق شراب سينالكو» ، رد كيهات .

توقف موسى عن المشي . أدار وجهه على الجهات الأربع تباعاً وهو يتمتم :

- أنت رئيس جنٍّ تركيا ، والصين ، وأمريكا ، والهند ، وألمانيا ، والسودان ، وأستراليا .

أوقف كيهات أخاه عن استطراده :

- نظرتَ ، يا موسى ، إلى أربع جهات ، وها أنت تعدِّد مائة دولة .

«هناك ألف دولة في كل جهة ، يا أمير ضباط الجن . ألا يُسعدك أنني أراك سيداً على جن العالم كله؟» ، عقَّب موسى . ابتسم مضيفاً : «نسيتُ دولةً» .

«ما هي؟» ، سأله كيهات ، فردَّ موسى :

- أنت سيد ضباط الجن في دولة الكَرْخانة .

اهتاج كيهات مستقبحاً أن يذكر أخوه الصغير اسمَ «المبغى» . أمسك به من غرَّة شعره بلا جذب ، أو إيلام . صرخ به :

- يوماً بعد يوم تصير شيطاناً .

«بل أصير قائد ضباط الشياطين» ، قال موسى ، من غير أن تتراجع الابتسامة عن شفتيه الممتلئتين .

«لا تتبعني إلى دكان إيليا» ، تمتم كيهات غاضباً .

«لن أتبعك» ، قال موسى . أبْعدَ يدَ أخيه عن غرَّته صفعاً بيده اليسرى عليها . تابع سيره مغادراً .

«هِهْ . موسى ماذا تفعل؟» ، سأله كيهات ، فرد أخوه :

- أنا ذاهب إلى الكَرْخانة .

«اللعنة عليك . تعالْ» ، صاح به كيهات .

«اللعنة على سينالكو» ، عقَّب موسى غير ملتفت إلى أخيه .

هرع كيهات إلى أخيه الصغير بإشفاقٍ عليه ، مذ يعرف أن أخاه عنيدٌ ؛ مذْ تعوَّد عليه عنيداً . ناداه :

- توقفْ .

«لا أريد سينالكو» ، قال موسى متوقفاً ، بلا التفات إلى أخيه .

«مَن عَرَض عليك سينالكو ، يا حمار؟» ، سأله كيهات .

«لماذا تستوقفني إذاً؟» ، قال موسى .

«لأبرهن لك أنك حمار» ، رد كيهات .

«أعـرفُ ذلـك ، يا ذكيُّ» ، عـقـب مـوسـى . أردف : «نحـن من عـائلة حمير» .

«يا الله» ، استنجد كيهات بالذات القدسية في إيمان الخَلْقِ بنشأتهم من طين ، لا من عصير الكرز . خفَّف نبرَ صوته في النداء : «تعال ، يا موسى» ، استطرد : «لن أعطيك أكثر من مصَّةٍ واحدة بالقصبة من زجاجة سينالكو» .

«مَصَّتان» ، قال موسى مساوِماً . أضاف باستدراكٍ : «لا . لن أشرب من الزجاجة بالقصبةِ الورق ، بل بفمي من فمها» .

«اتبعني» ، قال كيهات لا يريد الإفصاح عن تنازله أمام أخيه الصغير .

جاورَ الأخوان باب دكان إيليا ، الذي استدار بكامل جسده إليهما على الكرسي القصب ، غير قادر على إلواءِ جذعه من يباس في عموده الفِقري .

دسَّ كيهات يده في جيب ثوبه الطويل يستخرج فُرَاطَةً من النقود الفرنكات :

- زجاجة سينالكو من فضلك ، يا سيد إيليا .

استدار إيليا بكامل جسده المتيبِّس الصُّلْب صوب العجوز الآخر ، الذي يلاعبه الشطرنج :

- أسمعتَ ما سمعتُه ، يا ميشيل؟

«ماذا قلتَ ، يا إيليا؟» ، سأله شريكه في اللعب .

أدار إيليا جسده بتمامه حركةً على الكرسي إلى الأخوين . ابتسم :

- سَمعُ ميشيل أضعف من سمعي .

ابتسم الأخوان مجاملةً . كرر كيهات طلبه :

- زجاجة سينالكو .

«أي نوع من سينالكو تريد؟» ، سأله إيليا .

«سينالكو» ، لَفَظَ كيهات اسمَ الشراب الغازيِّ متمهلاً في حروفه . سكت يستعرض على فهمه معنى سؤال إيليا عن نوع سينالكو . استدرك : «أهناك نوع آخر جديد ، يا سيد إيليا؟» .

«نعم» ، ردَّ إيليا مع هأْهأَة خافتة . أردفَ : «عندنا سينالكو سوري» .

ألوى كيهات وجهه صوبَ أخيه مبتسماً . غمزه . أدار إصبعه السبابة اليمنى إلى جوار صدغه إشارةً إلى حدوث خلل مَّا في عقل الرجل العجوز .

نهض إيليا عن كرسيِّه في حذر ، خشية سقوط أعضاء من أعضائه بانفلاتها من مواضع المفاصل . مشى بطيئاً . دلفَ إلى الدكان .

سمع كيهات وموسى طقَّةَ نزْعِ غطاء زجاجة الشراب بالمفتاح . طقَّةٌ قويةٌ نمَّت عن شهقة الغاز في الشرابِ بعد احتقان .

رجع إيليا من عمق دكانه حاملاً زجاجة برتقالية الشرابِ واضحاً لوناً في ضياء المصباح الكهربائي . قدَّمها إلى كيهات . تمتم :

- فرنْكان .

تسلَّم كيهات الزجاجة المستطيلة من يد إيليا . رفعها أمام بصره متحيراً :

- هذه ليست زجاجة سينالكو ، يا سيد إيليا .

«هذه سينالكو صناعة وطنية ، أيها الشاب» ، رد إيليا . أبقى يده ممدوده ليتسلم من كيهات ثمن الزجاجة .

هأهأَ موسى عارفاً أن أخاه خُدِع .

«فرنكان؟» ، تمتم كيهات متبلبلاً .

«نعم» ، رد إيليا .

«ثمن سينالكو خمسة فرنكات . هذه ليست سينالكو» ، قال كيهات بالنبر ذاته من صوته المتحيِّر .

«الصناعة الوطنية أرخص بثلاثة فرنكات ، أيها الشاب . اشْكرِ الدولة» ، عقَّب إيليا محرِّكاً أصابعه في استعجال لِقبضِ ثمن الزجاجة .

وضع كيهات فرنكين في راحة يد إيليا ، الذي عاد جالساً على كرسيه القصب أمام الطاولةِ ـ صفيحةِ البنزين المقلوبة .

أدار كيهات زجاجة الشرابِ البرتقالي متأملاً جوانبها : لا علامةَ ملصقة عليها ، ولا إسمَ إعلاناً عن جنس الشراب الغامض في قناعه البرتقالي . انحنى على إيليا ، مقرِّباً فمه من أذن الرجل العجوز :

- أعْطِنا قصبةَ مصٍّ ، يا سيد إيليا .

«ماذا؟» ، سأله إيليا المستغرق في خطط الحسابات السريَّة لنقل الدمى الخشب على رقعةِ الشطرنج العتيقة ، المتقشِّرةِ اللون في مربعاتها ، المتآكلة الإطار .

«قصبهُ مصٍّ» ، أوضح كيهات .

«قصبُ الورق المشمَّع كان لسينالكو أقربائنا الألمان . سينالكو بلادنا يُرتشف من فم الزجاجة» ، عقَّب إيليا ، من غير أن يرفع وجهه إلى كيهات . هَأْهَأَ .

ضحك موسى ضحكة صاخبة .

انتفض إيليا مبغوتاً . هتف :

- ماذا حصل؟

«لا شيء ، يا سيد إيليا» ، رد كيهات . «أخي يضحك» .

«يضحك؟» ، تساءل إيليا مرفوع الوجه ، في جلوسه ، إلى كيهات . أدار بصره إلى موسى : «لماذا تضحك ، يا حلو؟» .

«أضحك، يا سيد إيليا، لأن زجاجة سينالكو الوطنية تضحك في يد أخي»، ردَّ موسى.

«ماذا قلت؟»، سأله إيليا وقد فات أذنيه أن تسمعا الحروف متجانسةً.

«قلتُ عاش الوطن»، صاح موسى في صخب.

«ما به الوطن؟»، تساءل إيليا محدقاً إلى شريكه العجوز في اللعب.

«انتصر الوطن على اليهود، يا إيليا»، تمتم شريك إيليا في لعبة الشطرنج.

تذوق كيهات جرعة صغيرة جداً من الشراب الغامض في قناعه البرتقالي. دفع زجاجة الشراب إلى أخيه:

– إكرَعْ قدْرَ ما تشاء.

تسلَّم موسى الزجاجة المجهولة الهوية إسماً، أو علامةً، من أخيه. هزَّ كتفيه ورأسه طَرَباً من غناءٍ لا يسمعه سواه.

انحنى كيهات، من جديد، على إيليا. سأله:

– أين سينالكو الألمان؟

«انتهى الاحتلال الألماني لسوريا. خرجت سينالكو هاربةً»، رد إيليا.

طاش خيال كيهات من رد إيليا الساخر. هتف به في نبرٍ عالٍ:

– أحارب الألمان ضدَّنا مع الإسرائيليين؟

«لم يحارب الألمان. طعمُ سينالكو حاربَ طعمَ مشروبات الصناعة الوطنية»، رد إيليا.

ضحك موسى من جديد، وهو يرفع فم الزجاجة البرتقالية الشراب عن فمه بعد كَرْع:

– طارت سينالكو مع كوكاكولا.

لا سينالكو. لا كوكاكولا. لا أفلام مصنوعة في البلاد الناطقة

بالإنكليزية . لا أفلام ناطقة باللغة الإنكليزية . لا بضائع من دول ساندت إسرائيل في حرب الأيام الستة ، أو أُشيع أنها ساندت إسرائيل ، أو خُمِّن أنها ساندت إسرائيل ، أو شُبِّه للعرب أنها ساندت إسرائيل ، أو ارتأى العرب أنها دول لا تحب العربيَّ .

ممثلو سينما . شركات . بواخر . طائرات . طيور لها أسماء ملتبسة . حقائق يُظنُّ أنها تخصُّ التاريخَ الثقةَ . حقائق تخصُّ التاريخَ ملفَّقاً . أسماء . كتب . صحف . مؤلفون . ألفاظ من اللغة قد تكون الغلبةُ لليهوديِّ فيها ترويجاً للغة ، والتقصيرُ للعربي فيها ترويجاً للغة . ذِكْر إسرائيل إلاَّ باسم فلسطين . ذِكْر أورشليم إلاَّ باسم القدس . طُرُزُ أزياء يُنسب الدَّرْز فيها إلى غير العرب . رسمُ النجوم سداسيةً حتى لو اعترفَ الزمنُ الأقدم بها قبل اتخاذ النجوم رموزاً لأعرافٍ ومعتقدات : كل هذا أُدْرِجَ على القائمة السوداء ، الجليلة من براعة ابتكار النظام العربي للوائح السود بما يخص العالم ، إلى جوار أخواتها من لوائح السواد المتضمنة أفكار البشر في أقاليم دولهم العربية .

بات العرب على كفاية من فكر البعث شفهياً ، أو مكتوباً بأسطر تصدم أفيالُها الأعراقَ تسفيهاً ، أو ثقافات الأعراق بين ظُهرانيهم . فكرٌ كفاية لإقامة المثال الإلهي الرغبة في نشوء الدول متجانسة الحظوظ فوزاً بحقيقة التاريخ ، وفوزاً بصناعة الضياء في تاريخ البشرية المعتم .

بات يكفي العرب ، إضافة إلى فكر البعث مكتوباً أو شفهياً ، ما ليس فكراً أيضاً . أيْ : سلوك الحاكم تصرُّفاً بما يبنيه على كلماتٍ رغائبَ ، وتمنِّياتٍ ، ومكابراتٍ ، وتظاهرٍ ، وتحالفٍ مع القوى بتغليب النكاية ، ومبالغاتٍ ، ومخاطباتٍ في الجموعِ الرعاع استثارةً . أيْ : نمط الفكر مرتجَلاً بالخطاباتٍ يُصار إلى تشريعها نهجاً يخص فرادة الحاكم ، الذي كان اسمه جمال عبد الناصر ، إمامَ «الناصرية» مقتبسةً جُزازاتٍ من سلوك مَرَدة

الإشتراكيات ضد الغرب . وقد بلغت به مبالغةُ التهديد بالاكتفاء الذاتي إلى مرتبة المعجزة : «سنزرع القمح على سطوح المنازل» ، غير آبهٍ إلى أنْ لا بزورَ لديه لزرع القمح ، ولا مياه لديه كفايةً لريِّ القمح ، ولا مضخّات لرفع المياه إلى سطوح المنازل ، ولا وقودَ لديه كفايةً لإشغال المضخات ، ولا عوازل لديه تمنع دَلَفَ الماء من السطوح إلى دواخل البيوت . لكنْ تُحْفَظ لهذا الرجل معجزةٌ لم يسبقه إليها بلد عربي آنذاك : لقد زرع الشوارع برجال المخابرات كالفطر ، حتى كاد يفوق عددهم عددَ بقية البشر المحكومين في سوريا ، في عهد الوحدة بينها وبين مصر .

فكران اكتفى بهما العرب تحصيناً في مقاطعتهم للغرب ، سواءٌ أتحقَّقوا من دعم الغرب لإسرائيل ، أم كان الاتهام على شبهةٍ ، أو نميمة ، أو على مزاج الحاكم في تدبيج الأحكام عادلةً «على الرِّيق» صباحاً ، قبل أن يشرب قهوته .

كحجارة الطيور الأبابيل ـ في التصريف الديني لهزيمة صاحب الأفيال الحبشي جاء لهدم الكعبة ، ابتغاء تحويل طرق التجارة إلى الجنوب الأفريقي ـ أُلقيت من السماء ، تعويضاً عن أفلام الغرب ، أفلامٌ هندية في دور السينما ، على قدْر النجوم ، والكواكب ، والرجوم ، استعذبها المعذَّبو القلوب من العشاق المخذولين ، والعشاق اليائسين ، واستعذب لوعتَها المحزونون لم يعرفوا من الوجود سوى الحزن لائقاً بهم كديْن ، بعدما أوصدت الجهاتُ عليهم كلَّ مدخلٍ إلاَّ إلى الحرمان ، والكبتَ اللذَين لا يوصفان .

معذبون قلوباً ، وعقولاً ـ من حرمان مجاورة الذَّكر للأنثى ، ومن استعباد الآباء للأبناء تنشئةً بالرَّكل الدينيِّ ، وبالأعرافِ التقاليد اللَّكمات ؛ ومن فهم الدولة في رعاية الرعايا أنهم ملزَمون بالإهانة وبالخوف إخلاصاً لها ـ أحَبُّوا حجارةَ الهند في مناقير «الطير الأبابيل» ، تتساقط

جمراً في أعماقهم ، على وقْع الأغنيات ، أو وقْع اللوعة من صَرْم العلائق بين المحبِّيْن عن سوء طالع ، أو سوء فهم ، أو تفاوت في مراتب المجتمع ، أو وشايات ، أو انتقامات شخُوصِ الأفلام بعضهم من بعض غيرةً .

بكاءٌ ملأ صالاتِ السينما في الشمال السوري . بكَاءٌ رحيم لإفراغِ الحقد على الوجود المُهان في قارورة الرحمة ، واللِّيْنِ بعد البكاء . بكاء تفجُّعاً على فقر الوجود ، يتأجج من تلاحق المعضلات المعذِّبة في الفيلم الهندي .

بَشَرُ البكاء . أرضُ البكاء . سماء البكاء . لا يجادل الكثيرون ، إلاَّ مارقٌ أو مجدِّفٌ هرطوقي ، في قائمة ما ظهر من الخَلْق أوَّلاً ، مذ أوصدت المعتقدات كُلَّ تكهُّن أو تقدير ، فألزمتِ الإنسان عِلْماً أنه خُلق أولاً ربما ؛ بل الكلمةُ الصوت والصمت ربما ؛ بل عروش الآلهةَ أولاً ربما ، بل الملائكة الخدَّام أولاً ربما ؛ بل العماء أوَّلاً ربما . لكنَّ الجزْمَ الحازم أنَّ الطين خُلق أولاً ينبغي أن يؤخذ على مَحْمل التسليم ، مُذ خُلق الإنسان من طين .

أمَّا بشرُ الشمال اللصيق بدُور السينما تحديداً ، فهُمُ على يقين ، تسليماً ، بخلْقِ البكاء أوَّلاً ، لأنْ لا معتَقَد ينجو ، في مبتدإٍ حروفه من إبلاغ التابعين بحظْرٍ ، أو منع ، أو ردع ، أو إرغام ، أو إلزام ببناء الأسوارِ - بلا أبواب - أسْراً للرغباتِ ، عاليات لا يقفُز من فوقها إلاَّ الشيطان والملعونون .

الأفلام الهندية أكدت معتَقَد البكاء سحراً من أُسسِ الوجودِ اللوازم . كل شيء فيها يُبكي : الخيبات ؛ الأخاديع ؛ الإخفاقات ؛ المفاجآت الآسية ؛ الأقدار الصارمة تلفيقاً بحسابٍ معلوم : أن يَعْقِب كلَّ مشهدٍ من الفرح فيها مشهدُ انكسار محزن ، أو أن يعقب كلَّ مشهد من الحبور ، في موقفٍ ، مشهدٌ جارحٌ يهدُّ الحبورَ هداً ، وأن يَعقب كلَّ موقفٍ مُبهج سقوطُ نيزك من الفجيعة على المشهد .

أفلام مدرَّبة كالقرود على تعاقُبات المُضْحك منتعلاً حذاءَ المُبكي ،

وعلى انقلاب الأسارير في الوجوه من انبساط وانشراح إلى تجهُّم، وارتباك، وذعر من مفاجآت في الأحداث تتحصَّل بلا تمهيد، كي لا يُفسِد التمهيدُ صدمةَ العبور بالقلب إلى الأسى فالبكاء.

موسيقى تصويرية تصدم السمع والبصر معاً، على وقع كل مفاجأة مؤسية. زلزالٌ صوتيٌّ في كل فيلم. لكنَّ الزلزال الآخر، الواجبَ الحضور، هو الأغنية. في كل فيلم أغنيات. لا يكون الفيلم الهندي فيلماً بلا أغنيات موزعة على تعاقُبات الحوادث، توزيعاً ليس فيه أيُّ رابط للمشهد بمعنىً يستدعي الأغنية. لا تحتاج الأغنية إلى موقف ترتبط فيه مع معنىً. يُحْضِر منتجو الفيلم الهندي الأغنيات قبل كتابة السيناريو. الأغنية جزء من ألوان الفيلم أملوَّناً كان أم أبيضَ وأسود.

كل ممثل هندي يغنِّي. كل ممثلة تغني. تحريك للأفواه على أصوات مغنِّيْنَ مسجَّلة. وقد تناهت الخدعةُ الكاريوكي متأخرةً إلى بعض الأسماع من مرتادِيْ المعروضات الهندية، فلم يأبهوا: الغناءُ غناءٌ حتى لو كان من حنجرة شجرة، أو من حنجرة عمود الكهرباء.

كل فيلم هندي يحوي مرحاً، وانشراحا، في المطلع، قبل قَلْبِ المشهد أسفلَ أعلى، قذْفاً بالمشاهدين إلى اللوعة، ثم العودة بهم إلى خاتمة ينشرحون لها بعد اختناقٍ بالحزن في الحناجر، واختناقٍ من العيون بنزفها حزْنَها مالحاً.

ليس الفيلم الهندي هو آخر ما قذفته «الطيور الأبابيل» إلى أرض قامشلو من أفلام الأمم. مَرْكباتُ آلهة روما القديمةُ، ذوات العجال الذهبية الألف بخيولها الآلاف، أنزلت أحمالَها أفلاماً في دُور السينما. أبطال خارقون، من تلفيق المؤلفين للسينما على سذاجة في الربط والضبط، دخلوا القلوب: «ماشِستي» اسمُ بطل من صناعة الأقدار قوةً وعضلاً لا يُقهران، وإن قُهِرَ «ماشِستي» في موقفٍ بخدعة، فلِيستعيد زمامَ الصِّدام القاهر بجبروته.

«أورسوس» ـ قاهر الثور بيديه العاريتين في حلبة من حلبات إطعام المسيحيين للأسود والنمور، في العهد المبكر لبزوغ المسيحية ـ ذُكر خُلسةً في موضع مَّا من تاريخ الإيمان، لكنه استولى، فيٍ الفيلم الإيطالي من مصانع روماً، على تاريخ طويل لم يخصَّص له أصلاً، إنما اتسعت له عيون المشاهدين، وخصَّتْه بما لم تخصَّ به حَوَاريٍّ المسيح أنفسهم.

أكان حواريّو المسيح على عضل مفتول، منتفخ صرامةً من أداء الجسد لزومَ تدريبه لينتفخ؟ أمرٌ مشكوك فيه. «أورسوس» ـ الشخصية التي تعاقب على تمثيل أدواره ركيكون في الأداء، اجتُذِبوا من أندية بناء الأجساد ـ خرج من سياقه المسيحيِّ إطلاقاً: رجل مغامرات ذو عضل، يفعل كلَّ شيء إلاَّ إنقاذ المسيحيين.

فيلم «هِرْكوليس»، الذي ذاع صيته، واكتسحَ الأخيلةَ إدهاشاً في خمسينات القرن العشرين، استولد ما لا يُحصى من الأفلام تقليداً لسحره الذي لا يُقلَّد، مذ كان الفيلم الأصل، الأول في نوعه من إبرام عضلات «سيد الكون» ستيف ريفز عقدَها مع الدَّور. كان فيلماً من ابتكارات مصانع السينما في روما. دوَّخ أخيلةَ الشبان اليافعين في مقتبل أعمارهم الأمينة ـ منذ الإنسان الأول إيماناً بالعضل في صراعه ـ لمعتَقَد القوة. سلسلة إستعارت ابن الآلهة هركوليس ومغامراته من الأساطير، متلاحقةٌ باستئجار حاملي لقب «سيد الكون» للدَّور الفاتن أمريكيين تحديداً؛ بإغضاءٍ كُلِّيٍّ عن اقتدار أيٍّ منهم أن يكون ممثلاً، إلا القليل القليل من الأداء: العضل، في سلسلة أفلام هركوليس، هو الممثل، وهو الدَّور، وهو النص المكتوبُ السيناريو، وهو الحكاية، وهو مُحصِّل المال في شبابيك التذاكر.

كان هِركوليس عنيفاً، جباراً، منذ لِحاقِ أبطال كمال الأجسام بالرائد الأمريكي الأول ستيف ريفز. لكن عنفه لم يكن كليَّ السيطرة على

مَشاهد الأفلام، بل يستوجبه موقفٌ هنا، وموقف هناك، من رحلة الجبار الأسطورة في أسطورته. وكان المشاهدون راضيْنَ بهذا العنف المتقطع في فواصل من تعاقُبات مَشاهد الغرام، وخطط الدَّسائس.

بَيْدَ أنَّ عقل صناعة العنف، في استديوهات روما، انعطفَ إلى رَصْف متلاحق ـ بلا انقطاعات كالتي كانت في أفلام هِركوليس ـ لَمشاهد العنفِ يتوالد مشهدٌ لاحقٌ من مشهد سابق، حلقةً متداخلة في حلقة. ابتكرت استديوهات روما العنفَ المنفلت بلا ضابط يستوجبه موقفٌ، واعتمدت ـ في هذا الانعطاف بالعنفِ صافياً، خالصاً، لا يعكِّرهُ توقُّفٌ، أو استراحة ـ أساطيرَ المصارعين.

دوَّخت جدرانَ دُور السينما، في مدينة قامشلو، صرخاتُ المصارعين اقتتالاً، مُقتَبَسيْنَ من قصص حلبات روما في تاريخ التسالي نزْفاً بالدم على سطور الترفيه عن الجنون. سلسلةٌ تلاحقت، بعد النصر الأول لفيلم «المصارعين العشرة»، بخليط من ممثلين طليانٍ وأمريكيين. تتابعَ العنفُ باسترسال لا يلتقط أنفاسَه: حروب الحلبات مجالَدةً بالسيوف، والرماح ذوات الشُّعَب، والخناجر، والخوذات، والتروس، تنتقل في هذه الأفلام إلى الحانات، فشوارع الأسواق، بسبب وبلا سبب. لا يهم السبب. ينبغي أن يَحْضُر مشهدٌ عنيف يستعرض فيه المصارع براعَته، وعدلَ القوة في احتكار الفوز. فإن لم يجد المصارعون غُرَماءَ يبارزونهم، في الطُّرق أو الحانات، تبارزوا صديقاً إلى صديقٍ في مشهد يتوسَّلُ الفكاهةَ ظريفةً.

كان على مكتشفي الحركة بلا استراحة، في استديوهات روما، أن يرفدوا الحركة بسماد مهيِّج، أو بنفط يسيل له لُعابُ المحرِّكات، منذ الدقائق الأُوَلِ لإشغالِ آلات الفيلم حتى نهايته.

على نحوٍ مَّا، من ابتكار لن يُوصف إلاَّ أنه إشراقٌ من عقول آلهة الأساطير في روما على عقل روما، نَحَا صانعو الأفلام إلى تقليد

الأمريكيين في صناعة تخُص تاريخهم من حياة رعاة البقر، وسِيَر الإستيطان الباهظ الثمن في الغرب الأمريكي. خرج مُخرجهم سِرجيو ليوني بفيلم «من أجل حفنة دولارات» إلى مَلَكَة التبسيط الحاكم عقولَ العامة فأعماها إثارةً. موسيقى مدهشة من الصفير، وصهيل الخيل، والصنوج، وأصوات الجَوْق المغنِّيْنَ، استنزلها القديرُ في إدارة آلات الموسيقى إينيو موريكوني من سماء مباهج السمع إلى أرض الغرب الأمريكي، المُقْتَطعة من سهول أرض إيطاليا. أداءٌ في الفيلم ليس كأداء الممثلين الأمريكان لأدوار رعاة البقر، ومستوطني البراري، في حقبة التحصين الأول لقيام المجتمعات الوافدة إلى أرض العالم الجديد، الْتِهاماً لمراعي سكانها الأصليين، وأنماط حيواتهم، و«تصحيحاً» لمعتقداتهم المتوحشة بسيف من نار دِيْنِ العالم القديم.

أداء الممثلين في هذا الفيلم الْتَهمَ بدوره ـ عبر براعة المبالغة في الشرِّ، وفي سيطرة البطل على قَدَره بارداً، باقتباسٍ غير معلن عن فيلم قديم لسيد صناعة «الفن السابع» الياباني أكيراكوروساوا ـ المنطقَ في المواقف خلْقاً لَمشاهد ملفَّقة من الإثارة، مبنية على حافَّتين: حافة المزاج العصبي الجامح، وحافة الهدوء الصارم قبل انفجار كل شيءٍ طلقات في كل الأنحاء، من مسدسات وبنادق لا تخطئ، قبل مجيء الخاتمة مبارزة ثلاثية ـ كلٌّ ضد الآخر.

كان الفيلم هذا ـ التقليد لصناعة الأمريكي عن غَربهِ الوحشي، أو ما يشبه ذلك، على تضخيم من المبالغة ـ رائدَ فاتحة شيطانية لسلسلة من المبالغات الأشد، والتضخيم الملفَّق، في أفلام ساذجة القصص؛ ساذجة البناء للمواقف؛ ساذجة التمثيل والإخراج، تحمل جميعاً على أكتاف مَشاهدها صُرراً من موسيقى تصويرية تقليداً باهتاً لموسيقى موريكوني.

ما من فارق كان بين سلسلة أفلام المصارعين في حلبات الترفيه

الرمليـة ، وبين سلسلة تقليـد أفـلام الغـرب الأمـريكـي ، ورعـاة الأبقـار ، مغمَّسةً في صَلْصة المعكرونة الإيطالية . استُبدلتِ السيوفُ بالمسدسات ، والرماح بالبنادق ، والمَقَارعُ الشوكية الكُرات برشاشَات تُدار بَكَراتُ طلقاتها باليد . واستُبدِل قذفُ المصارعين الرملَ بعضهم في وجوه البعض ، لشلٍّ بصره ، بالديناميت وشرائطه المشتعلة باروداً .

ظلَّ القتلُ هو ذاته على رفاهية السرعة متلاحقةً تجرف الأرواح . كَثُر نزفُ الدم بمحاليل حُمْرٍ تمطر فوق المشاهد ، على صراخ المشاهدين في كشفهم حيلةَ الدم : «عاش رُبُّ البندورة» . لكنَّ كشْفَ المُشاهد حيلةَ المحلول الأحمر على أجساد القتلى ، ووجوه الصرعى أخياراً وأشراراً ، لم يُلْهِ قلبَه ذرَّةً عن اندفاع خياله إلى تبجيل الدم ، تماماً كما لم يُلْهِ قلبَه ذرَّةً ، من قبل ، اكتشافُه أن ممثليه المعبودين ، في الأفلام الهندية ، يَتظاهرون أنهم يغنون بحركاتٍ من أفواههم ، فيما الأصوات هي ـ حقاً ـ لغيرهم .

لقد اجتمع لأهل الشمال ، في المدينة السورية ، جاذبان سحريَّان يستنزفون بهما حقدَ قلوبهمٍ على الخيبة من كل شيء : فيلم هندي يستنزف منهم مكبوتَهم بكاءً من اللوعة في مَشاهده ، وفيلم إيطالي يستنزف منهم مكبوتَهم بالعنف في مَشاهده .

نقياً ، خالص الكيان من شوائب الحقد على الخيبة ، مجتازاً مَطْهَر خياله المعتكر ، يخرج المُشاهد من الفيلم الهندي المعذِّب أولاً ، فالمنقذ من العذاب بوِصال العاشقين أخيراً . ويخرُجُ من الفيلم الإيطالي ـ المصارعيْنَ ، ورعاةِ البقر بالقبعات المعكرونة ـ بما أنجز له أبطال الفيلم من عنفٍ تعويضاً عن عنفٍ لن ينجزه هو إلاَّ مُتخيَّلاً في حلم يقظته .

الفكاهة ، في الشمال ، ترفيه عن الروح .

العنف ، في الشمالن ترفيه عن الروح .

اللوعة والحزن ، في الشمال ، ترفيهان عن الروح .

الدولة ، في الشمال ، هي الترفيه الأعلى ، والأمثل ، والأشمل ، مذ تحوي في نظامها العناصرَ الآنفةَ كلَّها .

الشمال محظوظ .

كيهات أحبَّ نوعيِّ الأفلام ، مع ميلٍ فيه إلى الفيلم الهندي .

موسى أحبَّ المصارعين ، ورعاة البقر ، متخرِّجيْنَ تمثيلاً من معاهد المعكرونة في روما .

حين حلَّ يوم السبت ، من الأسبوع ذاته الذي اكتشف فيه كيهات اختفاء شراب سينالكو من دكان السرياني إيليا شابا ، اتجه الشاب المراهق ، قبل الظهر ، إلى منزل راحيل بزوبعة صغيرة في عقله من عُروض الخدمات .

شمس ما قبل الظهر تُخلي الشوارع في الصيف عادة ، من إنذار سخونتها للأجساد كي تحتمي بالظلال . كلُّ جسد سيطهو قيلولتَه في الظهر حساءً لا يتفادى حَسْوَه إلاَّ مضطرٌ للبقاء في أشغالٍ ، بعيداً عن بيته : القيلولةُ عقدٌ .

لم يَحْدث قبلاً أن زار كيهات منزل راحيل قبل الظهيرات صيفاً . يزور منزلها بعد العصر صيفاً ، وقبل العصر بقليل في الفصول الأُخَر أيام الأعياد إن وافقت يومَ السبت ، أو أيام الدراسة إذ ينتهي دوامُ ساعاتها بعد الظهر .

أتنام لينا وأمها القيلولة؟

أستلحظان على كيهات قدومَه مبكراً ، فتلمِّحان إليه أن يرجع إليهما عصراً ، أو بعد العصر؟

أَمْ ستُبقيانه فينصرف إلى أشغالٍ صغار في باحة البيت ، وتَخْلَدان هما إلى نوم القيلولة؟

القيلولة لا تُتفادى : أصحاب الحوانيت ، والدكاكين ، في المدينة معظمِها ، يتمددون في أركانٍ من حوانيتهم ، ودكاكينهم ، على أكياس

القمح الفارغة ، الواسعة ، ينشرونها أرضاً ، وعلى بُسُط ، مُبقيْنَ أبوابها مواربةً ، نصف مغلقة ، فكيف بالناس في بيوتها؟

ماذا عن الغداء قبل القيلولة المقدسة في أصياف شعوب الشموس القوية ، مذ لا تظلُّ الشمس الواحدة في سماءٍ هي نفسَها في سماء أرض أخرى؟

أستُشرك راحيل وابنتُها الشابَّ المراهق في غدائهما إن أبقيتاه؟ ماذا تتغديان؟ بطيخاً ، عنباً ، مع جبنة ، أم طعاماً أعدَّتاه مطهوّاً منذ البارحة؟

تمهَّل كيهات في عبوره المنعطَفين القصيرين إلى منزل راحيل . رجال المخابرات لم ينقطعوا عن رصْد الطُّرق في الحي اليهودي ، ومِن حوله ، جوَّالين بمركباتهم المتوهجة المعادن سخونةً ، وعلى دراجاتهم الهوائية ، أنصاف مقنَّعيْنَ بالنظارات المعتمة الزجاج ، معتمرين قبعات قشٍّ ، أو شالات رُقطاً على الرؤوس ، مطوَّقات بعُقُلٍ سودٍ ، تخفق حواشيُّها وراء ظهورهم كأجنحة .

قرع كيهات بوابة منزل راحيل أربع مرات تعوَّدَها عداً ، ليسمع مَن في الغرفتين البعيدتين عن البوابة .

سمع كيهات خَفْقَ أخمصَيْ خُفَّين على أخمصَيْ قدمين مشياً في الساحة الإسمنت . فُتحَت البوابة . ظهر وجهُ لينا بشعرها العقيص وراء رقبتها . سَرَت دغدغةُ أناملَ السماء الزرق في الدم إلى قلب كيهات من شرايينه كلها . ابتسمَ صامتاً مفتوحَ الفم .

«كيهات» ، قالت لينا بنبرٍ ذكَّره باسمه .

«مرحباً لينا» ، تمتم كيهات ببصرٍ لم يتجرأ على إبقائه راصداً وجهها . أدار عينيه على جهتي البوابة يساراً ، ويميناً ، بحثاً عن جسارته المنكمشة انفعالاً

«هذه أول مرة تحضُر مبكراً» ، قالت لينا .

أحس كيهات بخجل من قراره الحضورَ باكراً، على الرغم من توقُّعه سؤالاً كذاك. تمتم:

- أستطيع الرجوع في وقت آخر.

صمتت لينا. نظرت خلفها إلى باحة البيت تلتمس استحضارَ جوابٍ من فراغ الإسمنت الأخرس. سألته على نحوٍ مفتوح الخيار، كأنما لم يطاوعها عقلها باقتراح محدَّد:

- أتريد الدخول، أمْ ترجع فيما بعد؟

«مَن هناك، يا لينا؟»، تدحرج صوتُ راحيل على أرض الباحة عالياً.

ردت لينا بصوت عالٍ أيضاً، بوجه أدارته إلى كتفها اليسرى:

- إنه كيهات، يا أمي.

ظهرت راحيل حافية من غرفتها جنوبَ شرق باحة المنزل، محلولةَ الثوب الرمادي المخطط الحاشية بياضاً وخُضرة، بلا وشاح على خصرها. نادت:

- أهذا أنت، يا كيهات؟

«أخبرتُكِ، يا أمي، أنه كيهات»، قالت لينا مستغربة سؤالَ أمها ذا النَّبر المتشكك في ردِّ ابنتها بلا داع. جذبت كُمَّ الذراع اليمنى في ثوب كيهات جذباً رقيقاً، فمدَّ كيهاتً رأسه مطيعاً جَذْبَها كي تراه أمها. أكَّدت:

- إنه الجار الكردي، صار له شاربان.

هْأَهأ كيهات من ملاحظتها المتأخرة. ألم تلحظ بروزَ شعر شاربيه قبلاً؟

«تعال»، صاحت راحيل. تأملته قادماً في خُفَّيه الإسفنجيين، وثوبه البِيْج ـ القميص الطويل حتى عقبي قدميه.

لَفتت بصرَ كيهات لفافةُ التبغ بين إصبعَيْ راحيل السبابة والوسطى

في يدها اليسرى المتراخية الذراع . ابتسم محدقاً إلى اللفافة .

تنبهت راحيل إلى فضول نظرته المقذوفة تحديداً إلى لفافتها . ابتسمت :

- أيدخن أبوك؟

فوجئ كيهات بسؤالها . ردَّ :

- نعم ، يا ست راحيل .

«أيدخن يوم الجمعة؟» ، سألته ، فردَّ كيهات ببعض استغراب في نبر صوته :

- ما المانع أن يدخن يوم الجمعة ، يا ست راحيل؟

«أيدخن المسلمون يوم الجمعة؟» ، رتَّبت راحيل سؤالَها بإضافة معنى إلى معنىً فيه استدراج ، مُذ تعرف ، قطْعاً ، أن المسلم يدخن من باب بيته إلى قيامه من القبر يوم الحساب بلفافة تبغ في فمه .

«إنه أفضل يوم للتدخين ، يا ست راحيل» ، ردَّ كيهات .

«السبت أفضل يوم ، أيضاً ، لتدخين اليهودي» ، عقبت راحيل .

تقدم منها كيهات أكثر :

- لم أركِ تدخنين قبلاً ، يا ست راحيل .

أدارت راحيل بصرها عن وجهه إلى وجه ابنتها الماشية مشياً بطيئاً من وراء كيهات :

- لينا تدخن أيضاً .

غمغمت الفتاة مستاءةً :

- لا تقولي ذلك ، يا أمي .

لم تُعِرْ راحيل استياءَ ابنتها التفاتاً . سألت كيهات :

- أتدخن؟

«لا ، يا ست راحيل» ، ردَّ كيهات بنبرٍ دفاعٍ عن شرف إنكاره .

«ادخلْ» ، قالت راحيل متنحية عن الباب ليدخل كيهات إلى الغرفة . ردَّت ردَّها المتأخر قليلاً على ملاحظته أنه لم يَرَها تدخن من قبل : «أنا مدخِّنة ، لكن لم أكن أدخن يوم السبت» .

«ألأنك كنتِ تتجنَّبين أن تصنعي بنفسك لفافات التبغ يوم السبت ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات ، بإشارة من عينيه إلى أن لفافتها صنعٌ يدوي .

«ألم يكن في مستطاعي صناعةَ لفافات يوم الجمعة ، يا كيهات؟» ، ردت راحيل .

أحسَّ كيهات خذلاناً من بداهته المرتبكة . اكتفى بالغمغمة تعقيباً .

«لا . لم يكن السبب أنني أتجنب صناعة لفافات التبغ يوم السبت» ، قالت راحيل . «كنتُ أدخن لفافات جاهزة من صناعة معامل البلد . الآن بدأت أصنع لفافات بنفسي» . استطردت : «من أين يأتي أبوك بتبغه؟» .

«يشتري عُلباً جاهزة ، يا ست راحيل» ، رد كيهات .

«لا يصنعها بنفسه إذاً» ، عقبت راحيل .

«لا يشتري أبي التبغ المهرَّب» ، قال كيهات . ابتسم : «من أين تشترين تبغك؟» ، سألها سؤال العارف أن التبغ الخام ، غير المصنوع لفافات ، مصدرُه التهريب من تركيا ، فردت راحيل وهي تروِّح عن وجهها بالمروحةِ اليدوية الصغيرة لم يلحظها كيهات في يدها اليمنى ، إذْ كانت المروحة مطويةَ الشرائح القصب الرِّقاق :

- أشتري تبغي من جهات البحر الأسود .

مدَّت راحيل نصف لفافة التبغ المصنوعة في البيت بأناملها إلى ابنتها :

- أَرِيْ كيهات ، يا لينا ، أن لفافة التبغ يوم السبت لا تشبه لفافات الأيام الأُخَر .

«أمي» ، تمتمت لينا ممتعضة . تجنَّبت تناولَ اللفافة من يد أمها .

أدارت راحيل يدها باللفافة إلى كيهات :

- خُذْ نشْقَةً .

«لا أدخن ، يا ست راحيل» ، كرَّر كيهات إنكاره .

«اجلسْ ، يا حلو» ، قالت راحيل ، مشيرة بيدها إلى الكرسي الصغير قرب الكوَّة التي استقر فيها المذياع .

التفت كيهات إلى الكرسي ، ثم عاد ببصره إليها :

- ربَّما عليَّ أن أبدأ ببعض الأشغال ، يا ست راحيل .

«ليس بعد» ، عقبت راحيل . أردفت : «اجلسْ» .

جلست راحيل على حافة أحد السريرين ، فيما ظلَّ كيهات واقفاً ، متهيأً للبدء بعمل مَّا .

حدقت راحيل ملياً إلى كيهات :

- سأفتح الحانوت يوم الأربعاء .

«الحانوت مفتوح منذ أيام ، يا ست راحيل» ، عقَّب كيهات غير فاهم ، مذ فتحت راحيل حانوتها ـ حقاً ـ قبل أيام ، تبيع دجاجاً ، وبَيضاً ، ولحْماً قديداً شرائحَ ، ومفروماً في لفائفَ قماش ، وبعض ما تبقى لديها من مربى السفرجل .

«نعم . سأفتحه هذه المرة للحم» ، أوضحت راحيل .

«اللحم؟» ، تمتم كيهات مستعذباً وقْعَ الكلمة على سمعه .

«الراباي قادم من حلب يوم الثلاثاء لذبح الضأن للجزارين اليهود» ، قالت راحيل .

«سنشتري لحماً يوم الأربعاء ، يا ست راحيل» ، قال كيهات في حماسةٍ بصوته المتدرج النبر إلى خشونة ، واقفاً بعد .

ابتسمت راحيل . أكَّدت :

- سأقتطع لك بالسكين، في ضربة واحدة، تسعمائة غرام. إن أخطأتُ تكُنِ الزيادة لك مجاناً.

أغضى كيهات حياءً من تذكيره بالتسعمائة غرام. تمتم:

- ماذا إن اقتطعتِ بالسكين، في جَرْمٍ واحد، أقل من تسعمائة غرام، يا ست راحيل؟

«سأضيف مائة غرام مجاناً إلى ما جَرَمْتُه»، ردت راحيل. أدارت بصرها إلى ابنتها الجالسة على حافة السرير الآخر، خالعة خُفَّيها تلهو بهما بقدميها دفعاً وجذباً: «ماذا سنتغدى، يا سُكَّرة البيت؟».

«بَيْضاً مقلياً»، ردت لينا محدقة إلى كيهات. أردفت: «تعرف، بالطبع، كيف تقلي البيض».

«أينعش البيض أبداننا في هذا الحرِّ، يا كيهات؟»، سألته راحيل.

قلَّب كيهات بصره بين وجهِ الأم ووجه ابنتها، في برهةِ حَفْرِ لسانه ترابَ أعماقه الساخنة بحثاً عن ردٍّ. تكلم هامساً:

- نحبُّ البطيخ والجبن على الغداء، في بيتنا.

«أنت لا توافق لينا، إذاً»، عقبت راحيل.

هز كيهات يديه كَمَن يَردُّ عن نَفْسه تهمةً:

- لا، لا، يا ست راحيل.

تطلعت راحيل إلى ابنتها:

- كيهات لا يوافقك.

شهق كيهات شهقة خفيفة:

- عنيتُ أنني أوافقها، يا ست راحيل. البَيض شهي في كل الأوقات.

«أتحب البيض مقلياً أم مسلوقاً؟»، سألته راحيل.

تنفس كيهات في عمق. استحضر الردَّ من مذاق الطعام على لسان خاطره:

- المقلي بزيتٍ، أو بشحم، طيبٌ، يا ست راحيل. لكنْ أفضِّل عليه المشويَّ.

«البيض المشويّ؟»، تساءلت لينا بفضول في صوتها الهادئ.

استدرك كيهات ما ينبغي توضيحه:

- تضع أمي في رماد تنُّورها الساخن، بعد إخراج الأرغفة، بَيضاً إن كان عندنا بَيض، يا لينا. أحبُّه وقد انفجر.

«أتحبُّ البيض وقد انفجر؟»، تساءلت لينا، فردَّ كيهات عفوَ الخاطر:

- نعم.

نظرت لينا إلى أمها، متوجهة ببصر كلماتها إلى كيهات:

- ماذا تأكل من البيضة بعد انفجارها تحت الرماد؟

«تنكسر البيضة فقط، ولا تتطاير. يخرج من شَقٍّ الكَسْر بعض صفارها وبياضها متماسكَيْنِ شيأً»، قال كيهات.

«ألا يتسخ ما يخرج من كسور البيضة بالرماد؟»، سألته لينا، فرد كيهات بنبرٍ مستطيب:

- مذاقُ البيض ببعض الرماد عليه لا يشبهه مذاقٌ آخر.

نظرت لينا إلى أمها مقطبةً حاجبيها استغراباً، ومبتسمة في الآن ذاته:

- أأكلتِ، قطُّ، يا أمي، بيضاً مشوياً في رماد التنُّور؟

«ليس بعد. سنأكله اليوم»، قالت راحيل.

«على الغداء؟»، تمتمت لينا مستخفة بفكرة أمها، فردت راحيل:

- سنأكله عشاءً، أما الغداء فسيكفينا فيه بعض المربى والزبدة.

أبقت لينا حاجبيها مقطَّبيْنِ تريد توضيحاً من أمها على اقتراحها البيضَ المشويَّ للعشاء:

- من أين البيض المشوي عشاءً، يا أمي؟

«لدينا وقت . جاء كيهات باكراً» ، ردت راحيل .

زادت الحيرة في عيني لينا ، فعاجلتها أمها بالاقتراح واضحاً :

– سيعجن لنا كيهات . سيوقد التنور . سيخبز .

«أسيفعل كيهات هذا؟» ، تمتمت لينا .

«نعم» ، ردت راحيل . «لدينا بيض نشويه في رماد التنور» .

استُثيرَ قلبُ كيهات مغتبطاً ومتهيِّباً في الآن ذاته . تعاقبت على بصر ذاكرته صورُ أمه في انكبابها على مِعْجنها القصْعة العميقة خلطاً للطحين بالماء ، وخوضاً باليدين في العراك المهذَّب ترويضاً للعجين على فكرة أن يُختَبَزَ فيؤكل .

«تعال ، يا كيهات» ، قالت راحيل .

مشى كيهات خلف راحيل إلى الغرفة الأخرى ، شمالَ شرق محيط سور المنزل . تتبَّعتهما لينا حافية كأمها . دخلوا الغرفة التي كانت مَسكَن لينا وأختها ذات يوم .

حَوَتِ الغرفةُ تلك ، ذات الطلاء الأكثر زرقة على الجدران من غرفة الأم وابنتها ، دكَّةً مرتفعة شبرين ربما على طول الجدار الشمالي ، عليها فُرُش ، ولحُف ، وملاءات منضدة طبقات بعضها فوق بعض ، مغطاة بقماش عريض ، طويل ، وقايةً من الغبار ، لم يُخْفِ الجانبَ الأيمن من ذلك الأثاث .

قُرب النافذة المطلة على الباحة طاولة عالية ، مستطيلة ، على جانبيها كرسيان . لكنَّ علوَّها يوضح أنها للاستعمال وقوفاً قبالتها . هي طاولة المطبَخ غير المُعْلن في الغرفة ، بل المعلن برفوف عليها ملح وتوابل في آنية من النحاس والزجاج ، وثمة أطواق من البصل والثوم ، وأضاميمُ أعشابٍ مجففة ، معلقة بخيطانِ قنَّبٍ إلى أوتاد مغروزة في الجدران .

«المِعجن هناك ، يا كيهات» ، قالت راحيل مشيرة بيدها إلى صاج من

النحاس مقعَّرٍ ذي عمق . «جِئْ به إلى الطاولة» .

«أأنت جادَّة ، يا أمي؟» ، اعترضت لينا على الموقف المستغْرَب .

«لِمَ لا ، يا ابنتي؟» ، ردت راحيل . أضافت : «السبتُ سبتٌ سوريٌّ» .

لم يفهم أيٌّ من الفتاة والفتى توريةَ راحيل ، التي استرسلت في الرَّشْق بإشاراتها من صوتها الرفيع :

- الطحين في الصندوق ذاك ، يا كيهات .

جلب كيهات المعجن النحاسَ الصاجَ المقعَّر . وضعه على الطاولة . مضى إلى الصندوق المكعب ، المطلي بدهان أحمرَ خمريٍّ مزيَّن بنجوم ذهبية ، موضوعاً أرضاً ، ذي غطاء عليه مِغلاق . رفع الغطاء . جذَبَ من عمقه كيساً أبيض مليئاً طحيناً . حمله في ثقل إلى الطاولة . تمتم متسائلاً :

- أتحصلين على طحين بسهولة ، ياست راحيل ، في هذه الأيام؟

ابتسمت راحيل :

- يصلني الطحين من مصر .

«مِن مصر؟» ، تساءل كيهات ببعض الدهشة في نبرِ تساؤله .

«هذا طحين يحمله قارب عبر البحر الأحمر إلى سوريا ، يا كيهات» ، أضافت راحيل .

تأمل كيهات كلماتها ممسكاً بفم كيس الطحين على الطاولة ، وهو يرسم خرائطَ الأرض بقلم معرفته الجغرافية . عقَّب :

- لا حدود لسوريا على البحر الأحمر ، يا ست راحيل .

«إذا رسمت خارطة سوريا بامتداد طويل إلى الجنوب ، أوْصَلتَ حدودَها إلى البحر الأحمر ، يا كيهات» ، قالت راحيل .

«حدود سوريا هي حدود سوريا ، يا ست راحيل» ، عقَّب كيهات . أردفَ : «أنستطيع تمغيطها جنوباً أبعدَ من حدودها؟» .

«أتخاف أن ترسم سوريا بحدود جنوبية تصلها بالبحر الأحمر؟» ، سألته راحيل وهي تشير بيدها عليه أن يفتح الكيس .

ابتسم كيهات ابتسامة غامضة ممّا تفهَّمه غامضاً من كلام راحيل . فكَّ وِكاءَ الكيس . وسَّع فمَ القماش الأبيض الخشن . حدق إلى عيني راحيلَ الكبيرتين غير مكحَّلتين :

- لستُ خائفاً من رسم خريطة سوريا ممتدة إلى المحيط الأطلسي ، يا ست راحيل .

«يمكنك ، إذاً ، تمغيط حدود سوريا إلى البحر الأحمر» ، عقبت راحيل .

«نعم» ، رد كيهات . أردف : «وإلى المحيط الهندي ايضاً» .

«حدود سوريا ، إذاً ، على البحر الأحمر جنوباً» ، قالت راحيل . «قارب صغير ، أصفرُ الدهان ، بشراع واحد ، ينقل إليَّ الطحين من مصر» .

ظلَّت الابتسامة الغامضة المعنى على فم كيهات المفتوح . أدار وجهه إلى لينا يتقرَّى في عينيها مزاعمَ أمها .

عاجلتْه راحيل :

- اغْتَرِف بيديك من الطحين ، وضعْهُ في المعجن .

«كم حفنة ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات .

«املأْ راحتيك لأعرف مقدارَ ما تحويانه» ، ردت راحيل .

ملأ كيهات راحتي يديه المجوَّرتين ، المتلاصقتين ، طحيناً . عرضهما على بصر راحيل قبل أن يُفرغ ما فيهما في المعجن النحاس .

«ستَّ مرات» ، قالت راحيل .

ست مرات ملأ كيهات راحتي يديه طحيناً أفرغه في المِعْجن .

التفتت راحيل إلى ابنتها الواقفة تتأملها ببصر فيه مللٌ واضح ، وبعضُ استغراب من الأمر كله :

- في البراد كيس صغير من القماش الأصفر مكوَّرٌ . جيئيني به .

تلفَّت كيهات من حوله إذ غادرت لينا الغرفة . بحث بعينيه عمَّا لا يمكن أن يسهو عنه . تمتم :

- الماء .

«خذْ ذاك السطل» ، قالت راحيل . انحنت قليلاً مشيرة بيدها إلى الفضاء تحت الطاولة .

أخذ كيهات السطل الأبيض مطلياً بالمِيْنا ، ذا مقبض تقشَّر عنه الطلاء في مواضعَ . مشى إلى البئر . أنزل الدلو الخشبية إلى القاع . سحبها ملأى ماءً وهو ينظر إلى لينا خارجةً بلفافة صغيرة من القماش الأصفر مكوَّرة في يدها اليسرى . ابتسم لها ، فهزت رأسها :

- اليوم امتحانك لنيل الشهادة الإعدادية .

تأملها كيهات ماضيةً إلى الغرفة الأخرى ـ غرفةِ امتحانه لنَيْل شهادةٍ من راحيل . سكب ماء الدلو في السطل ففاض . حمل السطل الأبيض يترجرج الماء على سطحه إلى حيث ينتظره الطحين .

وضع كيهات السطل على الطاولة ، قرب المعجن النحاسي . اندلق قليل من الماء على السطح الخشبي . أدار بصره على أنحاء الغرفة . وقع بصرُه على بُغيته :

- أأستخدم تلك الطاسة لسكْب الماء على الطحين ، يا ست راحيل؟

«نعم . إلاَّ إن كنتَ تفضل سكْبَ الماء في تلك المصفاة» ، ردت راحيل مومئة إلى مصفاةٍ شبكيةِ الأسلاك ، صدئة قليلاً ، معلقة إلى مسمار من أُذنها .

ابتسم كيهات للدعابة . نظر إلى الطحين في المعجن . غطَّس الطاسة في ماء السطل . رفعها . التفت إلى راحيل الواقفة إلى جواره متسائلاً :

- كم طاسةً من الماء يحتاج هذا الطحين؟

«أراقبتَ أمك ، يا كيهات ، وهي تصنع العجين؟» ، سألته راحيل .
«نعم . لكنْ ربما سهوتُ أحياناً عمَّا اتَّبعتْه من مراحل العَجْن» ، رد كيهات .
«ماذا فعلتْ أمك أولاً؟» ، سألته راحيل .
«أظنُّها سخَّنت الماءَ فاتراً ، يا ست راحيل ، قبل دلقه على الطحين» ، رد كيهات .
«جرِّبِ الماء بارداً» ، عقبت راحيل . ألقت بصرها إلى المعجن . سألته : «ماذا الآن؟» .
«كانت أمي كلما سكبت طاسة من الماء عجنت به الطحين برهة ، ثم تسكب طاسات أُخَرَ تباعاً مع فاصل بين سكْبٍ وسكْب» ، رد كيهات . أردف : «تضع الرَّوبة في العجين المائع فتذوبه فيه على مهل» .
مدَّت راحيل اللفافة القماش الصفراء ، التي جاءت بها ابنتها ، إلى كيهات بيدها اليمنى :
- هذه هي الرَّوبة .
كشف كيهات اللفافة القماش الصغيرة عن عجينة متخثرة جداً فيها . تمتم :
- أهذه هي الرَّوبة؟
«نعم» ، ردت راحيل . أردفت ممازحة : «إنها رَوبة وليست برتقالة» .
ابتسم كيهات . فتح بيده اليمنى ثغرة عميقة في وسط العجينة المتخثرة قليلاً ، متكتِّلة . دلق طاسة ماء في الثغرة . ذوَّب فيها الروبة بيديه ، ثم رَدَمَ أحفَّة العجينة على الروبة المُذابة . سكبَ طاسة ماء أخرى فماعت العجينة .
اقتربت لينا من حافة الطاولة ، إلى الجهة اليسرى من كيهات . قالت شيئاً بالعبرية .

فوجئ كيهات بصوتها الهادئ في كلمات من لغة أخرى . راحيل وابنتها تتخاطبان بالعبرية حين لا تكونان على قرب منه ، لكنهما تتكلمان بالعربية في كل ما يخص مخاطبته ، وما يتوجب أن يسمعه منهما في دورة الكلام بين الثلاثة . سألها :

- ماذا قلتِ ، يا لينا؟

نظرت لينا لى أمها ، معيدة ترجمة كلماتها السابقة إلى العربية باللهجة الماردينية :

- إنه يعرف ماذا يفعل ، يا أمي .

«أهذا ما قلته؟» ، سألها كيهات ، فردت لينا :

- لا أكثر ولَا أقل .

«تلميذ نجيب . حفظ درسَه من أمه» ، عقبت راحيل .

زفر كيهات رضىً عن نفْسه . دَعَك العجين . رفعه من المعجن متمغطاً . صَفَق بعضه ببعض . معَّسه . سكب عليه ماءً أكثر إذ أحسه غير متماسك . طوى بعضَ العجينة على بعضها . لَكَمها في المعجن . جذبها وأرخاها . التفت إلى لينا متوقفاً عن العَجْن :

- ما الذي يغضبك عادةً ، يا لينا؟

فوجئت لينا بسؤاله . افترَّت بشفتاها عن أسنانها . نظرت إلى أمها :

- ما الذي يُغضبني عادةً ، يا أمي؟

«أشياء كُثُر ، يا ابنتي . على رأسها الذهاب إلى المدرسة يوم السبت» ، ردت راحيل .

أرجعت لينا بصرها إلى كيهات :

- لماذاسألتَني هذا؟

«لتصبِّي غضبك على هذه العجينة» ، رد كيهات مبتسماً . «العَجْن يلزمه غضب» .

«أتكون أمك غاضبة حين تعجن؟» ، سألته راحيل ، فرد كيهات :

- تفكِّر في شيء يُغضبها .

«مثل ماذا؟» ، سألته راحيل .

«أن لا يكون منزلنا في الحي الغربي ، يا ست راحيل» ، رد كيهات .

«إذن لا تحب أمك أن تكون جارةَ الحي اليهودي» ، عقبت راحيل .

انتفض كيهات منذعراً من تقديرها :

- لا ، يا ست راحيل . صديقات أمي جميعاً يسكُنَّ الحيَّ الغربي .

«لماذا سكن أهلك هنا ، قريباً منا؟» ، سألته راحيل ، فرد كيهات :

- كانت الأرض تخص والد جدي ، فبنى جدي عليها بيتاً لأبي ، قبل أن أولد بمائتي سنة .

هأهأت راحيل :

- مائتا سنة فقط؟

«ربما مائة وتسع وتسعون سنة» ، رد كيهات .

ضحكت راحيل ، مذ طابقت في فكرها إنقاصَ كيهات للرقم بما يُنقِصه مائةَ غرام حين يشتري كيلو من اللحم .

ضحك كيهات بدوره ، مدركاً ما خالجَ فكر راحيل . تطلع إلى لينا :

- فكِّري أنك ذهبت صباح هذا اليوم إلى المدرسة .

«أتريدني غاضبة؟» ، تساءلت لينا . أردفت : «لا أظنُّ العَجْنَ يلزمه غضب ، يا كيهات ، بل تلزمه المداعبة» .

شهق كيهات شهقة خفيضة . كوَّر العجينة كلها إلى جانب من المعجن . نثر طحيناً على الجانب الذي افرغه من العجينة ، ثم ردَّ العجينة مستقرة فوق الطحين الذي سيقيها من الالتصاق بالقاع المعدني . عاد فرش طحيناً فوق سطح العجينة . فتح أصابعه المغلَّفة بالعجين أمام عينيه :

- أأخطأتُ في شيء ، يا ست راحيل؟

«نعم» ، ردت راحيل مبتسمة .
لمست الخيبةُ بظُفْرها صدغ كيهات الأيسر . تمتم :
– ما الذي أخطأتُ فيه ، يا ست راحيل؟
«لم تُغَطِّ العجينة» ، ردت راحيل .
شهق كيهات منشرحاً . غطَّس يديه في بقية ماء السطل يغسلهما دَعْكاً واحدتَهما بالأخرى . سألها :
– أين أجد قماشة أغطي بها العجين ، يا ست راحيل؟
«غطِّه بثوبك» ، قالت لينا ممازحة ، وهي تتراجع عن الطاولة .
«ثوبي؟» ، غمغم كيهات متفاجئاً . أدار وجهه إلى الفتاة يستفسرها مبلغَ الدعابة في اقتراحها .
«هاتي منشفة ، يا لينا» ، قالت راحيل بالعبرية .
استوضحَها كيهات :
– ماذا ، يا ست راحيل؟
«منشفة» ، ردت راحيل باختصار .
رفعت لينا حاشية القماش الطويل ، العريض المسدل على أثاث لُحُف وفُرُش . بحثت في أجناب طبقاتها المتراكبة علواً . سحبت قُماشة قُطنية صفراء ، مربَّعة القِطْع . جاءت بها . مدَّتها إلى كيهات .
انحنى كيهات . مسح يديه ، المبتلتين غَسَلهما من بقايا العجين على أصابعه ، بحاشية ثوبه . استقام . تسلَّم المنشفة من لينا . غطى بها كتلة العجين . تراجع نصف خطوة إلى الوراء يتأمل المعجن النحاسي . ابتسم . أدار بصره إلى لينا وهي تعيد ترتيب القماش غطاءً على الفُرش والملاحف . تكلم غيرَ محدِّدٍ مَن مِنَ الإثنتين يخاطب :
– أنوقد النارَ في التَّنور الآن؟
«فلْنتريث» ، ردت راحيل . مشت صوب باب الغرفة مغادرة ، وهي

تحمل صحناً من التوتيا واسعَ الحواف لم ينتبه كيهات من أين تناولته : «هاتي شيئاً من مربى السفرجل ، يا لينا» .

«مِن الحانوت؟» ، تساءلت لينا ، فردت أمها :

– أهناك مربى في خزانة ثيابنا؟

فهمت لينا تلميح أمها الساخر . خرجت .

خرج كيهات خلف راحيل من الغرفة . وقف في الباحة يتتبع ببصره ، وبخُطى قلبه ، خطوات لينا ذاهبة إلى الباب الخلفي الصغير للحانوت . فتحته جذْباً بمقبضه . دخلت لحظة ، ثم عادت بإناءٍ زجاج ذي غطاء من القماش معصوب من حول العنق بخيطٍ قنَّب . وإذ جاورت كيهات رافقها الفتى ماشياً إلى جوارها ، في الفسحة الباقية من الباحة ، صوب الغرفة .

مدَّت راحيل ملاءة قصيرة ، سوداء ، برسوم بنِّية لأوراق عريشة العنب ، على المنضدة أمام الأريكة في غرفتها . جاءت بإبريق ماء من البراد وضعته على المنضدة . سحبت سلة الخبز ، المغطى بقطعة من القماش أشبه ببساط أزرق خشن ، من تحت أحد السريرين . أخرجت رغيفاً دائرياً ، سميكاً ، ملفوح الوجه سُمرةً من النار ، على أحفَّته بقايا طحين . قسَّمته بيديها أربع كِسَرٍ وضعتها على الملاءة ذات الخطوط المتوازية بِيْضاً على جانبين منها . أشارت بيدها اليسرى إلى ابنتها إشارةً فهمت الفتاة مقصدها . فكَّت خيطَ الغطاء عن عنق الإناء . جاءت بثلاثة أقداح .

جلست راحيل على الأريكة . جلس كيهات على الكرسي يسارَ الأريكة . جلست لينا على الكرسي الآخر قبالته ، إلى الجانب الأيمن من الأريكة .

غمَّسوا خبزهم في الصحن التوتيا يتلقَّمونه بمربى السفرجل الأقل حلاوة من مربى الكرز ، أو المشمش ، على مذاقٍ من نكهة كبش القرنفل والقرفة . تجرَّعوا ماءً بارداً على طعام الغداء .

حدقت راحيل ملياً إلى كيهات يأكل على خَفَرٍ مَضْغاً هادئاً للُّقمة ، بفم مغلق . سألته :

– كيف خطر لك أن تعرض خدمتَك لنا ، أولَ مرة؟

ابتسم كيهات ببعض الحياء من أنَّ الفكرة لم تكن بنتَ خاطره . ردَّ بنبرِ المعترف :

– لي زميلان ، أرمني وعربي ، يخدمان أحياناً زميلين آخرين يهوديين ، من صفِّنا في المدرسة .

«هكذا إذاً» ، عقبت راحيل .

«نعم» ، قال كيهات محدقاً إلى لينا .

«لماذا اخترتنا؟» ، سألته راحيل .

التزم كيهات الصمت برهة ، يموِّه على السبب الحقيقي في تخصيصه منزل راحيل بعرض خدمته . استحضر رداً عادياً :

– منزلكِ قريب . أشتري منكِ البَيض ، واللحم ، أحياناً .

«أأنت مرتاح في أدائك أشغالاً صغاراً لنا ، يا كيهات؟» ، سألته راحيل .

«مِن قلبي» ، رد كيهات .

تجرَّعت راحيل ماءً من قدحها :

– الكثير مما تفعله لنا ، يا كيهات ، نستطيع أن نفعله بأنفسنا يوم السبت .

نزلت قطعةُ جليدٍ منزلقةً من عقل كيهات إلى ركنٍ من قلبه . ارتعش قلبُه . خُدِشَ عِرْقٌ من عروق انشراحه بخدمته منزل راحيلَ .

استطردت راحيل :

– السبت يوم بهجة ، يا كيهات . نكون أعددنا لهُ الأطايبَ التي نريد ، وأنجزنا أشغالاً يوم الجمعة لا نحتاجها يوم السبت القصير ، الذي

تنتهي موجباتُ الإلتزام الديني بما يخص الأشغال فيه مع حلول المغيب .

كاد كيهات يغصُّ بلقمته . ازدردها بماءٍ ، مبتسماً ابتسامةً فارغة من معناها .

ربتت راحيل بيدها اليسرى على ظاهر يد كيهات اليسرى :

- نستطيع تقديم الطعام إفطاراً ، وغداء ، وعشاءً ، يوم السبت . نستطيع استخراج الماء من البئر ، وإيقاد المدفأة ، وغسل الآنية ، وإشعال الشمعدانات .

انكمش كيهات . انكمش الجلدُ الرقيق على عضلة الحقائق التي يعرفها .

«لا تقلق» ، قالت راحيل تنتشله من لَبْكته المكتومة . أردفت : «أنا ممتنَّة لك على ما تفعله لنا» .

لم يعقِّب كيهات . أطرق مبتسماً وهو يغمس كسرة خبز في مربى السفرجل على هدوءٍ ثقيل . تنهَّد . رفع بصره إلى راحيل هارباً من برهته تلك :

- أتذهبين إلى الكنيس يوم السبت ، يا ست راحيل؟

«مرتين في السنة ، ربما» ، ردت راحيل . نظرت إلى ابنتها شبهَ ضاحكة : «أليسَ اليومُ يومَ سبت؟» .

توقفت لينا عن مضغ لقمتها من السؤال الزئبق طرحتْه أمها عليها . ردت بنبر فيه سخرية :

- هذا هو اليوم المربوط إلى ذيل الجمعة وذيل الأحد .

«إذا ركض كلُّ يوم من اليومين الجمعةِ والأحدِ في اتجاه معاكس للآخر ، سيتمزق يومُ السبت» ، عقبت راحيل مبتسمة .

«قد يَحدث هذا ، يا أمي» ، قالت لينا .

«أحضري لي قدحاً من دامجانة النبيذ يليق بيوم السبت البهيج

وأطايبه» ، قالت راحيل وهي تنقر بسبابتها اليسرى على حافة الصحن التوتيا فيه مربّى السفرجل .

«نبيذٌ؟» ، تمتم كيهات .

«نبيذ» ، أكّدت راحيل . أردفت : «ماذا يشرب المسلمون مع أطايب طعامهم يوم الجمعة؟» .

«الشاي ، يا ست راحيل» ، رد كيهات .

«أهذا شراب؟» ، عقبت راحيل متصنّعةً نبراً مستخفاً . نادت ابنتها الخارجة من الباب بقدح فارغ في يدها : «هاتي بقدح نبيذ للشاب الحلو كيهات» .

رجعت لينا مطلّةً بنصفها من الباب مستوضحةً :

- أتمزحين ، يا أمي؟

«ست راحيل» ، تمتم كيهات مرتبكاً : «لا أشرب كحولاً» .

«لا يشرب كيهات كحولاً ، يا لينا» ، عقبت راحيل تنهي مزحتَها . نظرت إلى كيهات : « ألا يشرب أبوك الكحول أحياناً؟» .

ردَّ كيهات من فوره بنبْرٍ قاطع :

- لا ، يا ست راحيل .

«مَن يشرب خموراً يبهجه أنْ يشرب . ومَن لا يشرب يتمنى أن يشرب» ، عقبت راحيل . ابتسمت : «في دِينكم وعود بشُرب الخمور في الجنة . ذلك يجعلكم تحلمون بشربها كل يوم» .

لم يعرف كيهات بمَ يعقِّب على كلام راحيل . استدار إلى الباب دخلت منه لينا بقدح من الشراب أحمرَ داكنٍ . وضعته أمام أمها .

«هذه الأطايب يلزمها قدح من النبيذ» ، قالت راحيل ، مشيرة بعينيها إلى صحن مربى السفرجل . «فلْنتخيَّلْ دجاجة مشوية في التنُّور ورأسَ خروف مشوياً في التنور ، وبَيضاً مشوياً في التنور ، ودولة مشوية في التنور» .

«دولة مشويَّة؟!!» ، تمتم كيهات على غموض تعبير راحيل المُسْتظْرَف .

«دولة مشوية بكامل حدودها حتى البحر الأحمر» ، عقبت راحيل . نقرت بعقب قدحها على حافة صحن المربى : «نَخْبُ الدولة ذات المذاق المشوي» .

رفع كيهات قدح الماء يجاري راحيل في شربها نخْبَ دولة مشوية . نظر إلى لينا . حاول أن يتظارف :

- أتحبين الدولةَ مشوية ، أم مقلية؟

«أحبها مسلوقة مع حَبِّ الحمص ، وأوراق السِّلْقِ ، وعصير الليمون» ، ردت لينا بصوت هادئ . مدت يدها إلى قدح النبيذ في يد أمها . تناولته منها . ارتشفت بلعة صغيرة . التفتت إلى كيهات : «ألا تريد أن تتذوَّقه؟» .

رفع كيهات يده اليسرى معتذراً :

- الشراب الذي أُفضله في بلدنا اختفى ، يا لينا .

«ما هو؟» ، سألته لينا ، فرد كيهات :

- سينالكو .

«لم أشرب سينالكو قط» ، عقبت لينا . «شربت كوكاكولا أحياناً قليلة» .

«اختفى شراب كوكاكولا أيضاً» ، قال كيهات .

«أيهُم ذلك؟» ، تساءلت لينا . «الشراب الذي لن يختفي أبداً هو اللبن مذوَّباً في الماء مع ملح وثلج . وأنا أحبه» .

«أنا أيضاً» ، عقب كيهات . أضاف : «أُحب شراب عِرْق السوس» .

«مرٌّ وحلو معاً . لا أستسيغه» ، قالت لينا .

«أُحب رغوة هذا الشراب حين يسكبه البائع من إبريقه مرفوعاً إلى أعلى والقدحُ إلى أسفل» ، قال كيهات . «كيف لا يخطئ السكْبَ إلى أسفل بالإبريق العالي من فوق كتفه؟» .

«مهندسون في الخطوط القوسية» ، عقبت راحيل .

«مَنْ؟» ، تساءل كيهات .

«بائعو شراب عِرْق السوس . رأيت واحداً منهم في السوق بطاستين يصفِّق بالواحدة على الأخرى مثل الصنوج في أصابع الراقصات» ، ردت راحيل .

«أرأيت الراقصة نجوى فؤاد تطقطق بالصنوج في يديها ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات .

«أين السيدة الراقصة هذه؟» ، عقبت راحيل .

«في الأفلام المصرية» ، رد كيهات .

«لا أرى أفلاماً» ، قالت راحيل .

«كيف عرفت أن الراقصة تطقطق بالصنوج ، يا ست راحيل؟» ، تساءل كيهات .

«أعليَّ أن أشاهد الراقصات في الأفلام لأعرف؟» ، عقبت راحيل . أردفت متطلعة إلى ابنتها : «كيهات يحب الراقصات المصريات» . أعادت بصرها إليه : «هناك ممثلون يهود مشهورون في الأفلام المصرية» .

ترقرق العجبُ في عيني كيهات . سألها :

- كيف تعرفين وأنت لا تشاهدين الأفلام المصرية ، يا ست راحيل؟

«أتظنهم يعلنون في الأفلام أنهم يهود؟» ، ردت راحيل بسؤالٍ .

استدرك كيهات خفةَ سؤاله ، لكنه كرَّر بعضه :

- كيف تعرفين؟

«العالم صغير» ، ردت راحيل .

تطلع كيهات إلى لينا . سألها :

- أتعرفين ما تعرفه أمُّك؟

«لا يهمني أن أعرف أديان الممثلين في سينما مصر» ، ردت لينا .

أردفت : «يهمني الممثلون الحقيقيون» .

«الأمريكيون؟» ، تساءل كيهات كأنه حزر ما عنَتْه لينا .

«أهَمُّ من الممثلين المصريين ، والأمريكيين» ، ردت لينا .

«مَنْ هُم؟» ، سألها كيهات .

«الممثلون في التوراة» ، ردت لينا .

«ماذا؟!!» ، تساءلت راحيل ممعنةً تحديقاً إلى ابنتها . تمتمت في استغراب : «الممثلون في التوراة؟» .

«أعْني الحقيقيين ، يا أمي . إنهم يمثِّلون الأدوارَ الموْكلَة إليهم من الله» ، ردت لينا .

«ما هذه الفكرة؟» ، تساءلت راحيل بصوتٍ متوجِّس من المعنى .

«وكَّلهم الله بالأدوار ، وقد أدُّوها بقوة» ، قالت لينا . نظرت إلى كيهات : «لديكم ممثلون كُثُر في دِينكم» .

صمت كيهات لا يعرف ربطَ أذيال المعاني بعضَها إلى بعض ، مثله مثل راحيل ، لكنه ظلَّ مبتسماً ابتسامته ذاتها ، الفارغة حين يلتبس عليه الكلام .

ابتسمت لينا . مدت قدح النبيذ إلى كيهات :

- اشربْ نبيذاً تعرف ماذا أعني .

«يا ابنتي ، أنا أيضاً لم أفهم» ، قالت راحيل .

«اسألي الكتابَ المقدس» ، قالت لينا ، مشيرة بيدها إلى محفظة من القماش البني الداكن ، مستطيلة ، تتدلى بحبلٍ مفتولٍ شرائطَ ملونة من الحائط ، تلتمع عليها نجمة سداسية فضية .

التفت كيهات إلى المحفظة القماش واضحة انتفاخاً . سأل لينا :

- ماذا فيها؟

«التوراة» ، ردت لينا .

«باللغة العربية؟» ، تساءل كيهات .

«لا» ، ردت لينا بلا إضافة .

«نحن نحفظ القرآن في محفظة من القماش أيضاً» ، عقَّب كيهات .

«باللغة الكردية؟» ، تمتمت لينا بنبرٍ فيه تلميحٌ مُستبْطَن .

«باللغة العربية ، يا لينا» ، رد كيهاتٌ . سدَّد إليها سؤالاً مرتجلاً خَطَرَ له بغتةً على نحوٍ عفويٍّ : «أتحفظين آيات من القرآن ، يا لينا؟» .

«نعم» ، ردت لينا .

لا خيارَ تملكه لينا ما دامت تلميذةً عليها تقديم امتحان ، آخر السنة ، في مادة «الدِّين» . ارتضت حصَّةَ درس الدِّين الإسلامي على حصة درس الدين المسيحي . وهي ، منذ مطلع المرحلة الإعدادية التي اجتازتها إلى السنة الأولى من المرحلة الثانوية ، تدْرس كما تدرس المُسْلمات في مدرستها .

تحفظ لينا بعض الآيات اللواتي من لوازم الإرتقاء نجاحاً إلى الصفِّ التالي في السنة التالية . تحفظ أحاديث نبويَّة ، وأحاديثَ قدسيَّةً من كلام الله لم يستنزله على نبيِّه بالوحي وسيطاً ، بل ألقى كلماته إلى لسان نبيِّه ، مجيزاً له الجمْعَ في ضمير المتكلم بين الذاتيْنِ ـ ذاته ، وذاتِ الله .

«ما الآية التي تعجبك من القرآن؟» ، سألها كيهات ، فردت لينا :

– الآية التي تعجبك .

«ما أدراكِ أيُّ الآيات تُعجبني؟» ، سألها كيهات .

«الآية التي فيها ذِكرٌ للأكراد» ، ردت لينا متطلعة إلى أمها المنصتة إليهما على رشْف نبيذها ، بعدما توقفت الأيدي عن غمس الخبز في مربى السفرجل .

«هِهْ؟!!» ، تمتم كيهات مستغرباً . «لا آيةَ تَذْكُر الكُرد في القرآن ، يا لينا» .

ضحكت راحيل ضحكة خفيضة ، مدركةً قِسْطَ المزاح في كلمات ابنتها .

ضحكت لينا أيضاً .

ألوى كيهات رأسه جانبياً كأنما سيطويه على كتفه الأيمن استخفافاً بنفسه أنَّه كاد يصدق لينا . ابتسم . أدار وجهه صوب باب الغرفة . خَطَر له سؤالٌ لم يُنَحِّه :

- ماذا يشبه حضورُكِ المدرسة يوم السبت ، يا لينا؟

تمهَّلت لينا في الرد . جمعت بقايا كِسَرِ الخبز الصغار عن ملاءة المنضدة فأعادتها إلى سلة الخبز المغطاة بقماش سميك ، خشن . جذبت الصحن التوتيا ، شبهَ الفارغ ، كي تأخذه إلى حيث ينبغي أن يُغسل . ردت متسائلة :

- أأنت كردي؟

وسَّع كيهات أجفان عينيه : أتشكِّكُ لينا في عِرْقه ، أم تمازحه؟ فتح فمه بلا ابتسامة .

تداركت لينا سؤالها . ألحقت به جواباً مريحاً :

- طبعاً انت كردي ، يا كيهات .

«نعم . أنا كردي» ، تمتم كيهات .

«سألَتني ماذا يشبه حضوري المدرسةَ يوم السبت» ، قالت لينا .

«نعم» ، أكَّد كيهات .

«ماذا يشبهُ أن يردِّد كرديٌّ ، كل صباح ، في باحة المدرسة : أمَّة عربية واحدة ، ذات رسالة خالدة؟» ، سألته لينا .

لم ينتبه كيهات إلى المفارَقة التي اشارت إليها لينا . أكان يردد كالببغاء ذلك الشعار اللازم لامتثاله تلميذاً في رِحابِ الدولة ـ الحزبِ كلَّ صباح؟ أأيقظه تلميح لينا إلى وجوده في «عروبة المكان» و «بعثيَّةِ الزمان»؟

ابتسم قبل أن يباغتها ويباغت أمها بتصريح :

- أفكر في الإنتساب إلى شبيبة الثورةً في الحزب .

«ماذا؟» ، نفثت راحيل كلمتَها مثقوبةَ الحروف .

«هكذا قد أصير ابنَ الدولة ، يا ست راحيل» ، رد كيهات .

«أليس لك أبّ وأم؟» ، سألته راحيل .

«بلى» ، رد كيهات .

تجرَّعت راحيل آخر ما في قدحها من النبيذ . تنهَّدت في عمقٍ :

- أنا أيضاً أفكر في الانظمام إلى شبيبة الثورة .

ضحكت لينا . تمتمت :

- الشبيبة؟

«أأنا عجوز جداً؟» ، سألت راحيل ابنتها متصنِّعةً نبراً جاداً في صوتها .

«لست عجوزاً ، يا أمي . لكن تَصْلحين عضواً في طلائع البعث» ، ردت لينا مهأْهِئة .

«أنا راضية . الطلائع أكبر عمراً من الشبيبة في الحزب» ، قالت راحيل . أعادت بصرها إلى كيهات : «ستصير عربياً إذاً» .

«أينبغي أن اصير عربياً لأنتسب إلى شبيبة حزب البعث ، يا ست راحيل؟» ، تساءل كيهات .

«إذا قَدِرت أن تصير عربياً» ، ردت لينا نيابة عن أمها .

تمهَّل كيهات في تقليب المعنى كرغيفٍ رقيقٍ على صاج عقله المحمَّى ليستحصل جواباً ناضجاً :

- حين ظهر الإسلام ، كل من قال : لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله ، صار مسلماً من فوره .

«قُلْ : لا إله إلاَّ الله ، ولا حزبَ إلاَّ حزب البعث تَصِرْ عربياً من

فورك» ، عقبت راحيل مبتسمة ابتسامة واسعة .

تعثَّر عقلُ كيهات بدَرَج المنطق . شهق قائماً بهدوء عن الكرسي :

– ألم يختمر العجين بعد ، يا ست راحيل؟

«قريباً يختمر» ، ردت راحيل .

«أليس علينا أن نوقد النار في التنور ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات .

«بلى» ، ردت راحيل . نهضت عن الأريكة : «فلْنجلبْ حَطَباً» .

تحت السقيفة الواطئة ، الممتدة على طول الجدار الجنوبي للسور ، كان الحطب مكوَّماً إلى جوار أكياس من الخيش منتفخة ، وآلات مهملة ، ومواسير مدافئ ، وسطول صغار . حمل كيهات وَسْع ذراعيه احتضاناً للخشب الجذوع ، والغصون ، مقطَّعة طولياً ، إلى التنور لصق الجدار الشمال ، منصوبةً في ما يشبه غرفة عميقة بجدارين عاليين علوَّ السور ، وسقيفة من الغطاء المعدن تقيها المطرَ وحرَّ الشمس معاً .

رمى كيهات الحطب إلى جوف التنور من فوهتها الواسعة . نثر على الحطب رَشَاشاً من الكاز في صفيحة مستطيلة ، موضوعة إلى الجانب الأيسر من كتف التنور . رمى عود ثقاب مشتعل إلى الجوف الذي سيلتهم النار بأسنان الصلصال . اشتعلت النار متلهِّفةً بألسنتها العالية ، خارجةً من فوهة التنور .

ابتعد كيهات خطوتين إلى الوراء يتَّقي اللظى النهمَ . رمى علبة الكبريت إلى كتف التنور العريضة فاستقرت إلى جوار صفيحة الكاز الصغيرة . استدار إلى راحيل وابنتها ترْقبَانه في الظلِّ المُعتصَر تحت السقيفة . ابتسم لهما . عَرَته رغبة لا تُقاوم في التدخين :

– أعندك لفافة تبغ ، يا ست راحيل؟

«أتدخن كثيراً؟؟» ، سألته راحيل فردَّ مؤكِّداً :

- ثلاث لفافات في اليوم ، يا ست راحيل .

لم يستطع كيهات أن يتفادى التصريح برغبته : صُنْعُ أقراص العجين دَحْواً بين راحتيٍّ اليدين ، وإنضاجها في الفرن ، هُما الأقسى في مراحل الاختبار ، بعد أن اجتاز اختبارَ العَجْنِ ، وإشعال النار . يلزم كيهات ما يهدئ نفسه قبل الإقدام على الاستخباز . لكن ما من شيء سيهدِّئها ، في حاله تلك ، أكثر من لفافة تبغ .

غابت لينا لحظات ، إيحاءً من أمها . عادت من غرفتها بكيس صغير :

- أأعْقِدُ لفافةً لكيهًات ، يا أمي ، أم تعْقدِينها؟

«تصنعين اللفافات أكثر إتقاناً مني» ، قالت راحيل لابنتها .

جلست لينا راكعة أرضاً . وضعت الكيس الصغير في حِجرِها . أخرجت منه ورقة رقيقة مما تُصْنع بها اللفافات . بسطت تبغاً مفروماً على طول الورقة . دوَّرتها اسطوانةً . لعقت بلسانها حافة الورقة وألصقتها بهيكلها الأسطواني . نهضت . مدَّت اللفافة إلى كيهات .

تناول كيهات اللفافة من بين أنامل لينا . مشى صوب كتف التنور اليسرى . تناول علبة الكبريت عليها رَسْمُ حصان أسود واقف على قائمتيه الخلفيتين . أشعل لفافته بعود منها . استنشق نَفَساً عميقاً من الدخان . استدار إلى راحيل وابنتها :

- التبغ أول نبات في الجنة .

ضحكت راحيل . سألته :

- جنة دِينكم؟

«نعم ، يا ست راحيل» ، رد كيهات .

«أشياء كُثُر ، لا تُحصى ، هُنَّ الأوائل في جنتكم» ، عقبت راحيل . اردفت : «أبلغتَ السابعة عشرة؟» .

«ليس بعد . أنا في السادسة عشرة» ، رد كيهات .

«هذا عُمرٌ يبدأ فيه المسلم بتسجيل أسماء الحوريات، اللواتي هُنَّ حصَّته في جنتكم»، قالت راحيل مهأْهِئةً.

أطرق كيهات مستحياً.

استرسلت راحيل:

- أبدأتَ بتسجيل أسمائهن؟

«لا، يا ست راحيل»، ردَّ كيهات مُحْرَجاً من سؤالها.

«يبدأ المسلم بتسجيل أسماء حورياته وهو حي، قبل أن يموت. أليس كذلك؟»، سألته راحيل، فرد كيهات:

- لا أعرف.

«هاتِ نَشْقةً لي من لفافتك»، قالت راحيل وهي تمدُّ يدها اليسرى صوبه، فمدَّ كيهات يده اليمنى باللفافة إليها.

«النار تخبو»، هتفت لينا منبِّهةً كيهات.

بادر كيهات من فوره إلى تحريك الحطب المشتعل في جوف التنور بالشيش القضيب، الأسود الحديد، ثم نثر على الجوف بعضاً من الكاز.

استشاطتِ النارُ غضباً من إقلاقها. استعرت لاعقةً أحفة فوهة التنور بألسنتها المبلَّلةِ ذهباً.

أعادت راحيل لفافة التبغ إلى كيهات إذ وضع الشيشَ جانباً. تنشَّق كيهات من اللفافة أنفاساً متعاقبة. قدَّمها إلى لينا.

هزت لينا رأسها معتذرة:

- لا أدخن يوم السبت.

«أمك تدخن يوم السبت»، عقَّب كيهات مستغرباً رَفْضَها.

«إنها تدخن في الوقت الذي هو حصةُ يوم الجمعة من ساعات يوم السبت»، ردت لينا.

فتح كيهات فمه عن ابتسامةٍ متلكِّئةٍ:

- لم أفهم .

«أنا أيضاً لم أفهم ، منذ باتت ابنتي فيلسوفة» ، قالت راحيل . حدَّقت إلى ابنتها من أعلى إلى أسفل : «أنتِ تخيفينني» .

«يا أمي» ، قالت لينا في تمهيد لشرحٍ لن يكون مُقْنعاً على أية حال :

- ساعات يوم السبت لم تَعُد كلها مُلْكَ يوم السبت . الساعات الأقرب إلى يوم الجمعة باتت من حصَّة يوم الجمعة ، والساعات الأقرب إلى يوم الأحد باتت من حصة يوم الأحد . ما يبقى بعد اقتطاع الحِصَّتين هو مقدارُ ساعات يوم السبت .

«أساعاتُ الظهيرة حتى العصر هي ما تبقَّى ليوم السبت من الساعات؟» ، سألها كيهات .

«ذلك غير معروف بعدُ» ، ردت لينا .

«من أيِّ عِلْم هذا ، يا ابنتي؟» ، تساءلت راحيل وهي تحرك أصابع يدها اليسرى إلى جوار صدغها كالمروحة ، إشارة إلى خلل في عقل لينا .

«من عِلْم الفيزياء» ، ردت لينا .

«أأنت جادَّة؟» ، تساءلت راحيل . أردفت : «كم ساعة تتبقى ليوم السبت كي نعرف أنه يومُ سبتٍ بَعْدُ؟» ، غمغمت . «علينا أن نعرِض هذا التشريع الجديد لمُدَّة يوم السبت على مَجْمَع رابايات» .

«أهذا يَحْدثُ للأيام كلها ، أمْ ليوم السَبت وحده ، يا لينا؟» ، سألها كيهات .

«كلُّ يوم يقضم من اليوم الذي يليه بعضَ ساعاته» ، ردت لينا .

«ماذا عنَّ يوم الأحد؟» ، سألها كيهات .

«ماذا عنه؟» ، تساءلت لينا .

«قلتِ أنه يقتطع لنفسه حصَّةً من ساعات يوم السبت . الصواب ، بحسب منطقكِ ، أن يكون العكس» ، عقَّب كيهات .

«ما العكس؟» ، سألته لينا .

«السبت هو الذي يقتطع لنفسه حصةً من ساعات يوم الأحد» ، رد كيهات .

«الأحدُ يومٌ داهية ، يا كيهات ، يعرف كيف يستدير بوجهه إلى السبت فيمنعه من اقتطاع أيٍّ وقت من ساعاته» ، قالت لينا .

«أحقاً هذا ما يحدث ليوم السبت ، يا ابنتي؟ كأنك عالمةٌ فلكية» ، قالت راحيل .

ضحك كيهات :

- تستطيع لينا أن تصنع تقويماً جديداً لأيام السنة ، وتحفظ لنفسها حقوق الاختراع .

رمت راحيل نظرةً إلى فوهة التنور . تمتمت :

- السبتُ سبتٌ ، لن تُنقصه اختراعاتُ لينا ، ولن تُزيد عليه .

«ألا ترين السبت يا أمي؟» ، عقبت لينا .

«ماذا؟» ، تساءلت راحيل .

«ألا ترين حالَ يوم السبت؟» ، سألتها لينا .

تلفتت راحيل من حولها متظاهرة بالبحث عن شيء مفقود :

- أين هو جارُنا السبت؟ ماذا يرتدي؟

«يرتدي قبعة الجمعة ، وينتعل حذاءَ الأحد» ، ردت لينا .

تنهَّدت راحيل . نظرت إلى كيهات :

- هاتِ العجين .

هرع كيهات إلى الغرفة التي ترك المعجن على الطاولة فيها . دَعَك جَمرَ ما تبقى من لفافته بالجدار قبل الدخول فأطفأها . دسَّها في جيبه يوفِّرها لوقت آخر . عاد بالعجين المغطى في معجنه المعدنيٍّ النحاس . وضعه على كتف التنور اليمنى .

«أنسيتَ شيئاً؟» ، سألته راحيل .

تعكَّر كيهات لحظة . أدرك ما تعنيه راحيل :

- طاسة الماء .

«أنا سآتي بطاسة الماء» ، قالت لينا . غابت لحظات لتعود بطاسة التوتيا العميقة فيها ماء . وضعت الطاسة إلى جوار العجين .

شمَّر كيهات عن كُمَّي ثوبه حتى ملتقى زنديه بالكتفين تمهيداً للاستخباز .

«دَعْ كُمَّيك مسدليْنِ على ساعديك لتتَّقي وهج النار» ، قالت راحيل .

أرخى كيهات كُمَّيه . نظر إلى راحيل نظرة فيها استنجادٌ خفيٌّ : أمرُ اقتطاع العجين أقراصاً متساوية ، ودَحْوُها باليدين ليس كالعَجْن ، أو كإيقاد النار في التنور . الإختبار ثقيلٌ مُرْبك .

حاول كيهات أن يبتسم فلم تصعد الإبتسامة إلى شفتيه . غمس يديه في طاسة الماء . اقتطع من العجين كُرةً ملءَ راحتيه . قلَّبها من يد إلى يد تصفيقاً عليها في الهواء يوسِّع الكُرةَ قُرصاً . انحنى على فوهة التنور . مدَّ ذراعه اليمنى بالعجينة القُرص إلى جوفها المحمَّى . ألصق القرصَ بجدار الجوف على عجل . ثم تراجع مُثخن الذراع بحماوة الصلصال الحافظ ذاكرةَ النار فتيَّةً حتى لو عجزت النارُ أن تتذكَّر فتوَّتَها .

غمس كيهات يديه ، كَرَّةً جديدة ، في طاسة الماء . اقتطع كُرة من العجين . جَمَدَ منصتاً إلى صوتٍ مُقلِق .

«لا . أوه» ، تمتمت راحيل بنبرِ حسرةٍ ، مقتربة من فوهة التنور تستطلع جوفَها : «سقط العجين على الجمر» .

تلقَّف كيهات كلماتِ راحيل وخْزاً في أعماقه . نظر إلى لينا ممعوسَ القلب .

ابتسمت لينا :

- لا تقلقْ . هذا ليس رسوباً في امتحان اللغة العربية .

أسوأ ما يحدث لتلميذ في المرحلة الثانوية أن لا يجتاز امتحان اللغة العربية صَرْفاً ، ونَحْواً . الرسوبُ في اللغة يعني خسارة اعتراف الدولة بسنة من عمر التلميذ . فإن رسبَ السنةَ التالية في اللغة سدَّتِ الدولة على الطالب طُرقَ العبور إلى الجامعة ، وفتحت لهُ طُرُقَ التجنيدَ عسكرياً لا يعرف متى تنتهي خدمتُه .

«ماذا أفعل ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات مرتبكاً ، وهو ينظر إلى قاعِ التنور ، حيث العجينة القُرص منطوية على نفسها فوق الجمر المتلالئ تَرَفاً .

«سنستخرجها فيما بعد» ، ردت راحيل .

استعاد كيهات بعضَ جرأته من النبر المُطْمئن في صوت راحيل . غمس يديه في ماء الطاسة . اقتطع كُرة من العجين . دَحَاها قُرصاً واسعاً بتقليبها ، في الهواء ، من يد إلى يدٍ كَمن يقرع على دُفٍّ . مدَّ ذراعه اليمنى إلى باطن التنور . ألصق القرص بالجدار الصلصال المحمَّى .

أخرجَ كيهات ذراعه سُراعاً . أبقى بصره على قرص العجين الملتصق بجدار التنور . هزَّ يديه في استياءٍ صارخ من حظِّه المخذول إذ رأى القرص ينحني منفلتاً من جدار باطن التنور . مدَّ ذراعه خطفاً إلى القرص يُعيد إلصاقه بالجدار الصلصال . سقط القرص العجين إلى جوار شقيقه القرص الآخر ، فوق الجمر .

أغمض كيهات عينيه مجروحاً من إخفاقه . صَرَّ على أسنانه خيبةً وغيظاً . شتمَ الجهةَ الشمال ، ومدينتَه في الجهة الشمال ، والأعراقَ كلها في الجهة الشمال ، ومكتشفي القمح كطعام في الجهة الشمال ، والمهتدين الأوائل إلى طحن القمح لعجنه ، واتخاذه خُبزاً نضيجاً في رماد النار

الساخن ، أو في تنُّور من الصلصال ، أو على صاج محمًّى . شتمَ كلَّ شيء بلسان قلبه من غيرِ أن تصعد الكلماتُ الشتائمَ إلى لسانه أمام راحيل ولينا . أبقى فمه مغلقاً حقداً على الحظوظ . أدار وجهه إليهما مهزوماً :

– ماذا أفعل الآن ، يا ست راحيل؟

«رغيف آخر سنلتقطه من الرماد فيما بعد» ، ردت راحيل . تأملت الانكسارَ واضحاً في عيني الشاب الصغير . غمست يديها في ماء الطاسة . اقتطعت من العجين كرة . دَحَتْها بين راحتي يديها على عَجَلٍ مُتقَن . ألصقت القُرص ببطان التنور .

«ماذا تفعلين ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات بنبرٍ متخوِّف قليلاً من أنها ـ ربما ـ خرجت على قواعد يوم السبت .

«لا تقلقْ» ، قالت راحيل وهي تقتطع من العجين في الصاج النحاس ، المقعَّر ، كُرةً أخرى . تبادلتِ الصفْع على الكُرة بيديها ، في الهواء ، حتى استوت قُرصاً سميكاً أنزلته بذراعها اليمنى إلى جوف التنور ، فألصقته بالجدار الصلصال .

أكملت راحيل لَصْقَ أقراص العجين كلها بالجوف الصلصالي . غطت فوهة التنور بقاع المعجن النحاس ذاته ، المجوَّر عميقاً . ابتعدت رُبع خطوة عن التنور . استدارت إلى كيهات يتنازعه الاستغرابُ مما تفعل ، والخيبةُ من نفسه . غمست أصابع يدها اليمنى في طاسة الماء . نثرت من أصابعها رذاذاً على وجهه كأنما توقظه من إسرافه في توبيخ حظِّه . كررت كلماتِ تخفيفها عنه :

– لا تقلقْ . لن أدخل الجحيم التي يعرفها دِينُك .

تراجع كيهات عن التنور ، تاركاً راحيل تتولى إصلاحَ ما أخفقَ هو فيه . نظر إلى لينا المبتسمة ابتسامة لم يعرف أهي تعزيةُ ، أم تضامنٌ مع حظِّه الساخر منه . كلَّمها كلامَ الهارب من حاله الموجِعة :

- أخبزتِ قطُّ ، يا لينا ، في التنور؟

«لا» ، ردت لينا . فاجأته بما يحيِّر قليلاً : «أيُّ غبي اكتشف صناعة الخبز؟» .

«ماذا؟» ، تساءل كيهات .

«العالم أفضل بلا خبز» ، ردت لينا .

«ماذا كنا سنأكل ، إذاً؟» ، تساءل كيهات .

«نأكل ملاءات أسرَّتنا ، وحقائبنا المدرسية ، وأبواب منازلنا ، وزجاج نوافذنا ، وكُتُب الجغرافيا ، والحِمَّص» ، ردت لينا . أردفت مستطردةً : «حمص مع ورق سِلْق وعصير ليمون ، وزيت زيتون ، وآية أو آيتين عن التين والرمان» .

«ما الذي تَرْطنين ، يا ابنتي؟» ، تساءلت راحيل .

«عن تفاهة الخبز» ، ردت لينا .

أجفلت كلماتُ لينا قلب راحيل . تمتمت مبغوتةً :

- تفاهة الخبز؟!!

تسلل كيهات إلى المحاورة بينهما :

- تظن لينا أن العالم في غنى عن الخبز .

«أفي دِيننا أننا لم نعرف الخبز منذ أول الخَلْق؟ أفي دينكم أنكم لم تعرفوا الخبز منذ أول الخَلْق؟ كل شيء بدأ من الخبز» ، قالت راحيل . أردفت : «الإيمان بالخبز إيمان بالله» . أشارت بيدها إلى الغرفة الشمالية الشرقية : «هاتي سلَّة ، يا لينا» .

تناولت راحيل كيس التبغ الصغير ملقىً إلى كتف التنور اليمنى العريضة . بدأت عقد لفافة . لم تستكملها إذ عادت ابنتها سريعاً بالسلة . مدَّت الورقة الرقيقة بالتبغ مبسوطاً فوقها إلى لينا : «أكملي لفَّها» ، قالت . استدارت إلى التنور . وضعت السلة الواسعة ، العميقة ، المصنوعة من

قصب لم يلوَّن ، على كتف التنور اليمنى . أبعدت الصاج النحاسي المِعجن عن الفوهة الصلصالية . حملت الشِّيش الحديد .أخرجت الرغيفين المعفَّرين رماداً غرْزاً برأس الشيش فيهما . وضعتهما في الصاج . لفَّت خرقة سوداء على يدها وقاءً من سخونة جوف التنور . نزعت الأرغفة عن الجدار الصلصال المحمَّى واحداً واحداً تستودعُها السلَّةَ القصب .

تراجعت راحيل إلى الوراء . التفتت إلى كيهات :

- أتريد ذَيْنِكَ الرغيفين؟

«ماذا أفعل بهما ، يا ست راحيل؟» .

نفضت راحيل الرماد عن الرغيفين . أزالت بأظافرها الأطراف المحترقة منهما . كسرت واحداً نصفين . عرضت موضعَ الكسر على بصر كيهات :

- أترى؟ لُبُّ هذين الرغيفين في خير .

أبدى كيهات اعتذاره مرة ثانية :

- ماذا أفعل بهما؟

«ماذا تفعل الناس بالخبز؟» ، عقبت راحيل . أدارت وجهها إلى لينا تتسلَّم من يد ابنتها لفافةَ التبغ : «كيهات ينتسب إلى حزبك . إنه لا يؤمن بجدوى الخبز طعاماً» .

«لا ، يا ست راحيل» ، قال كيهات بنبرٍ فيه تنبيهٌ إلى سوء فهم : «أحبُّ الخبز» ، أكَّد لها . «آكل الخبزَ أحياناً مع الخبز» .

«الخبز مع الخبز؟» ، تساءلت لينا مبتسمة ، فردَّ كيهات :

- آكل ، أحياناً ، قطعة من خبز التنور مع قطعة من خبز الفرن .

هأْهأت راحيل وهي تشعل اللفافة بعود كبريت :

- ظننتُ لوهلة أن لينا حصلت على عضوٍ في حزبها .

«حزب ماذا ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات ، فردت :

- حزب تحرير المَعِدة من الخبز المُستعِر .

«سآخذ الرغيفين» ، قال كيهات . نظر إلى لينا نظرة لم يستطع إلْباسها معنىً . أردف على نحوٍ مقصود وغير مقصود في الآن ذاته : «أحبُّ نكهة الرماد على الخبز» .

«أتُسْقط أمُّك الكثير من الأرغفة في جمر تنُّورها؟» ، سألته لينا ، فردَّ كيهات مُدَافعاً :

– لا ، أبداً ، يا لينا . لم أرَها أسقطت رغيفاً واحداً في الجمر .

مدَّت راحيل لفافة التبغ المشتعلة إلى كيهات :

– خُذْ نَفَساً من دخان اللفافة قبل أن تقرر الانضمام إلى حزب لينا .

هزَّ كيهات يده اليمنى معتذراً :

– يكفيني ما دخَّنتُه اليوم .

ابتسمت راحيل . أعادت بصرها إلى ابنتها :

– استقال عضوٌ من حزبك يا ابنتي ، قبل أن ينضم إليه .

«أتعنين حزبَ التدخين ، أم حزب الاستغناء عن الخبز ، يا أمي؟» ، سألت لينا أمها .

«لا أحد يستقيل من حزب التدخين حتى لو توقف عن التدخين» ، ردت راحيل . «مَنْ يبدأ التدخينَ يكُن أشبه بالمولود يتنفس الهواء بعد خروجه من الرحم . لن يتوقف عن تنفس الهواء حتى موته» .

«ما المقارنة هذه ، يا مي؟ يستطيع المدخن أن يتوقف عن التدخين ، من غير أن يموت . من دون هواء يموت الإنسان» ، قالت لينا .

«يستطيع أن يحيا من دون هواء» ، عقبت راحيل .

«كيف؟» ، سألتها لينا بنبرٍ ساخر .

«يكفيه أن يقتنع أنه لا يتنفس الهواء» ، ردت راحيل . أضافت : «مثلنا» .

نظرت لينا إلى كيهات ، لا إلى أمها ، مبتسمة ابتسامةَ الاستنجاد بمنطقٍ :

- من أيِّ كتاب مقدَّس استخلصتِ هذه المعرفة؟
«من علوم الفيزياء في المدرسة الثانوية» ، ردت راحيل .
هزت لينا رأسها استخفافاً :
- لم تدخل أمي مدرسةً ، يا كيهات .
«أنا في مدرسة كل شيء ، يا ابنتي . في مدرسة اللحم ، ومدرسة العَجْن والخَبْزِ ، ومدرسة غسل الثياب ، ومدرسة الطهو ، ومدرسة الغضب من كل شيء ، ومن لا شيء ، ومدرسة الإيمان بالدولة المشوية» ، قالت راحيل . هتفت بابنتها : «هاتي ستَّ بيضات من الحانوت» .
ذهبت لينا إلى الحانوت من الباب الخلفي الضيق . عادت بست بيضات في شريحة من الورق الذي تغلِّف به أمُّها اللحم لزُبُنها .
«أنرمي بالبيض إلى جوف التنور من فوهتها ، ياكيهات؟» ، سألت راحيل جارَها الشاب ـ زائرَ السبت .
ابتسم كهيات متشمِّماً فوحَ الدعابة في سؤالها :
- اقذفي به إلى جوف التنور من فوهتها إن كان بيضاً حجرياً لا ينكسر .
قرفصت راحيل أمام قاعدة التنور ، حيث الكوَّة الصغيرة في أسفلها تستنشق منها النارُ هواءً يؤجِّج اللهب ويُحييه . أدخلتِ البيضات الست ، واحدة خلف الأخرى بيدها اليمنى إلى الرماد المُسجَّر . أدارت بصرها على الأرض من حول التنور . التقطت عُوداً من بقايا الحطب . دفعت به آخر بيضة حتى أختفت في الجوف الصلصالي . نهضت واقفة . سألت كيهات :
- كم من الوقت تُبقي أمك البَيض في تنورها؟
«تتركه ساعة ، يا ست راحيل» ، رد كيهات .
«ألهذا ينفجر البيض في تنور أمك؟» ، عقبت راحيل تعليقاً على المُدَّة الساعة .

«ساعة . خمس دقائق ، لا يهم ، يا ست راحيل . البَيض يحبُّ أن ينفجر» ، قال كيهات .

«يحبُّ البيض أن ينفجر؟» ، تساءلت راحيل .

رفع كيهات كتفيه تدليلاً على عدم تأكُّده من ذلك التقدير . أدلى بتقدير آخر :

– تحبُّ البَيضة أن تَفْقِس في الرماد الساخن لذا تنفجر .

«تَّفْقِس؟!!» ، تمتمت راحيل مبتسمة . «ما الفَرْخ الذي يستعجل الخروج من داخلها إلى الجَمْر؟» .

«أليس بالحرارة يفقس البيض؟» ، تساءل كيهات .

«أكيد» ، ردت راحيل . «من دفء احتضان الدجاج للبَيض يفقس البيض ، وليس من احتضان الجمر للبيض في التنور ، يا كيهات» .

ابتعد الثلاثة عن التنور ، تحمل لينا سلة الخبز مغطاة بالقماشة السميكة ، وتحمل أمها المعجن فيه الرغيفان المعوسان نالَ الحريقُ بعضاً من أحفَّتهما ، ومن ظهريهما المحدَّبيْنِ .

«أستطيع غسل المعجن عند البئر ، يا ست راحيل» ، قال كيهات ، المتجه معهما إلى غرفتهما فارغَ اليدين .

«سأغسله أنا» ، عقبت راحيل . مشت صوب البئر . وضعت المعجن النحاسي أرضاً . أخرجت الرغيفين منه : «املأْهُ ماءً ، يا كيهات ، واتركه» ، قالت .

سارع كيهات إلى قذف الدلو الخشبية إلى الجوف العميق للبئر . سحبها مليئة ماءً . دلق نصف ما تحويه في المعجن . وضع الدلو على الحِفاف العريض لطوق البئر . مشى إلى حيث سبقته راحيل وابنتها .

كانت راحيل ، إذْ دخل كيهات ، تضيف الأرغفة الجدد إلى رغيف ونصف رغيف باقيين في سلتها التي تحت أحد السريرين . أفرغت السلة

غير الملونة في السلة الأخرى على قصبها بعض التلاوين . جلست على الكرسي القش إلى جوار الكوَّة الحاضنة مذياعَها البنِّي ، الداكنِ الهيكل الخشبي ، في الجدار .

«هلاَّ جلستِ في مكانٍ آخر ، يا أمي؟» ، سألتها ابنتها .

«لماذا؟» ، تساءلت راحيل .

«سأستمع إلى الأخبار في المذياع» ، ردت لينا .

«أخبار؟» ، تمتمت راحيل . «أبقيتْ أخبارٌ لتُذاع؟» .

نهضت راحيل عن الكرسي . عبرت قريباً من كيهات . أشارت إلى أحد السريرين : «اجلس» ، قالت . جلست على حافة السرير الآخر : «أسنمسع صوتَ انفجار البَيض ، يا كيهات؟» .

«لا يُسمع صوتُ انفجار البيض» ، رد كيهات .

حكَّت راحيل فروة رأسها . أكَّدت :

– لن أدعِ البَيض ينفجر .

«كيف؟» ، تساءل كيهات وهو يصغي بأُذن منه إلى تحريك لينا مؤشرَ البحث عن الإذاعات في المذياع .

«سنأكل البَيض نصفَ مشوي» ، ردت راحيل . نظرت إلى الساعة المدوَّرة ذات التاج والمطرقة على قمَّتها ، فوق رف صغير إلى جوار السرير : «سأعطي البَيض عشر دقائق كي يعترف» .

استوقفت كيهات كلمةُ «يعترف» . ابتسم :

– أفي التنور رجالُ استخبارات يستنطقون البَيض ، يا ست راحيل؟

تأملته راحيل منفرجة الشفتين الرقيقتين عن ابتسامة . ردت :

– كل تنور فيها استخبارات من الجمر . مَن يقاومِ الجَمر ، يا كيهات؟ الأرغفة تعترف في التَّنور . سيعترف البَيض أيضاً .

«بمَ يعترف الخبز ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات ، فردَّت :

- بانتمائه إلى حزب العجين .

هأْهأَ كيهات مستمْلِحاً ردَّ راحيل . سألها :

- بِمَ يعترف البيض؟

«بتدريبه الفراخَ التي فيه على أن لا تطير» ، ردت راحيل . أدارت بصرها إلى ابنتها : «أعثرتِ على ساحر من سَحَرة الكذب؟» .

«لِمَ تظنين أن الإذاعات جميعاً مَصدَرُ كذبٍ ، يا أمي؟» ، سألت لينا أمها .

ردت راحيل وهي تنظر إلى كيهات وليس إلى ابنتها :

- كيف يستطيع الصوت أن يجتاز الأنهار ، والبحار ، والمحيطات ، والجبال ، والصحارى ، ليصل إلى المُصغي إلى المذياع من دون أن يتعفَّن؟

«أيتعفَّن الصوت ، يا أمي؟» ،سألتها لينا .

«الصوتُ هواء . الهواء يتعفن في الأمكنة المغلقة» ، ردت راحيل . أردفت شارحةً : «الأسلاك الكهربائية معابرُ يتعفن فيها الصوت» .

«أتقصدين العفن في الأصوات ، أم الكذب فيها؟» ، سألتها ابنتها .

«ما العفن؟» ، تساءلت راحيل . أردَفت : «العفن هو كذبُ الهواء على طبيعته» .

نظرت لينا إلى كيهات :

- بدأتُ أؤمن أن أمي متخرجة من جامعة بريطانية .

نهضت راحيل عن حافة السرير . اقتربت من النافذة المطلَّة على باحة المنزل . تمتمت :

- لم يأتِ صاحبُ الطربوش هذا الصباح .

«مَن؟» ، تساءل كيهات .

«جاءنا صاحبُ طربوش في الصباح الباكر من السبت الفائت» ، ردت

راحيل . «معه دفتر بعناوين الكثير من البيوت في الحيِّ ، وعدد سكانها . إنه يتفقَّد وجود أصحابها فيها» .

«لماذا؟» ، تساءل كيهات ، فردت راحيل :

- هذا تدبيرٌ إضافي من الدولة للإطمئنان على صحتنا .

«ماذا؟» ، تساءل كيهات وقد اختلط عليه كلام راحيل .

أمالت راحيل رأسها أسفاً من عدم فهمه . شرحتْ :

ـ تتثبَّت الدولة من وجودنا في المدينة ، يا أمير . وقد اختارت لزيارة شارعنا ، صباح السبت ، صاحب طربوش أحمر .

«ألستم تراجعون دائرةً في السراي ، للإعلان عن وجودكم ، بين فترة وأخرى؟» ، سألها كيهات .

«ليس السراي» ، ردت راحيل .

«أين إذاً؟» ، سألها كيهات .

تجاهلت راحيل سؤاله . تمتمت ماشية صوب الباب :

- لن أدع البَيض ينفجر .

مشى كيهات وحده وراء راحيل إلى التنور . ولَّما بلغها أشارت راحيل بيدها اليسرى إلى الكُوَّة الصغيرة في قاعدتها :

- أَخرِج البَيض ، يا كيهات .

حمل كَيهات شيشَ نكْتِ النار ممسكاً به من رُبعه الأخير . أدخله في الكوة مستخرجاً البيضات الست .

غمغمت راحيل متطلعة إلى الشقوق في البيوض علِقَ بها رمادٌ :

- لا تبدو البيضات متفجرة .

«لا . إنها متشققة فقط» ، عقب كيهات . أدار بصره من حوله : «إنها ساخنة . أَمِنْ شيء أضعها فيه ، يا ست راحيل؟» .

«استخدم حاشية ثوبك» ، ردت راحيل .

رفع كيهات بصرهُ إليها ، في جلسته القرفصاء بعدُ ، مُحْرَجاً :

- حاشية ثوبي؟!

«هي بضع خطوات من هنا إلى الغرفة» ، قالت راحيل مخففة عنه حَرَجه .

رفع كيهات حاشية ثوبه الطويل . وضع فيها البيوض الست ، واحدة بعد أخرى ، وهو يهز أصابعه الأيامن ، كل مرة ، من سخونة ملمسها . ضمَّ حاشية الثوب عليها كصُرَّة . بدت ساقاه عاريتين حتى الركبتين . ابتسمت راحيل لمرآه .

عاد كيهات من وراء راحيل بالبيضات إلى الغرفة ، حيث لينا تصغي بعدُ إلى كلام يُذاع بالإنكليزية . التفتت الفتاة إليهما . ضحكت وهي تغلق المذياع ، ناهضةً عن الكرسيِّ القشِّ المقعد .

هرع كيهات إلى المنضدة الدائرية أمام الأريكة ، عارفاً سبب ضحك لينا من ساقيه المكشوفتين من رفعه حاشية ثوبه بالبيوض فيها . وضع البيضات الست فوق المنضدة اثنتين اثنتين ، على عجلٍ . تنفس مرتاحاً حين أرخى ثوبه منسدلاً حتى عقبي قدميه في الخُفَّين .

«لينا» ، نادت راحيل ابنتها . «هاتي كيساً ورقياً من الحانوت» .

«أتريدين كيساً ، أم شريحة ورق؟» ، سألتها لينا .

«أريد كيساً» ، أكدت راحيل .

لدى راحيل في حانوتها أكياسُ ورق أيضاً ، عدا الشرائح الورق تلفُّ بها اللحم لزُبنها . أكياس كبار ، ومتوسطة ، وصغار ، لِمَا يلزم بيعُه من بضاعة حانوتها في أكياس ، وليس في شرائح ورق .

«من أي حجم تريدين الكيس ، يا أمي؟» ، سألتها لينا .

«ما يسع رغيفي الخبز هذين وبيضتين» ، ردت راحيل .

«كيس كبير» ، تمتمت لينا دعْماً بالكلمات المُعْلَنة لتقديرها حجم

الرغيفين المعفَّرين رماداً حتى بعد نفضِهما ، إضافة إلى بيضتين . خرجت . عادت بكيس كبير من الورق البيْج اللون ، مضغوطاً بعضه على بعض كبنطال مكوي . فتحت شقَّيْهِ المنطبقَين بأصابعها مقداراً صغيراً . نفخت في الشقِّ فانفتح الكيس . وضعت الرغيفين وبيضتين فيه . أوقفت الكيس على قاعدته فوق المنضدة .

حملت راحيل الكيس . طوت طوقَ فُتْحته من أعلى طيَّتين إلى أسفل ملفوفتين . رفعت الكيس إلى كيهات :

- خُذْ . لك الرغيفان والبيضتان .

استغرب كيهات مدَّها الكيس إليه . عقَّب :

- آخذ الكيس إلى أين؟

«إلى البيت» ، ردت راحيل مبتسمة من منطق سؤاله .

مدَّ كيهات يده اليمنى ، على مهل ، يتسلم منها الكيس ، كأنَّ في الأمر سوءَ فَهم : لقد صرَّحت راحيل ، قبلاً ، أن البيضات المشوية ستكون عشاءهم ، لكنْ لم يَحِنِ وقتُ العصر بعد .

«ألن نأكل بَيضاً على العشاء؟» ، تساءل كيهات بنبرٍ مكسور قليلاً .

«بعيدٌ وقت العشاء ، يا كيهات» ، ردت راحيل . «تستطيع العودة إلى البيت الآن» .

كان ذلك إيذاناً مهذَّباً من راحيل برغبتها في انصرافه . وإذ سار كيهات للخروج من الغرفة ، ببعض الخذلان في قلبه ، هتفت به سيدة البيت :

- أنا ممتنَّة لك أنني سأتذوق البَيضَ المشوي أولَ مرةٍ هذا اليوم .

تلفَّت كيهات من حوله التفاتاً لا معنى له . مرَّ ببصره على المذياع ، وعلى لينا ، وعلى الساعة ذات الجرسِ المطرقة ، ثم إلى راحيل مودِّعاً :

- أراكما الأربعاء . سأحضر لأشتري لحماً .

خرج كيهات من منزل راحيل بالكيس الكبير في يده اليمنى . أطبق البوابة من خلفه . مشى بطيئاً مشدودَ القلب إلى الوراء . سَلَك نهايةَ الشارع جنوباً إلى الأرض العراء ، ليتَّخذ زوابع الغبار الصغيرات رِفْقةً في العودة قوسياً إلى البيت ، من الجنوب إلى الغرب . لَفَتَه قدومُ الكهل بنيامين من الطريق الإسفلت المستقيمة ، محاذياً سور منزل الجزار بنحاس المغلق الحانوت . توقف يترصَّده .

لمح بنيامين الفتى المراهقَ واقفاً . أبقى بَصرَه عليه في مشيه المتمهل بالثوب الرمادي الطويل ، المخطط الحواشي بياضاً ، والشال الأصفر على رأسه مخطَّطاً بياضاً . أبطأ خطواته حتى كأنه سيتوقف فضولاً من نظرة كيهات ، المسدَّدة إليه في وقفته على الأرض العراء ، قريباً من نهاية الرصيف بحدوده لا يتعدَّاها مُذ لا بيوتَ بعد منزل راحيل جنوباً .

أبقى أحدهما بصره على الآخر ، في فضوليْنِ لم يتبادلا سطورَ مضمونيهما .

قرع بنيامين منزل بوابة راحيل ، وهو بعدُ ملتفت بوجهه إلى الجنوب الغرب .

في اللحظة التي فُتحت فيها البوابة رفع كيهات ذراعه اليسرى عالياً . لوَّح بها تحيةً للكهل بنيامين المنحني الجذع قليلاً . استدار مكملاً مشيته قوسياً من الجنوب إلى الغرب في العراء ، فيما كان في مستطاعه أن يسلك الطريق الإسفلت ، القصير المسافة غرباً إلى البيت غير البعيد .

ربما تمنَّى كيهات ، في مراقبته الكهل ، أن يكون هو الداخل إلى منزل راحيل . حسدٌ مَّا ، خافتٌ ، أبقاه مترصداً بنيامين يقرع البوابةَ فَتُفتَح له .

وصل كيهات إلى البيت . دفع البوابة مكتئباً قليلاً . مشى في الباحة الحصى . تطلع إلى أبيه خارجاً من المرحاض بالإبريق النحاس في يده . وقف :

– أعُدت باكراً من العمل ، يا أبي؟
«عدتَ أنت متأخراً إلى البيت» ، ردَّ أبوه .
«أليس الوقت صباحاً بعدُ؟» ، عقَّب كيهات متظارفاً .
لم يعقِّب أوسي على فكاهة ابنه الضحلة . حدق إلى الكيس في يده اليسرى . سأله :
– ماذا تحمل؟
«أحمل كيساً» ، ردَّ كيهات .
«أعرف الأكياس ، يا نبيَّ الفكاهات» ، قال أوسي معقِّباً . أضاف : «أتحمل نوادرَ جِحَا في الكيس؟» .
اقترب كيهات من أبيه . ثنى طيَّاتِ طوق الكيس عكساً حتى بانَ ما فيه .
«أهذا خبز؟» ، تمتم أوسي . سحب رغيفاً يتأمله : «مِن أيَّة تنور متهدمة سرقتَ هذين الرغيفين؟» .
«من تنور الجزَّارة راحيل التي لم تتهدَّم بعد» ، رد كيهات .
«من تنور راحيل؟!» ، تمتم أوسي مستغرباً . «أدخلتَ منزلها وسرقتَ الرغيفين؟» ، سأله أبوه بعينين جحظتا فضولاً .
«لا يا أبي» ، رد كيهات بنبرٍ فيه استياء من التهمة . أردف : «أعطتني راحيل الرغيفين ، والبيضتين المشويتين» .
وسَّع أوسي طوقَ الكيس بيده اليسرى ينظر إلى عمقه . تمتم :
– أرى بيضتين حقاً .
«نعم» ، تمتم كيهات بدوره .
«لِمَ أعطتكَ الجزارة اليهودية هذين الرغيفين المحترقين ، والبيضتين؟» ، سأله أبوه .
«ساعدتُها في العَجْن ، وإيقاد التنور ، وشَيِّ البيضات» ، رد كيهات .

هأْهأَ أوسي متفاجئاً . لم يعقِّب . أسرع الخطى في ثوبه الطويل إلى غرفته ، مدفوعاً بنبأٍ مفاجأةٍ لزوجته . صاح وهو على بُعد خطوتين من باب الغرفة الموارَب :

- هدلا .

تناهى إليهما صوتُ الأم ناعساً ، متشكِّياً :

- أنا نائمة . لِمَ تُنادي؟

«أبنُك باتَ فرَّاناً» ، قال أوسي أولَ دخولهِ إلى الغرفة ، مجتازاً عتبتها .

رفع موسى رأسه عن الوسادة ، في ركنٍ من الغرفة شهدتْ نصفَ قيلولة العائلة قبل أن يقطعها صوتُ الأب منادياً زوجته . صاح :

- أأنتم دجاج؟

«مَن الدجاج ، يا موسى؟» ، سأله أباه .

«كلُّ من في هذا البيت» ، ردَّ موسى ممتعضاً من أن يختصر قيلولته . نهض جالساً على البساط اللبد . هتف بأخيه : «ماذا في الكيس؟» .

«رأس طرْزان» ، رد كيهات ساخراً .

حدق موسى إلى أخيه بعينه اليسرى مغمضاً اليمنى :

- وجد أبوك عملاً لك .

«عمل لي؟!» ، تساءل كيهات متفاجئاً .

قاطعتهما هدلا سائلة زوجها ، وهي تردُّ خمارها المنسلتَ الأسود ، المرقَّطَ دوائرَ حُمراً ، على رأسها :

- لماذا أيقظتني ، يا أوسي؟

«لأخبرك أن كيهات صارَ فرَّاناً» ، ردَّ أوسي .

«واو» ، صاح موسى مبتهجاً :

- أوجدتَ عملاً في فرن ، يا كيهات؟

«وجد عملاً في فرن الجزَّارة اليهودية» ، ردَّ أوسي وهو يضع الإبريق

النحاس في الزاوية ، قرب الباب ، متجهاً إلى مذياعه .

تعالت الهمهمات من حنجرة هدلا وابنها موسى ، يستفهمان ربَّ العائلة قصدَه الملتبس ، فردَّ كيهات بنفسه :

- لم أجد عملاً في أيِّ مكانٍ بعد . كلُّ ما هناك أنني ساعدتُ الجزَّارة راحيل في العجْن ، وإيقاد التنور ، وشَيِّ البيوض .

«شيُّ البيوض؟» ، تساءل موسى بصوت مرتفع .

دسَّ كيهات يده في الكيس . أخرج البيضتين المشويتين ، المتشقِّقتي القِشر .

«يا الله» ، صاح موسى متصنِّعاً ذُعراً : «أهاتان خصيتا شمشون؟» .

«اللعنة عليك» ، صرخ به أبوه .

«ماذا قال؟» ، تساءلت هدلا .

«خُذْ أخاك إلى الجزَّارة اليهودية ، يا كيهات . فلتقشِّرْ لسانه بسكينها» ، قال الأب مستفظعاً وقاحة ابنه .

نهض موسى واقفاً ، متجاهلاً توبيخ أبيه . أسرع يتفحص جوف الكيس :

- ما هذا؟

«خبز» ، ردَّ كيهات تمتمةً .

عقَّب أبوه على كلمته مستبِقاً شرحاً من إبنه :

- يا هدلا . جاءك ابنُك برغيفين من تنور الجزَّارة اليهودية .

«خبز؟» ، تمتمت هدلا وهي ترفع طاسة الماء إلى فمها .

«خبز محترق» ، قال أوسي .

«ليس الرغيفان محترقين إلاَّ من بعض أجنابهما» ، قال كيهات مخفِّفاً من فداحة الحريق أصاب باطنيِّ الرغيفين وظاهريهما المحدَّبين ، المعفَّرَيْنِ رماداً .

«أرِ أمَّك ما يخبزه اليهود» ، قال أوسي لابنه .

أخرج كيهات نصف الرغيف المكسور من الكيس . عرضَه أمام بصر أمه :

- لُبُّ الرغيف ليس محترقاً .

مدت هدلا يدها إلى النصف الرغيف في يد ابنها . تأملت شكله المتعوِّج . عقَّبت متسائلة :

- أتتعمَّد اليهودية أن تلقي بعجينها في رماد التنور؟

تنهَّد كيهات وهو يُخرج بقية الرغيفين من الكيس :

- أنا صنعتُ هذا الخبز ، يا أمي .

«أنت؟» ، تساءلت أمه متعجبة . أردفت : «أسمحتْ لك بإلقاء العجين في جمر التنور؟» .

«سقط قُرصا العجين ، يا أمي ، حين ألصقتُهما بباطن التنور» ، شرح كيهات الأمرَ بنبرٍ عالٍ ، مختصراً أن يُسأل .

علَّق موسى :

- صار عندك عملان : صنعُ الخبز المحترق ، وبيعُ أكياس الخيش .

نظر كيهات إلى أبيه مستوضحاً :

- أهذا هو العمل الذي وجدتَهُ لي؟

«نعم» ، ردَّ أبوه جالساً على البساط يشعل لفافة تبغ .

«عند زنابيلي الحمصي؟» ، سأله كيها ، فردَّ أبوه باقتضاب :

- نعم .

تدخَّل موسى :

- سيكون هذا صيفُك الثاني في بيع أكياس الخيش .

«متى أبدأ العمل؟» ، سأل كيهات أباه .

«سأصحبك معي صباح غدٍ في الطريق إلى عملي . حميد زنابيلي

الحمصي عرض عليَّ أن يستخدمك هذا الصيف أيضاً في بيع أكياس الخيش» ، قال أوسي .

جلس كيهات على البساط اللَّبْد . ثمَّت انشراحٌ عَبَر كيانه : سيُحصِّل نقوداً تكفي الصيف ، وما بعد الصيف الخامل ، لا رتياد دُور السينما ، والمسبح ، وشراء التبغ ، والفستق من البائع السوداني مُضاعَفاً ، واستئجار دراجة هوائية أيضاً أيام الجمعة . لكنَّ لكزةً خفيفة من عضلة قلبه اليسرى على اليمنى أجفلتْه إجفالةً لا تُلحَظ : لن يستطيع ، في الأرجح ، أن يزور حانوت راحيل ، يوم الأربعاء ، لشراء لحم .

خفَّف عقلُ كيهات عنه : في إمكانه أن يزور الحانوت يوم الجمعة متبضِّعاً ، بلا حاجة إلى اقتطاع فرنكات مِمَّا يعطيه أبوه لشراء كيلو من اللحم . سيشتري الكيلو كاملاً . سيكون معه مالُهُ هُوَ ، الذي يناله يومياً كالصيف السابق في بيع أكياس الخيش ، المُعدَّة للقمح والشعير : ليرة كل يوم .

«أطعِم الدجاجات خبزَكَ المحترق ، يا كيهات» ، اقترحت أمه . «أنقعْه في ماء . أَعِدْهُ عجيناً . سيعجبهن العجين من منزل المرأة اليهودية» .

حمل كيهات الكيس . حمل الطاسة . هَمَّ بالخروج فناداه أخوه الصغير :

- إلى أين تأخذ الكيس؟

«سأطعم الدجاجات الخبزَ الذي فيه» ، رد كيهات .

«أفْرِغ الكيس وأعطِنيْه . يبدو جديداً» ، قال موسى .

«ماذاَ ستصنع به ، يا طَرْزان العروبة» ، سأله كيهات ، فردَّ موسى :

- سأبيعه للبقال الحلبي .

«بكمْ ستبيع هذا الكيس؟» ، سأل كيهات أخاه . أردف باللغة العربية ساخراً : «يا تاجرَ الأمة العربية الواحدة» .

«سأساومه على فرنكين» ، ردَّ موسى .

«أسيشتري هذا الكيس منك بفرنكين ، يا حمارَ الأمة العربية؟» ، تساءل كيهات ناطقاً نصفَ جملته الأخيرَ بالعربية .

«حتى لو اشتراه البقال الحلبي بنصف فرنك ، فلن يكون أكثر ذكاءً من حمار مثلك» ، رد موسى .

«لا كيسَ لك ، يا أمعاء الدجاجة . سأمزقه حين أُفْرِغُ ما فيه» ، قال كيهات مستاءً ، ماشياً حافي القدمين .

نهض موسى متوسلاً :

– لم أعْنِ حقاً أنك حمار ، يا كيهات . أعطِني الكيسَ تكُن نجمَ السينما العربية ، والهندية ، والإيطالية .

«ماذا عن السينما الأمريكية ، يا طرْزان؟» ، سأله كيهات .

«لا . أنت أكبر من نجوم السينما الأمريكية ، المصنوعة في دولة هزمَها حزبُ البعث بمنع أفلامها ، يا أخي الآغا ، البَيْك ، الباشا ، كيهات» ، رد موسى في نَفَس لم يقطعه . أردف باللغة العربية : «يا فخامة الرئيس المُبجَّل كيهات» .

«أهذا اعتذارٌ؟» ، سأله كيهات .

«نعم» ، رد موسى .

«سأعطيك الكيس مكوياً . لا تَبِعْه بأقلَّ من نصف ليرة» ، عقَّب كيهات ساخراً .

نفخ أوسي زفيراً صاخباً من رئتيه . خاطب زوجته :

– ولداكِ ، يا هدلا ، سيكونان دهَّانين ذات يوم .

«دهَّانان؟» ، تمتمت هدلا . أضافت : « ماذا تعني؟ أسيطليان جدران البيوت بالجِيْر؟» .

«أكثر من ذلك ، يا روحي» ، رد أوسي .

التفت كيهات إلى أبيه متسائلاً :

- أكثر من ذلك؟ ما الذي تعنيه ، يا أبي؟

«لا أعرف» ، اختصر أوسي المحاورة . نظر إلى زوجته : «هل مِن بطيخ أحمر في البيت؟» ،أعاد بصره إلى يد ابنه اليسرى : «إلى أين تأخذ الطاسة؟» .

خرج كيهات بالكيس في يد ، وبالطاسة الفارغة في الأخرى . مضى إلى البئر . وضع الكيس والطاسة على الأرض الحصى ، إلى جوار قاعدة طَوْق البئر . أنزل الدلو الصفيحية إلى الأعماق الرطبة من أنفاس الماء الظامئ إلى التذكير به عنصراً لا يُجادَل في بَيْعته إلهاً بين العناصر . أخرج الدلو الممتلئة . سكب بعض ما فيها في المجرى الضيق بين الحصى إلى حقل الورد . وضع الدلو على طَوْق فوهة البئر العريضِ . فتَّت كسرةً من الرغيفين في الطاسة . صبَّ على الكسرة ماءً . عجنها بأصابعه ناظراً إلى حقل الورد المستطيل مدَّت الدجاجاتُ من ظلٍّ شجراته أعناقَهن فضولاً ، مكتسيات لحماً يُؤبَهُ له تحت أرياشهنَّ المنتفخة رَواءً .

حين انعقدَ الخبزُ المفتت ، المنقوعُ في الماء ، عجيناً ، أحاله كيهاتُ كراتٍ لزجةً رمى بها إلى الدجاجات اللواتي هرعن ، بالجشع اللطيف فيهن لا يوفِّرن إدخالَ طعام على طعام ، كأنهن في خوف أن لا يظفرن ـ حتى لو شبعن ـ بمأكول آخرَ . وذلك أمر جيد على أية حال : سيكثُر لحمُهن . سيكثُر الشحمُ تحت جلودهن الشهية .

تزاحمت الثلاث الدجاجات على كرات العجين المائعة قليلاً تساقطت قربهن تباعاً ، رمى بها كيهات الواحدة بعد الأخرى إليهن . كُنَّ قادراتٍ أن يستفردن كلٌّ بكُرة لنفسها ، لكنهن تناتشن العجين بالمناقير من كُرةٍ بذاتها لا ينصرفن إلى أخرى إلاَّ بعد استنفادها .

جلس كيهات على الأرض الحصى ، مستنداً بظهره إلى جدار طوْق

البئر ، يرقب الدجاجات في أرياشهنَّ الروعة تلاوينَ ، وتعاريقَ نقوشاً على ظهورهن ، وأجنحتهن ، متتبعاً تماوجَ اللون انقلاباتٍ على ريش صدروهن كلما تحركن ، من تتابع في انعكاس الضياء المنزلق بزيته المضيء على ذلك الريش القصير ، المتماوِج من حركة أعناقهن إذا رفعنها يراقبن ما حولهن بعد كل نتشةٍ ، وإذا خفضنها عودةً بالمناقير لالتقاط طعامهن الجليل من عجين القمحِ ـ البزرِ الذي سار به خيالُ الأرض فوق جسور الزمن ، وتحت جسوره ، إلى انتصاره كمالاً على كل بزرٍ آخر ، مختاراً لا تُدْحَضُ فرادتُه ، ولا تُقَاوم سيادتُه على أقاليم النبات في ممالك الظاهر ، وجهات الباطن التِّسْع والتسعين .

تفكَّر كيهات ، وهو يرقب الدجاجات ، في بناء قُنٍّ لهنَّ تصوَّره من ألواح خشب سقفاً ، وجدراناً ، وأرضاً يغمرها بالقشِّ لرقودهن ، إلى جوار التنورً في باحة بيتهم ، بباب من الشبك المعدن يُغلق عليهن مساءً .

كانت نظرته إليهن ممتنَّةً لقراره أنه اشتراهنَّ الثلاثَ بثمن دجاجتين : إنهن الثلاث يساوين ، الآن ، سعرَ أربع دجاجات ناضجات الجلود شحماً ، متألقات الجسوم سُمنةً بصدروهن العِرَاض .

سمع كيهات ، من بُعْدِهِ ذاك ، صوتَ أبيه :

– أين طاسة الماء ، يا كيهات؟

تَلَا صوتَ أبيه صوتُ أخيه موسى منادياً :

– أين الكيس ، يا كيهات؟

نهض كيهات من جلوسه على الحصى حافياً . غسل الطاسة ، التي نقع فيها الرغيفين كِسَراً أحالَها عجينةً ، بما تبقى في الدلو من ماء . حدَّق إلى الدجاجات . وَعَدَهنَّ :

– يلزمكُنَّ ديكٌ . لا تقلقن ، سأشتري لكُنَّ ديكاً .

في الصباح الباكر ، بعد إفطار من الشاي والخبز والجبن ، ركب كيهات

المقعد الخلفي لدراجة أبيه ، ذات العجلتين الغليظتين ضِعْفَ عِجَال الدراجات الهوائية الأخريات : تلزمُ دراجة النوع «هيركوليس» عجلتان غليظتان ، قويتان ، كَسَاقَيْ ابن الآلهة في أساطير العالم المعقول .

قاد أوسي الدراجة ، في بنطاله وقميصه البِيْج ، معتمراً قبعته القش الواسعة الأحفة ، متنكباً حقيبة الجابي ، بلفافة تبغ في فمه . سعل مرتين من ثقل قيادة الدراجة بابنه على المقعد المستطيل المتشابك القضبانِ الحديد من ورائه ، ومن دخان التبغ شهق به إذ تنشَّقه : التعبُ لا يناسب لفافة التبغ . لفافةُ التبغ لا تناسب التعبَ .

«أتريدنِي أن أقود الدراجة ، يا أبي؟» ،سأله كيهات متأسياً عليه من سماعه سعاله .

«أتظنني تعبت ، يا شاهنشاه؟» ،سأله أبوه موبِّخاً .

«لا» ، ردَّ كيهات . أردفَ : «التدخين مزعج إذا كان حِمْلُ الدراجة ثقيلاً ، يا أبي» .

«أنت خبيرٌ» ، عقَّب أوسي . أضاف : «كم تَزِنُ ، يا خبير؟» .

«لا أعرف ، يا أبي . خمسون كيلو ربما . ستون . سبعون» ، رد كيهات .

«سبعون كيلو؟» ، تساءل أوسي مستهجناً الرقمَ الواسع على جسد ابنه النحيل ، المائل إلى قِصَر .

«سأزن بدني على أول ميزانِ أكياس القمح أجدُه» ، رد كيهات .

قاد أوسي دراجته في الشارع الرئيس إلى سوق التجار ، في الوسط الغرب من المدينة . نزل هو وابنه عن دراجة هيركوليس الحمراء الدِّهان ، الثخينة حديدِ الهيكل . دخلا السوق المسقوفة بالإسمنت ، في أعاليه كُوى صِغار من الزجاج السميك سماحاً لضوء السماء بالعبور إلى جوفها الشبيه طولاً بدهليزِ شاحب ، تتقابل على جهتيٍّ ممرِّها العريض حوانيتُ بأبوابٍ صفيح ، تُعلى لَفائفَ إن فُتِحت ، وتُرخى نزولاً حتى الأرض فتُغلق

بالأقفال من حلقاتها الموصولة بحلقات مغروزة في الإسمنت .

في نهاية ممرِّ السوق جنوباً مقهى واسعٌ ، مترام ، ينتهي جداره الجنوب على رصيف الشارع الموازي للشارع الرئيس في الجهة الشمال . طاولاته المربعة ، المغطاة بقماش من مربعات زرق وحمر ، تتمدَّد من داخله إلى الممر العريض ، المسقوف خارجه . شايٌ كثير ـ في أقداح صغار ، مخصَّرة ـ يصحب ثرثرات التجار ، وعملاء التجار ، مؤانَسَةً أحياناً ، وعقداً للصفقات في أحيان كُثرٍ أُخَر .

تجارة القمح والشعير تتنفس ، بعامَّةٍ ، أنفاسَها المريحة على الكراسي الخشب ، القصبِ المقاعد ، في مقهى سوق التجار . حركة لا تهدأ حتى المساء . مراجَعاتٌ من سائقي الشاحنات لأرباب أعمالهم . مساومات على الحصاد ، وعلى نقل المحاصيل . عُروض لعيِّناتٍ بضائع التجار من بزور القمح في مناديل قماش ، على تبادل للثقة بين البائعين والشارين أن تلك العيِّنات هي ما تحويه أكياسُ الخَيْش الضخام من قمحهم .

بزورُ قمح سمينة . بزور نحيلة . بزور طويلة . بزور قصيرة ، وبزور فيها نقاط سود على رؤوسها ، من أثر التسوُّس . هذا الصنف المعتلُّ يُباع رخيصاً مذ لا يصلح إلاَّ لشراء الفقراء يطحنونه ، ويخبزونه بلا نقْد لصنفه : لا ينقُدُ الجوعُ ما يُشبِعه ما دام لا يقتل الجائعين . وهُمُ الفقراء يأكلون خبزَ القمح المنكوب بدودة السُّوس مذ لا يقتلهم .

تجارة القمح والشعير تحتاج إلى أكياس . حوانيتُ باعة الأكياس الخَيْش ، الخشنةِ الخيوط القُنَّب ، موزَّعةٌ على الأماكن الأقرب إلى مَجالسِ عقْدِ صفقات البيع والشراء ، ومواعيد الحصاد . حانوت حميد الزنابيلي ، إبن مدينة حمص ، هو الأكبر في سوق التجار ، بالرغم من ضيْق مساحته ، لكنه يستخدم بيته في الحيِّ الغربيِّ مخزناً للأكياس .

عند الزنابيلي أكياس جديدة تأتيه رِزَماً بالجملة ، مطوَّقة بأحزمة من

المعدن عريضة . والأكياس هذه على نوعين : واحدٌ يسع مائة كيلو غرام ، ذو خط أزرق عريض على استدارته طوْلاً . وثانٍ يسع مائة وعشرين كيلو غراماً ، ذو خطين أحمرين عريضين ، على استدارته .

يجاور هذين النوعين الجديدين ، المكدسين إلى جوار الجدران حتى السقف ، الملتمعَيِّ الخَيش عافيةً من أنها لم تُستخدم بعدُ ، نوعٌ ثالث هو الأكياس المستعملة ، يشتريها الزنابيلي رخيصةً مِن كل مَن يحمل بعضها إلى حانوته بسعر زهيد ، ثم يبيعها بعد رَتْقِ فتوقها ، وتخييطها ، وترقيعها ، بسعر مُربح .

إبن الزنابيلي ، بشير هو الذي يتولى ترميم الأكياس المستعملة بآلة خياطة تُدار بالقدمين في حانوت أبيه ، لتُباع بسعر يعادل ثلاثة أضعاف ثمن شرائها ممَّن يريدون تخلُّصاً من أكياس لا يحتاجونها ، أو لم تعد صالحة للاستعمال . والثلاثةُ الأضعاف ، الربحُ ، لا تُبقي هذه الأكياس المُرمَّمة ، على أية حال ، إلاَّ رخيصةً للشاريْنَ ، مذ تكون الأكياس المرمَّمة قادرة على احتواء سبعين كيلو غراماً من أيِّ بزرٍ كان .

أسند اوسي دراجته إلى الجدار قرب بابٍ حانوت الزنابيلي ، الواقع قريباً إلى مدخل السوق ، من جهة الشارع الرئيس شمالاً . دخل مع ابنه . بادَرَ صاحبَ الحانوت :

– مرحباً ، يا حميد .

كان الزنابيلي يرتب ، على منضدة مستطيلة ، بعض الأكياس المتراكمة فوضى من يوم تجارته السابق . استدار إلى أوسي وابنه في لحيته البلقاء ، المهملة حلاقةً ، ممتدة الشعر من وجهه إلى أسفل عنقه ، لكن بلا استطالة . ردَّ بصوته الأجشِّ :

– حيَّاكَ الله ، يا أخي أوسي .

التفت أوسي بوجهه إلى ابنه الذي يجاوره عن يساره :

- لا تشفق ، على كيهات في العمل ، يا حميد . له قوة طَرَازونة .
أنْجَدَ كيهات أباه :
- اسمه طرْزان ، يا أبي .
«طرزان؟» ، تمتم حميد ، ذو السروال البني ، الواسع جداً بالوصلة القماش المنفوخة ، المتدلية بين فخذيه حتى الركبتين ، من الطراز المنسوب الهيئة إلى أهل حلب . لكنه طراز من السراويل شائع تعرفه الناس من أرض اليونان حتى أرض الأكراد في جبل هكّاري .
«كيهات قوي مثل طرْزان» ، تباهى أوسي بمعرفته اسماً من أسماء عوالم الصِّور الصامتة ، والناطقة ، في الأفلام .
«مَنْ؟» ، تساءل حميد المتوسط الطول أقربَ إلى بدانة ، ذو العينين الشهلاوين فيهما غرابة من طغيان اللون الأزرق على اللون الأسود مَزْجاً .
التفت أوسي إلى ابنه . حضَّهُ :
- اشرح للأخ حميد مَن هو هذا .
«أشاهدتَ أفلاماً ، يا سيد حميد؟» ، سأل كيهات صاحبَ الحانوت .
«سينما؟» ، تمتم حميد مستنكراً ، مرفوع اليدين في خِنْصَريْ أصابعهما خاتمان ذهبيان ، ذوا فَصَّين فيروزيْن . أردف : «ينبغي حَرقُ من يرتادون دُورَ السينما» .
«لماذا ، يا حميد؟» ، سأله أوسي مستغرباً حُكْمَه العنيف ، فردَّ الرجل ذو السترة البيج فوق سرواله الشاسع الواسع :
- هذه صناعةُ الإفتراء على الله تقليداً له .
«بِمَ يفتري صانعو الأفلام على الله ، يا أخي حميد؟ بِمَ يقلِّدونه؟» ، سأله أوسي متفاجئاً من منطق الزنابيلي .
«يُحْيُونَ الأشباحَ بثاً للروح فيها» ، رد حميد وهو يوقظ بلمسة مروحته الكهربائية ، الصاخبة ، بأجنحتها الفَرَاشية . دار عنقُ المروحة نفخاً بزفيرها

من جهة إلى جهة ، في الجوف الخامل ، الخامد ، داخل الحانوت ، الساخن الهواء المُحْتَبس بالرغم من أن الوقت صباحيٌّ بعدُ ، مُذ لا نوافذ في الحانوت .

«كيف يُحْيُونَ الأشباحَ؟» ، تساءل أوسي ، فرد الرجل البالغ الثامنة والخمسين :

- صورٌ تتحرك أمامك ، يا أخي أوسي ، وتتكلم كالبشر مثلك ، ومثلي . أشخاصٌ غيرُ موجودين يتكلمون ويتحركون . صورٌ فارغة ملأوها أرواحاً . نُفختِ الأرواحُ في صور أشخاص لا تستطيع لمسَهم . كيف فعلوا؟ كيف اجترأوا على الله؟

«فلْنتركْ هذا الشرح للفقهاء ، يا أخي حميد» ، عقَّب أوسي .

«أنا أتكلم بما يقوله الشرع» ، قال حميد .

«لا أفهم في الأمور الشرعية ، يا أخي حميد» ، عقَّب أوسي . نظر إلى ابنه : «جئتك بكيهات . عليَّ الإسراع إلى عملي» ، قال وهو ينقر بأنامله على الحقيبة المنطبقة معلَّقةً بحِمَالَتها إلى عاتقه .

«أنت مثل أخ لي ، يا أخي أوسي» ، قال حميد مجاملةً . أردف : «ابنك ابني . لن أحمِّله من العمل ما يُرهقه» . نظر إلى ساعة الجيب أخرجها من باطن سترته : «إبني بشير كسولٌ منذ انتهت الحرب . يحضر متأخراً» .

خرج أوسي من الحانوت إلى دراجته ، ذاهباً إلى العمل جابياً مستحقَّات الدولة من المنازل المتحصِّنة ، في عصر الكهرباء ، بحُماة من الأرواحِ الكهربائية ، وحُماة من الملائكة الكهربائيين ، وبأحلام تُضاءُ وتُطفأ كبْساً على أزرارٍ لم تعرف السماءُ كيف تضعها مُلصَقةً بجدران البيوت ، كي تُسرِّب من الشمس ضياءً في أسلاكِ الليل النحاس ، إلى العالَم .

«فُكَّ الأحزمة عن الرِّزمتين هناك ، يا كيهات» ، قال حميد ذو الشال

الأبيض بخطوطٍ صُفر ، طوالٍ ، عَصَبَ به رأسه كعمامة واطئة ، مُرخاةِ الحواشي على كتفيه وظهره .

عَمَدَ كيهات ، من فوره ، إلى آلة قطْع الأطواق المعدنية الرِّقاق لُفَّت بها رزم الأكياس الجديدة . وَسَّعَ بين مقبضيها الطويلين ، فاتحاً فكَّيها الحديديين ، القويين ، لا تصْمَد من عَضِّهما الأطواق المشدودة ملتحمةً على الرِّزم . وضعَ الفكَّ السفلي ضغْطاً تحت الطوق المعدن . أطبقَ عليه الفكَّ العلوي . طنَّ الطوقُ إذ بُتِرَ . نَبَضَ مُصْدِراً رنيناً . ارتدَّ طرفاه إلى جانبيِّ الرِّزمة كأنه مطَّاطٌ تحرَّر من ضمٍّ بعضه إلى بعض .

على كل رزمة من الأكياس الجديدة طوقان معدنيان . قطع كيهات بالآلة اليدويةِ ـ المقصِّ المعدن ـ أربعةَ أطواق . جَذَبها من تحت الرزمتين . كوَّمها في رُكن مع أطواق أُخَر كانت هناك ، سيحملها الزنابيلي حُزُماً في سيارته البِيْك أبْ ، كما يفعل كل بضعة أيام ، إلى حوانيت الميكانيكيين الأرمن ، الساهرين على صيانة الحياة في المَرْكَبات السيارة ، يلْحمون بها ما يحتاج لحَاماً .

كوَّم كيهات الأكياس بعد تحريرها من الأطواق ، على قُرب من منضدة الزنابيلي الخاصة بعرض بضاعته على الأبصار . الذين يشترون من الزنابيلي أكياساً بالجملة ، يُعينهم كيهات في نقلها من الحانوت محمولةً على كتفيه إلى سياراتهم . ومَن يأتون لشراء أكياس مُفردة ، جديدة أو مستعملة ، يعينهم كيهات على لفِّها اسطوانياً ، ويربط استداراتها بالخيوط القُنب تسهيلاً للشارِيْنَ على حملها .

دخل بشير ، ابن حميد الزنابيلي ، بعد نصف ساعة ، أو أكثر ، من اشتغال كيهات على تنفيذ بعض الأوامر من صاحب الحانوت . هتف في دخوله بلكنة من عربية أهلِ حمص :

– بكَمْ اتفقتَ على الأُجرة اليومية مع أبي ، يا كيهات؟

حدَّق إليه أبوه بنظرة زاجِرة ، رادعة :

- ما هذا السؤال؟

فَهِمَ بشير نبرةَ التوبيخ في صوت أبيه . ابتسم لكيهات :

- جيدٌ أن تعمل معنا هذا الصيف أيضاً .

أبدى كيهات من وجهه سروراً ، في تحديقه إلى بشير الشاب ، الشبيه هَيئَةً بحميد ، ابن الحادية والعشرين أُعفي من الخدمة العسكرية لأنه وحيدُ أبويه . لكنه لم يفهم تلك الإشارة منه إلى الأجرة اليومية في سؤاله . أدار بصره إلى صاحب الحانوت . كلَّمه اختصاراً :

- أأُجرتي هي ذاتها كالصيف السابق ، يا سيد حميد؟

«ليرة وثلاثة فرنكات أيضاً» ، رد حميد مبتسماً .

مضى بشير إلى آلة الخياطة ، الأكثر خشونة بمعادن هيكلها من آلة خياطة الثياب . رفع كيساً عن الأرض إلى جوار الآلة ، من فوق هرم صغير من الأكياس . انكبَّ عليه تخييطاً لبعض الفتوق فيه .

راكم كيهات أكياساً مستعملة فوق أكياس ، في حركة كحركة جناحيٍّ الزيز . كلَّمَ صاحبَ الحانوت مسايرةً في مطلع وقت العمل :

- أأعطتك الدولة بندقية أثناء الحرب ، يا سيد حميد؟

«لستُ حزبياً . لستُ موظفاً في الدولة . لِمَ عليها أن تعطيني بندقية؟ لأقود انقلاباً عليها؟» ، تساءل الزنابيلي بصوته الأجش ، مقلِّباً أوراقاً في دفتر تجارته الأسود ، الطويل ، العريض ، المسطَّر خطوطاً زرقاً .

«أعطت الدولة أبي بندقية ، واستردَّتها منه في اليوم الثاني من انتهاء الحرب» ، عقَّب كيهات .

«كم طائرة أسقطها موظفو الدولة ، وحزبيُّو الدولة ، في القامشلي؟» ، سأله حميد مهأْهِئاً بنبرٍ ساخر . أردف إمعاناً في الهزء : «»لو أعطوني بندقية كنتُ أسقطتُ دبابةً طائرة في السماء» .

«دبابة طائرة؟» ، تساءل كيهات .

«دبابات اليهود لها أجنحة» ، ردَّ حميد .

ابتسم كيهات لدعابة صاحب الحانوت . استرسل في عمله يطوي أكياساً ، وينشر أكياًساً ، ويفصل أكياساً مستعملة ، أقلَّ عيوباً ، عن أكياس مستعملة منتهكة .

في اليوم الرابع ، من عمل كيهات بأجرة تبلغ ليرة وثلاثة فرنكات إضافية يومياً ، المصادفِ يومِ الأربعاء تحديداً ، لم يتوقف عقلُه عن تقويض الصُّور ، وترميم الصور ، باهتةً أو ساطعة ، من تخيُّله حانوت راحيل .

كان منكباً على الأشغال لا يُخطئ في تفصيلٍ ، بالرغم من وجود قلبه في موضع بعيد عن حانوت حميد الزنبيلي . يداه كانتا بصرَ الحفاظ على أدائه العمل بلا سهوٍ عن شيء . قلبُه كان بصرَ حقيقته في الطيران بجسد خفيف ، كزوابع الصيف الصغار في الأعراء ، إلى حانوت راحيل .

يوم الأربعاء هو يوم عودة الخطاطيف الحديد ، المتدلية من الأسطوانة الخشب على طول سقف الحانوت ، إلى عرض اللحم كما تشهَّاه الإنسان ، في مراحل النشوء ، مأكولاً نيئاَ ، فمشوياً ، فمطهواً على بدائع من تصنيف الطهاة مراتبَ سِحرهم لحماً يؤكدون به أن الفردوس الأولى ، في خيال الأديان ، لم تكن على قرب ألف مِيْل لذَّةً بأطعمتها من تشريعهم هُمْ لمذاق اللحم لَذاذاةً في الحياة الأرضية .

كان كيهات قد هيَّأ جسارة يقينه للعودة إلى حانوت راحيل يوم الأربعاء ، بعد مغادرته منزلها يوم السبت . وَعَدها ، ووعد ابنتها ، أن يزورهما شارياً اللحم مع أوائل الزُّبُن بعد الحرب . لكنه لن يفي بذلك الوعد ، الذي لن يتذكر أحدٌ إخلالَ كيهات به ، في الأرجح ، يوم الأربعاء . عليه ، إذاً ، تأجيل الزيارة إلى الجمعةِ ـ يوم العطلة .

غير أنَّ نقلَه وَعْدَ زيارة الحانوت زبوناً ، من يومَ الأربعاء إلى الجمعة ، لم يُنحٍّ عنه تصوُّرَهُ ما قد يكون الحانوت عليه في ذلك اليوم : زُبنٌ كُثر ـ أوْ

هكذا ينبغي لتخيُّله أن يبالغ ـ يتوافدون إلى حانوت راحيل ، بعد انحجابٍ طويل ، حيث لحم الضأن معروضٌ ، أخيراً ، بهياً أحمرَ ، بطبقات من نضارة الشحم فيه ، وبما في العظام من إغواء الدَّسم في نِقْيِها ، وغضاريفها : دَسَمٌ له مذاقٌ كتذوُّق جسدٍ لجسد مستعِراً من لواعج الغُلْمة .

لقد حضر الراباي ، قطْعاً ، من حلب يوم الثلثاء ، ليستوفي ذبحَ عدد من الضأن بنفسه في مسلخ المدينة ، على قدْر ما يحتاجه الجزارون اليهود . مهمته أن يَحْضر شاهداً على الختم الكبير بحبر أزرق على وَرْك الذبيحة ، تشريعاً من موظف وزارة الصحة بإباحة بيع ذلك اللحم خلْواً من عِلَل الحيوان ، لكنْ بلا كشف أو تشخيص لأحوال أولئك المخلوقات بتحاليل ، أو بسواها ، إلاَّ لَمْساً باليد ، من الموظف المبشِّر بإطلاق سراح اللحم ، على ظهر الحيوان ، وبطنه ، إضافةً ـ بالطبع ـ إلى تمحيصٍ بميزان النظر إليه ، أضأناً كان ، أم ماعزاً ، أم بَقَراً :

كلُّ حيوان لا يترنح هو حيوانٌ صالح طعاماً .

كل حيوان لا حَوَلَ في عينيه هو حيوانٌ صالحٌ أن يؤكل .

كل حيوان ليس هزيلاً ملتصق البطن بالظهر ، حيوان مباحٌ أكلاً .

كل حيوان لا يرتعش من مرأى نوعه يُذبح في المسلخ ، أمام بصرِهِ ، حيوانٌ صحيح اللحم يؤكل .

كل حيوان لا يتشكَّى من جلْبه جراً بحبل ، حتى لَيَكاد يلفظ آخر شهقة في رئتيه مختنقاً ، حيوانٌ صالح طعاماً .

كل حيوان لا ضغينة في عينيه على القائمين بسلخ الحيوانات معلقة إلى الخطاطيف الحديد ، في المسلخ ، حيوانٌ يؤكل لحمه هنيئاً .

كل حيوان رابط الجأش ، متَّزن الخطو في القدوم إلى الموظف المشخِّص عافيةَ حيوانات الذبح وعِلَلَها ، حيوانٌ جدير بالبيع لا يُحْذر أكلُه على أيِّ مذهبٍ من الطهو ، والشَّيِّ .

كل حيوانٍ واضحِ البراءة في حركاته حيوانٌ مصرَّح ببيع لحمه .

كل حيوانٍ لا يبعث صوتُه على الريبة في دخوله المسلخ ، إن كان يثغو ، أو يَخُوْر ، حيوانٌ هيَّأته حظوظُ البقاء ، في نشوء الأنواع ، لأنْ يؤكل شرعاً بعد الذبح في المسلخ ، وليس بالقتل غدراً ، أو قنْصاً ، أو سرقةً .

كلُّ حيوانٍ واضح على سحنته أنه لم ينتقد ، أبداً ، حيواناً آخر ، هو حيوان معافى ، طَيِّبُ اللَّحم مأكولاً .

كل حيوان يتأمل الذبح في المسلخ بعينين مفكِّرتين ، هو حيوانٌ ثقةٌ كمصْدَرٍ للحم الكريم .

كلٌ حيوان لا يتلفَّت من حوله مرتاباً ، هو حيوانٌ معافىً يؤكل ما فيه حتى أظلافه وقرْنيه .

كل حيوان له ذيل ، كالبقر والماعز ، وله أَلْيَةٌ كالضأن ، لا يهتز ذيلُه ، أو أَلْيته اضطراباً في دخوله المسلخَ ، هو حيوان متعةٌ مأكولاً .

كل حيوان ليس في نَبْرِ ثُغائه ، وخُوارِه ، محاكاةٌ للنشيد الوطني ، هو حيوان عَذْبُ اللحم مَضْغاً بين الأسنان .

لموظفِيْ وزارة الصحة ، في المسلخ ، تخاريجُ كُثُر للتشريع بصلاحية البهائم للذبح ، والبيع لحوماً في حوانيت المدينة : التحصيلُ الماليُّ جبايةً للبلدية عن كل ذبيحة تُخْتَم وَرْكُها بختم الحلال ، الأزرق الكبير دائرةً ، هو البرهان على طهارة اللحم ، وصحته ، ونقائه .

يتولى الراباي ذبحَ ما استحقه الجزارون اليهود من البهائم لحوانيتهم ، برضى موظفي وزارة الصحة . يجري النَّحر على حافة ساقية من الإسمنت سالت فيها دماءٌ غُسلت ، ودماءٌ جفَّت على أحفَّتها لم تُغسل . دماءٌ جديدة ، ودماء قديمة في معمعان الإيمان باللحم وقوداً للآلاتِ الأرواح في الأبدان البشرية .

تصوَّر كيهات شكل الضأن ، الذي أمسكت راحيل بصوف عنقه وهي

تسلّمه إلى الراباي في وزرته السوداء كوزرتها التي ترتديها في الحانوت : صوف كثيف ، أبيضُ ، جعْدٌ ، في عنقه جرس .

لِمَ تخيَّله كيهات بجرس في عنقه؟ ما حاجة راحيل إلى تطويق عنق الذبيحة بطوق يتدلى منه جرس؟ صحَّح كيهات تصوُّرَه :

كانت لينا هي التي تقود الحيوان الضأن إلى حيث يقف الراباي بسكينه العريض الصفحة ، الطويل ، يمرِّر الشفرة على مبرد ذي حلقة في مقبضه ، معلق بسلسلة رقيقة ، قصيرة ، إلى حزام عريض على خصر وزرته . لم تكن لينا تجرُّ الحيوان بمقود ، أو تمسك به من صوف رقبته . كان الضأن يمشي طوْعاً إلى الذبح ، متوافق الخطى مع خطاها على أرض المسلخ الإسمنتية الخشنة ، رَقد دمٌ في مسام إسمنتها باهتاً بعد غسل غير مُنجَزِ الإزالة تنظيفاً .

لمح كيهات بغتةً ، من كوَّة تخيُّله الضيقة لمشهد لينا والحيوان المنقاد طوعاً إلى الذبح ، أن للحيوان قرنين ملتفَّين ، كبيرين : إنه كبش ، وليس نعجةً .

لم يعهد كيهات ، في شرائه اللحم أحياناً من حانوت راحيل ، أن للذبيحة خصيتين من مثل البهائم التي يعرضون خُصاها للبيع في أسواق الجزارين ، أكباشاً ، وثيراناً ، وتيوساً . إنها الخلائق المنتمية بخُصاها إلى النوع الأكثر غرابة . أيْ : الجنس الذَّكر بزوائد بين فخذيه تتلاطم مضحكةً في السفاد . زوائدُ كُراتٌ للمنيِّ الطائش في تحصيل غاياته ، مخطئاً تصاميمَه الهندسيَة على جدران الأرحام معظمَ الأحيان ، مصيباً بعضَ الأحيان في المطابقة بين أصحاب مَصْدَره من أصلابهم وبين ذُرِّيتهم . لربما كان تطابقُ الأبِ المَنْشأِ والولد كاملاً في الهيئة لو أنَّ الخُصى في جوف الإنسان ، وليست متدليةً خارج بدنه . ذُرِّية الديك متطابقة قالِباً على شكل الديكِ المَنْشأِ لأن خصيتيه في جوفه . أيَسْري هذا التقدير على الكبش ، والتيس ، والثور ، وهي

الذكور بخُصى متدلية خارج أبدانها كالإنسان ، وذريَّتهم متطابقةٌ هيئاتٍ كهيئاتهم؟ ذلك عِلْمٌ يستوجب غوصاً فيه .

كيف تهيأ لخيال كيهات ، في يوم الأربعاء منكباً على أشغاله في حانوت الزنابيلي ، أن يبدِّل فوضى الصِّور فوضىً أخرى في إشراقها على خياله ، وأن يبدِّل الفوضى نظاماً في إشراق الصور على قلبه؟ خيالٌ متخبط يومِ الأربعاء ، في الأرجح ، من خيبته أن لا يكون أحد الزُّبن الأوائل ذهاباً إلى حانوت راحيل .

استرسل الشابُّ العاملُ في تصوُّراته ، وهو يحمل أكياساً على كتفه اليسرى مع شار يحمل ، بدوره ، أكياساً اشتراها من حانوت الزنابيلي ، إلى سيارة من نوع بيْكْ أبْ . رأى نَفْسَه ماشياً إلى جوار لينا ، في المسلخ ، ممسكاً بقرن من قرنيِ الكبش إلى الراباي ، المشرِّع باسم الله أن تكون الذبائح طاهرة ، حلالاً ، بُشرى للأجساد بمأكول من النِّعَم الأرضية هو اللحم ، الأكثر كرامةً كغذاءٍ من غيره ، وله جلالُ الحفاوةِ بالأضياف على الموائد ، والسَّبْقُ إلى توطيد ذائقة الإنسان للأطعمة ، منذ اهتدى إلى أكل أولاده في مراحلَ أُوَلٍ من نشوئه ، ثم أوجبه في المطابخ بعد حصول العقل على حقوق الانتقال باللحم إلى مرتبةِ نشيدٍ من أناشيد الحرية .

كان ناعماً ملمسُ قرن الكبش في يد كيهات ، لدِناً كالمطاط ، والكبشُ يمشي جانبياً شبهَ متراقص ، مثلما يفعل أخوه موسى في حبوره ماشياً معه إلى دار السينما متراقصاً . وضع رأسَ الكبش في يد الراباي ، ذي القبعة الكيباه البيضاء بإطار من نقوشٍ زرق ، وعلى رأسه خمار أبيض ، مشمِّراً عن ساعديه كُمَّي ثوبه .

اهتزت لحية الراباي الصهباء الطويلة وهو يطرح الكبش أرضاً ، على حافة الساقية الإسمنت في المسلخ . جثا واضعاً ركبته اليمنى على خصر الحيوان . نحرَهُ بالسكين العريضة الصفحة .

حمل أحد عمال المسلخ الكبشَ ، بعد سلخه ، إلى عربةِ جرٍّ بقوة الإنسان عليها نعجة من حصة الجزار بنحاس إيليًا ، الذي لم يتصور كيهات وجودَه بشخصه ، بل خمَّن ذلك . بنحاس وراحيل متجاوران بحانوتيهما . عتّالٌ واحد يجرُّ عربة بعجلتين ، موصولةَ المقود بصدره ، يكفيهما نقلاً لذبيحتيهما إلى حيث يسكنان .

تخيل كيهات نفْسَه يواكب العربةَ عليها الذبيحتان مغطاتين بكيسين من الخيش ، حَجْباً لهما عن الذباب والغبار الحاقديْنِ . وصل مع سائق العربة يجرُّها صاحبها بجسده إلى حانوت بنحاس ، الذي ناولَ العتّالَ قِسماً من أجرته ، على أن يستوفي العتّالُ القِسمَ الآخر من راحيل . حمل النعجةَ الذبيحةَ بنفسه إلى حانوته المشرَّع البوابة تنتظره فيه زوجته ليلى .

انتقلت العربة مجرورةً بساقيْ سائقها إلى حانوت راحيل الماشية من وراء كيهات . أنزل كيهات ، وصاحبُ العربة الذبيحةَ كلٌّ يحملها من طرف . سارا بالكبش إلى الحانوت المفتوح البوابة تقف لينا ، في جوفه بوِزرة سوداء ، متاهبة كجزّارة محترفة . وضعا الذبيحةَ الكبشَ على المنضدة المستطيلة .

منتشياً تراجع كيهات عن المنضدة من نظرة الامتنان في عيني ابنة راحيل ، غير آبه للدم لطخ كتف ثوبه الأيسر وكُمَّيه . أدار وجهه على أركان الحانوت . مضى إلى مشجب مغروز في الحائط عُلِّقت إليه وِزرتان سوداوان . ارتدى واحدةً طوَّق بشريطيها خصره ، وعقدهما خلف ظهره . حمل سكِّينة قصيرة ، رفيعة ، معقوفة كسيوف الغزاةِ ـ أُم السلب والنهب ، والسبي هَدْياً لفروج النساء السبايا إلى نكاح طاهر يستعيد الفُروجَ من ضلالها ، الذي أوقعها فيه نكاحُ الغافليْنَ عن ذِكْرِ الله وهم يرتعشون من قذف ماءِ ذكورتهم في المهابل .

قطَّع كيهات أعضاء الكبش ، بأناة العارف الحاذق ، تحت بصري لينا

وأمها ، محترفاً في البتر يعبر بالشفرة بين مفاصل الحيوان من غير اضطرار إلى الكسر بالساطور . علَّق الأعضاء المبتورة إلى الخطاطيف الحديد متدلِّيةً من اسطوانة السقف الخشبية ، الممتدة من ظهر الحانوت إلى جدار بوابته . تنهَّد راضياً عن خياله المنتصر .

مرتين عاد كيهات إلى حانوت الزنابيلي ـ في الوقت المنصرف فيه بكيانه إلى تخيُّل عمله في حانوت راحيل ـ ليحمل أكياساً أُخر إلى سيارات زبائنه . لكن شروقَ الغبطة عليه ، في يوم الأربعاء ذاك ، من تخيُّله نفْسَه جزّاراً إلى جوار لينا وأمها ، أسرف به استرسالاً في نقل جسده كأثيرٍ إلى حانوت راحيل . لم يَعُد يرى نفْسه إلاَّ هناك ، وهو ينتقل بين الأكياس في حانوت الزنابيلي . بل خالَ الأكياس شرائحَ لحم ينضِّدها ، ويطويها .

«لينا» ، قال مكلِّماً قلبه من غير صوت ، في تخيُّله نفْسَه جزاراً بالوزرة السوداء إلى جوارها .

«أعرف ما ستقوله» ، عقبت لينا على نطقه اسمَها ذائباً على لسانه .

«ماذا سأقول؟» ، سألها كيهات متطلِّعاً جانبياً إلى أمها .

«اسألْ أمي . هي تعرف أيضاً» ، ردت لينا .

احتار كيهات . أبقى بصره على راحيل ساهيةً عنه في إخراج أكياس ورقٍ وضعتها إلى جانب الميزان رِزْمةً ، وإخراج شرائحَ ورقٍ بسَطتْها ، أيضاً ، إلى جانبٍ من الميزان النحاسيَ الكَفَّتين على المنضدة المستطيلة . سألها :

- أتعرفين حقاً ، يا ست راحيل ، ماذا كنت سأقول للينا؟

«الكبش» ، قالت راحيل الكلمةَ في سياقٍ مبتور .

«ما به الكبش؟» ، تساءل كيهات ، مديراً بصره على الخطاطيف الحديد علَّق إليها أعضاء الذبيحة . أنزل بصره إلى زاوية من المنضدة استقرت عليها الخصيتان .

«ليس هذا الذي قطَّعتَه، يا كيهات، بل ذاك»، أشارت راحيل ببصرها إلى الرسم المعلق بخيط إلى وتدٍ في الحائط.

إنه الكبشُ الفداءُ استنزله الملاكُ على ابراهيم يفتدي به اللهُ ابنَه إسحق، بعد اجتياز ابراهيم المحنةَ الإختبار. كاد يذبح ابنه بالسكين أمضاها على مبردٍ ليس في الرسم المؤطَّر بهيِّ الألوان، بل في بيته خلف الصخور التي يقف قربها، مستسلمين ـ هو وابنُه المستسلم مثله ـ لفكرة التضحية ذبحاً في خشوع.

أساعد إسحق أباه في إمضاء شفرة السكين جَلْخَاً، كي لا يحسَّ بها إن حزَّت عنقه من الوريد إلى الوريد؟ كم تأمل الأبُ وابنه السكين ذاتها؟ كم خَشِيا أن لا تكون السكينُ ماضيةَ الشفرة رهافةً، كي تُنجز الذبح بضغط واحد من يد الأب عليها شقاً للحم وللعظم؟ مُذعرٌ أن تكون السِّكينة خاملةَ الشفرة غيرَ رهيفة. كبش الفداء لم يفكر في ذلك قطعاً. قاده الملاكُ من حظائر السماء، التي يعرف الكبش، مُذ خُلِقَ فيها حيواناً، أنه موكلٌ بمهمة واحدة هي نجدةُ مَلِك من الملوك الأنبياء، في سلالة المختارِيْنَ. ما المحنةُ الإختبار، التي تعادل بضراوتها محنة أن يفوز إنسانٌ، مَلِكٌ أو نبيٌّ، برضى الله ذبحاً لإبنه؟

لم يكن واضحاً في الرسم، المعلق إلى جدار في حانوت راحيل، أن ابراهيم ساءل نفْسه لِمَ يمتحن اللهُ ـ ووحيُ الله فيه ـ ولاءه، ووفاءه لله بذبح ابنه؟ فما الذي تقصَّدَتْهُ راحيل بالإشارة إلى الكبش في الرسم؟ تخبَّط عقلُ كيهات ـ يوم الأربعاء وهو في حانوت الزنابيلي عاملاً ـ في ربط الصور، وربط المعاني، بروحه المقيمة، ذلك الأربعاء، في حانوت راحيل.

«ما به الكبش الذي في الرسم، يا ست راحيل؟»، تساءل كيهات إذ أشارت صاحبة الحانوت إلى لوحة إبراهيم، وابنه، والملاك، والكبش المسرور بإنقاذِ مَلِكٍ نبيٍّ من محنته.

«أيشبه قرناه قرْني الكبش الذي سنبيع لحمه هنا، يا كيهات؟»، ردت راحيل.

«أين رأس الكبش المذبوح؟»، تساءل كيهات، باحثاً بعينيه عن رأس الذبيحة التي جاؤوا بها في العربة إلى الحانوت.

«نسينا الرأس في المسلخ»، ردت راحيل.

زمجر كيهات خيبةً من نفْسه:

- أنا الذي نسيتُ الرأس في المسلخ.

«لا»، عقَّبت راحيل. أردفت: «لم يكن لهذا الكبش رأس، يا كيهات».

«أنا سُقْتُ الكبشَ إلى الراباي من قرنه بيدي، يا ست راحيل»، قال كيهات. هزَّ رأسه وقد استغلق عليه ما يرسمه خيالُه لكلامه من مَسَاقٍ في المحاورة، التي لم تَحْدُث قط. سأل صاحبةَ الحانوت:

- لِمَ لا تبيعين لحمَ بقرٍ؟

«لا أبيع لحماً من عِجْلِ بَني إسرائيل»، ردت راحيل.

«عِجْل بني إسرائيل؟»، تساءل كيهات غيرَ فاهم.

«عنيتُ العِجْلَ الذهب»، أوضحت راحيل بما زاد إبهاماً على إبهام.

«العجل الذهبي؟»، تساءل كيهات مستغرباً.

«عجل من ذهب خالص»، ردت راحيل. «ذُبِحَ وبِيْعَ في حانوت الزمن الأقدم».

«أَيُذبح عجلٌ من ذهب خالص، يا ست راحيل؟»، تساءل كيهات.

«يُذْبحُ»، ردت راحيل.

«ماذا ينزف عجلٌ من ذهب إنْ ذُبح؟»، تساءل كيهات. أردف: «أينزف ذهباً؟».

«بل ينزف دماً كأيِّ عجلٍ من لحم وعظم، إن ذبحه نبيٌّ»، ردت راحيل.

توقف خيالُ كيهات عن التلاعب به ، يومَ الأربعاء ، وهو يفكُّ الأطواقَ الشرائطَ المعدنية عن رِزَم الأكياس في حانوت الزنابيلي ، وينضدها ، ويفرز المستعملةَ أقساماً بحسب أحوال جيِّدها من رديئها ، ويُعِين ابنَ الزنابيلي إمساكاً بحواشي الأكياس ، التي يرمِّمها الشاب الشبيه بأبيه بآلة الخياطة الخشنة الهيكل الحديد .

حلَّ يومُ الجمعة أخيراً . خمس ليرات تراكمت في جيب كيهات ، إلاَّ بعض الفرنكات اشترى بها تبغاً رخيصاً .

«نريد لحماً اليوم ، يا أبي» ، تلك كانت جملة كيهات المتخبطة كفراشة في قارورة رغبته تريد خروجاً ، منذ الصباح الأول عاملاً في حانوت الزنابيلي حتى صباح الجمعة . رفرفت الجملة في ظل البيت خارجاً ، حيث اقتعدتِ العائلةُ البساطَ فوق الأرض الحصى لإفطارها ، على مرأى من الدجاجات اقتربن قارئات أخبارَ الطبائع من حركات الأيدي البشرية .

«أنت ثريٌّ الآن ، يا كيهات؟ . اشترِ لنا لحماً» ، عقَّب أبوه على صحفة الإفطار يأكلون خبزاً وزيتوناً مع ارتشاف الشاي من الأقداح .

تلقَّى كيهات المقتَرَحَ ممتعضاً :

- أأشتري اللحم بنقودي؟

«ليس عيباً أن تفعل» ، ردَّ أوسي مبتسماً ابتسامةَ تلاعُب بابنه .

لكزت هدلا ركبة زوجها بركبتيها متربِّعَيْنِ على البساط أمام صحفة الطعام ، المنسوجة من قصبٍ لُوِّنَ زُرقةً وصُفرة :

- أتسرق مالَ ابنك؟

«أسرقُ؟!» ، تساءل أوسي موسعاً بين أجفانه .

«تستولي عليه عنوةً» ، صحَّحت هدلا اتهامَها .

«عنوةً؟» ، كرر أوسي الكلمة بنبرٍ مستفظع . أردف : «أترينني أُمزق جيب كيهات لآخذ نقوده؟» .

حوَّش موسى بعضاً من نوى الزيتون بيده، ورمى بها إلى الدجاجات. رفع صوته متدخلاً:

- لن نأخذ منك نقوداً للذهاب إلى السينما. نقودك يشتري بها كيهات لحماً. وبنقود كيهات نذهب إلى السينما.

التفت أوسي بوجهه إلى زوجته. كلَّمها منشرحَ العينين:

- سيكون ابنكِ موسى مديرَ مدرسة.

«أقبل اقتراحَ موسى»، قال كيهات معقِّباً.

ابتلع أوسي لقمته. تجرَّع رشفتين متعاقبتين ممَّا تبقى من الشاي في قدحه. رفع الإبريق المطلي بالمِيْنا أزرقَ اللون، ذا الفم القصير المَسْكَب ملتوياً كعنق إوزَّة. ملأ قدحه من جديد. ذوَّب فيه ملعقة صغيرة من السكَّر المطحون. عاد ببصره إلى زوجته الجالسة إلى جواره:

- ألا نشبهُ دولةً؟

«مَن؟»، تساءلت هدلا.

«نحن. هذه العائلة»، ردَّ أوسي.

«دولة؟!»، تمتمت هدلا المبتسمة الفم دَوْماً.

«نعم. نشبه دولةً، نحن الأربعة، بلا حاجة إلى جيش»، ردَّ أوسي.

«لماذا بلا جيش؟»، تساءلت هدلا غير متفهمة سياقَ فكرة زوجها.

«مَن لا جيشَ له لا يُهزَم جيشُه»، ردَّ أوسي.

أبقت هدلا بصرها ملياً على وجه زوجها، وهي ممسكة بحبة زيتون سوداء بين سبَّابتها وإبهامها اليسراوين، لم تستحصل معنىً من كلمات زوجها الكبير الفم في وجهه الصغير قليلاً.

أدرك أوسي أن ما يقوله يحتاج إلى شرح لن يتمكن من إيفائه وضوحاً. ابتسم:

- ثمن اللحم عليَّ، وثمن تذكرتي السينما على كيهات.

صَحِبَ كيهات أخاه موسى ، بعد الإفطار صباحاً ، بنقود من أبيه في جيبه لشراء لحم مجاورةً نقودَه ، إلى الطرق المؤدية بعقل الإسفلت الحكيم فيها إلى إمبراطورية السينما . كان عليهما أن يتحرَّيا ما ستعرضه أولئك الدُّور من أفلامها يوم الجمعة ، ليختار واحداً يُرضي رغبةَ قلبيهما المتلهِّفين .

لَفَتَهما ، من معروضات الأفلام الأربعة بملصقاتها ، إثنان : فيلم هندي للنجم راج كابور ، باللونين الأبيض والأسود . نجمٌ اعتاد الأَخوان منه ظرافةً في الحركات ، والغناء الذي ليس بصوته ، وتقليده أحياناً شارلي شابلن بمشيته منفرجَ القدمين في الحذاء الواسع عليهما ، حاملاً صُرَّة معلقة إلى عَقْفة عصاه . أما الفيلم الثاني ، المتعدد الألوان ، فكان للنجم الإيطالي جوليانو جيما ، في دَورٍ تقليد لأفلام الغرب الأمريكي ، بصناعة للفكرة من عجين المعكرونة .

ممثلٌ وسيم ، ذو ندبة على خده الأيسر ، سَحَرَ الأولاد في الشمال السوري بقفزة يؤديها مدهشة : إنه ، حين يسقط أرضاً على ظهره ـ وهو يتعمَّد تلك السَّقطةَ مراراً ـ يرفع ساقيه عالياً ، ثم يتكئ على ظهره منقذفاً كلولبٍ معدنيٍّ نابض إن ضُغط وتُرِكَ ، أو كما تفعل الخنفساء إذا انقلبت على ظَهرها ، فيستقيم الممثل الوسيم واقفاً على قدميه ، منتصباً في لمحة خاطفة .

أمضى موسى أياماً ، بعد مشاهدة أول فيلم للنجم الإيطالي بعنوان «الدولار الفضي» ، وهو يصدم بظهره الأرضَ منبطحاً كي يقفز في الهواء واقفاً على قدميه . لم يُفلح موسى مرة واحدة . . كاد يسلخ جلد ظهره في الغرفة الخاصة به وبأخيه . بسط فراشَ السرير على الأرض كي لا يتأذى ، لكنه لم يُفلح . اكتفى أخيراً بإعجابه بالنجم الإيطالي ، ورضيَ بخسارته في التقليد الفاشل للقفزة البهلوانية .

قرر الأَخوان أن يحضرا الفيلمين في يوم واحد : الإيطالي أولاً قبل الظهر ، والهندي ثانياً في المساء .

«فلْنسرعْ عائديْنِ إلى البيت» ، قال كيهات لأخيه .

«ألن تشتري لي قدحاً من شراب اللَّبن؟» ، سأل موسى أخاه .

«سأشتري لحماً أوصله إلى البيت ، ثم نرجع لحضور الفيلمين . أعِدُك بوليمة من شطائر الفلافل» ، رد كيهات .

«قدحٌ لن يستغرق شربُه دقيقة» ، قال موسى بنبرٍ متوسل .

«اصنعْ لنفسك أربعة أقداح من شراب اللبن في البيت» ، عقَّب كيهات .

تنهَّد موسى مطأطئاً ، مستسلماً على مضض .

رقَّ له أخوه :

– تعال .

توجَّه الأَخوان إلى المتجر قبالة سينما غربيس ، المحتكر وحده ، في المدينة ، شطائر لحم البقر المشوي طويلاً في الفرن ، والحلوى الفطائر بالقشدة ، والمثلَّجات بنكهات الألوان في فاكهة قوس قزح ، وعصير الجزر والتفاح ممتزجيْنِ ، والمعجَّنات بقَطْر العسل . إضافةً إلى وعاء زجاجي كبير ، فيه لبن مخفوق بماءٍ ، وملح ، ونعناع يابس ، غُطِّستْ فيه كُتلٌ سِماك من الثلج الجليد . فيما ترتفع على الجدار ، خلف المعروضات البهية من الأطعمة ، صورتان مؤطَّرتان لسيد الكون ستيف ريفز ، ملتقَطتان من وقائع حياته بنظارة شمسية على عينيه ، وليس من صِور الأفلام .

لا شرابَ لبن في البيوت يعادل مذاقاً ، في الصناعة ، شرابَ اللبن في ذلك المتجر ، المترفِّع عن البيع بأثمانٍ رخيصَة . كلُّ ما فيه غالٍ . يرتاده الرياضيون في خروجهم من نادي العضلِ ـ مطعم الفلافل ، ويعرِّج عليه الخارجون من دور السينما ، إن كان في جيوبهم فائضٌ من النقود .

يظهر باعة شراب اللبن في الأسواق صيفاً ، بآنيتهم الضخامَ كبراميل صغار على ظهورهم . يستخرجون الشرابَ منها بعلبة لها ثقب في قاعها ، موصولة بماسورة مفرَّغة ، طويلة . يغطِّسون العلبة في الشراب حتى تمتلئ ، وقد سدُّوا أفواه المواسير بأباهمهم . انقطاع الهواء في الماسورة ، بسدِّها ، يمنع خروج الشراب من ثقب العلبة ، فإن رفعوا أباهمهم عن أفواه المواسير نزل الشرابُ طليقاً بعد احتباسه .

شرابُ الباعة في الأسواق لا يُعرف مذاقه حقاً من كثرة الماء فيه وكثرة جليده ، ولا يُعرف مَصْدرُ مائه . إنه رخيص على أية حال ، يروي ظمأ المارة في القيظ ، لكنْ غيرُ كريم كشراب اللبن في المتجر قبالة سينما غربيس .

شرب موسى قدحاً طويل القَوَام من شراب اللبن المملَّح ، المنكَّه بالنعناع ، على عجل . نبضتْ من برودة الجليد فيه عظامُ صدغيه . تأوَّه ملتذاً .

خرج الأَخوان من المتجر الصغير ، الكبير بفنون المذاقات ، الشريفِ بأسعاره العالية التي تدلُّ على الجودة .

حين قارب كيهات وأخوه ، في عودتهما ، مشارفَ الطريق إلى البيت ، صرفَ الأخُ الأكبر أخاه الأصغر :

- اسبقني إلى البيت . سأشتري لحماً من حانوت راحيل سريعاً .

انفصل موسى عن أخيه عائداً إلى البيت . سَلَك كيهات المفترَقَ بانعطاف إلى الشرق صوب الطريق المستقيمة من الشمال إلى الجنوب ، المتصلة نهايتُها الإسفلتية ، المتكسرةُ الأحفة ، بالأرض العراء .

مستوفَزَ القلب استثارةً كان كيهات في مشيه العجول بخُفَّيه إلى حانوت راحيل . كان مزمِعاً أن يشتري كيلو غراماً كاملاً من اللحم ، هذه المرة ، وليس تسعمائة غرام . لديه نقود الآن . يقْدِرُ أن يشتري تبغاً فائضاً

يُخزِّنه مُخبَّأً ، وأن يحضر أكثر من فيلم في الأسبوع ، وأن يشرب قدحاً ضخماً من عصير الجَزَر الأصفر ، مُذ لم يعهد الشمال السوري من الجزر إلاّ صنفه الأرجواني الداكن يلطخ الشفاه بعصارة كالحبر الأزرق . شراب الجزر الأصفر سيكون شرابَ كيهات ، إذاً ، تعويضاً عن اختفاء شرابه الغازيِّ المفضَّل سينالكو .

توقف كيهات عن مشيه . رأى جمعاً صغيراً ، خليطاً من رجال معتمرين شالات على رؤوسهم ، مؤكَّدٌ أنهم يهود ، متجاورين يقابلهم ثلاثة أشخاص في قمصان وبناطيل ، ونظارات شمسية ، معهم صاحبُ طربوش أحمر هو ، في حدْس كيهات ، الرجل الذي لمَّحت راحيل إلى أنه الجديد في المهنة المُستحدَثة تحقيقاً ، واستقصاءً ، أن ساكني البيوت اليهود ، بحسب عناوينهم المدوَّنة في دفتره ، ملتزمون قواعدَ الإقامة في البيوت ذاتها لم يغادروا حدودَ المدينة .

سيارة «جِيْبْ» كانت على قارعة الشارع هناك : سيارة رجال أمن الدولة . قاسَ كيهات المسافة ببصره بين موضعهم أمام بوابة أحد المنازل ، وبين حانوت بنحاس ، مُقدَّرةً بخمسة بيوت . إنه منزل الممرِّض الذائع الصيت في المدينة ، كأمْهَر من يحقنون المرضى بإبر حقن الأدوية بلا وجع . حاذق ، مرهَفُ اليد في الحَقْنِ ، يطمئن إليه أهل المدينة مِن معتادي زيارة الطبيب «نافذ» ، الأشهر تشخيصاً للأمراض بنظرة العجوز الفاحصة فيه غوصاً على أسرار العِلَلِ كساحر .

إسم الممرض إبراهيم ، يهودي في الثلاثين ، أو أكثر قليلاً ، عمل مستخْدَماً قبل سبع سنين في تدوين أسماء المرضى العائدَيْنَ عيادةَ الطبيب نافذ ، وتنظيم دخولهم إلى غرفة التشخيص ، إضافة إلى تولِّيه تنظيف العيادة آخر النهار .

تدرَّب إبراهيم على حَقْن المرضى ، في العيادة ، عن يد الطبيب نافذ

الصـارم الملامح ، الحليق الوجـه ، العـابس أبداً ، الكردي الذي لا يقـبل الكلام إلاَّ باللغة العربيـة على لهجة أقرب إلى الحلبيَّـة ، حتى أن أكـراداً شككوا في انتمائه إلى عِرْقهم . لكنَّ صيتَه ، وحذقه ، كانا كفيلين أن لا يغامر كرديٌّ ، أو يقامر ، بإسقاط نَسَب الطبيب نافذ صِرْفاً إلى عِرق الكرد ، مُذ الكرد لا يوفِّرون حتى جدَّة نابليون من زعمهم أن لها أصولاً تتَّصل بأصولهم .

لقد أشاعَ التاريخ عن الكُرد ـ مدوَّناً بأقلام الأمم من حولهم ـ أنهم شعب بلا تاريخ . وقد انتقم الكُرد لأنفسهم فنسبوا إلى عِرْقهم أنهاراً ، وبحيرات من مياه التاريخ ، على مبالَغات مدهشة ، مُذ التاريخُ كلُّه ، في أقاليم الأرض ، أُرْسيَ على مبالغاتٍ ركيكةً من الفخر بماضي الأمم مدهشاً في التلفيق .

يلفِّق الكرديُّ التاريخَ لنفسه ، أيضاً : ينسب إلى المُدوَّنات المفقودة أن خالة الإسكندر الأكبر أنجبت ذُرِّيةً من كردي ؛ وأن تلميذ أفلاطون ، المدعو شيخمانوس ، الذي صحَّح للفيلسوف السطورَ الكبار في المنطق ، هو كرديٌّ ؛ وأن الملكة أليزابيث الأولى ، ابنة هنري الثامن ، ضمَّت إلى عشاقها السرِّين كردياً من مهاجرين قِلَّةٍ ، أوائل ، من أرض بحيْرة وَانْ إلى مملكة انكلترا .

لفَّق الكرديُّ ، بالشرع المباح للأمم في استيلائها على التاريخ تلفيقاً ، أصلَ مُعلِّم شكسبير فنونَ المعاني بشفرة المسرحيات المتأَلِّة نطْقاً بالإنكليزيةَ بدلَ الكردية . ونَسَب إلى آدم نطق كلمته الأولى «كُرْتَانْ» بالكردية ، وهي تعني «بَرْدَعة الحمار» .

الطبيب نافذ كرديٌّ إذاً ، حتى لو ثبت أنه غير كردي ، أو أنكر هو كرديَّته . قد يكون للمرِّض إبراهيم نَسَبٌ مَّا إلى العِرق التائه في تقاسُم الجغرافيا صُرَّةَ خبزه ، وإبريق مائه ، ما دام تعلَّم حكمةَ الحَقْن الحاذق

بالإبرة عن يد الطبيب الكردي ، وتنفَّس معه الهواءَ ذاته ، سبع سنين ، في العيادة العابقة برائحة البنسلين ، وبدخان تبغ المرضى يرمون أعقاب لفافاتهم على أرضها المرصوفة بَلاطاً .

لا تحتاج مهنة إبراهيم إلى ترخيص . حِذْقُه كاف . عملُه في عيادة الطبيب نافذ يكفيه للحصول على لقبه ـ لقبِ «المُمرِّض» . لكنْ ما الذي أوقف سيارة رجال أمن الدولة أمام بوابة منزله ، معهم صاحبُ الطربوش الأحمر ـ إرثِ امبراطورية عثمان المندثرة؟

أدار كيهات بصره عن ذلك الجمع الصغير صوب حانوت بنحاس على استقامة الشارع نفسه . كان شخصان من قاطني الحيِّ يتطلعان من البوابة إلى عمق الحانوت غيرِ المنكشفِ على بصر كيهات ، من موضعه ذاك . جرَّه الفضول من تلابيب عقله أن يستطلع ما يجري أمام منزل إبراهيم . لكنه لم يطاوع فضولَه . توجُّسُه غلبَه ؛ بل غلبه حَذَرٌ لا يُقاوَم أو يُعْصى .

ماذا إن اقترب كيهات من الجمع فاستوقفه أحد الرجال ذوي النظارات الشمسية مُسْتنطِقاً ، كحالِ الواقفيْنَ في شالاتهم لا يَخفى أنهم في موقف الردِّ على أسئلة تعصف بهم من معتمِر الطربوش ، الذي يرفع وجهه إليهم تباعاً ، ويخفضه ناظراً إلى ورقة في دفترهِ ـ سِجلِّ العناوين والأسماء .

حدَّق كيهات ملياً إليهم من موضعه ذاك البعيد عنهم أربعة منازل ، عسى يلمح إبراهيمَ الممرِّض ، مُذ يقف حُماةُ روح الخوف المخابَراتُ على بوابة منزله ، الذي يسكنه مع أمه وأختيه . تشمَّم شِواءَ الزمن على فحم الساعات كي يعرف ما جرفتْه الشمس من حدود الأعالي ، مُذ أنَّ مَن لا ساعةَ يد معه ـ مثله ـ عليه أن يتشمم الزمن نيئاً ، أو مسلوقاً ، أو مشوياً ؛ عليه الإسراع إلى شراء لحم ليعود إلى البيت فيصحبَ أخاه ، من ثم ، إلى عَرْضِ ما قبل الظهيرة للأفلام تخصِّصه دُور السينما موعداً للعروض

استثناءً في يوم الجمعة العطلة، وفي أيام الأعياد. عليه أن يسرع قفزاً من فوق حاجز فضوله.

مشى كيهات باستقامة صوبَ حانوت بنحاس الذي يليه حانوتُ راحيل، من غير لجم لالتفاتاته إلى حيث منزل إبراهيم، والجمع الصغير. وإذ اقترب من الحانوت أبطأَ خطوَه، متفرِّساً في الشخصين الواقفين، شاخصيْنِ ببصريهما رصْداً لِما يجري في أعماق الملحمة. سمع صراخاً مهدِّداً بلهجة أهل دمشق:

- كيف لا تعرف، يا موشي؟

«موشي؟»، سأل كيهات نفْسه. من يكون؟ خمَّن أن شخصاً اسمه موشي قد دخل الحانوت. لكنْ مَن الصارخ به، بتلك اللهجة، في ملحمة بنحاس؟ اقترب حتى بات على سويَّة من مشهد الداخل الواضح مرأى: كان رجل من أمن الدولة، في سترة صيفية رقيقة القماش، بانتفاخ في جنبها الأيمن من مسدس في غمده، يصرخ في وجه بنحاس:

- هؤلاء جيرانك. كيف لا تعرف، يا موشي دايان؟

إسم الجزار بنحاس إيليا وليس موشي. لربما أراد رجل المخابرات تعميم اسم موشي دايان على يهود الحيِّ فسمَّى بنحاسَ باسم وزير دفاع إسرائيل، الذي أغرقَ العربَ في شؤم أغلق عليهم عيناً من عينيِّ التاريخ بعصابة الهزيمة إلى الأبد كالعصابة علَى عينه اليسرى المعطوبة.

انكمش كيهات فزعاً إذِ ارتدَّ رجلُ أمن الدولة عن منضدة بنحاس، في حركة عصبية، من الحانوت وهو يشتُم:

- أولاد الحرام يهربون من بلدهم.

تتبع كيهات ببصره الرجلَ الغاضب متجهاً إلى الجمع أمام منزل إبراهيم، الممرِّض الحاذق شهدتْه المدينة متنقلاً فيها على دراجته الهوائية، يستكمل للمرضى حقْنهم في بيوتهم. أعاد بصره إلى الشخصين الواقفين

يحدِّقان ، من عتبة بوابة الحانوت ، إلى صاحب الحانوت شاحباً في قبعته الكيباه اللاطية فوق شعره الأسود ، الذي لا تتخلله شعرة بيضاء واحدة ، بالرغم من بلوغه السادسة والأربعين .

دخل الرجلان إلى الحانوت ، في ثوبيهما الطويلين حتى أعقاب حذائيهما الصيفيين قُماشاً أبيض ، بعدما امتنعا عن الدخول طوال وجود رجل أمن الدولة مستنطقاً الجزارَ . وقف كيهات على عتبة البوابة عسى يسمع ما يُرضي فضوله قليلاً . لكنَّ المحاورة بين الزبونين والجزار اقتصرت على كلمات بالعبرية هي ، في الأرجح ، مطلبهُما من شراء اللحم . صمتوا . ظلَّ سؤال كيهات في شأن رجلِ أمن الدولة ، المتحرِّي عن «هاربيْنَ» ، يرفرف في قلبه . لم يتمالك فضولَ لسانه الذي لن يكلِّفه ، ربما ، إلاَّ امتناع بنحاس عن الجواب :

- ما الذي قَصَده رجلُ المخابرات ، يا سيد بنحاس؟

«أجئتَ تشتري لحماً؟» ، قال بنحاس ، الذي لم يستردَّ لونَه الأقرب إلى سُمرة من براثن الشحوب دَلَقَه رجل المخابرات تحت جلد الجزار وفوقه .

«لا ، يا سيد بنحاس» ، رد كيهات بنبرٍ معتذر في صوته ناطقاً بالعربية . أشار بيده اليسرى ، من موضعه قربَ عتبة الحانوت ، شمالاً : «هناك رجال استخبارات أمام منزل الممرض إبراهيم» .

«ربما نسي ابراهيم موعدَه لحقْن مريض من أمن الدولة بالإبرة» ، عقَّب بنحاس ، وهو يقتطع من اللحم ما طلبه زبوناه الصامتان تلفَّت أحدهما إلى الآخر ، ثم إلى كيهات بلا ارتياح في سحنتيهما .

«ذكَر رجل المخابرات شيئاً عن ناس يهربون من بلدهم» ، قال كيهات .

«أأنت محقِّق من أمن الدولة؟» ، سأله بنحاس مضيِّقاً بين أجفان عينيه البنيتين ، الصغيرتين .

«لا ، يا سيد بنحاس» ، رد كيهات مرتبكاً .

«لستَ هنا لتشتري لحماً ، ولستَ من مخابرات الدولة . انصرفْ ، أرجوك» ، تمتم بنحاس بنبرٍ منكسر في صوته الناعس .

انصرف كيهات عن بوابة بنحاس صوب حانوت راحيل . ألَقى بضع نظرات خلفه إلى الجمع الصغير أمام منزل الممرض ابراهيم ، وقد بدأوا الدخول من البوابة إلى ساحة الدار ، يتبعهم مُعتمرُ الطربوش مُشعلاً لفافة تبغ .

بلغ كيهات حانوتَ راحيل . توقف عند البوابة : زبونان كانا يحدِّثان راحيل بصوتين هامسين من كلماتهما العبرية ، وهي تقتطع لهما لحماً بيدين متكاسلتين ، متراخيتين ، على غير عادتها بتراً سريعاً للأعضاء ، وكسراً للعظام ، وفَرْماً للحم الهَبْر .

خمد الهمسُ من دخول كيهات خطوته الأولى مجتازاً العتبة . خمد كيهات نفْسُه لا يتحرك ، ولا ينبس بحرف . انتظر انتهاءَ راحيل من توديع الزبونين بإيماءة من رأسها . وإذ خرجا أدارت وجهها إلى كيهات ، خالية الملامح من أيٍّ تعبير .

«مرحباً ، ست راحيل» ، قال كيهات .

«مرحباً» ، ردت راحيل بحروف متقلصة في نبرِها .

ألقى كيهات نظرةً مختلَسة إلى لينا ، التي ظلت خافضةً بصرها إلى المسطبة عليها بعض النقانق ، والبَيض ، واللحم المجفف ، من غير التفات إليه . حيَّاها :

- مرحباً لينا .

أومأت لينا برأسها رداً على تحيته من غير كلام .

لم يكن الذباب على عادته في الطنين إذ يلتصق بشرائط الورق المُصمَّغة متدليةً من مواضع عدة ، في سقف الحانوت ، حيث قِطعٌ من اللحم في الخطاطيف الحديد . كان يتأوَّه وليس يَطِنُّ . كان يتكلم ـ عالقاً

بالصمغ ملتصقاً ـ بلغة الفحم في مواقد الشواء ، أو كأنما يرتِّل نشيداً لُقِّن لحنَه خطأً ، على مَرْتَبة من الصوت كحال الإختناق .

كثيراً كان الذبابِ العالق بالشرائط المُصمَّغة ، البُنيةِ استحالت رُقْطاً كجلود الفهود . قلِقاً كان الهواء في حانوت راحيل ، شاحباً ، هزيلاً ، متوجِّساً ، أشعثَ ، معتصَراً ، لم يخطئ قلبُ كيهات في تقديره على ذلك النحو ، وهو ينقل بصره من لينا إلى أمها ، في حركاتهما المنكسرة ، وعيونهما المتراخية في النظر إليه ، كأنهما مُرهَقتان .

بادرتُه راحيل سائلةً :

- ما طلبك ، يا كيهات؟ لحم بعظم ، أم هبرة؟

انعطف كيهات عن تقديم جواب إلى ما شَغَل باله :

- معهم صاحب الطربوش ، يا ست راحيل .

«مع مَن؟» ، سألته راحيل .

«رجال الاستخبارات» ، رد كيهات .

أطرقت راحيل وهي تَربِتُ بصفحة سكينها العريضة على قطعة من فخذ نعجة على المنضدة ، صامتةً . كررت سؤالها بعد برهة من الشرود :

- لحم بعظم ، أمْ هبرة؟

انعطف كيهات ، من جديد ، عن سؤالها إلى ما يشغل بالَه :

- لماذا رجال أمن الدولة أمام منزل ابراهيم؟

«هُم هناك لأنهم هناك» ، ردت راحيل بجواب ليس جواباً .

«مَن هرب ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات . «أهرب الممرِّض إبراهيم؟» .

حدَّقت إليه راحيل تحديقاً بلا رغبة في جواب . سألته للمرة الثالثة :

- لحم بعظم ، أمْ هبر؟

«بعظمٍ ، يا ست راحيل» ، رد كيهات . استطرد : «خرج رجل

المخابرات من حانوت بنحاس وهو يصرخ : إنهم يهربون من بلدهم» ، قال . «مَن كان يعني؟» .

«يعني البلَد» ، ردت راحيل بصوت تراجع إلى أعماقها .

«لم أفهم» ، عقَّب كيهات ، فردت راحيل :

- البلد يهرب من البلد .

ابتسم كيهات من التورية المستغلَقة . سألها مجامِلاً :

- إلى أين يهرب البلد؟

«يهرب إلى جنة أجمل من الجنة التي هو فيها» ، ردت لينا بصوتها الهادئ .

تأمل كيهات وجهها المتطاول قليلاً ، في لحاق شاقٍّ بكلماتها المسترخية . كلَّمها عائداً بالصور في خياله إلى ما رآه أمَّام منزل إبراهيم ، وملحمة بنحاس :

- هل استنطقكما رجال المخابرات؟

«فيمَ؟» ، تساءلت لينا بنظرة متفحِّصة من عينيها السوداوين إليه .

«عَمَّن هربوا؟» ، رد كيهات .

«مَن هربوا؟» ، سألته لينا .

«إبراهيم ، وغيره» ، ردَّ كيهات بنبرٍ فيه إخبارٌ وتساؤلٌ معاً ، كأنما يريد تأكيداً .

«لا أحد يهرب من البلد» ، تمتمت لينا .

«ماذا يجري إذاً؟ كان رجل المخابرات يذكرُ أناساً هربوا . المخابرات في الشارع ، يا لينا ، مستوقفين بعضَ سكان الحيِّ» ، قال كيهات .

ضربت راحيل قطعة فخذ الضأن أمامها بالساطور . ألقت ما اقتطعته إلى كفة الميزان :

- تسعمائة غرام . لا أُخطئ .

تأمل كيهات كفة الميزان باللحم فيها منخفضةً عن الكفة الأخرى ، الحاوية عيارات معدنية . كان اللحم أثقلَ قطْعاً من تسعمائة غرام . أرجعَ بصرَه إلى صاحبة الحانوت مبتسماً بامتنان يُلْحَظُ في عينيه . فاجأها :

- أريد كيلو غراماً كاملاً ، ياست راحيل .

رفعت راحيل حاجبيها محدِّقة إليه . «ههْ» ، تمتمت بنبر متفاجئ . استدارت إلى قطعة من عنق النعجة معلَّقة إلى خُطاف . سألته من غير نظر إليه :

- أستطهو أمك فاصوليا اليوم؟

«نعم» ، رد كيهات متفاجئاً .

«عرفتُ» ، عقبت راحيل وهي تُنزل القطعة الكثيرة العظم عن الخطَّاف . وضعتْه أمامها على خشبة البتر والفَرْم .

«كيف خمَّنتِ ، يا ست راحيل؟» ، تساءل كيهات .

«هذا يوم جيد ليَخْنة الفاصوليا بلحم فيه عظم ، مع أرزٍّ مُفَلْفَل» ، ردت راحيل .

تحيَّن كيهات النبرَ المرح قليلاً في صوت راحيل . سألها سؤالَه المُستعِرَ فضولاً :

- أهرب إبراهيم من البلد ، يا ست راحيل؟

«لم يهرب» ، ردت راحيل . تنهَّدت مضيفةً : «مشى» .

«لماذا ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات ، فردت صاحبةُ الملحمة :

- ماذا يفعل مُمرِّض في بلد لا مرضى فيه؟

تأمل كيهات وجه راحيل في ردها الأقرب إلى المزاح ، والأبعد عن المزاح . فاجأها للمرة الثانية ، بعد طلبه كيلو غراماً كاملاً من اللحم :

- أعندكِ ديك للبيع؟

«أأترك دجاجاتي بلا دِيَكة ، يا حلو؟» ، تساءلت راحيل . أردفت : «سيرفعن دعوى ضدي عند الدولة» .

باغتتهما لينا بتعليق :

- للدجاجات فرع خاص بهنَّ في مخابرات الدولة .

هَأْهأَ كيهات بصوت مكتوم من دعابة لينا . سألها :

- ألا تخافين أن يسمعك أحد؟

«ماذا قلتُ؟» ، سألته لينا .

«فرع الدجاج في مخابرات الدولة» ، رد كيهات .

«لم أقُلْ شيئاً من هذا . لم أذكُر الدولة . لم أذكُر المخابرات . لم أذكُر الدجاج» ، قالت لينا بتدريب لسانها على أنها تستطيع إنكار أيٍّ شيء يُنسب إليها .

بادلها كيهات مزاحاً يصرِّح به أنه قادر ، أيضاً ، على التورط أمامها في تعليق لا يتجرأ أحدٌ التورط بلسانه فيه أمام من لا ثقة له به :

- لو كان الدجاج يدير فروع مخابرات أمن الدولة لكُنَّا في بلد لا يهرب منه أحد .

«أنت لم تقُل هذا ، يا كيهات» ، عقبت راحيل بنبرٍ فيه تحذيرٌ مَّا ، وتنبيه . أردفت : «لماذا سألتني عن ديك للبيع ، وليس عن دجاجة؟» .

«يلزم دجاجاتي ديكٌ» ، رد كيهات . أردف متظارفاً : «وعدتُهن بذلك ، يا ست راحيل» .

«دجاجاتك؟» ، تساءلت لينا .

«أخبرتُك عنهنَّ» ، رد كيهات . «أنا اشتريتهن . وأنا أتعهَّدهن بالطعام ، وأرتِّبُ لهنَّ أسِرَّتهن ، وأغسل صحونهن» .

ضحكت لينا . سألته :

- أتحمِّمهن؟

«نعم . بصابون زيت الغار» ، رد كيهات .

ربتت راحيل بصفحة سكينها على خشبة تقطيع اللحم . كلمت ابنتها :

- دجاجات كيهات المرفَّهات يستأهلن ديكاً أجنبياً ، يا لينا .

«ما الديك الأجنبي؟» ، تساءل كيهات ، فردت راحيل مشيرة إلى ابنتها :

- هاتي الديك الأسود .

حشرت لينا جسدها تحت المسطبة راكعةً . أدخلت يدها اليسرى إلى جوف قفص من أسلاك معدن . أمسكت بساقيٍّ الديك الأسود بين أشقاء ثلاثة له مزدهيْنَ ألواناً . رفرف الديك ذو الذيل انبثقت من خَلَل الأرياش السود فيه ريشتان برتقاليتان .

نهضت لينا بعد إغلاق باب القفص المستطيل تجاوره ، من جهتيه ، أقفاصٌ أُخر فيها دجاجاتٌ رواقِدُ على قشٍّ كثير فيها ، مدَدْن أعناقهن فضولاً . بحثت من حولها عن خيط ، أو حبل ، تربط به ساقي الديك ، فلم تجد ما تريد . تقدمت من كيهات :

- هَلاَّ أمسكتَ الديك لحظةً؟

أمسك كيهات بالديك مطوِّقاً استدارةَ جسده براحتي يديه .

مضت لينا إلى بكَرة من شرائط قنْص الذباب المصمَّغة . انتزعت قطعة منها . عادت إلى كيهات . لفَّت ساقي الديك بالشريط . تمتمت وهي تجتذب أصابعها جذْباً من الشريط التصق بها :

- لن يطير بعد الآن .

ضمَّت راحيل قِطَع اللحم بالعظم في لفافة من شرائح الورق الخشن . ابتسمت وهي تحدِّق إلى عيني كيهات العسليتين ، المستعذبتين وجودَه في الحانوت لم يقاطع حضورَه زبون آخر :

- إن أساءت دجاجاتك إلى هذا الديك أرجِعْه إليَّ ، لأردَّ لك ثمنه .

وضع كيهات يده في جيب ثوبه الطويل الأيمن . أخرج نقوداً خليطاً من الورق والمعدن . عدَّ بعضها . وضعه على المنضدة المقابلة لبوابة الحانوت عليها الميزان : «هذا ثمن كيلو اللحم» ، قال . رفع بصره إلى راحيل : «كم ثمن الديك؟» .

«هذا ديك أجنبي ، يا عزيزي» ، ردت راحيل متظاهرة أن ثمنه يفوق أثمان الدِّيكة الأُخَر . أردفت : «لكنني سأبيعه لك بسعر ديك من البلد» .

«ديك أجنبي؟» ، تساءل كيهات للمرة الثانية . «من أين هو ، يا ست راحيل؟» .

«لا أستطيع التصريح عن موطنه» ، ردت راحيل .

«لِمَ لا؟» ، تساءل كيهات ، فردت راحيل :

- إن عرفت دجاجاتك من أين هو ، قد يبلِّغن عنه فرعَ أمن الدولة .

ابتسم كيهات من تكاثف المرح في الحانوت كتكاثر أنين الذباب وطنينه ملتصقاً بالشرائط المصمَّغة . شاركها مزاحاً :

- أعطيني ديكاً سورياً ، يا ست راحيل ، عربياً ، مسلماً . لا أريد ديكاً أجنبياً لا أعرف دِيْنَه ولا موطنه .

تأوهت راحيل ، أو تصنَّعت تأوُّهاً . ربتت بيدها اليسرى على لفافة الورق الخشن حَوَتِ اللحمَ بالعظم :

- لا تخفْ . أَعِدُكَ أن هذا الديك الأجنبي لن يبوح لدجاجاتك بشيء عن جنسيته ، ولن يضلِّلهن عن دِيْنهنَّ ، ما دام سعره هو سعرُ ديك من هذا البلد ، لا أكثر .

«كم؟» ، سألها كيهات .

«ليرتان» ، ردت راحيل .

دفع كيهات ثمن الديك ليرتين من مالِ عمله . حمل لفافة اللحم

تحت إبطه الأيسر ، وحمل الديك بيده اليمنى من ساقيه المطوَّقتين بشريط قنْصِ الذباب المصمَّغ . رمى بنظرةٍ لهفةٍ من عينيه إلى المرأة وابنتها :

- أزوركما غداً .

«نحن في زيارة غداً . لن نكون في البيت» ، عقبت راحيل .

«أوه» ، غمغم كيهات متحسراً . «السبت الذي يليه إذاً» ، قال . خرج من الحانوت . أرسل بصره شمالاً إلى منزل إبراهيم .

لم تكن سيارة رجال الاستخبارات هناك . مشى متمهِّلاً صوب المنزل . نظر إلى بوابته المغلقة بلا توقف .

رفرف الديك بجناحيه استياءً من انقلاب الأرضِ إلى أعلى والسماءِ إلى أسفل ، وهو في قبضة كيهات منكَّس الجسد . قذف الحياةَ بشتيمةٍ قأقأةً من لغة الطير .

الفصل الثالث

رؤيا النبيِّ الكاهن

تناثرت الدراجات الهوائية منقلبةً على قارعة الشارع الرئيس ورصيفيه . تطايرت الأحذية . تلاطمت الأصوات متهارِشةً كالهررة . طارد شبَّانٌ شباناً في ثيابهم الموحَّدة ـ ثياب «الفتوَّة» العسكرية النمط . ارتدَّ بعضُ المطارَدين على بعض المطارِدين في حلقة دائرية ، يصعدون الرصيفين المتقابلين ، وينزلون إلى القارعة التي لم تعبرها سيارة واحدة بعد ظهيرة ذلك اليوم المتقشِّر الغيم رقيقاً متفرِّقاً .

سكاكين صغار التمعت شفراتها في الأيدي . سكاكين تُطوى وتُفتح جذْباً لحلقاتٍ بالأصابع في أواسطها ، وسكاكين يقفز حديدهن الرهيف من دواخل مقابضهن بضغط على المَحَابس .

قبضات من المعدن النحاس ، والحديد ، أُدخلت فيها أصابعُ المتعاركيْنَ كالخواتم ، سُدِّدت أسنانها النافرةُ ، الخطرة ، إلى الوجوه عشواءَ تُصيب أو لا تصيب ، لكنها تُسدَّد بإصرار على نَيْلِ الغريم من غريمه إصابةً ترضُّه ، وتجرِّحه .

غير أن السكاكين كانت غايتها ، في الأرجح ، تهديداً في المجابهة ، أو ردْعاً يحذِّر به الخصمُ خصمَه من الإقتراب منه ، مُذ يدرك الشبان ، في الفريقين المتعاركين ، أن الطعن بالسكاكين مَجْلَبة للمجهول المحذور ، فيكتفون بها تلويحاً ، فيما تكون حصَّةُ القبضات الحديد ، والقبضات العواري ، والركل بالأقدام ، والعض بالأسنان ، والتقاذف بالدراجات الهوائية تُرفَع عالياً وتُرمى ، هي الميثاقُ غيرُ المُبْرَم في المشاجرة بين المتعاركيْنَ ، ذلك اليوم من مطلع أيلول .

كان ترتيب الألسنة للكلمات شتماً ، وتحقيراً ، وتباهياً بامتلاك الحق ، هو التعريف بمذْهَبيٍّ المتخاصمين : شبان يرددون «ألله أكبر» اتِّكاءً بكتف إيمانهم على كتف الغيب الذي لا يُغلَب . وشبان يستنزلون على أخصامهم اللَّعْنَ الذي لا بؤس يَعْدِل مرتبتَه : «يا إخوان الشياطين» .

فصيلان اجتمعا في الشارع الرئيس ، الذي يقطع المدينة من شرقها إلى غربها بلا تعرُّج ، أو التواء ، إلاّ القليل من الانحدار الهيِّن في غربه ، قبل بلوغه وسط المدينة . ربما ـ وهذا هو الأرجح ـ أن المتبارزَيْنَ بالقبضات الحديد ، وبالسكاكين ، نقلوا حربَهم إلى الشارع الرئيس ، كتحديد مُعْلَن لموضع الحلبة ، وهم في المدرسة بَعْدُ ، مذ لم تكن مصادفةً أن يلتقوا هناك جمعاً إلى جَمْع ، في انصرافهم إلى بيوتهم بعد ساعات الدرس في مرحلتهم الثانوية . والأرجح ، أيضاً ، أن تأجيل المعركة في المدرسة ، ونقلَها من ثم إلى الشارع الرئيس في المدينة ، هو توافقٌ على استعراض القوة مكشوفةً على أبصار العابرين .

طلاب من حركة «الإخوان المسلمين» ، والمناصرين لهم ، ممن هَدَتْهم اللذائذُ المؤجَّلة في الأرض إلى اللذائذ المباحة في السماء بلا قيد ، على وعدٍ من الله للجسد أن يتفجر شهواتٍ لن يُحصيها عِلْمٌ ، وطلابٌ من حزبِ «البعث» ، الحاكم الأمين ـ بلا تمحيص في الأمانة ومقاديرها ـ لفكرة بعث الأمة عن يديه وحده ـ مساكيْنَ ومجروحين ، وأثرياءَ ، وفقراء ، ومقهورين ، وقاهرين ، وعقلاء ، ومعتوهين ، ولصوصاً ، ومهزومين في الحروب كلها ـ بعثاً تعود به الأمةُ إلى عِرْقها صِرْفاً ، متَّحدةً كمياه المحيط ، جبارة كأبهى الجبروت عرفتْهُ في غزوها الأرضَ تنكيلاً بالأعراق .

كانوا جميعاً في الثياب الإلزامية ارتداءً ـ ثيابِ العسكريِّ أقرَّتْهُ مدارسُ الدولة ، في المرحلتين الإعدادية والثانوية ، لطلاَّبها اقتداءً بالتربية العسكرية في أنظمة الإشتراكيات الكبائر تحصيناً للعقل بحذاءٍ خشن ،

صارم الإيقاع مشياً، وحزام عريض فوق السترة الخاكيَّة إظهاراً لمنطق الحزم، وقبعة مهيبة تكتمل بها هيئة الإنسان في الدولة مُسْتوفَزَ العزم، متأهباً لحماية جلالها من أيِّ خَدْش.

إنها ثياب «التوحيد» المبجَّلة اصطلاحاً تحت لفظ «الفتوَّة»، أيْ المقدار المتوجب لحقائق الجسد - في مرحلة العمر المنسوجة بخيوط الشباب القوية - أن تُسْتَحْصلَ ثابتةً، خالدة.

إنها ثياب لا تؤمن بعبور الأعمار إلى مراحل أُخرياتٍ، من قوة إلى ضعف. لا تؤمن بقواعد القانون العضوي في انتقال الخلايا من منزلة إلى منزلة. الذكور والإناث مُلزَمون بـ «الوحدة» هيئاتٍ كشعار الحزب في فرض الوحدة عِرْقاً على القَدَر. وها هي الثياب تلكً تتناحر بالقبضات الحديد لَكْماً، وبالأقدام ركلاً، وبالدراجات الهوائية قذفاً، وبالسكاكين تلويحاً من غير طعن، لكن قد يغدو طعناً عن خطأ في تقدير التسديد، أو عن انتقام طهاهُ الحقدُ فأنضجه.

كيهاًت، الحليق الشعر على محيط رأسه حتى الجلْد، كان واقفاً عند الشبر الأقرب إلى عتبة باب مكتبة «اللواء»، في بزَّته التقليد لثياب جيش الدولة الأبديِّ، مذ هو تلميذ في المرحلة الإعدادية. كان واضحاً أنه لم يرجع من المدرسة إلى البيت بعدُ ليستبدل ثيابه كما يفعل البعض، أو يُؤْثر البقاء فيِ بزَّة «الفتوَّة» إن حلا له التجوال بجسده في الثوب العسكريِّ، أو آثرَ ذكورةَ المظهر تُضفي البزَّةُ عليه، على نحوٍ لا تتحصَّل الفتيات عليه أنوثةً في بزَّاتهن «الفتوة» فيستبدلنَها فورَ عودتهن إلى البيوت.

أحسَّ كيهات انتصاباً في بقية الشعر على قُلَّة رأسه، قصيراً من وجوب حلاقة الشعر على النمط «الانكليزي» تحديداً. مصطلحُ الحلاقة هو «القَصَّةُ الانكليزية»، أيْ مَحْوُ الشعر من حول طوق الرأس، وإبقاءُ بعضهِ قصيراً على قُلَّته. جيوش كُثر في العالم تحفظ لنفسها صرامةَ الحلاقة على

ذلك النحو ، فلماذا تخيَّر جبابرة التربية العسكرية في مدارس سوريا المدنية ، وثكنات جنودها ، ذلك الطراز ، ووسموه بلفظ «الحلاقة الانكليزية؟» . لا يهم . قَدَرُ التلاميذ في شبابهم أن ينسلخوا عن التباهي بجمال الشَّعر إلاَّ في الصيف أحياناً يُطلقونه . وإن أطالوا شعرهم قد يقع بعضهم ـ ربما ـ في قبضة شرطي يجزُّه له جزاً مشوَّهاً ، مع نعته بـ «المخنَّث» مع صفعة .

الفتيات محظوظات : إنهن لا يحلقن شعورهن .

انتصبت بقيةُ شعر كيهات على رأسه المكشوف ، إذ دسَّ قبعتَه في جيب بنطاله ، وهو يرى التطاحُنَ في العراك على قدْر الحقد في المتطاحنين ، وعلى قَدْر إيمان كلِّ فريق أنه قادر على أن ينتزع حقيقة مُعْتَقَد الخصم في وجوب انتساب التاريخ إلى حقيقته . فريق مؤمن بإله الفردوس اللذائذ ، وآخرُ مؤمن بإله العِرْق ذي التاريخ القوي الأسنان يقضم كلَّ معتَقَد آخر كالفستقة .

كيهات ، كالمتفرجين الآخرين من ناصيتيِّ الشارع جمعاً على النزال في الحلبة المفتوحة ، أدهشه عنادُ المتقاتلين كأن لم يخطر لأحد منهم أن شرطة ، أو رجالَ استخبارات قد يحضرون ، وهم في عِراكهم بعدُ . يفهم كيهات أن لا يَحْذَر الطلاب البعثيون حضورَ الشرطة إن حضرت ، لكنَّ الطلبة المبايعين حركةَ «الإخوان المسلمين» كانوا يُجارون غُرماءَهم الإحساس ذاته من عدم الحذر ، بتأكيدٍ من قلوبهم أن الله ـ الذي أنجد المؤمنين في معارك نشر رسالة الإسلام ، في المطالع الأُوَل من نزول الوحي على نبيِّه العربيِّ بصوت الملاك أحياناً ، وأصوات بعض الصَّحابة أحياناً ، بملائكة محاربين ـ سيُنجدهم أيضاً ، على تهليل الحوريات لهم من أبواب مَخَادعهنَّ في الفردوس مفتوحةً لا يحتاجون إلى مفاتيح لدخولها مُذْ جهادُهم مفاتيحهم .

إيمانٌ مفاتيحُ لمقاصير الحُور في جيوب «الإخوان المسلمين» ، واعتقادٌ مفاتيحُ في جيوب البعثيين ؛ اعتقادٌ ببعثٍ ليس عبوراً من عبور الموتى ، بعد نفيرِ الملاك إسرافيل من بوق القيامة ، إلى ميزان الحساب ثواباً وعقاباً ، بل عبوراً إلى نهْبٍ من تشريع فكر البعث للنهب تأسيساً للدولة مزرعةً مُحْتكَرة .

كيهات ، الذي تهيَّبَ مشهدَ العِراك مطلعَ حدوثه ، غدا مستحسناً الإثارةَ الصاخبة بعد انضمام عابرين جُدد إلى جمع الواقفين على رصيفيِّ الشارع ، الذين ترتفع أصواتهم تحذيراً من حذاءٍ طائش مقذوف ، أو عصا مقذوفة ، أو دراجة هوائية رفعها الهياجُ والغضب خفيفةً ، طائرة في فضاء الشارع كالشتائم طائرة ، وكالاستغاثات بالله مرفوعةً بحروف التكبيرات طلباً للمَدَدِ القدُّوس .

حضرت ، أخيراً ، سيارتا «جِيْبْ» بثمانية شرطيين لبُّوا ، في الأرجح ، نداء الهاتف من مكتبة» اللواء» التي تملك هاتفاً . نزلوا من أبوابهما ومن مؤخَّريهما ، صائحين صياح التنبيه الهادر أنَّ الدولة حضرت مرتديةً زِيَّ سُلطتها ، وقُبَّعات سُلطتها ، التي خوَّلت موظفين من البشر العاديين لحماً ودماً ، وسُعالاً وضحكاً ، أن يصيروا خارقين ، يُشرف القانون من أصواتهم الآمرة على تنظيم الأنفاس في الرئات ، وتنظيم طرائق النطق التبجيليِّ بأسماء عشيرة الحاكم ، وخَوَله ، والمتنفِّذيْنَ المقرَّبين ؛ وتنظيم عقل المحكومين الخدام في مزرعته على خطوط متوازية لا يُجاوزها ، في هندسةِ الحاكم للعقل خطوطاً ، وتنفيذِه بناءَ العقل .

لم يَسْعَ أيٌّ من الفريقين المتعاركين إلى الهرب . هُم مُعلَنون ، يعرف كلٌّ اسمَ الآخر ، وموقعَ بيته ، وصفَّه الدراسي . لا حاجة للهرب إذاً . استسلموا للشرطة مع توسُّلاتٍ خفيفة أن يسمحوا لهم بالتقاط أحذيتهم ، ودراجاتهم الهوائية .

سُلِّمت القبضات الحديد ، والسكاكين ، إلى الشرطة كَمَن يستودع الآخرَ أمانةً قد يستردُّها فيما بعد . ساقهم رجال الدولة ، ذوو القبعات المهترئة الأحفة من استعمالها المتواصل بلا تجديد . سار بعضُ الشرطة أمام الفريقين المتعاركين التزما هدوءاً في المشي ، وسار بعضُ الشرطة الآخرُ من وراء رهطَيٍّ الفريقين ، كالسيارتين ، تماماً ، واكبتهم واحدة من أمام ، وواحدة من خلف ، سيراً بطيئاً إلى حيث مخفر الشرطة ، إلى الجانب الشمالي من مبنى السراي . هناك ، قطْعاً ، سيُستدعى رجال المخابرات مُذ العراكُ سياسيٌّ وليس جنائياً . سيُفرج عن البعثيين ، وسيُقاد مريدو «الإخوان المسلمين» إلى مبنى الاستخبارات ، في الأرض المرتفعة قليلاً ، شمال غرب دار سينما شهرزاد الصيفية .

تفرَّقت الجموع في الشارع كلٌّ إلى شؤونه ، بصور محفوظة في خزْنة خياله عن عراكٍ هو كُفْرٌ في عُرف الدولة لا يشبه قتلَ إنسانٍ إنساناً ، أو حرق بيت بمن فيه ، أو هجومَ عشائر على عشائر في الباديةِ بالبنادق . العصيانُ السياسي مروقٌ على الدولة ؛ خروجٌ عليها ؛ استهانة بشعارها الخالد ؛ هرطقةٌ .

سيفكر المغادرون طَوَاريّ الشارع في أنواعِ العقاب يستنزلها رجالُ الاستخبارات بمريدي «الإخوان المسلمين» لكْماً ، وركْلاً ، وشتماً ، و«فَلَقات» ترتفع فيها الأقدامُ إلى أعلى مبلولةً بالماء فتُصفع أخامصُها بالعِصيِّ الخيزرانِ . ستُكسر نظارات من على عيونهم نظارات دَعْساً بالأحذية . ستُشدُّ بقيةُ ما تستطيع اليد شدَّه من شعورهم القصيرة . ستُفرك الآذان بالأصابع ، وسيُطلق سراحهم ، بعد يومين أو ثلاثة يتوجب فيها على أهلهم جلبُ الطعام لهم ، على أن يتعهد أولياؤهم لرجال الاستخبارات بعدم تكرار أولادهم إهانة صفاء الهواء في الدولة سراً ، أو علناً ، لأنهم هُم أولياؤهُم سيُقادون إلى سراديب الأقبية إن أخلَّ أحدٌ بتعهُّده .

كيهات كان قادماً من المدرسة لشراء بعض القِرطاسِ دفاترَ، وأقلاماً، من مكتبة «اللواء»، في بدء عامه الدراسي الجديد. إسم المكتبة اختصارٌ أُسْقِط منه المضافُ إليه: «اسكندرونة». أي أنَّ الإسم الكامل هو «لواء اسكندرونة».

إنها المكتبة الأعظم شأناً في المدينة، سمَّاها صاحبها على اسم أرض لن يُعرف نَسَبُها أهي سورية، أمْ تركية. الواقع ينسبُها إلى تركيا، التي ضمَّت الإقليمَ ـ المدينةَ وخليجها، المسمَّى لواءً على الشاطئ الشمال الشرق من البحر المتوسط ـ إلى خزْنة تاريخها. والخيالُ افتراضاً ـ بدافع من عصبية العِرْق ـ ينسبُها إلى سوريا، التي لا يُعرف عنها، حقاً، في تقسيم الغربيين للأرض في مراحل استعمارهم للشرق، أهي ما قدَّره البشرُ توزيعاً للجغرافيا بِمغْرفة المصالح، أمْ ما قدَّره اللهُ فصارت حدودُ الدولة إلهيةً، أيُّ إخلال بتعريف مساحتها، وحدود جهاتها، هو من باب التجديف.

باتَ «لواء اسكندرونة» ـ المدينةُ والخليجُ ـ من تصنيف الخياليِّ إن نُسِبَ إلى سوريا. وبات «لواء اسكندرونة»، من تصنيف الواقعيِّ إنْ نُسب إلى تركيا. أما مكتبة «لواء اسكندرونة»، فهي اجتماعُ الواقعيِّ والخياليِّ معاً: الواقعيُّ متحقِّق ببراهينه في كل ما يتصل بمستلزمات التلميذ في مدرسته، دفاترَ وأقلاماً، وحقائبَ، وحبراً، وخرائط ورقية، وصمغاً، وورقاً ملوناً لأشغال اللَّصق التشكيلي، وورقاً للرسم، وألواناً مائية، وزيتية في مواسير، وورقاً أزرق لتغليف الكتب، وشرائح بلاستيك رقيقة، شفيفة، لتغليف التغليف، وسراويلَ سوداً قصاراً لدروس الرياضة، وكُرات للملاعب مفرَّغة من الهواء يحوجها نفْخٌ، وفراشي للتلوين، ومقصات، ومباريَ للأقلام الرصاص والملونة، ومساطرَ، وحوائجَ أُخر لا غنى للطالب عن اقتنائها.

للخياليِّ الساحر من شراكتِهِ الواقعيَّ في مكتبة «اللواء» ـ المدينةِ

المفقودة بخليجها المفقود إلى الأبد ـ براهينُه الساطعة حضوراً أيضاً : الروايات على أنساق متخالفة فَهْماً للوجود بين عربيِّها تأليفاً ، ومُتَرْجَمها عن لغات أُخر ؛ ومجلات القصص المصورة العربية رسماً وتلويناً ، يجاورها ما يُستعار ترجمةً من عالم وولت ديزني ، الراسي بأسس أعمدته العملاقة على ظهر فأرٍ ، كرسوِّ كوكب الأرض ذاته ـ في مُعتَقَد كُثر من أئمة الإسلام ـ على ظهر الحوتِ «نُوْنْ» كلَّما اهتزت عضلة في زعنفة ذيله جَرَتِ الزلازلُ في عروق الأرض ، وشرايينها

دخل كيهات المكتبةَ ، بعد وقت صرفتْه الظهيرةُ مقامرةً في الرهان على عراك فِتْيَةٍ في بِزَّات «الفتوة» . اشترى ورقاً أزرق واسعَ الشرائح لتغليف الكتب ، وشرائح من البلاستك الرقيق ، الشفاف ، ولواصقَ مستطيلة ، صغاراً ، من ورق أبيض مصمَّغ يُلصق باغلفة الكتب ، بعد لعقه باللسان كطوابع البريد ، لتدوين عناوينها .

الأيام الأُوَل من عودة التلاميذ إلى المدارس ، مطلعَ شهر أيلول ، هي أيامُ تجارة لا مثيل لها في آداب التجارة : شراءُ كتب مدرسية مستعملة ، وبيعُ كتب مدرسية مستعملة . الكتب الجديدة ورقاً ، بإصدار من وزارة التربية ، غالياتُ الأثمان . لا منجى لأحد من شراء بعضها إنّ غيَّرت الوزارةُ شيئاً من صفحاتها ضماناً لبيعها . كتبٌ أُخَر تبقى على حال نظامها في التأليف القديم لسنين ربما . ما لا يتغير من أولئك الكتب يعمد تلامذةٌ إلى بيعها لمن بلغوا صفوفهم صعوداً من مراحلِ دُنىً في الدراسة ، وإلى شرائها ممن سبقوهم إلى صفوف عُلىً في مراحل الدراسة .

تجارة لا مثيل لها : شطارةُ تلاميذ ، ونباهتُهم ، تُفضيان بهم إلى التحسُّب لبيع كتبهم المستعملة في السنة التالية . إن لم تجلَّد أغلفتُها اهترأت من تداولها بالأيدي ؛ مِن حشْرها في المَحافظ الضيقة ، والتضارب بها على الرؤوس مزاحاً ، أو قَصْدَ أذىً . الكتب المهترئة تُباع رخيصة ، أو لا تُشترى

ربما . الشُّطَّارُ النبهاء من التلامذة يحرصون على تغليف كتبهم بالورق الأزرق ، الخشن قليلاً ، متعارَفاً عليه في الصناعة أنه للتغليف . لكنه لا يكفي بنفسه وقاءً مضموناً من التَّلف . إنه ورق ، والورق يتهرَّأ بين الأيدي تداولاً سنة بأكملها من فتح الكتب وإغلاقها ؛ من نشْرِها وطيِّها ، وليٍّ صفحاتها تقليباً . يلزم التغليف بالورق الأزرق تغليف آخر : البلاستك الشفيف ، الرقيق ، هو غايةُ الحِرص وضمانتُه في بقاء أغلفة الكتب صامدة ، نقية اللون بياضاً لم تَمسَسْها الأصابع متعرِّقةً ، أو عليها أثرٌ من حبر ، أو وسخ ؛ وفي بقاء الأغلفة فتيَّةً ، أبكاراً ، لم يدنِّس شبابَ ورقها لمسٌ ماجنٌ ، أو أصابع معتكرة الأمزجة في تقليب التلامذة للأغلفة على غضبٍ أحياناً ، وعلى قَرَف من الحياة أقعدتهم على مناضد لا ترتوي من إلزامهم بالواجبات خشنةً ، ثقيلة ، قاسية ، مرهِقة ، لا بصيص من متعة فيها إلاَّ ساعات درس الرياضة الفارغة من الرياضة ، وساعات درس الرسم الفارغ من الرسم ، أو أية ساعة أخرى من درس يغيب عنه المعلِّم بعذر المرض .

كيهات كان يتلمَّس في مكتبة «اللواء» شراء ورق أزرق ، وشراء شرائح بلاستك شفيفة تباع بالأمتار ومجزوءاتها ، وشراء لواصق كالطوابع يملأها بعناوين الكتب . لقد باع كتب عامه الدراسي الماضي ، المغلَّفة جيداً ، بسعر يُحسَب منصفاً لما بذله من الحرص عليها ، واشترى كتباً أقلَّ جودة ممن سبقوه في عامهم الدراسي ، لكن لم تهترئ أغلفتها ، ولم تتمزق صفحاتُ دواخلها . وهو سيغلفها جيداً لسنته ، وسيبيعها ـ قطْعاً ـ بسعر أغلى مما اشتراها به . لقد ربح نقوداً في الفرق بين كتب باعها وكتب اشتراها ، سيدَّخرها مع ما اكتسبه من عمل الصيف ، بما يكفيه ـ ربما ـ لابتياع التبغ أشهراً ، وزيارة دور السينما كل أسبوع .

تلميذان آخران ، من زملائه انتقالاً معه من صفٍّ إلى صف ، سنة بعد أخرى ، كانا على حرصٍ يفوق حرصه في تغليف كتبهما المدرسية

تغليفاً مضاعفاً ، هما سمير اسحق ، ونعيم سامح اليهوديان . يبيعان كتبهما المستعملة بسعر مُغر يُرضيهما ويُرضي الشارِيْنَ ، ويشتريان بنصف ثمن ما باعاه كتباً لدروس عامهما الجديد من تلامذة آخرين . وهُما يقدران ، طوال عامهما الدراسي الجديد ، أن يحفظا الكتب اللواتي اشترياها على حالها كما اشترياها ، أو أفضل ربما ، فيبيعانها بالثمن ذاته ، أو أعلى في العام التالي .

انقضى الصيف إلاَّ رمقُه الأخير . تقوَّضت أواخر عظام حرارته بالنثيث الأول من مطر الخريف على الأسرَّة ، والفُرُش الممدَّدة على بُسُط في ساحات البيوت المسوَّرة ، وعلى سطوحها ، حيث النسائمُ الفَرَجُ في الخارج منعشة لا تصل إلى دواخل الغُرف . القطرات الأوائل من مطر البرزخ ، بين صيف منحسر وخريف يقضم أذيالَ الصيف ، تترك على كل شيء رائحة من أسرار الروائح . كل أهل الأرض الناجية من براثن أيام القيظ ، يتذاكرون رائحة الأرض بعد المطر الأول ، بما في طاقة أحاسيسهم تعبيراً باللسان ، على كثير من التقشف في الوصف ، أو ثرثرة في الوصف . قد لا يسبرون الغورَ إلى عمق الكلمات عن أحاسيسهم ، مُذِ الوصفُ الحقُّ هو إيمانهم بما لا يوصَف . كلماتهم ضيقة . أحاسيسهم واسعة .

تتذاكرُ الناسُ ، استعراضاً من حِذْق الألسنة ـ بحسب تخمينهم للحذاقة ـ أن للأرض من المطر الأول ما يشبه رائحةَ اغتسال الحَجَل في مناقع الماء على سفوح الجبال ؛ وأنَّ لها رائحة البحر الذي لم يمرَّ أحد منهم بشاطئة ؛ وأنَّ لها رائحة الذهب إن نُقع خاتمٌ ذهب ، أو سِوار ، في خِضاب الحنَّاء المائع ؛ وأنَّ لها رائحة ربْح بعد المجازفة ؛ وأنَّ لها رائحة رغوة الحليب إذا غَلى ؛ وأنَّ لها رائحة قطيع منَ الأغنام يُساق إلى أحواض الماء ؛ وأن لها رائحة النوم بعد الفجر ؛ وأنَّ لها رائحة سطوح البيوت اللَّبِنية أول بنائها لم يزل طينُها رطباً لم يجفَّ بعد .

لكنَّ للقطرات الأوائل من سقوط المطر على الفُرُش والأسِرَّة في باحات البيوت ، حيث لم تغادر الناسُ بعدُ إلى موسم النوم في دواخلها الراكدة الهواء ، توصيفاتٍ لا يلحق بها معنى يمكن رصدُ بنائه وإنشائه . سقوط قطرة من المطر على وجه النائم في سريره ، تحت سماء ساحة البيت المسوَّرة ، أو على سطحه ، تنبيهٌ روحانيٌّ ؛ فكرةٌ بلا خصائص كالتي في الأفكار ؛ سَيْرٌ في بستان ؛ مسارةٌ بالكلمات البُنيَّة ؛ مخاطبات على مشارف الأودية ؛ سرقةٌ عذبة ؛ اختلاس نظرة إلى امرأة حسناء ، أو شابٍّ ذي حُسْن .

كيهات - في ظهيرة يومه الذي شهد معركةً على قارعة الشارع الرئيس في المدينة ، وشهدَ جيبُه إفراغَ نقود من باطنه في البنطال ثمنَ ورق التغليف ، وشرائح البلاستك الشفافة لتغليفٍ فوق التغليف - أفاق فجراً على قطرات من مطر قرعت أذنه اليسرى على الوسادة . رفع رأسه مفتوحَ الفم ابتهاجاً غامضاً باليد المائية التي أيقظته . التفت إلى أخيه في الفراش المجاور على البساط فوق الحصى يسع فراشين . كان موسى مستيقظاً ، يكشف اللحاف عن وجهه ، ويغطيه ، في حركةِ لعب . أدار وجهه ، بدوره ، إلى أخيه . ألقى إليه كلماتٍ ملغزة من أسرار المعاني النازلة على سُلَّم الفجر إلى الهذيان :

- سأصير شيوعياً ، يا كيهات .

أزاح كيهات بصره عن وجه أخيه ، كأنه لم يسمعه ، متطلعاً إلى أبيه يجمع لحافَيْ فراشه وفراش زوجته ، الجاثية إلى جواره تطوي إحدى الفرشتين .

«انقلا فراشيكما إلى غرفتكما» ، قال أوسي مخاطباً إبنيه ، فيما ازداد نزول القَطْر الأنيس قليلاً من سماء موزَّعة الخاطر بين ابنها فصل الصيف الراحل شيخاً ليتجرَّع ترياق الفتوَّة في مختبرات الأفلاك ، وبين ابنها فصل

الخريف المؤدَّب قادماً من سطور المنهاج الذي خوّله ـ بتعاليم الشمس المتعاقبة رحيلاً على المسالك إلى منازلها قُرْباً، أو بُعداً، عن الأرض ـ أنْ يتسلَّم مقاليد الثلاثة الشهور القادمة مَلِكاً.

«لماذا علينا أن نحمل فراشَينا إلى الغرفة، يا أبي؟»، تساءل موسى.

«أتريد أن يتعفن الصوف في فراشك، ولحافك، من البلل، يا وحش السينما المصرية؟»، ردَّ أبوه.

«كيف تعرف وحش السينما المصرية وأنت لا تحضر أفلاماً؟»، سأل موسى أباه جالساً، قبل أن يمد لسانه خارج فمه يتلقَّط قطرات من المطر الخجول.

«مِن عباقرة مثلك ومثل أخيك»، ردَّ الأب. ساقَ نبرَ صوته إليهما أكثر صرامةً: «احملا الفراشين إلى الداخل».

سبقت هدلا الجميع إلى حمل فراشها. مشت به إلى غرفة الأبوين. عادت لتحمل البساط اللِّبْدَ، الممدد على الحصى، في ثوبها الواسع الطويل مُرخى بلا وشاح على خصره، سافرةَ الرأس. رفعت البساط. تطلعت إلى حقل الورد المستطيل لا ورد على غصون شجراته، بل ورق أخضر بعدُ، احتمت به الدجاجات متفاجئاتٍ من زائر الفجر ـ مطرِ السماء، إلاَّ الديك الأسود مختالاً ينقر الحصى. خاطبَت ابنها الأكبر:

– اصنعْ لهؤلاء الدجاجات قُناً، أو وضعتُهنَّ في التنُّور.

«سأصنع قناً، يا أمي»، عقب كيهات على تهديد أمه. نهض على قدميه في منامته البيضاء بخطوط زرقٍ طولاً على القميص والسروال الطويل.

«اصنعْ لهنَّ قناً، وأرسلهن إلى المدرسة»، قال موسى. نهض بدوره على قدميه يجمع لحافَ فراشه، في منامته السروال الأبيض بخطوط حُمر، وقميصه القطن أبيضَ بلا كُمَّيْن.

«أقلتَ شيئاً ، قبل قليل ، عن الشيوعيين ، يا موسى؟» ، سأله كيهات ، وهو يطوي فراشه ولحافه لِفافة ثخينة . طوَّقها بذراعيه . رفعها على كتفه اليمنى لينقلها إلى غرفته وغرفة أخيه .

«سأصير شيوعياً» ، رد موسى متجهاً باللحاف وحده إلى غرفته ، ريثما يعود لجلب الفراش أيضاً .

«ماذا؟» ، هتف به أبوه في منامته القميص الأزرق الطويل حتى عقبيه ، حاملاً الفراش واللحاف لفافة واحدة على كتفه اليمنى .

توقف موسى . التفت إلى أبيه :

- سأصير شيوعياً .

«ماذا يقول ابنك؟» ، سألت هدلا زوجها آتيهً إلى الباحة تتفقَّد من يحتاج إلى عونها .

«سيصير موسى شيوعياً» ، رد الأب بنبرة كسولة في صوته ، كأنه لم يفهم حقاً ما قاله ابنه .

«شيوعي؟!» ، تمتمت هدلا مستغربة .

«نعم ، يا أمي» ، رفع موسى صوته ، واقفاً بعد تحت نثيث المطر ، حاملاً لحاف فراشه ، مستعذباً ، في الأرجح ، إطالةَ الوقوف في باحة البيت . أردف مؤكِّداً : «سأصير شيوعياً» .

«أتصير كافراً ، يا منقصفَ العمر؟» ، سألته أمه مستفظعةً .

«سأصير شيوعياً مؤمناً بالله ، وبدِيْن السينما ، وبحزب البعث ، وبالأمة العربية الواحدة» ، رد موسى ناطقاً آخر جملته بالعربية .

«ألسينما دِيْنٌ؟» ، سأله كيهات مهأْهِئاً في خفوت ، ساخراً .

«إنه الدِّين الأعظم» ، رد موسى .

«إبنك بات كافراً ، يا أوسي» ، قالت هدلا متسمِّرةً في موضعها ، تحت نثيث المطر ذلك الفجر .

«ليس للسينما دِين، يا هدلا، كي يؤمن ابنُك به»، رد أوسي مخفِّفاً عن زوجته. خاطب ابنه:

- أأنت محرور، يا موسى؟

«ماذا تعني، يا أبي؟»، تساءل موسى.

«كيف يصير المرء شيوعياً إن لم يكن محموماً بلغت حرارتُه تسعاً وأربعين درجة؟»، قال أوسي. أردف معدِّداً ما يعرف من الأمراض تصحبها الحُمى: «تيفوئيد. ملاريا. دسنتاريا. جُدَري. نَفْخُ الشيطان».

«ألستم تتبللون؟»، هتفت هدلا بهم، تحثُّهم على الإسراع في نقل الفُرش إلى داخليّ الغرفتين.

«الشيوعي لا يتبلل، يا أمي»، رد موسى.

«ما به ابنُك، يا أوسي؟»، سألت هدلا زوجها، مستنجدة به كي تفهم شيئاً.

«سيصير شيوعياً»، رد أوسي باختصار لا يُشبع فضولَ هدلا وتوجُّسَها.

«أأنت سعيد؟»، سألت هدلا زوجها. أضافت بنبرٍ توبيخٍ: «ربما يسعدك أن يصير موسى كافراً هذا الفجر».

حدَّق أوسي تحت نثيث المطر إلى ابنه موسى:

- أأنا سعيد؟

«أنت دائماً سعيد، يا أبي»، رد موسى.

«أعني، يا حمار، أأنا سعيد أن تصير شيوعياً؟»، عقَّب أوسي.

«لِمَ لا، يا أبي؟»، قال موسى.

«ما فائدة أن يصير حمار مثلك، في الثالثة عشرة، شيوعياً؟»، تساءل أوسي.

«يحصل تعادُل في عائلتنا مثل سائر العائلات في هذه الدولة» ، ردَّ موسى .

تفرَّس أوسي ملياً في منطق ابنه الغامض . تمتم :

– ماذا في دماغك الفارغ؟

«افهمني ، يا أبي» ، تكلم موسى . استطرد شارحاً : «جيراننا ، بيت الستِّ كاتيا ، زوجها بعثيٌّ . إبنها جورج بعثي . إبنها دَنْحو بعثي . إبنها باسيل شيوعي» .

«أُقسم أن موسى لا يعرف ما الذي يعنيه» ، تدخَّل كيهات .

«كيف لا أعرف ما الذي أعنيه ، يا معلِّم الدجاجاتِ ارتداءَ أحذية عسكرية ، وتدخينَ التبغ؟» ، رد موسى متهكِّماً .

«أتدخِّن الدجاجات حقاً؟» ، تساءلت هدلا بنبرٍ بريء ، فرد موسى :

– يُدخِّنَّ تبغَ «خصوصي للجيش» .

«بَدَلَ مساخرك هذه ، يا موسى ، اشرح لأبيك ما تقوله عن تعادل العائلات في دولتنا البعثية» ، قال كيهات .

وضع موسى اللحافَ المطوي لفافةً بين فخذيه فأطبقهما عليه . رفع يديه مكوَّرتين ، متقابلتين ككفَّتي ميزان . خفض يداً . رفع أخرى ، في تصويرٍ للشرح :

– العائلات ، في دولتنا ، مثل الميزان : بعثيٌّ في كفة . شيوعي في كفة . إخوان مسلمون في كفة . ناصريون في كفة .

«كم كفَّة في ميزان كل عائلة من عائلات دولتك ، يا موسى؟» ، سأله كيهات .

«لا يهم» ، رد موسى .

«لا يهم؟!» ، تساءل كيهات مستغرباً ، فرد موسى :

- عائلتنا، كي تصير معادِلة لعائلة جارتنا كاتيا، عليها أن تنتسب لأحزاب عدَّة.

«مثل ماذا، يا إمام السينما؟»، سأله كيهات، فرد موسى:

- أنا أصير شيوعياً. أنت تصير بعثياً. أمي تصير من الإخوان المسلمين. أبي يصير من البَارْتي.

«هِهْ. هِهْ. هِهْ»، هتف أوسي بابنه يُسكته بنبرِ غاضب: «لا تذكر اسم حَزب البارتي في هذا البيت، يا حمار ابن حمار. أتريد أن أُطرَدَ من عملي؟».

كان الأب محقاً في هلعه من تلفُّظ ابنه باسم حزب كردي أسسه الملا مصطفى برزاني، قبل عقود، في مراعي الخوف الكردي، ملتجئاً من جبل إلى جبل بحلمه في كيان من الأرض يخصُّ الكرد كالآخرين.

مَن ينتسب إلى حزبٍ آخر غير «البعث»، ويُعلِن ذلك، أو يُضبَطُ متلبِّساً بمنشور، أو كتاب يحوزه من مذهب حزبه المحظور، يُوْدَع السجن مُهاناً، معذَّباً، لوقت قصير أو طويل، أما من يُضبَطُ متلبِّساً بشعورٍ خفيٍّ من انتسابه إلى الحزب الكردي «البارتي»، فسيختفي بعد اعتقاله؛ سيسوَّى به ظلامُ الأرض أسفلَ سطحها.

انتفض جِلْدُ أوسي إذ ذكر ابنُه الأصغر اسمَ الحزب الكردي المحظور أن يُنْتمى إليه، والمحظور إعلانُه لفظاً على اللسان. خبط بقدمه اليسرى على الأرض الحصى حافياً. هتف بابنه هامساً في حَنَق:

- اذهبْ. جِدْ سكيناً. اقطعْ لسانك. أنت تخيفني.

تجمَّد موسى مستشعراً في كلمات أبيه من الذعر مَا أذعَرَهُ. تصنَّعَ ابتسامةً:

- سنكتفي في عائلتنا بالحزب الشيوعي، والبعثي، والإخوان المسلمين، والناصريِّ.

«مَن منا ينتسب إلى الحزب الناصري ، يا شارلي شابلن؟» ، سأل كيهات أخاه .

«دجاجاتك ، رد موسى .

هأْهأَ كيهات . سأل أخاه الأصغر :

- ماذا عن الديك؟

«هو من حزب كمال أتاتورك . ديكٌ تركيٌّ ، يا كيهات» ، رد موسى .

استظرف كيهات ردَّ أخيه :

- كيف تعرف أنه ديكٌ تركي ، يا موسى؟

«صياحُه يشبه الغناءَ التركي» ، رد موسى .

ارتفع صوت هدلا بنبرٍ كالعويل :

- ابتلَّت الفُرُش ، وابتلَّت عظامنا . أستبقون مغرِّديْن تحت المطر؟

رفع كيهات صوته ، في وقوفه تحت النثيثِ المطر :

- كيف ستصير شيوعياً ، يا طرْزان؟

التفت موسى إلى أبيه . سأله :

- كيف يصير المرء شيوعياً ، يا أبي؟

نظر أوسي إلى زوجته :

- إبنك مريض؟

لمست هدلا براحة يدها اليسرى قلَّة رأسها السافر ، متحسِّسة ما أصاب شعرها من البلل :

- أيبدو مريضاً؟

«لستُ مريضاً» ، صاح موسى .

«إن لم تكن مريضاً فلماذا عليَّ أن أعرف كيف يصير المرء شيوعياً؟» ، عقَّب أوسي .

«اعتبرْني مريضاً ، يا أبي . كيف أصير شيوعياً؟» ، قال موسى .

«إن كنتَ مريضاً ، يا موسى ، سأعتبرك تهذي من الحُمى . والحلُّ لتصير شيوعياً أن تتناول حَبَّتَيْ أسبرين» ، قال الأب .

«أليس الانتسابُ كتقديم طلب إلى وظيفة؟» ، تساءل موسى .

«ألن تدخلوا إلى الدار؟» ، صاحت بهم هدلا .

«سندخل ، يا أمي» ، ردَّ كيهات نيابةً . «سندخل حالما نجد حلاً لمسألة انتساب ابنكِ موسى إلى الحزب الشيوعي» .

زفرت هدلا :

– سامَحَنا الله . إننا على قرب خطوة من الكُفر .

«لا تخافي ، يا أمي . سيكون موسى شيوعياً مؤمناً بالله ، ويزور المسجد» ، قال كيهات يهدِّئ أمه . نظر إلى أخيه يسأله : «أستصلي في المسجد يوم الجمعة؟» .

«إن صرتُ شيوعياً سأصلي مرة كل أسبوعين في المسجد» ، رد موسى .

«أترين ، يا أمي؟» ، قال كيهات . استرسل : «للحزب الشيوعي فروع : فرع الكفار . فرع المؤمنين . فرع المحتارين . وفي كل فرع أقسامٌ : قِسْمٌ للمسيحيين . قِسم للمسلمين . قسم لليهود . قسم للإيزيديين حتّى» .

«قِسمٌ للإيزيديين؟» ، تمتمت هدلا وهي تمسح البللَ عن أجفانها .

«الحزب الشيوعي واسع ، يا أمي» ، عقب كيهات . اضاف : «في فروعه قِسْم للغجر أيضاً» .

التفتت هدلا إلى زوجها :

– أيمزح ابنك؟

ذلك كان مطلع فجر اليوم الذي شهد كيهات في ظهيرته معركةً بين البعثيين ، ومريدي حركة المؤمنين بالحوريات . صباحُه في المدرسة كان صباحَ تجارة . باع كتبه المستعملة . أمَّنَ النقود لشراء كتب مستعملة لسنته

الجديدة من دراستة ، أقلَّ جودة ، ليوفر لنفسه بعض المال . لكنَّ ما ربحه كيهات من تجارته لا يعادل نصف ما ربحه زميلاه اليهوديان سمير ، ونعيم ، البارعان ليس فقط في تغليف كتبهما مضاعَفاً بشرائح البلاستك الشفاف ، بل في تقليب صفحات الكتب بأناملهما تقليباً رقيقَ اللمس ، حَذِراً ، مفرطاً في الحرص ، لا يطويان الورقة ؛ يرفعانها منتصبةً ، ثم يُنزِلانها منطبقةً على الصفحة السابقة عليها .

شهد كيهات زميليه يبيعان آخر كتابين مُسْتَعمَلَيْنِ من سنة دراستهما الماضية ، هما نسختان من كتاب «التربية الدينية» . إنه كتابٌ مدرسيٌّ لا يخص دِينهما ، بل يخص الدين الإسلامي . للتلامذة المسيحيين كتابُ دروسهم الدينية ، يحضر قسٌّ من الكنيسة السريانية لتدريسهم ، منفصلين على حِدة ، في غرفة من غرف المدرسة ، عن المسلمين . لكن ليس للتلميذ اليهودي كتاب دَرْس في دولته عن نشأة دينه ، وتعاليمه . عليه أن يختار ـ لعبور امتحان «التربية الدينية» ـ حصَّةَ الدرس المسيحي ، أو حصة الدرس الإسلامي . لا مَنْجى له . لا نجاةَ له من استذكار الله بعقلٍ لا يخص فهمَه خصائصَ الله . لا مَخْلَصَ له من النظر إلى تاريخ يقينه بعينين لا تخصانه . لا مَهْرَبَ له من المرور إلى الإيمان ـ كي ينجح في امتحان دَرْسِ الدِّين آخر السنة ـ إلاَّ بوابة القلعة الإسلامية ، أو القلعة المسيحية .

اختار نعيم ، وسمير ، الانضمام إلى المِلَّة الإسلامية في درس دينها . ربما لن تتمكن ذائقةُ قلبيهما من استمراء الشدْخ المرِّ الذي يصيب إيمانهما من التزلج على مُنْحَدَرٍ وُضعت أقدامهُما عنوةً عليه . دِينُهما ـ في الصفحات التي يقرآنها من كتاب «التربية الدينية» ، بنظام إسلامي في تشريع التربية ، وفَرْضِ منهج التربية ـ يتقوَّض سطراً سطراً . الآيات القرآنية تُزيح تاريخَ يقينهما من سِجلٍ سادة المختارِيْنَ في تاريخ الرغبة الإلهية ، وإرادتها اختياراً للمختارين . دِينُهم ، في حصة الدرس ، دِينٌ بلا

سيادة ؛ دِين ينبغي أن يتنحَّى ـ مِن تقادُم الزمنِ الذي أَلْزَمَه دِيناً لشعب ـ لسيادة الإسلام النهائيِّ شباباً لا يتقادَم ، كلِّياً ، مُحْكَماً ، معصوماً ، مختاراً ، أبدياً في ختام الأديان المصنَّفة على سطور الوقت المتعرِّجة .

على سمير ، ونعيم ، أن يرتديا قناعين من حديد الأقنعة ، لهما عصابتان من جلدٍ يطوِّقان بهما رأسيهما ، كي يحفظا القناعين ثابتين لا ينزلقان عن وجهيهما في حصة الدرس الديني ، الذي تستعاد فيه الأحاديثُ النبوية ، وشذرات التأريخ للنبوَّة ، توثيقاً لنفاق اليهود ، وغدر اليهود ، وحقد اليهود ، وجشع اليهود ، ونقض اليهود للمواثيق ، وإنكار اليهود للإشارات المبثوثة في صحائف دينهم تبشيراً بظهور نبيٍّ يغلِبُ الأديانَ كلَّها لا دِين إلاَّ دِينه ، ولا نبيَّ بعده ؛ وخذلانِ اليهود أنبياءَهم ، وعبادتهم العِجْلَ ذا الخُوَار الذهب في حنجرته الذهبية .

بأيِّ سمع كان الطالبان اليهوديان يصغيان إلى مُعلم التربية الدينية؟ بأية عيون كانا يقرآن صفحات «التربية الدينية» ، حِفْظاً للسطور ، وللمعاني ، كي يؤدِّيا امتحانَ نهاية العام طمعاً في الفوز بمرحلَة جديدة على سُلَّم مراحل التعليم؟

لطالما تخيل كيهات ـ في حصة دَرْس التربية الدينية ، متطلعاً من مقعده إلى أحد التلميذين يستعرض للمعلم ما حفظ من درسه إن سُئل ، كالتلامذة المسلمين الآخرين ـ لِينا في حجاب ينبغي أن تلتزمه التلميذات أثناء حصة التربية الدينية . حجابٌ مُحْكَم تطويقاً لشعرها لا تنفد منه خصلةٌ شاردةً . وعليها ، في الطوق الحجاب محيطاً بوجهها ورقبتها ، أن تتصنَّع خشوعاً من إلقاء المعلِّم شَرارَ المعاني القدسية ، والإشارات القدسية ، ومباهج الفوز في الفردوس بالنِّعَم حليباً ، وعسلاً ، وأنهاراً من خمور كروم السماء ، وفاكهةً من بساتين الياقوت ، مُلْحقاً هذا كلَّه بذكْرِ الحوريات ، اللواتي لن يشرح لتلميذاته ما ستفعله سِكَكُ أجساد المؤمنين

حَرْثاً لأجسادهن فلا ينْقُض النكاحُ لهنَّ عذريةً قط : هُنَّ عذراواتٌ فَضاً بعد فضٍّ .

ما الذي تتفكَّر فيه لينا ، وفي يقين إيمانها أن الحياة هي حدُّ الوجود لا وجودَ بعدها ، حين تَعْرِض على خيالها ، من لسان كتاب «التربية الدينية» ، سَعَةَ الحياة الأخرى بعد الموت ، بموازين الحساب ثواباً وعقاباً فيها ؛ بموازين الجحيم فيها ؛ بموازين الأطعمة في الجنة مما يؤكل مضغاً بالأسنان ، ومما يؤكل مضغاً بأحاسيس الأجساد التذاذاً بالأجساد؟

كيهات تخيل لينا ، في حصة درس التربية الدينية ، وهي في حجابها ـ حجابِ التلميذة المسلمة ، أن تلك الحدبة الصغيرة وسطَ أنفها لم تعد هناك . أنفها مستقيم كأنفه هو . صوتها مستقيم ـ إن سألها المعلِّم ما حفظته من درسها ـ كصوت الصباح المنكسر من صراخ الضابط يحضر من الثكنة العسكرية ، لاستعراض التلامذة في أدائهم التحية العسكرية للعَلَم بألوانه المُرغَمة أن تكون لكل لون فيه قدسيةُ معنىً . هكذا تصير الألوان ، المبتذلةُ انتقاءً عن ذائقة ركيكة في فَرْض التناسبِ اللونيِّ ، ألواناً إلهية لا يُشكَّك في نبوَّة معانيها القومية أنها المعاني الختام بين المعاني المُنتَخَبة دِيْناً ختاماً في تاريخ الأديان اللونية .

ماذا لو اختار زميلا كيهات اليهوديان سمير ، ونعيم ، وفتاةُ قلبه لِيْنا ، حصة الدرس المسيحيٍ؟ إبنُ إله ، أو إلهٌ ، في تدبير البشر حقوق احتكار الآلهة ، وأبنائهم أيضاً ، يزاحم ملوك إسرائيل على المملكة . جاء ببشرى افتداء الإنسان المدنَّس ، العاصي ، المذنب ، الآثم ـ منذ خُلِقَ آثماً ـ يُنجيه بكفالةِ الصَّلْب مدفوعةً من جسده على ألواح خشب ، وليس على نحوٍ آخر . حياً ، جسداً يُلمس ، مَزْجاً من أب إلهٍ وابن ، وُلد الفادي من رحم امرأة لإبلاغ الإنسان أنَّ إيمانه بمملكة تخصه في السماء ، ومملكة يرثُها على الأرض ، هو مدخل الخلاص من جحيم وجوده آثماً .

ماذا يتسلَّم سمير، ونعيم، والفتاة لينا، من كل هذا إن اختاروا حصة الدرسِ المسيحي؟ بعقل مكمَّم الفم، معصوب العينين سيصغون إلى براعة ضمٍّ المَسيحيٍّ «العهدَ القديمَ»، من تاريخ ألَّفتْه الرغبة في حدوث الوقائع على صورة رضى المؤلف عن الوجود، إلىً «العهد الجديد» يستحصل من جمعهما، في اعتقاده، إرثاً يُلْحَق بإرث. سيكون على التلامذة اليهود أن يؤرِّخوا للحقائق، إنِ اختاروا حصَّة درْس الدين المسيحي، تأريخَها المستوفى يقيناً بنعمة الإيمان عن ألسنة تلامذة يسوعَ، ورُسُل يسوع، وأحباره، نقلاً عن مَلِكهم يسوع.

للتلميذ اليهودي، على ضفة كلٍّ خيار من الخيارين، في «التربية الدينية»، جرحٌ كالذي في صوت بائع شراب اللبن المثلج، في ظهيرة ذلك اليوم الذي شهد فيه كيهات معركة بين مريدي الحوريات والبعثيين. بائع شراب اللبن، يتبعه على الطَّوار بائع شراب عِرْق السوس مطقطقاً بطاستيه النحاسيتين. هما على مشارف الانتهاء من بيع شرابيهما المثلجيْنِ، في كَنَف حليفهما الصيف، المغادر مقعدَ السيادة مختبئاً، حتى العام القادم، مثله كمريدي المسيحية الأوائل لجوءاً إلى الكهوف.

لم يسأل كيهات فتاة قلبه، غير العارفة بوجودها فيه، عن تغليفها الكتب قط؛ عن بيعها كتبها المستعملة أو شراء مستعملة. سيسألها قطعاً في زيارته القادمة إلى منزلها. هذا ما قرَّره ظهيرةَ اليوم الذي شهد فيه حرباً بين المحدِّقين ببصر إيمانهم إلى عذراوات الله، متلهِّفات يكدْن يلطمن صدورهن استعجالاً إلى لقاء الفحول، وبين المحدِّقين ببصرٍ الفكر الراكد ـ الفاتر، المُهين المحتقر للفكر ـ إلى وحدة الأمةِ القُصاصاتِ يرومون لَصْقَها بالصمغ إلى جدار التاريخ المهترئ.

سيسأل كيهات، حين يزورها، في تفاصيل التغليف، مبدياً لها المشورةَ من صرامة احترافه. سيساعدها في تغليف كتبها الجديدة إن

اشترت جديداً لعامها الدراسي ، أو اشترت كتباً مستعملة ، شأنها شأن كثيرين لا يريدون إسرافاً في شراء كتب يحتقرون معظمها ، إلاَّ كتاب الجغرافيا ربما ، وكتاب العلوم ربما . أما الحساب ، والجبر ، والهندسة ، والفلسفة ، فكلها على قَدْرٍ سويٍّ من الكراهية والقبول ، بحسب اقتدار الأفهام على حلِّ معضلاتها ، أو التقصير عن حلِّ معضلاتها ، بالمقدار ذاته الذي يخصُّ به التلميذ كتاب الكيمياء ، والفيزياء ، كراهيةً أو قبولاً .

كان كيهات ـ حين ضمَّ شرائحَ الورق الأزرق للتغليف ، والبلاستك الرقيق الشفيف لتغليفٍ فوق التغليف ، لفافتين اسطوانيتين ، طويلتين للخروج بهما من المكتبة ـ يحسُّ ملمس مقص في يده وهو يقتطع للينا ما تريد من الورق ، والبلاستِك ، بعد قياسٍ دقيق بالمسطرة ، كي لا يُفرِّط في هَدْرِ ملمترواحد منهما له ثمنه .

ما الموضع الذي سيختاره خيالُ كيهات من منزل راحيل لتغليف كتب ابنتها؟ عَرَض على بصر خياله غرفةَ الأم وابنتها ، في الجنوب الشرق من باحة البيت . هناك مائدة أمام أريكة الردهة يمكن استخدامها . لا . ليس هناك .

نقل كيهات بصرَ خياله إلى منضدة بيع اللحم في صدر حانوت راحيل ، حيث الميزانُ ، وشرائح ورق تغليف اللحم للزبائن ، والأكياسُ الورق إن اشترى أحد غرضاً يلزمه كيس . لا . ليس هناك .

انتقل كيهات ، ببصر تخيُّله ، إلى منضدة بَتْرِ اللحم بالعظام فيه ، وقَطْع اللحم الهبرة ، وفَرم اللحم بالساطور الرهيف الشفرة . لا . ليس هناك .

أفضلُ موضع ، بالتأكيد ، هو المنضدة في الغرفة شمالَ شرق باحة البيت ، حيث أنجز كيهات مرةً عجيناً للاستخباز ، في المعجن المعدنيِّ النحاس . هناك ، فوق المنضدة تلك سيعكف كيهات ، واقفاً إلى جوار لينا ، على تغليف كتبها ، متذكرينِ معركة العَجْن لحظة بلحظة ، مع إضافات

ملفَّقة لم تحدث آنئذ، كأن تكون يدا لينا أيضاً غاطستين، مثل يديه، في العجين تتلامس أطرافُ أناملها في أعماق البياض المائع.

سيتبادل كيهات ولينا نظرات ثقةٍ بما ينجزانه تغليفاً للكتب، يطويان على أغلفتها الورقَ الأزرق، ثم يلصقانه بالشرائط المصمَّغة، ويَعْمدان ـ من ثم ـ إلى تغليف الورق الأزرق بشرائح البلاستك الرقيقة الشفيفة، ويثبِّتانها بالشرائط اللواصق.

تخيل كيهات نفسه، وتخيلَ لينا، ينتهيان من تغليف الكتب كلها إلاَّ كتاب «التربية الدينية». يحدِّق أحدهما إلى الآخر مبتسماً. يسألها:

– ما الذي ستفعلينه في جنة المسلمين حين تدخلينها بعد الموت، يا لينا؟

«سأستأجر حانوتاً لبيع اللحم، مثل أمي»، ردت لينا.

«هِهْ!»، تمتم كيهات. «ممن ستستأجرين حانوتاً؟».

«من أيٍّ ملاك»، ردت لينا. «الغرباء عن دِيْن الإسلام، كاليهود مثلي، إن دخلوا الجنة لن يهبهم أحد مسكناً، أو دكاناً. بل سيستأجرون مساكنهم، ومتاجرَهم».

«ماذا ستدفعين لقاءَ استئجار حانوت لبيع اللحم؟»، سألها كيهات.

«سأراجع رئيس طائفتنا فَرَج سامحْ، لأستشيره في المتاع الصالح للمقايضة به في جنة المسلم، مقابل استئجار حانوت»، ردت لينا.

«ستكونين سعيدة باللحم الذي ستبيعينه. لا أبقار. لا ماعز، بل نعاج كالتي تبيع أمك لحومها»، قال كيهات. «وعد الله المؤمنين في الجنة بلحم الضأن. للنبي محمد حديث يؤكد ذلك». حدق إلى لينا ملياً يتفكَّر في أمرٍ عَرَض لخاطره: «لم يذكر أيُّ صحابيٍّ، أو فقيه، أو وليٍّ، من سيتولى ذبحَ النعاج وسلخَها».

«سأتولى ذلك»، عقَّبت لينا.

«ستكونين الجزَّارة اليهودية الأُولى في جنة المسلم» ، قال كيهات . وضع راحة يده اليمنى ، على مهل ، فوق ظهر يد لينا ، واقفيْنِ أمام المنضدة كوَّما عليها الكتب المغلفة .

نظرت لينا إلى يده المختلسة لمسةً من يدها . ابتسمت :

- سأجلب معي سكاكين أمي إلى الجنة .

«لا تنسي شرائحَ الورق لتغليف اللحم للزبائن» ، عقَّب كيهات .

«ماذا عن الذباب؟» ، تساءلت لينا .

«لا ذباب في الجنة . لن تحتاجي شرائطَ الورق الدَّبقة لاصطياده» ، رد كيهات . استدار إليها . ثبتَ قبالتها بطولٍ لا يبلغ طولها . سألها : «ماذا تعرفين عن قلبي؟» .

«هو كتلة عضلية ، له بُطَين أيمن وبُطين أيسر» ، ردت لينا .

«أهذا ما تعرفين عنه؟» ، سألها كيهات بنبر فيه خذلان .

«ماذا عن قلبك ، إذاً ، يا كيهات؟» ، عقبت لينا .

«كلُّه دروسٌ» ، رد كيهات .

«دروس؟!» ، تساءلت لينا مبتسمة . «أقلبُك مَدْرسةٌ؟» .

«نعم» ، رد كيهات .

«ما المرحلة التعليمية في مدرسة قلبك؟» ، سألته لينا .

«الإبتدائية ، والإعدادية ، والثانوية ، والجامعية» ، رد كيهات .

«ألا مرحلة أخرى بعد ذلك؟» ، سألته لينا .

«ما المرحلة بعد الجامعة؟» ، تساءل كيهات .

«الإختصاص» ، ردت لينا .

«أووه» ، تأوَّه كيهات موبِّخاً سهوَ نفْسه عن الأهم الأهم في سياق حوارهما . أردف سريعاً : «أنتِ» .

«أنا؟ ماذا عنِّي؟» ، سألته لينا ، فرد كيهات :

- الاختصاص .

«أأنا مرحلة الاختصاص النهائية بعد الجامعة؟» ، سألته لينا .

«منذ عرفتك ؛ بل قبل أن أعرفك . منذ مملكة يهوذا الأولى . منذ بناء الهيكل وخراب الهيكل . منذ السَّبي الثالث ، والسابع ، والعشرين . منذ بناء مدينة قامشلو ، وأنتِ اختصاصُ قلبي . كلُّ درس - في الجغرافيا ، والكيمياء ، والحساب ، والهندسة ، والجَبر ، والفيزياء ، والرسم ، والرياضة ، والتاريخ ، والتربية الوطنية ، والتربية الدينية - درسٌ يتعلق بكِ . كل تحيةِ صباح للعَلَم تحيـة من قلبي لك . أنا أحرِّف ، كل صبـاح ، في كلمـات النشيد الوطني ، وأحوِّرها ، وأبدِّلها بكلمات تكونين أنتِ فيها» .

«أنتَ مُحيِّر» ، عقبت لينا .

«ماذا تعنين؟» ، سألها كيهات .

«تخلط التواريخَ في تخصُّصك بعِلْم اسمه لينا» ، ردت لينا .

«أنا مختلط بكل شيء في منزلكم ، يا لينا» ، قال كيهات . «مختلطٌ ببوَّابة المنزل ، وببوابة الحانوت ، وبالباحة الإسمنت ، وبالبئر ، وبصوت ضربات الساطور على اللحم ، وبطقطقة عيارات الوزن لمَّا توضع في كفة الميزان ، وبخشخشة الورق الخشن إذ تغلِّفين به اللحم للزبائن» .

فاجأته لينا ، بعد استطراداته ، بسؤالٍ لم يتحسَّب له :

- ماذا إن أنهيتُ المرحلة الثانوية من دراستي ، بنجاح في المواد كلها ، من الفيزياء إلى التربية الدينية ، يا كيهات؟

«انتقلي إلى مرحلة ما بعد دراسة الثانوية» ، رد كيهات .

«الجامعة؟» ، تساءلت لينا .

«تدوين التاريخ ، يا لينا» ، رد كيهات .

«أيُّ تاريخ؟» ، تساءلت .

«قُبلتي هذه» ، قال كيهات ، مختطفاً من خدها الأيسر قُبلةً اهتز منها

جسدُه، خارجاً من باب مكتبة «اللواء» بما اشتراه من شرائح الورق والبلاستك لتغليف الكتب المستعملة اشتراها تحضيراً لعامه الدراسي الجديد.

كان الشارع الرئيس، الذي شهد المبارزة بلا إتقانٍ في استخدام الأسلحة، قد استعادَ هيبةَ الإسفلت الصارم: عابرونَ على الطَّوَارِيْنِ. القليل القليل منَ السيارات المختنقةِ مواسيرُ رئاتها تسعُلُ دخاناً. كيهات استعادَ الإصغاءَ إلى نَحْلِ الواقع بطنينه، بعد شرودٍ طويل من عقله في زيارة لينا قبل حدوث الزيارة.

طنينُ نَحْل الواقع لم يحجب عن خياله السوق اليهودية: للروائح أسماءٌ مغرورة، وأسماء متواضعة في انتسابها إلى مصادر العطور والأفاويح. ذلك ما لا تنجو من تقديره ذاكرةٌ دخلت مع صاحبِها إلى السوق اليهودية. قد يخرج صاحب الذاكرة منفرداً خلَّى ذاكرته في السوق خلفه. قد تخرج الذاكرةُ منفردةً تركت صاحبَها خلفها في السوق. دكاكين، وحوانيت عاديةٌ ببنائها العادي من لَبِنِ طين، وبعضها من اللَّبِنات الإسمنت. بشرٌ عاديون، في ثياب عادية، يجلسون إلى مناضد البيع في دواخلها، مبتسمون، مرحِّبون بالزُّبن إن اشتروا، أو غادروا غيرَ حاسمين ما سيشترون. مناضد خشب عادية. كَراسٍ عادية. سكونٌ عادي في الدواخل. عتمة خفيفة، عادية، مُذ لا نوافذ في الحوانيت، أو في أكثرها. مراوح كهربائية عادية، تمرِّغ الهواءَ في الهواء صيفاً. مدافئُ حطب، أو مازوت، في الشتاء، بمواسير تمتد من دواخل الحوانيت إلى فتحات في الجدران الأمامية لِنفْثِ دخانها خارجاً. ولربما استعاض بعض أصحاب الحوانيت عن المدافئ المعروفة، العادية، بعُلب صفيحٍ واسعات الأجواف، يثقبون محيط أسافلها لتتنفس نارُ الحطب يوقدونه فيها. وقد يعمد بعضهم إلى الفَحْم في المَناقل يشعلونه خارجاً حتى يستحيل جمْراً، فيُدخلون المناقلَ مستدفئيْنَ.

الهواء ، والسماء ، والشمس ، والمطر ، والشارع الطويل ، والذباب ، والغبار ، في السوق كلُّها من عاديَّات المدينة ممَّا في جهاتها الأربع ، وفي أعاليها ، وفي أسافلها المستقرَّة على ظهور الحِيتان . لكنْ ، أَبْعَدَ من الأفاويح الروائح ذوات الأسماء المغرورة ، وذوات الأسماء المتواضعة ، ثمَّت هبوبٌ خفيٌّ من مشارف القدَم على قلب السوق ، وقلب العابرِ السوقَ اليهودية .

ليست صعبة رؤيةُ الملوك العطارين ، اللامرئيين ، جوَّالين بحميرهم ، وبغالهم ، في الطرق اللامرئية ، الضيقة ، المسقوفة بِسُرادِقات فوق أبواب الحوانيت ، ومساطب البيع وقاءً من الشمس والمطر . ليست صعبة رؤية قوارير العطر ، وصُرَرِ المسك الصغار ، وأضاميم أعشاب الأفاويح ، وحُقَقِ المراهم ، سابحةً في الهواء ، محلقة فوق رؤوس العابرين شوارع السوق . ليس صعباً تذوُّقُ الحَلاوى بلسان الذاكرة ، وتذوُّق الدِّبس على أنواعه ، والعسلِ مصفًّى أو في نَخَاريبِ شمعِهِ ، بلسان الذاكرة ؛ وتذوُّق الفاكهة مجففةً من معروف التجفيف كالزبيب ، والمشمش ، والتين ، ومن غير معروفه تجفيفاً كالبطيخ الأحمر ، والأصفر ، والتفاح ، والأكيدنيا .

خضارٌ مجففة أيضاً ، بلا روائح ، يتنشَّقها خيالٌ ، أو يتذوقها لسانُ خيالٍ ، كالكوسا مجففاً ، والباذنجان ، والباميا ، واليقطين ، والفلفل الحرِّيف والحلوِ . السماءُ ذاتها مجفَّفةً تُعْرَض معلقة بين باقات الأعشاب المجففة ، في السوق . الأقمشة بروائح الطُّرقِ الرمال ، وروائح بنزين الشاحنات ، قادمة من الموصل ، في العراق ، إلى القامشلي . الأقمشةُ مجتلبَةً مما وراء حدود العراق . الذهبُ على صِيَغ من مذاهب الرغبة أقراطاً ، وخواتمَ ، وقلادات ، وليرات مدوَّرةً ثخينة ، يدَّخرها الشارونَ مالاً من آباء الأموال . الفضةُ على صِيَغ من مذاهب الزينة في السوق . الزمنُ مختوماً بنقش الختم الأرضيِّ كرسائل الملوك بأختامٍ شمعٍ من حروف الهيبة النافرة ، والغائرة .

لماذا استعرض كيهات على قلبه مواثيقَ السوق ببنودها المتعددة، من بيع العطور، والأقمشة، والحُلى، والمراهم، والصابون، والأطعمة، وسواها؟ كان السوق هو المسار الذي حدده كيهات لنفسه رجوعاً إلى البيت، في تلك الظهيرة الصاخبة بمعركتها، حاملاً ما اشتراه أغراضاً من مكتبة «اللواءِ» ـ مكتبة مستلزمات حاجة التلميذ في مدرسته. غير أنَّ الحقيقيَّ في سياق رغبته هو انتسابُ السوق بحقيقته إلى حقيقة لينا كياناً أنثى لن يعرفَ كيهات لِمَ سبقت إلى قلبه، من سائر الفتيات يعرف إخوتهن في الحي الغربي من المدينة، المكتظ أكراداً.

المصادفات هُنَّ الخيَّاطات يفصِّلن الألبسة للوقت على مقاس الرغبة، ويفصلن للأجساد ألبسة على مَقاس المحيِّر، المُعْجز، الغامض، الغريب. مصادفةُ قلب كيهات ـ المنزلقة به إلى جارة يهودية، يبعد منزلُها بضعة منعطفات قِصار عن منزل عائلته ـ كانت عادلةً ككلِّ مصادفة لا تتفكَّر في نهاياتٍ. إنه يحب لينا. إنها صَوْغُ روحه المستعجلة بلوغاً، في عمره المغامر، إلى كمال عذبٍ لا كمال قبله أو بَعْده.

كيهات كاملٌ بمجازفةِ أحاسيسه في الرهان على لينا.

عبر العاشقُ سوق اليهود إلى البيت، ببعض الانعطافات من شارع إلى آخر غرباً من الشوارع المتوازية، المستقيمة. المتقاطعة بلا انعراج.

ما يُعتقد من هندسة الشوارع في مدينة قامشلو ابتكاراً يُحسَد، من تصميم الفرنسيين للشوارع، لم يكن ـ قطُّ ـ براعةً يرتضيها عقلُ كيهات. إنه يكره استقامة شوارع مدينته تخترقها من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب كرسم للخطوط بالمسطرة. أتكهَّن المهندسون الفرنسيون للمدينة بزمن يَذْرعُ شوارعَها رجالُ أمن الدولة بلا كلل، أو ملل، فسهَّلوا عليهم أن يستطلعوا الناسَ باستقامةٍ على مدى البصر، إلى حيث تستطيع أنظارُهم بلوغهُ من الأفق؟ شوارعُ سطورٌ مستقيمة. كيهات يكره السطور

المستقيمة . الخطوطُ متعرِّجةً في الرسوم هي الأوفى ابتكاراً . الطُّرقُ متعرِّجةً هُنَّ الجديرات باحترام البصر واحترام الأقدام . السماءُ متعرِّجةً هي الأكملُ سماءً من سواها المنبسطة المسطحة . الخيالُ متعرِّجاً هو الأصل . الوجودُ متعرِّجاً هو التصميم الأوفى يتمحَّصُه الفكرُ متعرِّجاً .

التعاريج ، والإلتواءات ، ضرورتان ليحظى كلُّ شكل برفاهيته . كيهات يحدس ذلك من غير فهم ؛ يحسُّ ذلك من غير فهم ؛ يستشعره من غير فهم . إنه استبطانٌ يلْزَق بالرغبة ، وكلُّ رغبةٍ تحريفٌ للأصولِ مُذِ الأصول محرَّفةٌ كلُّها .

«باضت دجاجتان» . هكذا فوجئ كيهات بصوت أخيه وهو داخل إلى باحة البيت .

«باضتا؟» ، تساءل كيهات في حبور . ربتَ بلفافتيِّ الورق الأزرق ، والشرائح البلاستك ، على فخذه اليسرى : «لماذا أبكرتَ في العودة من المدرسة ، يا موسى؟» .

«أبكَرْتُ؟» ، رد موسى السؤال إلى أخيه .

ينصرف التلاميذ إلى بيوتهم بعد الظهر بقليل من المدرسة . تأخذهم الطرقُ وقتاً يُقتَطَع من يومهم قبل بلوغهم البيوت بحسب قربها ، أو بُعدها . وجود موسى في البيت يعني أنه انصرف باكراً . لكنَّ الأيام الأُوَل من العام الدراسي الجديد ، هي أيام متخلخِلة النظام عادةً ، تنصرف فيها الإدارة إلى توزيع حصص الدروس على المعلمين ، وترتيب لوائح الصفوف ، وتعداد التلاميذ ، وبيع الكتب الجديدة . تفاصيل لم تنجزها الإدارة قبل موعد فتح أبواب المدرسة . لا يهم . بعد أسبوع من بَدءِ الساعة الثامنة في صباح اليوم الأول من ايلول ، سينتظم الحصار ، ويكتمل ، بمنجنيقات التربية ، وعرَّادات التربية ، وسيوف التربية ، وخناجرها ، وسهامها ، وسواطيرها ، وإهاناتها ، وبأناشيد تهشيم الصباح على قرعِ الكلمات

بأخامص أقدامها زجاجَ التاريخ الرقيق كالمصابيح الكهربيَّة . وسيكتمل الحصارُ على أرواحِ التلاميذ ايضاً ، بالتحيات الصارمة للعَلَم مرفوعاً على ساريته ، خفَّاقاً بالأجنحة اللونية لسيادة الدولة على الشعب ضبْطاً ، واعتصاراً ، وتمريغاً في التذكير أنَّ الحاكم وعياله هم التشريع الأوحد ، والقانون الأوحد ؛ هم مالكو النُّور والظلام معاً في الدولة .

موسى كان في البيت باكراً على الأرجح . كيهات وصل في الموعد العاديِّ مما يستغرقه انصرافه من المدرسة حتى الوصول . هو أيضاً كان قد غادر المدرسة باكراً كأخيه . لكن أخَّرته عن المجيء حربٌ في الشارع الرئيس للمدينة ، بين مريدي ضَبْط الحياة كخانٍ على طرق القوافل إلى الجنة ، بتوكيل من الله ، وبين مريدي ضبْط الحياة كمزرعة للحاكم بتوكيل من حزبه الحاكم .

«باضت دجاجتان» . خبرٌ كأشعار العُذريِّيْن أَخْصُوا أنفسهم من غيرِ جَبٍّ للخُصى .

بيضتان تطفوان في الخبر . عائلة كيهات قادرة ، بالطبع ، على شراء بَيض من البقال الحلبي ، أو من حانوت راحيل نفسها . لكنَّ اسمَ البَيض ، الذي باضتْه دجاجتان من دجاجات كيهات ، لا يشبه اسم البيض الذي يُشترى .

لفْظُ موسى لـ «البَيض» ، ومبادلةُ كيهات أخاه بترديد لفْظِ «البَيض» ، تمدَّد على هواء الباحة ، حيث تطلعت الدجاجات الثلاث إلى كيهات بلفائف الورق الأزرق ، والبلاستك ، في يده ، فخورات بترديد الأخوين اسمَ مخلوق هنَّ خالقاتُه ، غير آبهات بنظرة الديك الأسود إليهن ، تذكيراً أنه شريكٌ ينبغي إدراجُه في فخرهن بما أنجبن من بَيض صالح للحَضْن ، قابلٍ للفقْس ـ بسِفاده لهنَّ ـ عن أقوابِ صيصانٍ .

«بيضتان أم أكثر؟» ، سأل كيهات أخاه .

«ألم تسمعني؟» ، تمتم موسى .

«سمعتُك ، يا حمار» ، رد كيهات .

«ماذا سمعت ، يا عميل الإمبريالية؟» ، سأله موسى .

«أوقفْ هَذْرَكَ . سمعتُك» ، عقب ميهات .

«ستصنع أمي لي عُجَّةً بالبيضتين» ، قال موسى .

«لك وحدك؟» ، سأله كيهات ، فرد موسى :

- إنهما صغيرتان .

«أين هما؟» ، سأله كيهات .

«قرب موقد الغاز . الزيت في المقلاة ينتظرهما» ، رد موسى .

«هما مُلْكي» ، عقَّب كيهات .

«أنا شيوعي» ، تمتم موسى . «لا مُلْكَ لبرجوازي مثلك في هذا البيت ، بعد الآن» .

«أيها الرفيق لينين» ، قال كيهات بنبرٍ ساخر : «هذا البيت هو دولة أبيك أوسي ، وليس الاتحاد السوفييتي» .

«سأبدأ من بيت أبيك أوسي بنشر تعاليم الشيوعية» ، قال موسى . «كلُّ شيء في هذا البيت ، أيها الرفيق ستالين ، هو مُلْكية مَشاعة» .

«هذا انقلاب» ، تمتم كيهات مبتسماً . استدار متجهاً صوب غرفته وغرفة أخيه مستطرداً : «هذا انقلابٌ بعثيٌّ ، أيها الرفيق بريجنيف» .

«أنا الرفيق شيخو» ، عقَّب موسى .

«أهذا اسمك السريُّ في الحزب؟» ، تساءل كيهات .

«شيخو» ، كرر موسى الإسم تأكيداً على ما لا معنى له .

«مَن شيخو هذا؟» ، سأله كيهات .

«شيخو . شيخموس . شيخوف» ، لَفَظَ موسى اسمين مِمَّا ينبت في حقول الأسماء الكردية ، وأَلْحق بهما اسماً ثالياً ، روسياً .

«»مَن شيخوف هذا؟» ، سأل كيهات أخاه ، فرد موسى :

- شيخوف . تشيخوف . تشي تشي . خوخو . فوفو . هذا اسم كاتب كردي من روسيا .

«منذ متى تقرأ كتباً ، يا رفيق؟» ، سأل كيهات أخاه ، فرد موسى :

- أقرأ الأسماء في بلاد الشيوعية .

«هنيئاً ، أيها الرفيق طرْزان» ، عقب كيهات ساخراً ، مديراً ظهره لأخيه في مشيه صوب غرفتهما .

«أنا الرفيق شِسْتاكوفيتش» ، قال موسى بحروف استظهرَها مسنَّنةً ، بصوت عالٍ .

التفت كيهات إلى موسى :

- كيف تُحْسِن لفظَ هذا الإسم؟

« أتعرف من هو؟» ، سأل موسى أخاه ، فرد كيهات :

- هذا اسم من اختراعك .

«نعم» ، رد موسى بنبر متفاخر . استدار صوب غرفة الأبوين ، رافعاً صوته : «سآكلُ عُجةً ، أيها البُرجوازي الجبان» .

جَمَدَ الأخوان ، كلٌّ في موضعه ، ثم هرعا راكضين إلى غرفة أبويهما .

كانت أمهما هدلا جالسة أرضاً على البساط ، متكئة بظهرها إلى الحائط ، ضامَّة فخذيها إلى صدرها منفرجتين ، تئنُّ انيناً جارحاً .

«ما بك ، يا أمي؟» ، صرخ كيهات بنبرٍ مذعور فور دخوله ، وهو يرمي لفافتيٍّ الورق والبلاستك أرضاً .

لم تردَّ هدلا المطوقة بطنَها بساعديها معاً ، تعتصر الألم القاسي كي يلين .

لمح الأخوان دماً على حواشي ثوبها ، وبقعاً من الدم على البساط اللِّبد .

تداخل صوتاهما هلعيْنِ ، يرددان كلماتٍ مكسورة في أسئلة تتصادم مكسورةً . أبوهما أوسي لم يعد من عمله بعدُ . هما وحدهما مع القلق المسنون ينخرهما في كل موضع من جسديهما .

نظرةٌ شاردة من عيني موسى توقفت عند المقلاة قرب موقد النار الصغير جداً ، ذي العين الوحيدة . البيضتان تجاوران المقلاة . عِرْقان من البقدونس يجاوران البيضتين . أرسلته أمه إلى دكان البقّال الحلبي ، لشراء باقة من البقدونس حين حمل إليها بيضتين أسقطتهما اثنتان من الدجاجات الثلاث عند زاوية من الفسحة الضيقة بين التنور وجدار الكوخ ، الذي يحوي التنُّور .

«سأصنع لك عُجَّةً» ، قالت أمه . أحضرت ملعقتين من الطحين ، في طاسة صغيرة ، لتمزجه بالبيضتين خَفْقاً . وضعت قليلاً من زيت دوَّار الشمس في مقلاة ، فوق عين موقد الغاز من غير إشعاله . انتظرت عودة ابنها بالبقدونس .

موسى يحب العجة . بَيض مخفوق بالطحين ، وبالبقدونس المفروم ، مقليٌّ بالزيت . وصْفةٌ متواضعة لصُنع طعام يحبه موسى هكذا متواضعاً من البَيض المنتفخ . يشطر نصف رغيف من أرغفة التنور شطيرتين ، فاصلاً بالسكين بين سطح الرغيف وظهره . يضع رِقاقة العجة بين الشطيرتين ويطبقهما على العجة . يقضم الشطيرتين المنطبقتين مع جرعاتِ ماءٍ من زجاجة كوكاكولا ، أُفرغت من الشراب فيها قبل شهور كُثر .

تمالكت هدلا ألمها وهي ترى في عيون ابنيها ضياعاً ، لا يعرفان ماذا يحدث ، ولا يعرفان ماذا عليهما أن يصنعا . همستْ نفْخاً :

– أحْضِرا جارتَنا كاتيا .

خرج كيهات راكضاً من باحة البيت . توجه إلى منزل كاتيا الواقع إلى الشمال الشرق من بيتهم . قرع البوابة بإصرار المُستنجِد . فُتحت البوابة

بعد برهات. برز وجه سُوْرين، زوج كاتيا، من الفسحة بين الدَّفة الموارَبة وعارضة البوابة.

«أين الستُّ كاتيا، يا جارنا؟»، سأله كيهات.

لمح سورين الذعرَ مشعشعاً على قسمات وجه ابن الجيران. استفهمَ:

– ماذا حدث؟

«أمي تنزف، يا جارنا»، رد كيهات بلسانٍ جافٍّ.

«تنزف؟ ماذا أصابها؟»، سأله سورين النحيف، الطويل، الأصلع معتمراً قبعة تركية الطراز، مستنسخةً من طُرُز القبعات في أوربا.

«لا أعرف، يا جارنا. أمي تطلب الست كاتيا»، رد كيهات.

«انتظرْ»، قال سورين. عجَّل خطواته في بنطاله الرمادي الضيِّق الخصر إلى داخل إحدى الغرف. عاد بزوجته وهي تضع خمارها البني على رأسها، وتَعْقد حواشيه مربوطةً خلف رقبتها. صاحت عن بُعد خطواتٍ بصوتها الخشن من أثر التبغ:

– ما بها أمك، يا كيهات؟

«لا أعرف، يا جارتنا»، رد كيهات.

سبقت كاتيا جارها الشاب بخطوات واسعات. دخلت باحة منزل جيرانها الكُرد. اتجهت على الأرض الحصى، من تلقائها، إلى غرفة الأبوين.

تبع كيهات جارتهم كاتيا إلى الغرفة. كانت الأم تجاهد أن تكتم ألماً لا يُكْتَم، وقد وقف موسى أمام موقد الغاز الصغير على المنضدة الصغيرة، بظهره إلى أمه، يتأمل البيضتين مختنق الملامح. شهق هاتفاً:

– أمي تلد.

«اخْرُجا من الغرفة»، قالت كاتيا على عجل. «أغلِقا الباب خلفكما». وقفت قبالة هدلا الجالسة. استدركت فاستدارت إلى الأخوين

يخرجان من الباب، أو يكادان: «استدْعيا أحداً من عائلة أمكما».

وقف الأخوان في باحة البيت مبلْبَلَيْنِ، يتبادلان اقتراحاً واحداً:

«اذهبْ إلى بيت جدي سليمان»، قال كيهات لموسى، وهو يعني جدَّه من جهة أمه، فرد عليه موسى:

- اذْهب أنت.

«أنت أسرع في الركض»، قال كيهات.

«أتعني ذلك حقاً؟»، تساءل موسى.

«أنت أسرع مني، يا حمار. أمي ليست على ما يرام»، رد كيهات.

«ماذا سنفعل بالبيضتين؟»، سأل موسى أخاه بنبرٍ قلِق.

«البيضتان، ياحمار؟ أهذا وقت البيضتين؟»، عقَّب كيهات. دفع أخاه من كتفه: «اركضْ».

مشى موسى خطوة واحدة صوب البوابة. استدار إلى أخيه:

- بَيضُ دجاجاتك فألٌ سيء.

«ماذا؟»، تساءل كيهات بنبرٍ مستهجِن.

«سمِعتَني»، رد موسى.

«بِمَ تفكر، أيها الغبي؟»، صرخ كيهات بأخيه. «أمُّنا مريضة».

«لن آكل عُجَّةً من بيض دجاجاتك»،قال موسى.

«أنا سعيد جداً بقرارك، يا حمار. اركضْ»، عقب كيهات.

مشى موسى خطوتين متردداً. توقف من جديد ملتفتاً إلى أخيه:

- لو لم تَبِضْ دجاجاتك لَمَا حدث هذا لأمِّنا.

صرَّ كيهات على أسنانه حَنَقاً:

- أتُهمُّك أمُّك، يا حمار، أم دجاجاتي؟

«لو لم تبِضْ دجاجاتك اليوم»، كرر موسى التهمةَ القَدَرِيَّة، فقاطعه كيهات على استرساله:

- يا ابنَ البَيض . اخْبرْ بيت جدي بحال أُمنا .

هرع موسى صوب البوابة . فتحها . التفت إلى أخيه صارخاً كي يسمعه :

- فألُ شيء أن تبيض دجاجاتك في بيتنا .

«أأنت شيوعي؟» ، صاح به أخوه بنبرٍ متهكم .

«أنا شيوعي» ، رد موسى متخطياً بقَدمه اليسرى عتبةَ البوابة إلى الخارج .

«أنت تفكر مثل مؤذن المسجد» ، قال كيهات .

جمد موسى في موضعه . تساءل :

- أيُّ مسجد؟

«المسجد الصغير على تخوم حيٍّ السريان» ، رد كيهات .

فتح موسى ذراعيه على نحوٍ متسائل :

- أهو شيوعي؟

صرخ كيهات صرخةَ تبرُّم من المحاورة في تلك البرهة الحرجة . التقط حصاة كبيرة من الأرض مهدِّداً :

- جِئْنا بأحد من أهل أمي ، يا حمار .

خرج موسى من البوابة إلى الشارع .

تهدَّلت كتفا كيهات قَلقاً . استدار بوجهه إلى غرفة الأبوين المغلقة لا يدري مجريات الأمور فيها . تفكَّر ، على نحوٍ تلقائي ، في زعم أخيه بشؤم البيض باضتْه دجاجاته ذلك اليوم . في كلِّ يوم تبيض دجاجاتٌ في أنحاء الأرض . بَيْضٌ قادم من ظلام الجوف في جسد الدجاجة كمواليد الإنسان ، والحيوان . ظلامٌ وديعةٌ يجيء به كلُّ مولودٍ معه إلى الحياة ، ويُرجعه معه ، في موته ، إلى حيث جاء به منه . فَلِمَ يكون بَيض دجاجاته استثناءً شؤماً؟ الوجود كله شؤمٌ في شؤم . هكذا تفكَّر كيهات ، أو هكذا

أحسَّ ، أو هكذا استشعر ، أو هكذا اختلطت ممكناتُ الغيب في عقله كخفْق العجة قبل دلْقِها على الزيت في المقلاة .

دار كيهات ، على قلقٍ ، من حول البئر . رصدَ ـ شاردَ القلب ـ حقلَ الورد لا وردَ فيه . قاس المسافةَ بين نهاية الحقل وكوخ التنور : الزاوية صالحة قُناً للدجاجات . قلَّب خياله على خطط التصاميم لبناء قُنٍّ .

اقترب منه الديك الأسود منفصلاً عن الدجاجات ، الرَّواقد متباعدات على أحفة الحقل . قأقأ على نحوٍ لا يفعله إلاَّ إنِ استُثير فأُقلِقَ ، أو بوغِت مباغتةً لم يحتسب لها .

«كيهات» ، نادته كاتيا من باب غرفة الأبوين . ألقت من يدها اليسرى على الحصى ملاءةَ سرير مبقَّعة بالدم .

هرع كيهات إلى جارته .

«اجْلبْ وعاءً عميقاً ، مملوءً ماءً» ، قالت كاتيا وهي تنفث من فمها دخانَ لفافة صنعتها داخل الغرفة ، على الأرجح .

هرول كيهات إلى غرفة المؤنة تحوي الضرورات من أغراض المطبخ ، والفائضَ المرغوب من مخزونِ ما يُصنع طعاماً . جلب طسْتاً واسعاً سعى به إلى البئر . أنزل الدلو الصفيحية إلى القرارة المعتمة . سمع بقْبقةَ الماء منسرباً إلى الجوف الصفيح . سحب الدلو ممتلئة بجهد . أفرغ أكثر من نصف الدلو في الطَّست . دلق بقية الماء في مجرى الجَدول إلى حقل الورد . حمل الطست بيديه معاً وقد أسند استدارة محيطه الواسع إلى بطنه . تخضخض الماء . انزلق بعضه عن الحافة مندلقاً على سترته العسكرية ـ سترةِ «الفتوَّة» . بلغ باب غرفة الأبوين حيث انتظرته كاتيا . تناولت الجارة الطستَ من الفتى . دخلت الغرفة وهي ترد بقدمها اليسرى البابَ فتغلقه من خلفها .

أنزل كيهات بصره إلى ملاءة السرير الزهرية اللون ملطخة بالدم ،

مكوَّمةً. عَنَّ له أن يقتحم الغرفة بلا استئذان: ماذا هناك؟ ماذا عناه أخوه موسى بقوله: «أمي تلد»؟ لم يظهر من انتفاخ بطنها إلاَّ القليل بعد. أستلد جنيناً في شهره الرابع وبضعة أيام؟ ما حجمه؟ أَحَجمُ دجاجة؟ ابتسم كيهات. أحَجمُ الديك الأسود؟ ابتسم كرَّة ثانية. أحَجم بيضتين؟ ابتسم للمرة الثالثة من ابتساماته المتصلات الأذناب. أيحيا مولودٌ طفلٍ في شهره الرابع؟ يكون نبياً ربما، إن عاش. قد يتكلم. قد يخرج من غرفة الأبوين حاملاً المقلاة بالعجة فيها مطهوّة، منتفخة من تحالف الطحين وغِرْقِئ البيض، باحثاً بعينيه في أرجاء الباحة:

- أين موسى؟

أحس كيهات برداً تحت جلده، لا فوقه، من نزف خياله ثلجاً على قلبه. اتجه، على نحو مرتجل، لا معنى له، صوب كوخ التنور. دخل الكوخ محتمياً بسقيفته الصفائح المعدنية من بَرَدٍ لا يُرى. وضع وجهه في فوهة التنُّور متطلعاً إلى أعماقها الرمادية الرماد. تشمَّم نشيش البيض المشوي تحت الجمر المُطفَأ البارد. مدَّ ذراع خياله إلى الرماد. استخرج بيضة انشقَّ قشرها عن مُحٍّ وغِرْقئ ملوَّثين. رفعها بيده إلى يد شبح لينا الواقفة إلى يمينه. استخرج بيضة ثانية أعطاها إلى شبح راحيل الواقفة عن يساره. استخرج بيضة ثالثة رفع بها يده اليمنى إلى الأعالي:

- سأفتدي بهذه البيضة ابنَك اسحق، أيها النبيُّ إبراهيم.

استدار كيهات بوجه عن التنور مذ تناهت إلى سمعه جَلَبةٌ من صوب البوابة، تَبعها اصطفاقُ البوابة. كانت خالته نَفِيس، وجدَّته أسْلي، داخلتين من وراء موسى إلى باحة البيت.

أسرع كيهات إلى خالته وجدته. توقفتا تستخبران نظراته عمَّا يجري، فبادرهما:

- لم تقل لي جارتنا كاتيا شيئاً.

«كاتيا؟» ، رددت الجدةُ الإسمَ تحاول أن ترسم في ذاكرتها صورةَ صاحبته . اكتفت بنطق الإسم لا غير . مشت على عجل ، في ثوبها الأزرق الداكن ، وسترتها السوداء المقصبَّة ، صوب غرفة الأبوين ، متحسِّسة خمارَها الرماديَّ تتأكد من ثباته على رأسها .

سمع كيهات نَوْحاً خافتاً أولَ دخول جدته إلى الغرفة ، ثم انقطع . نظر إلى أخيه الصغير :

– ماذا قلتَ لخالتك ، وجدَّتك؟

«أخبرتهما أن أمي ستلد» ، رد موسى .

«أأخبرتْك أمي أنها ستلد؟» ، سأله كيهات ، فرد موسى :

– قالت إن ما في بطنها سينزلق خارجاً .

أخرج كيهات ربع لفافة تبغ من الجيب العلوي الأيمن لسترته العسكرية ، فوق القلب . أشعلها بعود كبريت . جذب نَفَساً عميقاً من دخان اللفافة المنكوبة سابقاً ببضعة اشتعالات ، أعقَبها إطفاءُ كيهات جمرَها ادِّخاراً لوقت آخر .

«أعطني نشْقَةً» ، قال موسى لأخيه .

«خُذْ نشقةً من ضُراط الشيطان» ، عقب كيهات . مدَّ ربع اللفافة إلى أخيه .

استنشقَ موسى نفَساً خجولاً ، متردداً ، من بقية اللفافة . سعل . أعاد تلك البقية إلى أخيه :

– الشيوعيون لا يدخنون قبل بلوغهم السادسة عشرة من أعمارهم .

«أنت شيوعي حقيقي ، ملتزم ، أيها الرفيق شيشوفيتش» ، عقب كيهات .

«شِستاكوفيتش» ، قال موسى مصحِّحاً الإسم .

«اخترعتَ اسماً طويلاً لا يعرف حتى الروس كيف يلفظونه ، يا موسى» ، عقب كيهات .

تلفَّت موسى بوجهه صوب البوابة :
- متى سيحضر أبي؟
«لن يتأخر» ، رد كيهات .
«ماذا سيقول؟» ، تساءل موسى .
«ماذا سيقول عن ماذا؟» ، عقَّب كيهات بسؤالٍ .
«عمَّا يجري لأُمنا» ، رد موسى .
«لا نعرف بعدُ ما الذي جرى لها ، يا حمار» ، عقب كيهات .
رفع موسى يده اليسرى ، مشيراً بإصبعه الإبهام إلى خارج سور البيت :
- رأيتُ سيارتي جِيْبْ تتجهان إلى مكان قريب .
«سيارتا جِيْبْ؟» ، تساءل كيهات يستوضح أخاه .
«رجال مخابرات» ، ردَّ موسى باختصارٍ يُفهم .
«هذا عاديٌّ في الحي اليهودي» ، قال كيهات .
«يرافقهم شرطيان على دراجة نارية واحدة ، وشخص يرتدي طربوشاً أحمر ، وشُبان في ثياب الفتوة على دراجات هوائية» ، وسَّع موسى الخبرَ لأخيه .
«أين اتجهوا؟» ، سأل كيهات أخاه بنبرٍ قويِّ الفضول ، فرد موسى :
- لا أعرف . ربما صوب منزل الجزَّار .
«الجزَّار؟» ، تساءل كيهات ببعض التوجُّس في صوته ، فرد موسى :
- الجزار الذي يجاور حانوتُه حانوتَ المرأة اليهودية ، التي تشتري منها اللحم أحياناً .
«بنحاس؟» ، تمتم كيهات .
«أهذا هو اسمه؟» ، سأله موسى .
تنشَّق كيهات آخر مُصاصةٍ من عَقِب اللفافة المحترقة . انحنى . دعكها

بالحصى فتفتَّتتْ سُقاطةً بين الحصى . استقام . حدَّق إلى أخيه الصغير . ابتسم . مدَّ سبَّابته اليسرى إلى خِنَّابة أنف موسى اليسرى :

- ألاحظتَ ما أرى؟

تحسس موسى الموضع الذي أشار إليه أخوه من أنفه . ابتسم بدوره مفتخراً :

- هذه بثرة من بثور بلوغ الشباب .

«نعم» ، أكد كيهات .

مكتبة

تنهَّد موسى في رضىً :

- أنا شابٌّ الآن .

«يدخل الإنسان السوفيتي عمرَ المراهقة ويخرج منه بلا بثور في جِلْده» ، قال كيهات .

«ماذا؟» ، تساءل موسى . أردفَ : «كذاب» .

«البشر الشيوعيون ، في شمال الأرض ، لهم خصائص مختلفة عن شيوعيِّي جنوب الأرض» ، قال كيهات .

«أنحن في جنوب الأرض؟» ، تساءل موسى .

«نحن في اللامكان» ، رد كيهات .

حدَّق موسى إلى أخيه في ريبةٍ من جوابه . سأله :

- أهناك مكان على الأرض ليس مكاناً؟

تفكَّر كيهات برهةً في جواب ، فلم يهتدِ إلى تلفيق مَّا . كان عقلُه على قرب خطوة من وصفٍ لا يستطيع لسانُه صوغَ شذْرَةٍ منه : الدول المسكونة . الشعوب المسكونة . الأمم المسكونة . سياقٌ غامض من تدبير الأقدار الغامضة ـ ببراثن مصادفاتها ـ خصائصَ الأمكنة . هذا هو صوتُ الله العالي . أيقدر أحد أن يسأل إن كان الله يتكلم بصوتٍ عالٍ؟ صوته يُسمعُ أنطقَ أم لم ينطق :

شعوب مسكونة بأرواح المتاه هي بعضُ صوته .
دول مسكونة بأرواح المغيب هي بعضُ صوته .
أمم مسكونة بأرواح الغيبوبة المرِحة هي بعضُ صوته .

صوتُ البوابة بصريرها لم يكن إلاّ صوتَ دخول إنسان إلى باحة البيت . أوسي كان الداخل .

هرع إليه ولداه .

تنبَّه الأب إلى حركتهما في قدومهما صوبه على ذلك النحو : حركةٌ استثناءٍ ، وعلى سُحنتيهما إبلاغٌ بخبرِ استثناء . ضغط براحة يده اليسرى على حقيبة الجباية المعلقة إلى عاتقه . وقف متوجِّساً .

«أمي متوعِّكة» ، قال كيهات لأبيه ، فزاحمه موسى :

– إنها تلد .

«تلد؟» ، ردَّد الأب الكلمة بلسان شقَّته شفرةُ معنى أن تلد امرأة في شهرها الرابع . إنها لا تلد ، بل تُجهِض . «أين هدلا؟» ، دلقَ السؤالَ جليداً .

«معها خالتي نفيس وجدتي أسلي ، وجارتنا كاتيا» ، رد كيهات .

حدق أوسي إلى باب غرفته الموصد :

– أهنَّ مع أمكما في الداخل؟

«نعم» ، رد كيهات ، متأملاً مجرى القلق في عيني أبيه المتفاجئتين .

مشى الأب بخطى سريعة صوب الغرفة ، فاستوقفه صوتُ كيهات :

– لا تريد جارتنا كاتيا أن يدخل أحد ، يا أبي .

«لِمَ؟» ، سأله أبوه .

«لا أعرف» ، رد كيهات .

«ماذا عن خالتك ، وجدتك؟» ، تساءل أوسي .

«ما يجري في الداخل ، يا أبي ، تهتم به النساء» ، خمَّن كيهات .

«النساء؟» ، تمتم أوسي . حثَّ خُطاه سُراعاً إلى الباب . قرعه استئذاناً .

فتحت نفيس ، أخت زوجته ، الباب . تمتمت من فورها :

– أوسي .

«ما الذي يجري؟» ، سألها زوج أختها .

نزف وجهُ نفيس لوناً من ألوان الخيبة والخسارة معاً . هزت رأسها يمنةً ويسرة في أسىً ثقيل :

– طرحت هدلا جنينَها .

تمايل أوسي في وقفته بالبزَّة الرصينةِ سُترةً وبنطالاً ، كأنما أُفرغ فغدا قشرةً يمكن لأيٍّ نفْخ أن يهزها . رفع نظارته الداكنة عن عينيه . حدق إلى الفتاة العزباء الطويلة . تأوَّه بنبرٍ منكسر :

– أماتَ الجنين؟

لم يكن لسؤاله معنى . لا جنين يحيا إن أُجهضت الحاملُ وهو في شهره الرابع .

تأسَّت له نفيس متحسِّرةً ، لكنها لكزتْه بملاحظة فيها تأنيب واضح :

– لم تسأل عن حال هدلا .

«أُفٍّ» ، نفخ أوسي الحروف موبخاً نفْسه على سهوها : «كيف هي؟» .

«مرهَقة» ، ردت نفيس .

«أأستطيع رؤيتها؟» ، سألها أوسي .

«ليس الآن» ، ردت نفيس . «سأرجع إليكم» ، قالت ، ثم أوصدت الباب .

وجد الأب وابناه أنفسهم متقابلين في باحة الدار ، عاجزين عن تصرُّف .

دارَ الأب ببصره على وجْهَي إبنيه . نطق قلبُه بلسانٍ خفيٍّ تحت لسانه :

- أأكلتما؟

«لا» ، رد موسى . «كانت أمي تهيء لي عجة» .

«عجة؟» ، تساءل أوسي . نظر إلى كيهات : «مَن اشترى البَيض؟» .

سارع موسى إلى الجواب :

- باضت دجاجتان من دجاجات كيهات .

حدق أوسي ملياً في وجه ابنه الأكبر :

- أتبيض دجاجاتك؟

«لقد بدأن ، يا أبي» ، رد كيهات .

تنهَّد الأب ملقياً بصره إلى الغرفة الموصدة الباب :

- ألستما جائعين؟

«لا أعرف» ، رد كيهات .

«الجوعُ جوعٌ» ، عقب الأب . «مَن يَجُعْ يُحسُّ جوعَه» .

«أنا جائع» ، اعترف كيهات .

حدق الأب إلى ابنه بنظرة أسىً ، متفهماً أن القَلَق قد يُربِك الجوعَ .

نقل بصره إلى موسى :

- أأنت جائع؟

«سآكل عجة» ، رد موسى متطلعاً إلى نافذة غرفة أبويه .

«ألم تقل ، أيها الرفيق ، إن بيض دجاجاتي شؤمٌ؟» ، سأله كيهات .

أدار موسى بصره إلى حيث الدجاجات حائمات حول البئر ، يلتقطن آخر الحشرات اختبأت بين الحصى في مجيء الخريف :

- أأطعمتَ دجاجاتك اليومَ شيئاً ، يا كيهات؟ أراهنَّ جائعات .

«سأطعمهن عجةً في الأرجح» ، رد كيهات .

«دجاجات بروليتاريات . سأتضامن معهن فآكل العجة» ، قال موسى .

أخرج الأب لفافة من علبة تبغه . اشعلها بالقدّاحة . داهم ابنيه بخبر مثير :

- اختفت ثلاث عائلات من الحيِّ اليهودي .

«كيف عرفت هذا ، يا أبي؟» ، سأله كيهات .

«بعض الموظفين في مؤسسة الكهرباء عندهم أخبار» ، رد أوسي .

«رأيت رجال مخابرات ، وبعض الشرطة في الجوار» ، قال موسى . أردف : «معهم طلاب في ثياب الفتوَّة» .

هزَّ أوسي رأسه هزة خفيفة ، متأسِّياً ، ومستنكراً أيضاً :

- الطلاب البعثيون ايضاً يتولون التحريات في الحي اليهودي . كلُّهم مُخبرون .

هأْهأَ موسى ساخراً :

- ألم تنتسب بعد إلى شبيبة البعث ، يا كيهات؟ ستصير تَحرِّياً يخافك الحيُّ كله .

«اسكتْ» ، عقب كيهات على سخرية أخيه .

زفر الأب نافثاً دخان التبغ من فمه :

- لن يعثر أيُّ متحرٍّ في هذه الدولة على مفتاح .

«مفتاح؟» ، تساءل كيهات . «مفتاح ماذا؟» .

«اختفاءُ يهودٍ من الحي» ، رد أوسي .

سعل كيهات من احتباس الهواء في إحدى رئتيه . تساءل مستغرباً :

- لماذا؟

«يتردد اسمُ شخص من عشيرة طَيْ اسمه عَطِيَّة الحنُّوش في اختفاء يهودٍ .

«مَن هو؟» ، سأله كيهات .

«الحنوش» ، رد الأب . «له أقرباء في استخبارات الدولة» .

«لم أفهم، يا أبي»، عقَّب كيهات.

«أنا لم أفهم أيضاً»، قال الأب.

«أين يذهب اليهود الذين يختفون؟»، سأله كيهات، فردَّ الأب:

- يوصلُهم مهرِّبون إلى تركيا، عبر الحدود. ويوصلُهم مرتشون إلى لبنان، ومن لبنان إلى قبرص، ومن قبرص إلى دولة اليهود.

تنحنح موسى كمن يدرِّب صوته على إلقاء خطاب. رفع صوته بالعربية:

- الدولة الصهيونية.

«اسكتْ يا حمار»، خاطب كيهات أخاه موبِّخاً على تهريجه في موقف يَلزمُه التأسي لأمهما.

فُتح باب غرفة الأبوين. خرجت الجدة أسلي حاملةً أقمشة مبقَّعة بالدم. أسقطتها من يديها أرضاً إلى جوار الحائط. سارت إلى حيث يقف الأب وحفيداها:

- لا تَلُمْ ابنتي، يا أوسي.

بوغت أوسي بكلام الجدَّة. استوضحها مستغرباً:

- على ماذا سألوم هدلا؟

لم تردَّ جدةُ ابنيه كأنها لم تَعْنِ حقاً ما قالته، أو لم تعرف كيف تصوغ ما أرادت قولَه في تلك البرهة القاسية.

«كيف أمي؟»، سأل موسى جدته.

«ستكون قريباً على ما يرام»، ردت الجدة. أمسكت برُدْن سترة أوسي تسحبه، في هدوء، لتختلي به بعيداً عن الولدين.

قد يتكهن الأَخوان بما ساررت به الجدَّةُ أباهما، وقد لا يتكهنان. لكن ستجري الأمور اللاحقة على تدبير فيه بعض السرِّيَّة: سيختفي الجنينُ الجهيض مدفوناً في المقبرة ربما، أوً في العراء ربما، أو في الفسحة

بين كوخ التنُّور ونهاية حقل الورد ، جنوباً ، حيث تفكَّرَ كيهات في بناء قنٍّ لدجاجاته .

لا يهم أين دُفن الجنين ، الذي ظلمتْه الحماقةُ الزمنية فاختزلت وجودَه .

كان موعد إجهاض هدلا جنينَها هو يوم الثلثاء . يومان أعقبا الحادثَ مكمَّما الفميْنِ في بيت أوسي . إن لم يتكلم ناسٌ في يومهم يكُنْ يوماً مكمَّم الفم ، أخرسَ . كان الأب على صمتٍ في نهوضه من النوم ، ومغادرته البيت ، والعودة إليه ، فالنوم ليلاً . كانت الأم على صمتٍ في نهوضها صباحاً ، ثقيلة الحركة مشياً ؛ ثقيلة الحركة طهواً ؛ ثقيلة الحركةً في تدبير شؤون البيت .

كيهات وموسى التزما حدودَ الثقل في قلبيٍّ الأبوين ، متصنِّعيْنِ ـ أو هي ربما حالُهما ـ اقتداراً على فهم الوقت مكمَّم الفم في البيت ، فلا يتبادلان المخاطبة ، إلاَّ بإشارات مختزَلة ، مذ يكتفيان ، في الأرجح ، بثرثراتٍ كُثُر في المدرسة .

حلَّ يومُ الجمعة . أحلَّ كيهات وموسى لنفسيهما نفْضَ الصيام عن الكلام في البيت . تخاطبا ، كعادتهما على الإفطار ، بما يقْدِران عليه من جذْب ذيلِ الكونِ النمرِ بلا خوف .

«سنشاهد فيلماً اليوم ، يا أبي» ، صارحَ كيهات أباه .

لم يرفع الأب بصره عن كسرة الخبز غمسها في زيت الزيتون . التقمَها . التقم زيتونة سوداء . مضغهما مع رشفة من قدح الشاي .

توقع كيهات صمتَ أبيه . أردف :

– عندي ما أشتري به تذكرة لي .

«لن يشتري تذكرة لي» ، تدخَّل موسى ملمِّحاً إلى حاجته أن يُنْجده الأب بثمن تذكرة .

لم يتكلم أوسي . أشار بيده اليسرى إلى سترته المعلقة إلى وتد في الحائط .

فهم موسى الإشارة . نهض عن صحفة الطعام المنسوجة من قصب ، الواسعة ، الموضوعة على البساط في غرفة الأبوين . دسَّ يده في الجيب الأيمن من سترة أبيه الرصينة يرتديها في عمله جابياً . استخرج بعض الفُرَاطة من النقود المعدن . عدَّ قِطَعَها يستوفي لنفسه منها نصفَ ليرة ثمن التذكرة لدخول دار السينما . عاد إلى أبيه . فتح راحة يده أمام عينيه يريه أنه لم يأخذ أكثر من المطلوب .

لم ينظر الأب إلى يد ابنه المبسوطة . ظلَّ مطأطئاً في تناول إفطاره .

عصراً ، تحت غيوم طلائعَ هادئة من غيوم الخريف الأوائل ، توجه كيهات وأخوه إلى شارعٍ إمبراطورية دُورٍ السينما ، في الشمال من وسط المدينة .

دار الأَخوان على دور السينما الثلاث ، المستمرات في عروض الأفلام بلا توقف ، فيما أغلقت الداران الصيفيتان بابيهما إلى العام القادم . توقفا ، بعد استعراض الملصقات ، عند سينما فؤاد . حشدٌ من المراهقين كان هناك : ستيف ريفز ، سيد الكون بجبروت عضلاته ، في فيلم جديد من صناعة أرض المعكرونة الإيطالية ، بعنوان «ساندوخان» ، مع إضافة كلمة «الجبار» إلى العنوان ليستوي سياقُه مطابقاً لعناوين أفلام ستيف ريفز : «هيركوليس الجبار» . «قاهرُ البرابرة الجبارُ» . «هيركوليس الجبار والملكة ليديا» . . إلخ .

لم يكن سيدُ الكون الأمريكي على عرش العضل قادماً ، في فيلمه هذا ، من مجلس الآلهة وأبنائهم في الأساطير ، بل من مغامرات القراصنة . غير أنه قرصان عادلٌ بقوَّته ؛ أخلاقيٌّ تزداد الأخلاق هيبةً بقوته ؛ رحيم تزداد الرحمة رقَّةً بكَرَم قوَّته .

اختـار الأخوان فيلم سيد الكون الذي لا يُقَاوَم . هيَّأ كـيـهـات لسـانه ليتولّى الترجمة لأخيه من العربية إلى الكردية . اشتريا تذكرتين في زحمة من الوافـدين إلى دار السـينمـا يدفع بعـضـهـم بعـضـاً للوصـول إلى شـبـاك التذاكرِ . جلسا في مقعديهما ، من السطر الثامن من سطور المقاعد تُجْتَلَس عشواءَ في سينمـا فؤاد ، إلاَّ القسم الخلفي منَ الصـالة الأكثر رفعـةً ، أو الأعلى بكراسيِّه المرقَّمة ، المغلَّفة مخملاً . أُطفِئت الأضواء . دارت بَكَرةُ الفيلم مع رشق من النُّور استقر على الشاشة .

سيد الكونَ قـرصانٌ هذه المرة . في بحرٍ مَّا من بحار الهند الصينية . متمرد على سلطة مملكة ربما هي انكلترا . بارع بسيفه في المجابهات . يرفع الأعـداء بذراعيـه ويرميـهم من السـفن كـأنهم أكيـاس قطن . إن ضرب بقبضته جمجمةً حطَّمها . إن صَفعَ باباً بيده ، أو ركله بقدمه ، هشمه .

متعةٌ ما رآه الأَخوان من مطلع الفيلم . لكنَّ أمراً مَّا بدا ناقصاً ، فادحَ النقصان ، في فيلم القراصنة : إنه عضلات سيد الكون ستيف ريفز .

بعد شبر ، أو ثلاثة اشبار من دقائق الوقت ، سأل فيها موسى أخاه عن معـاني الكلمـات ، وعن المخاطبات طالبـاً ترجمتـها ، انقلب النبرُ في صوته إلى استياء :

– لماذا يرتدي ستيف كل هذه الملابس؟

لم يعجب موسى ارتداءُ سيد الكون ثياباً تحجب العضل . ستيف ريفز بلا إشهار لعضلاته ليس إبن آلهة ، بل ممثل عادي . تلفت مراراً إلى أخيه ، بعد ذلك ، لا ليسأله عن ترجمة الكلام ، بل عمَّا يجعل سيدَ الكون سيداً للكون حقاً :

– متى سيخلع ستيف ثيابه؟

«لستُ مخرج الفيلم . لا أعرف» ، رد كيهات .

بعد نصف ساعة من العرض لم يعد موسى إلى أسئلته المعهودة طلباً

لترجمة السطور العربية أسفل الصور إلى اللغة الكردية . صمت مخذولاً .

كيهات أيضاً صمتَ نصفَ مخذول من ثياب سيدِ الكون الكاسية جسدَه كله ، لكن نصفه الآخر غير المخذول ، اليقظان على معاني اختفاء يهود من الحي ، أمسك بزمام خياله : من هو عطية الحنُّوش؟

لن يتمكن التاريخ الشفهي من رسم معالمَ للوقائع في اختفاء يهود من مدينة قامشلو . تحريضُ اليهودي على الخوف سارَ به ، في ما يستظهره التوثيقُ الشارح ، إلى ترغيبٍ في الاختفاء . أُخيف اليهودي ليتقاضى منه مهرِّبُه ثمنَ تهريبه .

سيُقال الكثير عن رِشىً فتَّقت أسلاك الحدود بمقصها بين سوريا وتركيا ، وعن رِشىً تدبَّرت عبورَ عائلات ، في سيارات تخص رجال أمن الدولة ، إلى لبنان . في الجهتين ـ اللبنانية والتركية ـ كان الأمر منتظماً في تأمين انتقال المُختَفيْنَ ، بأوراقٍ ثبوتية مزورة ـ جوازاتِ سفر إلى إسرائيل ، من الداخل التركي ، ومن قبرص ، التي يصلونها من مرفأ لبنان ، وإلى الولايات الأمريكية حيث سيتردد اسم الحيِّ النيويوركي بروكلين كحاضنة للكثير من يهود قامشلو .

اسم آخر غامضٌ تردد إلى جوار اسم عطية الحنوش ، الحصين بأقربائه ، في حزب الدولة ، إنه اسم إمرأة : جُوْدي كَار .

من هي جودي كار؟ ألإسمها السياقُ ذاته من إسم كوهين ، الجاسوس الإسرائيلي ، الذي مرَّغ طبقة الحُكم السورية ، قبل حرب الأيام الستة ، في سهولة مُحتقَرَة من استدراج رجالاتها إلى فخِّه؟ استنزف الطبقةَ الحاكمة ، عسكريِّين وأسياداً حزبيين ، شرفَ أسرار الدولة .

جاء الرجل من الأرجنتين ثرياً ، يحفظ آيات من القرآن ، ويتحصن بتعاليم الدين الإسلامي ، والهدايا . مهَّد لنفسه ـ بزعمه أنه من أصول سورية مسلمة ـ الدخول إلى أبراج السلطة بوساطة المَآدب الفاخرة ، أسبوعاً

بعد أسبوع، للدبلوماسيين السوريين في بوينس آيرس، قبل اجتياحه دمشقَ بمأدبٍ موائدُها أوسع، فاتنة الأطعمة والأشربة، أبهى صحافاً وصحوناً وأقداحاً.

في ثلاث سنين تُقاس بأشبار الوقت القصار، دوَّخ الرجلُ أربابَ السلطة السياسيين من أساطين البعث، وجهابذةَ الطبقة العسكرية بسحر كَرَمه، ولباقته، وإسرافه في إغداق النِّعَم من ماله حِلىً لنساء الأقيال، وبناتهم، ومحظياتهم. دخل معاقل التحصينات العسكرية السرية، مع ضباط كبار، في الجولان والقنيطرة. جلس أخيراً في بهو النظام مستشاراً لوزير الدفاع في العام ١٩٦٦، أو مَن سبقوه بحسب تقسيم الوقت على الذين تعاقبوا على الوزارة الأخطر في تاريخ سوريا المتراخي كثدي الدَّردبيس من جهة، وتاريخ العنف المشدود كثدي الحورية في الجنة، من جهة أخرى.

في ثلاث سنين، لا أكثر، على مذاق الأطعمة المُبتكَرة شهيةً باقتباسٍ من مطابخ الطهاة الفرنسيين الحذَّاق، وعلى رنين الهدايا النفائس، خرق «كامل أمين ثابت» ـ كوهين ـ هَلَلَ عناكب السلطة في سوريا، ليضع التاريخ السوري، في هزيمة حرب الأيام الستة، ، على سكَّة اللاعودة من الجحيم.

لم تنتبه استخبارات الدولة العسكرية، والمدنية، والسماوية، والسحريَّة، والخرافية، إلى السياق الذي وضع كوهين، أمين ثابت ـ أمنَ الدولة فيه، وأمنَ جيش الدولة، وتحصينات الدولة، وطائرات الدولة، وحاضرَ الدولة وآتيها. شكوى صغيرة حملها هنودٌ من سفارتهم إلي دمشق إلى الاستخبارات العسكرية السورية: لقد رصدوا تشويشاً لا سلكياً على رسائلهم إلى بلدهم، مصدره قريب من سفارة الهند. دُهِمت البيوتُ القريبة من السفارة. عُثر على كوهين ـ كامل أمين ثابت ـ علَى آلته يُراسل بها قومَه.

أُعدم كوهين في ساحة «المَرْجَة» ، وسط دمشق مشنوقاً ، في الفسحة الواسعة بين أكشاك بائعي شطائر أكبادِ النعاج والبقر ، ورئاتها مشوية على الفحم وجباتٍ سريعةً طعاماً يلتهمها العتَّالون واقفين .

شُنقت معً كوهين أسرارُ حِصن الحكام في دمشق ، سياسيين وعسكريين .

«جُودي كَارْ» اسمٌ أكثر غموضاً من اسم كوهين الواضح في سياق الوقائع السورية . لم يهتدِ أحد إلى ربطه بكِسْرة من سيرة معلومة ، أو مجهولة ، سوى ارتباطه بإختفاء يهود من مدينة قامشلو .

إنه اسمُ امرأة لحروفه نفحةٌ من نسائم الحدود التركية . لكن لم يجزم أحد أهو حقيقي أم مستعار لشبكة تولّت استلام اليهود ، لتوجيه عبورهم من تركيا إلى إسرائيل ، ومن لبنان إلى قبرص فإسرائيل . لا يهم . صاحبةُ الإسم المرفَّه بهيبه السريِّ كانت فرعاً من عبور اليهود المختفين إلى استيطانٍ في مكان آخر .

خرج موسى وكيهات من فيلم «ساندوخان» الجبار بلا رضىً في قلبيهما . ستيف ريفز احتفظ بعضلاته محتجبة تحت ثياب القرصان الواسعة . موسى احتفظ بنبرة الخذلان في صوته وهو يصف خذلانه . كيهات احتفظ بمسيل الصور رقراقةً كماءٍ في جدول خياله عن اختفاء يهود .

من هو «الحنوش»؟ كرر كيهات سؤالَ قلبه الصامتَ مراراً في العودة إلى البيت . سمع من أبيه أن الحنُّوش ينتمي إلى «الحركة الناصرية» بفكرها المُستحصَل نظرياً من خطابات مرتجلة للزعيم المصري . «حركة» ليست على سويَّة من نشوء الأحزاب والحركات عن فكر ذي أبعاد في استلهام مَصَالح مَن يمثلهم ذلك الفكر ، بل مستحصَل من الإعجاب بصوت الزعيم . وإذْ مات الزعيم ظلَّ الإعجاب بصورته .

الحنوش ناصريٌّ . أقرباؤه في حزب الدولة بعثيون . ناصريٌّ محصَّن بسلطة البعثيِّ . أمَّا المعابر ، التي يسلكها الأدلاَّء باليهود المختفيْنَ إلى خارج سوريا ، فهي مُعبَّدة بما يتقاسمه الحنوش من فدْياتٍ للتهريب مع أقربائه . إنهم لا يحتجزون يهوداً رهائنَ ليُفْتَدوا : الخوفُ هو الحجزُ ، ودفعُ الفدية هو الهرب من الدولة .

تلاطمت تفاصيلُ مبهمة في خيال كيهات ماشياً مع أخيه ، قُبيل المغيب ، إلى البيت ، على قرارٍ بالعودة لمشاهدة فيلم هندي . مَطْلعَ الليل ، سبق لهما أن شاهداه بالألوانِ الخلَّابة . سالت من مسام جلده أسئلةٌ لا وضوحَ في صَوْغها أسئلةً . تلفت إلى أخيه :

- أصار ستيف ريفز من حزب جمال عبد الناصر؟

«ماذا؟» ، تمتم موسى مستغرباً ذلك السؤالَ المتعثر بفهمه المتعثِّر .

«ينبغي أن أبني قناً لدجاجاتي هذه الأيام» ، ردَّ كيهات بجواب لا صلة له بتساؤل أخيه .

ظلَّ موسى ملتفتاً إلى كيهات بعينيه الضائعتين بين خذلانه من فيلم القراصنة ، وبين كلام أخيه المترجرج السياق بلا رَبْطٍ .

«لماذا تنظر إليَّ هكذا؟» ، سأل كيهات أخاه .

«لأرى إن كنتَ تشبه جمال عبد الناصر» ، رد موسى .

«من تظنني أشبه حقاً ، يا موسى؟» ، سأل كيهات أخاه .

«تشبه بائع قَطَائف» ، رد موسى . أردفَ متصنِّعاً اعتذاراً : «لا تزْعل» .

«لماذا أزعل؟» ، تساءل كيهات . ابتسم : «اقترب موعدُ نَصْب المدافئ في البيوت» .

لم يجد موسى غير الهمهمة بلا كلمات في المسار المتخبط لأفكار أخيه ، المنتقلة من جمال عبد الناصر إلى بناء قنٍّ للدجاج ، إلى من تشبه صورةُ وجهه ، إلى موعد نصبِ المدافئ . كاد الشكُّ يلمس قلبه :

- أسنعود لرؤية الفيلم الهندي، يا كيهات؟

«سنعود لمشاهدة آلهة الهند كلِّهم»، رد كيهات.

«آلهة الهند؟»، تساءل موسى.

«لا آلهة في الهند إلاَّ الأفلام»، رد كيهات. استطرد: «لا آلهة في الهند إلاَّ الأغاني».

على بعض الأنغام ردَّدها حِفْظاً رديئاً، من أغنية في الفيلم الهندي، توجه كيهات إلى منزل راحيل عصرَ يوم السبت ـ المُفْتَتَح من أسبوع الدراسة الجديد، في الزيِّ المدرسي العسكريِّ، الخاص بمجتمع شابٍّ ينمو عسكرياً منتعلاً حذاءَ الحرب على جبهات لا يعرفها.

كانت دندنة الأغنية تتراجع، وتتقدم، على تصورات كيهات لبناء قنٍّ لدجاجاته. قد تَفِي صناديق البندورة المستعملة، الرقيقةُ الألواحَ الخشب، بمطلوب كيهات. صناديق رخيصة يستطيع شراءها من البقَّالَ الحلبي، الذي يُراكمُها، إلى جانب من حانوته كلما أفرغها بيعاً للبندورة.

سيخلع كيهات الألواح الخشبية القصار، ويعيد لَصْقَها بالمسامير التي فيها.

سيجعل الصناديقَ الضحلةَ العمق أعمقَ بإضافة ألواح إلى ألواح.

سيكون لكل دجاجة مأواها، حتى لو تبادلن مساكنهن عن خطأ غير مقصود، فسبقت إحداهنَّ الأُخريات إلى حجز صندوقٍ مأوى لا يخصها، أو حشرت اثنتان جسديهما معاً في صندوق واحد.

سيكون للدِّيك بينهن حُجرته الخشبية، بختم عليها من مُلكيته.

ما مِن مُلكية، على الأرجح، لأحد في القنِّ الذي يعمِّره كيهات بِلَبِنات الهواء وألواحه في خياله.

سيكون كل مأوى يخص الدجاجات، والديك، مشاعاً. فلماذا يقسِّم كيهات بناءَ القن صناديق أربعة؟ عليه ربط الألواح الخشب بعضها

إلى بعض أربعةَ جدران واسعة ، بجوف واحد واسع ، وسقف عالٍ . سهلٌ ، بعد ذلك ، فرْشُ أرضية القن بالقش الوفير ، مذ كل شيء في الشمال قشٌ من بقايا حصاد الحقول في السماء ، وفي الأرض .

تفكَّر كيهات في سياج يحيط بقن الدجاج . تراجعت الفكرة : لا قطط ؛ لا كلاب تداهم باحة البيت . الركنُ ، الذي سيقيم فيه كيهات مَجْمَعَ القنِّ بين نهاية حقل الورد غرباً ، وجدار كوخ التنور ، آمنٌ .

اطمئن كيهات إلى خططه الهندسية على دَنْدنة غير متقنة لأغنية غنَّتها الفتاة الهندية العاشقة ، العذبة ، الرقيقة ، بحنجرة ليست حنجرتها طبعاً ، لكن على رفيف من أهدابها الطوال المستعارة ، وعلى نداء الكحل ممتداً من لحَاظَيْ عينيها إلى صُدغيها .

بلغ كَيهات منزل راحيل . تنفس عميقاً تحت السماء المشتغلة مَهَلاً على نسج الغيوم بخطط الخريف الحائك في نَسْج غيومه خِفافاً ، وثِقالاً ، ومُرعِدةً ، ومتكتِّمةً على مفاجآت الأمطار الحقودة .

قرع بوابةَ المنزل أربع مرات تباعاً . أصغى منتظراً من يلبي قرْعه الضروريَّ مكرَّراً لتسْمع راحيل ، أو ابنتها ، إن كانتا في الغرفة البعيدة قليلاً .

فوجئ كيهات بالكهل بنيامين يفتح البوابة .

تواجها برهةً صامتين ، كأنما فوجئ أحدهما بالآخر ، بل يستقرئ أحدُهما ـ على خُلسةٍ ـ شيئاً خفيفاً من وجودهما متواجهين من وراء البوابة ومن أمامها .

«مرحباً ، يا سيد بنيامين» ، تمتم كيهات بحروف متقلِّصة في قارورة نبرِها العربي .

«مرحباً» ، رد بنيامين ثابتاً في موضعه ، محدقاً إلى كيهات بعينيه الصغيرتين ، المتراخيتيِّ الجفنين العلويين .

مال كيهات برأسه يميناً ويساراً، مرسلاً بصره عن جانبَيْ رأس بنيامين المغطى بشال أصفر مخطط بياضاً، يسترق النظر إلى باحة المنزل. انتظر أن يدعوه الكهل إلى الدخول فلم يدْعُهُ.

«ماذا تريد؟»، سأله بنيامين بصوت هادئ، عميق، فيه نبرُ الحذر.

لم يجد كيهات، حقاً، عذراً يبرر للكهل وجوده أمام بوابة المنزل. تمتم:

- هل الست راحيل هنا؟

«إنها في الداخل»، رد بنيامين.

«ألَيْنَا هنا؟»، سأله كيهات.

تفحَّصه بنيامين زيادةً في التفحص. رد:

- اين تريدها أن تكون؟

«هنا، يا سيد بنيامين»، رد كيهات.

«هي هنا، إذاً»، عقب بنيامين.

غَمرَ الحَرَجُ كيانَ كيهات في وقفته المخذولة لا يدعوه بنيامين إلى الدخول. ارتجلَ سؤالاً بليداً:

- منذ متى تعرف الست راحيل، يا سيد بنيامين؟

«ماذا؟»، رد بنيامين بتساؤلٍ. ابتسم: «أأعرف اسمك، أم نسيتُه؟».

«كيهات»، رد الشاب.

«إسمٌ غريب»، عقب بنيامين.

«إسمٌ كرديٌّ غريب حتى في اللغة الكردية»، قال كيهات.

«كردي؟ أأنت كردي؟»، سأله بنيامين.

«ألم تخبرك عني الست راحيل؟»، رد كيهات بسؤال على سؤال بنيامين.

«لا أتذكَّر أنها أخبرتني»، رد بنيامين. أعاد تذكير كيهات بسؤاله

السابق إليه مداورةً: «عمَّ سألتني؟».

«إن كانت الست راحيل ذكرت لك شيئاً عني»، رد كيهات.

«قبل ذلك»، عقب بنيامين.

«عمَّ سألتُك، يا سيد بنيامين؟»، تساءل كيهات.

«أوه»، تمتم بنيامين. «سألتَني منذ متى أعرف راحيل»، قال مذكِّراً.

«نعم. نعم»، عقب كيهات بنبرٍ فيه مجاملة لبنيامين، متوسِّلاً لطفَه ليدعوه إلى الدخول.

«أأنت جديد في هذا العالم؟»، سأله بنيامين.

«في هذا العالم؟»، تساءل كيهات غيرَ فاهم.

«في هذا العالم»، كرر بنيامين كلماته. أشار بيده اليمنى إلى السماء، فالأرض، فإلى البوابة، فإلى الفراغ البعيد وراء كتفَيْ كيهات.

صمت كيهات ملجوماً من إشارات بنيامين.

«نحن في عيد الخَلْق»، قال بنيامين.

ارتبكَ قلبُ كيهات من نبْرِ المُلغز في صوت الرجل الكهل. أحس نفْسَه ضائعاً في وقفته أمام بوابة منزل راحيل.

«أيلول هو عيد السنة اليهودية، أيها الكردي»، قال بنيامين. أردف: «ها هُنا كمالُ الخَلْق». تمعَّن في بِزَّة كيهات: «أيها العسكري الأبدي».

«أنا لستُ عسكرياً، أيها السيد بنيامين. حتى لينا ترتدي في المدرسة بزَّةً كبزَّتي»، عقب كيهات.

«لا أعني أنك جندي في جيش الدولة، أيها الشاب، بل عسكري بالفطرة»، قال بنيامين.

«بالفطرة؟!!»، تساءل كيهات مستغرباً.

«ليس بفطرتك، بل بفطرة الدولة»، رد بنيامين.

ازداد ثقلُ الإشارات المغلقة على عقل كيهات. تمتم:

- لم أفهم ، يا سيد بنيامين .

«لماذا ترتدي بزّة الطالب العسكري خارج المدرسة؟» ، سأله بنيامين .

«إنها مريحة» ، رد كيهات .

«الدولة مُريحة . الخيالُ العسكريُّ مريحٌ . الحروبُ مريحة» ، ردد بنيامين عبارات متسلسلة في رنين حلقاتها المعدنية .

أجفل كيهات من ظهور شاب في باحة المنزل لم يعرف من أين قَدِم على التعيين ، سائراً صوب البوابة . جاور الكهلَ من وراء كتفه اليمنى محدِّقاً في تمعُّنٍ إلى كيهات . سأله بلهجةٍ بدوية :

- ماذا تريد؟

كان سؤاله بارداً في التسديد إلى وجه كيهات ، الذي أدار بصره عنه إلى بنيامين مستفسراً . تمتم :

- من هذا ، يا سيد بنيامين؟

«نَبْهَان» ، رد بنيامين في اختصارٍ أثقلَ قلبَ كيهات .

اقترب الشاب البدوي اللُّهجة أكثر من البوابة . سأل بنيامين عن كيهات :

- أهو من الحيِّ؟

«نعم» ، رد بنيامين .

«أتعرفه؟» ، سأله البدويُّ اللَّهجة ، فرد بنيامين :

- ليس تماماً .

«لماذا هو هنا؟» ، سأله نبهان في سترته الرمادية ، المخططة خطوطاً زرقاً ، فوق بنطال مثله .

لم يردَّ بنيامين ، كأنما يترك الجواب لكيهات .

سدد نبهان ، البدوي اللهجة ، سؤاله البارد ، من جديد ، إلى كيهات :

- ماذا تريد ، يا بطل؟

كان في لفظ البدويِّ لكلمة «بطل» ، شيء من الخفَّة لم يستسغْه

كيهات . تنازعه جاذبان : الرجوع على عقبيه ، أو أن ينادي راحيل بصوت عال . لم يحسم . تجاسرَ فسأل البدويَّ اللهجة ، الواضح أنه يفوقه عُمراً ـ ربما في التاسعة عشرة ، أو العشرين :

– مَن حضرتُك؟

حدق نبهان إلى وجه كيهات ملياً بعينيه الدَّاكنتيِّ الأجفان أكثر من بشرته السمراء الداكنة . تمتم :

– حضرتي؟

«نعم» ، أكد كيهات . ارتعش جلدُ رقبته من التخمين أن البدويَّ اللهجة قد يكون رجلَ أمن .

نظر الشاب ـ الذي خَالَهُ كيهات أوَّلَ مرآه أنه زائر يهودي ربما ، لكن اللهجة البدوية أربكتِ التقديرَ ، بل أزاحته ـ إلى بنيامين :

– مَن هذا؟

«كردي . يعرف راحيل وابنتها» ، رد بنيامين .

أبصر كيهات صاحبة المنزل قادمة من وراء أكتاف نبهان والرجل الكهل ، مستوضحةً :

– مَن تكلِّمان؟

استدار إليها بنيامين ليخبرها ، فسارع كيهات إلى مناداتها :

– أنا كيهات ، يا ست راحيل .

«لماذا لا تدخل ، يا كيهات؟» ، سألته راحيل بصوت عالٍ .

أدار كيهات بصرَه على وجهيِّ الواقفين أمامه ، باستفسارٍ مستبطَنٍ عن استيقافهما له لا يدعوانه إلى الدخول . رفع صوته :

– أأنت هنا ، يا ست راحيل؟

اقتربت راحيل حتى جاورت بنيامين ، ونبهان . تأملت وجه كيهات مستغربة :

- ألم تسمع صوتي؟
«سمعتُه» ، رد كيهات .
«إن كنت سمعت صوتي ، فأين أكون؟» ، سألته راحيل .
«تكونين هنا ، يا ست راحيل؟» ، رد كيهات .
«لِمَ لا تدخل؟» ، كررت سؤالها .
نقَّل كيهات بصره بين وجهَيْ بنيامين ونبهان ، كأنما يُلْفتهما إلى أنهما يعترضان دخوله .
تطلعت راحيل إلى الشاب البدويِّ اللهجة تحديداً ، في تحديقٍ صامت لم يفهمه كيهات .
تراجع نبهان عن البوابة . قرَّب رأسه من صاحبة المنزل يسألها بصوت خفيض :
- أتحتاجينه في شيء؟
لم ترد راحيل . لم تكرر دعوتها لكيهات إلى الدخول . سألته سؤالاً غريباً :
- أأنت جائع؟
فوجئ كيهات بسؤال راحيل . ردَّ بنبرٍ بالغَ في التأكيد :
- لا ، يا ست راحيل .
ارتفع صوت لينا قادمة إلى باحة المنزل :
- أهذا أنت ، يا كيهات؟
لم يرد كيهات . تراجع نصف خطوة عن البوابة .
وصلت لينا إلى حيث اجتمع بنيامين ، ونبهان ، وأمها ، عند عتبة البوابة من الداخلِ . حدَّقت إلى كيهات :
- تبدو رجلاً في بزَّتك العسكرية .
لم يعرف كيهات أهو إطراءٌ له من لينا ، أم شيء آخر؟ تبلبل قليلاً ،

لكن نبرةَ صوت الفتاةِ الهادئةَ لجمت توجُّسه من أن يكون نبهان من رجال أمن الدولة . استدار نصف استدارة كالمنصرف :

- سأعود في يوم آخر ، يا لينا .

«لِمَ لا تدخل؟» ، سألته لينا ، فردَّ كيهات منتزعاً من أعماقه كلماتٍ لم يعرف كيف تراكبت ، محدِّقاً إلى بنيامين :

- سأعودُ حين اكتمال الخَلْق .

«ماذا؟» ، تساءلت راحيل وابنتُها بصوت واحد .

«قال لي السيد بنيامين إن شهر أيلول هو موعد اكتمال الخَلق» ، رد كيهات . تساءل بنبرٍ بريء : «لماذا يكتمل الخَلْق في أيلول وهو شهر بداية السنة الدراسية؟» ، في تلميح إلى كراهية أكثر التلاميذ للعودة إلى المدرسة بعد الصيف المغامر ، المقامر .

هأْهأَ بنيامين . عقَّب :

- كان اكتمالُ الخَلْق في شهر أيلول الذي سبق نشوء المدارس في دولتنا .

«ماذا عن أيلول هذا العام؟» ، سأله كيهات .

«إنه أيلول القديم ، الثابت ، لا يتغير» ، رد بنيامين .

«إن كان اكتمالُ الخلق في أيلول القديم ، فلماذا الزَّعم أنَّ في كل أيلول يكتمل الخَلْق؟» ، تساءل كيهات .

«إنه كعيد ميلادك ، يا فتى ، تحتفل به كل سنة ، فيما وُلِدتَ أنت مرة واحدة سابقاً هو يوم مولدك القديم» ، رد بنيامين .

«أحتفلُ؟» ، تمتم كيهات مهأْهِئاً : «لا نحتفل بأعياد ميلادنا ، يا سيد بنيامين» .

«خَلْقٌ ناقص . خلقٌ زائد» ، تمتم نبهان ذو الشاربين الرفيعين بصوته الخشن ، مبدياً ضجره من الوقوف عند البوابة ، وسماعه المحاورة الغريبة .

التفت إلى راحيل: «سأشعل الشمعدانات»، قال ثم انصرف في اتجاه الغرفة التي شهدت امتحانَ كيهات في صنع عجين.

قلَّص كيهات بين جفني عينيه اليَمنى. أَلوى فمه إلى اليمين متسائلاً:

- ماذا يفعل هذا البدوي هنا، يا ست راحيل؟

فهمت راحيل ما استولده وجودُ نبهان من استغرابٍ يقارب الإستياء في صوت كيهات المتفاجئ:

- تبرَّع بتقديم بعض العون لنا يوم السبت.

شهق كيهات. تكلم بصوت لا يخفى العتبُ فيه:

- ما الأشغال الكُثر التي تستلزم عوناً من فَيْلَق؟

«فيلق؟!»، تمتمت راحيل مبتسمة من المبالغة المُضحكة.

«أنا فيلقٌ. أنا أكفي»، قال كيهات.

«نبهان تبرع بالخدمة. ماذا نقول له؟»، تساءلت راحيل.

«لو قَبِلَ يهود هذا الحيِّ بخدمات يتبرَّع بها سكان قامشلو لهم، يا ست راحيل، لوجدت الحيَّ يعجُّ بجيش من الغرباء»، رد كيهات.

أدارت راحيل بصرها إلى بنيامين، الذي تراجع عن البوابة إلى الداخل، ثم عادت ببصرها إلى كيهات. دعته إلى الدخول:

- تعال. نحتاج إلى جيش من الشبان لفعل لا شيء.

دخل كيهات إلى باحة الدار. ردَّ البوَّابةَ مغلقةً خلفه. اقترب من لينا. حدثها وهو ينظر إلى بنيامين منصرفاً صوب غرفة راحيل يسبقها:

- أتثقون بهذا اشخص؟

«أتعني بنيامين؟»، تساءلت لينا بنبرٍ فيه استغراب. فاستدارت راحيل بدورها إليه.

«عنيتُ هذا البدوي»، عقب كيهات.

رفعت لينا كتفيها :

- لا أعرف . جاء به بنيامين .

«أتبرَّع هذا البدوي بخدمتكم ، أم جاء به السيد بنيامين؟» ، سألها كيهات .

«نبهان تبرَّع لبنيامين أن يخدم يهوداً يوم السبت . جاء به بنيامين إلينا» ، ردت راحيل مختصرةً أن يتمادى كيهات في الأسئلة .

«كيف عرفه السيد بنيامين؟» ، تساءل كيهات . وإذْ لم يجبه أحدٌ استطرد : «أيسكن قريباً من الحيِّ؟» .

عجَّلت راحيل خطاها صوب غرفتها صامتة تلحق ببنيامين .

«أأبدأ بشيء ، يا ست راحيل؟» ، لحقها كيهات بصوته .

ظلت راحيل غير ملتفتة إليه . كلَّمت ابنتَها :

- أهناك شيء يمكن لكيهات القيام به ، يا لينا؟

«لا أعرف» ، ردت لينا بصوتها الهادئ ، في سترة غير سميكة ، فوق ثوبها الرمادي الطويل ، المخطط الحاشية صُفرةً أطواقاً على استدارته . توقفت . توقف كيهات . حدَّقت إليه :

- أأعلِّمك بعضَ حروف اللغة العبرية؟

«ماذا؟» ، تساءل كيهات متفاجئاً .

ابتسمت لينا :

- سأعلمك كتابة اسمك بالعبرية .

شهق كيهات :

- بالعبرية؟!!

«بضعة حروف ، لا أكثر» ، عقبت لينا .

«أتكتبين بالعبرية؟» ، سألها كيهات .

«أكتبُ» ، ردت لينا .

زفر كيهات . كلمها بنبرٍ حَذِرٍ :
- ألا تخافين أن يجد رجال الاستخبارات كتابة بالعبرية في بيتكم؟
«لا كتبَ عندنا بالعبرية . لا أكتب رسائل إلى أمي بالعبرية ليجدها أحد . ليس عندنا بالعبرية إلاَّ التوراة في البيت» ، ردت لينا .
«نحن أيضاً ليس عندنا شيء مكتوب بالكردية ، يا لينا» ، قال كيهات . أشار إلى عنقه بأصابعه كأنه يقطعه : «قد نُذْبَح» .
«ألا تعرف الكتابة بالكردية؟» ، سألته لينا .
«لا كتابة بالكردية . لا قراءة بالكردية . لا كلام بالكردية في غُرَف المدرسة . لا أكْلَ باللغة الكردية» ، ردَّ كيهات .
هأْهأَت لينا مستظرفةً :
- لا أكْلَ بالكردية؟ بأية لغة تأكل؟
«بأسنان اللغة العربية» ، رد كيهات .
استطالت ابتسامة لينا على شفتيها الرقيقتين . سألتْه :
- كيف تُكتب اللغة الكردية؟
«لا أعرف . من اليمين إلى اليسار . من اليسار إلى اليمين . من الشمال إلى الجنوب» ، ردَّ كيهات مبتسماً .
«العبرية كالعربية ، يا كيهات . من اليمين إلى اليسار» ، قالت لينا . «سأعلِّمك كتابة إسمك بالعبرية» .
«لا» ، تمتم كيهات متهيِّباً أن يُحْضِر إلى خياله ظلالَ حروفٍ وضعتْها حروبُ العقل ، في دولته ، على سويَّةٍ من غدر الشرِّ بالتاريخ .
تدريس اللغة العبرية مُباحُ في الجامعة ، لكنْ على غايةٍ من مبدإِ «اعْرفْ عدوَّك» ، وليس من مبدإِ تباهي العقل بمعرفة لغةٍ من تصاميم المعرفة . كيهات يحْذَر ـ من انتصار التلقين على أيٍّ اختيارٍ ذاتيٍّ فيه ـ أن

يقترب من المحذورات . «لا» ، قال للينا ـ أميرة قلبه السرِّية . لن يقول لها «لا» قطُّ في أيٍّ شيء آخر .

«مِن اليمين إلى اليسار» ، ردَّد قلبُه صوتَ لينا على أعماقه . العربية ـ لغةُ آخر الأنبياء ، ومعجزةُ اللسان في كتاب الله المسلم ـ من اليمين إلى اليسار . اليمينُ استحقاقٌ من استحقاق التكريم القدسي . اليسار مُسْتسخَفٌ ، بل وضيعٌ في المَرتبة . لذا يحبِّذ الشرعُ الإسلامي دفعَ المسلم للمال بيده اليمنى ، وقبْض المال باليسرى اقتداءً بسُنَّة نبيِّه . دفْع المال باليد اليمنى خلاصٌ مِمَّا يمثله المال من معاني الاستكبار ، والجشع ، والخيلاء ، والإلتهاءِ المرذول بالثراء عن ذِكْر الله . وقَبْضُ المال باليسرى تحقير لمنزلة المال ومعانيه .

ذهبتِ الخصومة بمذاهب الإسلاميين إلى التكفير ، فالذبح في مسائل «التشبيه» ، أيْ : تشبيه الله بالإنسان في أعضائه وصِفاته ؛ وفي مسائل «التَّنْزيْه» ، أيْ : نزْعُ كل صفة عن الله لأنه ، في ذاته ، لا يوصف . لكن استقرَّ التأويلُ الإسلامي على وصف الله ـ تنزيهاً له عن الصفات ، او تشبيهاً له بالصِّفات ـ أنَّ له يديْنِ «كلتاهما يمينٌ» .

لا يدَ يسرى لله في التشبيه . لا مسيرَ بالكلمات العربية من اليسار إلى اليمين . ربما لا مسيرَ في النطق بالكلمات العربية من يسار الصوت إلى يمين الصوت إلاَّ كلمة كيهات : «لا» ، قالها للينا من يسار لسانه إلى يمين لسانه . أربكَهُ اقتراحُها أن تعلِّمه كتابة اسمه بالعبرية . مشى يجاورها عن يمينها إلى الغرفة الأخرى مُتَّخَذَةً مخزناً للأثاث ، وللمؤونة ، وللآنيَّة .

دخل كيهات الغرفة من خلف لينا . كان نبهان واقفاً أمام المنضدة العالية ، التي شهدت أوَّلَ عجْنٍ بيدَيْ كيهات ، يثبِّت شموعاً على حواملها في شمعدانين ، على نحوٍ بطيء ، متكاسل ، كأنه يتلهَّى بهما .

استدار نبهان إلى كيهات صامتاً برهةً يتفحَّصه قبل أن يكلمه :

- أنت كردي .

«نعم» ، عقَّب كيهات .

«تحب أن تخدم اليهود يوم السبت مثلي» ، قال نبهان المتوسط الطول ، المتوسط الحجم لا نحيفاً ولا سميناً .

اكتفى كيهات بالنظر إليه من غير تعقيب .

«لماذا يتبرَّع كردي بخدمة يهود يومَ السبت؟» ، سأله نبهان .

«لماذا يتبرَّع عربي بخدمتهم يوم السبت؟» ، ردَّ كيهات على السؤال بسؤال .

«أنا مسلم» ، رد نبهان . لمسَ بسبَّابته اليسرى طرف شاربه الأيسر . استطردَ : «يومُ الجمعة جارُ يوم السبت . والجارُ أَوْلَى بالجار» .

«من أين أنت؟» ، سأله كيهات .

«مثلك ، من القامشلي ، يا بطل» ، ردَّ نبهان .

«لا تبدو من قامشلو» ، عقب كيهات .

«لماذا تحرِّف إسمَ المدينةِ؟ ما قامشلو هذه؟ هي القامشلي» ، قال نبهان .

«إسمها الصحيح قامِشْلُوْكي» ، عقب كيهات .

التفت نبهان إلى لينا :

- أتوافقين هذا الكردي؟

«لستُ مهتمَّة كثيراً باسمها» ، ردت لينا . أردفت : «ليس اسمها عربياً ، وليس كردياً» .

أرخى نبهان يديه إلى جانبيه ، تاركاً أحد الشمعدانين من غير اكتمال بشموعه . أخرج علبة تبغ من جيب باطن سترته . أشعل لفافة بقداحة .

أخرج كيهات لفافة معوسة قليلاً من جيب سترته العسكرية . أشعلها

بعود كبريت حكَّه قوياً بسطح المنضدة . تكلَّم بانعطافةٍ إلى جملة قالها نبهان سابقاً :

- أنت مسلم . أنا مسلم أيضاً .

«كردي مسلم» ، عقب نبهان .

«لم أفهم تلميحك» ، قال كيهات بنبرٍ مُسْتثقلٍ تعقيب نبهان .

«لا تلميح ، يا بطل» ، قال نبهان .

«لماذا هذه الكلمة؟» ، سأله كيهات .

رفع نبهان حاجبيه متصنِّعاً استغراباً :

- أية كلمة تعني؟

«بطل» ، قال كيهات .

«ألا يعجبك ، أن تكون بطلاً ، يا بطل؟» ، سأله نبهان .

«لا» ، رد كيهات .

تنفست لينا بصوت عال من منخريها ، وقد استشعرت احتداداً في ردِّ كيهات . نظرت إليه نظرة عابرة وهي تتقدم لتمسك بأحد الشمعدانين على المنضدة . التفتت إلى نبهان :

- أعطني القداحة .

«قداحة؟» ، رد نبهان في تساؤل .

«معك قداحة» ، عقبت لينا .

«لا» ، قال نبهان ممازحاً وهو ينفث دخان لفافته التي أشعلها تواً . أردف : «لِمَ القداحة؟ أستدخنين؟» .

«لأشعل بها هذا البيت» ، ردت لينا .

حدق إليها نبهان ، وكيهات ، بنظرتين متشابهتين تعبيراً عن استغرابهما .

استدركت لينا . سألتِ البدويَّ اللَّهجة :

- كيف نوقد الشموع؟

«بقداحة ، أو بعود كبريت» ، رد نبهان .

«نعم» ، عقبت لينا . «بنار واحدة من شموع هذين الشمعدانين نُضْرم البيتَ لهباً» .

قدَّم نبهان القداحة ، بيدٍ متمهلة ، إلى لينا ، مفكِّراً ربما في جملتها الهادئة صوتاً ، والعنيفةِ معنىً .

حاولت لينا إشعال القداحة مراتٍ عدة فلم تطاوعها . استعاد نبهان منها القداحةَ . جرَّب استنطاقَ الآلةِ الصغيرة ذات الفتيل بعضَ نارها المتكتِّمة فلم تعترف . تمتم :

- لِمَ ستوقدين الشموعَ الآن؟ لا يزال الوقت عصراً ، يا لينا .

«كلُّ سبتٍ ليلٌ من فجره إلى مغيبه» ، ردت لينا . التفتت إلى كيهات : «أمعك عودٌ من عيدان الكبريت تحملها فُراطةً في جيبك؟» .

نبش كيهات جيوبه بيديه . لم يجد عوداً .

«هناك علبة كبريت على كتف التنُّور . أحضرْها من فضلك ، يا كيهات» ، قالت لينا .

نقل كيهات بصره بين وجهها ووجه نبهان لحظةً . استدار خارجاً من الغرفة إلى كوخ التنور لصقَ الجدار الشمال من سور المنزل . تفكَّر في المقدار الضروري ، اللازم ، أن يوقد شخصٌ غريب لليهودي شموعاً على حوامل الشمعدان . عمل سهل ، صغير ، خفيف ، لا يحتاج إلى وجود الشاب ذي اللَّهجة البدوية ، الذي لم يكن باديَ الإهتمام حقاً بما يفعل ، مُذ كان على كسلٍ ، وبطءٍ ، في تثبيت الشموع على قواعدها فوق أصابع الشمعدانين النحاسيين . بل واضحٌ أنْ لا أشغال يقوم بها خدمةً للينا وأمها .

دخل كيهات كوخ التنور . وجد علبة الكبريت التي في سوريا نوعان منها برسميْنِ غلافين إحداهما عليها رسمُ حصان أسود ، منتصب على

قائمتيه الخلفيتين ، والأخرى عليها رسمُ مدفع طويل الماسورة ، مع عنوان مُستقىً من مظهره : «كبريت المدفع» ، وهي العلبة التي عاد بها كيهات .

بعود من نار المدفع ستشعل لينا قلب الشمعدان نافثاً لهبه من أعالي مواسيرِهِ الأصابع الرِّقاق ، السبع .

«مينورا» إسمُ الشمعدان مستلْهَماً من رؤيا زكريا ، الكاهن الأعظم مقاماً ، في السجلِّ المؤرَّخ من تصنيف اليهود لمعاني المختارين ، وهو زكريا النبي ، في السجلِّ المؤرَّخ من تصنيف المسلم للمحظوظين قُربى من الله ، أحد الأنبياء الصغار بين التسعة والتسعين ، المعدوديْنَ تبويباً لا يَرقى شكٌّ إلى موثوقه . وهما الواحدُ ـ الإثنان ـ من حُلفاء الغيب ، ورؤيا الغيب .

زكريا ـ الملك الكاهن حتى لو لم يكن ملِكاً ، والنبيُّ مَقاماً حتى لو كان بلا رسالة ـ بثَّ مريديه رؤيا الوحي ، الذي يستلهمه كلُّ صاحب رؤيا كمصْدَرٍ لا تُدحَض قدسيَّته : «نظرتُ فإذا بمنارة فيها ذهب ، وسبعة سُرُجٍ ، تجاورها زيتونتان» .

الشمعدان سبعةُ سُرُج تُوقد . كان زيت الزيتون وقودَ شُعَلِهِ السبع في رؤيا زكريا ، وقد بات الشمعُ وقودَ شُعَلِهِ السبع في زمن راحيل . لا تختلف نارٌ عن نار منبثقة من إشعال الزيت ، أو الشحم ، أو النفط ، أو الشمع ، أو حطب الرؤيا .

حين عاد كيهات بعلبة «كبريت المدفع» الصفراء الغلاف إلى لينا ، عاد بالرؤيا محصورةً ، هذه المرة ، في مادة تُدعى «الكبريت» سريعة الإشتعال ، موجودة منذ القِدم ، معروفة ، لكنها باتت تُلصق بعيدان رفاع ، وهو ما لم يعرفه تاريخُ النار قبلاً . قد يدعوها الخيال باسم «النار المجفَّفة» محفوظةً على رأس عودٍ ، مثلُها مِثلُ اللحم مجفَّفاً .

أشعلت لينا شموع الشمعدانين ، المنتصبين بقاعدتيهما المستديرتين على المنضدة العالية . تأملتهما صامتةً .

تنحنح نبهان . تمتم راضياً :

- أُنجِزَ العملُ .

حدّق إليه كيهات مستخفاً بتقديره إنجازَ أعمال لا يحوجها إلاَّ عودُ كبريت ، فحدَّق إليه نبهان ، لحظةً بدوره ، ثم مشى مغادراً الغرفة .

وحدهما ، لينا وكيهات ، بقيا واقفين أمام المنضدة العالية ، يرقبان من النافذة وراءها باحةَ المنزل .

عاجَلَ كيهات فتاة قلبه السرِّية بسؤال :

- أسيحضر هذا البدوي إلى منزلكما كلَّ سبت؟

«لا أعرف» ، ردت لينا بصوتٍ لا وزنَ فيه . أردفت : «حضر مرةً من قبل» .

«في أيِّ سبت حضر نبهان؟» ، سألها كيهات .

«يوم الجمعة» ، ردت لينا .

«البارحة؟» ، تساءل كيهات ، فردت لينا :

- الجمعة التي قبل البارحة .

«وحده؟» ، سألها كيهات ، فردت :

- مع بنيامين .

نَبَض قلبُ كيهات من اليسار إلى اليمين ، ومن الشمال إلى الجنوب . اقشعرَّ بَدَنهُ غيرةً . تمتم :

- بنيامين .

«ماذا؟» ، تساءلت لينا وقد لَفَتَها نبرُ صوت كيهات في لفْظِهِ إسمَ بنيامين . استدارت لتخرج تاركةً الشمعدانين موقَدين .

دخلت راحيل . نقلت بصرها بين وجهي ابنتها وكيهات ، ثم إلى الشمعدانين :

- لن ننام على ظلامٍ .

كان في صوتها شيء من الدعابة . سألها كيهات :

- ما الأشغال التي يؤديها البدوي الآن ، يا ست راحيل؟

نظرت راحيل لحظة إلى ابنتها ، قبل أن تنقل بصرها إلى كيهات :

- أوَجَدتِ لكيهات شيئاً يفعله ، يا ابنتي؟

«لا شيءَ ليفعله أحد» ، ردت لينا . نظرت إلى كيهات : «هذا سبتٌ في عطلة منذ يوم الجمعة البارحة» .

«لا تحسَّ نفسك مرتبطاً بأداء خدمة ، يا كيهات» ، قالت راحيل . أردفت : «تستطيع العودة إلى البيت» .

تململ غزالُ الغيرة مستوفَزاً بين خميلة قلب كيهات . سألها من فوره :

- ماذا عن نبهان؟

«سيغادر» ، ردت راحيل اختصاراً .

لم يقاوم كيهات عينيه التفتتا إلى لينا بنظرة معذَّبة فيهما . سألها :

- أأحضرُ يوم السبت القادم؟

«إن شئتَ» ، ردت لينا وهي تلتفت إلى أمها ، عساها لم تخطئ في دعوتها المفتوحة .

خرج كيهات من منزل راحيل تحت السماءِ رمادية بعد العصر . لم يتوجه إلى البيت ، بل إلى حانوت البقال الحلبي ، على بعد شارعين من شارع بيت أهله غرباً ، ليشتري صناديق من البقال الكهل ، الشديد البياض بعروق زرق بادية تحت بشرة وجهه . ساومه على أربعة من صناديق البندورة ، المستعملة ، الخفيفة الوزن ، الرقيقةِ الألواح الخشب . عَرَض ثلاث فرنكات للصندوق الواحد . لم يقبل الحلبي . تذاكى فرفع السعر فرنكاً زيادةً ، فلم تُفلح المساومة . دفع ليرة كاملة عشرين فرنكاً ، خمسة لكل صندوق مستعمل فيه مساميرُه الصغار ، السهلة الجذب بالملقط بلا التواء .

طوّق الحلبي كل صندوقين معاً بخيط من القنّب على استدارتهما ، تمكيناً لكيهات على حملها إلى البيت .

عاد كيهات بالصناديق إلى البيت . رَكَنَها في الفسحة بين نهاية حقل الورد وجدار كوخ التنور . ألقى نظرة على دجاجاته محدِّقات إليه ، منتصبات كلٌّ واحدة على ساق ، فيما جثم الديكُ السلطان على قربٍ منهن ، مهذَّبَ الوجودِ أسودَ كريشه . صفَّر له كيهات تصفيرةً رقيقة تحيةً . توجه إلى غرفة أبويه .

كان الأب ، والأم ، والأخ الأصغر متربِّعين على البساط ، حول قصعة العشاء المبكر من يخْنة الباذنجان والبندورة ، برُبِّ البندورة والزيت ، دُلِقت فوق البرغل المرتفع هرماً خفيضاً .

«أين كنتَ؟» ، سألته أمه فور دخوله ، وهو يخلع حذاءه العسكري المُبتذل صُنعاً من صناعة الأحذية العسكرية .

جلس كيهات مع العائلة إلى قصعة طعام العشاء لا يسمع صوتَ أحد منهم ، شاردَ الخيال والقلب معاً ، منتفخ الجلد توجُّساً ، ساهِمَ النظر إلى الملعقة تعود من فمه إلى القصعة ، وترتفع من القصعة التوتيا إلى فمه . شرب ماءً . نهض منصرفاً إلى غرفته . اختلى بالهواجس تمزيقاً لصورة نبهان ، ولَصْقاً للمِزَق بصمغ الغيرة كي يعود إلى تمزيقها .

طوال خمسة أيام في المدرسة ، حتى يوم الجمعة ، عدَّ كيهات الساعات . راقب عن كثب زميليه اليهوديين نعيماً ، وسميراً ، يتعزَّى بوجودهما معه في الصف ، على نحوٍ غير مفهوم . كانا لمسةً مَّا من خَفِيِّ الرَّبط بين الرغائب الملجومة يستحضر لينا إليها قانعةً ، ملبِّيةً ، تُبادله ما يُبادلها . تعليقاته المعتادة على هموم زميله الأرمني بوغوس ، من تأخُّر ردِّ دولة أرمينية على طلب أهله الهجرةَ إليها ، تراجعت . بوغوس أحسَّ ذلك . سأله مازحاً :

- ما بك . أصرتَ أرمنياً؟

«ليتني أرمنيٌّ» ، تلك كانت جملته الوحيدة بنبر الممازحة فيها والتمنّي معاً . أردفَ مُتظارِفاً ، بل مرغِماً نفْسَه على التظارف : «لماذا لا يطلب الأرمن انضمام سوريا إلى أرمينيا في دولة واحدة؟» .

ربما كان حرياً بيوم الجمعة أن يكون الأقسى ، في اقترابه من يومِ السبت ، بالتوقعات المتزاحمة على قلب كيهات . لكن خفَّف عنه قليلاً انصرافه إلى بناء قنٍّ لدجاجاته الفاتنات الثلاث ، ولديكه الحَبْرِ المعظَّم بين الدِّيكة رسولاً بتعاليم السِّفاد إلى شعبٍ من أُم الطير .

فَصَل كيهات ألواحَ صناديق البندورة بعضها عن بعض ، قرْعاً عليها بالمطرقة الصغيرة . خَلَع مساميرَها بالملقط . أعادَ وَصْلَ الألواح لوحيْنِ لوحيْنِ بمفاصلَ تجعلها أكثر عمقاً ، وأكثر ارتفاعاً ، ملتصقة الظهر بجدار السور ، بين نهاية حقل الورد وكوخ التنور . جعل للصندوق الواسع ، المُعاد صناعتُه كقنٍّ ، سقفاً من أربعة ألواح . فرشَ فوقها طبقة من الطين ، ثم بسط على أرضية القنِّ حِزَماً من القش والتبن جمعها أخوه موسى في كيس ، من بقايا هشيم الحصاد في حقول القمح والشعير ، الواقعة بعد تخْمِ الأرض العراء ، من نهايات الشوارع جنوباً حتى العمق البعيد في الجنوب البعيد .

كان كيهات قد وعد أخاه ، في يوم الجمعة ذاك ، باصطحابه لمشاهدة فيلم . استغرقه بناء القن حتى المغيب . أُرهِقَ كيهات . تجاهل حنقَ أخيه المتردِّد عليه من الغرفة إلى حيث ينصب القُن ، كلَّ نصف ساعة طوال ما بعد العصر ، يرصد ما أُنجز . شتمَ دجاجات أخيه . أَذْعَرَها متصنِّعاً هجوماً عليهن . هدَّأَهُ كيهات : «يوم الأحد ، بعد انصرافنا من المدرسة ، آخذك إلى غداء من شطائر الفلافل . سننتظر أن تَفتح دُور السينما أبوابها . اخترْ أيَّ فيلم تشاء» . ويوم الأحد ، بالطبع ، هو الأقصر ساعةً من ساعات الدراسة

في الأيام الأُخر، احتراماً للمسيحيين.

حلَّ يومُ السبت. حلّت ساعاتُ مطلع الأسبوع من الدراسة في المدرسة الإسمنتيةِ البناءِ؛ الإسمنتيةِ التربية؛ الإسمنتيةِ التعليم؛ الإسمنتية التخاطب يلتزمُه المعلمون في تلقين حيواناتهم المدرسية.

لم يعد كيهات إلى البيت بعد انصرافه من المدرسة لينضم إلى أهله على الغداء. تتبَّع، عن بُعد خطوات، زميليه سميراً، ونعيماً، حتى عمق الحيِّ اليهودي، ثم عاد أدراجه من الشرق إلى الغرب، صوب الشارع المفضي إلى بيت راحيل.

كان يحمل حقيبة كتبه المطوية طبقتين بَعدُ، بإحساس من دغدغة الجوع لم يأبه لها. كان الوقت بعد الظهر. وقتٌ غير معهود أن يتوجه فيه كيهات لزيارة منزل راحيل في يوم هو يومُ دراسة. قد تكون راحيل هناك، أمَّا لينا فالأرجح أنها لن تصل إلى البيت إلاَّ بعد ساعة ربما، أو أكثر.

كل شيء كان مرتبكاً في داخله، ولبراثن الهواجس صريرٌ على صفيح أعماقه، من كثرة التوقعات المعقولة، واللامعقولة، متداخلةً كضفيرة. أمَّا عقله فقد أحسه مشتتاً بين الصواب والخطأ في اتخاذ قرارٍ بزيارة منزل راحيل مبكراً.

تراجع كيهات عن التوجه مباشرة إلى بوابة المنزل. جاوزها إلى برزخ الأرض العراء في نهاية الشارع المستقيم ينتهي مطافُ إسفلته أبعد مترين جنوباً من سور المنزل. حافَّته المتكسرة تتوقف هناك.

أوغل كيهات ابتعاداً إلى الجنوب. لا يهم مقدارُ بُعده عن نهاية الشارع المستقيم مادام في استطاعته رصدُ العابرين، والداخلين إلى منازلهم. جلس أرضاً على التراب المتهيئ لدورة الحياة الجديدة بلا بهرج، أو زينة، في مطلع الخريف. سكَبَ من إبريق اللغة العربية أشعاراً يحفظهًا في أقداح غرام اللغة العربية. استعاد من قصص يعرفُها أحوالَ العشاق

العذريين ، والمنكوبيْنَ بقوانين الأديان لا تسمح بالوصال بين عاشقين إن لم يكونا على دِينٍ واحد ؛ والمنكوبين بقوانين الأعراق لا تجمع بين سود البشرات وبِيْض البشرات ؛ والمنكوبين بقوانين الفصل بين عشاق ينتمون إلى قبائل لا تستوي كفَّتا ميزان الرِّفعة والوضاعة بهما على سوية واحدة .

ظلَّ كيهات جالساً في موضعه من الأرض العراء ، يرصد عودةَ لينا ، حتى العصر ، على معدة خاوية . شيءٌ مَّا لم يكن على ما يرام . أتأخرت الفتاة في المدرسة إلى ذلك الوقت ، أم ماذا؟ حسم أمرَه . نهض عن الأرض التراب ينفض مؤخَّر بنطاله العسكري مِمَّا علق به من معصوف القش ، وما تذرَّى من النبات اليابس . اتجه إلى منزل راحيل . قرع البوابة أربع مرات متلاحقة . فُتحت البوابة .

بعضُ لطخاتٍ سود بانت على وجه لينا ، المعقودة الشعر عقيصةً خلف رقبتها ، من سُخام الدخان . بانت يداها ملطختين سواداً . وجَم كيهات . سألها بلا انتقاء للسؤال :

– لم أركِ عائدة من المدرسة .

«ماذا؟» ، تساءلت لينا . «أكنتَ تراقب الشارع؟» .

ارتبك كيهات ممسكاً حقيبته بيديه معاً أمام بطنه . ردَّ يدفع عن نفسه تهمةَ المراقبة :

– لا ، يا لينا .

«لماذا سألتني متى عدتُ من المدرسة؟» ، سألته الفتاة .

«أراكِ منشغلة جداً ، كأنك عدتِ من المدرسة باكراً» ، عقب كيهات هارباً من إجابة صريحة ، وهو ينظر إلى ذراعيها حسرت عنهما الفتاةُ كُمَّي ثوبها .

«لم أذهب إلى المدرسة اليوم» ، قالت لينا .

«لم تذهبي؟» ، تساءل كيهات . ألقى نظرة نصف دائرية على باحة

المنزل من جانبي كتفيْ لينا. سألها بنبرٍ فيه رقرقةُ الخوف:

- أحَضر نبهان؟

«نبهان؟»، تساءلت لينا. ردت: «لم يحضر نبهان».

«ماذا تفعلين؟»، سألها كيهات محدِّقاً إلى يديها المتسختين سُخاماً.

«أركِّب المدفأة»، ردت لينا. أزاحت جسدها عن البوابة. تمتمت: «تعال».

خَطَا كيهات إلى داخل الباحة بِدَهَشٍ خافت في عينيه:

- أتركِّبين المدفأة؟! هذا يومُ سبت.

«مَن الذي أخدعه طوال هذه السنين؟»، عقَّبت لينا ماشية صوب باب الحانوت الخلفي، الضيق، المفتوح.

اسْتَغْلَق سؤال لينا على كيهات. اقترب منها حتى كاد يلامس كتفها. تمتم:

- ماذا تعنين؟

«السبت، يا كيهات. لِمَ التزامي بالإحجام عن العمل فيه؟»، ردت لينا.

ظلَّ كيهات صامتاً لا يفارق وجهها جانبياً ببصره. التفتت إليه متطلعة إلى الحقيبة في يده:

- أذاهبٌ أنت إلى مدرسة مسائية؟

ابتسم كيهات يُداري حَرجَه. حاول أن يبادلها مزاحاً:

- هذه حقيبة الذهاب إلى المدسة يوم الجمعة. إنها معي منذ البارحة.

«أذلك يعني أنك لم ترجع إلى البيت منذ يوم الجمعة؟ أين نَمْتَ؟»، سألته لينا وهي تدخل الحانوت المغلق البوابة. وقفت قرب مدفأة اسطوانية الهيكل، منتصبة على قاعدتها ذات الأقدام الثلاث، وإلى جوارها، على

الأرض ، مواسير واسعة من الصفيح ، واحدة طويلة ، وأُخريات قصار ، إضافة إلى ثلاثة مفاصل مقوَّسة هي وصْلات مزدوجة التركيب . ركعت إلى جوار المواسير : «أكملنا نصب مدفأة في غرفتنا . الآن دَور مدفأة الحانوت» .

لم يتمالك كيهات نفسه من إعادة السؤال ذاته ، الذي اعتصرَه على مسمع لينا :

- أليس هذا يومَ سبت؟

تنهَّدت لينا :

- أأنا أخدع نفسي ، أم أخدع أمي ، أم أخدع الله ، يا كيهات؟ كل سبت أذهب إلى المدرسة من سنين ، فلماذا ألتزم عدمَ القيام بأعمالٍ هذا اليوم؟

فتح كيهات فمه لا يعرف تعقيباً . وضع حقيبته على طاولة تقطيع اللحم . جثا إلى قربٍ من لينا . شمَّر عن كُمَّي سترته العسكرية . تمتم :

- لم أركِ قبلاً في عمل كهذا .

«أقوم بأعمال كُثر يوم السبت» ، عقبت لينا «السبتُ لي لم يَعُد سبتاً» ، حدَّقت إليه : «لماذا أنت متفاجئ؟» .

«لا أعرف» ، تمتم كيهات مبتسماً ابتسامته الغامضة المعنى حين لا يفهم حقاً . دار ببصره على قِطع المواسير التي من لوازم نقْلِ الدخان عبرها إلى المدخنة خارج الحانوت . رفع عينيه إلى حدود السقف حيث الفتحة ، التي سيخرج منها أحدُ المفاصل الصفيح المقوَّسة إلى الخارج لنفْثِ الدخان . اقترح : «أنا سأركِّب الماسورة الطويلةَ من المدفأة إلى السقف» . أردفَ : «في البيت أفعل هذا كله» . نهض واقفاً . تطلَّع إلى أعلى يقدِّر علوَّ السقف : «أين السلَّم؟» .

«لم يزل في غرفتنا . أمي تبدِّل الستائر» ، ردت لينا .

«أمك تعمل أيضاً» ، عقب كيهات . «لا يهم» ، تمتم . تلفَّت من حوله : «يلزمني كرسي ، لا أكثر» .

نهضت لينا واقفة أيضاً :

- فلْنقرِّب طاولة تقطيع اللحم .

تعاونت لينا وكيهات على نقل الطاولة ، الثقيلة بقوائمها الأسطوانات الخشب ، زحْفاً على الأرض الإسمنت ، مُذ يتعذَّر حملُها .

ركَّب كيهات مفصلاً قوسياً ، قصيراً ، إلى الماسورة الواسعة المنبثقة من هيكل المدفأة . أوصلَ المفصل المقوَّس بالماسورة الطويلة ، الأساس ، التي ستبلغ بعلوِّها الفتحةَ في أعلى الجدار تحت السقف . أمسكت لينا بالماسورة منتصبة . صعد كيهات طاولة تقطيع اللحم حاملاً مفصلاً آخر مقوَّساً من الصفيح . ركَّبه تركيباً هيناً متداخلاً مع أعلى الماسورة الطويلة المتصلة بالمدفأة . دفع نهاية ذلك المفصل الوصلةِ في الفتحة أعلى الجدار . خرجت الوصلة من الجدار إلى الخارج بامتداد شبرٍ .

تبقَّى أن يُنجَز تمديد المدخنة من الخارج .

«يلزمنا السلم» ، قال كيهات .

مضت لينا إلى داخل الغرفة الكبيرة . عادت تجرُّ السلم الخشبي مرفوعَ المقدَّمة عن الأرض الإسفلت . ابتسمت :

- إنه ثقيل .

هرع كيهات إليها . تناول منها السلم . حمله من وسطه على ثقلٍ واضح ، مشى به إلى جدار الحانوت . نصبه فبلغت نهايته السطحَ تماماً .

حمل كيهات مفصلاً قوسياً آخر ركَّب عليه ، بإدخال طرفِ فوهة في فوهة ، ماسورةً عالية متراً ربما ، تنتهي بغطاء مخروطي ، مفتوح من ثلاث جهات لنفث الدخان خارجاً ، ولحماية الماسورة من تسرُّب الهواء فتختنق النارُ في المدفأة .

تأمل كيهات المدخنة، التي ستوزع على السماء قيامةَ الدخان من احتراق المازوت ـ ابنِ النفط الهدية من خمائر الأرض إلى ساكني عقلها الأرضيِّ. أنزل بصره من عليائه إلى أسفل يرصد ملامح لينا. هز رأسه يريدها راضيةً:

- أهذا تمام؟

«هذا تمام»، ردت لينا راضية.

أُنجز نصبُ المدفأة بأقلَّ ضرر من السخام على يدي كيهات، مذ كانت لينا نظفت المواسير من السخام الراقد فيها قرعاً بها على الأرض في كوخ التور فاسودَّت يداها، وتلطخ وجهُها بقعاً صغاراً سهواً منها في لمس وجهها.

نزل كيهات درجتين متطلعاً إلى غرفة لينا وأمها. لمح راحيل تراقبه من النافذة. لوَّح لها، فبادلتْه تلويحاً.

نزل كيهات إلى الأرض الإسمنت. لاقتْه راحيل قادمة من الغرفة. دخل الثلاثة إلى الحانوت.

يستخدم أهل المدينة مدافئ المازوت الأسطوانية، الطويلة، والمتوسطة الهياكل. تعلو المدفأة، التي من هذا الصنف، كُرة كبيرة تُملأ بالوقود، منتصبة على قضيب أجوف ينزل منه المازوت غذاءً للنار في جوفها. وفي الكُرة صِمَامٌ للتحكُّم في نزول القطرات سريعةً أو بطيئة. تُشعل النارُ فيها بإلقاء عود كبريت إلى قاعها المبتل بالوقود، أو يُستعمل قضيب رفيع، طويل، في رأسِه كُبَّةٌ من القطن مبلَّلة بالمازوت. تُوقد كُبةُ القطن. يُدلَّى القضيب إلى الجوف فيشتعل بما سُكب فيه من الوقود. قليلة هي البيوت التي ظلت على أحوالِ قرن قبلاً، بمدافئ حديد وقودُها الحطب، وبمدافئ من الطين الصلصال لها نظامٌ كبناء التنُّور، لكن أصغر حجماً، والنوعان القديمان هذان حكْرٌ على المعسورين من ساكني تخوم المدينة، والمهاجرين الريفيين.

نظرت راحيل إلى كيهات ممتنَّة . دارت من حول المدفأة تتقرى بيدها اليسرى الماسورةَ الصفيح ، في المفصل المتصل بالمدفأة . سألت الشابَّ بنبرٍ ممازح :

- أشوَتْ أمك بَيْضاً في المدفأة؟

«كيف يُشوى البيض في المدفأة ، يا ست راحيل؟» ، عقَّب كيهات مستغرباً .

«فكرتُ في الأمر ، لكن لم أهتدِ إلى طريقة بعد» ، ردت راحيل .

قأْقأَت الدجاجات في أقفاصهن تحت المسطبة الطويلة ، المرفوعة على قوائم ، فوقها أوعية مربَّيات ، وسلة بَيض ، وبعض اللحم القديد على أنواعه .

«إنهن ينذعرن أحياناً من انضمام غريبات إليهن» ، قالت راحيل .

«غريبات؟» ، تساءل كيهات ، متطلعاً إلى الأقفاص لم يستحكم الضياءُ الملجوم ، في الحانوت المغلق البوابة الأمامية ، أن يُظْهِرَها أوضحَ ، بالرغم من النورِ المنعطف صوب الجدار الجنوبي للحانوت ، عبر الباب الخلفي الضيق .

«دجاجات حبشية» ، قالت راحيل .

قلَّص كيهات بين أجفان عينيه يحصر الأقفاصَ تحت المسطبة بتركيزٍ عليها :

- أعندك ديَكة حبشية ، يا ست راحيل؟

«نعم . دِيَكَةٌ إناثٌ حبشية» ، ردت راحيل .

لم يفهم كيهات التعبير . تطلَّع إليها بنظرة متسائلة .

«إنهن إناث الديك الحبشيِ» ، فسَّرت راحيل .

يعرف أهل الشمال ، قطعاً ، أن الطير الحبشي ، الأكبر حجماً مرتين من الدجاج ، فيه الذَّكرُ وفيه الأنثى . لكنْ لم تَصِرْ تلك المعرفة مصطلحاً على اللسان . «الديك الحبشي» هو التعبيرُ محتكِراً جنسَ ذلك الطير .

الأنثى «ديكٌ» حبشي ، والذَّكر ديكٌ حبشي . الأنثى والذَّكر دِيكان . ما من أحد سمَّى أنثى الديك الحبشي بإسم الدجاجة الحبشية . إنها ديك . كانت الأنثى ديكاً ، وستظل ديكاً على لسان المشيرِيْنَ إلى نوعه .

«كم عددهن ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات .

«أربع» ، ردت راحيل .

«لَسْنَ كبيرات الحجوم» ، عقَّب كيهات يتفحَّصهن .

«بعد شهر لن تتَّسع لأجسادهن بزَّتُك العسكرية ، يا كيهات» ، قالت راحيل .

«متى يَبِضْن؟» ، سألها كيهات .

«بعد شهر ونصف شهر ، ربما» ، ردت راحيل .

«أتبيعينهن؟» ، سألها كيهات .

«حانوتي ليس فندقاً للنُّزلاء من الدجاج ، يا كيهات . طبْعاً هن للبيع» ، ردت راحيل .

«بِكَمْ الواحدة؟» ، سألها كيهات .

تأمَّلته راحيل مبتسمة :

- أتفكر في شراء واحدة من الحبشيات؟

«ربما» ، رد كيهات .

«عندك دجاجات . أليس كذلك؟» ، سألته راحيل .

«عنده دجاجات» ، ردت لينا مستبقةً كيهات .

هزَّ كيهات رأسه تأكيداً .

«أتبني مزرعة؟» ، سألته راحيل ، فردَّ كيهات :

- ستكون لي مزرعة دجاج .

«ما حال الديك الذي اشتريته مني؟» ، سألته راحيل ، فرد كيهات متطلعاً إلى لينا :

- إنه رئيس جمهورية الآن .

«بِعتُك الديك الأجنبي بسعر ديكٍ من مواطني دولتنا . أمَّا الدجاجات الحبشية . .» لم تكمل راحيل جملتها .

«أَدجاجاتك الحبشيات أجنبيات أيضاً ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات .

قرَّبت راحيل رأسها من رأس كيهات . ردت في همس :

- إنهن حزبيَّات .

ضحك كيهات :

- من أيٍّ حزب هُنَّ؟

«لا أريد مشكلة مع استخبارات الدولة . لن أبوح باسم الحزب الذي ينتمين إليه . يكفي أنني أخبرتُك أنهن حزبيات» ، قالت راحيل .

«ما أسعار الرفيقات الحبشيات؟» ، سألها كيهات .

«سبعون ليرة» ، ردت راحيل .

«يا إلهي» ، تمتم كيهات . «أهُنَّ دراجات نارية ، يا ست راحيل؟» .

«إنهن خالدات كرسالة الأمة العربية الواحدة» ، قالت راحيل مستدرجة إلى مزاحها شِعاراً من شِعارات الحزب . أردفت : «مَن يشتري واحدة سيتوارثُها أبناؤه جيلاً بعد جيل ، حتى يوم قيامة المسلمين بعد الموت» .

شهق كيهات مستكثراً السعر الفاحش :

- سبعون ليرة!!! .

«أهو سعر مرتفع؟» ، سألته راحيل .

«ماذا تعتقدين؟» ، رد كيهات .

«لا تَخَفْ . أتريد شراء واحدة؟» ، سألته راحيل من جديد .

«نعم» ، رد كيهات بفواصل بين حروف الكلمة كالمتردد . أردفْ متحفِّظاً : «لكنْ» .

«لك سعر خاص» ، قالت راحيل . اشترطت : «إن كانت الدجاجات الحبشيات هؤلاء مسيحيات» .

هأهأَت لينا .

نظر إليها كيهات بفم مفتوح . تساءل :

– عرفنا أنهن حزبيَّات . لكن كيف نعرف أنهن مسيحيات؟

«هذه مهمتك ، يا كيهات» ، عقبت راحيل . «استنطِقْهن» ، قالت . «سأخفض سعر الواحدة إلى ثلاث ليرات لو عرفتَ دِينَهن» .

لم يتلكأ كيهات في الرد :

– هنَّ مسيحيات ، يا ست راحيل . أُقْسِم لكِ على ذلك .

«كيف عرفت؟» ، سألته راحيل .

«لا يخطئ بصري في تمييز المسيحيات عن غيرهن» ، رد كيهات .

«أحتى لو كانت المسيحياتُ دجاجات حبشية؟» ، تساءلت راحيل .

«أميِّز الدجاج المسيحي عن الدجاج المُسلم ، والدجاج اليهودي . أُميِّز الحصى عن الحصى في باحة بيتنا فأعرف ما هو دِين كل حصاةٍ ، يا ست راحيل . أنا معجزة» ، رد كيهات .

«خذْ أنثى الديك الحبشي المسيحية . هي لك بثلاث ليرات» ، قالت راحيل .

«ربما اشتريتها فيما بعد ، يا ست راحيل» ، عقَّب كيهات . «لا نقود معي اليوم» .

«خُذْها وادفعْ لي حين تراني في المرة القادمة» ، قالت راحيل .

عاد كيهات بعد العصر من منزل راحيل ممعوسَ المعدة جوعاً ، حاملاً بيده اليسرى حقيبته المدرسية ، وباليمنى أنثى صنف الطير الحبشي ، مربوطة الساقين بخيط ، خافقةً الجناحين بلا توقف ، غاضبة من انقلاب الوجود رأساً على عقب ، منتَهَكَ التوازن ، مرغماً على التنكُّر لحقيقته

كوجود لا يَخلُّ النظامُ فيه بوعوده المتَّزِنة . عنيفاً رفرفت بجناحيها الكبيرين تَصْفِقُ فخذَ كيهات اليمنى . هزت جسدها استياءً فأرْعَدَتْ يدَ كيهات بعنف اهتزازها .

أسئلةٌ تكاثفت ، ثم انقشعت ، في بيت أهل كيهات ، عن جدوى شراء «ديك» حبشٍ أنثى لم تكتمل نضوجاً بعدُ . ساومَ الشابُّ أباه على الشراكة مناصفةً في تسديد الثمن إلى راحيل . قَبِل أبوه بدفع ليرة لا أكثر . رضيَ كيهات بدفع ليرتين ممَّا ادَّخره من عمل الصيف في حانوت بيع الأكياس .

قأْقأَت دجاجات كيهات من انضمام غريبة إليهن في القُنِّ ، من صنف طير لا يشبههن حجماً ؛ لا يشبه بَيْضُ أنثاه بيضهن حجماً ؛ لا تشبه قأقأَتُه قأقأةَ الدجاج ، إن قلَّده إنسان بصوته ردَّد الطير الحبشيُّ الصدى محاكياً بصوت يتواصل خشناً كهأْهأَة خشنة فيها نبرُ الزَّعيق .

يوم الإثنين ، التالي لزيارة كيهات إلى منزل راحيل ، لم يكن منذوراً لمُذاكرة الدروس ، ومراجعة الواجبات . كانت المدارس تَداعت ـ بترتيب من فَرع حزب البعث في المدينة بلَّغَ رُسُلُه إدارتِها ـ إلى تظاهرة عارمة ، تضامناً مع ضحيتين قتلهما الجيش الإسرائيلي في قرية من قرى الجولان المحتل .

بعد تحية العَلَم في الصباح الباكر ـ والعواء المعهود من حناجر الطلاب ترديداً للشعارات المُطمئنَّة إلى صلابة الأمة الواحدة ، وقدسية تكليف التاريخ للحزب الحاكم بمهام إنجاز المعجزة في خلود العِرْق الأمة ـ انتظمت الصفوفُ مترادفةً كلُّ أربعة طلاب على سطر واحد عَرْضاً . بلغ الحشد الكبير من باحة المدرسة الإسمنتِ الواسعة إلى الشارع العريض خارج سورها . بانعطافٍ من وراء زاوية أحد الجدران مضتِ المسيرة ـ التي ترك الطلابُ فيها حقائبهم في غرف المدرسة تمكيناً لأيديهم من التصفيق بلا عائق ـ إلى الوجهة الصواب من غاية انطلاقها .

بعد مسيرة مائتي متر في الشارع العريض ، اتخذت المسيرةُ بالأجساد في بزّاتها العسكرية وجهةَ الشمال . توقفت ليُحْكِم ضابطو صفوفها من الطلبة الحزبيين ، حاملي الشرائط السود محيطةً بأعضادهم للتمييز ، هندسةَ المعاني من خروج الأحذية العسكرية ، والخناجر العسكرية ، والقبعات العسكرية على رؤوس طلاب ليسوا عسكريين ، إلى الشارع .

الهيئة العسكرية لطلاب ليسوا عساكر ، تعويضٌ لقادة الدولة ، الممتلئين في سرائرهم شكوكاً أنَّ الدولة قادرةٌ على حوز أيِّ نصر ، في أيِّ مكان .

الهيئة العسكرية ثياباً ، وهتافاً ، وقَرْعاً بأخامص الأحذية السِّمَاك على الأرض قَرْعاً فائض الصخب ، هي التعويض ، في سرائر قادة الدولة ، عن خسارة وزَّعوها نجوماً على أكتاف الأمة المنكوبة بعساكرها .

كيهات ، وزميله الأرمني بوغوس ، بالَغا في قرع الأرض بحذائيهما الأسودين ، اللذين غطَّت العنقَ الطويل لكل فردة فيهما نهايةُ ساق البنطال المبطَّنة بشريطِ مطاط ، يُحْكِم الطوقَ على رسْغ القدم .

«ما أخبارُ طلب الهجرة ، يا بوغوس؟» ، سأل كيهات زميله ، وهما يرفعان أذرعهما باستقامةٍ أمامهما ، ويُخْفِضانها في المشية العسكرية بحركة تُلازِم رفع أقدامهما وخفْضها .

«سيصل الجواب من أرمينيا قريباً . هذا ما أخبرنا فرْعُ الهجرة في دائرة قيد النفوس» ، رد بوغوس .

«هل الأرمن مواطنون مُعارون من دولة أرمينيا للدولة السورية؟» ، سأله كيهات .

«ماذا؟» ، تساءل بوغوس في الصخب فجَرَّته الحناجر ترديداً لشعار ألقاه على فتيان المسيرة طالبٌ حزبي ، متولٍّ تنظيم الانضباط في الحركات العسكرية مشياً .

«أأنا سوري؟» ، سأل كيهات زميلَه ذا الفم المضغوط الشفتين انطباقاً .

«ماذا تظن ، يا حفيد القبائل العربية؟» ، رد بوغوس بصوت عال .

«لماذا يحق لك أن تطلب الهجرة إلى أرمينيا؟ ذلك ممنوع على السوريين» ، قال كيهات .

«قدِّم أنت أيضاً طلباً للهجرة» ، عقب بوغوس .

«إلى أرمينيا؟» ، تساءل كيهات .

«إلى أرمينيا» ، رد بوغوس ضاحكاً ، ثم لجم ضحكته متصنِّعاً ملامحَ صارمة إذ رأى أحد طلاب الإشراف على الإنضباط يحدق إليه .

«لماذا إلى أرمينيا وليس إلى كردستان؟» ، تساءل كيهات بفم ألواه صوبَ زميله ، فيما احتفظ بوجهه متجهماً إلى الأمام .

«أين كردستان هذه؟ أهي دولة؟» ، سأله بوغوس مديراً وجهه إلى جانبيه . ألوى عنقه صوب زميله : «لا تقُلْ هذا أمام أحد ، يا ابن الأمة العربية» .

لن يفهم كيهات معنى أن تقبَلَ دولتُه من الأرمني ، وليس من سواه ، طلبَ الهجرة على نحوٍ عادي ، كأنه مُعارٌ تستردُّه دولةُ العِرْق الأرمني . هل الأرمن ضيوف ، أم مواطنون؟ الدولة السورية ترى فيهم مقيمين مؤقتين ، مسموحٌ لهم العودة إلى دولة عِرْقهم . هُم معارون إذاً . مواطنون معارون . ذلك فريدٌ في اصطلاح النظر من الدولة إلى المواطن . سوريا فريدة إذاً في منطق اعتبارها بعضَ مواطنيها مؤقَّتيْنَ مُواطنَةً ، واعتبار بعضهم «مكتوميْنَ» في التعريف بهم ، أيْ «مجهولين» ، مذ أسقطت عنهم حظوةَ المواطنة ، من غير السماح لهم بتقديم طلب هجرةٍ إلى الجحيم حتى .

«بوغوس» ، نادى كيهات زميله من غير التفات إليه ، بل إلى طالب آخر قريب في السطر الذي هو فيه عَرْضاً ، يتلافى أن يلفت نظره .

«أنا في القامشلي بعد وليس في يريفان . خفِّف نداءَك» ، ردَّ بوغوس

على نداء زميله . أردف : «ماذا؟» .

«لماذا مسموحٌ للأرمن تقديم طلبات هجرة إلى دوائر الدولة في سوريا؟» ، سأله كيهات للمرة الثانية في صوغ مختلف من الكلمات .

«لأنهم أرمن» ، رد بوغوس بجواب لا يستوفي أيَّ توضيحٍ ، مُذ ـ حقاً ـ لا يحتاج إلى توضيح .

«ماذا عنَّا؟» ، سأله كيهات .

«مَن تعني؟» ، ردَّ بوغوس .

«الأكراد» ، قال كيهات .

«ماذا عنكم؟» ، سأله بوغوس .

«لماذا لا نستطيع تقديم طلباتِ هجرةٍ إلى أيِّ مكان؟» ، عقب كيهات .

«لأنكم مواطنون مرغوبون فيهم هنا» ، رد بوغوس .

«أأنا مواطن سوري؟» ، سأله كيهات .

استدار بوغوس بوجهه المعروق ، المدور ، إلى زميله . حدَّق إليه كالمُحذِّر :

– لا تدعْ أحداً يسمعك تقول هذا .

«عائلتنا بلا جنسية . أنحن مواطنون؟» ، عقَّب كيهات .

«أنتم مواطنون مرغوبون ، بجنسية أو من دونها» ، قال بوغوس مبتسماً . ثم رفع صوته ترديداً لشعار آخر فجَّر الحناجر .

«لن يفهم أحدٌ هذا» ، عقَّب كيهات .

«كان عليكم ، أنتم الأكراد ، التصريحَ عن عِرْقكم بأنكم أرمن ، منذ مطلع وجودكم في سوريا» ، قال بوغوس .

«أرمن؟!» ، تساءل كيهات .

«لِمَ لا؟» ، عقَّب بوغوس على تساؤل زميله المستغرب . أردف : «أنوفنا متشابهة . بشراتنا متشابهة . مَشْيُنا متشابه . بكاؤنا متشابه» .

«أنحن أغبياء إذْ لم نصرِّح للدولة أننا أرمن ، أم أغبياء مُذ صارحناها أننا أكراد؟» ، تساءل كيهات مبتسماً .

«لا أعرف» ، رد بوغوس . أردف على نحوٍ لا سياقَ للمنطق فيه : «جرِّبوا أن تطالبوا بحقِّ الهجرة» .

«إلى أين؟» ، تساءل كيهات .

«إلى الجنة» ، رد بوغوس .

قرعت أخامص الأحذية الأرضَ قرعاً عنيفاً ، تبليغاً للغيب ، وللوجود ، وللحقائق ، وللتاريخِ ملفَّقاً أو مُعْتَمَداً ، أن الله يقف إلى جانب الصخب .

سمع كيهات صوتاً من زميله بوغوس التبست فيه الكلمات عليه . التفت إليه :

- أقلتَ شيئاً؟

«ما معنى اسمك؟» ، سأله بوغوس

«ألم تسألني هذا قبلاً؟» ، قال كيهات .

«لو سألتك لَمَا نسيتُ» ، رد بوغوس .

«لِمَ نسيتَ أن تسألني كل هذه السنين عن معنى اسمي؟» ، قال كيهات .

«لأنني أرمني» ، رد بوغوس متظارفاً .

«معنى اسمي هو : مَن جاء؟» ، ردَّ كيهات .

«ماذا يعني : مَن جاء؟» ، تساءل بوغوس .

«هو معنى اسمي» ، رد كيهات .

«مَن جاء؟» ، قالها بوغوس بصوتٍ عالٍ ، ملتفتاً من حوله : «أهذا معنى اسمك؟» .

«نعم ، يا سيدي الأرمني» ، رد كيهات .

«حسناً» ، قال بوغوس . أردف : «هل من جواب على اسمك الذي هو : مَن جاء؟» .

«بلى» ، رد كيهات . «جاء الكردي» .

ضحك بوغوس مُجيلاً بصره على الطلاب الحزبيين ماشين من حول الصفوف كالخفراء ، يرصدون انضباط التلاميذ ، ملوِّحين بين برهة وأخرى بأذرعهم المطوقة الأعضاء بشرائط سود .

تصنَّع كيهات خُبثاً :

– ما الشتائم التي سنطلقها اليوم ، يا بوغوس؟ مَن سنشتُم؟

«الشتائم التي تليق باليهود الصهاينة» ، رد بوغوس .

«مَن سنشتم إن لم نشتم اليهود؟» ، تمتم كيهات .

قطْعاً ستتداخل هتافاتُ اللَّعْن بلا فواصل في المِعْجَن الوطني : صهيوني - يهودي . إسرائيلي . كلمات تنتفخ منها الأوردة في الأعناق المطوَّقة بربطات العنق العسكرية . كلمات تُسْتخْبَز رغيفاً واحداً في الفرن الوطني . يهود القامشلي كانوا دائماً على موعد - في التعبير بالمظاهرات عن المآثر الوطنية ، والغضب الوطني ، والتنديد الوطني ، والاستنكارات الوطنية - للإصغاء إلى ما يَعْجِنهم ، ويَخْبِزهم أرغفةً محترقة . كانوا «نوعاً ثالثاً» ، في سوريا . لم تأخذهم الخطوطُ المدوِّخة إلى جهةِ كُثرٍ من الأكراد بلا جنسية ، فيكونوا مثلهم مقيمين في بلد ليس لهم ؛ ولم تأخذهم الخطوطُ إلى جهة الأرمن فيكون في مستطاعهم تقديم طلبات للهجرة .

هم مواطنون بـ «امتيازات» ليست لغيرهم : كان ممنوعاً عليهم قيادةُ السيارات . لا يخدمون في الجندية ، ولا حقَّ لهم بالأنتساب إلى مؤسسة من مؤسسات الجيش . ممنوعون من الحصول على وظائف رسمية في دوائر الدولة ، أو المصارف . مجمَّدو الأرصدة . ممنوعون من تحويل مالٍ إلى أي مصرف في الأرض . ممنوعون من بيع أملاكهم . ممنوعون من مغادرة

الأمكنة التي يسكنون . وعليهم إثباتُ وجودهم في منازلهم ذاتها لم يغيِّروها ، بالرجوع إلى فرع الاستخبارات فترة بعد أخرى . وهو الفرعُ الذي استحدث لهم محقِّقين مثل صاحب الطربوش الأحمر يتحقَّقون من بقائهم حيث يسكنون ، باقتفاء آثار عناوينهم ، وأسمائهم في الحي اليهودي . أمَّا الانتقال من مدينة زيارةً ، كما يفعل راباي المسلخ في قدومه من حلب لذبح النعاج للجزارين اليهود ، فيلزمه إذنٌ صارمُ التأكُّدِ من غاية الزيارة وضرورتها القصوى .

كان لليهودي السوري ، المواطنِ المتحصِّن ببطاقة هوية لا تمتلكها عائلة كيهات ، مَثَلاً ، وضوحٌ في الإشارة إلى «كيانه» بحروف من الحبر الأحمر على بطاقة هويته : «موسَويٌّ» ، أيْ : من أتباع موسى ، النبيِّ المبجَّل في اعتراف المسلم ، عربياً وغير عربي ، بقُربى موسى من الله أوْحَدَ كلَّمه اللهُ بلسان الإنسان . لكنَّ التدليل باسم موسى على «كُنْهِ» اليهودي ، في بطاقة هويته ، لم يكن على قَدْرٍ من احتفاظ النبيِّ بجلال رسالته . إنه نبيٌّ متجرِّدٌ ـ في الكتابة بالحبرِ الأحمر على بطاقة هوية اليهودي ـ من محاصيل القُدسيَّات . اسمه علامة على «صنف ثالث» من «مواطني» سوريا . «صنف ثالث» قَيْدُ المراقبة ؛ قَيْدُ التشكيك في ولائه ؛ قَيْدُ الحقد عليه أيضاً .

أوقفت الدولة حظوةَ اليهودي من مَنْشَأَةٍ إسمها «الأوقاف اليهودية» منذ حرب ١٩٤٨ ، وضمَّتها إلى «دائرة الأوقاف الإسلامية» . أغلقت الدولة المدرسةَ اليهودية التي بُنيت في القامشلي ، وتدارسَ التلامذة اليهود فيها لسنة واحدة فقط ، ما بين قرار تقسيم فلسطين في العام ١٩٤٧ ، وبين سنة حرب العام ١٩٤٨ ، التي «فاز» فيها العرب بمزيد من خسارةِ الخرائطِ حدودَها .

في وقائع التاريخ ، وسجلِّه ، أن جماعة مُنتخبة من أعيان اليهود هرعوا

إلى مطار مدينة القامشلي للقاء رئيس الجمهورية الزائر نور الدين الأتاسي ، في العام ١٩٦٦ ، يتسعطفونه أن يحدِّد تصنيفَ «نوعهم» في الدولة : أَهُم مواطنون أم ليسوا مواطنين؟ وتضرَّعوا إليه أن يسمح لهم بتقديم طلبات للهجرة ، مُذ لا تعترف بهم الدولة بشراً من رعاياها بحقوق للرعايا ، فأجاز لهم ـ بأريحية الرئيس الحكيم ، وشفقة الأب على أبناء شعبه ـ ان يقدِّموا طلبات للهجرة!!!! لكن الرئيس لم يحدِّد ، لمن استعطفوه النظرَ إلى أحوالهم ، أين يقدمون طلبات الهجرة ، ولمن يقدمونها؟ ولم يعرف يهود المدينة ، أيضاً ، إلى مَن يقدمون طلبات الهجرة ، وأين يقدمونها .

تلاقت صفوفُ الطلاب العُرامُ ، قادمة من المدارس في أنحاء المدينة ، على ساحة مبنى السراي ـ المبنى الجامع ، الطوافِ الأخير للمظاهرات الوطنية في حِمَى أُبَّهته التي من هيبة ممثل الدولة القائمقام فيه . تلاقت طلائع الصفوف ذكوراً فتياناً ، وإناثاً فتيات ، في الدائرة الإسمنت الواسعة ، مسترسلةً في ترديد الشعارات ، والأهازيج المُنْتَخَبة ممَّا يليق بجبروت الحزب الحاكم ، وجبروت الدولة السورية ، وجبروت الأمة العربية ، وجبروت التاريخ الحائزِ نصرَ البداية ، وما بينهما ، كلَّه بلا نقصان شبر واحد .

لَفَت كيهات نداءٌ دعاءٌ من الجمع الفتيات قريباً من جمْعِ مدرسته :

«يا ربْ
العربْ تنصرُهُم ،
واليهودْ تكسرْهم» .

التفَّ خيطٌ لا مرئي من صوت لينا اللامسموع على خياله فاعتصره . أهي تردِّد ذلك الدعاء مع فتيات مدرستها؟ ماذا عن زميليه سمير ، ونعيم؟ أيسمعان؟ تلفَّت إلى الوراء يتحرَّى بعينيه أين هما ، فلم يجدهما . أمال رأسه يمنةً ويسرة يستطلع الصفوف الأمامية ، فلم يجدهما . البزَّات

العسكرية التي يرتديها طلابٌ ليسوا عساكر، والقبعات التي لا تخصُّ حقيقةَ أنَّ رؤوسهم ليست رؤوسَ عساكر، موَّهت على كيهات أن يعثر ببصره على زميليه.

أسمير، ونعيم، مجروحان بالدعاء المسكوب حديداً ذائباً يسيل إلى مجرى وجودهما في مكانٍ يسقطان من غرباله كنُخالة؟ أمْ لا يأبهان، تعوَّدا في سماع ما لا يُرضيهما أن يَصمَّا سمعَ قلبيهما، وفي رؤية ما لا يُرضيهما أن يُغمضا عينَيْ قلبيهما؟

كاد كيهات يَخلُّ بنظام الصف الذي يقف فيه، باستدارته المتتالية إلى مكان اجتماع الفتيات بصفوفهن بحثاً عن لينا. هي فتاة طويلة، تعلو صاحباتِها كلَّهن ربما. أمْ هو مخطئ في التقدير؟ فتيات أخريات شخصْنَ طويلات، ظاهرات الرؤوس أعلى من أفق الرؤوس المتخالطة، بينهن السافراتُ والمتحجِّبات.

الأناشيد النارية من مكبرات الصوت أعادت كيهات إلى سياق المعنى من وجوده في ساحة السراي. رفع بصره، ككل من رفعوا أبصارهم، إلى طبقة من طبقات المبنى، حيث بانَ على شرفة نافذة فيها رجلُ الدولة القائمقامُ، في بزته العسكرية المهيبة سُترةً، وبنطالاً، وقبعة دائرية لها سقيفة فوق الجبين. همهم أولاً قبل أن يهتف: «أحييكم باسم الحزب القائد، يا أبناء الأمة العظيمة». صمتَ لحظةً. أدار بصره على الحشود يقيس بها أبعادَ الساحة، ويقيس بأبعاد الساحة أبعادَ الحشد، ليحدد لصوته مسارَ انتشاره واسعاً. تنهَّد تمجيداً، وتعظيماً: «الشهيدان اللذان قتلهما الصهاينةُ رجلان من حزبنا في الجولان المحتل، المقاوم». هز قبضته اليسرى: «هذا هو النوع الذي ينجبه حزبُنا من الرجال. هذا ما يصنعه حزبُنا خالقُ البطولة».

استرسل القائمقام، ذو الصوت الرنين، تعداداً لمعجزات الحزب في

صناعة البطولة ، وتنويهاً بمآثر ضحيتين في هضبة الجولان وَصَفَهما وصفاً كأنهما سَكَنا معه غرفةَ نومه ، وشاطراه الإفطار قبل أن يصير قائمقامَ السراي في القامشلي ، وبعد أن صار قائمقاماً . ثم أتْبَعَ الوصفَ المديد لبطولة الضحيتين بزعيق تتلاطم فيه كلمتان هما : الإمبريالية ، والصهيونية ، حتى ظنت الجموعُ أن الإمبريالية ، والصهيونية ، هما خُصيتا الشيطان إنْ قُطِعتا انقطع نَسْلُه . وكادت الجموع تؤمن ، من ثم ، أن الحزب يهيء شفرةَ التاريخ جَلْخاً لقطْع الخصيتين .

أحقاً كاد زميلا كيهات سمير ، ونعيم ، أن يؤمنا بما كادت الجموع المسحورة تؤمن به في صوت القائمقام من مكبِّر الصوت ، أو المتصنِّعة انسحاراً؟ إنه صوت ينتظرهما على كل منعطف من مناسَبات مُختَرَعة من رحم مناسَبَات مخترعة ، للتحريض على الهتاف إجلالاً لمعجرة اسمها الحزب الحاكم . أين لينا في شفق الصراخ وغسقه من الشعارات الأسس في بناء مستقبل سوريا ، الذي لن يصنعه إلاَّ الحزب الحاكم؟

أضاف القائمقام إلى عبارتَي الصهيونية ، والإمبريالية ـ وهو يلفظهما بنبر هادرِ التنديد ، والوعيد ـ عبارة ثالثة لَفَظَها ، ختاماً ، بتأنٍّ في الحروف : «التأميم» .

الدولة ماضية ، إذاً ، في أنجاز تصحيح المسارات الخاطئة للإقتصاد ، منذ عرفت طلائعُ الجنس البشري تحصين مُلكيتها بالقوانين ، وإرضاء حاجاتها بوسائل إنتاج لها طباع الولاء ، والتوفير ، والاختصار ؛ وابتكرت طلائعُ الجنس البشري التعريفَ بمناهج اختصاصها تحت مصطلح «الشركات» . الحزب الحاكم في سوريا اقتدى ، في مسار «تصحيح» أخطاء الاقتصاد ، بحاكم مصر آنذاك ، الذي اقتدى ، بدوره ، بمذاهب الشيوعية الحديدية ، مُسْتخرَجةً من تحت الطبقة السفلى في جليد الفكر .

سرى «التأميم» ، في سوريا ، على كل شيء : الشركات ، والأملاك

الخاصة، ووسائل الإنتاج. «تأميمٌ» لم تَنْجُ منه مدرسة الراهبات في القامشلي. حَوَّلَتْها الدولة إلى مدرسة للبنات، وسمَّتها «مدرسة القادسية». و«القادسية» مَوقعٌ في العراق شهد معركة بين المسلمين القدامى والفرس. انتصر المسلمون فغزوا فارس.

ما الذي أوجب إطلاق إسم موضع هزم العرب فيه الفرس على مدرسة كانت للراهبات المسيحيات؟ ما النصرُ الذي أوجب «تأميم» مدرسة للراهبات المسيحيات، بلا معركة، مكرَّماً باسم معركة ضد الفرس الوثنيين؟

انصرفت حشود الطلاب، كلُّ حشد عودةً إلى مدرسته، على ترديد إسفلت الشوارع لرنين النَّبر في صوت القائمقام عن «التأميم»، أيْ: إسترجاع الأُمة ما يخصُّها، كحلم نهائي من أحلام العدالة المروَّضة في حديقة الحزب الحاكم. فقدت الصفوف بعضَ انتظامها في الإنصراف من ساحة السراي، ليجلب الطلاب حقائبهم من مدارسهم.

اقترب كيهات من زميله الأرمني حتى لامس كتفه بكتفه:

– متى ستؤمِّم الدولةُ الهواءَ، يا بوغوس؟

«الهواء مؤمَّم. الأرواح مؤمَّمة، يا عبقري»، رد بوغوس.

حدق إليه كيهات مستظرِفاً، فاستطرد بوغوس:

– الهواء الذي تتنفَّسُه هواءٌ عربي. روحُك، التي ستصعد إلى الجنة كعصفور، لن تصعد إلاَّ بشراء أبيك جناحين لك من الحزب، يا عبقري.

«من أين تعلَّمت الكلام هكذا، يا بوغوس؟»، سأله كيهات.

«من الحُبِّ»، رد بوغوس.

«ماذا؟»، تساءل كيهات مبتسماً ابتسامته الغامضة، الملتبسة، حين لا يفهم.

هأْهأَ بوغوس وهو يرى الاستغراب ملوَّناً في عيني كيهات. سأله:

- أتحب أحداً؟

تراخى فكُّ كيهات السفلي . بدا في عينيه شيء كالاعتراف لم يترجمه لسانُه . ظلَّ صامتاً .

«مَن تُحبُّ ، يا ابن الأمة العربية؟» ، سأله بوغوس مُستدْرِجاً .

«أحب الممثلات الهنديات» ، رد كيهات .

«كلنا نحب الممثلات ، يا عبقري . الممثلات لسن من نوع الإنسان» ، عقَّب بوغوس . أردف : «عنيتُ أتحبُّ فتاةً من نوعك هنا ، على هذه الأرض ، في هذه المدينة ، في حَيِّك الذي تسكنه ، في الشارع المقابل لشارع بيتكم ربما ، يا كيهات؟» .

«مِن أينَ تعلَّمتَ الكلام هكذا؟» ، أعاد كيهات سؤاله على زميله بنبرِ إعجابٍ .

«من مدرسة الحب الأرمنية» ، رد بوغوس .

«عندكم مدرسة أرمنية في قامشلو . لِمَ لا تدرس فيها؟» ، سأله كيهات .

«أتريدني أن أبقى تلميذاً في الصف الابتدائي طوالَ حياتي؟» ، رد بوغوس مذكِّراً كيهات أن المدرسة الأرمنية ، مثلها مثل مدرسة السريان ، والأشوريين ، هي للمرحلة الابتدائية لا غير . أردف : «حين أهاجر إلى أرمينيا سأصير معلِّماً للغة العربية هناك» .

«ما حاجة الأرمن ، في أرمينيا ، إلى لغة تُهاجرُ أنت من بلدها؟» ، سأله كيهات ، فرد بوغوس :

- أرمنٌ يأتون إلى هنا ، في شركات من الاتحاد السوفيتي يديرها خبراءُ في التأميم ؛ خبراء في النفط ؛ خبراء في الشيوعية ؛ خبراء في الإصلاح الزراعي ؛ خبراء في الحُب العُذري .

«تتحدث حقاً كمعلم مدرسة ، يا ابن الملائكة» ، عقَّب كيهات

مبتسماً من استظرافه كلمات بوغوس .

«سأعلِّم طلابَ اللغة العربية ، في أرمينيا ، أنْ يتفهَّموا أنَّ للمسلم حصَّتُه من الملائكة كحصة المسيحيين من الملائكة» ، قال بوغوس .

«أأبقى الشيوعيون ملائكة مسيحية في أرمينيا؟» ، سأله كيهات ، فرد بوغوس :

- حين يُحْضر الإنسانُ ملائكةً إلى مكانٍ ، لا ملاكَ يغادر بعد ذلك .

انفرطت الصفوف المنتظمة في طريق العودة إلى المدرسة من السراي ، ليأخذ كل تلميذ حقيبته . تداخل الفتيانُ فوضى . خلعوا قبعاتهم يضعونها في الجيوب . نزعوا أربطة الأعناق . دسَّها بعضهم في جيبه ، واكتفى بعضٌ بإرخائها عن أوردتهم المنتفخة من تطويقها رقابهم على نحوٍ صارم من لزوم المظهر العسكري .

«إن لم أجدكم مختنقين بأربطة الأعناق خنقتُ أيامَكم» ، يهدِّدهم الضابط العسكري المُعار من ثكنة الجيش ، لتدريبهم ساعةً في الأسبوع . وهو يعني بتهديده أن تكون أربطة الأعناق مُحْكمة الإحاطة بالأعناق . أيُّ ارتخاء في ربطة العنق هو إهمالٌ . كلُّ إهمال هو إنتهاك لشرف المظهر العسكري . كلُّ انتهاك لشرف المظهر العسكري تكون عاقبته تحطيم أيام من عطلة الصيف على رأس الطالب المُهْمِل ، باستدعائه إلى خدمات يتولاَّها الحزب في الريف الذي يظلُّ بلا خدمات ، أو في تنظيف الطرق التي تظل وسخة بعد التنظيف ، أو في «لا شيء» لتعكير أيام من العطلة عليه باجتماعٍ في المدرسة ، أو في الحديقة العامة ، أو أمام مقرٍّ فرع الحزب ساعاتٍ وقوفاً ، قبل أن يأتي من يعلن انصرافهم : «تعالوا غداً» .

لا طالبٍ يريد ذلك . لا طالب يريد تهشيم بعضٍ من أيام عطلة الصيف على رأسه . لا طالبَ يَعصي الإلتزامَ بربطة العنق صارمةَ الضغط تطويقاً لعنقه حتى لو اختنق ، إلاَّ القليلُ السَّاهون .

في ساعات الدرس يلتزم الطالب بهيئته العسكرية متأهبةً للحرب . في المظاهرات المرصودة من ملائكة الحزب يلتزم الطالبُ بذلك .

أرخى كيهات ربطةَ عنقه منذ انتهى وقتُ الالتزام بها ، من غير نزْعها . بحث بعينيه عن زميله بوغوس . كان يريد المزيد من المحاورة الطريفة بلا حذرٍ من أن يسمعهما طالبٌ عن يمينهما ، أو عن يسارهما . لم يجده كيهات . بلغ المدرسة مع الآخرين . اتجه إلى غرفة صفِّه . جلب حقيبته المطوية طبقتين إحداهما فوق الأخرى . خرج من ساحة المدرسة ككل الخارجين سُراعاً ، هرباً من أشباح القوانين المغسولة في طَسْت الحزب فرْضاً للشعائر القدسية ولاءً للعَلَم ؛ ولاءً للحزب ؛ ولاءً للتعاليم العسكرية ؛ ولاءً للشعارات ؛ ولاءً للرئيس اختارته المصادفة التاريخية ، عن قَصْد مذهل ، لإنجاز النُّقْلة من تراخي الدولة في تاريخ نشوئها إلى صرامة اليقظة ، وفائض الجبروت .

حين خرج كيهات من بوابة سور المدرسة إلى الشارع العريض ، ألفى زميله بوغوس ماشياً مع سمير ، ونعيم ، على مهلٍ ليس لائقاً بمقتضى الإسراع ابتعاداً عن عبودية المدرسة . لحق بهم لاهثاً من ركضه ، فالتفتوا إليه .

«أيطاردك المدير؟» ، سأله بوغوس مبتسماً .

لم يعقِّب كيهات على مزاحِ بوغوس . حدق إلى زميليه نعيم ، وسمير ، كأنما يستنطقهما ، صامتاً ما يكتمانه من أمر قلبيهما ، في ذلك النهار القابض بيدٍ من شوك على أحشائهما . الأمور ذاتها تتكرَّرُ مُناسبَةً بعد أخرى ؛ سنةً بعد أخرى ، فلماذا فضول كيهات أن يستجلي سرائرَ زميليه؟ منذ انسكاب لينا ماءً في جدول رغائبه ، التفت قلبُه إلى ما يسيل في الجداول إلى قلوب جيرانه .

تأمل وجهيهما لحظة ، ثم أرسل سؤاله :

- أين كان موضعكما في المسيرة؟
«لماذا؟» ، عقَّب نعيم على سؤاله .
«بحثتُ بعينيَّ عنكما» ، رد كيهات .
«لماذا؟» ، كرر نعيم سؤاله . أردف : «أُقْسِم لك أننا كنا نردد الهتافات كالآخرين ، ونردد الشعارات كالآخرين» .
أحسَّ كيهات كأنه أُتِّهم بمراقبتهما . أدار بصره إلى بوغوس مستنجداً به . تمتم متسائلاً :
- أيَعنيني إن ردَّد أحدٌ الهتافات أم لم يرددها؟ أيعنيني إن شتم أحدٌ الدولةَ؟
هأْهأَ بوغوس مدركاً أن كيهات أُحرج من ردِّ نعيم الشبيه ، حقاً ، بتهمة لا يُتَّهم بها إلاَّ الطلبة الحزبيون يراقبون الآخرين ، ويتحرَّون في الصفوف خَلَجَات قلوبهم قبل خلجات ألسنتهم . تكلم ساخراً :
- كيهات عميل الأرمن ، يا نعيم .
«ماذا؟» ، تساءل نعيم بصوته الذي فيه بعضُ الخُنَّة .
«حين أصل إلى أرمينيا ، سأطلب من الدولة أن تقدِّم التماساً إلى الدولة السورية ، تستعطفها فيه أن تقبل بهجرة كيهات إلى أرمينيا» ، قال بوغوس .
هأْهأَ سمير ونعيم معاً ، مستظرفيْنِ كلامَ بوغوس . بادلهما كيهات ابتسامةَ رضى .
في الطريق إلى البيت ، متلكئاً في المشي مذ غادرهم بوغوس ، وأسرعَ زميلاه الآخران يسبقانه صوب الحيِّ اليهودي ، استعاد كيهات حضورَ نعيم ، وسمير ، حصةَ الدِّين الإسلامي . استعادَ صورةَ التفاتات التلامذة في الصفِّ إليهما كلما ذُكِر اليهودي في موقعة من معارك المسلم ، أو آيةٍ من آيات المسلم ، أو نَثْرَةٍ من سيرة النبوَّة في تاريخ المسلم .

لربَّما أكثر الصور ملازمةً لذاكرة كيهات ما يطلبه معلِّم الديانة الإسلامية ، في دخوله الصف : «نعيم» ، ينادي التلميذَ اليهودي ، مستديراً إلى اللوح الأخضر الطلاء جرى تثبيتُ مادَّته قشرةً ملساء على الجدار ، متقنَةَ الإستواء . «خطُّك لا يعلو عليه خطٌّ» ، يقول ، وهو يمدُّ يدَه اليمنى ، من خلفه ، إلى نعيم ، بإصبع من الطَّبْشورة حمراء ، بلا التفات إليه ، بل مبقياً بصره على اللوح يستطلع في طلائه الكتيم أُسسَ الرسالات ، ومعاني الرسالات ، والحظوظَ اليقينَ من التماس الإنسان إيمانَه بالإسلام ، والسيرةَ الأكمل معجزةً في خَلْقِ الأب الأول من الطين ، وهزائمَ الكفر في معارك يحضرها الملائكةُ المحاربونَ نَجْدةً للمؤمن ، والعدلَ الأعظم ـ عدلَ الدِّين عنيفاً في تقشير الأرض طبقةً طبقة ، كورق الكَرَنْب ، من آثامها .

يتناول نعيم الطبشورة الحمراء من يد المعلم . يكسر منها قطعة كأَنْمُلَة الأصبع . يزيح المعلم نفسه إلى جانبٍ ، متيحاً للتلميذ فضاءً أكملَ لحركة جسده انتقالاً بالحروف من اليمين إلى اليسار ، في أعلى اللوح : بسم الله الرحمن الرحيم .

البسملة هي ما يدونها نعيم بخط عريضٍ من الطبشورة ، التي لا يستخدم رأسها بل عَرْضها في تخطيط الحروف ، ثم يَعْمد إلى طبشورة بيضاء يظلل بها جانب كل حرف ، فيخالهُ النظرُ مجسَّماً نافراً . يرجع التلميذ إلى مقعده . يستدير المعلم إلى الجالسين . يبدأ درسه بقراءة سورة الفاتحة ، تمتمةً على عجل ، يستحضر بها أمل الفوز في الحياة بموتٍ لا يُثْقِل على المؤمنين الركض إلى الجنة خِفافاً كالأثير .

يسترعي بصرَ كيهات ـ بعد كل مرة ينجز فيها نعيم رسمَ الحروف ملتفَّة خشوعاً على المعنى في «البسملة» كأفاع من الياقوت ـ تحديقُ التلامذة إلى يد نعيم اليمنى في عودته إلى مقعده . إنه تحديقٌ إلى

الحِذْق . لكنَّ المعلِّم لا يكتم تعليقه المفرط في عصبية خياله : «يدُك ، يا نعيم ، يدُ مُسْلِم» .

النظر بإصرارٍ من التلامذة إلى نعيم يُحرجه . النظر إلى موضع من جسد الإنسان ، بإصرارٍ مقصود في التحديق ، يُحرج الذي يُنظر إليه . التحديق إلى فَم من يكلِّمك ، مثلاً ، يحرجه . التحديق إلى يدي من يكلمك ، وليس إلى وجهه ، يحرجه . التحديق إلى شعر من يكلمك ، وليس إلى وجهه ، يحرجه . التحديق إلى بطن من يكلمك ، وليس إلى عينيه ، يحرجه . التحديق إلى أسفل بطن من يكلمك ، أو إلى ركبتيه ، أو إلى قدميه ، ممعناً النظر في حذائه ، وليس إلى وجهه ، يحرجه . للنظر عُرْفٌ حين يخاطب أحدٌ أحداً . للنظر من عابر إلى عابر يتلاقى بصراهما أعرافٌ ، إن كان النظرُ من ذَكرٍ إلى أنثى على التحديد .

أتنظر زميلاتُ لينا إلى الحدبة الخفيفة وسط أنفها ، حين تستدعيها المعلمة لقراءة آية من القرآن حِفْظاً عن الذاكرة ، واقفةً أمامهن بظهرها إلى اللوح ؛ أو حين تُستدعى إلى استذكار حديثٍ نبوي ، أو إلى سرد وقائع معركة من معارك الإسلام ، أو إلى مجرد تذكيرٍ بشيء - كتابةً على اللوح - مما ينتظر التلامذة في الدرس القادم؟

كيف تبدو لينا لزميلاتها المسلمات في حجابٍ كحجابهن ساعةَ حصَّة «التربية الدينية»؟ أيُقنعن حجابُها أنها تقيم معهن في الموضع الحصين من إيمان المسلم بحصانة معتَقَدَه؟ ربما يخطر هذا ببالهن إذ يريْنَ لينا تقلِّب مثلهن صفحات كتاب «التربية الدينية» ، أو تدوِّن قَبَساتٍ من حديث المعلِّم . ربما لا يخطر ذلك ببالهن .

كيف خطُّ يد لينا بالعربية؟ كم سَهَا أن يسألها مرةً رؤية خطها في دفتر من دفاترها ؛ أن يرى كيف تكتب اسمها ؛ أن يطلب منها كتابةَ اسمه ، ولو على ظاهر يده .

تتالت عليه مواقفُ حماقاتٌ صغار من أسئلة عن خطها لو سألها لضحكت، أو استغربت، أو استوضحتْه مقصَدَه. ضحك بغتةً، ليس من موقف محرجٍ قد يضع نفسه فيه، بل من اقتحام نكتةٍ يستطيبها أبوه تكراراً مملاً في إلقائها على عائلته، وعلى زائريه:

اجتمع ثلاثة أكراد. أراد واحد منهم أن يختبر ذوقَ الإثنين الآخرين في الطعام. سأل أحدَهما:

- أيُّ جزء من الدجاجة ألذُّ طعماً؟

«جِلْدها»، ردَّ ذلك الشخص على بداهةِ الذوق فيه.

امتدحَ السائلُ ردَّ الشخص الأول امتداحاً كثيراً، وهو يعدِّد محاسنَ جِلد الدجاجة في الفم سلْقاً، وقلْياً، وشَياً. التفت إلى الشخص الثاني. سأله:

- أيُّ جزء من البقرة ألذُّ طعماً؟

تفكَّر الشخص الثاني، يرتِّب في عقله رداً يجعله جديراً بفوز ذائقةِ الطعام فيه على ذائقة زميله. تكلَّم واثقاً:

- جِلدُها.

تلك هي نكتة أبيه التي لا تُضحكه، فلماذا اقتحمت خاطرَه، في استعراض قلبه خطوطاً بالعربية لم تكتبها لينا، إنما كتبها كيهات بحبر رغبته منسوبةً إلى الفتاة، وقد رسمَ الحروف قويةَ الإتقان؟ ربما كان ذلك جزءاً من استدراج الحماقةِ اللطيفة لحماقةٍ أخرى لطيفة إلى التضامن معها.

اتخَّذ كيهات، بإصرار من رغبةٍ هي أيضاً على قَدْرٍ من الحماقة اللطيفة، طريقاً طويلاً إلى البيت، على نحوٍ قوسيٍّ كبيرِ الاتساع. مرَّ بالكنيس اليهودي المنتصب بناءً متواضعاً، إلى قربٍ من دار سينما غربيس الصيفية. انعطف من هناك إلى مطلع السوق اليهودية شمالاً،

يقصد المرورَ جنوباً لينعطف من نهاية السوق إلى شارع منزل راحيل . ربما يرى لينا عائدة من مسيرة التنديد الوطني بقتل الإسرائيليين شخصين من قرية الجولان . ربما يراها عائدة في بزّتها العسكرية كبزّته ، معتمرةً قبعتها المستطيلة الضيقة من الأعلى كقبعته . هي عسكرية أيضاً في المظهر الذي تلتزمهُ فتياتٌ لسن عسكريات ، ولاءً للدولة العسكرية ، التي تدبَّرتْ براعةُ الإبداع فيها أن تُرغم الحياة على ارتداءِ حذاء عسكري ، في حدودها الجغرافية على خريطةٍ فصَّل الغربُ فيها حدودَ دولٍ من الشرق بمقصه الذهبي .

وصل كيهات ، في مشيه المنتقم من جسده ، إلى الناصيةِ الجنوب من نهاية الشارع المستقيم ، الذي تتصَّل حوافه المتكسرة ببرزخ العراء بعد منزل راحيل . كانت رغبةُ جسده أن يختصر المسافة إلى البيت ، لكنَّ مشيته لم تكن على توافق مع رغبة جسده . مشيُه كان إطالةً للمسافة . هكذا انتقم مشيُه من رغبة جسده . بل مَن يدري؟ ربما كان مشيُه الإطالةُ للمسافة متواطئاً مع رغبة جسده الطالبةِ اختصارَ المسافة ، فتوافَقا على أمرٍ واحد : العبور من قُرب منزل راحيل .

بوغت كيهات وهو ينظر ـ من موضعه في الشارع المتجه غرباً ـ إلى الجنوب : ستة رجال من رجال استخبارات الدولة ، وشرطيان ، ومركبتان عسكريتان تقفان قبالة حانوت الجزار بِنْحَاس .

كان المشهد يتقوَّض ، ويتراكب ، أمام بصر كيهات . ظهور رجال أمن الدولة على ذلك النحو يعني ، عادةً ، إختفاء ناس من قاطني الحيِّ اليهودي . لدورياتهم المعتادة نظامٌ من راكبيْنَ على دراجات هوائية ، أو أربعة معاً في مَرْكبة . وهم حين يتوقفونَ يَبقون على قارعة الطريق ، إلى جوار طَواره . أمَّا أن يجتمعوا أمام بوابة فالأمرُ مريب .

كيهات لم يكن يرى بوابة منزل بنحاس ، بل الطريق الإسفلت

أمامها ، لأن بصرهُ ظلَّ على استقامة مع الجدار جانبياً . لكنه عرف أنها مفتوحة من دخول شرطي إلى باحة المنزل ، وخروج رجل استخبارات في سترة سميكة من السترات الخريفية القماش . كذلك كانت بوابة الحانوت مفتوحة مذ رأى كيهات شرطياً بنصفه خارجها ، ونصفه داخلها . لم يلحظ يهوداً . كان سيميزهم من أرديتهم الطوال ، ومن الأوشحة على الرؤوس إن كانوا يرتدون البناطيل .

أَهُم يستنطقون بنحاس؟ ربما استنطقوا جيرانه وصرفوهم قبل وصول كيهات ، ماكثِيْنَ هناك لأمرٍ لن يخمِّنه . زحف قلبُه ، في السياق الجانبيِّ للمشهد على طَوار الشارع المُستقيم ، عسى يحظى برؤية حركة أمام منزل راحيل وحانوتها . خامَرَه أن يرجع شارعاً إلى الشرق ، ثم ينعطف من نهايته إلى الأرض العراء ، ثم يعود إلى شارع منزل راحيل من الجنوب . لكنْ ما الذي سيفعله إن وصل إلى حانوتها؟ أليسألها عن مغزى وجود رجال الاستخبارات قريبين من منزلها؟ هل استنطقوها؟ أَوَصلت لينا إلى البيت من المظاهرةِ التنديدِ ، أم ستُفاجَأ مثله ، في قدومها إلى البيت ، بذلك الجمع الصغير ، المخيف ، أمام حانوت بنحاس وبوابة بيته ، متحركيْنَ اقتراباً بعضُهم من بعض ، ثم متباعدين يدخل واحدهم باحة الدار ويخرج منها ، أو يدخل الحانوت ويخرج منه؟

التفت كيهات إلى شمال الشارع في وقفته جانبياً ، نصف مختبئ . سكانٌ أخرجوا رؤوسهم من البوابات ، ثم أخفوها كسلاحف انسحبت رؤوسها إلى دواخل دروعها . هناك مَن يعرف منهم ، قَطْعاً ، ما الذي يجري أمام بوابة بنحاس . خَامَرَتْه فكرةُ ثانية ـ عدا فكرة الإلتفاف من الشارع شرقاً إلى العراء للوصول إلى منزل راحيل من الجنوب ـ أن يقرع بوابة منزل من أولئك المنازل ، التي يختلس سكانُها النظرَ ، في حذر كبير ، إلى جمْع رجال الإستخبارات والشرطييْنِ ، ليسألهم خبراً يوقف نموَّ فضوله النابتِ

الشوك في أعماقه . وإذ أعاد بصره ، ثانيةً ، إلى الجهة الجنوب ، رأى رجل استخبارات ماشياً إلى الجهة التي يقف فيها .

تلبَّك كيهات . أرخى بصرَه أرضاً هرباً بعينيه من خوف قلبه . استدار إلى الوراء مسرعَ الخطى ، مغادراً ناصية الشارع صوب الشرق . حجبتْه جدران البيوت . هرول . كاد يركض .

يوم الجمعة صباحاً ، في زيارة كيهات وأخيه موسى لدكان الحلاق الدُّرزي حسن شكيب ، ذي الطربوش الأحمر محاطاً بعصابة عريضة بيضاء ، كان خبرُ اجتماع رجال الإستخبارات أمام منزل بنحاس قد اكتمل : اختفى بنحاس إيليا ، وزوجته ليلى ، وأولاده الذكور الخمسة .

كيف عرف الحلاق بأمر اختفائهم ، في دكانه البعيد عن الحي اليهودي؟ دكانه في شرق الحي الغربي ، على المفترق بين الشارع المتجه غرباً إلى بلدة عامودا ، والشارع المتجه جنوباً إلى مطار القامشلي .

موسى أوقدَ شرارةَ الخبر الأولى وهو يجلس على الكرسي العالي ، ذي العنق الطويل ، المفصليِّ ، القابل أن يُرفع ، ويُخفَض ، ويرتدَّ إلى الخلف تهيئة للجالس عليه أن ينام أيضاً .

«أسمعتَ خبراً مثيراً هذه الأيام ، يا سيد حسن؟» ، سأل موسى الحلاَّقَ .

«ماذا تريد أن تسمع ، يا حُلوُ؟» ، عقب الحلاق بصوته العريض الحروف من تحت شاربيه الكثيْنِ ، المعقوفين .

«عن أمريكا» ، رد كيهات بنبر فيه مزاحُ الثرثرة .

«أمريكا لا تحبنا ، ولا نحب أمريكا . لا أخبار» ، قال الحلاق . أردف : «كل اليهود هنا يهربون إلى أمريكا» .

«مَن منهم هرب إلى أمريكا؟» ، سأله كيهات .

«سمعتُ شيئاً عن هرب بعضهم قبل أيام» ، رد الحلاق . أردف :

«عائلة جزَّار» . ضغط بقدمه على مدعسة حديد عند قاعدة الكرسي فارتفع موسى شبراً في جلسته على المقعد الجلدي الأسود .

مَنْ أُلْهِمَ أن يصنع كرسياً للحلاقة على ذلك النحو المتحرك دعْساً بقدم الحلاق على قطعة من الحديد ، ككف اليد ، في قاعدته؟ حركات جسد الإنسان استقامةً ، والتواءً ، وجلوساً ، ونهوضاً ، وانحناءً ، وركوعاً ، وسجوداً ، وتقوُّساً إلى الخلف ، ألهمتْه أن يبتكر من الآلات ما يحاكيه بمفاصل كمفاصله . كرسي الحلاق محاكاة لجسده . المَسْنَدُ الوسادة الصغيرة ، التي يمكن تطويلُها وتقصيرها بتدرُّج من المُسنَّنات ، خلف رأس الجالس عليه ، هي وسادة نوم الإنسان ، أو لإرخاء الجمجمة عليها استراحةً .

الحِلاقة على كرسي من هذا الصنف استراحةٌ إذاً . لذا استرخى موسى أكثر مما ينبغي في جلسته للحِلاقة بين يدي الحلاق ذي الشاربين المفتولين :

- هل أستطيع النوم قليلاً ، يا سيد حسن؟

«لِمَ لا يأتي كيهات بشعرك معه ، وتبقى أنت في البيت نائماً؟ سأحلقه وأعيده إليك» ، رد الحلاق . «سيرجع أخوك بشعرك إليك وأنت نائم بَعْد» .

«كيف أعطيه شعري ، يا سيد حسن؟» ، تساءل موسى . أردفَ : «أأسلخ فروةَ رأسي ، أم أعطيه رأسي يجلبه إليك وأبقى أنا في البيت؟» .

لكز كيهات رأس أخيه بأنامله ، وهو ينظر إلى الحلاق واقفاً :

- لا تُسَايرْ ثرثرةَ أخي الحمار . سيدوِّخك .

«أنت تدوخ لأنك حمار . غيرُك لا يَدوْخ» ، عقب موسى على نَبْزِ أخيه له بلقبٍ حيوانيٍّ .

«أهكذا تتخاطبان؟» ، سألهما الحلاق بنبرٍ فيه زجْرٌ خافت .

«أحياناً» ، رد كيهات . أضاف : «لا تُبْقِ على رأسه شعرةً» .

«لم ألتحق بصفوف العسكر مثلك بعد» ، عقب موسى . نظر إلى الحلاق : «أريد قَصَّةَ شعر مثل شعر جوليانو جيمًا» .

«مَن؟» ، تساءل الحلاق .

همهم موسى متصنِّعاً إحباطاً :

– ألا تشاهد أفلام جوليانو جيما؟

«مَن هذا؟» ، سأله الحلاق وهو يطقطق بمقصه في الهواء فيتساقط الهواءُ نُتَفاً .

«ج و ل ي ا ن و ج ي مَّ ا» ، قسَّم موسى اسم الممثل الإيطالي في الأفلام المستنسخة تقليداً لأفلام الغرب الأمريكية ، متبَّلةً بصلصة المعكرونة . أردف : «إنه أجمل ممثل في الدنيا» .

«أشاهد أحياناً أفلام فريد الأطرش» ، عقَّب الحلاق .

«ههْ» ، تمتم موسى . «فريد الأطرش دُرزيٌّ مثلك» .

«دُرزيٌّ ، أو لادرزيٌّ ، أحبُّ صوته» ، قال الحلاق ، وهو يدفع رأس موسى براحة يده اليسرى فيخفضه ، ليستحكم جزَّ شعره من الخلف .

«تحبُّ البكاءَ» ، عقَّب موسى في تلميح إلى النبر الباكي يتقصَّده المغني الحزين في غنائه .

«أهناك أمة لا تحب البكاء ، أيها الشاطر؟» ، سأله الحلاق على صوت القَطْفَة الأولى من شعر موسى بالمقص الرفيع ، الطويل الفكَّين .

أخرج كيهات نصف لفافة متبقية من تدخين سابق ، من جيب سترته الملوَّنة مربعات حُمراً وسُوداً ، وبُنية . وضعها بين شفتيه .

«توقفْ» ، قال الحلاق . «أعِدْ هذا النصف البائس من لفافتك إلى جيبك» . دسَّ يده في جيب وَزرته البيضاء معلقةً إلى رقبته بطوق ، ملفوفة بحزامها الرقيق على وسطه . أخرج علبة تبغ زرقاء الورق . قدَّم لفافة إلى

كيهات . أشعلها له بقداحَه . أشعل واحدة لنفسه . نفخ الدخان ، في أناةٍ ، صوب رأس موسى ، فلوَّح موسى براحة يده اليسرى يبدِّد عنه الدخان .

التقط كيهات سؤالاً رفرف قبلاً في خاطره :

– كيف عرفتَ أن الجزار اليهودي بنحاس اختفى ، يا سيد حسن؟

«ما اسمه؟» ، تمتم الحلاق وقد أوقف رقصَ المقص في يده .

«بنحاس إيليا» ، رد كيهات .

«ما هذا الإسم؟ بنحاس؟» ، تمتم الحلاق حسن شكيب ، الثلاثيني السنين ، ذو الشروال الأسود المُفرط وساعةً ، من الطراز الشائع بين المِلَّة الدرزية .

«إسمٌ يهودي» ، رد كيهات .

«أتعرفه؟» ، سأله الحلاق .

«أمرُّ من قرب حانوته إلى حانوت جارته راحيل» ، رد كيهات .

«ماذا تفعل هناك؟» ، سأله الحلاق .

«بيتنا قريب من شارع بيتها» ، رد كيهات .

«عنيتُ لماذا تزور حانوت جارته اليهودية؟» ، سأله الحلاق .

«تبيع اللحم» ، رد كيهات بإيجاز يُفهَم .

«أتشتري منها اللحم؟» ، سأله الحلاق .

«أحياناً» ، رد كيهات . عاد إلى سؤاله السابق : «كيف عرفتَ أن جارها بنحاس اختفى؟» .

«هو جزَّار» ، تمتم الحلاق .

«هو جزار» ، أكَّد كيهات .

«في دكاكين الحلاقين ، لا في سواها ، تجتمع أسرار الدولة ، أيها الوسيم . الحلاقون هم المؤرخون الأوائل» ، رد حسن شكيب ، عاكفاً على طقطقات شرسة من مقصه يتطاير منها شعر موسى على الصُّدرة الزرقاء

أحاط بها الحلاقُ عنق موسى ، مرخاةً على كتفيه وصدره .

رفع موسى رأسه بغتةً عن المَسْنَد العالي خلف رقبته ، متطلعاً إلى علبة المسحوق الأبيض يختتم به الحلاقُ الحِلاقةَ بغمس الفرشاة فيه ، وطَلْي رقبة الزبون به وقايةً من سُقاطة الشعر التي تدغدغ الجلد بعد الحلاقَة .

نبهه الحلاق حسن إلى حركته المفاجئة من رأسه بنبرٍ موبِّخ :

- لا تتحرك بغتةً هكذا . قد أجرحك بالمقص ، يا موسى .

لم يعقِّب موسى على توبيخ الحلاق له . اشار بيده إلى علبة المسحوق الأبيض الطولانية ، عليها صورة فتاة مرسومة بالألوان على كمالٍ في الملامح ، وفي الشعر مُرْسَلاً أشقرَ متماوجاً :

- أتستطيع أن تحفظ هذه العلبة لي إذا فَرِغَتْ من المسحوق ، يا سيد حسن؟

«ماذا ستفعل بها؟» ، سأله الحلاق .

دسَّ كيهات يده اليمنى في الجيب الخلفي لبنطاله . أخرج محفظة جيب بُنية ، كثيرة الطبقات الرقيقة . فتحها على الجيوب الكُثر المنطبقة واحداً على الآخر . أراه في الغلاف البلاستك الشفاف لأحد جيوبها صورة فتاة مرسومة بالألوان أيضاً ، مبتسمة ، وردية الوجنتين ، حمراء الشفتين :

- سأصنع لنفسي مجموعة من الصور الجميلة ، يا سيد حسن .

«هذه صورة ورقية في محفظتك» ، عقَّب الحلاق ، فتدخل كيهات :

- نَزَعها عن علبة الدهان الأسود ، الذي نصبغ به أحذيتنا .

نقر الحلاق برأس مقصه على علبة المسحوق الأبيض الطولانية . تمتم مبتسماً ، مُطبقاً زاويةَ فمه اليسرى على لفافة التبغ :

- هذه علبة معدنية .

«سأقصُّها» ، عقَّب موسى من فوره .

«وماذا بعد قصِّها؟» ، تساءل الحلاق .

«سأدق حوافها بالمطرقة فتصير مستوية ، وأضمها إلى الصور في محفظتي» ، رد موسى .

«هل من صور أُخريات نزعتها من علب معدنية ، أيها الحلو؟» ، سأله الحلاق .

«ستكون هذه أول صورة معدنية في مجموعتي» ، رد موسى .

«ماذا عندك من الصور في مجموعتك؟» ، سأله الحلاق ، فردَّ موسى وهو يقلِّب شريحةً من طبقات المحفظة :

– صورة بيرجيت باردو .

«مَن؟» ، تساءل الحلاق .

«بيرجيت» ، كرر موسى الإسم ، وهو يرفع محفظة الجيب الصغيرة عالياً بصورة فتاة شقراء ، منتفخة الشفتين . أردف : «هي من فرنسا» .

قرَّب كيهات رأسه من محفظة أخيه ، يتفرَّسها عن كَثَب :

– منذ متى عندك صورة بيرجيت باردو؟

«منذ أول مطر» ، رد موسى مبتسماً .

«من أين اشتريتها؟» ، سأله أخوه ، فرد موسى :

– لم أشترِها .

«من أين سرقتَها إذاً؟» ، سأله كيهات مرتاباً من تلك الإبتسامة العريضة متراقصة على شفتَي أخيه .

«لم أسرقها» ، رد موسى وهو يعيد المحفظة الصغيرة ، ذات المطاوي الكُثر ، إلى الجيب الخلفي في بنطاله السميك القماش المخمل ، المنتفخ في موضِعَيٍّ الرُّكبتين .

«أأرسلتْها إليك الست بيرجيت من فرنسا ، أيها السيد نابليون؟» ، سأله كيهات .

«حصلتُ عليها مقايضةً مع زميل لي» ، رد موسى .

«بِمَ قايضتَ هذه الصورة؟» ، سأله كيهات ، فرد أخوه :

- ببيضتين .

«بيضتان؟» ، ابتسم كيهات رافعاً بصره إلى الحلاق عاد إلى ترقيص مقصه على نغم الطقطقة من فكَّيه الحديديين ، السريعيِّ الإطباق والإطلاق . «اشتريتَ الصورةإذاً» .

«لم أشترها» ، عقَّب موسى .

«إشتريتَ بيضتين ، أيها الديك ، وقايضتَ بهما صورةَ بيرجيت» ، قال كيهات . حدَّق إلى الحلاق يستفتيه : «ألا يعني هذا ، يا سيد حسن ، أنه اشترى الصورة ببيضتين اشتراهما؟» .

«بلى . هذا هو المنطق» ، أيَّده الحلاق .

«لم اشتر البيضتين» ، أكَّد موسى . أردف : «دجاجاتك أعارتني البيضتين بموافقة الديك الأسود ، يا كيهات» .

أبعد كيهات يدَ الحلاق عن شعر موسى في هدوء ، مغمغماً بنبرٍ غاضب :

- أسرقتَ بيضَ دجاجاتي؟

«لم أسرقهما . استعرتهما بموافقة الديك» ، رد موسى مطبقاً فمه على ابتسامة أخفاها .

«متى سأكمل حلاقة شعر أخيك ، يا كيهات؟» ، سأله الحلاق .

«اتركْه كما هو نصفَ محلوق» ، رد كيهات . جذب اخاه من كتف سترته : «انزلْ عن الكرسي ، يا إبليس» .

وضع الحلاق راحة يده اليسرى على صدر كيهات ، في لطف ، يستوقفه عن جذب أخيه :

- أهذا الغضب بسبب بيضتين؟

«لربما كنتُ أعطيته ثلاث بيضات ، يا سيد حسن ، لو سألني هذا الجرو» ، عقَّب كيهات .

«احْسَبْ أنك أعطيتني بيضتين» ، قال الحلاق مهدِّئاً .

«لن يغير هذا شيئاً ، يا سيد حسن . سرق موسى بيضتين من دجاجاتي» ، عقَّب كيهات .

«دجاجاتك؟ ماذا تعني بذلك؟» ، سأله الحلاق .

«عندي ديك أسود ، وأربع دجاجات ، واحدة منهن حبشية» ، رد كيهات .

«عندك أنت؟» ، تساءل الحلاق .

«عندي أنا» ، أكد كيهات .

«ألسْنَ لأهلك؟» ، سأله الحلاق .

«لاااا» ، رد كيهات وقد مطَّ حرف الألف . أردف : «هُنَّ دجاجاتي» .

تنحنح موسى متدخلاً في المحاورة :

- الدجاجات ، يا سيد حسن ، مُلك أخي . تمَّ تسجيلهن في دائرة النفوس باسم أبيهن كيهات .

ضحك الحلاق . سأله :

- ما أسماء بناتِ أخيك الدجاجات؟

«لهنَّ أسماء يهودية» ، رد موسى .

«يهودية؟» ، تساءل الحلاق .

لكزَ كيهات رأس أخيه بأنامله من غير عنف . تمتم :

- اليهود أنجح منك في كل شيء .

تدخلَ الحلاق معقِّباً :

- اليهود ناجحون حقاً ، لأنهم لا يؤمنون بالحوريات .

«ماذا؟» ، تساءل كيهات مبتسماً لم يفهم تعقيب الحلاق حسن .

تنشق دخان البقية الأخيرة من اللفافة التي أعطاها الحلاق له . اردف سؤالاً بسؤال سابق :

- لِمَ يختفي يهود من قامشلو؟

«اختفى الكثيرون من دمشق ، وحلب ، بعد حرب ١٩٤٨» ، رد الحلاق .

مدَّ موسى يده اليمنى ، بغتةً ، من تحت الصُّدْرة الزرقاء ، المحيطة بكتفيه وعنقه :

- أعطني آخر ما في عقب لفافتك ، يا كيهات .

«لِمَ؟» ، تساءل كيهات .

«لِمَ؟» ، قلَّد موسى صوت أخيه . أردف : «ماذا تفعل الناس بلفافات التبغ؟ أتأكلها؟» .

«الحمير قد تأكلها» ، عقب كيهات .

«لستُ حماراً . أعطني عَقِبَ اللفافة لأدخنها ، لا لآكلها» ، قال موسى .

«لم تبلغ الرابعة عشرة بعدُ ، أيها الإبليس ، يا سارق البَيض» ، عقب كيهات .

«أريد أن أتدرَّب ، يا أخي الملاك» ، قال موسى .

«تدرَّبْ على أعقاب لفافات أبيك» ، عقَّب كيهات .

التفت موسى بوجهه إلى الحلاق :

- حين أصير مدخِّناً محترفاً ، لن أدخن إلاَّ لفافات التبغ ذوات المصافي القطنية في أعقابها .

دخل زبون إلى الدكان يسبقه صوته محيِّياً .

«لفافات التبغ ذوات الأعقاب القطنية هُنَّ للنساء ، ولسن للرجال» ، قال كيهات ، موزِّعاً بصره بين وجه الحلاق والزبون الوافد . أردف شارحاً : «رئات النساء رقيقات» .

انعطف موسى عن المحاورة في التبغ ولفافاته إلى ما يُقلق كيهات من غير أن يُظْهِره . سأل الحلاقَ :

– لماذا يختفي بعض اليهود من قامشلو؟

«لا أعرف» ، رد الحلاق .

«لماذا لا نختفي نحن أيضاً؟» ، سأله موسى .

تأمله الحلاق بنظرة تستوضح مقصَده :

– مَن تعني؟

«نحن ، سكان قامشلو» ، رد موسى .

«لماذا نختفي؟» ، سأله الحلاق ، فرد موسى :

– لنظهر في بلد آخر على زاوية كل شارع في مُدنه ، وفي قُراه ، دارُ سينما .

تطلَّع الحلاق إلى كيهات بنظرة متسائلة عن معنى كلام أخيه الصغير ، فردَّ كيهات متوجهاً بسؤال إلى أخيه :

– من أين تأتي بنقود لدخول دُور السينما كلها ، في البلد الجديد الذي ستظهر فيه بعد اختفائك؟

«سأعثر على نقود بعد أن نختفي» ، رد موسى . أردف : «لا تقلقْ . إعتمدْ عليَّ» .

هأهأَ كيهات :

– كيف سنختفي ، يا مَلِكَ الغابة؟

«نصير أرمنييْنَ ونهاجر» ، رد موسى .

لم تكن الأيام التالية على اختفاء عائلة بنحاس اليهودي ثقيلة على أحد سوى كيهات ، ربما . بلغت رغبتُه الذروة في أن يُفاتح لينا بمشاعره نحوها . لكنْ أنَّى له تلك الجرأةُ ، التي إن امتلكها ، لن يكون الزمن هو ذاته قبل النطق باعترافه للينا ، وبعده . إنْ بادلتْه شيئاً من القبول ستكون شوارعُ

المدينة خطوطاً في قماش بنطاله ، وستكون البيوت أزراراً في سترته وقميصه ، وستكون الدولة وشاحاً من صوف أزرق يلفه على رقبته في الشتاء القادم ، وسيكون العالَمُ الكبير لفافة تبغٍ لا تنطفئ بين شفتيه . سيكون كلُّ طعام يأكله عسلاً ، وكل شراب له مذاق شراب سينالكو الغازيِّ ، المُعَاقَب حَظْراً على أمرٍ لم يفعله الألمان .

لكنْ إن أُحرِجت لينا من اعترافه فاستاءت ، أو انتهرتْه ممتعضةً ، مستهولَةً ، فلن تكون شوارع المدينة سوى شقوق طِوالٍ في بنطاله يظهر منها لحمُه عارياً ، ولن تكون البيوت سوى ثقوبٍ كبارٍ في سترته وقميصه ، ولن تكون الدولة سوى ركْلٍ ، كعادةِ حقيقتها ، على ردفه في كل خطوة يخطوها ، ولن يكون العالَم الكبير سوى لفافة تبغ محشوة بالزرنيخ يدخِّنها في يقظته ، ومنامه ، محترقَ الرئتين . أيْ : عليه الهرب من سوريا إلى جحيم أخرى اسمها سوريا .

تقلَّص قلبُ كيهات في ذلك اليوم الذي تفكَّرَ فيه ، لأول مرة ، أن يبوح للينا بالنار المُوقَدَة في تنُّور أحشائه ، جالساً على مقعده في درس «الفتوة» ، الذي يرتجل فيه الضابط العسكري ، المُعَارُ من ثكنة الجنود ، ما يقدِرُ على ارتجاله من محفوظات عقله العسكري ، بلا ضبط أو ربط ، انتقالاً بعربة لسانه بين أنواع الأسلحة في الجيوش ، وموجبات الحروب ، والتذكير بالانضباط الصارم ، الذي هو جوهر وجود الجندي ، من مولده حتى موته .

كيف يعرف الجندي أنه جندي حين يُولد؟ كيف يعرف الجندي أنه سيبقى جندياً حتى لو انهارت عظامه من ثقل الشيخوخة عليها ، وفتَّتها وهَنُ العمر الطاعن في السنين؟ ذلك من أسرار الدولة في النجاح .

تنهَّد كيهات من فم قلبه تهيُّباً أن يعترف للينا بما يمزِّقه . كان ينظر إلى الضابط ، الذي يرسم علامات بالطبشورة على اللوح تخصُّ الرُّتب

العسكرية ، كأنه لا يراه . التلامذة معتادون أن يخرج بهم الضابط ، في حصة درس «الفتوَّة» ـ بعد دقائق من التنظير الشفهي للشخصية العسكرية وخصائصها ـ إلى ساحة المدرسة لتدريبات جسدية على أصول المشي ، والتحية ، والاستلقاء أرضاً في سقوط القذائف ، والزحف تحت نيران الطلقات ، والهرولة الجماعية المنظمة ، إلى آخر ما هنالك من لوازم التذكير بحياة عسكرية لتلامذة ليسوا عساكر .

لم يخرج الضابط بالتلاميذ ، ذلك اليوم ، إلى ساحة المدرسة الواسعة لاستعراض لياقاتهم البدنية ، وتقيُّدهم حرفياً بموجبات الثياب العسكرية نظاماً : بناطيل مكوية . قبعات مكوية . أحذية ملتمعة صباغاً . شعور حليقة حتى الجلد من حول الرؤوس . كان يومهم ذاك ممطراً ، بسماء شديدة النَّزف كأنما تمزقت ، في حروب من مجابهات الغيوم للغيوم باسلحةٍ ثقالِ القصفِ والعصْف .

جلس الضابط وراء المنضدة الصغيرة ، في الزاوية بين الجدار قرب النافذة ، وبين الجانب الأيسر من اللوح الأخضر المستطيل . «لا شيء عندي اليوم» ، قال لهم من وجهه المنتفخ شحماً . «كونوا أحراراً في قراءة ما تشاؤون من كتبكم . لديَّ أوراق أراجعها» . فتح حقيبته الرقيقة ، ذات الدفتين ، عن أوراق راح يدقق فيها .

مرت دقائقُ لطيفاتٌ على قلوب التلامذة انصرفوا فيها كلٌّ إلى ما يشاء من قراءة ، أو كتابة ، أو رسم حتى على الأوراق تزجيةً للوقت .

ارتفع فجاءةً صوت تلميذ رافعاً يده اليمنى طلباً للكلام :

– سيدي .

قال التلميذ كلمة التبجيل ملفتاً نظر الضابط إليه .

رفع الضابط وجهه عن أوراقه ، بشاربيه القصيرين ، وبشعره الحليق حتى الجلد إلاَّ القليل على قِحْف رأسه :

- نعم .

نهض التلميذ الأسمر ، النحيل ، عن مقعده ، مهيئاً صوته لسؤال عَنَّ لخاطره :

- عندما خسرنا الحرب . .

- ماذا قلتَ؟

تبلبل التلميذ . فتح فمه مبهوراً من صوت الضابط . تكلم متلعثماً :

- كنت سأسألك ، يا سيدي . .

«ماذا قلتَ؟» ، كرر الضابط سؤاله بصوته المدرَّب على الصراخ في تدريب الجنود الأغرار بالصراخ .

«قلتُ : عندما خسرنا الحرب . .» ، رد التلميذ المنقلب اللون إلى شحوب في سُمرته .

«متى خسرنا الحرب ، أيها الكريه؟» ، سأله الضابط متحركاً من وراء المنضدة إلى صدر اللوح المواجه لمقاعد الصف .

ارتعشت يدا التلميذ كأنما أُطبق فخٌّ حديد على روحه .

تكاثفَ السكونُ جليداً فتجلَّد الهواء في الغرفة .

«متى خسرنا الحرب ، أيها الجرذ؟» ، سأله الضابط من جديد .

حاول الفتى النحيل سحب قدَميْ وجوده من الطين العميق غاصتا فيه . تمتم :

- سيدي . كنتُ . .

«كنتَ ماذا؟» ، قاطعه الضابط .

«كنتُ سأسألك عن . .» ، قال التلميذ متلعثماً ، فقاطعه الضابط :

- كنتَ ستسألني عن ماذا ، يا ذيل الجرذ؟

«عن . .» ، تمتم التلميذ ، فقاطعه الضابط :

- عن ماذا؟

«عن أننا حين خسرنا الحرب، يا سيدي، ماذا..». انحشر صوته في حنجرته على صراخ الضابط:

- خسرنا الحرب، يا ابن البهائم؟ أعُدتَ تكرر جملتك المقتبسة من دعايات الصهيونية؟

تقلَّص جلدُ وجه التلميذ هلعاً. لجمَ الموقفُ لسانَه، بل قطعه.

«اسمع، أيها البهيمة. لم نخسر الحرب»، قال الضابط. تقدم خطوة إلى الفسحة بين اللوح وبين مقاعد التلاميذ. «خسرنا معركة. لم نخسر الحرب، يا ابن البهائم».

زفر التلميذ المنكوب مُفرِغاً رعبَه من رئتيه. تكلم من فوره سماع جملة الضابط يسترضيه:

- نعم سيدي. خسرنا معركة. لم نخسر الحرب.

تقدم الضابط، في الممر الضيق بين المقاعد، صوب التلميذ الذائب الكيان بلبلةً. سأله:

- مَن لقَّنك جملتَك؟

«أية جملة، يا سيدي؟»، تساءل التلميذ.

«الجملة الوسخة مثلك: خسرنا الحرب»، حدَّد الضابط.

«لا أحد، يا سيدي. كان خطأً مني في التعبير»، رد التلميذ بنبرٍ يشبه البكاء، أو النَّوْح، اعتذاراً عن خطأ غير مقصود.

«أبوك»، تمتم الضابط. «إنه أبوك من لقَّنك».

«مات أبي من خمس سنين، يا سيدي»، عقَّب التلميذ المتهدل الصوت.

«أمك إذاً»، تمتم الضابط.

«أمي؟!»، تساءل التلميذ بصوتٍ مهترئ.

«أمك لقَّنتك هذه الجملة»، قال الضابط.

«أمي لا تقرأ، ولا تكتب، يا سيدي، ولا تستمع إلى المذياع»، عقَّب التلميذ.

«من أين هي أمك؟»، سأله الضابط، فرد التلميذ يكاد ينهار:

- من دير الزور.

«أفي دير الزور مدارسُ لتعليم الأميين التشكيكَ في قدرة دولتنا على الانتصار؟»، سأله الضابط.

«لا أعرف، يا سيدي. ولدتُ في القامشلي»، رد التلميذ بلهجته البدوية.

لم يتوقف المطر ذلك اليوم. انصرف التلامذة من المدرسة على أصوات الثرثرات المائية بلا انقطاع، لا يقدِرون على صمٍّ آذانهم عن سماعها. غطى كيهات رأسه بحقيبته مرفوعة على يديه إلى أعلى، مستعجلاً خطوَهُ إلى البيت، الذي يستغرقه الوصول إليه، من مدرسته في الجنوب الشرق من الحي الغربي، أربعين دقيقة، أو أكثر قليلاً. قبضةٌ خفيَّة ظلت تعتصر قلبه، منذ اللحظات الأُوَل مفكِّراً - في تلك الساعة الثقيلة من درس «الفتوة»، المتشققة طَرْقاً بصوت الضابط على دقائقها - أن يعترف للينا، مباشرةً أو مداورةً، بعزف الدم على أوتار الدم في قلبه كلما رآها.

تنفس كيهات الهواءَ ثقيلاً برطوبته، في مشيه العجول كالهرولة، متجهاً إلى الجنوب حيث نهايات الطرق المتصلة بالأراضي الأعراء، لينعطف من ثم شرقاً، فيخترق سطوراً من حي السريان صوب التخوم الأوائل من الحي اليهودي.

اخترق المطرُ كُمَّي سترة كيهات المدنية السميكة ارتداها فوق سترته العسكرية. أحسَّ انسيابَ الماء خيوطاً إلى جلد ذراعيه من يديه المرفوعتين بالحقيبة. أنزل ذراعيه مستسلماً. فلْيَتلَقَّ المطرَ برأسه في القبعة العسكرية عليه. انضغط قماش القبعة بالبلل العنيف من المطر العنيف. تمنى لو ظل

في المدرسة ساعة ريثما يهدأ قصفُ المطر الأرضَ ، إن حالفه الحظُّ فصمتت السماء عن موعظتها المائية في شهر تشرين .

لم ينتبه كيهات من أينَ سَلَك زميلاه اليهوديان الطريق إلى بيتيهما . لقد اعتاد ، في مغادرة المدرسة ، أن يراهما يتأخران عنه قليلاً ، أو يسبقانه قليلاً ، عابريْنِ الطرقَ ذاتها إلى تخوم الحي اليهودي من غربه ، قبل أن ينعطف كيهات عن مسارهما إلى البيت على تخوم الحي . إنهما سَلَكا ، قطعاً ، الطريقَ المعتادة في عودتهما إلى بيتيهما . وهما لا ينسيان ، في يوم كذاك ، اصطحابَ مظلَّتيهما . أهل كيهات لا يمتلكون في البيت إلاَّ مظلَّة واحدة ، يستأثر بها الأب ، حفاظاً على هيئة ثيابه ، فيحملها منشورةَ القماش الأسود فوقه بيد ، ويقود دراجته بيدٍ إلى عمله .

لماذا لا تشتري عائلة كيهات مظلة أخرى؟ لا علاقة للنقود بالأمر . إنهم يتذاكرون المظلات حين يغدر بهم المطر ، فإن أنجز المطرُ غدرَه نسُوا أمرَ المظلات .

وعد كيهات نفسَه ، في المساجلة العنيفة بين قلبه وبين المطر ، أن يشتري مظلة مهما كلَّفه سعِرها . كلما دهنتِ السماء أذيالها بالرمادي سيحملها معه حتى لو لم تمطر . ستكون المظلة تحسُّبُه الصارم من أيِّ غدر . سيمشي بها ـ وهو ينقر بنصل قضيبها الرفيع الطويلِ الإسفلتَ ، إن تخلَّت السماءُ عن إنذارها المكذوب ـ ككهلٍ عريق الأرومة يمشي بالعصا مختالاً . زميله الكردي رحيم يفعل ذلك . رآه كيهات منصرفاً تحت مظلته من المدرسة ، عن بُعد . ناداه كي يحتمي به ما دام زميله مغادراً إلى بيته على تخوم الحي اليهودي الشمالية . لم يسمعه رحيم ، أو تجاهله ، ربما ، هارباً بنفسه في المطر لا يريد شراكةً تحت مظلته .

قبل وصوله إلى البيت بشارعين تحديداً ، رأى كيهات الكهلَ بنيامين محتمياً بمظلته ، يجاوره الشاب البدوي نبهان مغطياً رأسه بسترته . كانا

قادمين من جهة الشرق ، ثم انعطفا على قرب أمتار قليلة منه صوب الشمال . لم يشكَّ كيهات أنَّهما رأياه ، لكنهما تجاهلاه ، مطأطئيْنِ برأسيهما وراء غلالة المطر .

أية مصادفة جمعت بنيامين بالشاب البدوي في يوم ممطر كذاك ، ليس سبتاً ليأخذ الكهلُ البدويَّ إلى إعانة منزلٍ يهودي ، مثلاً ، على أشغال ليست أشغالاً في الأرجح؟

أبطأ كيهات خطاه بعد ما كان ماشياً نصفَ هرولة للنجاة من شلال السماء ، الذي لا نجاة منه إلاَّ بسقف ، أو بمظلة . تتبَّع الشخصين ببصره بَدَوا يعرفان ، من طريقة سيرهما الواثقة ، أين هما ذاهبان . خطرَ له ، على نحوِ مرتجل لا تقديرَ للعاقبة فيه ، أن يتتبَّعهما . سيريانه قطْعاً إن التفتا خلفهما . ثم ماذا إن لاحقهما؟ لا يهمه أين هما ماضيان أكثر من ريبته في تلك العلاقة بين الكهل بنيامين والشاب البدوي اللهجة . أحسَّ بضيْق أن يراهما ذلك اليوم معاً .

أكمل كيهات مشيه الهرولةَ إلى البيت . فتح البوابة . دخل إلى الباحة الحصى . أطبق البوابة خلفه . ألقى نظرة إلى ركن الدجاجات فألْفاهن موزَّعات بين القُن وبين كوخ التنور . مشى خطوتين . توقف : كانت دراجة أبيه الهوائية ، ذات النوع «هيركوليس» ، المتينة ، الثخينةُ العظام الحديدِ كابن الآلهة ، ملقاةً على الأرض منبطحة .

عَبَر خاطرَه ، في زحام التصوُّرات ، ما أبداه أخوه موسى ، صباحاً ، لأمه من رغبته في بطاطا مقلية ، فوعدته بشراء بطاطا من حانوت البقال الحلبي .

كيهات يحب البطاطا مقلية في زيت النبات ، محمَّصةً رقائقَ دائرية ، ذهبيةَ اللون ، ذهبية الطعم . يأكلها مع غمسهِ الخبزَ في اللبن الرائب . أمَّا أخوه موسى فيتولَّى أكلَها على مَذْهَبٍ يخصه : يشطر رغيفَ خبز من

وسطه ، فاصلاً بالسكين بين الظهر والبطن فيملأ الشقَّ بينهما بالبطاطا المقلية ، ويُطْبِقُهما عليها . لا شيء آخر يستسيغه مع شطيرته . بطاطا مقلية ، وخبز ، وماء من زجاجة كوكاكولا مهمتُها أن تمتلئ ماءً على مواعيد موسى مع الطعام .

تقدم كيهات صوب غرفة أبويه متثاقلاً ، بعينين لم تفارقا دراجة أبيه حتى حين صارت خلفه . فتح الباب في أناة المتوجِّس شيئاً لا يريد أن يفاجئه .

كل شيء بدا مختنقاً في الغرفة ، أو هكذا أحسَّ كيهات . كان الأب مستنداً بظهره إلى الحائط جلوساً على الأرض ، مطويَ الرجلين من ركبتيهما أمام صدره ، محدِّقاً إلى الفراغ ببصر ذاهل . كان أخوه موسى جالساً كأبيه بظهره إلى حافة سرير أبويه ، منطوياً على نفسه ، واضعاً جبهته على ركبتيه ، محتجب الوجه .

أمه هدلا ، الواجمةُ متربعةً على البساط ، بَدَت غير فاهمة ، بذهول مكتوم يغرورق في عينيها العسليتين الصغيرتين . رفعت وجهها إليه متسائلة في براءة :

ـ أعُدت؟

«بالطبع عدتُ» ، رد كيهات مستغرباً سؤالها وهي تراه داخلاً . همهم محتاراً : «ما بكُم؟» .

«طُرد أبوك من عمله» ، ردت أمه .

أحس كيهات سقوط جدار عليه . أسقطَ حقيبته أرضاً وهو يتفرس في وجه الأب الفارغ من أيِّ تعبير ، مهزومَ النظرة الفارغة إلى الفراغ . خلع حذاءه عند العتبة . خلع سترته السميكة المدنية فاسقطها أيضاً ، ثقيلةً من البلل ، فوق حذائه . ألقى فوقها سترته العسكرية ، وأتبعها بقبعته . تقدم خطوة واقفاً . تمتم :

- ماذا جرى؟

رفع الأب وجهه إلى ابنه موسى صامتاً .

«أخذوا موسى إلى مبنى الاستخبارات» ، تكلمت الأم .

«مَن أخذه؟» ، تساءل كيهات بنبرٍ مجروح منذعراً .

«الاستخبارات» ، ردت أمه .

أحس كيهات ارتخاءً في ركبتيه . ركع على البساط كأنما يتضرع إلى الوجود لو أنه لم يصل إلى البيت بعد ، وما سمعه من أمه هو من تراكيب خياله تحت المطر . تمتم جملته كرَّةً ثانية :

- ماذا جرى؟

«إسألْ أخاك» ، ردت الأم .

قبل أيام قليلة تحدث موسى كلاماً في سياق كالهذيان . كلماتُه تراكبت رؤيا مهشمةً من الصور لا تلتحم . همهم وهو يرفع رأسه عن صفحة «كتاب العلوم» ، في غرفته وغرفة أخيه ، جالساً أرضاً قرب المدفأة تنزل قطراتُ المازوت إلى النار في جوفها هادئة ، بطيئة :

- الذبابة أكثر المخلوقات تعقيداً ، يا كيهات .

«أكثر تعقيداً من الحيوانات كلها ، أم من الحشرات؟» ، سأله أخوه .

«مِن المخلوقات» ، أكَّد موسى . أردف : «لن أرى البشر ، بعد اليوم ، إلاَّ في صِور الأجناس المتعددة من نوع الذباب» .

«أيُّ نوع من الذباب أنت؟» ، سأله كيهات في المغيب بعد العشاء ، حيث جلس كل منهما في ركنٍ من الغرفة يتدارسان واجباتهما من الدروس لليوم القادم .

«النوع الذي يشبه الفيل» ، رد موسى .

«أأنت أفضل أنواع هذه الحشرة؟» ، سأله كيهات .

لم يردَّ موسى مباشرةً على سؤال أخيه . انعطف بلسانه إلى تعبيرات

كالخَبَل . قال إنه يملك الحلول لكل شيء منذ صعوده الأول إلى السماء ، قبل ثلاثة آلاف عام . قال إنه كان فتى مرةً ، وكان فتاةً مرة ؛ كان حيواناً مرة ، ونباتاً مرة . قال إنه كان صخرة مرةً ؛ كان شلالَ ماءٍ مرةً ؛ كان يعرف كل شيء ؛ كان ساحراً يقلب السماءَ أسفل أعلى ، ويقلبُ الأرض أسفل أعلى . قال إنه علَّم البحر صياحَ الديك ، وخُبْثَ البرِّ ، وعلَّم النباتَ خُبث البحر . قال إنه كان عالياً في موضع لا تطاوله أذرعُ النجوم ؛ في الأغوار التي لا تستطيع النجوم وضع أقدامها في قراراتها . قال إنه كان متكلماً ، صامتاً ، عنيفاً ، رقيقاً ، جذاباً ، غبياً ، وإنه يملك معجزات من طيران الماء بجناحين حجريين فوق الغابات . قال إنه كان جندياً ؛ قائداً ؛ مَلِكاً ؛ عبداً . قال إنه كان كلَّ شيء ؛ كلَّ ما يشتهي إنسان أن يكون ، وما يكره أن يكون . لكنه لم يُرِدْ قط أن يكون إلهاً . قال إنه لا يريد العودة إلى أصل هذه الرغبات ، أيْ أن يكون ولا يكون .

أقال موسى هذه الكلمات تحديداً ، أمْ هي الذبابةُ ، التي تخيَّل أن يكونها ، كلَّمتْ أخاه كيهات؟

شهق كيهات في ركوعه على البساط ينظر إلى أخيه الحاجب وجهه ، ملصِقاً جبينه بركبتيه :

– ماذا حدث ، يا موسى؟

نهض موسى كالملدوغ منتفضاً ، واقفاً على قدميه . أمسك بزجاجة الكولا المُخصَّرة الرشيقة ، الملأى ماءً هيَّأتْها له أمه ، موضوعة قرب قصعة البطاطا المقلية . خرج بها حافياً إلى ساحة البيت .

سمع الجالسون في الغرفة انفجارَ الزجاجة متحطِّمةً .

عاد موسى إلى الداخل بقدمين مبتلَّتين . لم يأبه للنظرات . جلس كما كان جالساً قبلاً ، منطويَ الجذع الأعلى على الجذع الأسفل ، بجبينٍ مستند إلى ركبتيه .

«أين كسرتَ الزجاجة؟» ، سأله كيهات .

«ضربت بها جدار البئر» ، رد موسى من غير أن يرفع وجهه .

«ستجمع الشظايا حين يهدأ المطر ، حتى لو كان الوقت منتصف الليل . لا أريد أن تُخدَش أقدامُ دجاجاتي» ، قال كيهات .

«لن تخدش الشظايا أقدامَ دجاجاتك» ، عقَّب موسى متكلماً من وجهه المختبئ . أردف : «ستخدش أقدامَ الأمة العربية الواحدة» ، قال جملته بلغة العرب .

كان سهلاً فهمَ الجرح في صوت موسى . خرافاتٌ بعثية عن الأمة العربية «الممكنة» ، وعن انسجام «الأمة» الواحدة ، شقت بمديتها روحَ موسى . لن تستبدل دولة من دول العرب شعاراً يخصها بشعار عموم يخص «الأمة» . لن تستبدل دولة عربية حدودَ دولتها تراباً ، ومياهاً ، بالانصهار في جغرافيا عموم تخصُّ «الأمة» . كل شعب ، في دولته ، محصَّن بخصوصية نَسَبه إلى الأرض المرسومة في حدود جغرافيتها . كل شعب ، في دولة عربية ، محصَّن بخصوصية مِثالهِ قبيلةً ، وعِرْقاً ، وقرابات ، ولهجةً ، ونشيداً : حدودٌ مقدَّسة لكل دولة عربية ، لن تمحوها ممحاةُ «الأمة» لتتداخل الحدود . شعوب ، في كل دولة عربية ، بخصائص «فريدة» لن يقبل أيٌّ منها تذويبها في خصائص «الأمة الواحدة» .

موسى كتب على اللوح ، في يومه ذاك ، بعد إعلان الجرس المدرسيِّ استراحةَ الدقائق العشرة بين درس ودرس :

– عاش شارلي شابلن ، قائد أُمَّة السينما الواحدة .

عَلِقَ نفخٌ من هباب درس «التربية الوطنية» بأمِّ دماغه الجلدةِ الرقيقة في جوف عظم القحفِ ، فاختلطت حروفُ الأسماء ، وحروف الصفات «القومية» للأَمة في داخله ، مبتكِرةً جملتَه التي خالَها ظريفةً . لكنَّ التلميذين الموالين لحزب البعث وراثةً عن أبويهما البعثيين ، على صغر

عمريهما ، موريس السرياني ، وعلي جربوع البدوي ، استنسخا الجملةَ على ورقة ، وحملاها من فورهما إلى إدارة المدرسة .

مدير المدرسة ، الكردي الأصل ، كاظم عبد الحليم ، المولود في بلدة عامودا القريبة من القامشلي غرباً ، تمعَّن في الجملة نَبْشاً عن خفيٍّ الظِلال فيها ، وقد اجتمع في غرفته الطويلة المعلمون أجمعين ، في استراحتهم ، بعضهم أخرجَ شطائرَ خبز من حقيبته في غداء مبكر من المربى ، والجبن ، في الأرجح .

كلمهم المدير بالفصحى العربية لا يكلم احداً بسواها ، مُذ حصَّن خياله بأمرين : انتسابه إلى حزب الدولة ، وتمحُّصه في اللغة العربية يكتب بها أشعاراً من نهج الأسلاف لنظم الشعر ، كلها مديح في «البعث» ، إلاَّ واحدة غزلية ، يلقيها على التلامذة في صفٍّ مَّا إن غاب المعلم عن الدرس بعُذر ، فيتولى هو القبض بيدي صوته الجَهْوَري ، الخارج من شدقَيْه فصاحةً ، على ساعة من أعمار التلامذة يتمنونها أن تكون حرة بلا معلِّم ، وبلا مَن ينوب عنه .

يكتب المدير غزليَّته اليتيمة ، العمودية نظْماً من العَرُوض المتقابل الأشطر ، على اللوح . يبتسم من فمه الأفْقم ، الشديد الفَقْم من بروز فكَّيه السفليين مندفعيْن إلى أمام ، على نحو سهلٍ رسمُه فكاهياً . ابتسامتُه إدِّعاءٌ منه للتلامذة أنه ليس بالشخص الصارم ، الصَّلف ، الجِلْف ، المخيف ، الجلاد ، كما يعتقدون . بل فيه لِيْنٌ ، وتواضع ، وتوجُّعُ عاشقٍ ، ولطافة يَبِيْنُ عنها شِعره الغزلي ، غير المُقْنع تلامذةً ، لم يبلغوا الرابعةَ عشرة بَعْدُ ، بباعثٍ يثيرهم .

كان المدير الكردي شديدَ الإنكار لكرديته . يعرف أكراد القامشلي من هو ، ومن أين أبوه المُلاَّ خطيباً في مسجد بلدة عامودا . لكنْ ما من كردي ، في الأرجح ، حاول مخاطبة ذلك الرجل الطويل النحيل ـ المتأنِّق في بزَّته

المتوافقة بنطالاً وسترة، وربطة عنق لا يتخلى عنها ـ باللغة الكردية التي تثير امتعاضه.

مدير مدرسة موسى، الكردي المنسلخ عن كرديته، قرأ كلمات النَّسْخ التي حملها التلميذان المُخْبران إليه ممَّا كتبه موسى على اللوح، بعينين أدارهما على المعلمين واحداً واحداً:

- عاش شاولي شاولن، قائد أُمة السينما الواحدة.

المعلمون جميعاً استوقفتهم الجملةُ. مَن كان متراخياً على الأريكة في غرفة المدير، أو على كرسيه، استوى جالساً باهتمام. مَن كان منهم يمضغ لقمة أولى من شطيرة خبز جاء بها معه من البيت ازدرَدَها على عجل.

«ما هذه الجملة، أيها الرفيق؟»، سأله معلم «علم الاجتماع».

«كتبها تلميذ»، رد المدير الأفقم الفم لم يستطع شارباه السميكان أن يموِّها قليلاً على منظر فمه.

«أهذه سخرية من أحد؟ مَن المعني بلفظ القائد؟»، سأله معلم «علم الاجتماع»، الثخين العنق.

ابتسم المدير:

- ماذا تعني جملة كهذه في علم النفس؟

تبادل المعلمون النظرات الكسولة، بلا تعليق.

هزَّ معلم التاريخ إصبعه السبابة اليمنى مرفوع اليد، إعلاماً عن حضور عقله:

- هذه الجملة قديمة قليلاً.

«ما القديم فيها؟»، سأله معلم «علم الاجتماع».

«أليس شاولي هذا، المذكور في الجملة، هو عالِم آثار؟»، رد معلم التاريخ.

استدار المدير إلى التلميذين اللذين أحضرا نَسْخَ الجملة منقولة على ورقة :

– اجْلُبا إليَّ من كتب هذا .

دخل موسى غرفة المدير المستطيلة ، ذات المنضدة الواسعة ، عليها هاتف من قلائل آلات الهواتف مقتصرة على مؤسسات الدولة ، والمصارف ، وبعض مَتاجر الأثرياء ومنازلهم ، والعيادات . ونظام التواصل هو أن يدير طالبُ المكالمة قرصَ الآلة بمقبض صغير فيها ، فيتلقف الإشارة على الجانب الآخر موظفٌ في مبنى البريد .

«مَن المطلوب؟» ، يسأل الموظف طالبَ المهاتَفة .

«فلان» ، يقول طالبُ المهاتفة للموظف .

ينقل الموظف إصبعاً معدنياً مربوطاً بحبلٍ مطاط إلى ثقب في لوح الآلة أمامه . هكذا يتمُّ اتصالُ الطالبِ بالمطلوبٍ . لا أرقام ، بل موظف يحفظ شبكةَ ثقوب توصيل الأنابيب المطاط لمن هي ، بالعلامة المكتوبة فوق كل ثقب .

وقف موسى على بعد خطوة من الباب وراءه في غرفة المدير ، متبلبلاً من تحديق المعلمين إليه ، فيما وقف التلميذان المُخبران خلفه .

اقترب منه المدير . وضع راحة يده اليسرى على قُلَّة رأس التلميذ الصغير . أداره على قاعدة عنقه يميناً ويساراً ، كأنه يلهو بدمية مفصليةِ العنق .

بسط المدير أمام بصر موسى ورقة عليها بخط أحد التلميذين :

– عاش شاولي شاولن ، قائد أمة السينما الواحدة .

«الإسم خطأ ، يا استاذ» ، قال موسى محدِّقاً إلى الورقة .

«ماذا؟» ، تساءل المدير .

«إسمه شارلي شابلن ، يا أستاذ» ، رد موسى .

«من هو هذا القائد؟» ، سأله المدير .

«ليس قائداً ، بل ممثل سينما ، يا أستاذ» ، رد موسى .

«ممثل؟!» ، تساءل المدير مستغرباً .

تدخَّل معلم التاريخ :

– أتحاول الاستهزاء بأحدٍ ، أيها الولد؟

«لا ، أبداً ، يا أستاذ» ، رد موسى .

«لماذا تطلق على ممثل من الفن الوضيع لقبَ القائد إذاً؟» ، سأله معلم التاريخ الرقيق الشاربين ، بشعر أسود على رأسه مستقيم المَفْرِق .

لم يتمكن موسى المرتبك من العثور على جواب في صفحات خياله المتقلبة سريعاً ، كهبوب ريح على كتاب .

«هذا الولد البائس يتجاسر على الهزءِ من قادة في دولتنا» ، عقَّب معلم «التربية الوطنية» على صمت موسى .

بسط المدير الورقة ، من جديد ، أمام عيني موسى :

– من أين هذا الشاه؟

«شاه؟!» ، تمتم موسى مستغرباً إقحامَ لقبٍ من ألقاب ملوك فارس في المحاورة .

نظر المدير إلى الورقة مستدركاً :

– شاولي .

«شارلي ، يا أستاذ ، ممثل من أمريكا» ، رد موسى .

«أمريكي؟» ، تساءل المدير ، مديراً وجهه على المعلمين في بطءٍ ، يستنطق عيونهم ردَّةَ فعلٍ فيها . تمتم : «تلميذنا النجيب معجب بممثل أمريكي» ، استدار إلى موسى : «أتحب الممثلين الأمريكيين؟» .

«نعم» ، رد موسى بنبرٍ متردد ، مخافةَ أن يستدرجه تصريحُه إلى فخ .

«تلميذنا النجيب يحب الممثلين الأمريكيين» ، عقَّب المدير ساخراً .

أردف : «مَن تُفضِّل من الممثلين الأمريكيين؟» .

استظهر موسى ما في ذاكرته من الأسماء المفضلة يستعرض بها معرفَتَه :

– ستيف ريفز ـ هيركوليس . جون ويْن ـ الكاوبوي . إيرول فْلين ـ روبن هود . جوني ويسمولر ـ طرزان . وشارلي شابلن .

«واو» ، بادره المدير مبدياً إعجابه : «إنه يعرف أمريكا كلها» . وضع راحة يده اليسرى على رأس موسى يديره يميناً ، ويساراً ، على قاعدة عنقه . أكَّد للمعلمين : «هذا الولد يحب الممثلين الأمريكيين حقاً . يحب أمريكا» . انحنى بطوله على موسى : «مَن الأفضل : الممثلون الأمريكيون ، أم الممثلون العرب ، يا عبقري؟» .

«الأمريكيون» ، رد موسى .

نهض معلم درس الجغرافيا عن كرسيه معتذراً ، وهو ينظر إلى ساعة يده :

– حان موعدُ الدروس ، أيها الأصحاب .

كاد معلمون آخرون أن يجاروه قياماً عن كراسيهم ، وعن الأريكة في غرفة المدير ، فرفع المدير يده اليسرى اعتراضاً :

– ستبقون ، يا رفاق ، حتى ننتهي من حكاية هذا العبقري المُغرم بالأمريكيين .

«أتستحق حالُ هذا التلميذ أن نتأخر عن العودة إلى التدريس أيها الرفيق كاظم؟» ، سأله معلم دروس الفيزياء .

صرخ المدير بصوته الجَهْوري :

– يا باسم .

لم تمض لحظات حتى حضر خادمُ التنظيفات في المدرسة ، صانعُ الشاي والقهوة للمعلمين في فواصل الإستراحة بين الدروس ، الأمينُ على

دقائق الساعة أيضاً في الإعلان ، بالجرس اليدوي ، عن مواعيد الدخول إلى الغرف ، والخروج منها استراحةً ، أو انصرافاً .

«نعم ، يا حضرة الأستاذ؟» ، سأل خادمُ المدرسة المدير ، في قدومه السريع من جُحر أشبه بسرداب صغير يجاور غرفة المدير ، فيها سرير وموقد غاز صغير ، وأوعية ، وأقداح ، وفناجين ، ومستلزمات تنظيف الأرض . كان الجرس في يده يهم بقرعه ربما .

«لا تقرع الجرس» ، أمره المدير . التفت إلى المعلمين : «أريد استشارتكم في أمر هذا الصعلوك» . حدق إلى موسى . سأله : «لهجتك غريبة» .

«لهجتي؟» ، تساءل موسى لم يفهم مقصد المدير ، مُذ لهجتُه بالعربية تشبه لهجة الكثيرين .

«أأنت عربي؟» ، سأله المدير ، فرد موسى بنبرٍ حذر :

- لا .

«ماذا تكون؟» ، سأله المدير بصوت خشنٍ ، مستنطِق .

«كردي» ، رد موسى .

«كردي . عبقري . عاشق الأمريكيين ، والصهيونية ربما» . أسقط المدير كلماته حَصَواتٍ تتقارع على أرض الغرفة المبلَّطة .

انكمش جلد موسى على لحمه كله .

«ماذا أفعل به؟» ، سأل المديرُ المعلمين .

تبادل المعلمون نظراتٍ تزِن العقابَ المحتمَل في ميزانها .

«اطردْه أسبوعاً من المدرسة» ، اقترحَ معلم التاريخ .

«فلْيجلب معه والده غداً ، لتحذيره ألاَّ يكرر ابنُه حماقة كهذه» ، اقترح معلِّم الفيزياء .

«أمعاقبته على جملته الخبيثة ، وعلى حبِّه الأمريكيين ، من اختصاصنا؟» ، سأل المديرُ المعلمين .

لم يتقدم المعلمون بأي اقتراح آخر .

استدار المدير صوب منضدته الطويلة . تمتم :

– هذا من اختصاص أمْنِ الدولة .

لم يُبْد المعلمون تعقيباً . انصرفوا من غرفة المدير إلى ما تبقّى لهم من ساعات التدريس . انصرف صوتُ المدير في الهاتف عجولاً إلى مبنى البريد ، عبر الأسلاك ، يسأل موظفَ الهاتف أن يصله بمبنى فرع استخبارات الدولة .

بقي موسى واقفاً في زاوية من غرفة المدير أكثر من نصف ساعة ، قبل وصول سيارة جِيْبْ فيها رجلان من الاستخبارات . تبادلا والمديرَ كلمات هامسة . تسلَّم أَحدهُما منه الورقة التي فيها جملة موسى بالإسم المُحَرَّف لملك السينما الصامتة الأمريكي . أمسك الآخر بمعصم موسى الأيسر يجرُّه :

– تعال ، يا أمير الصراصير .

في مبنى استخبارات الدولة وقف موسى في غرفة الضابط الكبير ، كوقوفه في غرفة مدير مدرسته ، بالقلق فائضاً ، وبالارتباك فائضاً ، وبالحقد فائضاً على كونه سورياً .

حدق الضابط ، ذو الثياب المدنية ، إلى موسى متأملاً فيه بإمعانٍ بارد . تكلم بلهجة ساحلية :

– كم شبراً طولُك ، يا ضراط الدجاجة؟

أنزل موسى بصره ، عفوَ الخاطر ، إلى حذائه كأنما يحاول حقاً إعطاءَ جواب صحيح على طوله بالأشبار .

«ضراطُ دجاجة ، وغبيٌّ أيضاً» ، علَّق الضابط على محاولة موسى قياسَ طوله بالنظر إلى نفسه . رفع ورقة صغيرة عن الطاولة . قرأها : «عاش شاولي شاولن ، قائد أمة السينما الواحدة» . أردف : «أهذا خطُّك؟» .

«لا ، يا سيدي . كتبه أحد تلامذة صَفِّي» ، رد موسى .

«هِه» ، همهم الضابط . «لستَ أنت الشخص المطلوب إذاً» .

«سَيدي ، كتبتُ الجملة على اللوح ، واستنسخها تلميذ على الورقة التي معك» ، عقَّب موسى .

«هي من تأليفك إذاً» ، قال الضابط» . «مَن هو القائد شاولي؟» .

«شارلي شابلن سيدي» ، عقب موسى .

«من أي بلد هذا القائد؟» ، سأله الضابط ، فرد موسى :

- ممثل من أمريكا .

«قائدٌ ممثل ، أمريكي ، رئيس حزب أُمة السينما الواحدة» ، عقَّب الضابط . أشعل لفافة تبغ . نادى : «حَاطُوم» .

فتحَ رجل استخبارات البابَ داخلاً ، مذ كان يحرس الغرفة من خارج :

- نعم سيدي . أوامرُك .

تأمله الضابط متفحصاً . تمتم :

- فيك شيء غريب ، أيها الرفيق حاطوم .

«ما هو ، يا سيدي؟» ، سأله رجل المخابرات المأمورُ بنبر متوجِّس .

«لماذا يتكلَّم لسانُك ولا يتكلم وجهك؟» ، سأله الضابطُ الآمر في فرع الاستخبارات .

«عفواً ، يا سيدي . لم أفهم» ، عقب العنصرُ المأمور .

«كلماتك دافئة حين قلتَ في دخولك : نعم سيدي . أوامرك» ، أوضح الضابط . أردفَ : «لكنَّ وجهك ظلَّ جامداً بارداً» .

فتح رجل الاستخبارات المأمور ، ذو الرتبة الضئيلة الشأن ، فمه محتاراً . تمتم :

- ما به وجهي ، يا سيدي؟

«أسمعتني؟» ، سأله الضابط .

«سمعتُك ، يا سيدي» ، رد حارسُ بابه .

«لا بأس . سأكرر» ، عقب الضابط . «وجهك جامد ، بارد ، لا يتحرك مع كلماتك الدافئة» ، شرح الضابطُ انطباعَه ، فازدادت حيرة الرجل الضئيل الرُّتبة .

«أعتذر ، يا سيدي . اللعنة على وجهي إذاً» ، قال رجل الاستخبارات الضئيل الرتبة .

«أسمعتَ بقائد أمريكي اسمه شاولي؟» ، سأله الضابط وهو ينظر إلى الإسم في الورقة .

تمتم موسى مصححاً :

- شارلي ، يا سيدي .

«شارلي» ، أكَّد الضابطُ ضبْطَ الإسم صحيحاً .

«لا ، يا سيدي» ، رد رجل الاستخبارات المُكلَّف بحراسة باب الضابط .

«هذا الولد التافه» ، قال الضابط مشيراً برأسه إلى موسى : «جعل من ممثل أمريكي قائداً للأمة العربية الواحدة» .

شهق موسى مصدوماً . أوضحَ بصوت متناثر :

- أمة السينما ، يا سيدي ، وليس الأمة العربية . كتبتُ الجملة على مزاح .

«أهناك أمة واحدة غير الأمة العربية ، يا فَسْوَةَ الديك؟» ، سأله الضابط . استطرد : «ما صَنْعةُ أبيك؟» .

«موظف في مؤسسة الكهرباء ، يا سيدي» ، رد موسى .

«ماذا؟» ، أبدى الضابط استغرابه . أضاف : «أهو موظف في مؤسسة من مؤسسات الدولة؟» .

تنهَّد موسى مستبشراً من أن وظيفة الأب ، في الدولة ، قد تخفف عنه في ذلك الموقف الأشبه بالرَّكْل على العنق .

«ما اسم أبيك؟» ، سأله الضابط .

«أوسي حاجو ، يا سيدي» ، رد موسى .

«ما هذا الإسم؟» ، سأله الضابط .

«إسمٌ كردي ، يا سيدي» ، رد موسى .

«أنتم أكراد ، إذاً ، لا تؤمنون بالأمة العربية الواحدة» ، عقَّب الضابط بهزة من رأسه استنكاراً .

تدارك موسى الموقفَ الإتهامَ بتلفيقٍ عاجل :

- نحن من الأمة العربية الواحدة ، يا سيدي .

أرخى الضابط بصره إلى ورقة الإتهام ، المستنسخة عن جملة كتبها موسى على اللوح في المدرسة . مدَّ يده اليسرى إلى الهاتف الأسود . أدار مقبض القُرص دورة كاملة كَمن يرسم دائرة . انتظر برهة . تكلَّم :

- أوْصِليني ، أيتها الرفيقة ، بإدارة مؤسسة الكهرباء .

موظفة من موظفي الهاتف ، في دائرة البريد ، هي التي تلقت مكالمة الضابط . سألته انتظاراً للحظة . أَوْصلتْه بمطلوبه .

«أنا الضابط حَسُّون شديد ، في فرع الاستخبارات . أعندكم موظف اسمه أوسي حاجو؟» ، سأل الضابط شخصاً في الطرف الآخر من أسلاك الهاتف لن يكون ، قطعاً ، إلاَّ مدير المؤسسة . تنصَّت إلى سؤال من الجهة الأخرى . ردَّ : «يعلِّم إبنَه إهانةَ الدولة وقوَّادها ، إعجاباً بالأمريكيين . كيف وظَّفتموه؟ مَن وظَّفه؟ أمره يثير اسئلةً قد تُطاوِلُكم» .

بعد ساعة من وقوف موسى خارج غرفة الضابط ، واقفاً إلى جوار الحارس الجالس على كرسي ، وصل أوسي إلى مبنى فرع المخابرات على دراجته ، تحت المطر ، متبلبلاً لم يفتح من شدة القلق والانكسار مظلَّته . أسند دراجته الهوائية

إلى الجدار قرب البوابة . سأل موظفين عن الضابط الكبير حسُّون فواكبه أحدهم إلى باب الضابط . أشار برأسه إلى زميله حارس الباب . نهض الحارس . قرع الباب . جاءه الإذن بالدخول . دخل الحارس متكلماً بنبرٍ شديد الاحتراس من قول أيِّ حرف زائد عن اللزوم في الكلمات :

- سيدي . وصل والد التلميذ .

«أدخِلْهما» ، جاءه الأمر .

دخلَ أوسي وابنه . تقدَّما خطوة فاستوقفهما الضابط منتهِراً بامتعاض صاخب ، في تحديقه إلى ثياب أوسي التصق بعضها ببعضٍ بللاً :

- أأنت مزراب؟

أرخى أوسي بصره إلى حاشية سترته ، وركبتي بنطاله ، بأسف بليغ من عينيه ، ومن لسانه :

- لم يتوقف المطر ، يا سيدي .

«ماذا تفعل المظلة في يديك؟» ، سأله الضابط .

أفاق أوسي من غيبوبة قلبه . استعادَ عقلَه المغمى عليه من ثقل الهواجس . تمتم :

- لم أتذكَّر أنها معي ، يا سيدي .

«ماذا يتذكر أكراد مثلكم؟» ، سأله الضابط . استرسل : «كم فرداً أنتم في العائلة ، أيها الطيَّار؟» .

كانت السخرية جليَّة في كلمة «الطيار» المقتطعَة من سياقٍ غير مفهوم . لم يتوقف عقل أوسي عندها :

- نحن أربعة ، يا سيدي . ولدان ، وزوجتي ، وأنا .

«أكلُّكم تحبون الأمريكيين؟» ، سأله الضابط .

اختلطت الأمور على فهم أوسي . ردَّ يدفع التهمة عن عائلته :

- لا أحد منا يحب أمريكا ، أو الأمريكيين ، يا سيدي .

نفخ الضابط زفير المتأفف من اعتياده على إنكار من يستجوبهم زبانيتُه التُّهَمَ المنسوبة إليهم :

– أما من أحد جريء في هذه المدينة التافهة؟ أما من أحدٍ جَسُور يعترف من فوره؟ كلهم يُنكِرون .

«سيدي ، لا نحب الأمريكيين» ، أكَّدَ أوسي بلسانه المتعثر قليلاً في جمع الحروف .

«اسمعْ ما كتبه ابنُك على اللوح في المدرسة : عاش شاولي شاولن» ، قرأ الضابطُ الجملةَ من قصاصة الورقة الصغيرة .

«لم أفهم ، يا سيدي» ، عقَّب أوسي .

أمال موسى رأسَه صوبَ أبيه هامساً :

– اسمه شارلي شابلن .

«إنني أسمعك ، يا ضراط الدجاجة» ، قال الضابط . سأله : «من هو شارلي هذا؟» .

«ممثل أمريكي» ، رد موسى للمرة التي لم يعرف عددها .

«أتسمع أيها الموظف في مؤسسة الدولة ، التي تحيا بنعمتها عليك ، ماذا يحفظ ابنُك من أسرار الغرام في قلبه؟» ، سأله الضابط .

«غرام بمن ، يا سيدي؟» ، تساءل أوسي .

«بالممثل الأمريكي ، قائد الأمة العربية الواحدة» ، رد الضابط .

التفت أوسي إلى ابنه بنظرة مهشَّمة ، وبملامح تذوب استياءً :

– اللعنة عليك ، وعلى الممثلين . شعرتُ دائماً أنك وأخاك ستدمرانني بحبكما للسينما .

«ليس بعد» ، عقب الضابط على الخذلان المُرِّ في صوت أوسي . رقَّق نبرَ صوته كأنه يمهِّد للضربة القاسية : «من علَّم ابنيك حبَّ السينما الأمريكية؟» .

«لم أشاهد أفلاماً أمريكية ، ولا عربية ، يا سيدي» ، دافع أوسي عن نفسه . أردف : «كانت دُور السينما ، هنا ، تعرض أفلاماً أمريكية طوال الوقت ، يشاهدها الناس كلهم» .

«لا يحتاج حبُّ الأمريكيين إلى مشاهدة أفلامهم . التنكُّر لنعمة الدولة يوصل أمثال عائلتك إلى حبهم للأمريكيين ، أيها الموظف الراقي» .

«لم أعد موظفاً ، يا سيدي» ، عقَّب أوسي بنبرٍ ممزَّق .

التفت موسى إلى أبيه بنظرة ممزَّقة كالنبر في صوت أبيه .

«كان عليك أن تتذكَّر أنك موظف في مؤسسة من مؤسسات الدولة ، قبل تعليم عيالك حبَّ أمريكا» ، عقَّب الضابط .

أُفرِغ لسانُ أوسي من الكلمات . لم يستنزل عقلُه كلمة واحدة إلى لسانه . بدا مستسلماً ، مجوَّفاً ، ذائباً ، متناثراً ، متشققاً . التفت إلى ابنه بنظرةٍ لا شيء فيها .

«اسمعْ ، أيها الكردي . سأدعك تمضي بابنك إلى البيت» ، قال الضابط . استطرد : «أتعرف لماذا؟» . تأمَّل وجه أوسي الفارغ . «طبعاً لا تعرف» ، أضاف : «سمعتُ مرةً نكتة من كردي أضحكتْني جداً» ، قال . حدق إلى أوسي : «ألن تسألني ما هي النكتة؟» .

«ما هي ، يا سيدي؟» ، أَرْغَم أوسي لسانه على تساؤله .

«دخل رجل إلى بيته ، فإذا برجلين مع زوجته في السرير ينكحانها . ابتسم الرجل . خاطبهما ساخراً : ما تفعلانه أنتما الإثنان أفعله وحدي» . سرد الضابط النكتةَ . ارتجَّ جسده البدين على كرسيه ضاحكاً . قرع براحة يده اليسرى سطح المنضدة : «هذه النكتة شفعت لك ولإبنك . توقَّفْ عن تعليم عيالك حُبَّ الأمريكيين» . رفرف بيده اليمنى كجناحٍ يصرفهما ، أو يكنِّس الغرفة منهما .

أوضح أوسي في البيت ، بعدما ألقى دراجته منبطحة على الأرض

الحصى في الساحة ، مقدارَ الفسحة الضيقة التي انحشر فيها قَدَرُه :
- هدلا . قال لي مدير مؤسسة الكهرباء أن أعود آخر الشهر لاستلام آخر مُرتَّب .
«آخر مرتَّب؟ ماذا تعني؟» ، سألته زوجته .
«يعني : لا عودة إلى العمل كموظف في دائرة الكهرباء» ، شرح أوسي .
سأل كيهات أباه بنبر مذعور ، في تلك الظهيرة الفاجرة بأمطارها الفاجرة ، راكعاً على البساط منهوبَ العقل من كلمات أمه أن أباه فقد وظيفته :
- ماذا سنفعل الآن ، يا أبي؟
«ماذا تعني؟» ، سأله أبوه ، مستعيداً بعضَ الاتزان في نبرِ صوته ، وفي نظرته .
«كيف نعيش بلا مُرتَّبك الشهري؟» ، سأله كيهات .
«نبيع دجاجاتك ، وديكك الأسود» ، رد الأب .
أحس كيهات جرحاً على طول العضلة الكبرى في كيانه ، والعضلة الكبرى في وجوده ؛ بل صَدْعاً شقَّه من جمجمته إلى أخمصَيْ قدميه .
فَطِن الأب إلى اللوعة في عيني ابنه . زحف شبرين على البساط . رَبَت على فخذ ابنه اليسرى بيده اليسرى ، ثم أدار وجهه إلى زوجته وابنه موسى ، المتكئ بجبينه على ركبتيه :
- لا تقلقوا . لن نبيع دجاجات كيهات . سأعود صيفاً إلى العمل الموسمي مع أبي . لدينا بعض المال . إن نقص علينا شيء من مستلزمات العيش اقترضتُ من أبي مالاً
«كيف حدث لكما ما حدث في فترة الصباح القصيرة من هذا اليوم؟» ، سأل كيهات أباه ، فردَّ أوسي :

- كانت فترة ممغَّطة ، كل ساعة بعشر ساعات من حَفْرِ القبور باليدين .

«سمعتُ صراخاً في مبنى الاستخبارات» ، قال موسى وهو يرفع جبينه عن ركبتيه . أردف : «كان الصوت بعيداً ، تحت الأرض» .

«لم أسمع» ، عقَّب أوسي .

«حين كنتُ أنتظر حضورك» ، أوضح أوسي .

«سمعتُما صراخاً أم لم تسمعا ، لا يهم . مبنى المخابرات هو مبنى الصراخ» ، عقَّب كيهات . مدَّ يده إلى قصعة البطاطا المقلية باتت رخوة ، باردة . التَهَم بضع رقائق دفعة واحدة .

دحرج موسى نفسه صوب القصعة . كسر رغيف خبز سميك نصفين . فتح نصفاً شريحتين من الوسط بين ظهر الرغيف وبطنه . حشاه رقائقَ . قضم الخبزَ بما فيه قضمة كبيرة على جوع أقلقَ معدتَه ، كحال قلقه من العودة غداً إلى المدرسة ، وكيف سيواجه المدير . ابتلع لقمتَه على جفافها . تناول طاسة الماء قرب القصعة . ارتشف بلعةً :

- لماذا لا نستطيع أن نصير أرمنيين ، يا أبي؟

سبق كيهات أباه إلى الرد :

- عدتَ سريعاً إلى مهاتراتك .

نظر موسى إلى أبيه وأمه يرى لماذا يستمهلان انضمامَهما إلى ابنيهما على الغداء من البطاطا المقلية ، الباردة ، التي لم تعد محمَّصة ، بل طرية .

التفتت هدلا إلى زوجها تحثُّه على التقدم من القصعة ، فتقدم زحفاً على ركبتيه . غمس رقاقة من البطاطا في صحن اللبن الرائب . قدَّمها إلى زوجته المبتسمة .

ابتسم موسى على انفراج الأمزجة قليلاً من ارتخاء حصار الساعات المسمومة ـ ساعات الصباح ، من مطلع استدعاء موسى إلى غرفة المدير ،

فاستدعاء الأب إلى مبنى الاستخبارات، وحتى الظهيرة التي جمعت العائلة مُنْهَكَةَ الوجود حول قصعة البطاطا المقلية .

«أريد أن أسألك شيئاً، يا كيهات»، قال موسى لأخيه .

«ألم تجفَّ اليوم؟ أعندك أسئلة؟»، سأله أخوه الأكبر .

«إذا استطاع مصوِّر تصوير السماء صورةً بطول مترين، وعرض متر، فكم نجماً وكوكباً في كل ملمتر واحد؟»، سأله موسى .

«خمس دجاجات، وأربعة ديكة»، رد كيهات ساخراً .

لم يأبه موسى لسخرية أخيه :

– في كل ملمتر واحد، من تلك الصورة، ثلاثة مليارات وأربعون نجماً وكوكباً .

«مَن استطاعَ عدَّها؟ مَن ضحك عليك بهذه الأرقام، يا حمار؟»، تساءل كيهات .

«العِلْم، يا حمار»، ردَّ موسى .

خرابٌ وراثيٌّ من انقلابات أهل الحزب الواحد على أهل الحزب الواحد صنعَ دولة اسمها سوريا، بعد سنين قليلة تُعدُّ على أصابع الأقدام من استقلالٍ مزعوم لا تشبهه إلاَّ العبودية . موتى قَلَبوا الطاولات على رؤوس الأحياءِ فيها، ونَمَت حكمتُها كدولةٍ في الحقل الدمويِّ للزمن .

نقْدٌ لم يعبر خاطر أوسي في بطالته، بلْ أشياء كُثرٌ أُخَر :

قال كردي لكردي إن حجر الكعبة المتوارثة البناء منذ النبي إبراهيم، ليس من الأرض .

قال كردي لكردي آخر : الأرض ليست من الأرض .

قال كردي : نكبر فنصير حكماء .

رد عليه كردي آخر : هذا ليس صحيحاً . كلما تقدمت بنا الأعمار نصير أكثر عجزاً عن فعل الأشياء التي نريد . البعض يسمي ذلك العجزَ حكمةً .

قال كردي : كُنْ جداراً يُعلِّقْ عليك أحدُهم ، ذات يوم ، شيئاً مَّا .

اختبر أوسي ، في شهره التالي بلا عمل ، سَبْكَ عقله للأقاصيص ، والنوادر ، والطرائف ، يسردها على مسمع زوجته هدلا ، المبتسمة الفم لا يعنيها أن تكون لزوجها روحُ الدعابة ، أو روح الحكمة ، أو روح القبض على سياقات من تاريخ الحكايات . إنه زوجها . هذا ما يعينها في إصغائها إلى ما يأتي به لسانه من المقهى في السوق المسقوفة وسط المدينة ، حيث يجتمع تجَّار المواسم ، والعتَّالون ، وسائقو الشاحنات ، تحت السقف من حول طاولات الشاي الساخن .

رجع موسى إلى المدرسة . زار غرفة المدير معلِناً حضوره ، في ذعرٍ من مضاعفاتٍ مُضافة تلحق بمحنته من الجملة التي أرادها مَرِحةً على اللوح ، فوضعت قدميه وقدمي أبيه في قهقهة النار .

«أنلْتَ عقابك؟» ، سأله المدير .

«نعم ، يا أستاذ . وأبي أيضاً» ، رد موسى .

«أبوك أيضاً؟» ، تساءل المدير ، فرد موسى :

- طُرد من عمله .

استرخى المدير على كرسيه متفاجئاً ، بفم أفقَمَ مفتوح . استدار بوجهه إلى الجدار على يمينه بلا موجبٍ للنظر . أطرق متفكِّراً في صمت . أعاد عينيه إلى موسى المنكمش :

- عُدْ إلى صفِّك .

كيهات عاد إلى المدرسة ، في اليوم التالي ، بجرحٍ لم يستطع صَرْفَ نظرِ كيانه عنه . جرحٌ مشى معه من ساحة البيت الحصَى إلى الشوارع . طرْدُ أبيه من عمله كان جرحَه ، بالرغم من تمالك الأب نفْسه في اليوم ذاته ، ليعود ـ من ثم ـ إلى زوجته ، في الأيام الأُخر ، قابضاً على سياقات من تاريخ الحكايات يرويها لها ، بإشارات إلى روائح السوق المسقوفة

بالمقهى فيها ، زاعماً أن للروائح هناك حكمةَ الكردي المفترِضة أنَّ كل شخص جدارٌ سيعلق إليه أحدٌ مَّا ، ذات يوم ، صُرَّة حناء ، أو مصحفاً في غلاف من القماش ، أو سترةً ، أو صورة جدٍّ ، أو رسماً من رسوم «البُرَاقِ» - الفَرَسِ الآدمية أسْرَت بالنبي العربي إلى السموات كلها ، أو رأسَ غزال من جِصٍّ هش .

أيام مضت على النحو ذاته من تراتُب الساعات بقياسٍ مضبوطٍ نفسياً ، إلاَّ ساعات قلب كيهات ، الذي زار بيت راحيل مرتينً في أربعة أسابيع ، بلسانٍ جَلَخَه طويلاً بمبرد التدرُّب ، ليلاً ونهاراً ، على الإعتراف للينا بالصخب الذي لم يعد محتملاً في أعماقه : «احبكِ» . لكنه لم يتجرأ .

يومٌ واحد ، في السياق المتصل من شهر تشرين الأول بتوأمة تشرين الثاني ، كان على موعدٍ مع المفاجأة الصغيرة جاء بها بوغوس الأرمني مختلطة بالسكاكر في كيس . سكاكر بأغلفة برَّاقة ، ملونة ، ملتفة من جهتين على كل سُكَّرة كضفيرتين صغيرتين ، نافرتين . وزعها على زملائه ثلاث سُكَّرات لكل واحد في الصف ، قبل دخول معلم الجغرافيا إلى غرفة الدرس .

لم يتمكن من استكمال التوزيع مُذ دخل المعلم متسائلاً :

– ما هذا ، يا بوغوس؟

«حصلْنا ، يا استاذ ، على تصريح من دولة أرمينيا بالهجرة إليها» ، رد بوغوس بحروف مستطيلات الأعناق ابتهاجاً .

لم يتوقف أستاذ الجغرافيا عند خبر الهجرة إلى أرمينيا . طلب منه ، في هدوء ، أن يجلس :

– أكملْ توزيع السكاكر بعد انتهاء الدرس .

هرع بوغوس بسكَّرة إلى المعلم . وضعها في راحة يده ، ورجع هرولة إلى مقعده جالساً .

في فسحة الاستراحة، بعد انتهاء الدرس، أكمل بوغوس توزيع السكاكر على زملائه. أمسك كيهات بعضده مستثارَ القلب:

- سأفتقدك، يا رجل.

«لستُ مغادراً غداً، يا كيهات. هناك إجراءات طويلة. لكنَّ الأمرَ حُسِم»، عقَّب بوغوس. تنشَّق الهواءَ ملءَ رئتيه: «سأعود إلى أرمينيا».

«لم تغادر أرمينيا لتعود إليها»، قال كيهات. «ستغادر سوريا»، ثم ابتسمَ في خبثٍ: «قد تشتاق إلى بلدِ مولدك وتعود من أرمينيا إليه».

أغمض بوغوس عينه اليمنى في مزاح:

- كانت أرمينيا مقيمة في سوريا بعَقد استئجار، وها أنا سأعود بأرمينيا إلى أرمينيا حين ينتهي العقد.

ابتسم كيهات مستلطفاً:

- من أين تعلمت الكلام هكذا، يا بوغوس؟

«من الحب»، رد بوغوس.

تنهَّد كيهات:

- كلما ازددتُ غراماً نسيتُ الكلمات.

«أتحبُّ، يا ابن الملائكة؟»، سأله بوغوس كأنما فضح كيهات نفْسه.

لكز كيهات بقبضة يده اليمنى كتف بوغوس اليسرى لكزة ناعمة:

- جاءتك المعجزة أخيراً.

«أتعني قبول الهجرة إلى أرمينيا؟»، سأله زميلُه، فرد كيهات:

- هل من معجزة تعادل هذه المعجزة، يا رجل؟

«هذه ليست معجزة، يا كيهات، بل إجراءات. ما حصل يوم الأحد في كنيستنا كان معجزة»، قال بوغوس.

«ماذا حصل؟»، سأله كيهات.

«بكت إحدى الأيقونات دَمَاً»، رد بوغوس.

«ماذا؟» ، تساءل كيهات مبتسماً كأنَّ بوغوس يمازحه .

«القديس هاكوب نزف من عينيه دماً في الأيقونة» ، أكَّد بوغوس . «دمعتان من الدم نزلتا خيطين من عينيه إلى لحيته» .

«كيف حدث ذلك؟» ، تساءل كيهات .

«معجزة ، يا رجل» ، رد بوغوس .

«أشهدتَ الأمرَ بنفسك؟ كنتَ في المدرسة صباح الأحد» ، سأله كيهات ، فرد بوغوس :

– عرض البطرك نَرْسيس بِدْروس الأيقونة على المصلين فرداً فرداً . أمي رأت دمعَ القديس .

«أصدَّقتَ ذلك؟» ، تساءل كيهات .

قطَّب بوغوس حاجبيه استياءً :

– أنت مسلم . المسلم لا يصدق المسيحي .

«نَزْفُ الأيقونات» ، مصطلح مِن رسمِ المعجزة للمصطلحات القدسية ، سارت به الألسنة في أديرة الروس ، قبلَ تهديم البلاشفة هيكلَ الدِّين لينسحب الدِّين إلى الأديرة ، والكنائس مذعوراً . أيقونات القديسين بكت دماً من أسفها ، بحسب التأويل ، على آثام الإنسان لم يقتنع بالفداء الأعظم افتداه ابنُ الله بجسده كفَّارة عن إثم هو أصل البلوغ بالإنسان إلى المعرفة . والإنسانُ بلا إثم إنسانٌ جاهل . جهالتُه هي حصالةُ إيمانه نقياً من الأسئلة إن رعاها زراعةً في الأُصص ، مسقيةً ماءً ، مغذَّاةً سماداً ، أزهَرَ التجديف فيها .

لربما استقى أساقفةُ تلخيص المعجزات الأرثذوكسيون مصطلحَ «نزْفِ الأيقونات» ، من شُفعائهم الأوائلِ رهبانِ القرون الأواسط زعموا أنهم شهدوا تماثيل قديسين ، بينهم تمثال العذراء ، ذرفوا دماً من عيونهم الحجر . حصروا الظاهرةَ المعجزة في مسكوكٍ من الكلمات يخصُّ اليقين : «نزْفُ

الأحجارِ المقدسة» ، تدليلاً على الأسى الذي لا أسىً بعده من لوعة القديسين يرون إلى آثام الإنسان جاريةً الجرْيَ ذاته ، في الساقية المحفورة بمِعْزق الله ، من طين بداية الإنسان إلى طين نهايته .

كيهات تمنَّى حصول معجرة ، كأنْ يعود أبوه إلى عمله جابياً في مؤسسة الكهرباء ، أو كأن توزع الدولة التبغ مجاناً على البيوت ، أو كأن يسمع نداءً من لينا بغتةً : «أحبكَ» .

موسى تمنى معجزةً أيضاً ، حين سمع من أخيه حكاية أيقونة شعب بوغوس ، كأنْ يصيرَ أرمنياً تعترف الدولة بأرمنيَّته ، وبحقِّه في طلب الهجرة إلى أيِّ بلد ، في كل شارع فيه دارُ سينما ، ومطعمُ عجَّةٍ مجاناً مع قدح من شراب اللبن . لكنه اكتفى من المعجزات بتركيب هلالَيْنِ حديديين تحت أخمصَيْ كلِّ فردة من حذائه البني . أربعة أهِلَّة صغار ، في الواحد أربعة ثقوب لتثبيتها بالمسامير تحت العقبين ، وتحت مُقدَّميِّ الحذاء ، يقرع بها موسى الأرضَ الإسفلتَ قرعاً صاخباً ، ذا رنين .

كُثر من رجال المدينة ، ومراهقي المدينة ، يزوِّدون أحذيتهم بالأهِلَّة الحديدية وقايةً من الإهتراء ، واختيالاً بمشيةٍ لها عزفُ الحديد على أوتار الإسمنت والإسفلت .

باح موسى لأخيه بمطلوب قلبه من المعجزات التي أرادها .

«تفكِّر كمؤذن المسجد الصغير» ، عقَّب كيهات .

«ألا تتمنى أنت معجزةً؟» ، سأل موسى أخاه .

«اتمنى معجزات على عدد الشعر في عانتي» ، رد كيهات .

«أنت تفكر كمؤذن المسجد الصغير ، الشيوعي» ، عقَّب موسى .

«شيوعي؟ هل انضم المؤذن إلى الحزب؟» . أردف «سيكون شيوعياً مثلك يتمنى المعجزات» .

«لم أنتسب إلى الحزب الشيوعي بعد» ، قال موسى .

«ماذا تنتظر؟ سينهار إذا لم تنضم إليه ، يا طرزان . الحزب الشيوعي في حاجة إلى طرْزان» ، عقَّب كيهات .

«تخلَّيتُ عن الأمر» ، قال موسى .

«تخلَّيتَ عمَّ؟» ، سأله أخوه .

«أن أصير شيوعياً» ، رد موسى .

«أهنالك من حزب آخر ينتظر أن تنقذه من قلَّة القادة فيه؟» ، سأله أخوه ، فرد موسى :

- سأصير برجوزياً .

«لم أسمع بحزب إسمه البرجوازية . لكنْ ، سبحان الله : إمَّا أن ينتقل شيوعي مثلك فيصير مؤذنَ مسجد ، أو يصير برجوازياً» . أردف : «يا حمار . أنت في حاجة إلى معجزة لتصير برجوازياً . أمَّا أن تصير شيوعياً فلا يحتاج الأمر إلاَّ إلى بنطال مهترئ وحذاء مهترئ» .

زفر موسى من محاولة أخيه إحباطَه .

«لماذا تتمنى أن تصير برجوازياً ، أيها الرفيق شيخوفيتش؟» ، سأله أخوه .

«شستاكوفيتش» ، صحح موسى الإسمَ .

«حسناً أيها الرجوازي الذي لم يصِرْ برجوازياً ، ولن يصير . لماذا تريد الانضمام إلى طبقة البرجوازيين؟» ، سأله أخوه .

«لأقيم الولائم كل يوم لضباط جيش الدولة ، وضباط استخبارات الدولة ، وقائمقام قامشلو ، ومدير مدرستي وأساتذَتها» ، ردَّ موسى . استرسل : «لن يخيف أحدٌ عائلتنا بعد ذلك . لن يخيفك أحد يا كيهات . لن نخاف» .

«أنت معجزة ، يا موسى» ، عقَّب كيهات ساخراً .

لم تكن معجزة موسى إن تحققت - أيْ ترويضُ الدولة بالولائم - هي

آخر المعجزات المرغوبة في شهر تشرين الثاني. مدرِّس «عِلْم الاجتماع»، يحيى، استحدث بنفسه معجزة لن يصدقها إلاَّ تاريخٌ ذكي، شديد اللطافة، فينقلها في سِجلِّهِ إلى البشر الناضجين، ذوي الأخيلة المطهوة قلْياً في زبدة المعجزات. كان يغلي حماسةً إلى تحرير فوريٍّ، بلا تأخير، لفلسطين، منتمياً إلى الحركة الناصرية. وكان كلماً دخل غرفة الدرس، في الحصة المخصصة له أسبوعياً، يلخص سِحرَ الوجود إلى جملة يبدأ بها صباحه فيكتبها من فوره، على اللوح، قبل أن يُحَيِّي التلامذة بكلمة واحدة:

- لا صوت يعلو فوق صوت المعركة.

شعارٌ ابتكره جمال عبد الناصر فلم يعد لـ «الأمة» صوتٌ إلاَّ هدير المدافع، وأزيز الطلقات، وانفجار الصواريخ. إنها أصوات تبتسم لها أعماق المعلم بعد كتابة الشعار، فتبتسم شفتاه أيضاً للتلامذة تحت شاربيه الحليقين كشاربي زعيم مصر.

مدرِّس «علم الاجتماع» لم يعد في مقدوره انتظار «الأمة» أن تحرر فلسطين. أخرج من جيب إيمانه أُهزوجةً لا مثيل لها إلاَّ «نزْفُ الحجارة المقدسة» دموعَها الدمَ:

يا يهوديْ إطْلَعْ بَرَّه
فلسطين صارتْ حُرَّه.

نعم. أجاز المعلمُ لرغبته الأمنية أن تقفز قفزتها العالية إلى تحقُّق محتوم. صارت أمنيتُه واقعاً مُنجزاً في أُهزوجته؛ صارت تاريخاً لا يُدحَض سطرٌ فيه، منزَّهاً عن الشبهة.

في موعد الغضب السنوي، الذي تلوِّح كلُّ مظاهرة بغصنٍ من شجرةِ غارِهِ، على بريطانيا - التي أجاز وزيرُ خارجيتها، في العقد الثاني من القرن العشرين، لنفسه مَنْحَ اليهود وعداً بدولة في فلسطين - كان لأهزوجة

مدرِّس «علمِ الاجتماع» حظُّ السيادة على كل الشعارات والأهازيج ، في المظاهرة المُحْكَمة تحضيراً للتنديد بـ «وعد بلفور» ، قبل أيام من حلول مناسبته المُرَقَّنة وشماً على صدْغَيْ شهر تشرين الثاني وردْفِه . إنها التظاهرة الأكثر غضباً عادةً ؛ الأكثر فَوَراناً بالصراخ كقدْرٍ يغلي فيها الحليب . لافتات من القماش طِوَالٌ وعِرَاض ، تقَضْقِضُ الحروف عليها بأسنانها تهديداً ووعيداً . دُمى من القش مكتوب على هياكلها أسماء بريطانيا ، وآرثر جيمس بلفور ، والصهيونية ، والاستعمار ، تُحرق في ختام الاستعراضات تيمُّناً بما يستجلبه سحرُ السَّحَرة على المغضوب عليهم بحرق الشَّعر والريش في المباخر ، وإطفاء نارها بدم الغراب .

أهزوجة مدرِّس «علم الاجتماع» قُدِّر لها أن تكون الجملة الفاصلة ، الضرورية ، بين كل أهزوجة وأخرى ،وكل شعار وآخر .

يا يهوديْ إطْلَعْ برَّه
فلسطينْ صارت حُرَّه .

جُمعَ التلاميذ سطوراً متوازية في يوم الغضب السنوي ، الأكثر زعيقاً في وجه التاريخ المتجاهلِ الزعيقَ . توزَّع الطلاب الحزبيون ، ذوو العصابات السود على أعضادهم ، من حول الصفوف تنظيماً للصفوف . خرج المعلمون أجمعين يواكبون تلامذتهم في يوم لن يجرؤ حتى المريض منهم أن يتغيَّب . هيَّأوا حناجرهم كغيرهم .

كيهات صمَّم أن يكون في السطر القصير عَرْضاً ـ يشكِّلُه أربعة تلاميذ ، من السطور المتوازية الطوال امتداداً ـ إلى جوار زميليه سمير ، ونعيم ، اللذيْنِ لا يخرجان في تظاهرة إلاَّ متجاورين ، ولا يجلسان في غرفة الدرس إلاَّ متجاورين ، ولا يغادران المدرسة إلى بيتيهما إلاَّ متجاورين .

أهزوجة مدرس «علم الاجتماعِ» ، المقررةُ سيادتُها على الأهازيج ، كانت دافعَ كيهات إلى اتخاذه موضعاً يجاور زميليه اليهوديين : بأيٍّ صوت

سيردّدان الأهزوجة المفرطة صراحةً في تعميم طرد اليهود من جغرافيا الإيمان العربي؟ بأية قبضات سيرفعان غضبتهما عالياً، تنديداً عاصفاً بالسيد بلفور، وبأمته الإستعمارية، وبِمِلكات بلده العاهرات؟

سارت التظاهرة. سار بصرُ كيهاتَ انتقالاً بين مواضع خطواته على الأرض في المسيرة العسكرية الإنتظام، وبين زميليه سمير، ونعيم، إلى يساره.

ريح باردة واكبتهم في اليوم المقطَّر صفاءً أزرقَ في مصفاة السماء. ريحٌ لها أنين وزفير يليقان بتظاهرة تُستخرج كل سنة من علبتها محفوظةً في خلٍّ الأنين وزيت الزفير.

في الخطوات الأُوَل للمسيرة أطلقت الحناجرُ يعاسيبها من قُفْران الغضب إن كان غضباً بحقٍّ، أو لم يكن. لكنه غضبٌ لا ينقُص وزنُه ولا يزيد، مُسْتنسَخُ النبر في الحناجر، متساوي اللألأة في العيون حين تجحظ من ضغط الدم في الصراخ على عروق الأعين، حتى لتكاد تقفز من محاجرها.

وجهةُ مسيرة الغضب السنوي هي ذاتها: مبنى السراي الحجري الذي يبدو، في عزيف الريح ذلك اليوم، كتغريد صخرٍ جاثم على أعشاش الغيوم. إنما ما من غيوم كانت على رؤوس المتظاهرين إلاَّ غيوم الإستنكار، والتنديد بما فعلته الأمةُ البريطانية بالإرث العربي.

بعد ساحة «السبع بحرات»، الأكثر فخامة في الساحات داخل المدينة، مُذ لا ساحة سواها، التقى جمْعُ السطورِ الذكور من فتيان المدارس بالجمع السطورِ الإناث من فتيات المدارس. توقفت الصفوف بإشارات من أيدي الطلبة البعثيين، وصفاراتهم، لإعادة تنظيم المسيرة من تلاقي صفوفٍ كُثر هناك، لكنَّ الأصواتَ زاحمتِ الأصوات إطلاقاً للأهازيج والشعارات. سباق بين اصوات الإناث وأصوات الذُّكْران. عراك بين الأصوات. تنافسٌ بين الأصوات مَنْ أكثرُها اقتداراً على طرْح الزمن أرضاً،

وإنزال السماء إلى الأرض على سلالم النَّبر الأقوى في ترديد الشعارات المطلية بذهب الرغبة في تصحيح الوجود كله على نَسَقٍ واحد : إنتصار «الأُمة» ، واحتكار الزمن .

هاجَ قلبُ كيهات من مداهمة صوت لينا لخياله . لم يسمع صوتها . بل لم يستطع في التفاتاته المتعاقبة إلى صفوف الفتيات أن يراها . كان الدعاء يصعد من جهتهن : «يا ربْ . العربْ تنصُرْهم ، واليهودْ تكسرْهم» ، فيبادله الفتيان بأهزوجتهم المستحدَثة صليلاً وصهيلاً في معارك الأمنيات : «يا يهودي إطلعْ برَّه . .» .

أتسمع لينا الدعاءَ من جهة الفتيات ، والأهزوجة من جهة الفتيان؟ زميلاه سمير ، ونعيم ، لم يكونا يرددان أهزوجة مدرِّس «علم الإجتماع» . كانا ، كلما ارتفعت الحناجر صراخاً بوجوب خروج اليهودي من الجغرافيا ، يُطْرقان أرضاً . ولربما التفت نعيم إلى كيهات بنظرة فيها انكسار ، وتساؤلٌ مستبطَن أيضاً : «أأنت تراقبنا؟» ، فيغضي كيهات من فوره كالمعتذر .

اختُتِمَت التظاهرة ، بعد خطاب القائمقام المشتعل كبريتاً ، بإحراق دمىً ، وبإحراق عَلم بريطانيا ، ونجمة داود ، في ساحة السراي . تراخى الانتظام في صفوف العائدين إلى مدارسهم ليجلبوا حقائبهم عودةً إلى البيوت . اقترب كيهات ـ في المسيرة باتت عشواءَ مشياً ، فتباعدَ تلامذة عن تلامذة ، وتخلخلت التجمعات ـ من زميليه اليهوديين فتطلعا إليه معاً في فضول . سأله نعيم :

- كيف كانت أصواتنا في الهتافات؟

ابتسم كيهات ، كعادته ، ابتسامته الملتبسة حين لا يفهم . تمتم :

- أصوات مَن؟

«صوتي ، وصوت الملاك الذي ينفخ في قرن الكبش ، وصوت سمير» ، رد نعيم .

تراجعت ابتسامة كيهات الملتبسة، مُدركاً ما عناه نعيم تلميحاً إلى اختلاس كيهات النظرَ، مراراً، إلى زميليه، كلما ارتفعت الأصوات بترديد الأهزوجة: «يا يهودي . .».

«أُقسم لك، يا نعيم، أنني لم أكن اراقب كيف تتصرَّفان بصوتيكما»، قال كيهات. أردف يستحصل ثقةَ زميليه بقَسَمِه: «لو كنتُ يهودياً لغادرتُ التظاهرة».

ضحك سمير:

- زميلنا الكردي حساس جداً، يا نعيم.

«نعم. كان من حقه، لو كان يهودياً، أن يغادر التظاهرة، ويتجه من فوره إلى الحدود التركية فيقتحمها مُولِّياً»، عقَّب نعيم. أردف محدِّقاً إلى كيهات: «أفي سيارة تستأجرها من استخبارات الدولة كنت ستغادر إلى تركيا، أم على ظهر حمارٍ حلبيٍّ أبيض، ضخم، أم مرتدياً قبعة الإخفاء، أم راكباً قارباً تجذِّف به عكس التيار، في نهر جَغْجَغ، إلى منابعه في جبال طوروس؟».

تراخى كيهات بالصّور قلقةً من عبورها في صوت نعيم ذي الخُنَّة إلى قلبه، لا إلى سمعه. أدرك خطأه في القول لو كان يهودياً لغادر التظاهرة. لو كان مثلهما يهودياً لظلَّ سائراً في التظاهرة، منتصب القامة مَظْهراً من اعتداد العسكريِّ بهيئته المنتصبة مستوفَزاً؛ لردَّد الأهزوجة الشبيهة بالصفْع والرَّكْل، متمتماً بجسارة المتسامح: «هذا بلدي. فلْأحتملْ من أبوَّته نَكَدَ الأب».

أكان تفكير كيهات، في تركيب جملته الأخيرة، المتسامحة، عزاءً حقاً في احتمال الإهانة؟ لن يمضي كيهات عميقاً في فكرة لا يملك عمرُه القفزَ بنفسه إلى قراراته المعتمة: بلدُه خطأٌ جيِّدٌ، متحالفٌ مع مرتكبيْهِ الجيدين.

«لم أعن ما قلتُه» ، قدم كيهات اعتذاراً خفيضَ النبر لزميليه .
«لم تعْنِ ماذا؟» ، سأله سمير القصير ، الأقرب إلى بدانة .
«أن تغادرا التظاهرة» ، أوضح كيهات .
تبادل سمير ونعيم نظرتين رائقتين .
«أنا أيضاً لم أعْنِ ما قلته لك ، أيْ أن تغادر سوريا في سيارة من سيارات استخبارات الدولة ، أو على ظهر حمار أبيض ، إلى تركيا» ، قال نعيم . أردف : «كان مزاحاً» .
أكَّد سمير :
- نعيم كان يمزح .
«نسيتَ قبعة الإخفاء ، يا نعيم» ، ذكَّره كيهات .
«نعم . قبعة الإخفاء ، وبساط الريح» ، تمتم نعيم . سال زميلَه : «أتحب حكايات ألف ليلة وليلة؟» .
«أحب أقاصيص المخلوقات الغريبة : ميدوسا ، المينوتور ، الجن . وكذلك قصص التاريخ : جنكيزخان ، تيمورلنك ، هولاكو ، وحكايات شمشون ، وهيركوليس ، وطرزان ، والحوريات» ، رد كيهات .
«الحوريات؟» ،تساءل سمير . أردف : «حوريات الأساطير ، أم حوريات دِينِك؟» .
«دِيْنٌ بلا حوريات ليس دِيْناً» ، ردَّ كيهات مرقِّصاً حاجبيه على معنى الشهوة في جملته .
«سنستعير منك بعض الحوريات حين تضجر من كثرتهن ، على باب جنة دينك» ، قال سمير .
هأهَاتٌ خفيضة ، وابتسامات ، وعجلةٌ في المشي ، أوصلت كيهات وزميليه إلى مدرستهم . جاؤوا بحقائبهم مغادرين . لحق كيهات بالإثنين يجاورهما في العودة صوب الحيِّ اليهودي .

بعد أربعة وعشرين شارعاً ربما ، في سيرهم إلى الجهة الشرق ، أخرج كيهات دفتراً من حقيبته . اقتطع ورقةً ، مستنداً بالدفتر إلى فخذه اليسرى . أعاد الدفتر إلى جيب في الحقيبة .

«نعيم» ، نادى كيهات زميله بصوت فيه نبْرُ التَّرجِّي : «أسْدِ لي معروفاً» . مدَّ الورقة إليه .

تطلع نعيم إلى الورقة مستغرباً . تساءل :

- ما المطلوب؟

«اكتبْ لي كلمة» ، رد كيهات .

«كلمة؟! ألا تُحسِن الكتابة بعد كل هذه السنين في مدارس الأمة العربية الواحدة؟» ، تساءل نعيم ممتزج الفضول بالاستغراب .

«بالعبرية» ، تمتم كيهات بصوت متردد ، بل مترقِّبٍ نبرَ الصوت كيف يكون في ردِّ زميله .

«بالعبرية؟!!» ، غمغم سمير مديراً عينيه عن كيهات إلى نعيم متفاجئاً .

«ما هي؟» ، سأل نعيم زميله كيهات .

«أحبكِ» ، ردَّ كيهات مفتوح الفم عن ابتسامة كأنما أفشى سِراً مُرْبِكاً .

«لمن تريد هذه الكلمة؟» ، سأله سمير .

«لي» ، رد كيهات عفوَ الخاطر .

هز سمير رأسه استخفافاً بالردِّ :

- أستضع الكلمة في مغلَّف مُرسَل إلى عنوانك؟

«لا» ، رد كيهات .

«من تقصد بهذه الكلمة إذاً؟» ، سأله سمير .

«لا أعرف» ، رد كيهات في سذاجة للتخلص من الأسئلة .

أعاد نعيم الورقة إلى كيهات :

- أقرأُ التوراة بالعبرية ، لكنني لا أكتب بها .

أمسك سمير بالورقة في يد نعيم . كلَّمه بنبرٍ متعاطف مع رغبة كيهات :

- اكتبْها له .

«ألن تقول لنا ، يا كيهات ، من المقصود بـ «أحبكِ» بالعبرية؟» ، سأله نعيم .

«لا» ، رد كيهات كالمتوسل ألاَّ يساومه زميله على كتابة الكلمة مقابل أيِّ اعترافٍ .

أعاد سمير التماسَه من نعيم أن يكتب لكيهات الكلمةَ :

- اكتبْها له ، أو أكتُبها أنا .

«خط نعيم مُتقَن في الكتابة» ، قال كيهات .

«خطِّي جيد في الكتابة بالعربية» ، عقَّب نعيم .

«بل في كل لغة» ، بادره كيهات مُستحثاً .

«أنت تبتزُّني بإطرائك» ، قال نعيم . مدَّ يده صوب زميله : «أعطني قلمك الـ Tropen. الأنبياء يكتبون بهذا القلم الألماني» .

أخرج كيهات قلمه الأسود ، ذا التاج الذهبي على قُلَّته ، من جيب في باطن سترته السميكة . نزعَ غطاءه وقدَّمه إلى نعيم .

أسند نعيم الورقة على ظهر حقيبته . كتب : «أُحبكِ» بالعبرية .

ليومين متتاليين حدَّق كيهات إلى الحروف مكتوبة من اليمين إلى اليسار . نقل الورقةَ من موضع إلى موضع في غرفته وغرفة أخيه . نقلها من جيب إلى جيب ، متفكراً في اليوم الذي ينبغي أن يحسم فيه أمرَ قلبه نهائياً فيُري لينا كلمةَ قلبه بالعبرية .

ماذا ستفهم لينا من عرْضه الحروفَ على بصرها؟ أليس في مستطاعه قولَ الكلمة بالعربية إن أراد اعترافاً؟ ربما ستفهم منه أنه بات يعرف كتابة

حروف بالعبرية ، وأنه لم يعد خائفاً كما قال لها ذات مرة «لا» حين عرضت عليه تعليمه كتابة اسمه بالعبرية . لماذا لم يفكر أن يسألها هي ، مثلاً ، أن تكتب له كلمة «أحبكِ» بالعبرية؟ ماذا كان سيخطر ببال الفتاة آنذاك؟ ماذا لو ادركت قصد كيهات من الكلمة فعاتبتْه؟ كلَّم كيهات نفسه بخطط للمَخْرج إن أُحرِج :

– كنت سأقول لها : هذه الكلمة ليست موجهة إليك ، إنما كتبها زميلي اليهودي على دفتري لا غير .

أكان سيُقنعها توضيحُه؟ ماذا لو اعتقدت لينا أن الكلمة التي يُريها كيهات مكتوبةً هي مجرد كلمة بالعبرية تشبه اسم الباب ، أو الشمعدان ، أو التنُّور؟ ليكن ما يكون من ردة فعلها على قراءة الكلمة بخط أنيق ، من عشرة حروف بالعبرية . إن فهمتْ قصدَه ورضيَتْ رضيَ كيهات سعيداً حتى الإغماء . وإن لم تفهم يكنْ كيهات قد خُسِفتْ به خططُه الممزَّقة في الاعتراف لها بما في دم قلبه من مساكبِ شلالاتَ العالَم غراماً .

في اليوم الثالث ـ يوم الجمعة ـ أقسم كيهات بآلهة السماء وآلهة الأرض ؛ بأجداده ؛ وأبيه وأمه ؛ بدجاجاته الأميرات ، وبديكه الأسودِ المَلِك ؛ بالسُّوْر المُحَصِّن بيتَهم ؛ بالبئر ؛ بالقُنِّ ، وبحقل الورد المتجرِّد المتعرِّي ، أنه سيصارح لينا بما في الكلمة العبرية دوَّنها زميله بقلم الحبر ، وبما في قلبه من شظايا الكلمة العبرية مكتوبةً عشرة حروفٍ كأصوات الجِن .

ظهيرة ذلك اليوم ، من نهاية الخريف غير المعهود أن يبيض فيها الدجاج ، باضت دجاجة كيهات المتعدِّدة الألقاب ـ الرومية ، والتركية ، والحبشية والـ «عَلُوْ عَلُوْ» باللغة الكردية ـ بيضةً تكفي أخيه موسى وجبةً من العُجَّة تطرب لها روحُه .

الفصل الرابع

لُغْز الشهور القَمريَّة

عشرة حروف بالعبرية فُتحتْ عنها الورقةُ البيضاءُ ، المُسطَّرة ، مراراً ، شهراً بعد شهر فبادلتِ الظلامَ هواجسَها من البقاء متكتِّمةً على الهوى المُعْلَن في قلب كيهات . حروف تمنَّت لو يحرِّرها كيهات ، وأن تُحَرِّر كيهات ، لكنها ظلت متنقِّلة بين صفحات كتب تُطوى عليها ، وبين خزْنة ثيابه وثياب أخيه القليلة في غرفتهما ، حِرْصاً من يدي كيهات ألا يعثر عليها أحد حتى لو كانت حروفاً من أسرار الحروف ، في بلد لا يُحسِن قراءتها إلاَّ قلَّةٌ في الجامعة ، أو في استخبارات الدولة .

غير أن كيهات حمل الحروف في جيبه زيارةً بعد زيارة إلى منزل راحيل ، ملتزماً خدمتَها في بعض السبوت ، أو لشراء اللحم من حانوتها أحياناً ، بخطط اعتصرَ بعضُها بعضاً من كثرة تداخلها ، في بحثه عن الطريقة الأجدى ، والفرصة الأنضج ، لعرض الحروف على بصر لينا .

خذل كيهات نفْسَه شهراً بعد شهر . خذلَ الحروفَ المتوسلة أن يُعْتِقَها من الصفحة البيضاء المُسطَّرة ؛ من الورقة باتت تتجعد ، وتتمعَّس من كثرة انتقالها من مكان ضيق إلى مكان وسيع ، ومن سَحْبِها ودَسِّها في الجيوب ؛ مِن طيِّها ومن نَشْرها ؛ بل من تحديق كيهات طويلاً فيها ، مختلياً بها كأنها خطواتٌ عشر من شبحِ لينا في عبورها إلى غرفته ، وسيرها إلى جواره لا يراها سواه .

حلَّ الربيع بسهامه الهزيلة في مطلع معركته الأولى من آذار ضد الشتاء اليائس جريحاً يستنزل من السماء الصواعقَ الهاذية ، والبَرَد المجتاح الذي قد يقلب بهياجه ، وسُعاره ، حظوظَ حقول القمح والشعير النابتين

إلى نزهة في الجحيم ، ينهار منها موسمُ الصيف تترقّبه الحصاداتُ الآلية ، والتجار ، وأكياسُ الخيش الجديدة والمستعملة ، والأسواقُ ، والشاحنات .

خسارةُ الشتاء على الجبهات أمام تقدُّم طلائع الربيع من عساكر العشب ، والنبات ، قد تنحو به إلى تقويض أعمدة هيكل الفصل على رؤوس التجار إن وافقتْه الغيومُ على انتقامه بكثرة المطر الجارفِ الحقولَ سيولاً . لكن لا يحدث هذا التوافق على الإنتقام في كل آن من السنين . الغيوم تتراجع ، في كثير من الأحيان ، عن حلفها مع الشتاء رأفةً بالحقول والسهول أن ينتحر النَّبْتُ والبذور فيها . تنتحر الغيومُ .

يوم الجمعة ، من مطالع آذار ، كان كيهات عائداً من تفقُّده دُور السينما ، قبل الظهر ، ليعرف معروضاتها من الأفلام فيصحب أخاه موسى إلى إحداها . عاد خائباً . ما من جديدٍ مثير ، أو مُلفِت في الملصَقات الإعلانية على أبواب فردوس الصور الملّونة الناطقة ، والصور بالأبيض والأسود صامتة أو ناطقة . فيلمان عربيان من أفلام المساخر التهريج معادان ، وفيلم باكستاني بملصَق ساذج الرسم كأنه بلا لون ، مدوَّن في أعلاه : «أول فيلم من إنتاج باكستان» .

«فيلم باكستاني؟!» ، ردَّد كيهات التعريفَ على نفسه بلسان صامت . ما من شيء على لوحة الصور ، المغطاة الواجهة بشبكة من الأسلاك المعدن ، استثاره أو لفت نظره . ممثلون لم تبْدُ وسامة على أحد منهم ، متواجهون بتعابير على وجوههم خلْوٍ من انفعال غاضب ، أو من مرح ، أو من تمهيد لغناء كما في الأفلام الهندية . صور بالأبيض والأسود ، تكثر في خلفياتها أزاهير وورد بلا ألوان ، وبيوت قرى ، ونساء محجبات .

فقرٌ في ملصَق الإعلان الكالح . فقرٌ في الصور المثبَّتة بالدبابيس المفلطحة الأعقاب على لوحة يحمي الصور عليها شبكٌ معدني من السرقة .

ماذا سيقول كيهات لأخيه موسى؟ لا فيلم هذا الأسبوع؟ لا يقبل

موسى أن يُهان أسبوعه بلا فيلم يَحضُرهُ . ستواجه العائلةُ كلها نَكَدَ موسى طوال سبعة أيام حتى الجمعة التالية ، عسى يعوِّض القَدَرُ عليه خسارةَ عمره فيلماً لم يُضِفْه إلى لائحة ذاكرته من تسجيل محفوظات السينما ، ومعجزاتها الفاتنة .

حين بلغ كيهات مطلع حي السريان ـ في طريقه جنوباً إلى الحي اليهودي ، الذي يجتذبه قبل الإنعطاف من نهايته صوب شارع منزل راحيل ، فالعبور شارعين عودةً إلى البيت غرباً ـ ناداه صوت يعرفه ، قادماً من ورائه :

– كيهات . غادرْ هذا الحيَّ . إنه لي .

التفت كيهات مستلطفاً ذلك الحضور الأنيس لزميله رحيم ، المقيم مع أهله على التخوم الشمالية للحي اليهودي . فتح ذراعيه معترضاً الدراجة الهوائية العتيقة التي يقودها زميله ، وقد جلس خلفه ، على المقعد القضبان الحديد ، المستطيل ، المُلحق بمقعده ، شاب لم يسبق أن رآه كيهات .

أوقف رحيم دراجته . نزل عنها فنزل الشاب عن المقعد الرديف :

– هذا ابن خالتي ، من مدينة الحسكة ، جاءنا زائراً لأيام .

تطلع كيهات إلى الشاب الخجول العينين ، ذي الشعر الأسود ، الكثيف ، السَّبط مرسلاً حتى شحمتي أذنيه . أبدى استغراباً :

– أبدأت عطلةُ الصيف في مدارس الحسكة؟

«ماذا؟» ، تساءل رحيم .

«شعر ابن خالتك طويل . ماذا سيفعل به ضابط الفتوَّة؟ وماذا يفعل في قامشلو؟ ألا مدرسة غداً؟» ، عقَّب كيهات .

«لا دروسَ فتوَّة ليحلق شعره مثلنا . لا مدرسة ليلتزم بحضور دروسها في الحسكة» ، أوضح رحيم . «إدريس ، إبن خالتي ، لا يذهب إلى المدرسة ، يا كيهات . إنه حرٌّ» .

«ألا شرطة في الحسكة يضبطونه بشعره الطويل هذا؟ ماذا إن شاهده شرطي هنا؟» ، تساءل كيهات .

«يغطيه بالشال الذي حول رقبته» ، رد رحيم مشيراً إلى قماشة ثخينة لف بها الشاب عنقه .

«ألن يأخذوه قريباً إلى الجندية ، ما دام لا يذهب إلى المدرسة؟» ، تساءل كيهات .

«هو وحيد أبويه . الدولة لا تأخذ أمثاله إلى الجندية» ، رد رحيم .

ضرب كيهات الأرض بقدمه اليسرى ضربة خفيفة تعقيباً :

- ليت كل واحد منا كان الإبن الوحيد في عائلته .

تفقد رحيم ببصره ثياب كيهات على نحو غريب ، متفحصاً مواضع جيوبه تحديداً في بنطاله البني الخشن ، وسترته السميكة الرمادية :

- أخرِجْ لفافةَ تبغ من أحد جيوبك .

«لا تبغ معي» ، قال كيهات . بادله السؤاله ذاته : «أخرِجْ أنت لفافة تبغ ، يا رحيم» .

التفت رحيم إلى ابن خالته :

- أجلبتَ بعض بعْرِ النعاج معك لنصنع منه لفافة تبغ ، يا إدريس؟

ابتسم الشاب الخجول ، الأكثر سمرةً في جلد خدَّيه من باقي وجهه ، كأنه يتعرض لشمس الصيف طويلاً ، وقُرِّ الشتاء البارد .

«إدريس راعي غنم» ، قال رحيم . «حرٌّ كالأغنام في مراعي الحسكة» . هزَّ رأسه مستلطفاً ما خطر له تواً من المزاح : «لديهم بعْرُ غنم وماعز كثيرٌ . يدخنون البعرَ مفتَّتاً في أوراقِ صنع لفافات التبغ» .

هأهأَ إدريس الراعي .

«لماذا تُهأْهِئ؟» ، سأل رحيم ابن خالته . أردف : «لا يحتاج من لديهم أغنام ، وماعز ، إلى تبغ . أليس كذلك؟» .

«أدخَّنتَ بعْراً قطُّ ، يا رحيم؟» ، سأله كيهات .

«مرة واحدة» ، رد رحيم .

«كيف كان؟» ، سأله كيهات .

«كنكاح نعجة» ، رد رحيم ضاحكاً .

ضحك ابن خالته وهو يغطي رأسه بوشاحه الأبيض ذي الخطوط السود متقاطعة مربَّعات ممغوطة من زواياها .

التفت كيهات إلى الشاب الخجول :

- أجلبتَ كيساً من بَعر الأغنام لابن خالتك؟

«أفضِّل بعْرَ الماعز» ، قال رحيم .

«ما الفرق بين لفافة من بعر الماعز وأخرى من بعْر النعاج؟» ، سأله كيهات .

غمغم رحيم مبتسماً . التفت إلى ابن خالته وهو يمد يده اليمنى إليه ، ممسكاً باليسرى مقود دراجته الهوائية :

- أمعك بعرٌ؟

«لا بعر معي» ، رد إدريس بنبرٍ زاد الخجل فيه .

مطَّ رحيم شفته السفلى :

- لا بعر مع ابن خالتي للأسف ، يا كيهات . كنتُ أذقْتُك نكهة تبغ لم يعرفها إنسان .

أطلق كيهات تنهيدةً متحسِّرة ، طويلة :

- لا نكاحَ معزاة إذاً . لا نكاحَ نعجة .

«كن صادقاً ، يا كيهات . لا يخلو جيبك من لفافة تبغ» ، عقَّب رحيم . سلَّم الدراجة إلى ابن خالته . تقدم من كيهات يحاصره . مد يده إلى سترته .

«ماذا تفعل؟» ، سأله كيهات مبدياً بعضَ الاستياء .

«دعْني أتحسَّس جيوبك» ، رد رحيم .

«لماذا لا تحمل معك لفافة تبغ ، يا رحيم؟» ، سأله كيهات وهو يبعد يدَ زميله من لَمْسِ سترته .

«لا أقاوم ، يا كيهات . ما دام في جيبي لفافة تبغ ، تحكُّ الجنُّ رئتيَّ . دخان التبغ يطرد من رئتيَّ الجنَّ» ، رد رحيم .

«أنت أول ساحر يطرد الجن بدخان التبغ . اكتُبْ ذلك حتى لا تضيع وصْفَتُك الطبية . قد تصير ذات يوم مؤلِّفاً من مؤلِّفي كتب الجن» ، عقَّب كيهات .

تنهَّد رحيم مستسلماً . دسَّ يده في جيب سترته الداخلي . استخرج لفافةَ تبغ مصنوعة يدوياً ، عليها بقعةُ زيت صغيرة تشرَّبَها ورقُها الرقيق .

ابتسم كيهات محدقاً إلى رحيم يشعل اللفافة بقداحة :

- أتبغُ هذه اللفافة مقلي بالزيت؟

«مقلي بالزيت ، أو بالسمن ، أو بِذَرْق الدجاج ، لن يتغير شيء . التبغ يبقى طاهراً بأية نكهة كان» ، رد رحيم . غمز زميله : «حتى لو كانت النكهةُ كافرة ، يبقى التبغ طاهراً» . أغمض عينيه متلذِّذَ الخيال بنزول الدخان الطاهر إلى رئتيه . أردف : «سرقتُ هذه اللفافة من كيس أمي وهي تقلي الكوسا» . التفت إلى الشاب الخجول إدريس : «من كيس خالتك» ، أكَّد مَصْدرَ اللفافة . مدَّها إلى كيهات مسترسلاً : «إدريس لا يدخن . أهذا معقول؟ راعٍ لا يدخن . النعاج تمشي معه وهي تدخن ، أما إدريس فلا يدخن» .

«النعاج لا تدخن» ، عقَّب إدريس الخجول العينين بنبرٍ بريء من صوته الخفيض .

«ما أدراك؟» ، سأله رحيم . أردف : «النعاج تدخن من وراء ظهرك» . مدَّ يده اليسرى صوب كيهات : «تنشَّقتَ من الدخان أكثر مما تتسع له

رئتاك. أتختزن الدخان بين أضلاعك أيضاً، خارج رئتيك؟».

أعاد كيهات اللفافة إلى رحيم. هزَّ رأسه متأسفاً:

- على البشرية كلها، أطفالاً، وشباناً، وشيوخاً، ذكوراً، وإناثاً، أن تدخن، حتى الملائكة أيضاً.

«اسمعْ، يا كيهات»، قال رحيم. «قيل إن مدير مدرسة البشرية الأول، والدُنا آدم، أكل ثماراً من شجرة محظورٌ عليه أكلُ ثمرها، فعوقب طرْداً من الجنة إلى أرض قامشلو».

«قامشلو قريبة من جبل جُودي»، قدَّم كيهات تفسيراً غيرَ مفهوم السياق، كأنه أراد، ربما، القول إن آدم نزل في أرض قريبة من القامشلي، وليس فيها.

«جبل جودي؟ أنزل آدم على جبل جودي مع جدتك حواء؟»، تساءل رحيم.

«سفينة نوح استقرت على جبل جودي بعدما غاض الطوفان»، رد كيهات.

«أنت خبير في التاريخ، يا كيهات»، عقَّب رحيم. تساءل: «ماذا كانت الشجرة التي أكل أبوك آدم من ثمرتها؟ لا أحد يعرف»، قال رحيم.

«أتعتقد أنها كانت شجرة تبغ؟»، سأله كيهات.

«قطعاً كانت شجرة تبغ»، أكّد رحيم.

«هل التبغ ثمرة؟»، سأله كيهات.

«كان ثمرة في الجنة»، رد رحيم.

«التبغ ورق، يا أستاذ الزراعة. وورقه لا ينمو على الشجر، بل على سويقات كسيقان النبات»، قال كيهات.

«أكثيرٌ على الله أن ينمو ورقُ النبات على شجرٍ في الجنة؟»، سأله رحيم.

«لا ، أبداً» ، عقَّب كيهات تأكيداً على اقتدار الله أن يصنع ما يشاء .

«دخَّن أبو البشرية التبغَ في فردوسه ، فطُرد منها» ، قال رحيم . وضع راحة يده اليمنى على جبينه وهو ينفث الدخان من منخريه : «عرف أبونا الأول ما هو التبغ . علَّمه الله كل شيء لَّما خلقه من طين . الماءُ الذي عجبن به التراب ، في خَلْقه آدمَ من صلصالٍ ، كان هو المعرفة بكل شيء حتى بالتبغ» .

«أتتهمني بمعرفة التاريخ ، يا أبا الحقائق الدينية؟» ، عقَّب كيهات . مدَّ يده إلى رحيم يطلب نَشْقَةً جديدة من اللفافة . حدق متأملاً عنق زميله : «ما هذا الخط الملتف حول عنقك؟» .

أمال رحيم رأسه إلى اليسار كمن أطربه سماعُ نغم . وضع يده اليسرى على عنقه فوق الخيط الأسود ، المجدول . سحبه رويداً رويداً من طوق قميصه الصوف تحت سترته .

«ما هذا؟» ، تساءل كيهات مبتسماً وهو يرى نهاية الخيط الذي طوق به رحيم عنقه . أردف بنبرٍ مستغرب فيه فضولٌ : «صليب؟!» .

صليب خشبي صغيرٌ ظهر معلقاً بالخيط المجدول ، الذي اتخذه رحيم قِلادةً .

ضحك إدريس ، مشيراً بيده اليسرى إلى الصليب في عنق ابن خالته ، ممسكاً باليمنى مقود الدراجة الهوائية :

- رحيم صار مسيحياً .

ابتسم كيهات ابتسامته الملتبسة حين لا يفهم . تمتم :

- ما هذا؟

«صليب» ، رد رحيم .

«أعرف أنه صليب ، يا أستاذَ التبغ» ، عقَّب كيهات . «لماذا تتقلَّد صليباً؟» .

«ستنجح خطتي ، يا كيهات» ، رد رحيم .

«ما خطتك؟» ، سأله كيهات .

«أن أبدو مسيحياً في حي السريان» ، رد رحيم . أردف : «إن صادفتْ عطلةٌ يومَ أحد ذهبتُ إلى الكنيسة» .

«محتال» ، تمتم كيهات مكتشفاً لعبةَ رحيم الصبيانية : «أتغوي المسيحيات؟» .

تنهَّد رحيم مبتسماً :

– أنا على وشك أن أغوي ، يا كيهات . يلزمني أن أدخل الكنيسة مع المصلين ذاتَ أحد .

«إذهبْ إلى المسجد . ذلك أسهل» ، عقَّب كيهات ساخراً .

«حين أرى فتيات يقصدن المسجد سأقصده بدوري مصلِّياً» ، قال رحيم . هزَّ رأسه متأسفاً : «هؤلاء أجمل ، يا كيهات» .

«مَن؟» ، سأله كيهات .

«المسيحيات» ، رد رحيم ، مجيلاً بصره على الشارع ، يرى عن بعد بعضَ المارة معهم نساؤهم .

«ماذا عن اليهوديات؟» ، سأله كيهات بنبرِ لوعةٍ في صوته من رقرقة الصور تحمل لينا ذائبةً ماءً جارياً في ساقية خياله .

«لا تأخذني بعيداً» ، عقب رحيم .

«بعيداً؟» ، تمتم كيهات متسائلاً . «ما البعيد الذي تعنيه؟» .

«الحي اليهودي» ، رد رحيم .

«إنه يتاخم حيَّ مسيحياتك ، يا رحيم» ، عقَّب كيهات .

«قلبي هنا» ، قال رحيم . «دعْني مع قلبي هنا» . رفع الصليب إلى فمه . قبَّله ، ثم دسَّه من جديد تحت صدر قميصه الصوف .

أدار كيهات بصره إلى إدريس الصامت ، المبتسم . سأله :

- أجئتَ مع ابن خالتك النعجة تدلّه على عشبٍ في حي السريان؟
فتح إدريس الخجول فمه غيرَ فاهم .
مدَّ رحيم يده اليمنى ببقية لفافة التبغ إلى كيهات :
- استنشِق نَفَساً ، وتخيل نفْسَك معزاةً يدلها ابن خالتي على عشب في حي اليهود .
«سأستنشق نَفَساً ، وأتخيل نفسي في أمريكا» ، عقب كيهات .
«أمريكا؟» ، تمتم رحيم بنبْرٍ ساخر . «عندي كتاب قد ينفع أحوالَ الحالمين بالهرب من حظائر الماعز» .
«حظائر الماعز؟!» ، تمتم كيهات متسائلاً ، فرد رحيم :
- دولتك الرائعة .
«ما عنوان الكتاب؟» ، سأله كيهات ، فرد رحيم :
- دليل النائم إلى مزاد الأحلام .
«مزاد الأحلام؟» ، تساءل كيهات . «بِمَ يقايض المزايدون مقابل الأحلام في المزاد؟» .
«بأي شيء» ، رد رحيم . ضيَّق بين أجفانه : «أخبرتني عن دجاجات هُنَّ مُلكك» .
«بلى» ، قال كيهات .
«خذْ دجاجة معك إلى مزاد الأحلام» ، قال رحيم ضاحكاً . قرَّب وجهه من كيهات مدقِّقاً النظرَ إلى انتفاخ وسط أنفه : «أأنفك على ما يرام؟» .
«ليس تماماً» ، رد كيهات .
«كيف برزت هذه الانتفاخة فجاءةً على منتصف أنفك؟ ما به؟» ، سأله رحيم .
«هذا ليس انتفاخاً ، بل ورم خفيف» ، رد كيهات .

«ليكن ما تشاء . أنفك متورم من وسطه» ، عقَّب رحيم .
«كيف لم تلاحظ ذلك طوالَ هذه الوقفة ، يا رحيم؟» ، سأله كيهات .
«أقسم بالله أنني لم أنظر إلى أنفك طوالَ هذا الوقت» ، أكَّد رحيم سببَ سهوه . أردف : «كنتُ أنظر إلى جيوبك أفيها تبغ أمْ لا» .
لن يشرح كيهات كيف نفرَ الجلدُ متورِّماً قليلاً وسط قصبة أنفه . لقد ضرب ذلك الموضع بالمسطرة أربع مرات قبل يوم . الحدبة الخفيفة وسط أنف لينا ألهمتْه أن يضرب ، للمرة التي لا يعرف عددها ، وسط أنفه بحدٍّ المسطرة الخشبية يريده أن يتورَّم ، فيشبه أنفُه أنفَها .
«هه» ، غمغم رحيم . «من لَكَمَك على أنفك؟» .
«دجاجاتي» ، رد كيهات .
«ماذا يُرِدْنَ؟ إنهن شهيرات من كثرة حديثك عنهن» ، عقَّب رحيم .
«يُرِدن الخروج في تظاهرة» ، رد كيهات .
«ما مطالبهن؟ تحرير أثيوبيا؟» ، سأله رحيم .
«مطالبهن سرِّيَّة» ، أوضحَ كيهات . أردف بالعربية : «يتدربن الآن على شعار : لا صوت يعلو فوق صوت الديك» .
«لا صوت يعلو فوق ثغاء الماعز» ، عقَّب رحيم يجاري زميله في مزاحه ، باللغة العربية .
«لا صوت يعلو فوق قأْقَأة دجاجاتي» ، قال كيهات يبادل زميله السخريةَ الفكِهة .
«لا صوت يعلو فوق صوت الرمل . لا خلودَ إلاَّ خلود الرمل» ، قال رحيم بالعربية . نظر إلى ابن خالته : «أتفهم اللغة العربية؟» .
«نعم» ، رد إدريس بعفوية .
«وأغنامُك أيضاً؟» ، سأله رحيم .
«أغنامي يفهمن باللغة التركية» ، رد إدريس بابتسامة زاد عرضُها .

حدق رحيم من جديد إلى أنف كيهات، فتجاهل كيهات نظرته. سأله:

- من علمك هذا الشعار؟

«أيُّ شعار؟»، سأله رحيم.

«لا خلودَ إلاَّ صوت الرمل»، رد كيهات.

صحَّح رحيم الجملةَ بالعربية:

- لا صوت يعلو فوق صوت الرمل. لا خلود إلاَّ خلود الرمل.

«من أين لك هذا الشعار؟»، سأله كيهات.

«أتظنه يصْلُح شعاراً في تظاهرة؟»، سأل رحيم زميلَه بنبرٍ فخور في صوته.

لم يرد كيهات، بل تأملَ وجهَ رحيم المتطاول الأسمر، الذي مدَّ سبَّابته اليسرى صوب أنفه متسائلاً:

- مَن ضربك هنا؟

أبعد كيهات وجهه. لمس بسبابة يده اليسرى موضع الورم الخفيف وسط قصبة أنفه، مرخياً بصره إلى حذاء إدريس:

- مَن صبغ لك هذا الحذاء؟

«أنا»، رد إدريس.

كان حذاؤه بنياً فاتحاً في الأرجح، طُليَ بصبغ أحمر فوق لونه الأصل فبدا غريباً. تفحَّص كيهات الحذاء أكثر:

- أهذا ورق ظاهر من طوْقَيْ فردتي حذائك؟

خفض إدريس بصره إلى قدميه. ردَّ:

- إنه ورق جرائد.

«لماذا تضع ورق جرائد في حذائك؟»، سأله كيهات.

«في أخمصَيٍّ الفردتين ثقبان»، رد إدريس.

«قد يمنع الورق تسرُّب التراب إلى الحذاء . ماذا عن المطر؟» ، سأله كيهات .

كثيرون من الشبان الصغار ، ممن لا اقتدار لآبائهم على شراء أحذية جديدة ، يحتفظون بأحذيتهم القديمة حتى الرَّمق الأخير . أيْ أن ينفصل العَقِبان عن النعليْنِ ، وينفتق مقدَّم الحذاء فتقاً لا ينصلح ؛ وأن تنبَرِدَ المساميرُ الصغار الضامَّةُ جلدَ الأخمصين إلى جسم الحذاء ممحوَّةً من تساحُقِها على مبرد الإسفلت . يحشون الأحذية ، إن تهرَّأت أخامصها ورقَّتْ حتى انثقبت ، بالورق وِقاءً من الحصى والتراب . لكن إن أمطرت السماءُ ، وسال الماء على الطرق ، استحالَ الورقُ في الأحذية عجيناً .

«أصْلِحْ حذاءك السحريَّ ، يا إدريس» ، اقترح كيهات على الشاب الراعي ، الخجول .

«يريد الإسكافي نصفَ ليرة لرتْق حذائه» ، عقَّب رحيم . أردف مستهجناً : «نصف ليرة؟» .

«أحَدَثَ لك أن سددْتَ ثقوباً في باطن حذائك بالورق ، يا رحيم؟» ، سأله كيهات ، فرد رحيم :

– مرة واحدة ، بورق من دفتر الجغرافيا .

«إنها مضْيَعة لورق دفترك» ، عقب كيهات . «لماذا ليس ورق الجرائد المبتذلة في دولتنا؟» .

«أحبُّ ورق دفتر الجغرافيا» ، رد رحيم .

«أتبتذل دفترك من شدَّة حبك له؟» ، سأله كيهات . أردف : «هذا نوع جديد من الغرام بالورق» .

هرَّ رحيم كقطَّة يستجمع السببَ :

– كلما نظرتُ إلى الخرائط أدركتُ أن الشرقَ جهةٌ خطأ .

«أهذا شعار جديد يصلح للهتاف به في تظاهرة؟» ، سأله كيهات .

أضاف : «ترجِمْه إلى العربية» .

«دعْنا من التظاهرات» ، قال رحيم بنبرٍ متبرِّم . حدق إلى عيني كيهات متفحصاً . ابتسم : «سأتزوج مسيحيةً ذات يوم» . دسَّ يده اليمنى في جيب سترته الداخلي . استخرج لفافة تبغ . صرَّ على اسنانه مؤكِّداً : «سأتزوج مسيحية ، وأشرب الكثير من الجعة . الجعةُ تُسمِّن» . هرَّ هريراً خافتاً : «أريد أن أصير بديناً ، يا كيهات» .

كثيرٌ من الثرثرات ـ المُصفَّاة في مُنْخُل ما قبل الظهيرةِ ، الأنيسةِ من لقاء الزميلين ـ رافقَ خيالَ كيهات في العودة إلى البيت بثقلٍ مالح من خبرٍ سينقله إلى أخيه موسى .

«لا فيلم يصْلُح للمشاهدة هذه الجمعة» ، قال كيهات لأخيه المنتظر عودته قبل الظهيرة ببشارةٍ مًّا .

«لا فيلم؟ ماذا تعني؟» ، تساءل موسى خالي الوجه من استياءٍ .

«افلام بليدة . لا جديد» ، شرح كيهات . أمعن النظر إلى وجه أخيه الهادئ . تساءل : «ما بك؟» .

«لا شيء» ، ردَّ موسى المنكبُّ على تحريك ما في القِدْر على نار مَوْقِدِ الغاز .

«أأنت على ما يرام؟» ، عاد كيهات يسأل أخاه مستغرباً هدوءه بعد سماعه النبأ عن الأفلام .

«أتراني مريضاً؟» ، أبدى موسى استهجانَه سؤالَ أخيه .

«ماذا في القِدْر؟» ، سأله كيهات مقترباً يتشمَّم البخار .

«فاصوليا» ، ردَّ موسى .

بوغت كيهات كأنه خُدِع :

– ممَّن اشتريتم اللحم؟

نظر موسى إلى أمه المنشغلة بترتيب بعض الحوائج :

- فاصوليا بلا لحم .

«لماذا تحرِّكها؟» ، سأله كيهات ، فرد موسى :

- لتبتعد كل حبة فاصوليا عن الأخرى .

«ما الغاية من ذلك ، أيها العبقري؟» ، سأله كيهات ، فرد موسى :

- أُحْدِث انشقاقاً في حزب الفاصوليا .

ابتسم كيهات . رفع يد أخيه بالمِغرفة عن قِدْر الفاصوليا ببعض الدَّهش في عينيه . أغلق القِدر بغطائها . تساءل من جديد :

- ما بك حقاً ، يا موسى؟

«مابك أنت تسألني كثيراً عن حالي؟» ، سأل موسى أخاه بنبرٍ مستغرب سؤالَه المتكرر .

«لا فيلم اليوم» ، قال كيهات كأنه يحرِّض أخاه على انفعال صاحبٍ توقَّعه في عودته من شارع دُور السينما مخذولاً

«لا فيلم . ليكُن» ، ردَّ موسى هادئاً .

«ألن تصرخ؟ ألن تشتم أحداً؟» ، سأله كيهات .

«لماذا سأصرخ؟» ، عقَّب موسى . أغمض عينيه : « لقد استقلتُ اليوم» .

«مِمَّ استقلتَ؟» ، سأله أخوه ، فرد موسى :

- من حزب البرجوازية .

«متى صرتَ برجوازياً لتستقيل؟» ، سأله كيهات .

«بقرار منِّي صرتُ برجوازياً . بقرار منِّي استقلتُ» ، رد موسى .

«ما الحزب الجديد الذي ستنتسب إليه؟» ، سأله كيهات .

«لم أحْسِمْ بعد» ، رد موسى .

«لمن قدَّمتَ استقالتك من حزب البرجوازية؟» ، سأله أخوه ، فردَّ موسى :

- قدَّمتُها إليَّ .

رفع كيهات بصره إلى أمه . سألها :

- أين أبي؟

«أين تظنه يكون؟» ، ردت أمه من غير نظر إليه . «إنه في مقهى التجَّار» .

أخرج موسى سكِّيناً مطوياً من جيب بنطاله . أراها أخاه :

- ما رأيك؟

«سكين قديم» ، عقَّب كيهات وهو يتفحص السكين المطوي من وسطه ، بمقبض أحمر ، وحلقة لفتْحه وطَيِّه .

«لا يهم» ، ردَّ موسى راضياً عن سكينه الذي إن نشره جذباً للحلقة في وسطه سُمِعت طقطقاتُه .

«بِكَم اشتريته؟» ، سأله كيهات ، فردَّ موسى :

- قايضْتُه بمشط ، وبصورة طرْزان .

«مَن ستقتل به؟» ، سأله كيهات ساخراً ، فردَّ موسى :

- سأقود بها انقلاباً في الدولة .

«مَن هُم أتباعُك؟» ، سأله كيهات ، فردَّ موسى :

- كلُّ الممثلين الذين أحببتُ أفلامهم .

«ماذا ستسمي جمهوريتك الجديدة؟» ، سأله كيهات ، فردَّ موسى :

- جمهورية ملوك السينما .

يوم السبت اللاحق بيوم الجمعة الذي صرح موسى فيه باسم جمهوريته ، لم يحسم كيهات قراره ، بعد انصرافه من المدرسة : أيزور منزل راحيل ، أم يؤجِّل الزيارة ذلك الأسبوع؟ ورقة الحروف العبرية مخبَّأة داخل ماسورة مقود دراجة أبيه . جازف كيهات في اختياره المَخبأ الغريب ، الذي لا داعي له . نزع الغلاف المطاط عن مقبض المقود سَحْباً بأناةٍ . دسَّ في

الماسورة ورقته السرية ، وأعاد الغلاف المقبض إلى موضعه .

قبل أربعة أيام اختار المَخبأ . أبوه يأخذ الدراجة إلى السوق ، ويعود بها فيركنها في زاوية من كوخ التنور . أنه أمرٌ كاللهو أن يخبئ كيهات الورقة في تجويف مقود الدراجة الهوائية . إثارةٌ مَّا شاءها كيهات ليشغل بها قرارَه المتردد في أخذ الورقة إلى لينا .هو والورقة على مواعيد من الإخفاء والإظهار . كل موضع في غرفته يصْلُح مخبأً للورقة . كل كتاب يصلح مخبأً للورقة . فراشه يصلح مخبأً . خزانة ثيابه وثياب أخيه تصلح مخبأً . لكنه آثر هذه المرة أن يذهب بعيداً في خطَّة إخفائها . وقد قرر ، في عودته من المدرسة إلى البيت ، بعد الظهر بقليل ، أن يستخرج الورقة نهائياً من ذلك المَخبأ الذي لم يفهم ، هو نفسُه ، ما الذي أوحى إلى خياله أن يختاره لإخفاء ورقته .

ربما أرادَ كيهات الحروفَ قريبة من يد أبيه مُطبِقةً على مقبض المقود في دراجة هيركوليس . أفي الأمر مغزىً دفين؟ يريد كيهات ـ ربما ـ إشراكَ أحد في سرِّه ، لكن قَطْعاً ، ليس إشراكَ أبيه . إنما ها هو قد وضع سرَّه تحت راحة يد أبيه ؛ تحت إحساس الجِلْد في راحة أبيه بالفراغ في جوف ماسورةِ مقود الدراجة .

ليس مهماً أن يفهم كيهات سببَ رغبته المثيرة ، الغريبة ، في اختيار المخبأ الغريب لورقته كما يفعل الجواسيس في أفلام شاهدها . أراد أن يفاجئ نفْسه بتلك الحروف ملتجأةً إلى ظلام في الماسورة المعدن . حروف ومعدن . حروف عبرية تنتقل في ماسورة المقوَد إلى السوق ، وتعود من ثم إلى البيت . حروف تنام طوال الليل في كوخ التنُّور . حروفٌ تعجن لقلب كيهات عجيناً قد يُنْضِجُه وَقْدُ أعماقه المُسجَّرة رغيفاً يتقاسمه مع لينا على مائدة العشاء العاشق .

كانت السماء غائمة ، تنذر بالمطر ، ثم لا تلبث أن تتراجع ، في

المسافة من المدرسة إلى بيت كيهات . السماء هي هكذا ، على كل حال . السماءُ كلمة جارحة للتعبير عن ذعر الأرض من نفْسها ، بل هي تعبير عن الفخ الذي سقطت فيه الأرضُ مكسورةَ القدمين . السماء تتراجع عادةً لتنقضَّ مُطبِقةً بإحكام قاس ـ من ثم ـ على الأرض ، ضغْطاً عليها من موضع جرحها الذي رأَفقها في النشوء فصارت أرضاً . جرحُ الأرض العتيقُ ، العريقُ ، هو ـ أبداً ـ تحت يد السماء تضغط عليه ، فيكاد يغمى على الأرض وَجَعاً ، أو ترخي يدها عنه فتتنفَّس الأرضُ مستريحةً .

أكان للسماءِ غائمةً قَدْرٌ من تأثيرها على تشتت قرار كيهات أن يزور منزل راحيل ، أو لا يزوره؟ كيهات بات مرهَقاً ، في الأرجح ، من تسويفه لعرض الورقة على لينا ؛ من تأجيله الأمرَ متردداً ؛ من خوفه أن يُخْذَل خذلاناً لن تنجو منه سنونُ عقله القادمة ؛ من أن يضيعَ قلبُه إن خذلتْه لينا ، مُذْ قلبُه هو لينا .

تناول كيهات غذاءه ـ غذاءَ السبت ـ مع أبيه وأمه وأخيه : معكرونة مسلوقة غطَّتها أمه بتسع بيضات مقلية لم تجد سواها عند البقال الحلبي ، الذي يملك بيضاً للبيع فيما دجاجات كيهات لم يعُدْن يبِضنَ . لم يقاوم سؤاله :

– لماذا لا تبيض دجاجاتي هذه الأيام ، يا أمي؟ نحن في الربيع . الدجاج يبيض في الربيع .

رفعت أمه كتفيها تستلهم من عقلها تخميناً :

– يلزمنهن رِقىً ، ربما ، نعلِّقها إلى أعناقهن . إنه خوفهن من الجن ، أو هو حسد الحاسديْنَ .

«لا ، يا أمي» ، تدخَّل موسى . حدق مبتسماً ، مفتوح الفم باللقمة فيه ، إلى كيهات .

«لماذ تحدِّق إليَّ هكذا؟» ، سأله كيهات .

«حان الوقت ، يا عزيزي» ، رد موسى .
«حان وقتُ ماذا؟» ، تساءل كيهات ، فردَّ موسى :
- الذبح .
«لن تُذبح دجاجة من هؤلاء الدجاجات إلاَّ يومَ الاحتفال بتخرُّجك من الجامعة» ، عقَّب كيهات ساخراً .
«أيستطيع موسى الذهاب إلى الجامعة؟» ، سألته أمه بنبرٍ بريئ ، فردَّ كيهات :
- بالتأكيد ، يا أمي . سيمنحه أتباعُه شهادة فخرية في جمهورية ملوك السينما . سيعود ابنُك إليك أستاذاً ، قائداً ، نبيَّ حزب .
«نبيُّ حزب؟» ، تساءل الأب أوسي .
«كل حزب يحتاج إلى نبي ، حتى الحزب الشيوعي ، وحزب الكفار» ، رد كيهات .
«مَن حزب الكفار؟» ، سأله أبوه ، فرد كيهات مبتسماً لأخيه موسى :
- حزب جمهورية ملوك السينما .
«لماذا هو حزبٌ كافر؟» ، سأله موسى ، فردَّ كيهات محدقاً إلى أبيه :
- ألا يقول حميد الزنابيلي ، الذي أعمل في دكانه صيفاً ، إن الممثلين كفَّار؟
«لا أفهم في فتاوى الشرع» ، رد أبوه .
أدار كيهات بصره من جديد إلى أخيه :
- تستطيع أن ترغم أتباعك على إشهار إسلامهم في جمهوريتك .
حدق موسى مفتوح الفم إلى أخيه . ابتسم :
- سآخذ أتباعي الكفار إلى مؤذن المسجد الصغير الشيوعي . قد يُقنِعهم بالإسلام دِيناً .
«ستبدِّل إسم جمهوريتك حينئذ» ، عقب كيهات .

«ماذا سيكون اسمها؟» ، سأله موسى ، فرد كيهات :

– جمهورية ملوك السينما المؤمنين .

حين أنهت العائلة غداءها ، تسلل كيهات إلى كوخ التنور ، حيث رَكَنَ أبوه دراجته الهوائية . أدار الغلاف المطَّاطَ ، الأنبوب ، على مقبض المقود اليمين مراراً لسحبه بأناة عن الماسورة الحديدية . نزعَ غلافَ المقبض الأسطوانيَّ . حدق إلى جوف الماسورة المعتم . هَرَّ استياءً : كانت الورقة قد غاصت في الماسورة أبْعَدَ بإصبع من فوهتها . أدخل كيهات إصبعه السبابة في جوف الماسورة . لمست أُنملتُه طرفَ الورقة ، لكنه لم يتمكن من سحبها . حاول مراراً ، فأحسَّ الورقة تغوص أكثر في عمق الماسورة . كاد يصرخ حَنَقاً أنه لم يتحسَّب لحدوث شيء كذاك . وضعَ غلافَ مقبض الدراجة على كتف التنور . غادر الكوخ إلى حقل الورد . نظر إلى نافذة غرفة أبويه يتأكد أنْ لا أحد يراه منها . تخيَّر غصناً رفيعاً كسره من الموضع المتصل في نهايته بشوكة . عاد إلى كوخ التنُّور . أدخل العود في جوف ماسورة المقبض آملاً أن تتمكن الشوكة في نهايته من التقاط الورقة كما يلتقط الشَّصُّ الأسماك .

كاد كيهات يزعق استياءً من نفْسه حين تفحَّص عمقَ الماسورة ليرى إن سُحبت الورقةُ . لم يتمكن العودُ من الورقة ولو قليلاً ، بل باتت مختفية تماماً . هرع إلى علبة الكبريت قرب قارورة الكاز ، التي كانت للجعة أصلاً ، من نُفاية القوارير يرميها جارهم السرياني سورين بعد شربها . أشعل عوداً . قرَّبه من فوهة ماسورة مقود الدراجة مستطلعاً عن كثب ، بتحديق شديد إلى جوفها : لا شيء . لم يبصر كيهات شيئاً من أثر الورقة . لقد انزلقت أعمق ، بالتأكيد ، إلى المنعطف المقوَّس من امتداد المقود إلى أسفل الدراجة . لا أمل .

خبط كيهات بقبضة يده اليمنى على فخذه اليمنى يأساً . أعاد

الغلاف المطاط الأسطوانيَّ إلى موضعه ضغطاً عليه ، فألْبَسَه مقبضَ المقود .

عصفت الكآبة بأعماق كيهات ، بل غمره إحساسٌ بنكد الحظّ . لكنه حسمَ قراره ، أخيراً ، من دافعٍ طارئ لم يفهمه ، في أن يزور منزل راحيل عصراً .

عبر كيهات الشارعين بمنعطفاتهما الفاصلة بين موضع منزل أهله ومنزل راحيل . صار على سويّة الإسفلت المتجه مستقيماً إلى الجنوب ، صوب بيت بنحاس المهاجر بعياله خُلْسةً ، فصودِرَ البيتُ . استقرت فيه عائلة من آلِ هزّاع المعروفين بانخراطهم في سِلك شرطة البادية يجوبونها دورياتٍ على الجِمال . لكن الفرقة العسكرية هذه توسّعت فروعاً فغزت القرى والمدن ، بجلافة وفظاظة أرهبتا القلوبَ .

أدار كيهات وجهه غرباً وهو يعبر بوابة حانوت بنحاس التي خُلعت عنها مساميرُ نجمته الغريبة ، وبوابة منزله ، في اتجاه بيت راحيل . توقف . عاد أدراجه إلى مفترق الشارع . نظر إلى السماء بغيومها المترددة مثله في الإعتراف بمقدار المطر في خزائن ثيابها المائية . استدار شرقاً . اتجه إلى عمق الحي اليهودي حيثُ السوق .

كئيباً كان وقتُ العصر الرمادي ، الداكن ، كأنَّ المغيب يسرق منه وسامةَ الألق الأخير في ضياء النهار . كئيباً كان السوق المقفر بحوانيته المغلقة البوابات . الروائحُ المعهودة من اختيار القرون جسارةَ الروائح ، والأفاويح ، أغلقت على نفْسِها بأقفال الأثير الساكن . ما من شيء أذاعَ في السوق سحرَ ما يحتويه ، ذلك العصرَ المتكسر في خيال كيهات شظايا حروفاً من لغات الأسرار المعتمة .

لم يوغل كيهات طويلاً في شارع السوق من جنوبه إلى شماله . بعد ستة منعطفات من ملتقيات الشوارع بعضها ببعض هَمَّ بالانعطاف غرباً ليعود إلى البيت . لمح ، بغتةً ، شخصين خارجين من منعطَف في شرق

السوق . لم يكن صعباً على كيهات أن يخمن مَن هما . توقف راصداً مشيةَ الشخصين في اتجاه الشمال من السوق ، متجاوريْنِ كتفاً تلامسُ كتفاً أو تكاد ، يتخاطبان بحركات سريعة من الأيدي ، ومن التفاتات وجه أحدهما إلى الآخر .

إنهما الكهل بنيامين ، والشاب البدوي نبهان ، على عجلة في سيرهما . أسرع كيهات خطوهُ ، غير آبه إن استدارا فرأياه . غضبٌ مَّا نزل ، من الغشاء الرقيق بين قحف رأسه ودماغه ، إلى لسانه . هَمَّ بمناداتهما ، ثم استدرك سائلاً نفسه :

- ماذا سأقول لهما؟

افترض كيهات أن بنيامين ونبهان توقفا ، إذا ناداهما ، ملتفتين إليه .

«أين أنتما ذاهبان؟» ، ذلك هو السؤال قد يطرحه عليهما بداهةً .

«إلى منزل تبرَّع نبهان لساكنيه أن يخدمهم إن أرادوا» ، قد يردُّ بنيامين .

ربما انبرى نبهان إلى الرد على سؤال كيهات قائلاً :

- نحن ذاهبان إلى جهنم . أسترافقنا؟

«سأرافقكما» ، قد يرد كيهات .

«أين هو الإذن؟» ، قد يسأله نبهان ، فيسأله كيهات مستغرباً :

- الإذن؟

«الإذن بمرافقتنا إلى جهنم» ، قد يرد نبهان بنبرٍ من لهجته البدوية .

«ما نوع الإذن؟» ، قد يسأله كيهات .

«الإذن ، الذي يشبه الترخيص لحيازة بندقية صيد» ، قد يرد نبهان .

«إذنٌ ترخيصٌ؟» ، قد يتساءل كيهات .

«نعم» ، قد يرد نبهان ، ويوضح أكثر : «إذن بمرافقتنا إلى جهنم ، وترخيص للإقامة فيها» .

«لم أفهم وجه الفرق بين الإذن بالمرافقة إلى جهنم، والترخيص للإقامة فيها»، قد يعقّب كيهات، ويستطرد: «مفهومٌ الحصول على إذن بالمرافقة إلى جهنم، لكنَّ كلمة «الترخيص» للإقامة فيها غير مناسبة».

«ما الكلمة المناسبة إذاً؟»، قد يسأله نبهان، فيرد كيهات:

- كلمة «العقد» بدلاً من «الترخيص». العقد للإقامة في جهنم كعقد استئجار منزل مثلاً، ليس في قامشلو طبعاً، بل في أمريكا. في قامشلو لا عقود لاستئجار البيوت.

«لم تفهم»، قد يعقّب نبهان. «عنيتُ بكلمة الترخيص أن تتحصَّل تشريعاً بالبناء».

«لبناء ماذا؟»، قد يسأله كيهات، فيرد نبهان:

- لبناء منزل في جهنم.

«ممن علي أن أستحصل الإذنَ بمرافقتكما إلى الجحيم، والترخيصَ ببناء منزل فيها؟»، قد يسأله كيهات، فيرد نبهان:

- من فرع الحزب في المدينة.

قد يتدخل الكهل بنيامين، المصغي في فتور إلى محاورتهما:

- أخبرْني، لماذا تتعقبنا، يا كيهات؟

«لِمَ يتتبَّع شخصٌ شخصاً آخر كاللص؟»، قد يسأل كيهاتُ الكهلَ بنيامين.

«كاللص؟»، قد يستغرب بنيامين.

«تعبيري لم يكن صحيحاً. عنيتُ أن يتعقَّب شخصٌ شخصاً في خُلسةٍ منه ليعرف أين هو ذاهب»، قد يرد كيهات.

«هذا يعني أنك تتعقبنا، لكن ليس كلص»، قد يعلِّق بنيامين، فيؤكد له كيهات:

- بالطبع، لستُ لصاً.

«ماذا يعني أنك تتعقبنا ولستَ لصاً؟» ، قد يسأله بنيامين ، فيرد كيهات بإيجاز :

- الفضول .

«ما الفضول الذي عندك؟ فضول إلى ماذا ، يا كيهات؟» ، قد يسأله بنيامين ، فيرد كيهات :

- لماذا أنتما معاً؟

«شرحتُ لك قبلاً أن نبهانَ يعرض على اليهود في الحي أن يخدمهم يوم السبت إن أرادوا» ، قد يرد بنيامين .

«أنت تخفي شيئاً ، أيها السيد بنيامين» ، قد يعقِّب كيهات .

«ما الذي أخفيه؟» ، قد يسأله بنيامين ، ذو اللحية الرمادية المدبَّبة .

«لا أعرف» ، قد يرد كيهات .

«أستظل تتعقَّبنا؟» ، قد يسأله بنيامين ، فيرد كيهات :

- نعم .

«لماذا؟» ، قد يسأله بنيامين ، فيرد كيهات :

- لأقتل نبهان .

عند ذلك المنعطَف من المحاورة المفتَرَضَة تنبَّه كيهات إلى رغبة دفينة في أعماقه للانتقام من نبهان . حاول أن يتراجع عن تلك الرغبة فلم يطاوعه خيالُه : به رغبةٌ ـ حقاً ـ في قتل نبهانَ انتقاماً منه على ما لا يعرف . تمتم وهو يتعقَّب الشخصين المتجهين شمالاً :

- سأقتل ابنَ القحبة .

سوريا معتادة على القتل فيها . جنودٌ كُثر أُرسلوا إلى الحرب ليُقتلوا ، محمولين على صواعق الخططِ الخطأ ، المُفتَضَحة ، في دولة مُفتَضَحة ، مُعلَنَةِ الأسرار الحربية ، مُخترقَةٍ بجسَّاسي شؤونها ، من عظام حزبها الإيمانِ ببعثِ الأمة الواحدة ، حتى قبعات قادتها العسكريين . إرسالُ الجنود إلى

الحرب بلا غطاء رغبةٌ عادية يتدبَّر بها القادةُ الأخطاءَ لتبرير الإطاحة بقادة آخرين . قتلٌ رخيصُ البزور يستنبت به قادةٌ ضروراتِ خططهم للاقتصاص من قادة آخرين انقلاباً عليهم ، بتحميلهم مسؤولية أن تكون بزور القتل رخيصةً . لكن القتل - في استئثار المنقلبيْنَ عنفاً دموياً على أقرانٍ قادةٍ من حزبهم ، ومن جيشهم ، بالحُكْم - يبقى بخساً لا يرتفع ثمنه .

رغبة القتل عادية في التوسُّل إلى تدميرِ خصم ، والاستئثارِ بمُلْك ، والسيادة مطلقةً لا تُحاسَب إن أخطأ الأسيادُ . أخطاؤهم «جيدة» ، متضامنةٌ متحالفة مع أسياد «جيدين» في احترام الخطأ ، وتوقير الخطأ ، ومنح الخطأ وزارةً من مناصب الدولة العليا ، كوزارة الخارجية مثلاً ، أو الداخلية مثلاً ، أو الدفاع . بل ربما قُلِّد الخطأُ منصبَ رئاسة الحكومة التي يديرها سيدٌ رئيس ، وتديرها أمه ، وأخته ، وأخوه ، وأقرباؤه الأقربون .

الرغبة في القتل عادية . غير أن الموت بات بلا معنى في أيام كيهات ، من تعاقب العصور على القتل في تاريخ دولته . خُذِلَ الموتُ بتكراره . لن يدافع الموت عن استحقاقهِ شرفَ الفَرادة ، وعن جدارته بالفَرادة في سيرورة الكائنات . بات الموت يستسلم للامعنى كالإنسان .

الرغبة إلى القتل عادية إرضاءً للفطرة الأولى في الإنسان ، بالنازع فيه إلى البقاء حياً ، محصَّناً ، مصوناً ، مرهوباً ، محتكِراً . كيهات كان على قُرب أنملتين من كل صنف من أصناف الرغبة في القتل ، إلاّ الاستئثار بحُكْم دولته السورية . ذلك لم يخطر ببال رغائبه . نبهان البدوي بات يرتاد منزل راحيل الذي ظنَّه كيهات حصْناً حكراً على خدماته . نبهان متجوِّل مع بنيامين الوسيط في إدخاله أيَّ منزل يشاء . من أين التقط بنيامين ذلك الشابَّ البدوي؟ كيف عثر ذلك الشاب على بنيامين تحديداً لعرض خدماته على اليهود أيام السبوت؟

ربما كان على رغبة كيهات في القتل أن تنصرف إلى الكهل بنيامين ،

لاستقدامه غريباً هو نبهان إلى منزل راحيل ، الذي ظنَّه من مَحميَّات قلبه . لكنَّ كيهات لم يحصِّن محميَّة قلبه بالاعتراف للينا عن أيِّ شيء من لواعجه ، ليطمئنَّ - إنِ أعترفَ ورضيتْ باعترافه - إلى امتلاكه ما لا يستطيع نبهان أن يزاحمه عليه ، وما لن يستطيع بنيامين أن يقود غريباً ليستولي عليه . نعم . نبهان «غريب» في تصنيف كيهات نفسَه صديقاً لمنزل راحيل . آه ، لو اعترف للينا لحقَّ له ذلك ربما . استدرك شطط رغبته في القتل : إنه بلا حقوق بعدُ ليحمي حقوقه .

هَرَّ عقلُ كيهات كقطةٍ استشعرت خطراً على جِرائها . افترض أنه استوقف بنيامين ، ونبهان في ملاحقته لهما عن بُعدٍ صوب شمال السوق اليهودية ، صارخاً :

- ماذا تريد مني ، يا نبهان؟

قد يلتفت إليه نبهان هادئَ الملامح ، سائلاً :

- ما الذي تظنني أريده منك؟

«تعرف ما الذي أقصده» ، قد يرد كيهات .

قد يلتفت نبهان إلى الكهل بنيامين متسائلاً :

- لا أفهم أسئلة هذا الكردي . أتفْهمها؟

قد يرد بنيامين :

- ماذا تريد من نبهان ، يا كيهات؟

«أن لا يزور منزل راحيل» ، قد يرد كيهات ، فيسأله بنيامين :

- ماذا عنك؟ أنت تزور منزل راحيل أيضاً .

«إنه غريب عن الحي» ، قد يعقِّب كيهات ، فيرد بنيامين :

- لم يعد غريباً .

قد يمتعض كيهات من استحضار بنيامين ردوداً معقولة في تبريرها ، فيحتدم :

- أرى على وجهه سيماءَ الحِيلة .

«الحِيلة؟» ، قد يتساءل الكهل بنيامين ، فيلتفت محدقاً إلى وجه الشاب البَدوي ، مضيفاً : «ما الفِراسة التي تستجلي بها سِمات الحيلة على الوجوه ، يا كيهات؟» . وقد لا ينتظر ردَّ كيهات فيستطرد : «كيف ترى سِماتِ وجهي؟» .

«لا أرى وجهك حين أنظر إليك» ، قد يرد كيهات .

«ماذا ترى إذاً؟» ، قد يسأله بنيامين ، فيرد كيهات :

- أرى وساطةً غير عادلة .

«ما هو غيرُ العادل فيها؟» ، قد يسأله بنيامين .

«أن تتوسط للمجيء بغريب إلى منازل هذا الحيِّ يعرض خدماته عليهم» ، قد يرد كيهات ، مضيفاً : «لماذا لم يعرض خدماته بنفسه من دون وساطتك؟» .

«أتبرَّعت لراحيل بخدماتك من غير وسيط؟» ، قد يسأله بنيامين ، فيرد كيهات :

- نعم .

«أحياناً يكون شخصٌ مَّا قَدَرَ شخصٍ آخر» ، قد يعقِّب بنيامين .

«أَمَا تقوله فيه ربطٌ بما تعتقده من اكتمال الخَلْق؟» ، قد يسأله كيهات ، فيبتسم بنيامين متطلعاً إلى نبهان :

- هذا الشاب مولعٌ بالبحث عن روابط .

«روابط ماذا بماذا؟» ، قد يتساءل نبهان .

«روابط أشياء بأشياء تحيِّره ، وتستفزُّه» ، قد يرد بنيامين .

«أيهمُّنا أن نعرف بِمَ يفكر هذا البطل ، الذي يتعقَّبنا في شارع ليس مُلْكَ أبيه ، يا سيد بنيامين؟» ، قد يسأل نبهانُ الرجلَ الكهل .

«علينا تدبيرُ تسوية ما دام يتعقبنا» ، قد يرد بنيامين .

«تسوية؟» ، قد يكرر نبهانُ الكلمةَ مُستغلِقَةَ الفهم عليه . «ما التسوية المطلوبة ، يا سيد بنيامين؟» ، وقد يضيف : «بين مَن ومَن؟» .

«ذلك ما أفكر فيه ، ولا أجد مَخْرجاً لتعريفه» ، قد يرد بنيامين .

«في تعريف ماذا؟» ، قد يتساءل نبهان ، فيرد بنيامين :

- مَن هو كيهات .

قد يهأْهئُ نبهان ساخراً :

- أستطيع الإلقاء به إلى القطط في حديقة فرع الحزب .

«قطط؟» ، قد يتساءل كيهات ، متوجهاً بصوته إلى الشاب البدوي ، فيرد نبهان :

- نحتفظ دائماً بقطط في حدائق فرع الحزب .

«لم أفهم علاقة القطط بحديقة فرع الحزب . ألكل فرع من حزبكم حديقةٌ في مباني مكاتبهم؟» ، قد يتساءل كيهات .

«الفروع التي تتخذ مساكن أرضية لمكاتبها ،وليس الشقق في عمارات» ، قد يرد نبهان .

«لمْ أفهم بعد علاقة القطط بحدائق فروع حزبكم» ، قد يعقِّب كيهات .

«أمور كثيرة لن تفهمها ، كما لا أفهم لِمَ تتعقَّبنا في هذا السوق؟» ، قد يتساءل نبهان .

«أنا لا أقتفيك . أنت ترغمني على اقتفائك» ، قد يرد كيهات .

«أنت لا تتعقبني وحدي ، بل تتعقبنا نحن الإثنين» ، قد يقول نبهان ، ملتفتاً إلى بنيامين يسأله في فضولٍ :

- أتفهم شيئاً من لغة هذا الكردي؟

«إنه يحدثنا بالعربية» ، قد يرد بنيامين .

«أهذه لغة عربية؟» ، قد يتساءل نبهان محدِّقاً إلى كيهات . وقد

يضيف : «لو كانت لغة عربية لفهمتُها» .

«دعْك منه» ، قد يعقِّب بنيامين . «لدينا ما ينبغي إنجازه» ، ويسحب نبهانَ من كُمٍّ سترته مكمليْن سيرَهما .

كان كيهات قد أبطأ مشيه ، سارحَ الفكر في اختلاقه المحاورة المفترَضة وهو يتعقب بنيامين ونبهان ، ثقيلَ الخيال على بعضِ التشتُّت في جمع المعاني ، المنفصلة أطرافاً عن أطراف كقمصان مفكوكة الأزرار يتلاعبُ بها الهواء خَفْقاً . فكَّر إن كان تدبيره للمحاورة المفترضة ، على ذلك النحو ، تقْنع أحداً لو حصلت حقاً بينه وبين بنيامين ونبهان . كلَّم نفسه :

- أسئلتي المفترضة جيدة إلى درجة لا أملك أجوبة مفترضة عليها .

لا . لم يخترع كيهات تلك الجملة . إنها تخصُّ معلم الرسم ، الذي يستطيب كلماته المرصوصة على نسق لا يتبدل : «انظروا إلى كل شيء بعيني الفنان» . قولتُه هذه تعني أمراً واحداً : أن يضيِّق المرءُ بين أجفانه ، فيحصر أيَّ مشهد يراه في خيط رقيق تنضغط فيه الأشكال ، والمساحات ، مغبَّشةً من تقليص الرؤية إلى حدٍّ مُختزَل ، فقيرٍ في الكشف ، مذ الأشياء واضحة للعين ما دامت لم يُضيَّق بين جفنيها .

كلما رسم التلامذة خطوطاً أُوْلَيات ـ تقليداً لما يرسمه المعلم على اللوح ـ قلَّصوا بين أجفان عيونهم تحديقاً إلى ما يرسمون ، بتدقيقٍ صارم في الذي قَدِروا عليه من إخضاع الأشكال ، والألوان ، والفضاءات للميثاق بين الرسام وفنِّه .

«لتكنْ أسئلة اللون جيدة إلى درجة لا تملك اللوحةُ أجوبة عليها» ، قال معلم الرسم . جملة يمكن تحويرُها على أيِّ نحوٍ يشاء مَن يريد تحويرها . وقد فعلها كيهات قليلاً في تعقُّبه ، عصر يوم السبت ، بنيامينَ ونبهانَ ، إلى الجهة الشمال من الحي اليهودي .

قبل ثلاثة أسابيع ، ربما ، نقشَ معلم الرسم جملتَه الحكيمة ـ بلا

اختصاص للحكمة فيها ـ على لوح الأسماع في درس الرسم. جلس على الكرسي وراء المنضدة الصغيرة في الغرفة، بعد طلبه من التلاميذ أن يرسم كل واحد، بحسب ما يوافق خيالَه، لوحةَ إعلان عن معرض الصيف السنوي الذي تقيمه بلدية المدينة. معرض يُقام في الحديقة العامة، يكاد يكون حكراً على عروض من آلات مبتكَرة صمَّمها المحترفون الأرمن بوحي من تخصُّصهم في أشعار الآلات، وأساطير معادنها، وقوانينها الواقعية من فيزياء الحركة. آلاتٌ نفائسُ ـ محرِّكاتٌ، ومولِّداتُ شحنٍ للكهرباء، ومراوحُ ضخام، وبهارجُ تزيينات تُضاء كهربائياً ـ في مدينةٍ من شمال سوريا. عروض تصحبها، في مساءات المعرض، أغانٍ من أم كلثوم، «سيدة الغناء العربي» المُضجر، المستهين بالأسماع تكراراً مملاً، فظاً في المَلالة. غناءٌ يفترض أولاً أن السامعَ أطرشُ، أو خفيف السمع ثانياً، أو بليد ينبغي تذكيره بالتكرار المُستفْظَع ثالثاً. غناءٌ بلاهةٌ للبلهاء.

فكَّر كل تلميذ في صوغ إعلانٍ عن معرض الصيف رسماً. أنزلوا الأقلام الملونة إلى أوراق الدفاتر الخشنة ذوات المسام.

أدار المعلم بصره على التلاميذ في جلوسه. أوحى إليه السكونُ القوي ـ من هدوء الأوراق بين أيدي التلاميذ، ومن صوت الأقلام في عبورها على الورق لا تريد تعكير صفاء بياضها إلاَّ بأحلام من رفاهية اللون ـ كلماتٍ تساليَ، في الأرجح، من ضجر انتظاره لنضوج الأشكال ثماراً على شجرها في دفاتر الرسم.

«أتعلمون»، قالها، فرفع التلامذة وجوههم عن دفاترهم مترقبين. «كنت سأقول شيئاً عن الحياة. لكنْ سأسألكم أولاً: من منكم سافر في طائرة؟».

تبادل التلامذة النظرات مبتسمين على سخرية في أعماقهم من سؤال المعلم.

«ماذا؟» ، سألهم معلم الرسم مستهجناً ذلك السكوتَ المعتصَر بابتسامات التلامذة .

نهض طوني ، التلميذ المنتسب أباً وإخوة إلى الحزب . تكلم :

- لا احد منا سافر في طائرة ، يا أستاذ .

«عندكم مطار» ، عقَّب المعلم الأصلع ، ، المتأنق في بزَّته الداكنة الزرقة ، وربطة العنق الحمراء .

«يسافر القائمقام ، وضباط الجيش ، والموظفون الكبار ، وبعض التجار ، من مطارنا إلى دمشق» ، عقَّب التلميذ الحزبي . أردف : «حضر رئيسان بطائرتيهما إلى مطارنا من دمشق . الرئيس نور الدين الأتاسي ، وجمال عبد الناصر أيام الوحدة بين سوريا ومصر ، يا أستاذ» .

غمغم معلم الرسم مستدركاً ركاكة سؤاله عن سفر تلامذة في الطائرة . لكنه لم يتراجع عن تحويل سؤاله إلى ما يشبه حقاً من حقوقهم :

- عليكم أن تسألوا آباءكم عن رحلة في الطائرة .

نهض تلميذ رافعاً يده يستأذن المعلم بالكلام . تكلمَ :

- أهناك حقٌّ قانوني للتلميذ أن يرغم أباه على رحلة بالطائرة ، ولو مرة في العمر ، يا أستاذ ، حتى لو كان أبوه مفلساً؟

«حقٌّ قانوني؟» ، تساءل المعلم . استدرك نبرَ السخرية في تساؤل التلميذ : «ليس هذا الدرس موضعاً للمعابثات» .

ارتبك التلميذ من النبرة الزجر في رد المعلم . أقسَمَ :

- والله ، يا أستاذ ، أنا جادٌّ ولستُ أهْذرُ .

«إذن أقول لك : يحق للتلميذ أن يرغم أباه على رحلة في الطائرة إلى قمة جبل هيمالايا ، لأن القانون يخوِّله أن يُرغم أباه» ، عقَّب المعلم ساخراً . رفرف بيده اليمنى إلى أعلى وإلى أسفل إشارة للتلميذ أن يجلس فجلس . عاد بالكلام إلى مطلع السؤال عن السفر بالطائرة . أوضح مقصده

من الأمر: «سألتكم مَن منكم سافر بالطائرة لأصل إلى عرْض فكرتي». صَمَت لحظة. أوْصَلَ كلمات جداً بكلمات قالها قبل المحاورة مع التلميذين: «أتعلمون أن الحياة أشبه بقاعة للمسافرين في مطار». تريَّث في إكمال مقصده. أضاف مقدِّمة ضرورية شرْحاً: «جئت من دمشق بالطائرة إلى مطار القامشلي حين عُيِّنتُ معلماً، وأغادر في نهاية كل عام دراسي إلى دمشق من مطاركم. في قاعة الانتظار كانت معي جريدة. قرأت كل شيء فيها، ثم انصرفتُ إلى حلِّ لغز الكلمات المتقاطعة في صفحتها الأخيرة». توقف مديراً عينيه على وجوه التلاميذ.

نهض التلميذ المنتسب إلى الحزب نهوضاً رصيناً كجنديٍّ حقٍّ. رفع يده يستأذن المعلم في الكلام.

«نعم، يا طوني»، قال المعلم مؤْذِناً للتلميذ.

«أكان حلُّ لغز الكلمات المتقاطعة صعباً في جريدة الحزب؟»، سأله طوني.

«لا. لم يكن صعباً»، ردَّ معلم الرسم.

«الكلمات المتقاطعة كلها متعلقة بالتاريخ، في صحيفة الحزب، يا أستاذ»، عقَّب طوني المكتنز اللحم، الواثق النظرات والنبر في صوته.

«نعم. كل ألغاز الكلمات المتقاطعة متعلقة بالتاريخ في صحيفة الحزب»، أكَّد معلم الرسم. أردف: «لماذا سألتني؟».

«أحبُّ حلَّ ألغاز الكلمات المتقاطعة في صحيفة الحزب كل يوم»، أوضح طوني. استرسل: «تصل الصحيفة بانتظام من دمشق إلى مطارنا».

«تصل الأعداد متأخرة يومين بعد صدورها»، عقَّب المعلم.

«ألغاز الكلمات المتقاطعة ليست أخباراً، يا أستاذ، حتى لو وصلت الجريدة متأخرة سنة بعد صدروها»، قال طوني.

«هذا هو الصواب»، عقَّب المعلم. عاد بلسانه إلى فكرته التي تكرِّر

تقطُّعُـهـا : «كـانـت تلك هي المرة الأولى التي أحل فـيـهـا لغـز كلمـات متقاطعة» ، قال . أردف : «كنت في قاعة الانتظار ولا شيء أفعله . تأجلت الرحلة أربع ساعات» . نهض عن الكرسي رافعاً يده اليسرى في تذمُّرٍ من نفْسه : «لماذا استطراداتي هذه؟ ما أردتُ قوله هو إن الحياة تشبه قاعةً في مطار» .

هأْهأَ التلامذة ، ليس استخفافاً بفكرة معلم الرسم ، بل استظرافاً لها .

نهض كيهات رافعاً يده يستأذن المعلم في الكلام ، فأجازه المعلمُ أن يتكلم .

«إن كانت الحياة تشبه قاعة انتظار في مطار ، يا أستاذ ، فنحن لم نعرف الحياة بعد» ، قال كيهات .

ابتسم معلم الرسم مستلطفاً تعليق تلميذه . هزَّ سبابتي يديه معاً للتأكيد :

- لم أقُلْ فكرتي بعد .

«عن الحياة ، يا أستاذ؟» ، سأله كيهات ، فرد المعلم :

- عن الحياة التي تشبه قاعة انتظار في المطار ، نحلُّ فيها لغز كلمات متقاطعة في جريدة . جئنا من اللامعنى إلى تلك القاعة ، ونغادرها في الطائرة إلى اللامعنى . في وقت الانتظار بين مكوثنا في القاعة ومغادرتنا لها نحلُّ لغز كلمات متقاطعة في جريدة إسمها الحياة .

«ماذا تعني ، يا أستاذ؟» ، سأل التلميذ طوني المعلمَ من غير رفع يده طلباً للإذن بالكلام . فرد المعلم :

- عنيتُ ما عنيتُه .

«هل الحزب بلا معنى ، يا أستاذ؟» ، سأله التلميذ طوني .

«الحزب؟!» ، بوغت المعلم بحشر التلميذ حزبَهُ في فكرة عن الحياة أنها شبيهة بقاعة انتظار في مطارٍ مَّا ، القادمُ إليها قادمٌ من اللامعنى ،

والمغادرُ مغادرٌ إلى اللامعنى . صعد الارتباك إلى عينيه فتوسعت أجفانهما . تمتم : «ما علاقة ما قلتُه بالحزب؟» .

«حين تكون الحياة بلا معنى يكون الحزب بلا معنى» ، رد طوني . غادر مقعده سائراً في الممر بين سطور المقاعد متوجهاً إلى الباب : «سأقول هذا للإدارة» .

انكمش جسد المعلم في ثيابه الأنيقة . أجال بصره على التلامذة مبتسماً من ضياعه في لعبة ثقيلة استحدثها له تلميذ في السادسة عشرة . ظلَّ أبلهَ الملامح بابتسامته الفارغة ، منحدراً بكيانه كله ، رويداً رويداً ، إلى فراغ ساخر . فتح فمه كأنما يهمُّ بإطلاق احتجاج ، أو دفاع عن نفسه ، فلم يطاوعه صوته في صوغ الكلمات . بقي هكذا ، متجمداً كالحَمَل تحت نظرة الذئب المتسلل من شعارات الحزب إلى حظيرته .

عاد طوني . نظر إلى المعلم ، مشيراً بحركة سريعة من ذراعه اليسرى إلى الوراء :

- المدير ينتظرك .

لم يعد معلم الرسم إلى المدرسة . ناب عنه المدير في الدروس ريثما تعيِّن وزارة التربية معلِّماً آخر لن يتحدث - قَطْعاً - عن حياة هي قاعةُ انتظار في المطار ، أو لغزٌ في كلمات متقاطعة يحلُّها المسافر بما تحمله من خرائب التاريخ وأنقاضه الذهبية ، في الصفحة الأخيرة من صحيفة الحزب .

كيهات ، في تعقبه بنيامين ونبهان ، استذكَر جملةً من تعبيرات معلم الرسم محوَّرة قليلاً : «أسئلتي جيدة إلى درجة لا أملك أجوبة مفترضة عليها» . تنهَّد راصداً الشخصين مسرعين شمالاً .

خطَرَ له أن يفاجئهما فيقابلهما وجهاً لوجه . انعطف عن ذلك الشارع ، الذي يسلكونه باستقامة ، إلى شارعٍ موازٍ آخر . ركض مجتازاً

تقاطعات أربعة شوارع ، ثم انتقل إلى الشارع نفسه الذي كانوا يسلكونه . فوجئ بنبهان وحده سائراً ، مثله كعدد آخر قليل من المارَّة . تلفَّت إلى الجهات كلها يستطلع شخص بنيامين فلم يجده . اتجه مباشرة ، في سيره المعكوس من الشمال إلى الجنوب ، صوب نبهان . وقف بإزائه إذ لاقاه مواجهةً على طَوار الشارع المتفلِّع الإسمنت .

أزاح نبهان نفسه يتفادى في سيره كيهات الواقف يعترضُه . فتح كيهات ذراعيه يستوقفه :

- مرحباً ، نبهان .

حدق إليه نبهان بنظرةٍ صارمةِ التفحُّص ، مستغربةٍ . تمتم :

- ماذا؟

«مرحباً» ، كرر كيهات الكلمة . أردف تأكيداً : «قلتُ : مرحباً» .

«مَن حضرتك؟» ، سأله نبهان مقطِّباً حاجبيه .

ابتسم كيهات بإحساسٍ من أن نبهان يمازحه . ردَّ :

- أنا رئيس جمهورية الكُونغو ، وتنزانيا ، وإمبراطور أثيوبيا .

«أأنت مهرِّج؟» ، سأله نبهان بنبرٍ محتقِرٍ .

«ما بك؟» ، عقَّب كيهات مستغرِباً ، متفاجئاً .

«ما بي أنا؟» ، تساءل نبهان . كرر سؤاله : «مَن حضرتك ، يا رئيس الروث؟» .

تقطَّعت ابتسامة كيهات بين ما حسبَه مزاحاً وبين ما لا نبرَ للمزاح فيه من صوت نبهان . سأله :

- أين بنيامين؟

«مَن؟» ، تساءل نبهان باستغراب .

«بنيامين» ، ردَّ كيهات ممتعضاً .

«أهو أخوك؟» ، سأله نبهان ساخراً .

«أخي؟» ، تساءل كيهات . أردف : «الكهل اليهودي الذي كان معك قبل قليل» .

«كهل يهودي؟» ، تمتم نبهان ماطاً عنقه . أضاف : «أأنت معتوه؟» .

«معتوه؟!» ، كرر كيهات الكلمة في استياء . قرَّب نفْسه من نبهان : «ما بك تتصنَّع أنك لا تعرفني ، ولا تعرف بنيامين؟» ، صمت لحظةً كلمْح قصير . أردف : «ربما ستنكر أنك تعرف الست راحيل أيضاً» .

«مَن؟» ، تساءل نبهان . «مَن راحيل هذه؟» .

«الستُّ راحيل» ، تمتم كيهات بلسان باتَ ينكمش من لعبة نبهان في الإنكار .

«مَن هي؟» ، كرر نبهان سؤاله .

«السيدة اليهودية ، بائعة اللحم» ، ردَّ كيهات كأنه يسخر من نفْسه في تذكير نبهانَ بما يعرفه نبهان .

«مَن الأول الذي سألتني عنه؟» ، سأله نبهان .

«بنيامين» ، رد كيهات .

«مَن هو بنيامين؟» ، كرر نبهان السؤال ذاتَه بنبرةِ احتقار .

«الكهل اليهودي» ، رد كيهات همساً ، متراقصَ النظر في تحديقه إلى نبهان كأن صورته تموج .

«ما أسئلتُك هذه عن يهود ، يا مَلِكَ الفجل؟» ، سأله نبهان . مدَّ يده اليسرى ممسكاً بردن سترة كيهات الأيمن : «تعالْ . سنتحدث بإسهاب عن يهودك هؤلاء في فرع الحزب» .

هُلِعَ كيهات . تمتم :

- لستُ يهودياً . هؤلاء ليسوا يهوديْ أنا . هُم يهود .

«تسألني عن اليهود ، ولستَ يهودياً؟» ، سأله نبهان .

«سألتك عن شخصين ، وليس عن كل اليهود» ، رد كيهات . أضاف :

«لستُ يهودياً» ، كرر كيهات إنكاره أن يكون يهودياً ، في توجُّسه الفائض من كلمات نبهان . تمتم : «أأنت تمازحني؟» .

«أمازحك؟ كيف تعرف اسمي؟» ، سأله نبهان .

«التقيتك في منزل راحيل» ، رد كيهات .

«فهمتُ لعبتك» ، عقَّب نبهان . «تعال معي» ، قال وهو يشد كيهات من رُدْن سترته .

«نبهان» ، تمتم كيهات مرتعد الجلد من مسير نملٍ تحته . «لم أقترف ذنباً» .

«مَن اتَّهمك أنك اقترفت ذنباً؟» ، سأله نبهان .

«لماذا ستأخذني إلى فرع الحزب؟» ، سأله كيهات ، فرد نبهان :

- لنتسلى قليلاً مع القطط في حديقة فرع الحزب .

«أرجوك يا نبهان . دعْني أرجع إلى البيت» ، توسل كيهات إلى الشاب البدوي .

«نبهان؟ أهكذا تخاطبني؟» ، عقَّب نبهان مستنكراً أن يُنادى بلفظ اسمه من غير لقب ربما . هكذا فهم كيهات استنكار الشاب البدوي .

«أيها الأستاذ نبهان . أيها المعلِّم نبهان . أيها السيد نبهان . أيها الرفيق نبهان» ، لفَظَ كيهات اسم نبهان مصحوباً بألقاب احترام شتَّى إرضاءً .

«لم تفهم ، يا ملك الفجل . لا تنادِني بهذا الإسم» ، قال نبهان .

«ما اسمك إذاً؟» ، تساءل كيهات ، فامتعض الشاب البدوي :

- أنت غبي حقاً .

«لستُ غبياً» ، عقَّب كيهات مستاءً من الإهانة .

«اسمي ليس نبهان . لا اسمَ آخر لي أيضاً . إسمي لا تعرفه ، يا مَلك القُنَّبيط» ، قال الشاب البدوي . أرخى يده عن ردن سترة كيهات منصرفاً على عجل .

التفت كيهات إلى نبهان المنصرف شمالاً ، متفاجئاً مندهشاً . ظلَّ جامداً في موضعه ، مثقوبَ الخيال ، متحيِّراً ، وسعيداً أيضاً أن الشاب البدوي تخلَّى عن جلبه إلى مبنى فرع الحزب لمداعبة القطط في حديقته .

في السبت التالي لم يذهب كيهات إلى منزل راحيل عارضاً خدماته . استأثر ـ في الساعات التي تلي انصرافه من المدرسة ، وتناوُلِ الغداء في البيت ـ بصحبة صديقه الأرمني بوغوس . كانت مصاحبته متتاليةً كالإعلان عن وداع وشيك لن يعقبه لقاء . قصدا «المركز الثقافي» في المدينة مراراً . بوغوس يقرأ كتباً في الردهة الواسعة للمبنى ذي الطبقة المستطيلة الواحدة ، القريب من سينما شهرزاد الصيفية ، فيما يكتفي كيهات باستعراض صحيفتي الحزب اليوميتين ، ومجلات أسبوعية يُفرج الحزبُ عن كل كلمة فيها برضى اختصاصِيِّيْه في قراءة الرموز ، والألغاز ، وتثبيت ألقاب العظماء من مخترعي آلاتِ مُعْتَقَدِ حزب الدولة ، التي لا تتوقف عن طحن الوجود بوقودٍ من المازوت ، أو الكاز ، أو البنزين ، أو الفحم مصنوعاً من حطب الحياة المختنقة بالدخان في مدافن صُنْع الفحم .

كيهات لا يقرأ الكتب ، إلا بعض القصص التاريخية ، والأسطورية ، لكنه يُعْجب بما يكتسبه لسان زميله الأرمني من اقتدارٍ على توليد اللَّطائف كلاماً يعقِّب عليه كيهات ، دائماً ، بتعبيره الأثير :

– كيف تعرف أن تتكلم هكذا ، يا بوغوس؟

كان بوغوس يغري ، في الأيام تلك ، زميله الكردي بالعودة إلى صيد الأسماك ، بعد تدفق المياه ربيعاً في المجرى المستمر فارغاً طوال الصيف ، بين ضفتَيْ نهر جَغْجَغ . عطلة الربيع تقترب . سُبات المدارس أسبوعين يقترب ، من غير أن تخفِّف المدارسُ مطاردتَها التلاميذَ : عليهم إنجاز واجبات من مراجعات دروسهم . قد لا تكون كثيرة ، لكنها تعكِّر المزاج قليلاً إنِ انشغل عقلُ الطالب بها .

سيمتطي كيهات دراجة أبيه . سيمتطي بوغوس دراجة أخيه . سيتوجهان إلى منعطف من ضفتي النهر جنوب المدينة ، على بُعد ساعة بالدراجتين الهوائيتين ، حيث خميلة من أشجار الكينا . مطلعُ الربيع ليس بوقت أنسب لصيد الأسماك . نهايتُه ربما . وإلى ذلك الحين الذي ينتظره الزميلان من العطلة ، يتدرَّبان بالمخاطبات على تخيُّلات من تصيُّدهما الأسماكَ بشَصَّيْن يعلِّقان عجينَ خبز إليهما ، أو بعض الديدان الخَراطين . يدلِّيان الخيطين من قصبتيهما في ماء النهر جالسين على العشب . ولربما حفرا أنصافَ جُوَر في الضفة ، وطوَّقاها بالحجارة مع ترك ثغرات قد تدخل منها الأسماكُ إلى الجُوَر ولا تهتدي إلى الخروج منها . صيدُهما قليل على ذلك النحو ، لكنهما لا يوفران خطةً كي يعودا إلى بيتيهما بصيد مَّا ؛ بأسماكٍ صغار من نهر جَغْجَغ ليست كالأسماك الكبار في نهر الفراتً ، ونهر الخابور : هما أوْفَرا نهرين حظاً بالمخلوقات الناطقة من زعانفها ، وليس من أفواهها .

«أنا واثق أن النهر لن يخذلنا في نيسان من هذا العام» ، أكَّد بوغوس لزميله كيهات . أردف : «هذا وداعي للنهر . سيكون كريماً» .

في يوم هو الإثنين الأخير ختاماً من شهر آذار ، أبصر كيهات احمراراً قوياً في عينيً بوغوس إذْ تقابلا في المدرسة صباحاً .

«ما بهما عيناك ، يا بوغوس؟» ، سأله كيهات ، فردَّ زميله :

– شربت حتى قبل نصف ساعة ثلاث لفافات من مسحوق أسبرين مذوَّباً في الماء .

«أأنت مريض؟» ، سأله كيهات ، فرد بوغوس :

– عندي خُمار ، يا ابن الأمة العربية .

«خُمار؟» ، تساءل كيهات ، فرد بوغوس :

– شربتُ كحولا البارحة . أنا مصدوع .

«أين؟» ، سأله كيهات ، فرد بوغوس معتصراً أجفانه من نقْر الصداع بمنقاره الحديد على يأفوخه :

– في البيت .

«كيف؟ أكنتَ وحدك؟» ، سأله كيهات مستغرباً ، فرد بوغوس :

– شربتُ عَرَقاً ، وجعة ، مع أهلي ، يا رجل . احتفلنا للمرة الرابعة بحصولنا على إذن للهجرة . كل أقربائنا حضروا حفْلَ البارحة . كلهم خرجوا من بيتنا سكارى .

«كيف هو شربُ الكحول ، يا بوغوس؟» ، سأله كيهات من فضول الرغبة الحبيسة إلى المحظور .

«لو لم يكتشف الإنسانُ الكحولَ لظلَّ حماراً» ، رد بوغوس .

«أتعني ذلك؟» ، سأله كيهات مبتسماً ، كأنما يهمُّ خيالُه أن يتذوق جرعة من الكحول .

«أبي يعني ذلك . هو مَن أطلق هذا التعليق من حُبِّه الكحول» ، رد بوغوس . أردف : «عنده تعبير آخر يعجبني» .

«ما هو؟» ، سأله كيهات ، فرد بوغوس :

– أغاني الملائكة بديعة في حمّامات الله .

«من أين تأتون ، أنتم الأرمن ، بكلام كهذا؟» ، تساءل كيهات معجباً .

لم يجب بوغوس . شغلتْه نقرةٌ جديدةٌ من منقار الصداع على دماغه .

«ما طعم الكحول؟ كيف هي في الفم؟» ، سأل كيهات زميله .

«المبتدئ يستصعب مذاقَ العَرَقِ حتى يتعوَّده . الجعة ألطفُ مذاقاً . إنها لذيذة . أحبُّ رغوتها» ، رد بوغوس .

«وما هذا الصداع الذي يعقب شرب الكحول؟» ، سأله كيهات ، فرد بوغوس :

- أكثرتُ . أنا مبتدئ .

«ستصير محترفَ شُرْب في أرمينيا» ، عقَّب كيهات ، فأيَّده بوغوس :

- يستطيع محترفُ شرْب الكحول القوية الإحتفاظَ بقلبه حياً بعد أربعين سنة من موته .

كحول قوية ، وخفيفة ، متنوِّعة ، رآها كيهات في الأقداح على المائدة في منزل راحيل ، حين زارها في السادس من نيسان .

كان يوم جمعة ، بدأ كيهات صباحَه المتأخر بزيارة حانوت راحيل لشراء لحم . وجده مقفلاً على غير عادته . تحيَّر وتوجَّس . اتجه إلى بوابة المنزل . قرعها أربع مرات كعادته في قرْعها . فُتِحت البوابة . ظهرت لينا بشعرٍ مُرخى ، طويل ، وبكحلٍ صاخب الزرقة على أجفان عينيها السوداوين ، المعتدلتين حجماً في العادة ، لكنْ بدتا كبيرتين ، للبياض فيهما ، من حول الحدقتين ، انتصارٌ على كل لون .

رفرف قلبُ كيهات بأربعة وأربعين جناحاً من أجنحة العصفور الطَّنَّان . تذكَّر الورقة المفقودة بالحروف العبرية عليها في باطن ماسورة مقود الدراجة . تمتم :

- مرحباً لينا .

«مرحباً» ، ردت لينا .

أدار كيهات وجهه صوب بوابة الحانوت متسائلاً :

- لِمَ الحانوت مغلق؟ جئتُ لشراء لحم .

«نحن في عيد بيْسَاح» ، ردت لينا .

«عيد؟» ، تمتم كيهات .

«نعم . عيد» ، ردت لينا .

«لماذا لم ألْحظ ذلك في السنة الماضية؟» ، تساءل كيهات .

«ربما لم تكن في سوريا» ، ردت لينا تُمازحه .

كاد كيهات أن يردَّ، عفوَ الخاطر، أنه كان في سوريا، ولم يغادرها حتى في حلمه. لكنه التزم الصمت المبتسم.

تداركت لينا صمته. قالت:

- لا لحم منذ أيام في الحانوت.

«فهمتُ»، تمتم كيهات. تراجع خطوة عن البوابة بعينين فيهما اعتذار عن عدم تذكُّره العيد. حرَّك يديه بحثاً عن كلمات لا يعرف ما المناسب منها موقفَه في تلك الوقفة. ارتجل سؤالاً:

- أسيكون في الحانوت لحم يوم الجمعة القادم؟

لم ترد لينا على سؤاله مباشرة، بل فاجأتْهُ:

- أتريد الحضور مساءً للأحتفال معنا بعيد الفصح بِيْسَح؟

ربما للقمر اقتدارُه، بالحيلة الفضية لضيائه، أن يروِّض الأيامَ مطيعةً في سلطته، تتنازل عن إكمال ساعاتها المحسوبة لكل يوم طولاً وقِصَراً. ولأن اليهودي يعتمد الشهور القمرية حساباً للزمن الأرضي ـ المضبوط على ساعة الزمن السماوي العادلة في منح الأيام زيادةً طولاً أو نقصاً قِصَراً ـ فالتساهل محتَمَلٍ في نقل أيام من أحد الأشهر إلى شهر يليه. بل ربما دمج اليهودي أجزاءَ من الأيام فيً أجزاء أُخَر من الأيام، فغدا آخرُ الشهر متنازلاً عن بعض حصَّته الزمنية لمطلع الشهر التالي عليه.

عيد الفصح بِيْسَح ـ الذي يحلُّ في اكتمال القمر الثاني من أقمار الإنسان، التي بلا حصر لعددها في الرمزيَّاتِ، كلُّ رمزيَّةٍ قمرٌ بنفسها لنفسها؛ ولكل امرئٍ، ودِين، وزمن، وجنونٍ كاستحالاًت الإنسان الذئب، أقمارٌ تخصُّهم ـ تختلف فيه اقتراب أيام آذار من أيام نيسان.

يُقال في التعريف البسيط لموقع عيد بيسَحْ، في القلادة الخرز التي تتدلى من عنق السنة على صدرها، إنه اليوم الختام من آذار وما يليه أسبوعاً من مطلع نيسان. بل تذهب الإنزلاقاتُ القمرية في التقويم إلى

اتصال العيد بالأيام الأواسط من نيسان . إنه عيدٌ ، على أية حال ، وصْلةٌ من ضرورة إيمان شهر آذار بشهر نيسان . يوماه الأول والأخيرمحظور فيهما العمل . الخمسة الأُخَر مباحة للتَّسرية والانشراح . عيدُ نشوء الأمة . خطواتُ التعب الكبير في الخروج من مصرَ فرعون . حياكةٌ بخيوطٍ من ماء البحر على رمل سيناء . نَسْجٌ للأمة . عجلةٌ في النشوء . خروجٌ من مصر على عجلةٍ لم يختمر فيها عجينُ اليهودي ليختبزه أرغفةً . كلَّ عيد ، من ذكرى الخروج ، لا يدع اليهودي عجينَه يختمر . يأكل رغيفه فطيراً . رغيفٌ سيقضم كيهات كسرةً منه في عودته مساءً إلى بيت راحيل ، احتفالاً بعيد الفصح ماشياً بأقدام الربيع في اتجاهات أعياد الربيع كلها .

أنفارٌ كُثر من الزائرين كانوا في غرفة راحيل وابنتها ، حين عاد كيهات إلى منزلهما على نداء الرغبة بثَّتْه لينا فيه . إنها ليلة «هسيدر» ـ ليلةُ بوح السماء للأرض أنها لن تفشي أيَّ سرٍّ تريد الأرضُ كتمانه ؛ لن تفشي دخائلَ المعاني من خَلْق الإنسان إلى بَدَده عودةً لا يعرف مطافَها إلاَّ تخميناً ، مُذ كلُّ دِينٍ تخمينٌ يستحصل به الإنسانُ تهدئةً لذعر قلبه من أبديةٍ لا نهاية لمطاف فيها ، مغلقة على ظلامٍ موحش ، أو على غيبوبة كالتي حفظتْه في ملحها قبل أن يولد .

شيءٌ مَّا سريٌّ ومعلن ، في الآن ذاته ، تنشَّقه كيهات بمنخري وجوده بين أناس لم يَفْطِن قطُّ إلى أعيادهم كيف تكون . على أطراف سَريرَيْ راحيل وابنتها جلس البعض . وجلس البعض على كَراس ، وعلى الأريكة الوحيدة ، وعلى الأرض فوق حشايا أُعِدَّ رُكنان من البيت للجلوس مريحاً عليها .

في هدوء ، بعد التحية برأسه إيماءً لراحيل وللبعض الآخر لا يعرفهم ، قَبِل كيهات ـ برضىً كرضى المسحور ـ ما اختارته لينا له من موضع في الغرفة :

– اجلسْ أرضاً قرب النافذة .

جلس كيهات أرضاً قرب النافذة . ترصَّدتْه الأعين . لحَظَتْه بعضُ الأعين ثم انصرفت عنه إلاَّ عينا بنيامين ، الذي انحنى على الأريكة صوب راحيل ، الجالسة قبالته على كرسي من كراسي المنضدة . سألها :

– مَن جاء بهذا؟

«لينا دعتْه» ، ردت راحيل ملتفتة إلى حيث يجلس كيهات .

«ما رغبةُ لينا هذه؟» ، تساءل بنيامين غير آبه لوصول الحروف العبرية إلى سمع من لا يفهمها .

«لينا» ، تمتم كيهات متطلعاً إلى الفتاة واقفة قرب النافذة ، إلى جواره ، وهي منصرفة البصر إلى الآخرين في انتظار البدء بمراسيم الحفل ، في المساءِ الظلِّ ممتداً من سطوعِ الشمس الأولى على جسد اليهودي ، في عبوره قاعَ البحر المنفلق مشياً على قدميه .

كيهات يعرف ، من تبليغ القرآن للأقاصيص ، شيئاً عن عبور النبي موسى ـ كليمِ اللهِ كلَّمهُ اللهُ بلسان الإنسان ـ البحرَ منفلقاً كرغيف الخبز يشقه أخوه موسى شطيرتين لطعامه . لكنه لم يفهم تلك النظرات من بنيامين إليه مصحوبةً بكلماته العبرية . لذا همسَ منادياً لينا ، فاستدارت الفتاة إليه في وقفتها المتهيئة لخدمة ضيوف البيت .

«أناديتني؟» ، سألته لينا منحنية قليلاً لتسمع همسَه .

«ماذا يقول السيد بنيامين وهو ينظر إليَّ؟» ، سألها كيهات .

«لم أسمعه» ، ردت لينا .

أرجع كيهات بصره إلى بنيامين ، الذي فتح كتاباً ذا غلاف بني ، من جلد خشن نُقِشت عليه الحروفُ ذهبيةً غائرة . بدأ بقراءة سطورٍ أُوَلَ فيه . أصغى الآخرون في وقار إلى صوته .

نهض كيهات واقفاً ، ليكون فمه أقرب إلى أذن لينا . أمال عنقه صوبها :

- ماذا يقرأ السيد بنيامين؟

«كتاب هجداه» ، ردت لينا في همس لا يكاد يُسمع .

«هجداه» ، ردد كيهات الحروف صامتةً في خياله . كتابٌ مُرشِدٌ في طقوس ليلة العيد لا عِلْمَ لخيال كيهات به .

قرأ بنيامين الكتاب العبري كاملاً . إصغاء الضيوف إليه كان كإصغاء أمِّ كيهات ، في بيت أبيها المشهود له بالبراعة في الختان ، إلى «السيرة النبوية» ، في عيد مولد النبي العربي ، تُتلى كاملةً . كيهات يرافقها كل سنة إلى ذلك الاستعراض البهيِّ عند جده تُستباح في ختامه الأطايبُ طعاماً ، وأشربةً سُكريَّة ، وحلاوى من أصناف شتَّى .

لا تَعْدِلُ غبطةَ الأرض بوجودها أرضاً ، ولا تَعْدِلُ غبطةَ السماء بوجودها سماءً - مذ خُلِقتا من لفظ الله للأسماء - أيةُ غبطةٍ إلاَّ تلك العظمى التي تفوق غبطتي الأرض والسماء ، وهي مولد سيدِ الإنس والجن محمد : ذلك ما يبثُّه كتابُ «السيرة النبوية» منتشياً .

بجَّلَ الله أنبياءه طُرّاً بالتفخيم : سمَّى موسى «كَليمَ الله» . سمَّى ابراهيم «خليلَ الله» . لكنه أوقف التخصيص بالحُبِّ خالصاً لمحمد فسماه «حبيبي» . ذلك تدوين قُدسيٌّ في سِجلِّ المسلم المُشتَرَك من سِيَرِ رسول إلهه إلى العالَمِيْن .

تقاطعت اللغة العبرية من حول كيهات ، ومن فوقه شبكةً من هَلَل العنكبوت القدموس أثثت بها عقولَ الأمم ، وطبائعَ مذاهبها من اللغات ، منذ الإنسان الناطق فالإنسان القارئ .

حدق كيهات إلى وجوه المتخاطبين ، حين تقاسمت الأيدي أقداحَ الكحول أنخاباً تُرفع على تمتماتٍ كالتكبير الخافت في فم المسلم المصلِّي . قرأ الكلمات في نسيج الأصوات على النحو الذي شاء خيالُه حراً في تركيب المعاني بحسب النبر على الألسنة . صامتاً تتبع بعينيه نَحْلَ

الحركات في الأجساد خارجاً من قفير تخمينه ، أو عائداً إليه . تطلَّع إلى الأحذية الكثر قرب الباب . لكنَّ أكثر ما استأثر به هو وجه بنيامين .

طنَّ عِرقُ التوجس في قلبه مذ تخيل نبهانَ داخلاً إلى منزل راحيل . استبق أيةَ مفاجأة قد تُذْعِره غيرةً . تقدم من الأريكة . مرَّ من وراء كرسي راحيل تتعقَّبه عينا بنيامين ، حتى صار إلى الجانب الأيسر منه . انحنى قليلاً :

– أمحتمَل ، أيها السيد بنيامين ، أن يحْضُر نبهان هذه الأمسية؟

تأمله بنيامين برهةً بوجهٍ مرفوع قبل أن يرد :

– ماذا تعتقد؟

«لا شيء» ، رد كيهات ملتفتاً بوجهه إلى راحيل .

«ربما يحضر كما حضرتَ» ، عقَّب بنيامين . تطلع إلى راحيل . سألها : «أدعوتِ نبهان إلى هذه الأمسية؟» .

«لا» ، ردت راحيل .

أبقى بنيامين بصره على وجه راحيل . سألها كَرَّةً ثانية :

– أدعتْه لينا؟

«لا» ، ردت راحيل .

أعاد بنيامين بصره إلى كيهات الواقف إلى يساره :

– لم يَدْعُه أحد . أنت محظوظ . لن يحضُرَ نبهان .

«رأيتكما معاً» ، قال كيهات .

«مَنْ؟» ، تساءل بنيامين .

«أنت ونبهان» ، رد كيهات .

«أين؟» ، تساءل بنيامين .

«رأيتمكا متجهين إلى شمال السوق اليهودي» ، رد كيهات .

«متى؟» ، سأله بنيامين .

«قبل سبْتيْنِ . كان الوقت عصراً» ، رد كيهات .

«ثم ماذا إن رأيتنا معاً؟ ما الغريب؟» ، سأله بنيامين متحسساً بيده لحيته الرمادية المدبَّبة .

همهم كيهات بصوت لا حروف فيه ، قبل أن يستجمع الحروفَ كلمات :

- الغريب أنني حين التقيتُ نبهان وحده ، بعدما افترقتما ، أنكر أنه يعرفك .

«ماذا؟» ، تساءل بنيامين . أردف بنبرٍ فيه استياء : «أكنتَ تستنطقه عن علاقتي به؟» .

«لا ، يا سيد بنيامين . فقط سألته عنك ، فأنكر أنه يعرفك» ، رد كيهات .

«لماذا سألته عنِّي؟» ، تساءل بنيامين .

«كنتما معاً . ثم التقيتُه ولم تكن معه . سألته عنك» ، رد كيهات .

«ربما هو لا يعرفني» ، عقَّب بنيامين .

فوجئ كيهات بذلك التعقيب . تساءل في استغراب :

- لا يعرفك؟

حدق بنيامين إلى راحيل . سألها سؤالاً غريباً :

- أيعرفني نبهان؟

وسعت راحيل بين أجفان عينيها استفساراً ، مترددة في الرد .

عجَّل كيهات بتعقيب على صمتها :

- قال نبهان أنه لا يعرف الست راحيل .

تبادل بنيامين وراحيل نظرة طويلة ، صامتة ، كأنما أرادا الإكتفاء بذلك القَدْر من المحاورة عن نبهان .

انعطف بنيامين بالكلام إلى شأن آخر :

- ألا تظنين ، يا راحيل ، أن على كيهات مشاطرتَنا جرعةً من النبيذ؟
لم تعقِّب راحيل على اقتراح بنيامين . رفعت قدحها بالنبيذ أحمرَ فيه صوب كيهات ، من مجلسها على الكرسي :
- خُذْ رشفةً .
ارتبك كيهات . على نحوٍ عفويٍّ وجَّه بصره إلى لينا الواقفة تحدِّث فتاةً أخرى .
لَحَظَتْه لينا . لَحَظَتْ نظرته المستنجدة بها . مشت خطوتين صوبه . سألته :
- أأنت مرتاح ، يا كيهات؟
«نعم . نعم» ، كرر كيهات ردَّه تأكيداً .
«سيشرب كيهات رشفة من النبيذ احتفالاً بعيدنا ، يا لينا» ، قالت راحيل وهي لم تزل رافعة قدحها صوب كيهات .
هأْهأت لينا محدقة إلى كيهات المُحْرَج . رفعت إصبعها تستوقفه :
- إنتظرْ .
اقتطعت من رغيف في سلة الخبز المغطاة بقماش خشن ما يعادل لقمة صغيرة . مدتها إلى كيهات :
- كُل من هذا الخبز الفطير أولاً .
تناول كيهات لقمة الخبز ، مبتسماً ابتسامته الملتبسة . مضغها .
«الآن يستطيع كيهات أن يرتشف بلْعةً من النبيذ» ، قالت لينا .
«تعبتْ ذراعي» ، غمغمت راحيل لم تزل يدها مرفوعة بقدح النبيذ صوب كيهات .
أمسك كيهات بقدح راحيل مفتوح الفم كالمُقْبل على امتحان . تجرَّع رشفةً قليلة بأطراف شفتيه . تلمَّظ يحاول تقديرَ مذاق ما شربه . ابتسم .
«لا يشرب المسلم خموراً إلاَّ في الجنة» ، قالت راحيل وهي تسترد

قدحها من يد كيهات . أردفت : «أنت الآن في الجنة» .

بعد طعام ، ورُبْع رشفة من النبيذ ، عاد كيهات إلى البيت طافحاً بلآلئ انشقت عنها صَدَفاتُ الأمسية . قَدْرٌ كاد لا يقوى على حمله من لآلئ الكنوز عاد به كيهات إلى البيت . كان مشتَّت الجسد تتجاذبه عذوبةٌ من يدَيْ عذوبة . كانت النجوم تتقطَّر حلاوة على كعكة روحه . كان قلبه قصعةَ قطائفَ ، وزَلابيةٍ ، وبرازقَ ، وبقلاوى ، ومهلَّبيَّة ، وقشدة بعسلٍ فيه القرفة . كل شيء من حولٍ كيهات ، ومن فوقه ، كان حلوَ المذاقً على لسان مسائه في العودة إلى البيت . حين بلغ البوابة ، وأمسك بمقبضها ، رُميت إليه كلمةٌ من نَسْل التذكير القاسي بإخلال صاحبِ وعدٍ بوعده :

- أيها الخائن .

كان ذلك صوت أخيه موسى قادماً مثله ، في عتمة المساء ، إلى البيت .

استدار كيهات إلى أخيه مستغرباً :

- أأنت تنتظرني؟

«لِمَ أنتظرك ، أيها الخائن؟» ، رد موسى وهو يسبق أخاه دخولاً من البوابة إلى باحة البيت .

خشخش الحصى تحت أقدام الأخوين متجهين إلى غرفتهما .

«أين كنت؟» ، سأل كيهات أخاه ، فرد موسى :

- حيث كنتَ أنت .

«كُن جاداً ، يا حمار» ، عقَّب كيهات .

«كنتُ حيث وعدتني أن تأخذني ، يا حمار» ، قال موسى .

«في السينما؟» ، تساءل كيهات .

«نعم . في السينما» ، رد موسى .

توقف كيهات عن مشيه على بُعد خطوة من باب غرفتهما :

- كيف ذهبت إلى السينما من دوني؟

«وعدتني بالعودة لتصحبني إلى السينما . لم ترجع أيها الخائن . ذهبتُ وحدي» ، رد موسى .

«وحدك؟» ، تساءل كيهات مستفطعاً . أردف : «منذ متى تذهب إلى السينما وحدك؟» .

«وحدي . مع زميليَّ نوح ، وعباس» ، رد موسى .

«كنتم ثلاثة . لم تكن وحدك» ، عقب كيهات .

«كنتُ مع زميليَّ ، لكن وحدي من دونك» ، قال موسى .

تسمَّر الأخوان في موضعيهما مصغيَيْنِ إلى صوت الأب منادياً :

- أين كنتما؟

«في السينما» ، رد كيهات .

«ألستما جائعين؟» ، سألهما أوسي من باب غرفته فتح أحدَ دفتيه مقدار شبر واحد .

«أكلنا فلافل» ، رد كيهات . وضع يده على كتف أخيه مبتسماً ، وهو يدفعه دفعاً رقيقاً صوب غرفتهما . فتح الباب . دخل أولاً يتبعه موسى .

«لم آكل فلافل» ، قال موسى وهو يخلع حذاءه .

«ماذا أكلتَ؟» ، سأله كيهات .

«شطيرة من الخبز فيها باذنجان مقلي ، من بائع المقالي على عربته أمام دار سينما غربيس» ، رد موسى .

«مَن أعطاك النقود؟» ، سأله كيهات .

التزم موسى الصمت في ضوء المصباح الكهربي . خلع سترته . رمى بها إلى سريره .

«لماذا لا تتكلم؟» ، سأله كيهات عاكفاً على إشعال النار في مدفأة الكاز .

«قلتُ لأبي إنك لن تشتري لي تذكرة للفيلم . أعطاني نصف ليرة» ، رد موسى .

«بِمَ اشتريتَ شطيرة الباذنجان المقلي؟» ، سأله كيهات ، فرد موسى :

- استدنْتُ ثلاثة فرنكات .

«أي فيلم شاهدتَ؟» ، سأله كيهات ، فرد موسى :

- صَلْبُ يسوع .

تكثر في أعياد الربيع عروض الأفلام مقتبسةً من «العهد القديم» ، و«العهد الجديد» معاً : «الرداء» . «كوفاديس» . «ديمتريوس والمصارعون» . «بن حور» . «شمشون ودليلة» . «الوصايا العشر» . «ديفيد وغوليات» . أفلام من الصناعة الأمريكية لم تَعُد ذلك الربيع إلى دور السينما في القامشلي ، وفي سوريا كلها ، بل استُبدِلت بأفلام من صناعة أوروبا غير الناطقة بالإنكليزية . هكذا حلَّ في دار سينما غربيس فيلم مكسيكي بعنوان «صَلبُ يسوع» ، بالأبيض والأسود ، مثلُهُ كأفلام مكسيكية أُخَر عن مصارعين في حلبات القرن العشرين ، يرتدون أقنعة لا يخلعونها ، تنكتم في عراكهم المحترف أنفاسُ المراهقين إعجاباً ، ويدوخون هلعاً حين يحارب المصارعون غزاةَ الشرِّ من مصَّاصات الدماء ومصَّاصيْهِ الوطاويطِ البشرية .

«أنا شاهدتُ فيلماً أمريكياً عن صلب يسوع المسيح» ، عقب كيهات .

«متى؟» ، تساءل موسى .

«قبل أن تولد» ، رد كيهات .

«كذاب» ، عقَّب موسى .

«كنتَ صغيراً جداً» ، صحَّح كيهات .

«أأحزنك الفيلم؟» ، سأله موسى ، فرد كيهات :

- نعم . كان محزناً .

«أبكيت؟» ، سأله موسى ، فرد كيهات :

– دمعتان . ثلاث . أربع . لا أتذكر . ماذا عنك؟ أبكيتَ؟

«لا» ، رد موسى . أردف بنبرٍ متأسف : «لم يكن ليسوع المسيح عضلٌ حين نزعوا ثيابه ، وصلبوه» .

استبدلَ الأخوان ثيابهما بمنامتيهما المخططتين خطوطاً زرقاً طولانية . انصرف موسى إلى أحد أعداد مجلة «المغامر» اللبنانية ، المصوَّرة ، يستعرضها في نَهَم على بصره ، جالساً فوق سريره . جلب كيهات دفتراً من محفظته المدرسية . جلس قريباً من المدفأة كسولة النار في مطلع نيسان . انكبَّ بالقلم الرصاص على ورقة يلمسها على حذرٍ في التدوين .

كان كيهات يكتب حروفاً ، على التحديد ، مراراً ويشطبها ، مستحضراً الكلمة العبرية «أحبك» بحروفها العشر المفقودة في ماسورة من هيكل دراجة أبيه الهوائية . لطالما تأمَّل الحروف التي كتبها له نعيم بخطٍّ قلمه الـ Tropen الملكيِّ التاج . ظنَّ أنه حفظ بعض تلك الحروف في موضعين من كيانه : في ذاكرته التي يختص بها جزء من دماغه الإنساني ، وفي ذاكرة لوعته التي يختص بها قلبُه .

تأففَ كيهات بنبرٍ مرتفع في صوته استياءً من انخذال ذاكرة دماغه ، وذاكرة قلبه ، في العثور على شكلٍ بعضٍ من أولئك الحروف العشر في الكلمة الجامحة ابتكرها الإنسان للمقامرة بحقيقته .

«ماذا بك؟» ، سأله موسى . «أتحلُّ مسأله في عِلم الجبر؟» .

التفت كيهات إلى أخيه . سأله :

– ما الأكثر صعوبة : حلُّ مسائل الجبر ، أم تعلُّم اللغات؟

«أنت معجب بالإشتراكية» ، رد موسى .

قلَّص كيهات بين جفني عينه اليسرى من ردِّ أخيه الغريب خارجَ أيِّ سياقٍ . عقَّب :

– أرى تأثير شطيرة الباذنجان ، المقلي في زيت فاسد ، على دماغك .

«عقلي ، يا أخي الإسكندر الأكبر ، باذنجانٌ مقلي ، بطاطا مقلية ، بندورة مقلية ، كوسا مقلية في زيتٍ بورجوازي» ، عقَّب موسى .

«ألم تستقِلْ من البرجوازية؟» ، سأله كيهات ، فرد موسى :

– استقلتُ منها قبل أن تولد ، يا عزيزي روبن هود .

«اظنُّك لم تزل شيوعياً» ، عقَّب كيهات بنبرٍ ساخر وهو يعود إلى رسم حروفٍ هاربة من شبكة ذاكرة دماغه ، وذاكرة قلبه .

«أَرأيتَ صورة للرفيق ستالين؟» ، سأل موسى أخاه .

«ستالين؟ صاحب الشاربين الكثين؟ نعم . رأيت صورته» ، ردَّ كيهات . أردف : «شممتُ رائحةَ اشتراكيةٍ دافئة كتبغ تركي في غليونه» .

«أنا معجب به» ، قال موسى .

لم يعقِّب كيهات على استطرادات أخيه في الثرثرة . أغمض عينيه يستحضر الحروف العبرية من قرارة الهاوية في خياله ـ خيالِ الصُّور .

«بمن أنت معجب ، يا كيهات؟» ، سأل موسى أخاه .

«أضجرتَ من مجلتك الرائعة؟» ، عقَّب كيهات .

«لن أضجر منها قط» ، رد موسى .

«من يعيرك هذه المجلة؟» ، سأل كيهات أخاه منحني الظهر على الورقة في جلوسه أرضاً .

«الماسونية» ، رد موسى من فوره .

«أفي مجلتك شيء عن الماسونيين؟» ، سأله كيهات ساخراً .

رفع موسى المجلة عالياً ، مفتوحة على صفحتين متقابلتين . نادى اخاه :

– ها هم الماسونيون .

استدار كيهات إلى أخيه يتطلع إلى صور من رسوم العوالم الأُوَل

للإنسان الصياد، المتوحش، حاملِ الهراوة، منتصباً أمام نمرين ضخمين، ذَوَي أنياب كأنياب الأفيال.

«رائع»، عقَّب كيهات في ضجر. عاد محدقاً إلى دفتره.

«ليتني امتلكتُ نمراً»، قال موسى متحسراً.

هزَّ كيهات رأسه في سخرية يتأسَّى لأخيه:

- ليتك امتلكت نمراً تركبه إلى المدرسة.

«سأمتلك نمراً ذات يوم»، عقَّب موسى بنبرٍ واثق.

علا تأفُّفُ كيهات في إخفاق القلم الرصاصِ من اقتفاء أيِّ أثر لحرف عبري. خبط براحة يده اليسرى على دفتره.

«ما الذي تتذوقه لتتأفف هكذا؟»، سأل موسى أخاه. أردف: «أتقلي مسائلَ الجبر في زيت فاسد؟».

استدار كيهات بجسده كله إلى أخيه. حدَّق إليه بعينين متسائلتين:

- لماذا لا تعرف اللغة العبرية؟

«ماذا؟»، غمغم موسى مستغرباً. «ألأصير جاسوساً؟».

«كلمة واحدة». تمتم كيهات. «حروف كلمة واحدة». أغمض أجفانه في قسوة من ضغط بعضها على بعض، بحثاً في سديم محجريه عن حرف واحد من الحروف العبرية.

«ما الكلمة الواحدة هذه؟»، سأله موسى في فضول، فرد كيهات:

- التي سأقولها ذات يوم.

«لمن ستقولها؟»، سأله موسى.

«سأقولها»، رد كيهات رداً ناقصاً.

«أستقولها لموشي دايان؟»، سأله موسى مهأْهِئاً.

قبل نزول عطلة الربيع بيوم واحد، في منتصف نيسان، ضيفاً أنيساً على أرواح التلاميذ، لحق كيهات بزميليه اليهوديين سمير ونعيم. أدركهما على

بُعد خمسين متراً من بوابة المدرسة في انصرافهم ، فوق الشريط الطويل ، المعشب الذي يتوسط الشارعَ العريضَ زينةً ، زُرعت فيه بعض أشجار العفص . زهور صُفر برية نَمَت في التراب الذي لم تستصلح فيه البلدية شيئاً كإمداده ، مثلاً ، بترابٍ مُسمَّد يغذِّيه ، داخل الشريط التزييني على طول منتصف الشارع ، من جنوبه المتصل بالعراء حتى شماله الذي ينتهي مستقيماً إلى ساحة «السبع بحرات» ، ذات الكُرة الإسمنت بثقوبها النوافير .

«نعيم» ، نادى كيهات زميله .

التفت إليه سمير ونعيم معاً من غير أن يتوقفا .

هرع كيهات إليهما فاتحاً دفتره الأزرق عن رسومِ حروفٍ . تطلَّع من حوله محاذِراً أن يرى دفتره أحد من التلامذة المنصَرفين . قرَّب الورقة المجرَّحة بآثار كتابة عنيفة بالقلم الرصاص ، وبآثارِ محوٍ عنيف بالممحاة ، من عيني نعيم :

- أهذه حروف عبرية؟

تأمله زميلاه لحظة قبل أن ينقلا بصريهما إلى دفتر كيهات .

«عن أي كتاب نقلتَ هذه الحروف الهيروغليفية؟» ، سأله نعيم .

«هيروغليفية؟» ، تمتم كيهات مدركاً نبرَ الهزء في صوت نعيم .

هأْهأَ سمير يجاري نعيماً سخريته :

- إنها منقولة بأمانة عن حجر شامبوليون .

تنهَّد كيهات :

- أما من حرف عبري واحد بين ما رسمتُ من حروف؟

«إنها الأبجدية العبرية كاملةً كما كُتبتْ أول مرة بالحروف الهيروغليفية» ، رد سمير .

وضع نعيم يده على الدفتر متظاهراً بتفحُّص ما رسمه كيهات من أشكالِ حروف :

- أنت مخطئ ، يا سمير . هذه أبجدية عبرية كما كُتبتْ أول مرة بالحروف المسمارية .

ضحكَ سمير .

ابتسم كيهات للسخرية الدُّعابة . أطبق الدفتر :

- حاولتُ حتى منتصف الليل أن أمسك بحرف من لغتكم ، وها أنتما تتهكَّمان .

«لا نتهكَّم» ، عقب نعيم . «جهدُك واضح في الجمع بين الحروف الهيروغليفية والمسمارية» .

«والسنسكريتية أيضاً» ، أضاف سمير .

أعاد كيهات فتْحَ الدفتر . تكلم بنبرٍ مستعطِف :

- اكتبْ لي كلمة ، يا نعيم .

تبادل نعيم وسمير نظرات مستغربة . أكملا سيرهما .

انعطف كيهات عنهما . صار قبالتهما ماشياً إلى الوراء . كرر استعطافَه :

- كلمة واحدة ، يا نعيم .

«كلمة؟» ، تمتم نعيم متسائلاً . أردف مبتسماً : «أتريدها بالكردية؟» .

«بالعبرية . أطالَ اللهُ عمرك ، يا نعيم» ، قال كيهات متوسلاً .

توقف نعيم :

- لا تقُل لي أنك تريد الكلمة ذاتها التي كتبتها لك من شهور؟

«هي ذاتها» ، رد كيهات بنبرٍ متوسل .

«أهي كلمة : أُحبكِ؟» ، سألَه سمير ، فرد كيهات :

- نعم .

«أهذه لعبة؟» ، سأله سمير .

«لعبة؟» ، تمتم كيهات متفاجئاً . «أية لعبة؟» ، تساءل .

«لماذا تريد من نعيم كتابة الكلمة ذاتها بالعبرية؟» ، سأله سمير .

نقل كيهات بصره إلى وجه نعيم بالنظرة المتوسلة ذاتها ، وهو يقدِّم دفتره منه مفتوحاً على صفحة فيه :

– نعيم . ماذا تخسر إن كتبتَ الكلمة؟

«لن أكتبها» ، رد نعيم . «فلْيكتبها سمير» .

«خطك رائع» ، قال كيهات مبرِّراً أن يسأله هو كتابة الكلمة .

«أيُّ معنى للخط؟» ، سأله نعيم . «على أية فتاة كردية ستعرض الكلمةَ العبرية؟» .

«على أمي» ، رد كيهات ممازحاً .

«ألا تفهم أمك الكلمة بالكردية؟» ، سأله نعيم ، فانبرى سمير ممازحاً :

– ربما لم تسمع أمُّ كيهات الكلمةَ من فم ابيه .

هأْهأَ كيهات :

– تفهم أمي الكلمة إن قلتُها . لكنها لا تقرأ .

«لماذا ستريها كلمة لا تقرؤها بأية لغة؟» ، سأله نعيم .

«لتنظرَ إلى الحروف» ، رد كيهات .

«فلْتنظرْ أمك إلى الحروف مكتوبة بالعربية» ، عقَّب نعيم .

«تعوَّد بصرُها على الحروف العربية . سأريها حروفاً لن تصدِّق عيناها أنَّ لغةً تُكتب بها» ، رد كيهات .

«حسناً» ، تمتم نعيم . التفت إلى سمير : «اكتُبْها له» .

«ألم تُرِ أمَّك الكلمة كما كتبها نعيم؟» ، سأله سمير .

«لا» ، رد كيهات .

«أأنت من هواة جمع هذه الكلمة مكتوبةً مراتٍ عدَّة؟» ، سأله سمير .

«لا» ، رد كيهات . أردف : «أنا من هواة جمع الدِّجاج» .

«أين التي كتبها نعيم؟» ، سأله سمير .

«أضعتُها» ، رد كيهات .

زفر سمير زفرة قصيرة . تناول الدفتر الأزرق من يد كيهات :

- أعطِني قلماً .

أخرج كيهات من جيب صغير في محفظته المدرسية قلماً رصاصاً .

كتب سمير الكلمة . أعاد الدفتر إلى كيهات .

أكمل الثلاثة مسيرهم شرقاً إلى بيوتهم .

قرَّب كيهات نفْسه من سمير ، بعدما أعاد الدفتر إلى الحقيبة المدرسية ، ذات الجيوب المنطبقة . سأله بنبرٍ عفويٍّ قصدُهُ المزاح :

- ألن تغادر هذا البلد؟

توقف سمير ونعيم معاً مبغوتين من ذلك السؤال الطائش ، العنيف في التباسه .

«ما قصدُكَ؟» ، سأله سمير بنبرٍ فيه ذعرٌ خافت .

ابتسم كيهات :

- أنا أمزح .

«هذا ليس مزاحاً» ، عقَّب سمير . نقل بصره إلى نعيم : «ما قصدُ كيهات؟» .

«حَقاً ، يا كيهات . ما قَصْدُكَ من سؤال كهذا؟» ، سأله نعيم بصوته الأخنِّ قليلاً ، واضحَ القلق في نبره .

«أُقسِم لكما أن لا قَصْدَ لي أبعد من المزاح» ، قال كيهات مرتبكاً من ردة فعل لم يتحسب لها .

«أتريد توريطي في شيء؟» ، سأله سمير ، فازداد ارتباك كيهات :

- أورطك في ماذا؟

«أفكرتَ في معنى سؤالك؟» ، سأله سمير من فمه المفتوح ، المتهدِّل الشفة السفلى .

«لا معنى لسؤالي ، يا سمير» ، أكد كيهات بنبر يتوسل أن يفهم زميلُه البراءةَ التي صاغ بها سؤالاً أراده مزاحاً ، فانقلب في فهم زميليه إلى شبهة أثارت حذرهما ، متحفِّظيْنِ عن مقصد غير معلنٍ توهَّماه من زميلهما .

«لماذا سألتني هذا السؤال تحديداً ، يا كيهات؟» ، عاد سمير إلى مساءلة زميله ، وقد غدا مشيُ الثلاثة بطيئاً من سقوط السؤال ، غير المقصود به إلاَّ المزاح ، بهم إلى دوامة .

«ما الذي أزعجكما إلى هذا الحد؟» ، تساءل كيهات مدافعاً عن نفسه .

«ماذا لو أجبت على سؤالك بأنني أفكر في مغادرة البلد؟» ، سأله سمير .

تلفَّت كيهات من حوله : «من كان سيسمع جوابك؟» ، تمتم كيهات . أوقفَ مشيَه البطيء . نقل بصره بين وجهي زميليه . سألهما : «هل من أحد هنا سوانا؟» .

«لا» ، رد نعيم .

«لو أجابني سمير أنه يفكر في مغادرة البلد لما سمعه سواي» ، قال كيهات .

«وأنا أيضاً» ، عقب نعيم .

«أنت تعرف بِمَ يفكر صاحبك» ، قال كيهات .

«نعم» ، أكَّد نعيم .

«ماذا لو سمعتُه يقول ذلك؟» ، تساءل كيهات .

«كان سيَحْدث أن أحداً ما سمعه يقول ذلك» ، رد نعيم .

بردٌ حارق جرى في عروق كيهات ، متفحِّصاً عيون زميليه :

– أتشكَّان فيَّ؟

«كان سؤالك مخيفاً» ، قال سمير وهو يستعجل خطوه بعد تباطؤٍ .

عجَّل نعيم خطاه أيضاً يُجاري صاحبه .

بقي كيهات تائهاً في موضعه ، منكسراً شظايا . صعدت حرقةٌ إلى حنجرته ، فلسانه ، فدماغه . انتشرت الحرقةُ على الطريق ، وعلى التقاطعات من طُرق تنطح الطرقَ باستقامتها . ظلَّلتِ الحرقةُ السماء بغيوم متقطعة . نقلتِ الحرقةُ التاريخَ إلى موضع لا يخطر ببال جائعٍ أن يفكر فيه بالتاريخ .

عجَّل كيهات خطوه بعد تجمُّده منخذلاً في سؤاله المنخذل ، الذي أزاح فيه المزاحُ للقلق عن كرسيِّه .

«سمير» ، نادى كيهات زميله .

لم يلتفت أحد من زميليه إليه ، كأنهما يهربان .

كرر كيهات نداءه :

– سمير . سأغادر هذا البلد ، ذات يوم ، ولن أعود إليه .

لم يحمل كيهات الكلمة العبرية إلى منزل راحيل ، في الأسبوعين التاليين من زيارته لها عرْضاً لخدماته ، أو شراءً للحم . كانت الكلمة سلاحَه الأخير في معركة الإعتراف للينا ، لكنه آثر زيارة المنزل والحانوت أعزلَ من سلاح . ذلك الموقف الملتبس ، الذي وضعه فيه سؤالُه لسمير إن كان يفكر في مغادرة البلد ، ألْزَمَ قلبَه ـ وعقلَه ، وجلده ، وعظامه ، ولحمَه ـ الحذرَ الصارم ، إلاَّ في مواجهته الدجاجة الرومية الحبشية خاطبها مراراً وقد سمَّاها لينا :

– متى ستردين على رسائلي ، يا لينا؟

– أية رسائل ، يا كيهات؟ متى أرسلتَها؟

– لم أرسلها بعد ، يا لينا .

ما المكان الذي تفضِّل إرسالَ بريدك منه إليَّ ، يا كيهات؟ اصندوق البريد ، أم جدول الماء بين البئر وحقل الورد؟

- ما الطريقة الأكثر جمالاً لإرسال عاشق رسائله إلى حبيبته ، يا لينا؟

- الطريقة التي لم تفكر بها دجاجةٌ حبشية بَعدُ كيف تتسلَّم بريدَها ، يا كيهات .

- قبل أن أجمع رسائلي الثلاثمائة كتبتها لكِ لأرسلها ، يا لينا ، سأريك شيئاً .

- ما هذه الورقة؟ لمَ خبأتَها في بطانة سترتك ، يا كيهات؟

- نعم . شققتُ شقاً صغيراً في البطانة ودسستها فيه . مكانٌ آمن ، يا لينا .

- ما هذه الرسوم على الورقة ، يا كيهات؟

- إنها حروفٌ مجموعُها كلمة واحدة تعرفينها ، يا لينا .

- أأنت كتبتها ، ياكيهات؟

- لا . كتبها زميلي سمير ، يا لينا . زميلٌ آخر كتبها لي قبْلاً فأضعتُها .

- كيف تجرَّأَ على الكتابة لك بحروف عبرية ، يا كيهات؟

- أيحتاج الأمر إلى جرأة ، يا لينا؟

- لا أعرف ، يا كيهات .

- سمير ، الذي كتب لي هذه الكلمة ، غاضب مني الآن ، يا لينا .

- لماذا ، يا كيهات؟

- سألته : أتفكِّر في مغادرة البلد ، فامتعض ، واستاء من سؤالي ، يالينا .

- هذا سؤال يحمله رجال الاستخبارات إلى يهود المدينة ، يا كيهات . لِمَ سألتَه؟

- لم أفكر بعاقبة سؤالي ، يا لينا . كنت أمازحه .

- هذا أمرٌ كَمنْ يتذوق السِّلْمَ بلسان الحرب ، يا كيهات .
- ماذا ، يا لينا؟ ماذا قلتِ؟
- سمعتني ، يا كيهات .
- تكلمتَ كما يتكلم صاحبي الأرمني بوغوس ، يا لينا .
- أهو ديكٌ عادي ، أمْ ديك حبشي من نوعي ، يا كيهات؟
- هو ديك أرمني ، يا لينا . سيهاجر إلى موطن نوعه قريباً .
- أهو ذاهب في هجرة موسمية ، يا كيهات؟
- لا ، يا لينا . هجرة أبدية .
- أنا أفكر في هجرة ، يا كيهات .
- إلى أين ، يا لينا؟
- إلى حيث يأخذني طيرانُ جناحيَّ ، يا كيهات .

مراراً طوَّق كيهات دجاجته الرومية بذراعيه . لم تكن تفرُّ منه كديكه الأسود ، أو كدجاجاته الثلاث الأخريات إن حاول الإمساك بهن . كانت طيِّعة ، وديعة ، مستأنسة ، يدعوها كيهات إلى الخبز مبلالاً في راحته فتلتقط منها الخبزَ ، وحبَّ الحنطة من غير نقْرٍ يوجع . وكان إن أمسك بها بعض الأحيان ، في الباحة الحصى من محيطٍ البئر ، أراها ورقة الحروف العبرية ، محاذراً أن يراه أحد من أهله . وقد تمنى مرة أن يصنع حافظة جلدية من سنتيمترين مربعين يُوْدِعُها الورقةَ ، ويعلقها إلى عنق الدجاجة الرومية كتعليق بعض الناس رُقىً إلى أعناق الأكباش القوية في السِّفاد وِقاءً من حسد الحُسَّاد ، وإلى أعناق الديكة القوية في السفاد وقاءً من عيون الغيارى .

يعرف كيهات ، في عطلة الربيع ، أن لينا مثله في عطلة . وهو قادر ، بذرائع شراءِ بيضٍ ، أو لحم ، أو مربىً ، أن يراها في حانوت أمها أيَّ يوم يشاء . غير أن جرحَ الحَذَرِ لم يندمل فيه ، منذ انقلب مزاحُه في سؤال زميله عن مغادرة البلد إلى جرح . أحس ، على نحوٍ ثقيل ، أن اليهودي ،

في مدينته ، مقيم في الحَذَرِ من كلٍّ كلام ، أو حركة ، أو موقف يمكن أن يؤوَّل على أوجُه .

تمنى لو يملك خيالاً لا يُحْذر ؛ لغةً لا تُحْذر ؛ وجوداً لا يُحْذر ؛ اعترافاً لا يُحْذَرُ ؛ أن يزور لينا زياراتٍ زُرْقاً بين السطور الزُّرق في الأشعار .

غير أن كيهات انصرف ، في أيام عطلتة الربيعية ، إلى مصاحبة بوغوس إلى صيد الأسماك ، في الفصل الذي لا يصنِّفه صيادو المياه وقتاً من أسس الأوقات للصيد في فرع من نهر يغيض صيفاً ، فلا يبين أثرٌ له حتى موعد ذوبان الثلوج على الجبالِ في تركيا .

إنَّما للشمال استثناءات في ترتيبه لمواسم الصيد ، ومواسم الخوف ، ومواسم الموت . قد يفيض النهر سَمَكاً جشعاً في التهام الطُّعْم من شصَّيْ كيهات وبوغوس . قد تقفز الأسماك إلى الضفة منتحرةً . قد تطفو على مائه الحيتان بالنوافير في قُلل رؤوسها ترشق الملائكة بالماء مداعبةً .

في المساء الذي استأذن فيه كيهات من أبيه استعارةَ دراجته الثخينة المواسير ، بالظلام قابضاً في جوف مقودها على ورقة الحروف العبرية ، أبدى أخوه الصغير رغبةً بمرافقته إلى النهر . كان كيهات أعدَّ كيساً من الورق صغيراً فيه خبز ، وجبن ، وبيضتان مسلوقتان ؛ وضمَّ على الكيس وشاحاً أزرق جعله صُرَّةً معقودة من أطرافها الأربعة . كما تدبَّر علبةَ صفيح لها غطاء ، تتسع ليترين من ماء البئر .

«خذني معك» ، قال موسى لأخيه بنبرٍ مستعطف .

«كيف آخذك معي؟» ، تساءل كيهات .

«أجلسُ على المقعد الخلفي للدراجة ، أيها العبقري» ، رد موسى .

«أتريدني أن أقود الدراجة بك صاعداً الأرضَ المرتفعة قبل المطار؟ ستنفجر رئتاي ، أيها الرفيق البورجوازي الفقير» ، عقَّب كيهات .

«أنا أقود الدراجة» ، اقترح موسى . «أنت تركب المقعد الخلفي» .

«دعْكَ من البلاهات» ، عقب كيهات . «جِدْ لك ما تتسلى به» .

«إن كنتَ أضعف من أن تقود الدراجة ونحن نركبها معاً ، فأنا مستعد للمشي إلى جوارك» ، اقترح موسى .

«تعني أن نقضي اليوم بأكمله ذهاباً وإياباً ، من غير أن نتوقف دقيقة للصيد» ، عقَّب كيهات .

«سأركض» ، قال موسى .

«أوقِفْ اقتراحاتك الفارغة» ، عقب كيهات .

«سأسبق دراجتكيما راكضاً إلى حيث ستتصيدان السمك» ، قال موسى واثقاً .

«سنسلك طريقاً إلى الجنوب ، في البرية ، وليس في غابة قرودك على حدود آلاسكا ، يا طرزان» ، عقَّب كيهات .

«أين آلاسكا هذه؟» ، سأله موسى ، فرد كيهات :

- في شرق كردستان .

صاح الأب بابنه محذِّراً :

- لا تذكرْ كلمة كردستان .

«آسف» ، قال كيهات معتذراً . أعاد بصره ، بعد النظر إلى أبيه ، صوب موسى :

- هذا موسم لعبة الكريات الزجاجية . اربحْ كريَّاتٍ . بِعْها . ادَّخرْ نقوداً للسينما .

لم يتزحزح موسى عن رغبته :

- دعْني أرافقكما ، يا كيهات . سأسبح طوال الطريق في النهر ، إلى الموضع الذي ستتصيدان فيه الأسماك .

«لا فائدة . لن تُقنِعني» ، عقَّب كيهات . أكَّد لأخيه رفضه : «لن تذهب معي» .

صفق موسى بيديه تصفيقاً خافتاً . تمتم :

- سأتسلى مع دجاجاتك .

«لا تزْعجْهن» ، قال كيهات بنبرٍ مهدِّد .

«لن أزعجهن ، أيها الإسكندر ذو القرنين ، بل سأدرِّبهن أن يَبِضْن كل ثلاث ساعات مرةً» ، قال موسى .

«سأدعُ دجاجاتي يأكلنك شَقَفةً شَقَفَة ، أنت وثيابك ، ومحفظة جيبك الملأى بالصور» ، عقَّب كيهات محذِّراً .

«إذا أكلتني الدجاجات ، ثم بِضْنَ ، ستأكلون بَيضاً من لحمي» ، قال موسى .

«اسكتْ . لستَ ظريفاً» ، عقب كيهات . «لن تستسيغ دجاجاتي لحمك حتى لو تضوَّرْن جوعاً» .

«ما هذا الكلام؟» ، تدخل الأب أوسي وهو يصغي إلى أغنية كردية في مذياعه تبثُّها إذاعة في بغداد .

تقدم موسى من أبيه زاحفاً على ركبتيه . سأله :

- ألا تستطيع إقناع أهل بوغوس ، صاحب كيهات ، أن يدَّعوا أنني من أولادهم؟

«ماذا؟» ، تساءل أوسي .

ردَّ كيهات فاهماً ماذا يعنيه أخوه من سؤاله :

- كيف سيُقنعُهم أبوك ، يا حمار؟

«يدفع لهم نقوداً» ، رد موسى .

حدقت الأم هدلا إلى ابنها جالسةً إلى جوار زوجها أرضاً على البساط :

- عمَّ يتحدث موسى ، يا أوسي؟

رد كيهات قبل أن ينطق أبوه :

- إبنك بات مخبولاً .

«إبني سُكَّرةُ قلبي» ، عقَّبت هدلا مبتسمة لابنها موسى .

خبط موسى براحة يده اليسرى على البساط خبْطاً خفيفاً :

- إنْ أقنع أبي أهلَ بوغوس بضمِّي إلى أولادهم ، وذهبتُ معهم إلى أرمينيا ، فسأقدم طلباً للدولة الأرمينية بانضمامكم إليَّ .

«ماذا ستقول لدولة أرمينيا عنَّا؟ مَن نحن ليتوجَّب على أرمينيا أن تطلب من دولتك السورية أن ننضمَّ إليك؟» ، تساءل كيهات . ضحكَ : «أستدَّعي عائلة بوغوس أننا أولادهم أيضاً؟» . نظر إلى أبيه . تهكَّمَ : «أولاد صغار جداً» . ضحك من جديد : «كيف ستُقنع دولةَ أرمينيا بقبول هجرتنا إلى هناك ، أيها الرفيق؟» .

«أهل بوغوس سيُقنِعون دولة أرمينيا» ، ردَّ موسى .

«كيف؟» ، تساءل كيهات .

«يدفع أبي لهم نقوداً» ، رد موسى .

«من أين يأتي أبوك بنقود يدفعها لأهل بوغوس؟» ، سأله كيهات ، فردَّ موسى :

- يَستَلِفُ من جدِّي .

«حلولُك مدهشة ، يا سيغفريد» ، عقَّب كيهات .

«مَن هو هذا؟» ، تساءل موسى مستلطفاً الإسمَ الغريب .

«شخص لا يمكن قتله بأية آلة ، لأنه استحمَّ بدمِ تنِّين . لكن ورقة سقطت من شجرة ، أثناء استحمامه ، فالتصقت بجلده بين ترقوَتيْهِ . ذلك الموضع ، تحت الورقة ، لم يلمسه الدمُ» ، قال كيهات . ألوى رأسه : «مقتَلُهُ موضعُ الورقة» .

«واوو» ، هتف موسى مبتهجاً . أردف : «كيف تعرف هذه الحكاية؟» .

«رأيتُ فيلماً عن هذا البطل المدهش» ، رد كيهات .

«متى؟» ، تساءل موسى .
«قبل أن تولد» ، رد كيهات .
«ستخبرني عنه مطوَّلاً» ، قال موسى بنبرٍ مستعطف . أردف : «أله عضلٌ مثل ستيف ريفز؟» ، تساءل .
«لا . لم تكن له عضلات ستيف ريفز ، لكنه لا يُقْهر» ، رد كيهات .
«بطل مثير» ، تمتم موسى .
«نعم» ، تمتم كيهات بدوره . «مثير مثلك حين تُقنع دولة أرمينيا بقبول هجرتنا إليها» .
«سأُقنع دولة أرمينيا بالطلب من الدولة السورية أن نهاجر إليها» ، قال موسى .
«وماذا سنفعل في أرمينيا إن قَبِلتْ هجرتنا إليها؟» ، تساءل كيهات ، فرد موسى :
- لا تقلقْ . سأصير ممثلاً سينمائياً ، نجماً ، في أرمينيا .
«حلٌ مدهش لحياة مدهشة في أرمينيا» ، عقب كيهات .
«نعم . اعتمِدوا عليَّ» ، أكَّد موسى .
لمست الأم هدلا كتف زوجها وهي تنظر إلى ابنها الصغير :
- عمَّ يتحدث موسى؟
استبق كيهات أباه . ردَّ :
- موسى لا يعرف عمَّ يتحدث ، يا أمي .
«بل أعرف» ، رفع موسى صوته معترضاً . أضاف : «لن أكبر في هذا البلد» .
«لا تخفْ . لن تكبر في هذا البلد» ، قال كيهات مبتسماً . أردف : «الحمار حيوان ، ككل الحيوانات ، لا يعرف أنه يكبر . يموت ولا يعرف أنه كبرَ . كُنْ حماراً ، يا موسى ، ولن تكبر في هذا البلد» .

في الصباح باكراً التقى بوغوس وكيهات على المفترق الذي يصل المدينةَ غرباً ببلدة عاموداً ، وجنوباً بالمطار فمدينة الحسكة . التقيا على قرب مترين من حانوت الحلاق حسن شكيب . لوَّحا له وهو يكنس الأرض . خرج حسن بطربوشه المحاط بقماشة بيضاء عريضة . رفع صوته :

- أتريدان حلاقة بنصف الثمن ، أيها الوسيمان؟

«لماذا خفضتَ السعر؟» ، سأله بوغوس ، فرد الحلاق :

- ماذا أخسر؟

نظر بوغوس إلى رأس كيهات . أبدى أسفَه :

- لا أحد منا تحوجه حلاقةٌ . لكنْ قد نزورك في العودة .

«لسنا في حاجة إلى حلاقة ، فما الذي سيتغير في العودة؟» ، سأل كيهات صاحبَه .

رفع بوغوس صوته :

- يا سيد حسن ، سيكون معنا ، في العودة ، سمك يحتاج إلى حلاقة .

ابتسم الحلاق . تمتم :

- سمك؟

«نحن ذاهبان لصيد الأسماك» ، أوضح بوغوس قصدَه . «الأسماك تنمو لحاها سريعاً في نهر جغْجغ» .

هأْهأَ كيهات .

تسلل الحلاق حسن إلى مزاح بوغوس بقدمين من مزاحه :

- حلاقة اللحية أغلى من حلاقة الشعر ، يا حلو .

«حلاقة اللحية أسهل ، يا سيد حسن» ، عقب بوغوس .

«حلاقة الشعر لا تحوجُها إلاَّ طقطقة بالمقص . حلاقة اللحية فنٌّ إذا كانت لأسماكك لحى متصوفين ، أو لحى دُعاة ، أو لحى أئمة في مساجد الماء» ، قال الحلاق .

«الأسماك ، التي سأعود بها إلى حانوتك لحلاقة لحاها ، أسماك مسيحية ، يا سيد حسن . للذكور والإناث لحىً موحدَّة مثل ملابسنا المدرسية» ، قال بوغوس .

«ذلك يجعلني أرفع السعر أكثر» ، عقَّب حسن .

«لِمَ؟» ، سأله بوغوس ، فردَّ الحلاق :

– لأن عليَّ ، في هذه الحال ، أن أُجري مراجعة طويلة مع كنائس المسيحيين في القامشلي ، عن كيفية حلاقة لحى القساوسة ، والبطاركة ، والأساقفة ، والشمامسة .

«ليس في كنائس مدينتنا كل هؤلاء الأصناف المحترمين ، يا سيد حسن . ولا تحتاج الحلاقة إلى إعداد بحثٍ دينيٍّ» ، عقب بوغوس .

«الحِلاقة تاريخ . الحلاقة عِلم كالفيزياء ، أيها الوسيم» ، قال حسن شكيب .

أرخى بوغوس رأسه ينظر إلى عجلة الدراجة . التفت إلى الوراء يتأكد من ثبات الحقيبة الصغيرة ، المنتفخة ، على المقعد الخلفي لدراجته ، فيها ـ على الأرجح ـ زاد يؤكل . رفع بظاهر قدمه اليمنى مدعسة قيادة الدراجة إلى مستوىً مطلوب ، ثم ضغط عليها بثقله فتحركت دراجته . نفخ كلماتٍ صوب الحلاق :

– سآتيك بأسماك لا يهمها التاريخ ، والفيزياء ، بل تهمُّها أشعارُ العذريِّين . اللوعة هي أصل الفيزياء ، والبكاء أصل كل تاريخ .

قاد بوغوس دراجته . لحق به كيهات على دراجته ودراجة سؤاله ذات العِجال الثلاث :

– بوغوس . ما هذا؟

«ماذا تعني؟» ، تساءل بوغوس .

«أعني ما قلتَه قبل قليل للحلاق؟» ، قال كيهات .

«ماذا قلتُ؟» ، سأله بوغوس .

تنهَّد كيهات :

– أستبلغ السابعةَ عشرة بعد شهور قليلة ، أمِ الخمسين؟

«ماذا؟» ، تساءل بوغوس ، فرفع كيهات ذراعَه اليسرى مهدِّداً :

– أيها الأرمني . أنت تسرق من الكتب العربية ما لا يعرف العربيُّ كيف يسرقه .

«ماذا سرقتُ؟» ، تساءل بوغوس ، فرد كيهات :

– لا أعرف .

«لم أفهم» ، عقَّب بوغوس .

«أنا أيضاً» ، قال كيهات .

قاد بوغوس وكيهات دراجتيهما صعوداً على الأرض المرتفعة ، التي يقع على بُعد منها مطار القامشلي . نزلا عن دراجتيهما قبل بلوغ نهاية المرتفَع لاهثيْنِ . مشيا حتى بلغا الأرض المنبسطة سهلةً ، متواضعة ، بلا منخفضات أو مرتفعات ، بهيةً بالتوازن الأخضر للحقول حنطةً وشعيراً ارتفعت سويقات نباتهما . موجٌ أخضر من نفخ الريح على جهتَيِّ الشارع الإسفلت . اشرعةٌ خُضرٌ في الغمر الأخضر . تمايلٌ عنيفٌ أخضرُ على الجهتين . غيومٌ لا تهديد فيها ، عابرة في الأعالي على عجلٍ لإبلاغ الشرق بالخُطط طريةً خضراء كالنبات .

«كيف تستطيع هؤلاء الطيور عبورَ السماء في مثل يوم كهذا؟» ، سأل بوغوس رفيقه كيهات وهو ينظر إلى جمهرة من اللقالق مندفعة بأعناقها المسدَّدة كسهام إلى الجنوب .

«لماذا اخترنا هذا اليوم للصيد؟» ، عقَّب كيهات

«كيف كان لي أن أعرف أين تختبئ هذه الريح؟» ، قال بوغوس .

تمايلت الدراجتان من دفقة ريحٍ نطحتهما ونطحت سائقيهما .

«أأحسستَ الريحَ قوية هذا الصباح؟» ، سأل كيهات رفيقه بوغوس ، فرد بوغوس :

– لم تكن هكذا . أظنُّها استثيرت عند بلوغنا أعالي الأرض المرتفعة .

«ما الذي استثارها؟» ، سأله كيهات ، فرد بوغوس متطلعاً إلى المطار الصغير ، المتواضع البناء والبرج ، في الجهة الغرب من موضعيهما :

– سيصل زائرٌ إبنُ كلب إلى المدينة هذا اليوم .

«ألهذا تنبح الريح؟» ، سأله كيهات .

خفقت سترتاهما على جسديهما خفقاً عنيفاً مذ لم يزرِّراهما . توقف كيهات بغتةً .

«ما بك؟» ، سأله بوغوس متوقفاً بدروه .

«صدمتْ جبهتي هذه الخنفساء» ، رد كيهات محدِّقاً إلى حشرة خضراء يومض بطنها لُمْعاً ذهبياً في انقلابها على ظهرها ، وهي تخفق بجناحيها الخشنين ، الغمديين ، ضرباً متوالياً على الأرض كي تستقيم واقفة على سيقانها .

«هذا فَألٌ حَسَن» ، عقب بوغوس . حثَّ صاحبَه : «لماذا استوقفتك خنفساء؟ فلْنمضِ . الريح ستؤخِّرنا» .

«سيكون الصيد ثقيلاً في ريح كهذه» ، قال كيهات وهو يعود إلى قيادة دراجته . «طارت» ، تمتم مذ رأى الخنفساء تنقلب على بطنها ، باسطة جناحيها يحملانها بعون الريح .

«سنتصيد في الموضع الكثيف من شجر الكينا . لن تعبث الريح بشعرك الطويل كشعر شمشمون» ، قال بوغوس في تهكُّم من شعر رفيقه القصير كشعره هو .

«ماذا عن الأسماك؟» ، سأله كيهات ، فتساءل بوغوس بدوره :

– أتعني أن الريح قد تعبث بلحاها؟

ضحك كيهات :

- أعني الأسماك، وليس لحاها .

«ما بها؟» ، تساءل بوغوس .

«ألا تقلقها الريح؟» ، قال كيهات .

«هناك تفاهمات ، ومواثيق ، ومعاهدات ، واتفاقات ، ووعود شرف بين الأسماك والريح : الأسماك لا تتجاوز حدودَها فتغزو الفضاء الذي تمتلكه الريحُ ، والريحُ لا تُجاوِز حدودَها فتغزو أعماق الماء التي تمتلكها الأسماك» ، رد بوغوس .

«هل مِن اتفاقات ، أو معاهدات ، أبْرَمَها البشر مع الريح؟» ، سأل كيهات صاحبَه .

- نعم . لكنَّ البشرية لم تجدِّدها عند انقضاء مُهَلِ المعاهدات .

«أكانت المعاهدات محدَّدة بأوقات محسوبة بين الريح والبشر؟» ، تساءل كيهات .

«نعم» ، رد بوغوس . أردفَ : «مُهَلٌ محدَّدة تُجدَّد مفاعيلُها إذا انقضت وانتهت» ، رد بوغوس .

«متى توقف البشر عن تجديد المواثيق مع الريح؟» ، سأله كيهات ، فرد بوغوس :

- مُذ عرف الإنسان أن الريح الوقحة لا تلتزم ببنود المعاهدات ، فاستبقها إلى نقْض المعاهدات .

«مَن الرابح منهما في نقْض المعاهدات ، والمواثيق؟» ، سأل كيهات صاحبه ، فردَّ بوغوس :

- سأخبرك إذا تصيَّدنا أسماكاً اليوم .

لم يكن النهر يسيل باستقامة إلى الجوارِ الشرق من الطريق الإسفلت ، بل يميل بمجراه شرقاً بعد مسيرة أكثر من نصف ساعة على

الدراجة ، ثم ينعطف صوب الغرب جارياً مدَّةً قبل أن يستدير المجرى إلى الجنوب متعرِّجاً ، في الموضع الذي تلتقي فيه طريق ترابية ـ تمتد إلى إحدى القرى الصغار في الغرب ـ بالطريق الإسفلت الموغلة جنوباً إلى مدينة الحسكة . هناك تشكلت في ضفة النهر بركة نصف دائرية ، واسعة ، ربما هي أثرُ حَفْرٍ لنقل التراب ، حين يجف النهر صيفاً ، لبناء بعض البيوت اللَّبِن . ربما . ليس الأمر مؤكداً ، مذ يحفر أهل القرى الأرض في المناطق المحيطة ببيوتهم ، مستخرجين تراباً للبناء . لكن شكل تلك البِركة ـ محفورةً في خاصرة ضفة النهر الغربية بإتقانٍ نصفِ دائري ـ يجعل احتمالَ حَفْرٍ بشريٍّ في ترابها لا ينافي المنطق .

برزت أيكةُ شجر الكينا للرفيقين على دراجتيهما ، في الموضع الذي يقصده بوغوس لصيده الأسماكَ كل عام . توجد ، بالطبع ، أمكنة من مسار النهر أقرب إلى المدينة ، يمكن أن يحظى فيها بوغوس بصيد ، لكنه يؤْثر ذلك البُعْد المُرهِق قليلاً ، ذهاباً وإياباً ، بدعوى أن الأسماك تتوقف قليلاً من الوقت ، مجتمعةً ، في الحفرة نصف الدائرية في خاصرة النهر ، تتجاذبُ الثرثرات قبل انطلاقها من جديد في المجرى المتدفق .

«ألم تكن الأشجار أكثر كثافةً؟» ، تساءل كيهات .

أمعن بوغوس التحديق إلى الأيكة .غمغم :

– نعم . قطع الحطابون بعضَها .

«من دلَّك على هذا المكان من النهر للصيد؟» ، سأل كيهات صاحبه .

«العقل الأرمني» ، رد بوغوس وهو ينعطف بالدراجة عن الطريق الإسفلت إلى الأرض الترابية ، المعشبة ، شرقاً .

«أيفضل العقلُ الأرمني المسافات البعيدة على القريبة؟» ، سأله كيهات .

«يفضِّل المسافات المضمونة» ، رد بوغوس .

«لو كنتَ سورياً لفضلتَ المسافات القريبة المضمونة» ، عقَّب كيهات .

أوقف بوغوس دراجته متفاجئاً . تساءل :

- لو كنتُ سورياً؟!!

«أعني لو لم يكن لك أيُّ حظ في الهجرة إلى بلد آخر» ، ردَّ كيهات يتدبَّر تبريراً . أردف : «السوري الحقيقي هو مَن لا يقدر على مغادرة هذا البلد» .

«أأنا أرمني سوري ، أم لستُ سورياً ، يا كيهات؟» ، سأله بوغوس .

«أنت أرمني سوري يستطيع أن يوحِّد أرمينيا وسوريا ، مثل تلك الوحدة بين سوريا ومصر» ، رد كيهات .

«أنت تخلط أحياناً ، يا كيهات» ، عقَّب بوغوس وهو يعيد دفعَ دراجته بقدمه اليسرى دَعْساً على دوَّاسة قيادتها .

«نحن الأكراد نخلط دائماً» ، قال كيهات . أردف : «لم نعد نعرف لماذا على الكردي أن يكون كردياً إلى الأبد؟» .

«أن تكون كردياً يعني أن تكون سمكةً ، أو ريحاً ، أو نهراً ، أو مطاراً ، أو رحلة على دراجة ، أو أن تكون أبا التعبِ وأُمَّه من قيادة دراجة هوائية» ، عقَّب بوغوس .

«ألم تعطش بعد؟» ، سأل كيهات صاحبه . مد يده إلى العلبة الصفيح على المقعد الخلفي . فكَّ غطاء فوهتها . كرع بعض الماء . مشى ، من غير أن يركب الدراجة ، إلى جوار صاحبه الذي قاد دراجته في بطء شديد .

بسط كيهات ذراعه اليمنى بالعلبة الصفيح صوب بوغوس :

- هذا ماء تتمرأى فيه دجاجاتي كل صباح لتتأكد من كمال زينَتها .

«نحن الأرمن لا نعطش إلاَّ بعد فوات الأوان» ، رد بوغوس وهو يتناول

العلبة الصفيح من كيهات . كرع منها ثم أعادها إليه . تمتم : «فاجأتني» .

«بِمَ فاجأتُك؟» ، سأله كيهات وهو يسند الدراجة إلى خاصرته ليغلق فوهة العلبة الصفيح بسدَّادتها الدائرية .

«بسؤالك إن كنتُ سورياً» ، رد بوغوس .

«أيهمُّك كثيراً ، يا بوغوس ، إن كنتَ سورياً أم لم تكن؟» ، سأله كيهات .

«أيَهمُّك أنت؟» ، عقَّب بوغوس .

«يهمني أن أكون سورياً أحياناً ، ولا يهمني أن أكون أحياناً» ، رد كيهات .

«متى يهمك أن تكون سورياً؟» ، سأله بوغوس ، فردَّ كيهات :

– حين تُذكرني دجاجاتي أنهن سوريات .

ضحك بوغوس ذو الأنف الكبير . سأله كرَّةً ثانية :

– متى لا يهمك أن تكون سورياً؟

«حين لا تعترف الدولة السورية بموهبة دجاجاتي في الغناء» ، رد كيهات .

«أهنَّ يغنِّيْنَ؟» ، سأله بوغوس ، فرد كيهات :

– يغنين كأم كلثوم ، وفريد الأطرش بالعربية . ويغنيْنَ غناءَ الأوبرا كما يغنيه الرفيق موبوتو سيسي سيكو .

قهقه بوغوس :

– هل سيسي سيكو مغني أوبرا؟

«كل رئيس في هذا العالم هو مغني أوبرا» ، رد كيهات .

«هل استمعتَ قطُّ إلى غناءِ أوبرا؟» ، سأله بوغوس ، فرد كيهات :

– ثلاث مرات في اليوم . ربما أكثر أحياناً .

«من أية إذاعة؟» ، سأله بوغوس ، فرد صاحبُه :

- مِن إذاعة قُنٍّ الدجاجات في جمهوريتي . ديكي الأسود مَلِكُ غناء الأوبرا .

دخل بوغوس وكيهات أيكةَ شجر الكينا ، التي لم تتعدَّ خمسَ شجرات في ذلك الربيع . أدارا بصريهما على الأمكنة حيث بقايا جذوع في الأرض مهشمة من أثر الفؤوس في قطْعها . أسندا دراجتيهما إلى ساق شجرة . أنزلا متاعيهما من الزاد والماء أرضاً . سلَّ بوغوس قصبتيٍّ الصيد من طوق ربطهما به إلى جانبٍ من المقعد الخلفي لدراجته . أخرج كلٌّ قطعة عجين ، هي خبز مبلول ، ناشفة قليلاً ، ملفوفة في ورقة من مِزَق الجرائد . وضعاهما على أرض الضفة . عمد بوغوس إلى الحفْر بسكين صغير في الموضع الملامس من الضفة للماء . لم يَطُلِ الحفرُ . انتزع بضع ديدان من الحُمر الخَرَاطِيْنِ ، الطوال ، تتلوى . وضَعهما أرضاً قرب قطعتي العجين .

كان الخَيطان البلاستيك في قصبتَيْ صيد الزميلين ، اللتين هما مُلْكُ بوغوس ، مزدوِجتيٍّ الرأسين ، في كل خيط سنَّارتان معاً ، واحدة للطُّعْمِ العجين والأخرى للدود . تعلو السنارتين ، بطول ذراع ، فلِّينتان هما إنذارَ بقبض الأسماك على الطُّعم إن غطستا في الماء ، أو اهتزَّتا عنيفاً .

هيَّأ كلٌّ منهما الطُّعم المزدوج في شَصَّيْهِ . خلعا حذاءيهما جالسَيْنِ أرضاً على حافة الضفة ، في الموضع الشبيه ببركة نصف دائرية . دلَّيا السنانير في الماء فغطستْ . تماوجت الفلّينتان . انجرفتا من تدفاق النهر ، فسحبا خيطَيْ قصبتيهما إلى مركز القوس في خاصرة الضفة .

لم يكن مكانُ جلوسهما ملجأً بحقٍّ من الريح تحت أولئك الشجرات الخمس ، ثلاثُ متجاورات ، واثنتان متباعدتان . لكن وَقَتْهُما قليلاً جذوعُ الشجر الضخام ، الشُّعْث الغصون ، المتراقصة ، المتصافقة في دفع الريح بعِجَالها هبوباً عمودياً ، وأفقياً معاً ، تجرُّ عربات العصور كلها ، قبلَ إبرام

المواثيق مع البشر وبعد نقْضِ المواثيق .

تراخى الصاحبان في جلوسهما على حافة القوسِ النصف الدائرية من خاصرة الضفة ، المتآكلةِ حَفْراً بمخالب الماء ، أو بأسنانَ المعاول من رغبة البشر في بناء منازل من الطين .

صيدُ السمك يستلزم التراخي . في كل صيد آخر تُرى الطريدة طيراً كانت أم حيواناً . تُقدَّر المسافاتُ في صيد طرائد البرِّ . الحذرُ يستوجب تقديرَ القرب والبعد . التمويه من الصياد على نفسه زحفاً ، أو اختباءً وراء صخرة أو شجرة ، أو في حفرة ، كلُّها أمور من موجبات صيد البرِّ . أمَّا الصيد في الماء عَكِراً كحاله حيث يتصيد بوغوس ، وكيهات ، فيستلزم التراخي جلوساً ، أو وقوفاً معلَّقاً بخطاطيف الصبر القوية ، لأن الطرائد لا تُرى ، ولا دليل إلى الطرائد إلاَّ اهتزازُ الفلِّينة أو انغطاسُها .

أشعل كيهات نصفَ لفافة تبغ متبقِّياً من تدخين سابق . تنشَّق نفسَين . مدَّ اللفافة بيده اليسرى إلى بوغوس .

تسلَّم بوغوس نصفَ اللفافة المشتعلة من كيهات . تنشَّق نفَساً عميقاً تسلل منه الدخانُ إلى تحت جلده بعد رئتيه . أغمضَ عينيه من عبور دفقةِ ريح كالسهم إلى موضعهما . تمتم :

– نحن نقيم اليوم في واحدة من مستعمرات الريح .

«ماذا؟» ، تمتم كيهات متسائلاً .

«الريحُ اليومَ لها طبعٌ استعماريٌّ» ، رد بوغوس .

حدق كيهات جانبياً إلى صاحبه ، صامتاً ، يتأمل كلماته . خطرَ له ارتجالٌ من الخواطر بلا سياق :

– أتتذكر توضيح معلم الرياضيات عن النسبة والتناسب ، يا بوغوس؟

«النسبة والتناسب؟» ، تساءل بوغوس وهو يحرك قصبته شداً يحرض الأسماك على النظر إلى الطُّعم في شَصَّيْهما .

«حتى اليوم لم أفهم النسبة والتناسب» ، قال كيهات .

«أفهمتَها أم لم تفهمها تبقى الحياةُ هي ذاتها في فهم الكرد للحياة» ، عقب بوغوس .

«أفهمتَ أنتَ النسبةَ والتناسب كي لا تبقى الحياة هي ذاتها في فهم الأرمن للحياة؟» ، سأله كيهات .

«فهْمُنا للحياة سيختلف ، يا كيهات ، إذا تصيدنا سمكةً واحدة اليوم» ، رد بوغوس .

همهم كيهات وهو يشدُّ خيط القصبة ويرخيها استثارةً للأسماك كي تُلْفتَها الحركةُ إلى الطُّعْم :

- لا يهمني بقرش واحد ماذا تعني النسبةُ والتناسب . لكنَّ شرحَ المعلم كان شرحاً حنوناً .

«ما الشرح الحنون؟» ، تساءل بوغوس ، مشدِّداً على الحروف العربية في الكلمتين .

«لا أعرف» ، رد كيهات مهأْهئاً . أردف : «اخترعتُ العبارة كما تفعل أنت في اختراع العبارات» .

«ماذا كان شرح المعلم للنسبة والتناسب؟ لا أتذكَّر» ، قال بوغوس ، فرد كيهات :

- قال المعلم : كلما ازداد هُزال الواقع كثرتْ أحلامُ الناس وكبِرتْ .

«كيف تجرأ على قول ذلك؟» ، تساءل بوغوس .

«ما المخيف في ما قاله؟» ، عقب كيهات .

«نحن جميعاً ، في دولة الأمة العربية الواحدة ، تكثر أحلامُنا فلا تُحصى ، وتكبِر فتصير أوسع من أرض الدولة» ، رد بوغوس .

«ليكُنْ . ما المخيف في ذلك؟» ، سأله كيهات .

«هذا يعني أن واقعنا هزيلٌ جداً ، يا ابن الجن» ، رد بوغوس .

«أنت تخلط دماغي خَفْقاً كخلط البَيْض بالبقدونس والطحين لِصُنْع عُجَّة» ، عقَّب كيهات .

«إذا كان واقعُنا هزيلاً ، يا كيهات ، فذلك يعني أن حزب الدولة لم يفعل شيئاً ليكتسب الواقعُ بعض اللحم والشحم» ، قال بوغوس . أردف : «لو فطِنَ تلميذَ من شبيبة الحزب إلى معنى ما قاله معلم الرياضيات لكان المعلم قد فقد نصف وزنه الآن ، وبات هزيلاً ، أكثر هزالاً من الواقع» .

«لم أفهم شرحك ، لكنني فهمتُ» ، عقَّب كيهات متردداً في تقدير حُكْم عقله على منطق بوغوس . سحب شَصَّيْه من الماء بغتةً . شدَّ الخيط يتطلع إلى موضع الطُّعم المزدوج : «سرقت سمكةٌ عجينتي ، يا بوغوس» .

نظر بوغوس إلى سنَّارتيْ كيهات في الرأس المزدوج لخيط القصبة . قال :

- أظنُّ العجينة ذابت في الماء .

«أرني عجينتك» ، عقَّب كيهات .

سحب بوغوس الشصَّيْن في نهاية الخيط لم تزل فيهما العجينة ، والدودة الحمراء المتلوِّية حيَّةً .

«لماذا أحسستُ أن سمكةً نقرت عجينتي؟» ، تساءل كيهات ، فرد بوغوس :

- هل غطست الفلِّينةُ في الماء؟

«لا أعرف» ، رد كيهات .

«لم ترَها تغطس» ، قال بوغوس .

«لم أكن أنظر إلى الفلينة بل إليك» ، عقَّب كيهات .

«إنها سمكة عقلك أكلتِ الطُّعم ، يا كيهات . عجينتك كانت مفتتة» ، قال بوغوس .

«إنتبهْ» ، صاح كيهات برفيقه . «فلِّينتك تغطس» .

التفت بوغوس إلى الخيط الذي تتوسطه فلِّينةٌ هي التقدير الدقيق، إن غطستْ تكُنْ سمكةٌ غطَّستْها جذْباً للطُّعم، وإن ظلت طافية تكُن برهانَ استخفاف السمك بالطُّعم. تمتم:

- خدعتَني.

ضحك كيهات. تكلم همساً: «خدعتْك السمكة التي تحولت إلى عقلٍ كرديٍّ في رأسي». أرسل بصره، في إمعان، إلى الضفة المقابلة من النهر. «أرى شقيقةَ نعمان».

رفع بوغوس نظره إلى الضفة المقابلة. تساءل:

- أين؟

أشار كيهات بسبابة يده اليسرى إلى موضع معشب برزت فيه، على حياء، زهرة من «شقائق النعمان»، لم تزل منطبقة البتلات على سرِّها الصغير - سرِّ اللون. إنما بدا لسانٌ أحمر يكاد لا يُلحظ من فم وريقاتها.

«أرى طرفَ لِسانها. هذه شقيقةُ نعمانَ مستعجلة أن تتكلم»، قال بوغوس. نظر إلى كيهات: «لماذا هي مستعجلة للظهور في نيسان؟ موعدها أيار، يا كيهات».

«إنها أرمنية مستعجلة للهجرة»، قال كيهات.

«نعم. مستعجلة للاحتفاء بي قبل وداعي هذه البرِّية، وهذا النهر»، عقَّب بوغوس.

«الشقيقة»، هو اسم الزهرة البرية الحمراء، الرمحيَّة الأوراق، الأحادية لا تشاركها زهرة أخرى على ساقها، لها أربع أوراق، وبقعة داكنة في مركزها. تنمو - أولَ نشوئها - كبُرْشامة صغيرة، منتفخة ببزورٍ سود كُثرٍ في جوفها قبل أن تتفتح أوراقها حُمراً، حريريةَ الملمس، إن مُسِسَت تركت أثراً أحمرَ من صبغ حقيقتها اللونية على الأنامل.

في آثار المعرفة وصْفاً لمقامها ، وفي الآثار المتخيَّلة للحقائق ، أن زهرة «الشقيقة» حظيت في عهد من التاريخ بحماية مَلك هو النعمان بن المنذر ـ ملك أرض الحِيرة ، التي لُقِّب ملوكها بـ «الأشاهب» لجمال وجوههم . أحبَّ الملكُ الزهرةَ الحمراء . أبرم ميثاقاً بين الزهرة وبين قلبه أنها صَفِيَّةُ خياله غراماً بالزهر . منعَ اقتطافَها . حظَّر المسَّ بأوراقها . أوجب على شعبه ذِكرها في تقدير البهاءِ صِرْفاً .

يقال في تصريف التاريخ ـ بحسب مذاهب رواة التاريخ ، وتوثيقه بالحبر ـ إن ملك أرض الحيرة النعمان بن المنذر (٥٨٢ـ ٦٠٩) ، المسيحي النسطوري ، ابن الأم اليهودية من قبائل خَيْبَر ـ أرض الحجر البركاني الأسود ، كان ذا شعر أحمر ، أبْرشَ الجلد . وقد رفض ، في زعم الرواة ، منْح نساءٍ من مملكته لأحد أكاسرة الفُرْس ، فجرَّد كسرى على النعمان جيشاً صادَمَهُ في موقعة «ذي قار» .

لم يصمد النعمان للفُرس حملوا الهولَ إليه على ظهور الأفيال .

شتَّتَت الأفيالُ جيشه . شرَّدت جيشه . ولَّى جيشُه هارباً .

في موصوفات الخسارة ، بحسب الرواة ، أن فيلاً داس النعمان مراراً فمعس لحمَه ، وسحقَ عظامه .

وفي الموصوفات المؤرَّخة أن جماعة من أهل بيت النعمان بن المنذر استعطفت كسرى الفُرس أن يمنحهم جثته ، فَرَقَّ لهم ، ومنحهم الجثة المنسحقة .

دُفنت الجثة . تعاقبت الريحُ على القبر بقراءات من كتابها تتوازى فيه سطور الفصول متواليةً كجِراء يعضُّ الواحد ذيلَ الآخر من حول أمِّهم السماءِ الكلبة . قلَّب الترابُ على القبرِ الترابَ حتى أحكَمَ الإهالةَ على بزور البرِّ نباتاً وأزاهير .

كلُّ تراب من تراب البرِّ شحاذٌ يجمع باستجدائه ، في الربيع ، شتاتاً

من البزور الوحشية . يدفنها في غور رغبته ، ويطْلقُها من ثم متألقةً أعشاباً ، ونباتاً ، وأزاهيرَ قصيرات الأعمار .

التراب فوق قبر النعمان بن المنذر ، بحسب الموصوفات المؤرَّخة ، لم يمتثل لطبيعة التراب في الجمع بين بزورٍ شتى . خصَّ نفْسه ببزر «الشقائق» لا شريك لها فوق القبر .

سمَّت العربُ الزهرة الحمراء باسم «شقائق النعمان» ، امتناناً من تلك الزهرة لَما شرَّعه الملكُ المقهور بجبروت الأفيال من تخصيصها بالتكريم ، وأُجيز الجمعُ كصيغة للمفرد في اسمها : «شقائق النعمان» .

في كتاب «تذكرة ابن داود الأنطاكي» ، المتوفى سنة ١٥٩٩ ميلادية ، وصفٌ لخصائص زهرة «شقائق النعمان» يعتدُّ بها تاريخُ الطب العربي بلا حذر :

١ـ «شقائق النعمان» تُسكِّن وجعَ القولنج .

٢ ـ تزيل البرصَ شراباً وطِلاءً .

٣ ـ تخفف من ظلمة العين تقطيراً .

٤ ـ تقطع الرُّعاف إن استُنشقَ مسحوقُها .

يقول ديوسْكوريدِس ، الطبيب الإغريقي من قاطني التاريخ في السنة الرابعة للميلاد :

١ـ إستنشاق مسحوق الشقائق ينقِّي الرأسَ .

٢ ـ إن مُضغت الزهرةُ أوقفت البلغم .

٣ ـ إن طُلي بها الجربُ المتقرِّح تقلَّع وتقشَّر .

٤ ـ إن طُليت بها العين برَّأت أورامَها .

يقول عيسى بن علي الطبيب (٩٢٠ ـ ١٠١٠م) :

١ ـ خلطُ «شقائق النعمان» مع قشور الجوز الرطب ينفع في صناعة صبغٍ للشعر شديد السواد .

٢ ـ عصارة «شقائق النعمان» تزيل البياض من العين تقطيراً .

يقول الملك المظفَّر يوسف بن عمر الغسَّاني التركماني ، المتوفى سنة ٦٩٤ هجرية ، في كتابه «المُعتمد في الأدوية المُفردة» عن «الشقائق» :

١ ـ شرابُها مُدرٌّ للبول .

٢ ـ تُحْدث الطمثَ إذا احتملت بها المرأة {في فرْجها} .

٣ ـ عصارتها تنقِّي الدماغ إذا سُكبت في المنخرين .

أما في كتاب «الماء» لأبي عبدالله بن محمد الأزدي الصحاري (توفي سنة ٤٥٦ هجرية) فـ «شقائق النعمان» صنفان :

١ ـ بستانيٌّ ، منبسط على الأرض كورق الكزبرة .

٢ ـ بريٌّ ، أعرضُ أوراقاً ، وأعظم قَدْراً .

٣ ـ ينفع بزرُه من البرص .

ولصاحب «كتاب الماء» هذا تفسيرٌ في تلازم اسم الزهرة «الشقيقة» مع اسم الملك النعمان بن المنذر . فـ «نعمان» ، بحسب تعبيره اللغوي ، هو من أسماء «الدم» . والجامع بين الدم وزهرة «الشقيقة» ، هو اللون الأحمر .

فيما يزعم الطب الحديث :

١ ـ شراب «الشقائق» يعالج الإضطرابات النفسية .

٢ ـ يمكن صنعُ شاي مكوَّن من «الشقائق» ، ومن الشوفان ، ومن عشبة البيلسان ، وزهرة الآلام الحمراء ، التي اسمها ـ أيضاً ـ «العاطفة الحمراء» ، المنتمية إلى جنس «البُتُلِ» العذراوات . وهي توصف شراباً بغليِ مسحوقها في الماء .

في التلخيص الختام لاجتماع اسم الزهرة «الشقيقة» واسم النعمان ، أن بزر هذه الزهرة نَمَا كثيفاً فوق القبر ، فكُنِّيت به ، ودُعيت «شقيقة النعمان» ، أيْ : أخته المواسيةُ وحدتَه ووحشته .

غير إن الإسم تسلل من الخيال العربي البريِّ إلى خياله البحري . فقد

سمَّى مخلوقاً بحرياً ، هلاميَّ التكوين ، باسم «شقائق النعمان» ، توسيعاً لسِجلِّه من إدراج مخلوقات البحر في تصانيف مخلوقات البرِّ من الأسماء التي تخصُّها :

كلب البحر .

جراد البحر .

فرس البحر .

أسد البحر .

شيطان البحر .

حورية البحر .

فراشة البحر . إلى آخره .

ويوازي ذلك إلى ما أطلقه الخيال العربي من أسماء نبات البرِّ على نبات البحر :

خسُّ البحر .

قِثّاء البحر . إلى آخره .

وأجرى ، أيضاً ، أسماءَ بعض آلات من البرِّ على مخلوقات البحر :

قنديل البحر .

سمكة القرش المطرقة . إلى آخره .

لكن لم يخطر للخيال ، في تصنيف مخلوقات البحر وفق مماثلاتها من مخلوقات البحر ، أن يسمي الأخطبوط مثلاً : شاعرَ البحر ؛ أو يسمي صَدَفة التُّونا الجبارة باسم دراجة البحر النارية ، أو الهوائية .

«شقائق النعمان» البحرية من اللّافِقاريات ، ذوات مظاهر تشبه الزهور . كل حيوان منها تنبثق من كتلته الصغيرة ، التي لا تُجاوز خمسة عشر سنتيمتراً ، لوامسُ كُثر كالحلمات ، سامَّة . وهو يعمِّر فيبلغ خمسين سنة أحياناً .

يتوالد الحيوان من يرقات تخرج من فمه . تنقسم جسوم اليرقات بملامستها الصخور . كل جزء يصير زهرةً حية ـ حيوانية .

كتلته الرخوةُ ـ الكيسُ ـ بلا عينين ؛ بلا أذنين ؛ بلا أنف ؛ بلا دماغ : هو أعصاب فقط ، تفكّر ، وترسم الخطط بنظام كالمصادفات المحسوبة هندسياً ، ورياضياً .

سياسةُ هذا الحيوان الهلام في تجديد لوامسه الحلمات ، كي يظل فتياً ، هي بسْطُهُ الحمايةَ لسمكة اسمها «المهرِّج» ، تدخل بين لوامسه فتأكلها . لونها برتقالي ، بخطوط بيض عراض على جسمها ، وخطوط سود تحيط بالخطوط البيض فتظهِّرها أوضحَ تصميماً . هي شعاعية الزعانف ، على طولٍ بين العشرة والثمانية عشر سنتيمتراً . من خواص عيشها الإقامةُ في المياه الدافئة من أقاليم الأرض المائية . وهي الأوفر حظاً في أقاليم العالم من شغف البشر بها يقتنونها في أحواضِ زجاج داخل بيوتهم زِيْنةً .

في السياقات المفهومة ـ اللامفهومة أنْ يتَّخذ الملوكُ مهرجين في بلاطاتهم للترفيه عنهم ، وعن ضيوفهم ، بالمساخر ، والأهازيل ، والأضاحيك ، لا يحاسبونهم حتى لو تطاولوا على مقامات أهل الحاشية تقليداً لحركاتهم ، وأصواتهم . ولربما لا يحاسبونهم إن قلَّدوا الملوكَ أيضاً على مرآى من الملوك .

المهرجون معصومون برغبة الملوك في التنازل قليلاً عن هيبتهم ، على قَدْرٍ يفهم كلٌّ من حولهم أن ذلك التنازل ترفيهٌ . قد يتواطأُ الملوك مع مهرِّجيهم بتلقينهم تسديدَ سخرية إلى أشخاصٍ مّا بعينهم في بلاطاتهم ، أو بتوكيلهم قولَ جُمَلٍ يتبلَّغ منها بعضُ قُوادِهم ما لا تريد الملوك قوله مباشرةً لقُوادهم .

المهرجُ صانعُ كنايات بليغة ، في بلاط الملك ؛ بآلات الخِفَّة . فما الذي يجمع بين سمكة «المهرج» ، وبين الحيوان الرخوي المدعوِّ «شقائقَ نعمان» البحر؟

السمكةُ «المهرج» تعيد الشبابَ إلى لوامس الحيوان البحري المسمى «شقائق البحر» في التصريف العربي للتعريف: تأكل قديمَ اللوامس لينمو جديدُها. إنها تنظف حيوان «شقيقة النعمان» البحري من الشيخوخة. وهي تتلقى مقابل ذلك حمايةً من الحيوان الهلامي السامِّ اللوامس، إذْ تمكث قرب أولئك اللوامس، أو بينها، فلا تتجرأ سمكة أن تهاجمها لاقتناصها. اللوامسُ الحلماتُ المسمومة، في كتلة جسم «شقيقة النعمان»، لا تستهين بها سمكة قط.

السمكةُ «المهرج» تجدِّد شباب حيوان «شقائق النعمان»، والحيوان الهلام يحفظُها آمنةً، مطمئنة، بسُلطة سُمه الرادعة.

أتُعْرف «شقائق نعمان» البحر باسم «زهرات الرياح»؟ لا يؤكد ذلك مصْدرٌ في تصانيف الوصف، مُذْ ـ ربما ـ لا رياح تحت ماء البحر بل تيارات. لكنه معروف في وصف «شقائق نعمان» البرِّ: لقد سُمِّيت باسم «زهرات الرياح».

لم يخطر ببال كيهات أنه ينظر، من الضفة الغربية للنهر، إلى «زهرة الرياح»، في تحديقه إلى الزهرة الخجولة بعدُ، على الضفة الشرقية، منطبقةَ الأوراق إلاَّ عن لسانٍ أحمر صغير بارز من فم بُرْشامتها الشبيهة بقَطْرةٍ خضراء داكنة.

«شقائق النعمان» زهراتٌ يتمرأيْنَ وقتاً قصيراً في مرآة البرِّية، من كل منتصف ربيع، ثم ينكفئنَ إلى خُدور تبتُّلهنَّ عودةً إلى النظام المتعاقب من توالد الأزاهيرِ في الفصول، قانعاتٍ بالحظوظ القِصارِ لهنَّ سحرُهن على أسرَّة الأساطير.

«حاااا» هتف كيهات. سَلَّ شصَّيْه السنارتين المزدوجتين من الماء علِقت بواحدة منهما سمكة لا تجاوز أنملتَيْ إصبع طولاً. لا يهم. غبطةُ كيهات بالصيد للسمكةِ الفرخِ الضئيلة كانت أكبر حَجماً من نعجةٍ.

وضع كيهات السمكة الرقيقة الجسم، تكاد تكون شفافة من طراوة عمرها، أرضاً. تركها تتخبط فوق العشب. نظر إلى بوغوس:

- أهذه السمكة ذكر، أم أنثى؟

ابتسم بوغوس:

- سأتعلم في أرمينيا كيف أميِّز بين سمكٍ ذكرٍ، وسمك أنثى، من أول نظرة.

«حين تتعلم ذلك في أرمينيا، اكتب إليَّ كيف تفرق بين سمكٍ مسلم، وسمكٍ مسيحي»، عقَّب كيهات.

«الأمر سهل، يا كيهات. السمك المسلم مختون»، قال بوغوس.

«ماذا عن السمك اليهودي؟»، سأله كيهات.

تظاهر بوغوس بالتفكير في حلٍّ للمعضلة. عاد بجواب بعد برهة:

- ألا يختتن اليهود أيضاً مثلكم؟

«أظنهم يختتنون»، رد كيهات.

«كيف التمييز بين ذكور السمك المسلم وذكور السمك اليهودي؟»، تساءل بوغوس. أردف: «قد تعتمر الأسماك اليهودية قبعات كِيبَاهْ». هز يدَه يعترض بنفسه على استطراده: «المسلمون أيضاً يعتمرون قبعات كيباهْ في الصلاة، أليس كذلك؟»، زفر: «لن ندخل في تعقيدات كهذه. الأمر بسيط: إن تكلمت الأسماك بالعبرية كانت يهودية».

«هذه أفضل طريقة أرمنية للتمييز بين الأسماك»، قال كيهات. «أتعلِّق الأسماك المسيحية صلباناً في أعناقها لنميِّزها عن السمك المسلم واليهودي؟»، تساءل كيهات.

«هذه طريقة قديمة في إعلان المسيحي عن مسيحيته»، عقب بوغوس. «الأجيال الجديدة من الأسماك المسيحية تُعْرف ذكورها من تسريحات الشعر المدهون بالمراهم العطرية، وتُعْرف إناثها من تنانيرهن القصيرات».

وضع كيهات راحة يده على السمكة التي تصيدها رآها تقفز قفزةَ نَزْعِها الأخيرة صوب الماء . زحف بها على العشب إلى الخلف . رفع بصره إلى صاحبه . قال بنبرٍ مُبَالَغ في هدوء البوح فيه :

– سأريك شيئاً ، يا بوغوس .

«أرِني سربَ أسماك يقفزن من النهر إليَّ متوسلات أن أصحبهن إلى البيت . فإن أخبرتُ السربَ أنْ لا كيسَ كبيراً معي لأحملهن فيه ، أقسمن لي أنهن سيتبعنني ركضاً على زعانف أذيالهن ، فوق الطريق الإسفلت حتى بيتنا» ، قال بوغوس .

«ردُّك طويل» ، عقَّب كيهات . نبشَ بطانة سترته ، في الموضع الذي فيه شقٌّ صغير جداً . أدخل إصبعه فيه . زحف بشيء من وراء قماشة البطانة حتى فُتحة الشق . أخرج قُصاصة من الورق لا تتعدى سنتيمترين مربعين ، مطوية أربع طيات . بسطها أمام بصر بوغوس : «هذا ما عنيتُ أن أُريكَه» .

«هذه الورقة؟» ، تمتم بوغوس . حوَّل بصرَه عن الورقة إلى خيط قصبته يرصد الفلِّينة إن تحركت . أعاد بصره إلى الورقة : «ما هذه؟» .

«انظرْ إليها جيداً» ، قال كيهات .

حدق بوغوس ملياً إلى الورقة . تمتم :

– ما هذه الحروف؟ أهي كلدانية؟

«لا» ، رد كيهات . أردف : «عبرية» .

زفر بوغوس مستغرباً :

– عبرية؟!

«نعم . عبرية» ، أكَّد كيهات .

تأمل بوغوس وجه كيهات باستغراقٍ فيه :

– ما هذه الحروف العبرية؟

«كلمة» ، رد كيهات .
«كلمة؟» ، تمتم بوغوس متسائلاً .
«نعم . كلمة» ، رد كيهات مؤكداً .
«ما هي الكلمة هذه؟» ، سأله بوغوس .
«أحبك» ، رد كيهات .
ابتسم بوغوس . تمتم :
- أهذه شِفرة من شِفرات الجواسيس؟
«هذه كلمة تعني ما تعنيه ، يا بوغوس» ، أوضح كيهات .
«منذ متى تعرف الكتابة بالعبرية ، يا ابن الملائكة؟» ، سأله بوغوس ، فرد كيهات :
- كتبها لي زميلنا سمير .
ضحك بوغوس . عقَّب :
- أهو يحبك؟
«إنها مكتوبة لأنثى ، يا بوغوس» ، قال كيهات .
«لِمَ تحتفظ بهذه القصاصة من حروف عبرية في بطانة سترتك ، يا كيهات؟ أتخفيها عن رجال الاستخبارات؟» ، سأله بوغوس .
«ما بك ، يا بوغوس؟ تجعلني أحسُّ أنني جاسوس» ، رد كيهات .
«لم أفهم شيئاً» ، عقَّب بوغوس . «ماذا تفعل هذه الورقةُ بالكلمة العبرية فيها معك؟ ما قصدك منها؟» .
تنهَّد كيهات . شقَّ سِرَّه الصفيحَ ، المغلقَ على حرقة قلبه ، بفأس اعترافه :
- أحب فتاة يهودية ، يا بوغوس .
فتح بوغوس فمه متفاجئاً . تفرَّس في ملامح كيهات :
- منذ متى؟

«منذ ما لا أدري ، يا بوغوس» ، رد كيهات بنبرٍ مستأنس إلى تلقّي صاحبه اعترافَه الجمرَ كتمَهُ طويلاً في تنُّور قلبه .

«أهذه الكلمة بالعبرية هي اعترافك لها بحبِّك؟» ، سأله بوغوس ، فرد كيهات :

- بلى .

«أهي تحبك؟» ، سأله بوغوس .

«لا أعرف» ، رد كيهات معتصِراً ملامح وجهه فجعَّدها .

«ما الحماقة هذه أن تصارحها بحبك في ورقة عليها حروف الكلمة بالعبرية؟» ، سأله بوغوس .

«معقَّدٌ أن أشرح لك ، يا بوغوس» ، رد كيهات .

«لا تعقيدَ . لا تبسيط . لا أمة عربية واحدة . أنت متردِّد ، جبان ، خوَّاف» ، قال بوغوس .

تنهَّد كيهات استسلاماً لا يدافع عن نفسه . تطلع إلى بوغوس بنظرة توافِقُه على وصفه بالمتردد الخائف من الإعتراف للينا . تمتم :

- ماذا عليَّ أن أفعل؟

«أخبرْها بلسانكَ الكرديِّ العربيِّ عن حال قلبك الياباني» ، رد بوغوس .

هأْهأَ كيهات مستظرفاً عبارات بوغوس . تنهَّد :

- ماذا لو جَفلتْ لينا من اعترافي؟

«أإسمها لينا ، يا ابن الملائكة؟» ، عقَّب بوغوس .

«اسمها لينا» ، أكَّد كيهات . أردف : «لها أخت متزوجة من رجل أشوريٍّ» .

«هِهْ» ، تمتم بوغوس . «صِرْ أشورياً . ذلك هو الحل» .

«اقترحْ عليَّ شيئاً ، يا بوغوس . ماذا تفعل لو كنتَ محلِّي؟» ، سأله كيهات .

«كيف تزوجت أختها اليهودية مسيحياً أشورياً؟ ماذا عن أهلها؟» ، عقَّب بوغوس .

«هربا معاً» ، رد كيهات .

«صِرْ أشورياً . اختطفْها . اهْربا معاً . تزوَّجا» ، عقَّب بوغوس . ابتسم في خبث : «بعد أن تتزوَّجا في كنيسة أرثوذكسية أرِها قصاصة الورقة التي معك» . ضحك . رفع صوته عالياً ينشره في البرِّية ، وعلى ماء النهر بين الضفتين : «أحبكِ يا لينا» .

«اهتزت الفلينة» ، قال كيهات ، مشيراً إلى الخيط في قصبة بوغوس .

شدَّ بوغوس الخيطَ . نظر إلى الشَّصيْنِ السنارتين . هرَّ هريراً :

- سُرقت الدودة .

تلفت كيهات إلى موضع الديدان التي انتزعها بوغوس من وحل الضفة . كانت العجينة هناك على القُصاصة المقتطعة من صحيفة ، لكن لم يرَ ديداناً .

تلفَّت بوغوس بدوره إلى موضع الديدان ليعوِّض ما فقده :

- أينها؟

«هربتْ . سأستخرج بعضها» ، قال كيهات . «أعطني سكِّينك» . غرز عقب قصبته في الأرض الرخوة .

لم يُخرج بوغوس سكِّينَه المطواة من جيبه . بدا غيرَ مهتم ، حقاً ، أن يجدِّد الطُّعم في السنارة . ردَّ :

- سأكتفي بالعجينة .

«لا تبدو متحمساً للصيد» ، عقَّب كيهات .

«ليس مهماً أن نتصيد أحياناً ، يا كيهات . التفكير في الصيد هو المنعش . الرحلة من المدينة إلى هذا الموضع من النهر منعشة . الريح منعشة . شجرات الكينا ، اللواتي لن نجدهن ربما في الربيع القادم ،

منعشاتٌ» . قال بوغوس . استدرك : «أعني أنك لن تجدها ، يا كيهات ، إذا جئت لصيد السمك هنا . سأكون في أرمينيا» .

«أتظنني سأعود إلى صيد السمك ، على هذا البعد من المدينة ، وحدي؟» ، تساءل كيهات .

«جِدْ صديقاً أرمنياً آخر . سأهَبك قصبتيِّ الصيد هاتين» ، رد بوغوس . ابتسم : «سأتصيد الأسماك ، في أرمينيا ، بالشبكة» . رمى بالشصين إلى الماء في أحدهما العجين ، والآخر فارغ . غرز عقب قصبته في الأرض المعشبة الرخوة . نهض ماشياً بجوربيه إلى حقيبته . استخرج كيساً ورقياً . «ألم تَجُعْ ، يا كيهات؟» .

«ليس وقت الغداء بعدُ» ، رد كيهات .

«الوقتُ هو المستعجل . جاءَ الوقتُ فجُعْتُ» ، قال بوغوس .

فتح كيهات قُماشة الصُّرة المستطيلة ، الزرقاء . بسطها على الأرض المعشبة . ثبَّت أطرافها بحقيبة بوغوس ، وبحذائيهما كي لا تعبث بها الريح . وضع هو ورفيقه عليها ما حملاه من خبز ، وجبن ، وبيض مسلوق .

ابتسم بوغوس محدِّقاً إلى كيهات ، كأنما يُقْدم على إفشاء سر . أخرج من حقيبته الصغيرة علبة سردين ملصقٌ بها مفتاحها .

شهق كيهات مغتبطاً من مرأى العلبة الصغيرة ، المستطيلة ، المقوَّسة من جهتين . أدخل بوغوس لساناً معدنياً رقيقاً ، زائداً عن غطاء العلبة ، في سُمِّ المفتاح السلكِ الصلب ، ذي المقبض المفلطح . أدار المفتاح بأصابعه فانتزع الغطاء الصفيح لِفافةً ملتفَّةً على قضيب المفتاح . بانت الأسماك الفضية الصغار متجاورة ، متلاصقة ، بلا رؤوس ، مغمورة بالزيت النباتي .

تناول الصاحبان غداءهما المبكر في الريح شهياً . لم يعبأ بقصبتي الصيد إن تحركت فلِّينتاهما أم لم تتحركا غطساً أو اهتزازاً . تمدَّدا على العشب بعد الغداء . أغمضا عيونهما . تناوَما .

تمتم بوغوس المتمدد على ظهره، مستنداً برأسه على راحتي يديه من وراء قَذاله:

- سأرسل إليك أسماكاً من أرمينيا، يا كيهات.

«كم من الوقت يلزم أولئك الأسماك أن يصلن إلى قامشلو من أرمينيا، يا بوغوس؟»، سأله كيهات.

«لا يهم. ستصل الأسماك إليك»، رد بوغوس.

«ستصل متعفنة»، عقَّب كيهات.

«الأسماك اللواتي سأرسلهن إليك من أرمينيا لا يتعفَّنَّ، يا كيهات»، رد بوغوس.

«أسترسلهن مخلَّلات، أم مملَّحات؟»، سأله كيهات، فرد بوغوس:

- لا تخليل. لا تمليحً. سأرسلهن بعد تلقينهن أن الأسماك أيضاً أمَّةٌ واحدة، ذات رسالة خالدة.

قهقه كيهات ولم يزل مغمض العينين، يستعين بالصِّور في خيال العماء على ابتكار الواقع ذي الزعانف الرملية:

- أإن عرفت الأسماك أنهن أمة واحدة، ذات رسالة خالدة، لا يتعفَّنَّ إذاً؟

«هذا من أسرار الخلود، يا كيهات»، رد بوغوس.

«كيف سترسل أولئك الأسماك إليَّ؟»، سأله كيهات، فرد بوغوس:

- ماذا تعتقد، يا كردي؟ أسماك كأولئك لا يوضعن في مغلفات رسائل، أو صناديق. سأرسم لهن خريطة العبور من أنهار أرمينيا إلى أنهار تركيا، ومن تركيا إلى أنهار سوريا. ستجدهن كل عام، في مثل هذا الوقت، مستلقيات على ضفة النهر هنا ينتظرنك.

هأْهأَ كيهات هأهأةً خفيضة، مستنفدَة كالثرثرة استنفدتِ الصديقين. ظلاَّ هكذا صامتين في استلقائهما، تصطفق من فوقهما غصون شجر

الكينا . رفعا ، بين حين وآخر ، رأسيهما مستطلعيْنِ القصبتين مغروزتين من عقبيهما على حافة الضفة .

«ليتني كنتُ أكثر حماسة لصيد السمك اليوم ، يا كيهات . اعتراني فتورٌ» ، قال بوغوس .

«أرمينيا تسيطر على رغباتك . أمرك مفهوم» ، عقَّب كيهات .

«فهمتَني» ، قال بوغوس . نهض : «لم تتبقَّ إلاَّ حوائج قليلة نحزمها في البيت . نحن ننام على الأرض هذه الأيام» .

«أنقلتم أثاثكم إلى أرمينيا؟» ، سأله كيهات .

«بعنا أكثر أثاث البيت في المزاد» ، قال بوغوس . جمع ما تبقى من الطعام في القماشة التي افترشاها سِماطاً . جعلها صُرَّة ومدَّها إلى كيهات :

- خذْ هذه البقايا للعشاء .

وضع كل منهما أغراضه على مقعد الدراجة الخلفي ، الذي ينطبق غطاؤه بلوالبه القاسية كفكِّ فخٍّ على الأَحمال فيحفظها ثابتة . ارتديا حذاءيهما . مضى بوغوس إلى القصبتين . انتزعهما من الأرض . تطلَّع إلى سنانيرها . لا شيء . لفَّ الخيطين البلاستيك على القصبتين فجعلهما حزمةً . قدمهما إلى صاحبه :

- هاتان لك ، يا كيهات .

تناول كيهات قصبتيٍ الصيد بابتسامة مشبعة امتناناً .

«ماذا ستفعل بتلك المسكينة؟» ، سأله بوغوس ، مشيراً برأسه إلى السمكة الصغيرة ملقاة على العشب .

«أتعني السمكة؟» ، قال كيهات .

«أهناك مسكينةٌ غيرُها؟» ، تساءل بوغوس .

«سآكلها» ، رد كيهات بنبرٍ واثق .

«لا تكفيك نصف لقمة ، يا كيهات . ارْمها إلى الماء تأكلْها أخواتُها» ، عقب بوغوس .

«نصف لقمة؟» ، تمتم كيهات بنبرٍ ساخر . «سآكلها مع رغيف كامل من خبز التنور» .

«خطة فقيرة جداً لوجبة من هذه السمكة البائسة» ، قال بوغوس .

«ألا تصدقني؟» ، سأله كيهات .

«الشيطان نفسه لم يسبقك إلى أكل سمكة بطول أنملتين مع رغيف كامل من خبز التنور» ، عقَّب بوغوس . «إلاَّ إن كنتَ معجزة كردية» .

«أنا معجزة كردية ، يا بوغوس . سآكل هذه السمكة مع رغيف كامل» ، قال كيهات .

«كيف؟» ، سأله بوغوس . أردف : «كم لقمة يمكنك تقسيم رغيف من خبز التنور؟» .

«الرغيف عشرون لقمة . خمسة وعشرون ربما» ، رد كيهات .

«كيف ستقسم هذا السمكة الفقيرة إلى عشرين لقمة؟» ، سأله بوغوس .

«لن أقسِّم السمكة . أنا ساحر» ، رد كيهات .

«بُحْ لي بسرِّ سحرك» ، قال بوغوس .

«سأقلي السمكة في الزيت» ، رد كيهات . «سأضع السمكة والزيت الذي قليتها به في صحن . سأقتطع لقمة من رغيف التنور ، كل مرة ، وأغمسها في الزيت ، ثم ألمس بها السمكة لمساً قبل وضع اللقمة في فمي . سأضع السمكة على آخر كسرة من الخبز وألتهمهما معاً» . رمى العجينة من قصاصة ورقة الصحيفة . لفَّ بها السمكة . دسَّها في جيب سترته الأيمن .

حدق إليه بوغوس مفتوح الفم إعجاباً بخطته في صُنع وليمة من سمكة لا تُجاوز أنملتي إصبع طولاً . تمتم :

- أنت حقاً ساحرٌ كردي .

اعتلى الصديقان دراجتيهما ، في ظهيرة ذلك اليوم النازف رياحاً من كل جرح فيه . قاداهما على الطريق الإسفلت تتمايل قصبتا الصيد من خلف كيهات ثبَّتهما واقفتين بربطهما إلى المقعد الخلفي .

«كم من الوقت تبقَّى لتغادروا سوريا ، يا بوغوس؟» ، سأله كيهات .

«القليل» ، رد بوغوس بنبرٍ لم تَخْفَ فيه على كيهات حسرةٌ مًّا ، خفيفةٌ خفيضة .

«أستشتاق إلى قامشلو ، يا بوغوس؟» ، سأله كيهات ، فردَّ صاحبه :

- سأشتاق إلى القامشلي إذا اشتاقتْ إليَّ .

«كيف ستعرف أن قامشلو تشتاق إليك؟» ، سأله كيهات ، فرد بوغوس :

- إنْ كلمتْني في أحلامي باللغة الأرمنية .

«حصادات القمح الآلية يظهرن لأبي ، في أحلامه ، وهنَّ يكلمنه باللغة الكردية» ، عقَّب كيهات .

«الحصادات؟» ، تمتم بوغوس ، المجاور بدراجته دراجةَ صاحبه تكادان تتلامسان .

«موسم الحصاد يقترب . الكل مشغول بترميم الحصادات وصيانتها» ، قال كيهات .

«ماذا ستفعل أنت الآن؟» ، سأله بوغوس .

«ماذا تعني؟» ، تساءل كيهات .

«حبيبتك» ، رد بوغوس وهو يغمزه بعينه اليمنى .

«سأعترف لها ، في أول لقاء ، حتى لو سلختْ جلدي بسكين من سكاكين أمها» ، رد كيهات .

«أتبيع أمها السكاكين؟» ، سأله بوغوس ، فرد كيهات :

- تبيع اللحم .

كلُّ فسحة من الأرض عارية ، لا بيوت فيها ، بين أحياء المدينة ، أو على تخومها القَريبة من الشوارع ، شَغَلَها فرقاء من العاملين على ترميم حصَّاداتهم الآلية . هُم يتهيَّؤون للحصاد منذ مطلع أيار . يريدون آلاتِهم مضمونةَ الولاء ، لا تغدر ولا تخذل حين دفعها إلى الحقول ، على ارتباط بمواعيد إنجاز الحصيد بلا تأخير ، لدفع المحاصيل إلى الأسواق تجارةً بها في المدينة ، أو شحناً للمحاصيل في الشاحنات ، أو في القطار الوحيد على سكَّته الملاصقة للحدود التركية ، إلى مدن الداخل الكبيرات .

حاجو ، جدُّ كيهات ، وشريكه إسمعيل حاموش ، احتكرا عراءً إلى الغرب من سور ملعب كرة القدم الجديد الإنشاء ، المُهمل بلا إنجاز يجعله ملعباً بلدياً مُعتَبَراً بعدُ ، في الحي الغربي من المدينة ، له بوابة حديد لا تُغلق .

أوسي ، والد كيهات ، التحق بفريق أبيه وشريكه في الأرض العراء تلك ، القريبة من الطريق الإسفلت الواصل بين مدينتي القامشلي والحسكة . نُصبت ثلاث خيام لعمال الصيانة ، وطبَّاخ الفريق ، ومالكَيْ حصادة «جون دِيْرْ» ، الخضراء ، المهيبة الهيكل ، وسيارتَيْ الـ «بيك أب» الرماديتين لنقل أكياس المحاصيل فيها ، آنَ الحصاد ، إلى مستودعات أصحاب الحقول المسقوفة بعضها ، وغير المسقوفة بعضها تحت الشمس .

كان عمال الصيانة قد فكَّكوا الحصادة الضخمة قِطعاً كباراً وصغاراً ، لتزييت مفاصلها بالزيوت المعدنية والشحوم ، وتبديل الشفرات المثلثة في مقصات سيقان القمح والشعير ، وتثبيت ألواح خشب جديدة لمروحتها الأسطوانية الطويلة أفقياً في مقدَّمها ، إن أُديرتِ المروحة جذبت السنابلَ فأحنتْها لتستحكم الشفرات المتحركة قطعَها من سيقانها ، في المواضع الأقرب من السنابل إلى الأرض .

بالطبع جرى أمرُ الصيانة على سيارتَيْ الـ «بيك أب» أيضاً ، وفق

مقتضى الحرص الشديد في التخطيط للعمل الموسمي ، بإشراف ميكانيكيِّ الفريق باسيل دِيْكران السرياني ، المتخرِّج في علوم صيانة الآلات ، وتصليحها ، تخرُّجاً فطرياً من مشاغل الأرمن الحُذاق ، ومعاملهم الكبار في تصليح السيارات وترميمها .

كيهات ارتادَ مخيَّمَ فريق جدِّه في الصيانة مراراً ، كلما سنحت له الفرصة بعد العودة من المدرسة إلى البيت ، وتناوله الغداء ، بالرغم من بُعد موضع المخيم عن بيتهم الذي على تخوم شارعين من الحيِّ اليهودي .

شيءٌ مَّا يُفتن كيهات في زيارة عمال الصيانة عصراً ، أو في يوم الجمعة العطلة . جدُّه ، وأبوه ، وشريك جده ينامون ليلاً في الخيام ذاتها مع العمال ، إشرافاً على سير العمل دقيقاً بلا مفاجآت ، ومشاركةً في وقائع أيامهم على قُرب منهم . وقد دأب الشريكان ، أيام الجمعة الثلاثة ، قبل موعد البدء بالحصاد ، على تخصيص المخيم بوجبة مَلَكية في العشاء : يقود أوسي إحدى سيارتي الـ «بيك اب» إلى مطعم جَانيْكْ الأشهر في المدينة بشوائه الكباب ، ويرجع بصحفتين مستطيلتين من المعدن التوتيا ، واسعتين ، عليهما خبز الصاج الرقيق فوقه الكباب المشوي بجلال الفحم لحماً مفروماً ، مجبولاً أسطوانات كأصابع طوال ، وإلى جوار أصابع اللحم قِطَعُ الهبر والشحم في حجم الكستنة ، وبندورة مشوية ، وبصل أخضر . في اليوم التالي يعيد أوسي الصحفتين إلى المطعم .

لا طعام يَعْدِلُ ذلك الطعام عشية الجمعة ، مذ تعوَّد عمال صيانة الحصادة والسيارتين على طهوٍ يوميٍّ يتدبره لهم رمضان فرهاد من الباذنجان ، والبندورة المسلوقتين في صلصة حمراء ، إلى جوار برغل ، أو من عدس بالكثير من السمن يأكلونه مع خبزٍ مفتَّت في صحونهم ، أو من بندورة نيئة ، وجبنة ، وزيتون ، ودبس أيضاً ، وشاي لا يحضر طعامٌ إلاَّ حضر بعده الشاي أو معه .

لا متسع لرفاهية من الطعام في أيام صيانة الآلات . طعام مسلوق . بَيض مسلوق . بندورة مع الخبز قضماً . خيار مفروم في اللبن مع الخبز . إلى آخره .

مثيرٌ ما يراه كيهات بعينيه ، وبعيني قلبه ، في مخيم جده وشريكه ، من الآلات في الأنحاء كلها على الأرض ، من حول الخيام ومن حول الحصادة الضخمة . مفكّات براغ . براغ . مفاصل حديد . مطارق وكلّابات . شفرات مثلثة ، سِماك لها أسنَان منشَارية . عُلبُ صفيح فوارغ ، ومِلاءٌ بالشحوم والزيوت المعدنية . أقمشة خشنة ، ملطخة بالزيوت والشحوم ، لها روائح تستسيغها الأنوفُ شماً ، لأنها روائح الفصل القادر على تأمين حصانةٍ من العيش طوالَ السنة لأناسٍ عملهم موسميٌّ لا يتعداه .

مرت عطلة الربيع . لم يمنح كيهات نفسه فرصةً ، بتردده ، لزيارة لينا حاملاً حروفَه العبرية . كان متأكداً ، في صميمه ، أنه إن قابل الفتاة اعترفَ لها . وقد ظلَّ يقلِّب العاقبةَ على صفيح خياله إن صارحها ، في زيارته مخيَّمَ صيانة الآلات . نعم . استجمع كيهات الإصرارَ النهائي على الاعتراف مهما كان ردُّ لينا قبولاً ، أو قطيعةً .

«أحبكِ» ، قال متوهِّماً لقاءها ، ذات مساء خميسٍ إذ استبقاه جدُّه للنوم معهم في المخيم . كان سهلاً قولُ الكلمة وهو يمسح يديه من بعض الشحم المعدني بقماشة خشنة جداً من كثرة استعمالها بلا غسلٍ ، مُذ لن تُغسل تلك الأقمشة المستعملة قط ، بل ستُحرق ، أو تُلقى مُهمَلةً إلى أرض المخيم بعد إخلائه .

درَّب كيهات صوته على الكلمة في العراء ، جائلاً على العمال يختلس من بعضهم ، على غفلة من أبيه وجده ، نَشَقاتٍ من دخان لفافاتهم التي لا تفارق الشفاه . درَّب صوته ، في أعماقه ، على الإعتراف للينا . حضر مباراة في كرة القدم ، داخل أسوار الملعب العالية ، حيث مَرْمَيا

الأهداف الثخينا القضبانِ المعدن بلا شبكتين ، يتطاير الرمل من تحت أقدام اللاعبين على أرض نَمَا عشبُها ، بأحذية عادية وليس بأحذية اللعب ، بينهم لاعب حافي القدمين ، في قمصان متخالفة الألوان داخل الفريق الواحد ، بل بعضهم في قمصانٍ داخلية . يركض أحدهم بالكرة وحده ، من مرمى فريقه حتى مرمى الفريقِ الخصم ، من دون تمريرها لأحد آخر في فريقه ، وسط صرخات الاستهجان من زملائه ، بل الشتائم أحياناً ، من أنانيةِ ما يفعل ، بلا تقيُّدٍ بقواعد المشاركة مع رفاقه .

صرخات الإستهجان من بعض المشجعين لهذا الفريق ، أو لذاك ، من القلَّة الحاضرين ، وصرخات الاستهجان من اللاعبين أنفسهم بعضُهم لبعض ، رافقها صراخُ كيهات أيضاً يردِّد اسم لينا ، فلا ينتبه القريبون منه أهو لقبُ أحد اللاعبين ، أم مجرد صوتٍ تراكبَ حروفاً كما يتنادى البعضُ بكلمات لا معنى لها ، أو قريبة من اللامعنى ، مثل «هيها» ، «توتو» ، «تيتي» ، «فرفور» ، «نونو» ، «نعنوعو» . إلى آخره .

في صباح الجمعة ، بعد قضائه ليل الخميس في مخيَّم الصيانة ، سأل كيهات أباه نقوداً :

- سأشتري لحماً ، يا أبي .

«ماذا في بالك من طعام؟» ، سأل أوسي ابنه .

«كَفْتَة من اللحم المفروم عليه شرائح بندورة» ، رد كيهات .

«يكفيكم نصف كيلو من اللحم» ، عقب أوسي . أعطى ابنه ليرة ونصف الليرة .

عاد كيهات ، بعد إفطار مبكر من الشاي والخبز والزيتون في المخيم ، إلى البيت يغلي دماغه استثارةً من أن يلتقي لينا في حانوت أمها ، بتصميمه أن يعطيها ورقة الحروف العبرية منجِزةً الكلمةَ التي ابتكرها الإنسان لحصار حقيقته .

أخبر امه بعزمه على شراء لحم مفروم . سألها أن يشتري موسى بندورةً من البقال الحلبي لوجبة الكَفتة . مضى إلى حانوت راحيل متعرِّقَ الحاجبين قليلاً من هيبة الموقف سيرمي نفْسه إليه كلصٍّ غير محترف . بلغ حانوت راحيل . كان بضعة رجال من يهود الحي يبتاعون ما يلزمهم . لم ير كيهات لحماً معلَّقاً إلى الخطاطيف ، أو على منضدة التقطيع .

بادل كيهات صاحبةَ الحانوت نظرة خاطفة ، وهي منصرفة إلى تلبية زبائنها ببعض البَيض ، وبعض اللحم القديد ، أو النقانق ؛ وبدجاجة أيضاً طلبها أحدهم . أدار بصره على أرجاء الحانوت الواضحة لا يَخفى شيءٌ فيه . لم يرَ لينا .

حين انصرف آخر الزُّبن تقدم كيهات من المنضدة عليها الميزان ، الذي هو السيرةُ الطويلة في حانوت راحيل من خَفْض اللحم ، ورَفْع اللحم ، وتذكير اللحم بمقدار المال الذي يعادله ثمناً . نظر إلى خطاطيف الحديد الفارغة . تساءل :

- أين اللحم ، يا ست راجيل؟

«لا لحم ، يا كيهات» ، ردت راحيل رداً استنفر عِرْقَ التوجس في خيال كيهات :

- أنفد كلُّ ما عندك من اللحم؟

«لم يحضر الراباي من حلب يوم الثلثاء لذبح النعاج» ، أوضحت راحيل .

تنهَّد كيهات منزلِقَ القلب إلى موضع التيه في كيانه . تمتم :

- لا أرى لينا ، يا ست راحيل؟

«إنها تزور إبنة رئيس الطائفة باروخ ، المعتكف» ، ردت راحيل محدِّقة إلى كيهات ، كأنما تعتذر عن عدم وجود لحم .

«ماذا ، يا ست راحيل؟» ، تساءل كيهات . أردف : «لم أفهم» .

«رئيس الطائفة معتكف . لينا في بيته تزور ابنته . هما صديقتان» ، ردت راحيل .

«لماذا رئيس طائفتكم معتكف ، يا ست راحيل؟» ، سألها كيهات ، فردَّت :

- دائرة الأوقاف الإسلامية تدَّعي ملكيتها على بعض الأرض من حول الكنيس .

حدق كيهات إليها لم يفهم تحديداً أبعادَ المُشكل . سألها :

- أستعود لينا إلى الحانوت؟

«ليس الآن» ، ردت راحيل . تأملت الشابَّ الصغير بنظرة فضول : «ماذا تريد من لينا؟» .

«لا شيء ، يا ست راحيل . تعوَّدتُ أن أراها يوم الجمعة معك في الحانوت» ، رد كيهات .

«رئيس الطائفة معتكف . لن يذهب إلى الكنيس لأداء المراسيم» ، قالت راحيل . شرحت باقتضابٍ زادَ كيهات حيرةً في الفهم ، عن حق «النِّصاب» من عشرة يهود بالغيْنَ يتفقون على إقامة الشعائر .

«منيان» ، تلك كانت كلمة راحيل في توصيف اتفاق اليهود البالغين على اكتمال النِّصاب . هرب كيهات من شرحٍ لم يفهمه إلى الغاية من زيارته حانوت راحيل :

- متى سيحضر الراباي لذبح النعاج؟

«لا أعرف» ، ردت راحيل متطلعةً ، من فوق كتفي كيهات ، إلى زبونين رجلٍ وامرأة دخلا الحانوت . تمتمت : «لا لحم . أتريد شيئاً آخر؟» .

«لا ، يا ست راحيل» ، رد كيهات . همَّ بمغادرة الحانوت فاستوقفته راحيل :

- لماذا لا تشتري دجاجاً؟

«دجاج؟» ، تمتم كيهات . ابتسم : «خطَّة أمي للطهو كانت لحماً مفروماً عليه بندورة ، يا ست راحيل» .

«ما العيب في الدجاج؟ هو لحمٌ أيضاً . فلتقطِّعْ أمك دجاجة وتغمرها بالبندورة في الطنجرة» ، عقبت راحيل ، مرخيةً بصرها إلى أقفاص تحت المسطبة الخشب ، لصق الجدار الشمالي في حانوتها .

«لا أعرف ماذا ستفعل أمي بالدجاج ، يا ست راحيل» ، قال كيهات .

«أخبرتُك ماذا يمكن أن تفعل أمك بالدجاج» ، ردت راحيل . قطَّبت حاجبيها عتباً : «منذ متى لا تعرف الناس ماذا تفعل بالدجاج ، يا كيهات؟ تأكلها الناسُ مطهوَّةً على أيِّ نحوٍ تريد» .

ارتبك كيهات . أخْجَله أن يخذل راحيل فلا يشتري دجاجاً ، وأن يخذل عائلته فلا يعود إليهم بلحم مفروم ، قد يشتريه من السوق المسقوفة ، البعيدة ، لكنه لم يتهيَّأ لذلك .

ابتسمت راحيل متداركةً حَرَجَه :

– كيهات . سأبيعك الدجاجة بليرة واحدة . دجاجتان بليرة ونصف الليرة .

«ماذا؟» ، تساءل كيهات مستغرباً ذلك التنازل الصارخ من راحيل عن سعر دجاجاتها . انحنى يتفحص حجم الدجاجات ، من جانب المنضدة ، فرآهن على حالهن مكتنزاتِ اللحم ، جديرات بإعجاب الشاري ورضاه . لكنه أحسَّ التنازلَ في السعر غريباً على نحوٍ مًّا .

دام تردده لحظات . حرَّضتْهُ راحيل :

– هؤلاء أُخرياتٌ ما أبيعهن من الدجاج .

«أستوقفين المتاجرة بالدجاج؟» ، سألها كيهات ، فردت راحيل :

– الاعتناء بهنَّ متعِبٌ .

«حسناً ، يا ست راحيل» ، حسم كيهات تردده : «أعطيني دجاجتين» .

اختارت راحيل بنفسها دجاجتين من بين الدجاجات التسع . رفعت كل واحدة عاليا أمام بصري الزبونين الواقفين خلف كيهات قبل ربط سيقانهما بشريط صيد الذباب اللاصق . ألقت بضع كلمات بالعبرية من فوق كتفي كيهات . ابتسمت .

دفع كيهات ليرة ونصف الليرة لراحيل . حمل الدجاجتين من سيقانهما ، منكّستَيّ الرأسين أرضاً ، إلى البيت ، في ذلك اليوم الجمعةِ أعتمتِ السماءُ فيه ، وفاحت في الأرجاء رائحةٌ لا يُخطئها أنف التخمين : المطر يتململ في أعشاش الغيم .

حين دخل كيهات باحة البيت تلقف أنفُه قطرةً من مياه السماء . خَطرَ له ، من فوره ، مخيم الصيانة .

غير مريح ، قطُّ ، إصلاح آلات تحت المطر ، من عمال لا تفارق لفافاتُ التبغ أفواههم . من غير تدخين تبغ لا براعة لأيدي المرمِّمين ، ولا مهارةَ في ابتكار الحلول لَما يستعصي حلُّه أحياناً ، كتبديل قِطع تالفة بقطع مستعملة تُشترى رخيصاً ، أو جديدة غالية . دخان التبغ ـ في رئات عمال الصيانة والترميم ـ إلهامٌ ؛ وحيٌ ؛ إشراقٌ روحانيٌّ من خيال الإنسان إلى خيال المعدن ؛ إرشادٌ إلى المخارج إن تاهَ عقلُ التدبير .

تلفَّت كيهات ، في دخوله باحة البيت ، إلى دجاجاته مططن أعناقهن من حول البئر ، فضولياتٍ من مرأى دجاجتين من نوعهن منكَّستي الرأسين ، بأجنحة مبسوطة من غير خفق ، أُحضِرتا إلى بيت أوسي كما حضرن هُنَّ تماماً منكَّسات . الديك الأسود لم يُعِر كيهات لفتةً بانصرافه إلى ما يشغله على الحدِّ بين القُنِّ وحقل الورد نبت ورقُ شُجيراته أخضر طرياً . الدجاجة الرومية ـ الحبشية ظلت على حالها جاثمة قرب جدار كوخ

التنور، لا مكترثةً إلاّ بالجهات التي لا تخطر على بال الإنسان في تصنيفها جهات: ذلك من علوم الطير، على أية حال.

حوَّل كيهات بصره عن طيوره إلى باب غرفة أبويه، فرآى أخاه موسى محدِّقاً إليه من شقٍّ واسع بين دفتي الباب. كان مبتسماً، لكن مستغرباً أيضاً. نادى:

– أمي. جاءنا كيهات بلحم مفروم في كيسين من الريش.

«ماذا؟»، تناهى صوتُ هدلا المتسائل إلى سمعِ ابنها.

«دجاج مفروم مع ريشه»، أوضح موسى ساخراً.

«ماذا؟»، عاد صوتُ هدلا متسائلاً، من جديد، إلى سمع كيهات.

«تعالي، يا أمي»، نادى موسى أمه. «جاءنا كيهات بنعجتين ترتديان جلدَيْ دجاجتين عليهما ريشٌ غير منتوف».

ظهرت هدلا من الباب في وصول كيهات إلى بُعد خطوة منها. تأملت الدجاجتين منكِّستين في يديْ إبنها برأسين إلى أسفل:

«أهاتان دجاجتان؟»، تساءلت هدلا بنبرٍ بريءٍ، مستغرب.

«لا، يا أمي»، سارع موسى إلى الرد: «هاتان نعجتان مسخهما اللهُ دجاجتين».

وقف كيهات أمام الباب. رفع الدجاجتين المنكَّستي الرأسين يستعرضهما على بصر أمه. تكلم بنبرٍ فخورٍ:

– اشتريتهما بليرة ونصف ليرة.

«الدجاجتان؟»، تساءلت أمه موسِّعةً بين أجفان عينيها.

«الإثنتان معاً»، رد كيهات. رفع بصره إلى السماء وقد أصابته قطرتان من المطر على يأفوخه.

«هاهْ»، تمتمت هدلا مستحسنةً. «مَن باعك دجاجتين بليرة ونصف الليرة؟». مدت يديها معاً تتقرَّيان جسدي الطيرين تقديراً لمقدار لحمهما لمْساً.

«بائعة اللحم راحيل» ، رد كيهات .

«أهي الجزارة اليهودية؟» ، سألته أمه ، فرد كيهات :

- نعم .

«اذْبحْ واحدة» ، قالت هدلا . أردفت : «اذبحْها في مجرى جدول الماء إلى حقل الورد» . استدركت : «لا تنسَ ذِكرَ اسم الله وأنت تذبحها» .

«لن أذبح الدجاجة» ، عقَّب كيهات .

صمتت الأم صمتاً تستوضح به رغبةَ ابنها في الإبقاء على الدجاجة . فتح موسى ذراعيه هامساً :

- لا تذبحها ، يا كيهات . انتفْ ريشَها . سنسلق الريش مع البندورة .

«لا تخفْ . لن تأكل ريشاً ، بل شيئاً تشتهيه» ، عقَّب كيهات . مدَّ الدجاجتين إلى أخيه : «احْمِهما من الثعالب حتى أعود» . وضع ساقَيْ كل دجاجة في يد من يدي موسى . مضى إلى غرفته . غاب دقيقة . عاد وهو يخشخش بنقودٍ فُراطة في يديه كوَّرهما على القِطَع المعدن . تسلَّم الدجاجتين من سيقانهما بيد واحدة . وضع النقود في يد أخيه الأصغر : «اشترِ من حانوت البقال أربع علب سردين» .

«سردين؟» ، تمتم موسى مبتهجاً .

تمتمت هدلا بدورها ، لكنْ مستغربةً :

- سردين؟!

«خبز . بندورة وسردين . هذا طعام إمبراطور أثيوبيا ، يا أمي» ، رد كيهات . دفع أخاه من كتفه : «آتِني بسكين» .

غاب موسى برهة في غرفة أبويه . عاد بسكين . تعاون الأخَوان على قطع أغلال الدجاجتين من الورق الدَّبق لصيد الذباب .

مضى كيهات بالدجاجتين إلى القُن يعرِّفهما على مسكنهما الجديد . أطلقهما محتارتين ، مترددتين ، متوجستين ، مستغربتين ، لكن بلا ذعر .

هرع موسى خارجاً عبر البوابة إلى حانوت البقال الحلبي لجلب السردين مستثاراً، وهو يدندن نغماً ليس نغماً، برطانةٍ من كلماتٍ ليست كلماتٍ، بل هي انتشاءُ اللسان من انتشاء القلب.

نقود كيهات، التي ادَّخرها من عمله صيفاً، جاءت بعلب السردين تعويضاً عن صرف نقود أبيه في شراء الدجاجتين. تناول الثلاثة غداءَهم جلوساً على البساط، من حول صحفة حَوَت ثلاثة صحون صغار، في كل صحن حصة واحدهم. العلبة الرابعة، التي لم تُفتح، كانت هدية كيهات لأخيه موسى:

- كُنْ سعيداً بعلبة السردين كسعادتي بالدجاجتين.

«صرتَ قائد جيش من الفتيات الدجاجات»، عقَّب موسى.

«لك جمهورية ممثلي السينما المؤمنين، ولي جمهورية الدجاج»، قال كيهات. أردف: «عائلة واحدة تملك جمهوريتين. مَن مثلنا في هذا العالم؟».

تقاصرت في المدرسة ساعات الدروس باقتراب الثلث الأخير من شهر أيار. الاستعداد للامتحانات النهائية، في مطلع حزيران، يبعث الاسترخاءَ في النظام الصارم من التقيُّد بساعات الدروس، ومواعيد الحضور إلى المدرسة والانصراف منها. استرخاء يشمل المعلمين الذين أنجزوا تلقين تلاميذهم المناهجَ كما هي مقرَّرة في فصول كتبهم، فبات عليهم تمضية ما تبقى من الوقت، حتى حلول موعد الامتحانات، إمَّا صَرْفاً للتلامذة مبكريْنَ، أو اختزال وقت الدروس، وإباحة خروجهم من الغرف إلى ساحة المدرسة أحراراً في تلفيق الإيمان بالحياة فارغةً، وفي تلفيق الإيمان بما بعد الحياة فارغاً لا مدارسَ فيه؛ لا امتحانات؛ لا دول يحكمها حزب واحد: كلُّ وجودٍ بلا مناهج تدريس، وبلا مدارس، وبلا سلطة، وبلا رقابة، وبلا معلمين، هو الوجودَ الفردوس.

في الأيام الأواخر من أيار تمنح المدارس تلاميذها عطلةً يتذاكرون فيها دروسهم للامتحان الذي سينقل تلامذةً من المرحلة الإعدادية إلى المرحلة الثانوية ، التي بلغت لينا السنةَ الأولى منها في عامها ذاك . يجوب التلامذة الدروب الترابية بين الحقول قراءةً في كتبهم ، ماشيْنَ ، أو جالسين ، في الحقول على حدود سنابل القمح والشعير . حياة طليقة في القراءة تحت السماء إنضاجاً للذاكرةِ محْكَمَةً في تدبير الردود على اسئلة الإمتحانات .

فتيات قليلات يخرجن كالفتيان بكتبهن مفتوحة يقرأْنها ماشيات على تخوم الحقول بالخُمُر على رؤوسهن . وهُنَّ إن ظهرن مستذكرات دروسهن في الدروب مشين سرباً صغيراً معاً ، يتحصَّنَّ من مباغتات المشاغبين المراهقين ، أو من تعقُّب المشاغبين لهنَّ بتعليقات عن جمالهن لا يستظْرفْنَها ، أو يخجلن أن يستظرفنها ، فيتصنَّعن استقباحاً للتعليقات .

لينا ـ قطعاً ـ لم تخرج إلى العراء الذي يلي بيت أمها جنوباً ، لقراءة كتبها المدرسية تحت الشمس كما فعل كيهات في أيامه تلك جائلاً على العراء القريب من البيت بكتبه ، متقصداً أن يتجه شمالاً حتى يصير على سوية الشارع الذي يقع فيه منزل راحيل ، ويتجه بعد ذلك جنوباً إلى مطالع حقول القمح والشعير . يجلس على تخوم الحقول مرسلاً بصرَه شمالاً ، في المدى المستقيم الذي يستطيع منه رؤية الداخل إلى منزل لينا والخارج منه .

أخرج مرة ، في جلوسه على حدود الحقول ، ورقته ذات الحروف العبرية ، يختلط كل حرف بما يطالعه من دروسه ، بل يمضي بعيداً في استقصاء نهايات الحروف العربية وبدايات رسومها ، ليعثر على ما يطابق من أجزائها حروفَ كلمته العشرة التي تستجمع كالحصَّادات الآلية ، في خياله ، محاصيلَ اللوعة معروضةً على مساطب زفيره كعروض الخضار

على المساطب في السوق المسقوفة . ساءل نفْسَه إن كان مقبولاً ، معقولاً ، أن يمضي إلى منزل راحيل طارقاً بوابتَه .

«لينا» ، سيقول إن فتحت لينا البوابة . «أتستذكرين دروسك للامتحان؟» .

«نعمَ» ، قد ترد لينا وهي تضم إلى صدرها كتاب الجغرافيا تحديداً .

«ألا ترغبين في الخروج إلى الحقول تطالعين على دروبها كتبك ، يا لينا؟» ، قد يسألها كيهات .

«أفضِّل القراءة ماشية في ساحة البيت . إن حميَتِ الشمسُ دخلتُ الغرفة . كيف تحتمل شمسَ الظهيرة هذه الأيام؟» ، قد تسأله .

سيشير كيهات إلى الوشاح الأبيض المنسلت على كتفيه :

- أغطي رأسي بهذا .

- أتريدني أن أغطي رأسي بوشاح معك في الحقول ، يا كيهات؟

- لِمَ لا ، يا لينا؟

- كيف تستوعب ما تستذكره من مطالعة كتبك في ذلك العراء المفتوح ، يا كيهات؟

- تركيز العقل على ما يقرأ ، في المكان الواسع ، يمكِّنه من استيعابه ، يا لينا .

- المكان الواسع يشتتني ، يا كيهات .

- فلْندخل حقلَ القمح ، يا لينا . فلنجلس في عمقه بين سيقان السنابل . سيصير المكان كما تريدينه ، لا نَرى أبعدَ من الطوق الذي نحن فيه بين السنابل .

- أنستطيع كتبنا هكذا جالسين بين السنابل ، في صمت ، يا كيهات؟

- قد يحدِّث أحدُنا الآخر أحياناً ، يالينا .

- سيشتِّتنا الحديثُ عن حفظ ما نقرأ، يا كيهات .
- لا بأس أن نظلَّ صامتين طوال مطالعتنا كتبنا، يا لينا . حَسْبُنا أن نكون معاً، لا غير .
- لستُ متأكدة أنك ستظل صامتاً، يا كيهات .
- كيف تعرفين ذلك، يا لينا؟
- لا أعرف تحديداً . أنا أخمِّن، يا كيهات .
- ماذا لو سألتكِ سؤالاً يلحُّ عليَّ، يا لينا؟
- ما هو، يا كيهات؟
- ماذا ستفعلين حين تنهين المرحلة الثانوية من دراستك، يا لينا؟
- أمامي خيار واحد، يا كيهات .
- ما هو، يا لينا؟
- لا أستطيع الالتحاق بالجامعة، لكن قد أتمكَّن من الالتحاق بـ «دار المعلمين» في مدينة الحسكة إن سمحت لي شعبةُ الاستخبارات بذلك، يا كيهات .
- ماذا ستفعلين في «دار المعلِّمين»، يا لينا؟
- سأتخرج معلِّمة في سنتين، يا كيهات .
- معلِّمة، يا لينا؟
- نعم، يا كيهات . معلمة .
- ما سيكون اختصاصُكِ كمعلمة، يا لينا؟
- خمِّن، يا كيهات .

عند هذا الحد من المحاورة المتوهَّمة، في خيال كيهات، بينه وبين لينا، ابتسم كيهات من عجزه عن تخمين ما يمكن أن تتخصص فيه لينا المتخرِّجة من «دار المعلمين»، لتدريس تلاميذها . ضحكَ مُذْ سمع في أعماقه صوتَ لينا ينتشله من تشتُّته في تدبير جواب :

- سأتخصَّص في التربية الدينية .

«التربية الدينية؟» ، سألها بصوت أعماقه ، فردت لينا :

- نعم .

«ما الدِّين الذي ستتخصّصين في تدريسه لتلامذتك؟» ، سألها كيهات بصوت أعماقه ، فردت لينا بصوت آعماقه هو وليس بصوت أعماقها :

- الدِّين الإسلامي ، والدين المسيحيِ معاً .

لم يرَ كيهات - في أيام تجوابه العراءَ الذي يقابل ، عن بُعد ، شارع منزل راحيل ، وهو يستذكر دروسه في الكتب - إلاَّ راحيل غادرت مرتين ، وعادت ثلاث مرات . وقد أزعجه أن يرى بنيامين مرة واحدة داخلاً إلى منزلها ، مذ أذعره أن يتخيل الشاب البدوي نبهان قادماً أيضاً لزيارة المنزل .

كانت أيام استذكار الدروس ، مشياً في الحقول بالكتب مفتوحة ، تقترب من نهايتها ، مذ غدت الشمس أكثر فظاظةً في محاوراتها الساخنة . لقد خلت دروب الحقول ، أو كادت ، من التلامذة القرَّاء الماشين . انكفأوا إلى الظلال في دواخل منازلهم ، أو إلى بقايا الظلال من حول أسوار منازلهم . كيهات عاند الشمس بشالٍ أبيض غطى رأسه به ، محتكراً موئله المواجه لشارع بيت راحيل ، على حدٍّ حقل القمح المكتنز السنابل ذهبيةً بأهدابها الذهبية . لكنه وسَّع لنفسه موضعاً داخل الحقل ، بعمق متر ، يفترش السنابل المتقصِّفة من جلوسه عليها بوجهٍ إلى الشمال دائماً : ذاكرته تترصَّد الكلمات في الكتاب المدرسي الذي يطالعه ، وعيناه تترصدان الشارع البعيد شمالاً وراء الأرض العراء ، الوحشية ، العارية ، لم يستثمرها أحدٌ حراثةً أو زراعة .

ذات يوم لمح كيهات ، في الجهة الشمال الشرق من العراء ، على بُعد كبير ، قبل إيوائهِ إلى الثغرة المتقصفة السنابل في العمق البالغ متراً ،

شخصاً عرفه من مشيته في ثوب صيفي من القماش البِيْج ، البني الفاتح على صُفرة رمادية . مشيةٌ متمايلةُ الكتفين إلى اليمين واليسار ، كأنَّ الشخص ثقيل الجسد . إنه زميله رحيم . جسده ليس ثقيلاً . وزنه وطوله يجاوزان قليلاً وزن كيهات وطوله ، لا أكثر . لربما يتعمد الشاب الأسمر ، ذو الوجه المتطاول ، أن يبالغ في تلك المشية المتمايلة كالمصارعين شاهدهم في الأفلام ، ربما .

رأى كيهات ، على بُعد من رحيم ، شخصاً آخر : فتاة في خمار بني ، مفتوحةَ الكتاب في يدها اليسرى . همَّ بمغادرة عرينه بين السنابل إلى لقاء رحيم ، فاسترعتْه التفاتة من رحيم إلى الفتاة ، مشيراً بيده إلى الجنوب إشارة خاطفة ، ثم عاد إلى النظر في كتابِ القفزة إلى خطٍّ من خطوط جبهات الإمتحان .

تراجع كيهات إلى ثغرته بين السنابل ، مبقياً رأسه خارجها يرصد الشخصين . الفتاة تتبع ، عن بُعد مدروس ، الشابَّ المتمايل في مشيه ، بالتفاتات منها إلى الوراء هي التفاتات الحيطة والحذر . سلَكَ رحيم والفتاة الدربَ الضيق ، الفاصل بين حقل القمح وحقل الشعير . تتبَّعهما كيهات ، ملتصق الجانب بالسنابل ، محتاطاً أن يتسلل إلى عمق الحقل كي لا يُلحَظ إنِ التفتا إلى الوراء . بل آثر ، زيادة في الحرص - من توقُّعه أن الفتاة حذرة في مشيها ، وستلتفت إلى الوراء - أن يختبئ دقائق بين السنابل . رحيم والفتاة لن يختفيا حتى لو لم يتعقَّبهما كيهات عشرين دقيقة . الدرب الترابي يُفضي بنهايته إلى مَنْقع الماء الواسع كبحيرة صغيرة تُحْدِثُها أفرع من نهر جغجغ في مسالكه الجنوبية .

«إلى أين هما ماضيان ، على اية حال؟» ، سأل كيهات نفسه بلسان الصمت .

غادر كيهات جوفَ حافة الحقل يتعقب الإثنين وقد اختفيا عن

بصره . لا يهم . بطيئاً أكمل مشيَهُ . لن يختفيا .

بلغ كيهات نهاية الدرب الترابي بين الحقلين الشاسعين ، العاليي ً السنابل . أحنى جذعَه قليلاً يترصَّد البِركة الواسعة كبحيرة صغيرة من تسلل جداول كُثر إلى الأرض الواطئة هناك ، التي يستوطنها مجمَّع من عشرة بيوت سريانية ، تنام أمام أسوار بعضها جرَّاراتُ حراثةٍ بتروسها الحديد .

رأى كيهات الفتاة ماشية على حافة الحوضِ البحيرة ، الغزيرة العشب ، غرباً ، فيما جلس رحيم أرضاً متصنِّعاً القراءة . أربعة جواميس ذوات قرون ثِخان ، معقوفة سيوفاً من عظم ، كُنَّ خائضاتٍ في الماء يبتردن ، ويأكلن رؤوس سيقان نبات بما عليها من ورق عِراضٍ ، منبثّقة على السطح المائي . كانت امرأتان أيضاً خائضتين في الماء حتى ركابهما ، في الضفة الجنوبية من البِركة الشاسعة ، رافعتين ثوبيهما معلَّقيٍّ الحواشي إلى حزاميهما .

رَبَض كيهات في موضعه راصداً . كانت الفتاة كلما ابتعدت عشرين خطوة عن رحيم إلى الغرب ، عادت راجعة إلى الجهة الشرق لتعبره ، عل قربٍ من ظهره ، ملقية إليه كلمة لا يسمعها كيهات .

ظلت المراوحة في عبور الفتاة من وراء ظهر رحيم الجالس ، ذهاباً وإياباً ، على حالها دقائقَ ، قبل أن تركع ، فجاءةً ، إلى الجانب الأيسر من رحيم ، وتدير وجهه إليها بيدها اليسرى فتقبِّله على فمه ، ثم تنهض ماشية تتظاهر بقراءة كتابها المدرسي ، وهي تلقي نظرة إلى المرأتين البعيدتين على الضفة الجنوبية للبركة الواسعة التي ستتحول ، في قَلْيِ الصيف للأرض على صاجها ، إلى مستنقع يعج بالضفادع ، قبل أن يجف المستنقع أيضاً ، وتأوي الضفادع إلى الجوف الرطب للأرض حتى موسم المياه القادم .

أأحس كيهاتُ غيرةً ، أم عصف به الفضول ، فأظهر نفسه ، بلا احتراسٍ ، واضحاً يتقدم على ضفة الماء صوب زميله رحيم .؟

أحنَت الفتاة رأسها في خمارها المنسدل على نصف وجهها العلوي ، تتجنب أن يراها كيهات ، ممعنةً النظرَ إلى صفحة كتابها . جاوزتْه بلا التفات إليه ، فيما اتجه كيهات مباشرة إلى زميله .

على نحوٍ مَّا ظنَّ رحيم أن القادم صوبه هو الفتاة . لم يرفع وجهه عن كتابه . تمتم :

- سأسبح معك في هذه المياه ذات يوم ، يا رُوْزا .

«في الصيف أم في الشتاء؟» ، رد كيهات ، فانتفض زميله رحيم جاثياً على ركبتيه متفاجئاً :

- كيهات؟؟!

«زميلك كيهات» ، أكَّد كيهات .

ألقى رحيم من جانب كيهات الأيمن ، نظرة إلى الفتاة رآها مسرعة في انصرافها ، ثم انعطفت إلى الدرب بين الحقلين شمالاً .

«ماذا تفعل هنا؟» ، سأله رحيم ، فردَّ كيهات :

- أرعى هؤلاء الجواميس .

أدار رحيم بصره إلى الجواميس في الماء ، متتبِّعاً سخريةَ زميله . كرر سؤاله : «ماذا تفعل هنا؟» .

«ماذا تفعل أنت هنا ، يا رحيم؟» ، سأله كيهات . «أزور هذه البركة الكبيرة كل بضعة أيام» . أردف : «لم أرك مرةً هنا . أنت بعيد جداً عن بيتكم» .

استرخى رحيم في موضعه جالساً كحاله قبل أن ينتفض راكعاً على ركبتيه من تفاجُئه بصوت كيهات . أبقى وجهه مرفوعاً إلى منتهكِ سرِّه :

- ماذا رأيتَ؟

جلس كيهات إلى جوار رحيم. قلَّب وجه كتابه الذي يطالعه على فخذه اليسرى. سأله:

- مَن تلك الفتاة؟

حدق رحيم إلى وجه كيهات ملياً يستجمع الكلمات لاعترافه. لكنه لم يستحصل كلماتٍ على لسانه ليردَّ. سحب خيطاً يطوق عنقه من تحت طوق قميصه القطني. بانت نهاية الخيط عن صليبٍ خشبٍ صغير. قبَّله رحيم، ثم أعاده مخفياً تحت صدر قميصه. هأهأ بنبرٍ فخور.

«مسيحية»، عقَّب كيهات. «واسمها روزا».

وقف رحيم يتابع الفتاة بنظرةٍ حسرةٍ، وهي توغل مشياً في الدرب الترابي بين الحقلين. كانت ظاهرة الرأس والكتفين وراء السنابل، ثم اختفت.

«من أين ظهرتَ، يا ابنَ الجن؟»، سأل رحيم زميله بنبرٍ فيه ملامة واستياء.

«مِن الماء»، رد كيهات ساخراً. أردف: «ظهرتُ هنا كما ظهرتَ أنت. جئتُ من الدرب ذاته الذي سلكْتَه بين الحقول، يا رحيم». أدرا وجهه من حوله على مَنْقع المياه الواسع، والبيوت اللَّبِن البناء على المنحدر الخفيف من الأرض، التي ينتهي امتدادها غرباً إلى نواحي المطار: «هذه أرضٌ مشاعة، يا عزيزي».

«لو تأخرتَ نصف ساعة»، تمتم رحيم، ثم عضَّ على غلاف الكتاب الذي في يده. رجع جالساً.

«ماذا كنتَ ستفعل لو تأخرتُ نصف ساعة، يا رحيم؟»، سأله كيهات في خبثٍ.

زفر رحيم. غمغم:

- عوِّضْ عليَّ خسارتي بلفافة تبغ، على الأقل.

«لا تبغ معي» ، رد كيهات .

همَّ كيهات بالنهوض فأمسك به رحيم من بنطاله فوق بطة ساقه : «أتخرج إلى هذه الأرض مطالعاً كتبك من غير تبغ ، يا ابن الجن؟» ، تصنَّع هريراً : «لن أُفلتك حتى لو جررتُك فغرقنا معاً في هذه المياه . أرني لفافة تبغ» .

«معي نصف لفافة تبغ» ، اعترف كيهات .

«أفي كل جيب من جيوبك نصف لفافة تبغ؟» ، سأله رحيم . أردف : «سأرضى بنصف لفافة . هاتِ ما عندك» .

أخرج كيهات من جيب قميصه القماش الرقيق ، البِيْج ، فوق الجهة اليسرى من صدره ، نصف لفافة تبغ مصنوعة يدوياً . أشعلها بعود كبريت . تنشَّق أربع نشقات ، سريعاً ، ملأ بها رئتيه وبعضَ عظامه ، قبل أن يمدها إلى رحيم الظاهر الإستياء من تلك السرقة :

- ماذا أبقيتَ من نصف اللفافة ، أيها العنكبوت؟

«أبقيتُ الكثير» ، عقَّب كيهات . سأله : «منذ متى؟» .

«منذ متى؟ ماذا؟» ، تساءل رحيم .

«أنت وروزا» ، نطَق كيهات اسمَ الفتاة بحروفٍ مرخَّمة .

همهم رحيم ، بلا كلماتٍ ، همهمةَ الفخور بصيده .

حدَّق كيهات جانبياً إلى وجه رحيم المتطاول ، المتلذِّذ بنفث الدخان من فمه . سأله :

- كيف تجرَّأتَ؟

أدار رحيم وجهه إلى كيهات . نفخ بقيةَ دخان من فمه صوب زميله . خبط براحة يده اليسرى على صدره خبطاً رقيقاً . تمتم :

- معي صليبُ الساحر .

تنهَّد كيهات ، متأملاً وجه رحيم بنظرة إعجاب حقاً ، وببعض الحسد

أيضاً . هزَّ رأسه إشارة إلى ما لا يعرف المدخلَ إليه :

- سأفعلها .

«ستفعل ماذا؟» ، سأله رحيم .

«سأدمر قامشلو من مطارها جنوباً حتى ثكنة الجيش شمالاً» ، رد كيهات .

هأهأ رحيم بنبر ساخر :

- هل اشترت قَبيلةُ أبيك بعضَ الدبابات؟

سيبدأ كيهات تدميرَ العالم ، أو ترميم العالم ، أو بناء العالم على أُسس من عضلة قلبه . خطَّط للأمر في الأربعة الأيام السابقة على الامتحان المدرسي الكبير . لقد انكفأ أخيراً عن المطالعة في الحقول ، مذ غدتِ الشمسُ لا محتمَلة في العراء مطْلَعَ حزيران . الإمتحانات على موعد مع القلوب خَفْقاً ، وارتعاشاً ، وارتفاعاً وهبوطاً في الصدور . يومُ الخامس من شهر النكد في تاريخ سوريا كان موعد بدءِ الامتحان الطويل ـ اليوم الخامس ؛ يومُ نزول الحرب عاريةً ، قبل سنة ، لتسرق جلودَ السوريين لباساً لها لن تخلعه في أيِّما فصلٍ من فصول تاريخهم .

حلَّ السبتُ على قلب كيهاتٍ يرجُّه ، ويقرصه قَرْصاً بأصابع قراره الذهابِ إلى بيت راحيل . وقد فعلَها . مضى إلى منزل السيدة اليهودية ظهيرةَ السبت ، الموافقِ الرابعَ من حزيران ـ يوم التمهيد للخسف بالمصائر ونسْفِها ، وتبديلها ، وتعطيلها ، وفتْقِها شقوقاً كباراً ، ثم رتْقِها بخيوطٍ من يأس الإنسان من الأمكنةِ لُعِنتْ ، أو سُرِقت من تحت أقدام الواقفين عليها .

كان قرارُ كيهات المقامر بكل شيء أن يختلس أيةَ دقيقة من الوقت ، ليضع الورقة بحروفها العبرية في يد لينا ، حتى لو تمَّ الأمر من وراء ظهر أمها حاضرةً معهما . خطر له أن تتفاجأ الأم وابنتها بحضوره ظهيرةَ

السبت ، لعرض خدمته عليهما . أبقى الورقة في راحة يده اليسرى مطبقةَ الأصابع عليها . لن يخفيها بعد الآن . ستظهر الحروف حرَّةً ، طليقة أخيراً . لا يهم إن خسرتْ رِهانَها فخابت أو هَنِئَتْ بِرِهانها ففازت . حَسْبُ تلك الحروف أنها ستتنفس عميقاً قبل انطلاقها حرَّةً إلى تشييد مصير لكيهات ، أو ستتنفس عميقاً قبل أن يُغمى عليها صريعةً بعد سقوط رهانِ كيهات عليها في الفوز بلينا ، أو الفوز برضى لينا عن مشاعره ، أو الفوز بفهم لينا لحاله حتى لو لم تبادله مشاعراً بمشاعره .

ماذا لو أرتْ لينا أمَّها الورقةَ؟ لا يهم .

كيهات ذاهب في يوم السبت ذاك ، إلى امتحانٍ سيعقبه في غده الأحد امتحانٌ آخر . إن خرج من امتحانه الأول مكسورَ القلب ، لن يهمه أن تتقوَّض السطورُ في أسئلة الإمتحانات أمام عينيه ، أو تتناهَشَ السطورُ كأفاعٍ متلوِّيةً ، مسعورة ، موتورةً ، ناقمة .

شَارعان ، لا غير ، ثم انعطافةٌ إلى الجنوب صار بها كيهات على السوية المستقيمة إلى منزل راحيل .

صُعِق : ثلاثة رجال من استخبارات الدولة بقمصانهم المرخاة على مسدساتهم ، وبنظاراتٍ سودٍ على العيون . رجلُ الطربوش الأحمر . ثلاثة رجال وامرأة من الواضحين يهوداً في مظهرهم ، والشاب البدوي نبهان . كلهم كانوا أمام بوابة بيت راحيل المفتوحة . تجمَّد في موضعه من مطلع الشارع . تسرَّبت ريحٌ إلى شريط النخاع الشوكي في فِقَر عظام ظهره . انشدَّ كلُّ عصب فيه كوتر في قوس . ذابت الغضاريف في كل موضع من مفاصله ، بين العظام ، فتساحقت العظامُ بصرير كصرير مفاصل الأبواب العتيقة . تراخى جلده على لحمه مُفسحاً لرملٍ مَّا أن ينزلق بين اللحم والجلد . كذَّبتْ عينُه اليمنى ما ترى عينُه اليسرى . المستحيلُ - الذي لم يتفكَّر فيه نبضُ قلبه االقويِّ الإيمان بشارع منزل راحيل - غدرَ بالمستحيل .

همَّ كيهات بالتراجع عن مساره في الشارع المستقيم عَوْداً من حيث جاء . خذلتْه قدماه . سارتا به صوب منزل راحيل .

بلغ كيهات الرهطَ المجتمع أمام البوابة . لم يتوقف . عَبَرَهم مكملاً سيره صوب العراء بوجهٍ مُطرِق أرضاً . شدَّه صوتٌ يعرفه كيدٍ تشده من ظهر قميصه :

- هِهْ . يا بطل .

هو صوت نبهان في ثيابه الصيفية البِيْجْ ، ونظارته السوداء ، مع انتفاخ تحت قميصه المسدل على بنطاله : إنه الإنتفاخ الظاهر حول خصور رجال المخابرات الآخرين من قهقهات مسدساتهم في أغمادها تحت القمصان .

توقف كيهات . استدار إلى نبهان صامتاً ، متوجساً ، ممزَّقَ الخيال .

تقدم منه نبهان نصف خطوة . سأله :

- كأنك كنتَ قادماً إلى هذا البيت .

تلكأ كيهات في استحضار جواب من انقباض لسانه .

بادره نبهان بسؤال ارتجف من سخريته جلدُ قُلَّة رأسه :

- أأنت يهودي؟

شهق كيهات :

- لستُ يهودياً .

التفت نبهان إلى رجال الاستخبارات الثلاثة . ابتسم لهم :

- هذا البطل ليس يهودياً .

بادله الثلاثة الآخرون ابتسامات ، إلاَّ صاحب الطربوش ، الذي استرسل في أسئلته ألقاها همساً على الأربعة اليهود أمام البوابة .

استكمل نبهان سخريته المؤلمة . سأل الشابَّ المتشقِّقَ الإيمان ، في برهته تلك ، بكل شيء :

- أتعرف أصحاب هذا البيت؟

«نعم» ، رد كيهات بصوت جافٍّ خَمَشَ حنجرتَه .
«كيف تعرفهم؟» ، سأله نبهان .
«أنا جارهم . أسكن على بُعد شارعين من هنا» ، رد كيهات .
تأمله نبهان متفحصاً بنظرة شامتة . سأله :
- ما علاقتك بهم؟
«نشتري اللحم أحياناً من الستِّ راحيل» ، رد كيهات .
تطلع نبهان إلى رجال الاستخبارات . رفع صوته :
- أتسمعون؟
«نسمعه» ، رد أحد الرجال ذو النظارة السوداء ، والشارب الأسود الثخين .
«هذا البطل يشتري لحماً من يهود هذا البيت» ، قال نبهان . التفت إلى كيهات يسأله سؤالاً عضَّ على قلب كيهات بسخريته :
- ممن تشتري اللحم؟
«مِن الست راحيل» ، رد كيهات .
التفت نبهان بشكل ساخر إلى رجال الاستخبارات ، وصاحب الطربوش :
- أسمعتم ، يا رفاق؟
«سمِعنا» ، رد أحدهم في ملل .
أعاد نبهان التحديقَ المحاصِرَ من وراء نظارته إلى كيهات . تصنَّع استغراباً على ملامحه :
- هل التقيتك في مكانٍ مَّا ، يا بطل؟
«نعم . هنا» ، ردَّ كيهات .
«أين؟» ، تساءل نبهان وهو يرفع نظارته عن عينيه .
«هنا . في منزل الست راحيل» ، ردَّ كيهات متقوِّض الصوت حقداً ،

وغضباً ، لا تتجرّأ عيناه ، أو صوته ، على استظهارهما ، في الموقف المعذِّب مرارةً بسخريته .

قهقه نبهان . استدار إلى الآخرين . كلمهم بصوته الخشن ، البدويِّ اللهجة :

- أتسمعون؟ التقيتُ هذا البطل هنا ، في هذا المنزل .

حدق رجال الاستخبارات إلى كيهات في استغراب . حدّق إليه صاحب الطربوش أيضاً . هزَّ شفته العليا مطًا بها إلى أسفل بشاربيه الرفيعين ، الأسودين . سأله بصوت فيه غرغرة :

- أأنت خائف ، يا ولد؟

لم يعرف كيهات ما الجواب الأفضل . ظلَّ صامتاً .

مدَّ نبهان يده اليمنى صوب كتف كيهات اليسرى . نفض بأنامله عن قميصه غباراً غير موجود :

- ماذا كنتُ أفعل هنا ، في هذا المنزل ، يا بطل؟

«تخدم اليهودَ مثلي أحياناً» ، رد كيهات .

«أخدمُهم؟!» ، أبدى نبهان استغراباً مستهجِناً ، لكنْ بنبرٍ متهكِّم . ضحك :

- يا رفاق . كنتُ أخدم يهود هذا البيت .

«بِمَ كنتَ تخدمهم ، يا رفيق؟» ، سأله أحدُ الاستخبارات . ألوى فمه إلى اليسار بإشارة خبيثة .

ربت نبهان على كتف كيهات براحة يده في استخفاف :

- ما اسمي ، يا بطل؟

«نبهان» ، ردَّ كيهات تمتمةً من انكساره .

تصنَّع نبهان حيرةً :

- كيف اخترت لي هذا الإسم الرائع؟

«هذا هو اسمك، أيها السيد نبهان»، رد كيهات.

ضحك اثنان من رجال الاستخبارات استظرافاً. عقَّب أحدهم على ردِّ كيهات مقترباً من نبهان:

- لو سمَّاك أبوك بهذا الإسم، أيها الرفيق حوَّاس، لغِرْتُ منك.

«حوَّاس؟»، تمتم كيهات مُضعْضَعَ النبرِ في صوته المهترئ من فظاظة الحيلة الواضحة، الطاحنة يدفعه نبهانُ إليها.

«اخترتَ لي اسماً رائعاً، يا بطل. ماذا لو اخترتُ لك اسماً رائعاً؟»، سأله نبهان، فرد كيهات:

- اسمي كيهات.

«كيهات؟!»، تمتم نبهان مستقبحاً. نظر إلى أصحابه الاستخبارات: «اسمه كيهات. أسمعتم اسماً كهذا قبلاً في تاريخ دولتِنا؟»، أردف: «من أين هذا الإسم؟».

«كردي»، ردَّ كيهات.

التفت نبهان بالطريقة البليدة ذاتها في التفاتته إلى رفاقه من استخبارات الدولة:

- هذا البطل كردي. يشتري اللحم من الست راحيل اليهودية.

نكَّس كيهات رأسه.

أخرج نبهان لفافة تبغ من علبة أنيقة، مربعة، ذات ورق مقوًّى. مدَّها إلى كيهات.

نظر كيهات إلى اللفافة. تردَّد لحظة، ثم مدَّ يده ليتسلمها، فسحب نبهان يده باللفافة فيها مُهأْهِئاً.

زفر كيهات من الحركةِ ـ المزاحِ المُحتقِر في فعل نبهان. تمتم:

- أأستطيع الانصراف؟

«ما اسمي؟»، سأله نبهان.

«لم أعد أعرف يا سيد نبهان» ، رد كيهات .

«يا للغبي» ، تمتم نبهان . أردف متسائلاً بنبرٍ فظٍّ : «ما اسمي؟» .

«حوَّاس» ، رد كيهات .

«حوَّاس؟» ، تمتم نبهان . أدار وجهه إلى رفاقة من رجال الاستخبارات . أردف : «يناديني هذا البطل باسمي عارياً» .

«يا رفيق حوَّاس» ، قال كيهات مستدركاً أن يُرْفِقَ باسم الشابِّ البدوي لقباً فيه نبرُ الاحترام . أردف مكرراً توسُّلَه إلى نبهان : «أأستطيع الإنصراف الآن؟» .

«نعم . نعم . بالتاكيد ، يا بطل» ، ردَّ نبهان .

كاد كيهات يستدير إلى الجهة الشمال لينصرف فاستوقفه نبهان :

– خطر لي سؤال صغير ، يا بطل ، قبل أن تنصرف . أعلم أنك تعرف جواباً عليه .

«ما هو؟» ، سأله كيهات .

«بيتكم قريب من هذا الشارع ، أليس كذلك؟» ، سأله نبهان الذي له اسمٌ آخر .

«نعم» ، رد كيهات .

«أرأيتَ حميراً تخرج من هذا الحيّ؟» ، سأله نبهان .

«حمير؟!!» ، تمتم كيهات طائشَ الفهم . أردف : «لم أفهم» .

«أرأيتَ حميراً في حياتك؟» ، سأله نبهان ، فرد كيهات :

– نعم .

«أرأيتَ حيوانات من النوع الحمار ، الطويلات الآذان ، الصبورات على الأحمال ، الخبيرات في أشعار التغزُّل بالبغال؟» ، سأله نبهان .

صمتَ كيهات ضائعاً في متاهِ سؤال نبهان عن حميرٍ هُنَّ حمير ، وحميرٍ شعراء في التغزُّل بالبغال .

«ماذا؟» ، سأله نبهان إذ رآه صامتاً .

«نعم . رأيت حميراً» ، رد كيهات .

«حسناً» ، عقَّب نبهان . أضافَ : «أرأيتَ حميراً تخرج من هذا الحيِّ؟» .

«لم أرَ حميراً تدخل هذا الحيِّ أو تخرج منه» ، ردَّ كيهات مقطِّباً حاجبيه من الذلِّ استشعره في ذلك الموقفِ المِطْرقة .

«عنيتُ حميراً على ظهورها يهود هاربون» ، عقَّب نبهان .

التزم كيهات الصمتَ من تلك السخرية الجامحة .

تقدم رجل من الاستخبارات صوب كيهات ونبهان ، مستظرفاً المحاورةَ . تساءل :

- ربما رأى هذا الولد طائرة عمودية تحطُّ هنا ، وتنقل يهوداً .

«هِهْ» ، تمتم نبهان مستلطفاً تلك الإضافة الساخرة . نظر إلى كيهات :

- أرأيتَ طائرة عمودية تحطُّ هنا؟

تنهَّد كيهات مجروحَ الأعماق من صَدْم السخرية المسنونة كلَّ عضلة فيه . لم يتكلم .

«لا . لم يرَ هذا البطل طائرة عمودية ، أيها الرفيق» ، عقَّب نبهان .

اقترب شخص آخر من رجال الاستخبارات إلى حيث الحلقة الساخرة ، الجذَّابة كالضوء لفراشات الهُزْء . تساءل مستعرضاً نباهتَه في الظرافة :

- ربما رأى غواصة صهيونية ترسو على الشاطئ هنا . أرأيتَ غوَّاصة ، يا ولد؟

تعانقت الحروفُ مختنقةً في حنجرة كيهات . خذله صوتُه . ظلَّ صامتاً .

عاد أحد رجال الاستخبارات إلى نبش خياله على سخرية أكثر احتقاراً. سألَ كيهاتَ:

- أرأيتَ غواصة بريطانية ترسو هنا لتهريب اليهود، يا ولد؟

لم يتكلم كيهات.

استرسلَ الذي سألَهُ:

- غواصة بريطانية عليها علم بريطانيا. أتعرف عَلَمَ بريطانيا؟

لم يرد كيهات.

«مَن يتذكر عَلَمَ بريطانيا، أيها الرفيق؟»، سأله أحد أصحابه.

«هذا الولد قد يتذكر علم بريطانيا»، ردَّ صاحبه.

«لماذا هو؟»، سأله رفيقه.

«لأنه كردي»، ردَّ الآخر.

بدا الموقف مستنفدَ الطرافة من اجتماع رجال الاستخبارات حول كيهات يتبارون في السخرية. تفرَّقوا عنه صوب صاحب الطربوش، الذي كان متمادياً في استنطاق اليهود الأربعة عن اختفاء صاحبة المنزل وابنتها. تدخَّل واحد منهم في الموقف مخاطباً الثلاثة الرجال والمرأة:

- سامحوني. سأسألكم سؤالاً كصديق مواطن، وليس كرجل استخبارات: ما الطريقةُ المُثلى لهربِ يهودٍ من غير أن يحسَّ بهم أحد؟

تبادل اليهود الأربعة النظراتِ منكسرةً، صامتين.

«بنتُ الأوغاد، ساكنةُ هذا البيت هربت»، قال أحد الاستخبارات. استطردَ: «كيف هربتْ؟». استدار إلى كيهات ممعناً في مُراكمة سخرية سابقة: «هِهْ، يا ولد. ألم تسمع، في إحدى الليالي، صوتَ قطار يقف على قرب من بيوتكم؟».

«قطار؟!»، تمتم كيهات.

«نعم . . قطار . له مــقطوراتٌ تسَعُ الحيَّ اليــهــودي كله» ، ردَّ رجل الاستخبارات المتظارف .

صمت كيهات .

«أرأيتَ قطاراً قطُّ؟» ، سأله رجل الاستخبارات ، فرد كيهات :

- رأيتُ قطار الشحن .

انفصل صاحب الطربوش عن اليهود الذين استنطقهم . سمع بعضَ المحاورات بين رجال الاستخبارات وكيهات فاستطابها . خلع طربوشه عن شعر قصير جداً . لوَّح بالطربوش كالمروحة فوق رأسه يبترد من سخونة الظهيرة :

- هناك من يعلِّم اليهود السحرَ في هذه المدينة . إنهم يفتحون أبواباً سحريَّة في الهواء ويختفون .

«ربما اهتدوا إلى تفصيلِ قبعاتِ إخفاء» ، عقَّب أحد الاستخبارات ، فعقَّب رفيقٌ آخر له على تعقيبه :

- بل اهتدوا إلى نَسْج بُسُط الريح .

نفث نبهان دُخانَ لَفافته الفخمة صوب الأفقَ ، أعلى من رأس كيهات . مدَّ إليه ما تبقَّى من اللفافة .

لم يتحرك كيهات لأخذها .

ابتسم نبهان . تمتم وهو يعيد بقية اللفافة إلى فمه :

- بطل عنيد . لا يقبل الهوان ، ولا يتنازل .

«أأستطيع الإنصراف؟» ، سأله كيهات .

استدار نبهان إلى أحد رجال الاستخبارات الأرفع رتبةً ، في الأرجح ، بين رفاقه . سأله وهو يدير وجهه على اليهود الأربعة ، مع إشارة إلى كيهات بيده اليسرى :

- ماذا نفعل بهؤلاء ، أيها الرفيق سِرَاج؟

كان الرجل الأطول بين رفاقه ينتظر ، ربما ، تنبيهاً لإنهاء الاستنطاق ، واضحَ الضجر في الظهيرة موقدةً حَطَباً أكثر تحت صاجها . سألهم بلا تحديد : «أيعرف أحد منكم شيئاً؟» . ردَّ بنفسه على سؤاله في عجل : «لا أحد يعرف شيئاً» . كشَّ عليهم بيديه ككَشِّ الذباب عن صحنِ حلْوى . هتف بهم : «طِيروا» .

هرع الأربعة اليهود صوب شمال الشارع تخفق ثيابهم من اندفاعهم مُطْلَقي السراح أخيراً . هرع كيهات أيضاً متوجهاً بثقل حيرته ، وخوفه ، وخذلانه ، وانكساره ، إلى العراء جنوباً تحت الشمس القوية . جاوزَ نهايةَ الشارع الإسفلت المتفلِّعة ماشياً في الأرض التراب جافةً كجفاف لسانه . استدار إلى الوراء . رأى نبهان منصرفاً مع الآخرين إلى مركبتهم . لكن نبهان استدار بدوره إلى الوراء . لوَّح بيده اليسرى لكيهات ، فانعطف كيهات من فوره غرباً ، يحيد بنفسه عن مرمى بصر الشاب البدوي . بلغ مستوى الشارع الآخر ، الموازي ، فانحجب عن شارع منزل راحيل .

توقف كيهات مجروحاً . بيتهم قريب . شارعٌ آخر ويصير على سوية موقع منزلهم . تطلَّع صوب الجنوب الغرب من نهاية الأرض العراء ، الوحشية بشوكها الضروس الضاري . كانت حصَّادة آلية صفراء ، من نوع CaTerpillar تخوض غمار حقل صغير الأبعاد من حقول الشعير ، الناضج السنابل يسبق القمح نضوجاً . كان مؤخَّر مروحتها الواسع ، الخلفية ، تنفث القشَّ متطايراً تنْقيةً لحبوب الشعير من القش في الحصاد . يطير القش فيُجمَع فيما بعد عَلَفاً ، ويركُد حَبُّ الشعير في المصفاة الكبيرة الثقوب يعلِّق أحدُ العمال كيس الخيش الكبير إليه . فإن امتلأ الكيس علَّق كيساً آخر من فوره ، بدُرْبة المهارة العجولة . يخيِّط فم الكيس بالخيوط القنَّب . يزحلق الكيس من المُنزَلَقِ الصفيح الواسع ، المنحدر من المصفاة صوب

الأرض . ينزلق الكيس فيرقد أرضاً ، حيث سينقله العتالون إلى سيارات «بيك أب» كيساً كيساً ، لأخذها إلى أماكن تجميع تتولى شاحناتٌ ، فيما بعد ، نقلها من هناك إلى المستودعات .

اتجه كيهات ، بعفوية من إرشاد جرحه له ، صوب حقل الحصاد . عشر دقائق ، أو أقل ، استغرقه الوصول إلى حدود الحقل المحصود . كان أناسٌ قد حضروا بشالات واسعات معهم يجمعون بعضَ القش لحيواناتهم فيها ، ويعقدونها صُرَراً مرفوعة فوق الأكتاف والرؤوس . عمالٌ كانوا يتبعون الحصَّادة الصفراء ، المستعارة إسماً من يرقة الفراشة : جسمٌ حلقاتٌ تنقبض وتنبسط . لا أقدام للحشرة كأقدام الأسْروْعِ ، لكنها تندفع زاحفةً بالحركة الدُّودية للرخويَّات اللواتي بلا أرجل .

إنها حصَّادة ، مثلها ككل الحصادات الأمريكية ، لن يُجدَّد استيرادها إلى سوريا . لونٌ أصفر لن يُجدَّد استيراده . معدن أصفر لن يُجدَّد استيراده .

أخرج كيهات ورقته بالحروف العبرية فيها من جيب بنطاله .

فتحها . تأمل الحروفَ نازفاً نزيفَ الماءِ عَكْرَةً في المجرى الموحل .

نَشَج كيهات .

تمالك نفْسَه فلجم الصوت في مخارج قلبهِ الكهف .

جلس أرضاً على التراب الساخن .

نَكَتَ الترابَ بسبابة يده اليمنى .

مضغَ الورقة الصغيرة بين أسنانه فجعلها عِلْكةً .

وضع الورقة المعلوكة في الجورة الصغيرة التي استحدثَها في التراب .

ردمَ التراب عليها .

ضمَّ فخذيه إلى صدره مطوَّقتين بذراعيه .

حدَّق إلى البعيد البعيد فوق مستوى رؤوس السنابل .

دَنْدَنَ كلمة «سوريا» مقطَّعةً على نَغَم مُرْتَجل : «سو . ري . يا» .
شهق شهيقاً خفيفاً أعْقبَهُ بزفيرٍ مديدٍ .
بكى كيهات .

غابة سْكوغوس
مملكة السويد
٢٠١٨ ـ ٢٠١٩